بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام

ابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

جمعه وخرج أحاديثه
يسري السيد محمد

راجعه ونسق مادته ورتبها
صالح أحمد الشامي

طبعة جديدة منقحة

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

الطَّبْعَةُ الأُولَى

رمضان ١٤٢٧هـ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنَقَّحَةٌ

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ -
جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام

ابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

جمعه وخرج أحاديثه

يسري السيد محمد

راجعه ونسق مادته ورتبها

صالح أحمد الشامي

طبعة جديدة منقحة

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

ابن الجوزي

التاريخ ٥ / ٩ / ١٤١٤هـ

/ / ١٩٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أقر أنا / يسري السيد محمد (مصري الجنسية) أنني

قد بعت حقوق نشر وطبع كتاب "بدائع التفسير"

للناشر الأستاذ / سعد فواز الصميل "

وليس لأحد غيره حق نشره أو طبعه

أو أخذ قطعة منه و[illegible]

واستلمت جميع الحقوق

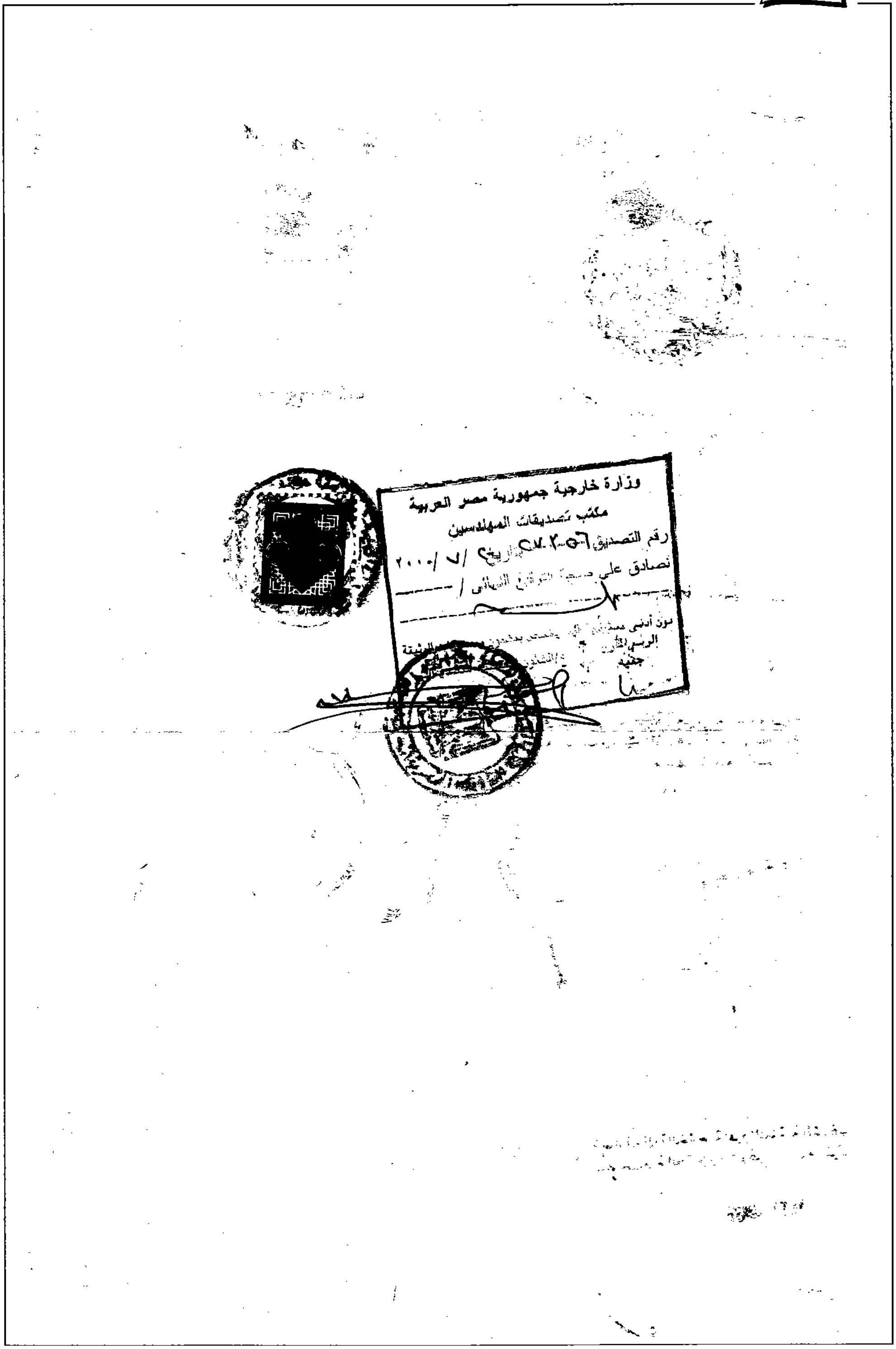
المقر بما فيه   يسري السيد

صاحب دار ابن الجوزي
سعد بن فواز الصميل

توقيع

الدمام
شارع ابن خلدون - تلفون ٨٤٢٨١٤٦
فاكس ٨٤١٢١٠٠ ص.ب ٢٩٨٢

صورة الصفحة الأولى من العقد بين دار ابن الجوزي ويسري السيد محمد


وزارة خارجية جمهورية مصر العربية
مكتب تصديقات المهندسين
رقم التصديق
نصادق على
الرئيس
جنيه

صورة الصفحة الثانية من العقد بين دار ابن الجوزي ويسري السيد محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

(مقدمة الطبعة الثانية)

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

يعدُّ الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ أحد أعلام المسلمين المكثرين من التأليف.. وتناولت كتاباته فنوناً شتى.. وكانت له يد طولى في تفسير القرآن الكريم، ولكنه لم يؤلف كتاباً في ذلك.

وما فسَّره من آيات الذكر الحكيم جاء في كتبه المتعددة، فتارة يقتضيه البحثُ تفسيرَ آية، وتارة بعض آية، وتارة عدَّة آيات.. فجاء التفسير عرضاً ولم يقصد إليه. اللَّهم إلا في تفسير «المعوذتين» حيث قصد إلى ذلك، فوضع العنوان الواضح «تفسير المعوِّذتين» وتناول شرحهما بشكل مفصَّل.. وختم ذلك بقوله:

«فهذا ما مَنَّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنَّة، وعسى الله أن يساعد بتفسيرٍ على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين».

وقال مثل ذلك في آخر تعليقه على سورة «الكافرون»، ولم يقصد إلى تفسيرها، وإنما جاء الكلام عنها خلال حديثه عن «ما» في قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾.

على أن ما شرحه من الآيات الكريمة شيء كثير، وقد قدَّره الأستاذ الشيخ بكر أبو زيد بخمسة مجلدات فقال:

«وكتابته على مواضع متفرقة من القرآن. هي من خلال كتبه المطبوعة تقع في نحو خمس مجلدات فيما يظهر حسب التتبع.

وقد قام الشيخ محمد أويس الندوي بجمع ما وقف عليه في مجلد واحد وسمَّاه: «التفسير القيم للإمام ابن القيم».

وهو عمل مشكور، لكنه لم يستوف ولم يقارب»[(١)].

وقد يسَّر الله تعالى للأستاذ الشيخ يسري السيد محمد جمعَ التفسير الوارد في اثنين وثلاثين كتاباً ـ وهي الكتب المطبوعة ـ من كتب الإمام ابن القيم، والتي قارب عدد مجلداتها خمسين مجلداً.

وتم طبع هذا الجمع من قبل دار ابن الجوزي، وصدر في خمس مجلدات تحت عنوان «بدائع التفسير».

وقد زارني الأستاذ سعد بن فواز الصميل ـ صاحب الدار ـ وحدثني عن رغبته في إعادة النظر بالكتاب ومراجعته. وذلك إعداداً لإعادة طبعه بعد نفاد طبعته الأولى.

ورأيت من واجبي أن ألبِّي طلبه، باعتبار هذا العمل جزءاً من المشروع الذي قطعت شوطاً منه، وهو: «تقريب تراث الإمام ابن القيم» والذي صدر منه حتى الآن خمسة عشر كتاباً.

وأستطيع ـ بعد إنجاز العمل ـ أن ألخِّص عملي بالنقاط التالية:

١ ـ ضبط النصوص وتصحيح الأخطاء الواقعة فيها، وهي كثيرة، وكان لا بدَّ من الرجوع إلى الأصول التي هي مراجع هذه النصوص.

٢ ـ تحرير النصوص مما لابسها، وذلك أن ابن القيم رحمه الله لم يقصد إلى تفسير هذه الآيات التي جُمِعَتْ، وإنما تناولها عرضاً في السياق الذي وردت فيه، فهي جملة في نص، لها ارتباطها بما قبلها وما بعدها.

والذي يبدو، أن حرص الشيخ يسري على الأمانة في نقل النص، جعله يقتطعه اقتطاعاً ـ كما هو ـ الأمر الذي يفسر لنا الغرابة الشديدة التي يجدها القارئ عند رجوعه إلى كثير من الآيات، حيث يواجهه كلام غير مفهوم. . وقد يجد ذلك عند نهاية النص، حيث يجد نفسه أمام كلام لا صلة له بالنص المفسر[(٢)].

وإزاء هذه الحال، كان لا بدَّ من بذل الجهد لتحرير النص مما لابسه وخالطه، إما في أوله، وإما في آخره، أو فيهما، وذلك بالاقتصار على النص «المفسَّر» حتى لا يكون القارئ في حيرة من أمره.

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية (١/ ١٩٤).

(٢) وانظر على سبيل المثال في الطبقة الأولى (١/ ٤٩٨): ما جاء أول النص السطر (١١)، وما جاء آخر النص (١/ ٤٩٧) السطر (١١ و١٢)، وما جاء (١/ ٥٠٦) السطر (١٥)، حيث جاء قوله: «كما قيل» ولم يأتِ بالقول. . والأمثلة كثيرة.

وقد يسر الله سبحانه لي ذلك، مع الحرص الشديد على عدم التدخل في النص، وما هو إلا إعمال الفكر في فهم النص.. والوقوف على مفاصل الكلام، وتخليص النص مما جاوره.

٣ ـ على أن هذا الجهد لم يكن مفيداً في معالجة بعض النصوص، لشدة ارتباطها بما قبلها وما بعدها، فكان لا بد من الاستعانة بإضافة بعض الكلمات التي تعرِّف القارئ بالسياق الذي جاء به الشرح، وما أضفته من كلمة أو أكثر جعلته ضمن حاصرتين [ ] التزاماً بأمانة الحفاظ على النص.

٤ ـ وفي مقابل ذلك جاءت بعض النصوص مبتورة، إما من أولها أو من آخرها، بحيث أصبح الكلام غير مفهوم، فكان لا بد من استكمال هذه النصوص، بالرجوع إلى أصولها[1]..

٥ ـ كثير من النصوص نقلت كما هي من أصولها بعناوينها وفصولها المتعددة.. وهذا كثير منتشر في الكتاب من أوله إلى آخره، وأول ما يطالعنا من ذلك ما يتعلق بسورة الفاتحة حيث تم نقل الصفحات (٧ ـ ١٢٢) من الجزء الأول من كتاب «مدارج السالكين»، كما هي، وفي سورة البقرة نجد عناوين مثل «تلاعب الشيطان باليهود».. «وجوب اتباع الصحابة»، وهكذا جاءت الموضوعات كما هي في أصولها؟!

فكان لا بد والحالة هذه من بذل الجهد لاستخلاص ما يتعلق بالتفسير..

٦ ـ جاء خلال تفسير بعض الآيات «استطراد»، وهذا الاستطراد ـ في الغالب ـ له علاقة بالبحث الذي جاءت الآية ضمنه، فهو استطراد بالنسبة للآية، لا للبحث، وفي هذه الحالة لا بد من حذفه، وأما الاستطرادات التناسبية التي هي ذات علاقة بتفسير الآية، فإني أثبتها، وفي بعض الأحيان أنقلها إلى الحاشية.

٧ ـ بما أن الجمع تمَّ من كتب متعددة، فقد جاء نصيب بعض الآيات وافراً من التفاسير، حيث تكرر شرحها في أكثر من كتاب. وقد تصل هذه النصوص المفسِّرة للآية الواحدة إلى أربعة أو خمسة..

---

(١) ومثال ما بتر أوله: (١/ ٣٨٤) عند الآية (١٨٣) من سورة البقرة، و(٢/ ١٤٧) الآية (٣٣) من الأنعام، و(٢/ ٢٥٩) الآية (٨٠) من الأعراف، و(٣/ ٦٧) الآية (١٢٧) من النحل، و(٣/ ٣١٥) الآية (٧١) من الفرقان.. ومن أمثلة ما بتر آخره (٥/ ٣٦٩) آخر السورة.. كما جاء في الطبعة الأولى.

فكان لا بد من دراسة هذه النصوص. فإن كانت تصب في موضوع واحد، اقتصرت على الأوسع نصاً والأشمل معنى، وإذا كان كل نص يطرق جانباً لم يطرقه الآخر، فإني أثبتها جميعاً، بعد ترتيبها حسب أولويتها في تناول النص المفسَّر.. والغاية من ذلك التخلص من التكرار، توفيراً للوقت على القارئ..

وكثيراً ما جاءت النصوص متطابقة..

٨ ـ في بعض السور لم يُراعَ ترتيب الآيات حسب ورودها في السورة، فعملت على التزام ذلك، ونتيجة لذلك فقد تم نقل أكثر من أربعين نصاً من أماكنها إلى حيث ينبغي أن تكون.

٩ ـ اعتُمِدَ في تخريج الأحاديث على ذكر الكتاب والباب، مما أطال الحواشي، فرأيت أن أقتصر على ذكر رقم الحديث، وذلك فيما يتعلق بالصحيحين أو أحدهما، فهو أيسر على القارئ.

١٠ ـ في أحيان قليلة كان الإمام ابن القيم يتناول الآيتين من السورتين بتفسير واحد، فرأيت أنه من المستحسن الإحالة في الآية الثانية على الآية الأولى حيث ذُكِرَ التفسير.

١١ ـ تمَّ توحيد طريقة العرض للنصوص. حيث يوضع نص الآية المفسَّرة، يسبقه جملة «قوله تعالى»، ثم يأتي الشرح بعد ذلك.

يستثنى من هذه الطريقة «الفاتحة» و«المعوذتان».

أما الفاتحة فلا نجد لها عند الإمام ابن القيم تفسيراً بالمعنى التقليدي، وذلك مع كثرة النصوص الواردة بشأنها. فرأيت أن أختار أقرب النصوص ليكون تفسيراً، وجمعت بقية المادة في فصول[1]، كل منها يتناول جانباً منها، بعد أن كانت في الطبعة الأولى تحت ما يقرب من سبعين عنواناً.

وأما المعوذتان، فقد رأينا أن المؤلف قصد إلى تفسيرها، ونظراً لكثرة الأفكار المطروحة في الشرح رأيت أن أضع عناوين جانبية، تسهل على القارئ الوقوف على مطلوبه، ولم أتدخل في الفصول والتقسيمات التي وضعها المؤلف.

---

(١) وقد أفدت من ترتيب تفسير سورة الفاتحة بهذا الشكل، من جهودي في تهذيبي لكتاب مدارج السالكين.
وبما أن هذه الفصول ليست تفسيراً بالمعنى التقليدي، فقد رأيت أن أضعها تحت عنوان عام هو: «قبسات من إيحاءات سورة الفاتحة».

١٢ ـ وضعت بين كل آيتين ثلاث نجوم صغيرة، حتى يسهل على القارئ الوصول إلى الآية المطلوبة.

وإذا كان تفسير الآية طويلاً، يتناول أفكاراً متعددة. فإني أضع فاصلاً بين هذه الموضوعات، وهو عبارة عن ثلاثة مربعات صغيرة.

١٣ ـ جاءت الطبعة الأولى حافلة بالنصوص الطويلة، التي يصل بعضها إلى صفحتين أو أكثر، الأمر الذي يتعب القارئ، فرأيت تقسيم هذه النصوص إلى فقرات، فذلك مما يريح العين، ويعين على الفهم.

١٤ ـ تمَّ استدراك أكثر من مائة نصٍّ، معظمها في تفسير آيات لم تفسر في الطبعة الأولى، وبعضها في استكمال تفسير آيات سبق تفسيرها، وقد وضع كلٌّ منها حيث ينبغي أن يكون.

١٥ ـ اخترت للكتاب مقدمة من كلام المؤلف تتناسب مع موضوعه.

وبعد: فهذا ما يسر الله عمله في مراجعة هذا الكتاب القيم، راجياً أن أكون قد أسهمت في تقريب تراث هذا الإمام إلى القارئ الكريم، موفراً له الجهد والوقت.

والله المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

٥ شوال سنة ١٤٢٦هـ
٢٠٠٥/١١/٧م

وكتبه
صالح أحمد الشامي

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم أجمعين رسوله الخاتم الداعي له.

وبعد:

فمما لا شك فيه ولا يجحده إلا ميت القلب مظلم العقل غائب أو مغيَّب الوعي، أن بشائر النور قد هلَّت وشمس الشريعة قد أشرقت وحدائقها أثمرت شباباً صالحاً انتبهوا من سبات طويل أريد بهم، وليل مظلم أحاطهم، وشهوة خالطت قلوبهم، وسكرة أَلَمَّتْ بعقولهم.

انتبهوا على صوت صحوة، أن هلموا إلى ربكم، فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، هذه اليقظة هي عودة حميدة مباركة إلى دينهم. الذي هو حصنهم المنيع ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فراراً إلى ربهم سبحانه الذي حثهم بقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] ففروا خوفاً وطمعاً وهاجروا إليه شوقاً وحبّاً، وَلِمَ لا وهو حبيبهم وخالقهم وهاديهم إلى صراط مستقيم بإذنه، فهو حسبهم ونعم الوكيل، بيده الخير، ففي رحمته سعة لهم، وفي فضله ملجأ لهم، فأيقنوا بفضل الله أن هذه الحياة لجة، فاتخذوا صالح الأعمال سفناً لينجوا من عذاب ربهم، إنهم فتية آمنوا بربهم وسط غابة الكفر والإلحاد، وانقادوا طائعين لنبيهم ﷺ فارين من طواغيت الإنس والجن أعوان الشيطان، متبصرين بهدي سلف الأمة الصالح الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولكن... هل تأتي الرياح بما تشتهي السفن؟ ليس دائماً، بل الأصل أن سفينة المؤمن لا بد أن تتخبطها أمواج البلاء والمحن وأعاصير الأعداء من المنافقين والفساق وإخوانهم من صنوف الأعداء، حتى يصل إلى ربه راضياً مرضيّاً، هذه سنن الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

نعم إنها سنن الله تعالى، الامتحان والتمحيص حتى يميز الله الخبيث من الطيب، والعاقبة للمتقين، إذاً فلا مفر من الاستعانة بالله وحسن التوكل عليه مع الأخذ بالأسباب الصحيحة الشرعية. والتعاون على البر والتقوى، ونبذ الخلاف وهجر التعصب، والقيام لوجه الله تعالى قومة لا يُبتغى بها سواه وحده لا شريك له، لا رياء ولا سمعة ولا رياسة إنما ابتغاء وجه الله تعالى، وجماع الأمر قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فهم غرس الله تعالى الذي يغرسه لهذا الدين، هذه اليقظة التي أزعجت الشرق والغرب، فأعدوا لها عدة هي واهية، وحشدوا لها حشوداً لها حشوداً عاتية، ومكروا، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، ويكيدون ويكيد كيداً سبحانه وهو الله الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لكن لا بد لهذه العودة الحميدة إلى صراط الله المستقيم من منهج صحيح سليم، ووعي وتدبر عميق صادق مخلص. وهذا إنما يتم بصحة المنهج الذي يتفرع عند العمل الصائب والدعوة الصحيحة. ومما لا يختلف عليه اثنان من عقلاء المسلمين ونبهاء المؤمنين وأتقياء الصالحين أن المنهج ليس بجديد مخترع أو ملفق مصطنع أو قديم منغلق.

بل المنهج واضح كضوء الشمس في الظهيرة لا يخفى إلا على الأعمى ولا يغيب إلا عن المنافق، هذا المنهج هو «كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بمفهوم السلف الصالح ﷺ». شريعة وعقيدة، أخلاقاً وسلوكاً، فكراً وعملاً، هذا المنهج هو الميزان بين الخير والشر، والفرقان بين الحق والباطل.

كما قال إمام أهل السنة سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ والاقتداء بهم، وترك البدع...» في وصية أقل ما تُصان به أن تكتب بالذهب. (طبقات الحنابلة: ١/ ٢٤١). هذا المنهج الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، من ظلمات الظلم إلى نور العدل، من ظلمات الحكم الجاهلي البهائمي إلى نور الحكم القرآني الرباني، فلا ولن ينصلح حالنا إلا بما صلح به حال أوّلنا، وهم آباؤنا وقدوتنا، كما قال الإمام مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح بها أولها».

أولـئـك آبـائـي فـجـئـنـي بـمـثـلـهـم إذا جـمـعـتـنـا يـا جـريـر الـمـجـامـع

ونحن نقول هذا لكل «فرزدق» أراد أن يفتخر علينا بغيرهم وينزع من قلوبنا اتباعهم، فعمله هذا ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، الصرُّ: البرد الشديد، أو ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فكيف نقابل الله تعالى ونحن نتبع غير سبيل المؤمنين، كيف نقابله ونحن نرضى بغيرهم قدوة ومثلاً ومناراً متبعاً، هيهات هيهات.

وما فسره ابن القيم رحمه الله تعالى، والمجموع في «بدائع التفسير»، ما هو إلا صورة من الصور التي قرب بها العلماء المنهج الصحيح تقريباً سليماً سهلاً. حتى يتيسر للمسلمين العمل المبني على علم صحيح، وهو خير دليل على قوة المنهج الإسلامي وسلامته من كل عطب ونقائه من كل شائبة، وسترى أيها القارئ الكريم كيف أن القرآن كلام الرحمن، شريعة الإسلام، أنزله رب العالمين ليكون هو المنهج المتبع والكتاب المهيمن.

لتتم للصحوة المباركة خطوات النجاح وتكلل بالفلاح، ويعم الصلاح، فلا مفر من التمسك بهذا المنهج.

وصاحب هذا التفسير إمامنا ابن القيم غني عن أن يقال عنه كذا وكذا... من قصائد المدح، فالشاهد عليه قلمه وهو المبين عن فكره، فإليك أخي المسلم وأختي المسلمة هذا البستان، فإن لمست ناعماً من زهوره أو شممت طيباً من ريحانه، فاشكر الله تعالى على ما يسر ووفق، أما إن أصابتك شوكة، فاعلم أن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، فاستغفروا الله لي وللمسلمين.

وكتبه
الذي لا غنى له عن ربه طرفة عين
يسري السيد محمد أحمد علي
أبو فاطمة
الهرم ـ في أول ذي الحجة ١٤١٣هـ
الموافق ١٩٩٣/٥/٢٣م

كتب الإمام ابن القيم التي جمع منها الكتاب

١ ـ «**اجتماع الجيوش الإسلامية**»:

طبع في الهند سنة (١٣١٤هـ) وصور في دار الفكر سنة (١٤٠١هـ)، وهذه هي التي اعتمدت عليها في جمعي التفسير. ثم وصلتني نسخة جديدة طبع الرياض لسنة (١٤٠٨هـ) بتحقيق الدكتور عواد عبد الله المعتق. وهي تعد من أحسن كتبه المطبوعة تحقيقاً وإخراجاً.

٢ ـ «**أحكام أهل الذمة**»:

طبع سنة (١٤٠١هـ) في مجلدين، دار القلم، بتحقيق الدكتور صبحي الصالح رحمه الله تعالى، وقد توفي الدكتور المحقق في المحرم من سنة (١٤٠٧هـ)، وهي طبعة جيدة جداً لكن تحتاج إلى تخريج للأحاديث بشكل دقيق. وهي التي اعتمدتها في عملي.

٣ ـ «**إعلام الموقعين عن رب العالمين**»:

طبع في مكتبة الكليات الأزهرية سنة (١٣٨٨هـ) بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد. وهي تكاد تكون خالية من التصحيفات لكنها خالية أيضاً من التخريجات، وطبع أيضاً في إحدى مكتبات مصر تصويراً على طبعة الشيخ عبد الرحمٰن الوكيل. وهي مليئة بالتصحيف والسقط، وقد صححت فيها أكثر من مائتين من الأخطاء. وهنا يجدر التنبيه على خطورة إعادة طبع الكتب دون إضافة جديد عليها من تحقيق، وتخريج، فضلاً أن تطبع بعيوبها.

٤ ـ «**أسماء مؤلفات ابن تيمية**»:

وهي طبعة دمشق، لسنة (١٣٧٢هـ) بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد.

٥ ـ «**إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**»:

اعتمدت على طبعة السنة المحمدية لسنة (١٣٥٨هـ) بتحقيق الشيخ حامد الفقي

رحمه الله تعالى. وهي طبعة جيدة غير مستوفاة تخريج الأحاديث. وقد وصلتني طبعة المكتب الإسلامي وهي من جزءين، وإن شاء الله اعتمدها في الطبعة الثانية، وهي جيدة جداً.

٦ - «**إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان**»:

طبع «الكليات الأزهرية» سنة (١٣٩٦هـ) بتصحيح وتخريج العلامة محمد جمال الدين القاسمي.

٧ - «**بدائع الفوائد**»:

وهو من أعظم كتب ابن القيم، طبع «المطبعة المنيرية» بتصحيح الشيخ منير الدمشقي رحمه الله تعالى، وقد راجع أصوله على غير نسخة بعد عرضها على جماعة من أهل العلم والفهم والذكاء.

٨ - «**التبيان في أقسام القرآن**»:

طبع «دار المعرفة» بتحقيق الشيخ حامد الفقي، وهي طبعة جيدة ولكن ككثير من كتب ابن القيم تحتاج لتحقيق.

٩ - «**تحفة الودود في أحكام المولود**»:

طبع «دار الريان للتراث» بتحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان. وهي جيدة، وأعتمدها في التفسير.

١٠ - «**تهذيب سنن مختصر أبي داود**»:

طبع «السنة المحمدية» سنة (١٣٦٨هـ) بتحقيق الشيخ حامد الفقي ومشاركة العلامة أحمد شاكر في الأجزاء الثلاثة الأول.

١١ - «**جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**»:

طبع «المطبعة المنيرية» سنة (١٣٥٧هـ)، وصورت عليها طبعة «دار الطباعة المحمدية»، وهي التي وقعت في يدي أولاً، وهي بتحقيق «الشيخ طه يوسف شاهين»، وهي مسروقة حرفياً عن الطبعة المنيرية كلمة كلمة، ولم تزد عن المنيرية إلا في التصحيف والتحريف، وهذا مما يؤسف له. ثم أمدني بعض الأصدقاء بطبعة حديثة جيدة بتحقيق «محيي الدين مستو»، ولكن تحتاج لتخريج أدق.

١٢ - «**حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**»:

طبع مكتبة القرآن سنة (١٤٠٨هـ) وهي المعتمدة، وأيضاً طبعة «مكتبة المتنبي» والأخيرة رديئة جداً. ثم وقع لي طبعة «الأستاذين يوسف علي بدوي، ومحيي الدين مستو» وهي جيدة.

١٣ ـ «الداء والدواء»:

طبع «مكتبة المدني» بتحقيق الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله تعالى، وهي خالية غالباً من التصحيف، لكن لم تخرج أحاديثها كالعادة، وقد طبع أيضاً تحت اسم «الجواب الكافي...».

١٤ ـ «الرسالة التبوكية»:

طبع «مكتبة التوعية» سنة (١٤٠٨هـ)، وهي جيدة.

١٥ ـ «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»:

طبع «مكتبة التراث» دون تحقيق.

١٦ ـ «الروح»:

طبع «دار الندوة الجديدة» دون تحقيق. وقد وصلني محققاً في جزءين من عمل الدكتور بسام العموش، مكتبة ابن تيمية، الرياض، وهي جيدة، ولكن أدخل مقدمته (١/ ١٦٦) كأنها من أصل الكتاب دون إشارة إلى بداية الكتاب (١/ ١٦٧). مع عدم الفهرسة للجزء الأول، وهو مع ذلك اعتمد على مخطوطات جيدة.

١٧ ـ «زاد المعاد في هدي خير العباد»:

طبع بتحقيق الأستاذين شعيب وعبد القادر الأرناؤوط في «خمسة أجزاء»، وهي أجود ما أخرج من كتب ابن القيم.

١٨ ـ «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»:

تصوير دار المعرفة، بيروت، سنة (١٣٩٨هـ) دون تحقيق، وهي مصورة على الطبعة الأولى للطبعة الحسينية لسنة (١٣٢٣هـ)، ونصفه الأول على مخطوطة العلامة الألوسي، والنصف الثاني على مخطوطة دار الكتب المصرية، كما ورد في آخر الكتاب (٣٠٧).

١٩ ـ «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»:

طبع «دار العاصمة» الرياض (١٤٠٨هـ) بتحقيق الشيخ علي بن محمد، في أربعة أجزاء في طبعة جيدة. وقد عقد مقارنة بين الكتاب الأصلي وبين مختصره للموصلي (١/ ١١٧)، وأن الكتاب لم يصلنا كاملاً، ويدل على ذلك كلامه عن الطاغوت الثالث والرابع في المختصر، وهذا مما لم يصلنا.

٢٠ ـ «طريق الهجرتين وباب السعادتين»:
طبع «المكتبة السلفية» سنة (١٤٠٠هـ) الطبعة الثالثة بإشراف الأستاذ محب الدين الخطيب. وهي دون تحقيق، وهي المعتمدة. وقد طبع في دار ابن القيم سنة (١٤٠٩هـ) على الطبعة الأولى، وامتازت بالتحقيقات.

٢١ ـ «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»:
طبع مكتبة المدني سنة (١٩٨٥م) بتحقيق الشيخ الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله تعالى، وهي خالية من التخريج.

٢٢ ـ «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»:
طبع «دار ابن كثير» دمشق، الثانية (١٤٠٧هـ)، وهي جيدة لكنها غير محققة.

٢٣ ـ «الفروسية»:
طبع دار الصحابة، مصر، سنة (١٤١١هـ)، وهي جيدة.

٢٤ ـ «الفوائد»:
طبع المكتبة القيمة بمصر، سنة (١٤٠٠هـ)، وهي تحتاج لتخريج وتحقيق جديدين.

٢٥ ـ «كتاب الصلاة وحكم تاركها»:
طبع المكتب الإسلامي سنة (١٤٠١هـ) الأولى بتحقيق تيسير زعتر، وقد أجاد في إخراجها.

٢٦ ـ «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»:
وهي المعروفة بالقصيدة النونية، طبع دار الفاروق الحديث، مصر، وهي كثيرة التحريف.

٢٧ ـ «الكلام على مسألة السماع»:
طبع «دار العاصمة» الرياض سنة (١٤٠٩هـ) الطبعة، تحقيق راشد عبد العزيز الحمد.

٢٨ ـ «الكلم الطيب والعمل الصالح»:
وهو المعروف باسم «الوابل الصيب» طبع دار الريان، سنة ١٤٠٨هـ، وطبع المكتبة السلفية، ثم طبع «دار البيان» بتحقيق الأرناؤوط، وهي أجودها، واعتمد على الأولى، ثم على هذه.

٢٩ ـ «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»:

وهو من أمتع كتب ابن القيم، وينبغي الاهتمام بدراسته وخاصة للنشء، لمعرفة السلوك القويم والطريق الصحيح المثمر إلى الله تعالى، طبع «السنّة المحمدية» سنة (١٣٧٥هـ) بتحقيق الشيخ حامد الفقي رحمه الله تعالى.

٣٠ ـ «مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة»:

طبع مكتبة حميدو سنة (١٣٩٩هـ) بتصحيح محمود حسن ربيع، وللأسف أنه أسوأ الكتب إخراجاً من ناحية التحقيق أو التخريج مع أهميته العظمى، وفوائده الجزيلة.

٣١ ـ «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»:

طبع «مكتبة المطبوعات الإسلامية» سورية سنة (١٤٠٣هـ) بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهي جيدة جداً.

٣٢ ـ «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»:

طبع المكتبة القيمة، سنة (١٤٠٧هـ) الرابعة. هذا ما وصلنا من كتبه رحمه الله تعالى، وهي «اثنان وثلاثون كتاباً» من «ثمانية وتسعين»، كما ذكر العلامة بكر أبو زيد (٣٠٩).

□ □ □

بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام "ابن قيم الجوزية"

- رحمه الله تعالى -

جمعه وخرج أحاديثه

يسري السيد محمد

راجعه ونسَّق مادته ورتبها

صالح أحمد الشامي

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة للإمام ابن القيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوانَ إلَّا على الظَّالمينَ، وأَشهدُ أَنْ لا إلـٰه إلَّا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، رب العالمين، وإلـٰهُ المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأَشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله المبعوثُ بالكتاب المبينِ، الفارقِ بين الهدى والضلالِ، والغيِّ والرشاد، والشكِّ واليقين.

أنزله لنقرأَهُ تَدَبُّراً، ونتأَملَهُ تَبَصُّراً، ونسعدَ بهِ تذكُّراً، ونحمله على أَحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ أخباره، ونجتهد على إقامة أَوامره ونواهيه، ونجتني ثمارَ علومهِ النافعةِ الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَم من بين رياضهِ وأزهاره.

فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أَرادَ معرفتهُ، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونورهُ المبينُ الذي أَشرقت له الظلماتُ، ورحمته المهداةُ التي بها صلاحُ جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظمُ الذي منه الدخول، فلا يغلقُ إذا غُلِّقت الأبوابُ.

وهو الصِّراط المستقيمُ الذي لا تميلُ به الآراءُ، والذكرُ الحكيمُ الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، والنُّزُلُ الكريمُ الذي لا يشبعُ منه العلماءُ، لا تفنى عجائبُهُ، ولا تُقلعُ سحائبه، ولا تنقضي آياتُهُ، ولا تختلف دلالاتُهُ، كلما ازدادت البصائرُ فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هدايةً وتبصيراً، وكلما بَجَّست مَعينَهُ فَجَّر بها ينابيع الحِكمةِ تفجيراً.

فهو نورُ البصائر من عَماها، وشفاءُ الصدور من أدوائها وجَواها، وحياةُ القلوبِ، ولذَّةُ النُّفوس، ورياضُ القلوب، وحادي الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح! حيَّ على الفلاح. نادى به منادي الإيمان على رأس الصِّراطِ المستقيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣١].

سبحانَ الله! ماذا حُرِمَ المعرضون عن نصوص الوحي، واقتباسِ العلم من مشكاتها من كنوزِ الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟!.

أَفيظنُّ المعرضُ عن كتابِ ربِّه وسنة رسوله أنْ ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلَّص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأَنواع الخيال؟.

هيهاتَ واللهِ، لقد ظنَّ أكذبَ الظنِّ، ومَنَّتْهُ نفسه أَبين المحال، إنَّما ضُمِنت النجاة لمن حَكَّم هدى الله تعالى على غيره، وتزوَّدَ التقوى وائتمَّ بالدليل، وسلَكَ الصِّراطَ المستقيم، واستمسكَ من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصامَ لها، والله سميعٌ عليم.

وبعدُ، فلما كان كمالُ الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعملِ الصالح، وهما الهدى ودينُ الحق، وبتكميلهِ لغيرهِ في هذين الأَمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

فأقسمَ سبحانه أنَّ كلَّ واحدٍ خاسر إلَّا من كمَّل قُوَّته العلمية بالإيمان، وقوَّته العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية له بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يَتِمَّانِ إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقاً بالإنسان أنْ يُنفقَ ساعاتِ عمره ـ بل أَنفاسَهُ ـ فيما ينالُ به المطالبَ العالية، ويخلُص به من الخسران المبين.

وليس ذلك إلَّا بالإقبال على القرآنِ وتفهُّمِه وتدبُّرِهِ، واستخراجِ كنوزه وإثارة دفائِنِه، وصرفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهمَّةِ عليه، فإنَّه الكفيلُ بمصالح العبادِ، في المعاشِ والمعادِ، والموصلُ لهم إلى سبيل الرشادِ، فالحقيقةُ والطريقة، والأذواقُ والمواجيد الصحيحة، كلها لا تُقْتَبَسُ إلّا من مشْكاتِه، ولا تُستثمرُ إلَّا مِنْ شجراته.

ونحن ـ بعون الله ـ ننبِّهُ على هذا بالكلام على فاتحةِ الكتابِ وأُمِّ القرآن، وعلى بعضِ ما تضمَّنتهُ هذه السورة من هذه المطالبِ، وما تضمَّنتهُ من منازل السائرينَ، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتِها، ومواهبها وكسبياتها، وبيانِ أَنَّهُ لا يقومُ غيرُ هذهِ السورة مقامَها، ولا مسدَّها، ولذلك لم يُنزل اللهُ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في القرآنِ مثلَها.

والله المستعان، وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم[١].

---

(١) هذه مقدمة كتاب «المهذب من مدارج السالكين»، وهي مختارة من مقدمة «مدارج السالكين» للمؤلف، رأيت أن تكون مقدمة لهذا الكتاب، لما فيها من الحث على العناية بالقرآن الكريم، فهماً وتدبراً وتفسيراً. . [الشامي].

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

هي فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم، والخوف والحزن، لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها.

ومن ساعده التوفيق، وأعِين بنور البصيرة، حتى وقف على أسرار هذه السورة وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد الربوبية والألوهية، والتوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله... أغنته عن كثير من الأدوية والرقى[1].

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

١ ـ الاسم في أصل الوضع ليس هو «المسمى»، ولهذا تقول: سميت هذا الشخص بهذا الاسم، كما تقول: حلَّيته بهذه الحلية، والحلية غير المحلىٰ، فكذلك الاسم غير المسمىٰ.

وقد صرح بذلك سيبويه، وأخطأ من نسب إليه غير هذا.. وفي كتابه قريب من ألف موضع: أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمىٰ، ومتى ذكر الخفض أو النصب، أو التنوين، أو اللام، أو جميع ما يلحق الاسم من زيادة ونقصان، وتصغير وتكبير، وإعراب وبناء، فذلك كله من عوارض الاسم، لا تعلق لشيء من ذلك بالمسمىٰ أصلاً.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٧٣).

وما قال نحوي قط، ولا عربي: إن الاسم هو المسمى، ويقولون: أجلُّ مسمىٰ، ولا يقولون: أجلَّ اسم. . ويقولون: باسم الله، ولا يقولون: بمسمىٰ الله، وقال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء» ولا يصح أن يقال: لي خمس مسميات، ولله تسعة وتسعون اسماً، ولا يصح أن يقال: تسعة وتسعون مسمى.

وإذا ظهر الفرق بين الاسم والمسمى، فبقي هاهنا: التسمية.

والتسمية عبارة عن فعل «المسمي» ووضعه الاسم «للمسمَّىٰ»، كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلي، ووضعه الحلية على المحلَّى.

فها هنا ثلاث حقائق: اسم، ومسمَّى، وتسمية. . ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها.

٢ ـ اسم «الله»: زعم السهيلي، وشيخه أبو بكر ابن العربي أن اسم «الله» غير مشتق، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق.

ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمد من أصل آخر، فهو باطل.

ولكن الذين قالوا بالاشتقاق، لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألمَّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى، وهي الإلٰهية، كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه أسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء، فهو جواب القائلين: باشتقاق اسمه: «الله».

ثم الجواب عن الجميع: أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله. وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً، ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة. .

فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اشتقاق تلازم، سمي المتضمن بـ«الكسر» مشتقاً، المتضمن بـ«الفتح» مشتقاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى.

٣ ـ استبعد قوم أن يكون «الرحمٰن» نعتاً لله من قولنا: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» وقالوا: «الرحمٰن» علم، والأعلام لا ينعت بها.

ثم قالوا: هو بدل من اسم «الله» قالوا: ويدل على هذا أن الرحمٰن علم مختص بالله، لا يشاركه فيه غيره، فليس هي كالصفات التي هي: العليم والقدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى.

قالوا: ويدل عليه أيضاً، وروده في القرآن غير تابع لما قبله، كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٢]، وهذا شأن الأسماء المحضة، لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي: والبدل عندي ممتنع، وكذلك عطف البيان، لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين، فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ولم يقولوا: وما الله؟ ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام، فهو وصف يراد به الثناء، وكذلك «الرحيم»، إلا أن «الرحمٰن» من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه..

وفائدة الجمع بين الصفتين «الرحمٰن» و«الرحيم» الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة، وخاصة وعامة. تم كلام السهيلي.

قلت: أسماء الرب تعالى، هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فـ«الرحمٰن» اسمه تعالى ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى، حسن مجيئه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمٰن، كاسم الله فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجئ قط تابعاً لغيره، بل متبوعاً، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.

فتأمل هذه النكتة البديعة، يظهر لك بها أن «الرحمٰن» اسم وصفة، لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً.

٤ ـ وأما الجمع بين «الرحمٰن» و«الرحيم»، ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما السهيلي.

وهو أن الرحمٰن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم.

فكان الأول للوصف، والثاني للفعل.

فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

ولم يجئ قط (رحمٰن بهم)، فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد نجدها في كتاب.

٥ ـ لحذف العامل في «بسم الله الرحمٰن الرحيم» فوائد عديدة:

منها: أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فلو ذكرت الفعل، وهو لا يستغني عن فاعله، كان ذلك مناقضاً للمقصود، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، ليكون المبدوء به اسم الله، كما تقول في الصلاة: الله أكبر، ومعناه: من كل شيء، ولكن لا نقول: هذا المقدَّر ليكون اللفظ مطابقاً لمقصود الجَنان، وهو أن لا يكون في القلب إلا الله وحده، فكما تجرَّد ذكره في قلب المصلي، تجرد ذكره في لسانه.

ومنها: أن الفعل إذا حذف، صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فعل أولى بها من فعل، فكان الحذف أعمَّ من الذكر، فإن أي فعل ذكرته كان المحذوف أعمَّ منه.

ومنها: أن الحذف أبلغ، لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به، لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى، والحوالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ **[الفاتحة: ٢ ـ ٧]**.

للفاتحة قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية.

وسعادة [العبد] التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة

---

(١) بدائع الفوائد (١/١٦ ـ ٢٥).

الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس: أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنّته عليه، وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحٍ من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون ذلك، وأنه لا سبيل إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته.

فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصته وأن يجنبه الخروج على ذلك الصراط إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم «الله» و«الرب» و«الرحمٰن». فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية، واسم «الرب» متضمن لصفات الربوبية. واسم «الرحمٰن» متضمن لصفات الإحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة.

وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات ألوهيته فهو الإله الحق، وإن جحده الجاحدون، وعدل به المشركون. فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين. والله المستعان[١].

(١) الفوائد (٢١، ٢٢).

قبسات من إيحاءات

سورة الفاتحة

[ويتم عرضها في الفصول الآتية]

الفصل الأول

الفاتحة عماد الصلاة

وليقف [المصلي] عند كل آية من الفاتحة ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه يقول: حمدني عبدي. حين يقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقف لحظة ينتظر قوله: أثنى عليَّ عبدي.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ انتظر قوله: مجّدني عبدي.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ انتظر قوله: هذا بيني وبين عبدي.

فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إلى آخرها انتظر قوله: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل.

ومن ذاق طعم الصلاة علم أنه لا يقوم غير التكبير والفاتحة مقامهما، كما لا يقوم غير القيام والركوع والسجود مقامها، فلكل عبودية من عبودية الصلاة سر وتأثير، وعبودية لا تحصل من غيرها، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوق ووجد يخصها.

فعند قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى: فعلاً ووصفاً واسماً. وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسماً، فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه، منزه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه.

---

(١) جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل). رواه مسلم (٢٩٥).

فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تخرج عن ذلك، وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت جلال، وأسماؤه كلها حسنى.

وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة والسمٰوات والأرض وما بينهما وما فيهما، فالكون كله ناطق بحمده، والخلق والأمر صادر عن حمده وقائم بحمده ووجد بحمده، فحمده هو سبب وجود كل موجود، وهو غاية كل موجود، وكل موجود شاهد بحمده، وإرساله رسوله بحمده. وإنزاله كتبه بحمده، والجنة عَمُرت بأهلها بحمده والنار عمرت بأهلها بحمده، وما أطيع إلا بحمده، وما عصي إلا بحمده، ولا تسقط ورقة إلا بحمده، ولا يتحرك في الكون ذرة إلا بحمده.

وهو المحمود لذاته، وإن لم يحمده العباد، كما أنه هو الواحد الأحد ولو لم يوحده العباد، والإلٰه الحق وإن لم يؤلهوه[(١)].

ثم قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده، إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها.

والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عالماً بالحق، عاملاً به، لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المنفرد بالهداية الموجبة للاهتداء، التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريداً للهدى، محباً له، مؤثراً له عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦][(٢)].

□ □ □

(١) الكلام عن مسألة السماع (١٩٥ ـ ١٩٧). (٢) شفاء العليل (٥٢، ٥٣).

الفصل الثاني

المطالب العالية في سورة الفاتحة

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

١ ـ **فاشتملت على التعريف بالمعبود** تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمٰن» وبنيت السورة على الألوهية والربوبية والرحمة. فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الألوهية، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة.

والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود في ألوهيته، وربوبيته، ورحمته. والثناء والمجد كمالان لجده.

٢ ـ **وتضمنت إثبات المعاد**، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتفرُّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

٣ ـ **وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:**

أحدها: كونه (رب العالمين). فلا يليق به أن يترك عباده سُدًى هَمَلاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما. فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وما قدَّره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم (الله) وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه (الرحمٰن) فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم «الرحمٰن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه علم إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم

من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر (يوم الدين) فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ما يُعبد به تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادته: هي شكره وحبه وخشيته، فطري ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل ولم يؤمن به؛ ولهذا جعل سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق. وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثراً له، راضياً به، راغباً فيه. وهي هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلقُ القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن ههنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله؛ فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور؛ كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق

الجنة، وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطَّرْف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردَس في النار.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْو القُذَّة بالقذة جزاء وفاقاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم. ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيُّنه طريقاً للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة.

ففي ذكر المنعَم عليهم ـ وهم من عرف الحق واتبعه ـ والمغضوب عليهم ـ وهم من عرفه واتبع هواه ـ والضالين ـ وهم من جهله ـ: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة؛ لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

٤ ـ و[تضمنت] ذكر الصراط المستقيم منفرداً، معرفاً تعريفين:

تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة. وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فوحَّد لفظ صراطه وسبيله، وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً، وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سُبل، وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه،

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناسُ من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله.

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريقٍ مرافقةُ فيها غاية العزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرق، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلُّون قدراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم.

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرفَ المواهب: علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم.

فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

□ □ □

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ﷺ رقم (٤١٤٢)، وصححه الشيخ المحدث أحمد شاكر رحمه الله، وابن حبان في صحيحه رقم (٥) بتحقيق أحمد شاكر، ورواه الحاكم (٢/٣١٨)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر تحقيق الإمام ابن كثير على هذا الحديث (٢/٢٠٥) من تفسيره.

الفصل الثالث

التوحيد في سورة الفاتحة

اشتملت هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإداري؛ لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الألوهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه.

وأما المفصل: فذكر صفة الألوهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها.

ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر.

فهذا دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها ـ وهي: الله، والرب، والرحمٰن، والرحيم، والملك ـ فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف. وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم. واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن القويَّ من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها. وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها.

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم. فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم الحي وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه. ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة

ـ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

إذا تقرر هذان الأصلان: فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلٰهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلٰهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلٰهية: هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ويقال: الرحمٰن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز والحكيم: من أسماء الله. ولا يقال: الله، من أسماء الرحمٰن ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الألوهية التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك. والحمد وإلٰهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير، ولا قادر ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في ألوهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إلٰه محمود، ورب محمود ورحمٰن محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال.

□ □ □

الفصل الرابع

اشتمال الفاتحة على شفاءين

تشتمل «الفاتحة» على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان.

١ ـ **فأما اشتمالها على شفاء القلوب**: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليها داءان قاتلان، وهما: الضلال والغضب. فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب ينتجه فساد القصد. وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال؛ ولذلك كان سؤال هذه الهداية أَفْرَضَ دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً ومعرفة وعملاً وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل.

فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته، من المشركين ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها.

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً، إذا حق الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حققت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة

الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضاً كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: عبودية لله لا غيره، بأمره وشرعه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم. والاستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ فإذا ركَّبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد: وهما الرياء، والكبر. فدواء الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن مرض الكبر والعجب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾. وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت الله وكلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

٢ ـ وأما تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة وما شهدت به قواعد الطب ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من العرب فلم يقروهم

ولم يضيفوهم فلدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا: هل عندكم من رقية أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم ولكنكم لم تقرونا فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قلبة، فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك فقال: «ما يدريك أنها رقية، كلوا واضربوا لي معكم بسهم»(١).

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الداوء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء هنا، مع كون المحل غير قابل؛ إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم، فكيف إذا كان المحل قابلاً؟!

□ □ □

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

الفصل الخامس

العبادة والاستعانة في سورة الفاتحة

[العبادة والاستعانة]

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب، انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مئة كتاب وأربعة كتب؛ جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين: فنصفهما له تعالى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلَّل، والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً.

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوباً لهم، بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم: منكرين لكونه إلٰهاً، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم، فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]. ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلٰهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد

من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره، مع ثقته به، لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه، مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

والتوكل معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلان ـ وهما التوكل والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها.

[تقديم العبادة على الاستعانة]

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله»، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب». فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان مع الشطر الذي له، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

ولأن العبادة المطلقة: تتضمن الاستعانة، من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به، ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتم. ولهذا كانت قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له.

ولأن «العبادة» لا تكون إلا من مُخْلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العوْن على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه؛ أهم من التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يجب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقِّها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

[حكمة تقديم المعبود والمستعان على الفعلين]

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر، فهو في قوة لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]. كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق.

[أقسام الناس بحسب العبادة والاستعانة]:

إذا عرف هذا: فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام:

[القسم الأول]: **أجلها وأفضلها**: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الربُّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لِحبِّه معاذ بن جبل. فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)].

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب؛ إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومقابل هؤلاء:

القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السمٰوات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويُمدُّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢).

إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته: كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه.

فليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه: فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بداً، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وُكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية القائلون: بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة؛ فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر.

فعباده هؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه؛ فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد قال ابن عباس ﵄: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق

التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، وتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضرر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به فقضيت له، وأسعف بها، ولكن لا عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفة بالله ودينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه.

□ □ □

الفصل السادس

التحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾

[المتابعة والإخلاص]

إذا عرف هذا؛ فلا يكون العبد متحققاً بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين.

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود.

فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حقيقة، فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهراً، وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم.

بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فالعمل لأجل هؤلاء، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضر والنفع منهم، لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه

وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة.

القسم الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقاً لشرع، ولا هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله ﷻ. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]. يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

القسم الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقده قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المُكاء والتصدية قربة.

القسم الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله. كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحَمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير خالصة فلا تقبل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

[أفضل العبادات]

ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثاً لا أصل له «أفضل الأعمال أحمرها» أي أصعبها وأشقها، وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقليل منها غاية الإمكان، واطّراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد، فرأوه

أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»(١). رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد: كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم»(٢). وهذا التفضيل للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء»(٣)، واحتجوا بقوله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير»(٤)، وبقوله ﷺ: «إن العالم ليستغفر له من في السمٰوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها»(٥).

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس(٦). ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

---

(١) ضعيف. رواه أبو يعلى (٦/ ٦٥ و١٠٦ و١٩٤)، ورواه البزار (٢/ ٣٩٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك) (٨/ ١٩١)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٠٥) والأوسط، قال الهيثمي: (فيه عمر وهو أبو هارون القرشي متروك) مجمع الزوائد (٨/ ١٩١)، ورواه الخطيب في تاريخه (٦/ ٣٣٤).

(٢) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦). (٣) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٤) رواه الترمذي عن أبي أمامة (٢٦٨٥). (٥) رواه الترمذي (٢٦٨٢).

(٦) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعلم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر، فهي أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله، فخلطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق.

والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد.

وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثر على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره: فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقاً، القائم بهما صدقاً. ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله.

فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهاً له. ما أغْرَبَه بين الناس، وما أشدَّ وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان.

[قواعد العبادة]

وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

[لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى الموت]

قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧]. واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»[1] أي الموت وما فيه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٣).

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لمَّا يسأله الملكان: «من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟»، ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو زنديق كافر بالله ورسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ، بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

[انقسام العبودية إلى عامة وخاصة]

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السمٰوات والأرض كلهم لله، بَرُّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣]. فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨]. وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلٰهيته.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة: لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً.

الفصل السابع

مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ علماً وعملاً

[مراتب العبودية]

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل؛ فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله.

والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب:

العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمر الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية.

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

□ □ □

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان، والجوارح.

[عبودية القلب]

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدق. والفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوباً وطلباً، فالإخلاص: توحيد مطلوبه، والصدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسماً. والصدق: أن لا يكون الطلب منقسماً. فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية ومدار الدين عليه. وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب. وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق؛ وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة. قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن، أو بضعاً وتسعين وله طرفان أيضاً. واجب مستحق، وكماله مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية، والقولان لأصحاب أحمد. فمن أوجبه قال: السخط حرام؛ ولا خلاص عنه إلا بالرضا. وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

ومن قال: هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة.

وإنما جاء في القرآن مدح أهله، والثناء عليهم لا الأمر به.

قالوا: وأما قولكم: «لا خلاص عن السخط إلا به» فليس بلازم فإن مراتب الناس في المقدور ثلاث. الرضا: وهو أعلاها، والسخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به: وهو أوسطها، فالأولى للمقربين السابقين. والثالثة للمقتصدين. والثانية: للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به فالرضا أمر آخر.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم وظن أنهما متباينان. وليس كما ظنه، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم. يصومه راضياً به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها. فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به رباً وإلٰهاً والرضا بأمره الديني، فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا. «أن يرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً».

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء ـ وهو القلب ـ قائماً بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها.

«والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر».

فالكبائر: كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة ولا صلاح للقلب، ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً: شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهي، فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً عن بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[1]، فنزله منزلة القاتل، لحرصه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

[عبودية اللسان]

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفي ابتدائه قولان. ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريماً.

---

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف. هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأناً ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا. وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان، فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح.

وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة. فتأمله.

[عبوديات الجوارح]

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً: إذ الحواس خمسة؛ وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من ردّه، أو الشهادة على قائله.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجنبيات التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها. ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضولٌ، وكم قاد فضولها إلى فضول عَزَّ التخلص منها، وأعيَى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات، مات عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن به من الهلاك، على أصح القولين.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوِّم وربُّ الخِبْرة عند الحكم بالتقويم، والعبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات للافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «من عُرض عليه ريحان فلا يرده فإنه طيب الريح، خفيف المحمل»[1].

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمَة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس. فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يحب جماعها والأمة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت ـ لغير غاسله ـ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريماً له، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميص في أحد القولين.

والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضاً مُرَتَّبة على البطش باليد والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٢٥٣).

(٢) ما سبق من «مدارج السالكين» (١/ ٧ ـ ١٢٢) إلا ما سبق بيان مرجعه.

الفصل الثامن

مراتب الهداية في ﴿ٱهۡدِنَا﴾

إن حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: أن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى.

ثم يشهد من قوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً، قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً.

ثم يشهد من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض، فيشهد منه جمع الربوبية.

ويشهد من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ جمع الإلٰهية.

ويشهد من ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿ٱهۡدِنَا﴾ عشر مراتب إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.

الثانية: أن يُقْدِرَه عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مُريداً له.

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادَّة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، وأخص من الأولى، فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه، فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها

جهلاً وضلالاً، ثم يشهد جمع ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله وأتباعهم من الصدِّيقين والشهداء والصالحين[1].

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥١٠).

الفصل التاسع

بحث في «فقه اللغة» لسورة الفاتحة

قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيها عشرون مسألة:

أحدها: ما فائدة البدل في الدعاء[1] والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان، والبدل القصد به بيان الاسم الأول.

الثانية: ما فائدة تعريف ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ باللام وهلَّا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها، كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

الثالثة: ما معنى الصراط ومن أي شيء اشتقاقه، ولم جاء على وزن فعال، ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ، وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق؟ فقال: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

الرابعة: ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بهذا اللفظ ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول: صراط النبيين والصديقين، فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر؟

الخامسة: ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال: المنعم عليهم، وهو أخصر كما قال: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وما الفرق.

السادسة: لم فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم، فقال في أهل النعمة: الذين أنعمت، وفي أهل الغضب: المغضوب، بحذف الفاعل؟

السابعة: لم قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فعدى الفعل بنفسه ولم يعده بـ«إلى» كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

الثامنة: أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يقتضي أن

---

(١) البدل هو قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ﴾ فهي بدل من ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ [الشامي].

نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين. وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر، فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟

التاسعة: أن يقال: لم وصفهم بلفظ غير، وهلّا قال تعالى: لا المغضوب عليهم كما قال: ولا الضالين. وهذا كما تقول: مررت بزيد لا عمرو، وبالعاقل لا الأحمق.

العاشرة: كيف جرت «غير» صفة على الموصول وهي لا تتعرف بالإضافة وليس المحل محل عطف بيان؟ إذ بابه الأعلام ولا محل لذلك، إذ المقصود في باب البدل هو الثاني والأول توطئة وفي باب الصفات المقصود الأول، والثاني بيان وهذا شأن هذا الموضع، فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم معنى الغضب والضلال.

الحادية عشرة: إذا ثبت ذلك في البدل فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه وما فائدة البدل هنا؟

الثانية عشرة: إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود والنصارى وبأنهم الضالون، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه؟

الثالثة عشرة: لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين؟

الرابعة عشرة: لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال: المضلين، بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل؟

الخامسة عشرة: ما فائدة العطف بـ«لا» هنا؟ ولو قيل المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز.

السادسة عشرة: إذا قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي، نحو: ما قام زيد ولا عمرو، وكقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢]. وأما بدون الواو فبابها الإيجاب، نحو: مررت بزيد لا عمرو فهذه ست عشرة مسألة في ذلك.

السابعة عشرة: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق والإلهام؟

الثامنة عشرة: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمراً لازماً لا يقوم غيره مقامه ولا بد منه، وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته فما وجه السؤال لأمر حاصل، وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

التاسعة عشرة: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في اهدنا والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها ولا يليق به ضمير الجمع؟ ولهذا يقول: (رب اغفر لي وارحمني وتب علي).

العشرون: ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولاً، ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الست عشر.

فالجواب بعون الله وتعليمه، فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علَّمه، ولا قوة له إلا بإعانته.

□ □ □

أما المسألة الأولى: وهي فائدة البدل من الدعاء، أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به، إذ الدعاء مخ العبادة(1). والمخ لا يكون إلا في عظم؛ والعظم لا يكون إلا في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجاً بالثناء، فمن ثَمَّ جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوباً بالخير تصريحاً من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذي اختصهم بنعمته، وحباهم بكرامته فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾. والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضاً والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه، فلذلك أبدل وبيَّن لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجَنان.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم، الإخبار بفائدتين جليلتين، **إحداهما**: فائدة الخبر، **والفائدة الثانية**: فائدة لازم الخبر. فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عنه بالاستقامة

---

(1) ورد في حديث «ضعيف» رواه الترمذي (٣٣٧١).
ويغني عنه الحديث الصحيح: «الدعاء هو العبادة» رواه الترمذي (٢٩٦٩).

وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته، وأما فائدة لازم الخبر فإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه.

فهذه أربع فوائد: الدعاء بالهداية إليه، والخبر عنه بذلك، والإقرار، والتصديق لشأنه، والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق؛ وفيه فائدة خامسة: وهي أن الداعي إنما أمر بذلك لحاجته إليه، وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به، فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلده وقام بقلبه كان أشد طلباً له وأعظم رغبة فيه، وأحرص على دوام الطلب والسؤال له. فتأمل هذه النكت البديعة.

□ □ □

وأما المسألة الثانية: وهي تعريف الصراط باللام هنا؛ فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهاً أو عالماً، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم. ولا قولك: أكلت طيباً، كقولك: الطيب. ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق»، ثم قال: «ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق»(١)، فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه، فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطاً مستقيماً لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين: الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر.

واللام هنا للعهد العَلَمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى سر معهود، قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

(فإن قيل): لم جاء منكراً في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]؟

---

(١) رواه البخاري (١١٢٠، ٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).

فالجواب هو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفاً لهم، فلم يجئ معرفاً بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام معروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضوعين: أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع؛ فالتنكير هو الأصل وهذا بخلاف قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطاً مستقيماً هدى إليه أنبياءه ورسله وكان المخاطب سبحانه المسؤول من هدايته عالماً به دخلت اللام عليه فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

□ □ □

وأما المسألة الثالثة: وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من: صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعاً سهلاً فسمي الطريق صراطاً لأنه يسترط المارة فيه. والصراط ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقاً مستقيماً، سهلاً، مسلوكاً، واسعاً، موصلاً إلى المقصود. فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطاً ولا الصعب المشق، ولا المسدود غير الموصل، ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك، قال جرير[1]:

أميرُ المؤمنين عَلَى صِرَاطٍ ... إذا اعوجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقيمِ

وبنوا الصراط على زنة فعال، لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط، وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللحاف والخمار والرداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب يأتي لثلاثة معانٍ:

أحدها: المصدر كالقتال والضراب.

والثاني: المفعول نحو الكتاب والبناء والغراس.

والثالث: أنه يقصد به قصد الآلة التي يحصل بها الفعل ويقع بها، كالخمار والغطاء والسداد لما يخمر به ويغطى ويسد به، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر والمغطى والمسدود.

---

(١) هو جرير بن عطية الخطفي.. وهو من فحول الشعراء، كان شُبِّه من شعراء الجاهلية بالأعشى، الشعر والشعراء. (طبقات الشعراء) لابن قتيبة (٢٣٢)، والبيت من ديوانه (٥٠٧).

ومن هذا القسم الثالث إله بمعنى مألوه.

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة، فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن أنهم قالوا لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي: أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره، فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصدقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى سبيل مطروق؛ قد مرت عليه الرسل قبله، وأنه ليس ببدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه، فذكر الطريق هاهنا إذاً أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين اتباعه والله أعلم. ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي(١)، فوافق فيه الخاطر الخاطر.

□ □ □

وأما المسألة الرابعة: وهي إضافته إلى الموصول المبهم دون أن يقول: صراط النبيين والمرسلين، ففيه ثلاث فوائد:

(إحداها) إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا، فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم، هو بهدايتهم إلى هذا الصراط. فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا

(١) ذكره السهيلي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه الممتع النفيس «نتائج الفكر» ص(٥٩)، وما بعدها، في بحث نفيس في معنى قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأحقاف: ١٣]. وهذا الباب مطرد فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص.

(الفائدة الثانية) فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدي إلى هذا الصراط، فقد أنعم عليه فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله؛ **أن الأول**: يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه، **والثاني**: يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

(الفائدة الثالثة) أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول، ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراه وقرنه بأنفاسه فإنه لم يدع شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه. ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضاً متكرراً في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة، وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها.

□ □ □

وأما المسألة الخامسة: وهي أنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقل: المنعم عليهم، كما قال: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ فجوابها وجواب المسألة السادسة واحد، وفيه فوائد عديدة:

(أحدها) أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله فمنه هذه الآية، فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبني الفعل للمفعول فقال: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقال في الإحسان: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠].

فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض، قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فأضاف العيب إلى نفسه. وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ . . .﴾ إلى آخرها [النساء: ٢٣]، ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

وتأمل قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع، وقال في حق المؤمنين: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣].

(الفائدة الثانية) أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى، الذي هو أساس الشكر، وكان في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصلين، وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

(الفائدة الثالثة) أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته، فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد فيقال ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة، وأما الغضب، فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه، ويرضى عمن رضي عنه، فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية، واليهود قد غضب الله عليهم، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل

الغضب، وقال: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام، فإنه لله وحده، فتأمل هذه النكتة البديعة.

(الفائدة الرابعة) أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم، وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب وإن كانتا بمعنى الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: الذين فعلوا معناه القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضربون ليس فيه ما في قولك: الذين ضربوا أو ضربوا. فتأمل ذلك.

فالذين أنعمت عليهم، إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم، فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم، والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم.

□ □ □

وأما المسألة السابعة: وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف «إلى»(١).

فجوابها أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة وبحرف «إلى» تارة وباللام تارة، والثلاثة في القرآن.

فمن المعدى بنفسه هذه الآية وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

ومن المعدى بـ«إلى» قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومن المعدى باللام قوله قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جداً عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدة تشير إلى الفرق وهي: أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو: رغبت عنه، ورغبت فيه، وعدلت إليه، وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه.

وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه، وقصدت له، وهديته إلى كذا، وهديته لكذا.

---

(١) في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ حيث لم يقل: اهدنا إلى الصراط [الشامي].

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف، ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه، هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه(١) رحمه الله تعالى، وطريقة حذَّاق أصحابه يضمِّنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]. فإنهم يضمنون يشرب معنى يروي، فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين **أحدهما**: بالتصريح به، **والثاني**: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها. ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتى روين، ثم ترفعن وصعدن. وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها، فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال: يروي بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه، بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها دل على الشرب بصريحه وعلى الري بخلاف الباء، فتأمله.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ﴾ [الحج: ٢٥]. وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء ولكن ضمن معنى يهم فيه بكذا، وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدي بـ«إلى» تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتي بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتي باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام.

---

(١) سيبويه: إمام النحو، حجة العرب، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، ثم البصري، صاحب «الكتاب» الذي لم ينسج مثله. وسيبويه تعني «رائحة التفاح».
عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نحو الأربعين، قيل: مات سنة ثمانين ومئة وهو أصح، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومئة. من سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٥١)، تاريخ بغداد (١٢/ ١٩٥).

فالقائل إذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف وأتي به مجرداً معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عدي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف، فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.

□ □ □

وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة[(١)] بالهداية دون غيرهم فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين؛ وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟ فمن نافٍ محتج بهذه وبقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي؟

ومن مثبت محتج بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله لليهود: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨١ ـ ٨٣]. وهذا نص صريح لا يحتمل صرفاً.

واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك، فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد

(١) وفي نسخة خص أهل الهداية بالنعمة دون غيرهم.

سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب.

وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع؛ ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب.

وأما قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم، ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة؛ بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلُّوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم. وبأن ظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته، وكأن نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم، والله أعلم.

□ □ □

وأما المسألة التاسعة: وهي أنه قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ ولم يقل: (لا المغضوب عليهم) فيقال: لا ريب أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل. وأما «غير» فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف، فتقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم، لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضى العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل، لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم، وأما الإتيان بلفظ «غير» فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين **أحدهما**: أنهم منعم عليهم، **والثاني**: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم، فإنه يتضمن صفتين: صفة ثبوتية وهي كونهم منعماً عليهم، وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب وأنهم مغايرون

لأهله، ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود.

وفيها فائدة أخرى وهي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم. وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم. فالإتيان بلفظة غير في هذا السياق أحسن وأدل على إثباتها المغايرة المطلوبة.

فتأمله وتأمل كيف قال: المغضوب عليهم ولا الضالين، ولم يقل: اليهود والنصارى مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريداً لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال، فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

□ □ □

وأما المسألة العاشرة: وهي جريان «غير» صفة على المعرفة، وهي لا تتعرف بالإضافة ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن «غير» هنا بدل لا صفة وبدل النكرة من المعرفة جائز، وهذا فاسد من وجوه.

[منها]: أن «غير» لا يعقل ورودها بدلاً وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً. وسر ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها، ولهذا قلما يقال: جاءني غير زيد، ومررت بغير عمرو. والبدل لا بد أن يكون مستقلاً بنفسه كما تبين أنه المقصود، ونكتة الفرق أنك في باب البدل قاصد إلى الثاني متوجه إليه، قد جعلت الأول سلماً ومرقاة إليه فهو موضع قصدك ومحط إرادتك، وفي باب الصفة بخلاف ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته، فاجعل هذه النكتة معياراً على باب البدل والوصف ثم زن بها غير المغضوب عليهم هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفاً؟.

الجواب الثاني: أن «غير» ههنا صح جريانه صفة على المعرفة، لأنها موصولة، والموصول مبهم غير معين ففيه رائحة من النكرة لإبهامه، فإنه غير دال على معين، فصلح وصفه «بغير» لقربه من النكرة، وهذا جواب صاحب الكشاف قال: (فإن قلت: كيف صح أن يقع «غير» صفة للمعرفة وهو لا يتعرف، وإن أضيف إلى المعارف قلت: الذين أنعمت عليهم، لا توقيت فيه فهو كقوله:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني)

ومعنى قوله: لا توقيت فيه، أي لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة، بل هو مطلق في الجنس، فجرى مجرى النكرة، واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبني، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة[1] باللام لكونه غير معين فهو في قوة النكرة فجاز أن ينعت بالنكرة، وكأنه قال: على لئيم يسبني.

وهذا استدلال ضعيف؛ فإن قوله: (يسبني) حال منه لا وصف، والعامل فيه فعل المرور. المعنى أمر على اللئيم ساباً لي، أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزه ولا أحتفل بسبه.

الجواب الثالث: وهو الصحيح أن «غير» ههنا قد تعرفت بالإضافة، فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور، فلا يحصل بها تعيين ولهذا تجري صفة على النكرة مع إضافتها إلى المعرفة، ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين يذكر أحدهما ثم تضيفها إلى الثاني فيتعين بالإضافة ويزول الإبهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة كما قال:

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر النسب المعروف غير المنكر

أفلا تراه أجرى «غير المنكر» صفة على «النسب» كما أجرى عليه «المعروف»؛ لأنهما صفتان معينتان، فلا إبهام في «غير» لأن مقابلها «المعروف» وهو معرفة وضده المنكر متميز متعين كتعين «المعروف»، أعني تعين الجنس.

وهكذا قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، فإذا كان الأول معرفة كانت «غير» معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم، فاكتسبت منه التعريف، وينبغي أن تتفطن ههنا لنكتة لطيفة في «غير» تكشف لك حقيقة أمرها، فأين تكون معرفة؟ وأين تكون نكرة؟ وهي أن «غير» هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه فهي واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه، فإن «المعروف» هو تفسير «غير المنكر»، والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، هذا حقيقة اللفظة، فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة، وإن أضيفت، كما إذا قلت: رجل غيرك فعل كذا وكذا، وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة، كما إذا قيل: المحسن غير المسيء محبوب معظم عند الناس،

---

(١) في نسخة المعرف.

والبر غير الفاجر مهيب، والعادل غير الظالم مجاب الدعوة، فهذا لا تكون فيه «غير» إلا معرفة، ومن ادعى فيها التنكير هنا غلط وقال ما لا دليل عليه، إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله.

فإن قلت: عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر وهي أنها بمعنى «مغاير» اسم فاعل من «غاير» كمثل بمعنى مماثل، وشبه بمعنى مشابه، وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة وكذا ما ناب عنها.

قلت: اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة إذا أضيف إلى معموله، لأن الإضافة في تقدير الانفصال، نحو هذا ضارب زيد غداً. وليست «غير» بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال: الإضافة في تقدير الانفصال، بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات. ألا ترى أن قولك: غيرك، بمنزلة قولك: سواك. ولا فرق بينهما، والله أعلم.

□ □ □

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

(فالجواب): أن قولهم الأول في البدل في نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه، بل البدل نوعان: نوع يكون الأول فيه في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكل وبدل الاشتمال؛ لأن المقصود هو الثاني لا الأول وقد تقدم، ونوع لا ينوى فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه.

فإنه لما قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصاً بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله، فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها، فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك عنده توكيداً وتقويه فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة. أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين

الناجين قدراً زائداً على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة؟ فإن النفوس مجبولة على التأسي والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسى به في سلوكها أنست واقتحمتها، فتأمله.

□ □ □

وأما المسألة الثانية عشرة: وهي ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، مع تلازم وصفي الغضب والضلال؟

(فالجواب) أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفيها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليهما، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع. أما اليهود فقال تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]. وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه ومحاربته، فاستحقوا بكفرهم غضباً، وبالبغي والحرب والصد عنه غضباً آخر.

القول الثاني: أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

والقول الثالث: أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد، بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وكفرهم بالمسيح، وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسل الله، إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضباً على حدته. وهذا كما في قوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣، ٤]، أي كرة بعد كرة لا مرتين فقط. وقصد التعدد في قوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] أظهر، ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضباً، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضباً آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضباً آخر، وتكذيبهم المسيح

وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضباً، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضباً، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضباً، وصدهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضباً، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بالغضب المضاعف المتكرر، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى.

وقال تعالى في شأنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠]. فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ وهو أشد ما يكون من الغضب.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨٠].

وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٧]. فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً، ثم أضلوا كثيراً وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به فتضاعف الضلال في حقهم.

هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره.

وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: أنهم قد ضلوا من قبلهم.

والثاني: أنهم أضلوا أتباعهم.

والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل.

فهذه صفات لأسلافهم الذين نهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح أن يكون

وصفاً للموجودين في زمن النبي ﷺ؛ لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهي عنهم، فتأمله. وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال لفرط جهلهم بالحق، وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود، ووجه تكرار هذا الضلال أن الضال قد أخطأ نفس مقصوده، فيكون ضالاً فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبده، وقد يصيب مقصوداً حقاً، لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه.

فالأول: ضلال في الغاية.

والثاني: ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة؛ فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه، وزعموا أن إلٰههم بشر يأكل ويشرب ويبكي وأنه قتل وصلب وصفع، فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه، فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه، ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيراً، فكانوا أدخل في الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة، فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله كما يعرفون أبناءهم، ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء، ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق، فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها، فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته، فلم يكن ضلالاً محضاً، وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوباً عليهم ضالين.

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته، كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم؛

تعريفاً وبياناً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة، فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى. وهذا كما قالوا، فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله، وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود؛ من الكفر واللي والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر. وأما من فسد من العبَّاد فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ، وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد، فشبهه بالنصارى ظاهر.

فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد. ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين إنه قريب مجيب.

□ □ □

وأما المسألة الثالثة عشرة: وهو تقديم المغضوب عليهم على الضالين، فلوجوه عديدة:

أحدها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني: أنهم كانوا هم الذين يلون النبي ﷺ من أهل الكتابين، فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارى كانت ديارهم نائية عنه، ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارى، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور.

الثالث: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة؛ فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم، فالتحذير من سبيلهم والبعد

منها أحق وأهم بالتقديم وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند.

والرابع: وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعم عليهم، والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه فكن من المنعم عليهم، أحسن من قولك: منعم عليه وضال.

□ □ □

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول، وفي الضالين باسم الفاعل.

فجوابهما ظاهر؛ فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم، وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلين مبنياً للمفعول، لما في رائحته من إقامة عذرهم، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فعل فيهم.

□ □ □

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي ما فائدة زيادة «لا» بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد:

أحدها: أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه «غير»، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بلا مع الواو، فهو في قوة: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، أو غير المغضوب عليهم وغير الضالين.

الفائدة الثانية: أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين، وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر «لا»، وقيل: غير المغضوب عليهم والضالين، أوهمَ أن المراد ما غاير المجموع المركب من النوعين، لا ما غاير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ولا الضالين كان صريحاً في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء. وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو، فإنما نفيت القيام عنهما، ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده.

الفائدة الثالثة: رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم، وأنهما صنف واحد، وصفوا بالغضب والضلال ودخل العطف بينهما كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي

صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ إلى آخرها [المؤمنون: ١ ـ ٣]. فإن هذه صفات للمؤمنين، ومثل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، ونظائره، فلما دخلت «لا» علم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر وكانت «لا» أولى بهذا المعنى من «غير» لوجوه:

أحدها: أنها أقل حروفاً.

الثاني: التفادي من تكرار اللفظ.

الثالث: الثقل الحاصل بالنطق بغير مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة، ولا ريب أنه ثقيل على اللسان.

الرابع: أن «لا» إنما يعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفي عنهم الضلال، و«غير» وإن أفهمت هذا ف«لا» أدخل في النفي منها.

وقد عرف بهذا الجواب، المسألة السادسة عشرة وهي أن «لا» إنما يعطف بها في النفي.

□ □ □

وأما المسألة السابعة عشرة: وهي أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات؟ فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه.

ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين. وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة

لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها؛ كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه مهملاً وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته، بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله؟! ولهذا أنكر ذلك على من زعمه ونزه نفسه عنه، وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه وأنه يتعالى عنه فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه عن هذا الحسبان فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا لا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بيَّنا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١].

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

إذا عرف هذا فالهداية المسؤولة في قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

(فإن قيل): كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟ قيل: هذه هي.

□ □ □

المسألة الثامنة عشرة: وقد أجاب عنها من أجاب: بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، ولقد أجاب، وما أجاب وذكر فرعاً لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها، ونحن نبيِّن بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور؛ وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوباً للرب تعالى مرضياً له فيؤثره، وكونه مغضوباً له مسخوطاً عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء؛ نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريداً لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازماً عليه ومريداً لترك جميع ما نهى الله عنه، عازماً على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازماً على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء؛ نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً، فإن نقص من فعله شيء؛ نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

أحدها: أمور هُدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها؛ فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هدي إليها من وجه دون وجه؛ فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها.

فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه، ويتعلق بالماضي أمر سابع،

وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك: بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل، فحينئذٍ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسؤول هو أصل الهداية على الدوام تعليماً وتوفيقاً وخلقاً للإرادة فيه وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية وتثبيتاً له على ذلك.

فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علماً وعملاً والتثبيت عليها والدوام إلى الممات. وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع، ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية. فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا على دينه.

□ □ □

أما المسألة التاسعة عشرة: وهي الإتيان بالضمير في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ ضمير جمع.

فقد قال بعض الناس في جوابه: إن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به. فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه، وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ فاسْتَرَكَّه واستضعفه جداً. وهو كما قال: فإن الإنسان اسم للجملة لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه. والقائل إذا قال: اغفر لي وارحمني واجبرني وأصلحني واهدني سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهره وباطنه، فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة.

فالصواب أن يقال: هذا مطابق لقوله: إياك نعبد وإياك نستعين، والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك. فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك.

ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك استدعى مقته؛ فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم، لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جداً وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد، فتأمله.

وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن.

□ □ □

وأما المسألة العشرون: وهي ما هو الصراط المستقيم؟.

فنذكر فيه قولاً وجيزاً، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته؛ وحقيقته شيء واحد: وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلاً لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحداً في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحداً في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: «إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين؛ صدق محبته وحسن معاملته». وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمداً رسول الله، وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به. فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة، ومعنى قول من قال: متابعة رسول الله ظاهراً وباطناً علماً وعملاً، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال، كقول من قال: الصلوات الخمس، وقول من قال

حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها. فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم، والله أعلم[١].

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٩ ـ ٤١).

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة: ١].

تأمل سر ﴿الٓمٓ﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتماداً على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف، أعني الحلق واللسان والشفتين.

وترتيب في التنزيل منذ البداية إلى الوسط إلى النهاية، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجاً، فيصير منها تسعة وعشرون حرفاً عليها مدار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمنها سراً عجيباً. وهو أن للألف البداية، واللام التوسط، والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما.

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه؛ فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم.

وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات[1] لم يجمعها غيرها؛ وهي الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق، والسين مهموس مرخو مستفل صفيري منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء؛ فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.

وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة، كيف نجد السورة مبنية على

(١) ذكر المصنف أربعة، والخامسة: هي القلقلة.

كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك قٓ، والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم وتلقي الملكين قول العبد وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقديم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين، وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح هذا، فتأمل ما اشتملت عليه سورة صٓ من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]. إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن، هل يليق بهذه السورة غير صٓ؟! وبسورة قٓ غير حرفها؟! وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان والجود والصدق والإصلاح في الأرض ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب، أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به.

والأمر الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملاً، وقبل أوامره وصدق أخباره، كان ذلك سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٤). وانظر بشأن الأحرف في أوائل السور (٣/ ١٧٦).

فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية. فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى. وكلما فوت حظاً من التقوى؛ فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

معلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار؛ فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك. اهـ.

قال: و«الختم»، قال الأزهري[(٢)]: أصله التغطية، وختم البذر في الأرض، إذا غطاه. قال أبو إسحاق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣]، قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق[(٣)].

---

(١) الفوائد (١٢٨، ١٢٩).

(٢) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر، اللغوي الإمام المشهور في اللغة، كان فقيهاً شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، ألف «تهذيب اللغة» من أعظم كتبه، وانظر في ذلك مقدمة الأستاذ العلامة «عبد السلام هارون» لهذا الكتاب (١/ ١٣)، ولد في (٢٨٢) وتوفي في (٣٧٠) وقيل: (٣٧١)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٣١٥)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٣٣٤)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٧٢).

(٣) شفاء العليل (٩١، ٩٢).

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]. وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. مما أشكل إعرابه على فحول العربية واختلفت أقوالهم في ذلك.

فقال صاحب الكشاف[(١)]: سواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]، بمعنى مستوية، وارتفاعه على أنه خبر لـ«إن»، «وأنذرتهم أم لم تنذرهم» في موضع رفع على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، كما تقول: إن زيداً مختصم أخوه وابن عمه، أو يكون «أنذرتهم أم لم تنذرهم» في موضع الابتداء، وسواء خبراً مقدماً بمعنى سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لإن.

(قال: فإن قلت:) الفعل أبداً خبر لا مخبر عنه، فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام؟

(قلت): هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً، من ذلك قولهم: (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) معناه: لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل، والهمزة وأم مجردتان بمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً.

قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النداء في قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذاك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء استواؤهما في علم المستفهم عنهما، لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن؛ إما الإنذار وإما عدمه ولكن لا بعينه، وكلاهما معلوم بعلم غير معين.

---

(١) هو الزمخشري، العلامة، كبير المعتزلة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، صاحب «الكشاف» وهو تفسير للقرآن بثه مذهبه الاعتزالي، وكان داعية له، من مؤلفاته: «أساس البلاغة»، «والفائق في غريب الحديث» وغيرها. كان مولده في رجب سنة (٤٦٧)، وتوفي في ليلة عرفة سنة (٥٣٨). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ١٥٥)، و«وفيات الأعيان» (٥/ ١٦٨، ١٦٩)، و«العقد الثمين» (٧/ ١٤٧)، وانظر: «الكشاف للزمخشري» (١/ ٢٥).

(قلت:) هذا قوله وقول طائفة من النحاة، وقد اعترض على ما ذكراه بأنه يلزم القائل به أن يجيز سواء قمت أم قعدت دون أن تقول علي أو عليك.

وأنه يجيز سيان أذهب زيد أم جلس، ويتفقان أقام زيد أم قعد، وما كان نحو هذا مما لا يجوز في الكلام ولا روي عن أحد، لأن التقدير الذي قدروه منطبق على هذا.

وقالت طائفة أخرى: سواء هاهنا مبتدأ، والجملة الاستفهامية في موضع الخبر، وإنما قالوا هذا وإن كان سواء هاهنا مبتدأ، والجملة لا تكون في موضع المبتدأ أبداً ولا في موضع الفاعل، وأورد عليهم أن الجملة إذا وقعت خبراً فلا بد فيها من ضمير يعود على المبتدأ، فأين الضمير العائد على سواء هاهنا؟ فأجابوا عن هذا: بأن سواء وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في المعنى خبر، لأن المعنى: سواء عليهم الإنذار وعدمه. قالوا: ولا يلزم أن يعود من المبتدأ ضمير على الخبر، فلما كان سواء خبراً في المعنى دون اللفظ روعي المعنى، ونظير هذا قولهم: ضربي زيداً قائماً، فإنه لم يعد على «ضربي» ضمير من الحال التي سدت مسد الخبر، لأن معناه أضرب زيداً أو ضربت زيداً، والفعل لا يعود عليه ضمير فكذلك ما هو في معناه وقوته، ونظيره أيضاً: أقائم أخوك؟ لأن «أخوك» وإن سد مسد الخبر فإنه فاعل في المعنى، «وقائم» معناه معنى الفعل الرافع للفاعل، فروعيت هذه المعاني في هذه المواضع، وهجر فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وبقي حكم الابتداء مقتضياً للرفع لفظاً، والمبتدأ متضمن لمعنى يخالف معنى الابتداء فحكم لذلك المعنى فلم يعد على اللفظ ضمير، وحكم للفظ المبتدأ بحكم الابتداء فارتفع، فهذا قول هذه الطائفة الأخرى.

واعترض عليه بعد الاعتراف بحسنه وقوته، بأن العرب لم تنطق بمثل هذا في «سواء» حتى قرنته بالضمير المجرور بعلى نحو سواء عليكم، وسواء عليهم، وسواء عليَّ، فإن طردوا ما أصّلوه في سواء، سواء قرن بعلى أم لم يقرن فليس كذلك، وإن خصوه بالمقرون بعلى فلم يبينوا سر اختصاصه بذلك.

وقالت طائفة ثالثة منهم السهيلي: وهذا لفظه: لمَّا كانت العرب لا تقول: سيان أقمت أم قعدت، ولا مثلان، ولا شبهان، ولا يقولون ذلك إلا في سواء مع المجرور بعلى، وجب البحث عن السر في ذلك، وعن مقصد القوم في هذا الكلام، وعن المساواة بين أي شيء هي، وفي أي الصفات هي من الاسمين

الموصوفين بالتساوي، فوجدنا معنى الكلام ومقصوده إنما هو تساوي عدم المبالاة بقيام أو قعود أو إنذار أو ترك إنذار، ولو أرادوا المساواة في صفة موجودة في الذات لقالوا: سواء الإقامة والشخوص، كما يقولون: سواء زيد وعمرو، وسيان ومثلان يعني استواءهما في صفة ذاتيهما، فإذا أردت أن تسوي بين أمرين في عدم المبالاة وترك الالتفات لهما وأنهما قد هانا عليك وخفًّا عليك، قلت: سواء عليَّ أفعل أم لم يفعل، كما تقول: لا أبالي أفعل أم لم يفعل؛ لأن المبالاة فعل من أفعال القلب، وأفعال القلب تلغى إذا وقعت بعدها الجمل المستفهم عنها أو المؤكدة باللام، تقول: لا أدري أقام زيد أم قعد، وقد علمت ليقومن زيد، ولكن لا تلغى هذه الأفعال القلبية حتى يذكر فاعلها في اللفظ أو في المعنى فتكون حينئذٍ في موضع المفعول بالعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨ ـ ٩].

أخبر ﷻ أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله خادع مَنْ خدعه، وأنه يكفي المخدوع شرَّ من خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال، والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع، وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة، فإنهم يقولون: طريق خَيْدَع، إذا كان مخالفاً للقصد لا يُشْعَر به، ولا يفطن له، ويقال للسراب: الخَيْدَع، لأنه يغر من يراه، وضب خَدِع، أي: مراوغ، كما قالوا: أخدع من ضب.

ومنه: «الحرب خَدْعَة»(٢)، وسوق خادعة، أي: متلونة.

وأصله: الإخفاء والستر، ومنه سميت الخِزانة: مخدعاً(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له، مؤثراً له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه وإما بإيثار غيره عليه.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٤٥ ـ ٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩). (٣) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٠).

فمرض المنافقين: مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة.. وقد سمى الله سبحانه كلًّا منهما مرضاً.

قال ابن الأنباري[١]: أصل المرض في اللغة: الفساد، مرض فلان: فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض: تغيرت وفسدت، قالت ليلى الأخيلية[٢]:

إذا هبط الحجاج مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها

وقال آخر:

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لفقد الحسين والبلاد اقشعرت

والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة.

ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه، ولم يبالغ، وعين مريضة النظر: أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة: إذا هب هبوبها، كما قال:

راحت لأربعك الرياح مريضة

أي: لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي[٣]: أصل المرض النقصان ومنه: بدن مريض؛ أي ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين. ومرض في حاجتي: إذا نقصت حركته.

وقال الأزهري عن المنذري عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها. قال: والمرض: الظلمة، وأنشد:

وليلة مرضت في كل ناحية ... فما يضيء لها شمس ولا قمر

---

(١) الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري المقرئ النحوي، من كتبه: «كتاب الوقف والابتداء»، و«كتاب المشكل»، و«شرح المفضليات» وغيرها كثير، ولد في (٢٧٢) وكانت وفاته في (٣٢٨)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧٤)، تاريخ بغداد (٣/ ١٨١ ـ ١٨٦)، طبقات الحنابلة (٢/ ٦٩ ـ ٧٣)، وفيات الأعيان (٤/ ٣٤١ ـ ٣٤٣).

(٢) هي ليلى بنت الأخيل، من عُقيل بن كعب، وهي من أشعر النساء لا يقدم عليها غير خنساء.. ماتت في زمن الحجاج. انظر: الشعر والشعراء، (طبقات الشعراء) لابن قتيبة (٢٢٠)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٧ ـ ٥٠).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي إمام اللغة. ولد بالكوفة سنة (١٥٠) وتوفي في (٢٣١)، انظر: حياته وآثاره في مقدمة كتابه «العبرُ» للأستاذ الدكتور «رمضان عبد التواب» حفظه الله تعالى. وانظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٨٧)، تاريخ بغداد (٥/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٩٥)، وفيات الأعيان (٤/ ٣٠٦ ـ ٣٠٩)، تهذيب اللغة (١/ ٢٠، ٢١).

هذا أصله في اللغة.

ثم الشك والجهل والحيرة والضلال وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب: تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد.

فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات؛ **أحدها**: تكذيبهم، **والثاني**: الإخبار بأنهم مفسدون، **والثالث**: حصر الفساد فيهم بقوله: هم المفسدون، **والرابع**: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين، وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]. فنفى علمهم بسفههم وشعورهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسداً ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج، مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه. وكذلك كونه سفيهاً، والسفه غاية الجهل، وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه؛ فتضمنت الآيتان الإسجال عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفساد صلاحاً والشر خيراً.

* * *

---

(١) شفاء العليل (٩٨، ٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضاً، فإن المؤمنين قالوا لهم: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾، فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ﴾. وتقرير المناظرة من الجانبين أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم ولا سيما إذا قامت أدلته، وصحت شواهده، فأجابهم المنافقون بما مضمونه: أنَّا إنما يجب علينا موافقة العقلاء، وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار، فلا يجب علينا موافقتهم، فرد الله تعالى عليهم، وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع:

(أحدها) تسفيههم، **(الثاني)** حصر السفه فيهم، **(الثالث)** نفي العلم عنهم، **(الرابع)** تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان، **(والخامس)** أيضاً وهو تكذيبهم، فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ٢٠].

هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر.

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً نارياً ومثلاً مائياً، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة، فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة، وقد

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٠، ١٣١).

جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سماه روحاً ونوراً، وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأساً أمواتاً في الظلمات.

وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي، وأنهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاؤوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لمّا لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام؛ طفئ عليهم وذهب الله بنورهم ولم يقل: بنارهم، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾(1).

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ كيف جعل ضوءها خارجاً عنه منفصلاً ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة، لا ملابسة ومخالطة. وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية؛ فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها؛ فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله تعالى قائمة؛ وحكمة بالغة، تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾، ولم يقل: بنارهم، ليطابق أول الآية؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق؛ فذهب بما فيها من الإشراق ـ وهو النور ـ وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وهو النارية.

تأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمۡ﴾، ولم يقل: بضوئهم، مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾؛ لأن الضوء هو زيادة في النور. فلو قال: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط، دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته.

وأيضاً فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضاً فإن الله تعالى سمَّى كتابه نوراً، ورسوله نوراً، ودينه نوراً، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم: ذهاب بهذا كله.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٠، ٢٠١).

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، كيف طابق بين هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضى بها، وبذل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها، بدلاً عن النور الذي هو الهدى والنور، فبذلوا الهدى والنور، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!.

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ فوحده، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ فجمعها. فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء، والبدع، وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة متشعبة. ولهذا يفرد الله سبحانه الحق ويجمع الباطل، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فجمع سبيل الباطل، ووحد سبيل الحق. ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]. فإن تلك هي طرق مرضاته، التي يجمعها سبيله الواحد، وصراطه المستقيم. فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها. وقد صح عن النبي ﷺ أنه خط خطاً مستقيماً، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣](١).

وقوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن، وهو عليهم عمى، أعمى الله قلوبهم فهم لا يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد، مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء.

والبكم: جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق، والبكم نوعان: بكم القلب وبكم

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (٤١٤٢) وصححه المحدث أحمد شاكر رحمه الله.

اللسان، كما أن النطق نطقان، نطق القلب ونطق اللسان، وأشدهما بكم القلب، كما أن عماه وصممه أشد من عمىٰ العين، وصمم الأذن.

فوصفهم الله سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق، ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم يدخل من ثلاثة أبواب: من سمعه، وبصره، وقلبه، وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسدَّ السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم(١).

□ □ □

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً آخر مائياً، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]. فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب مستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها. فذهب نوره، وبقي في الظلمات حائراً تائهاً، لا يهتدي سبيلاً، ولا يعرف طريقاً، وبنصيب أصحاب الصَّيّب، وهو المطر الذي يصوب، أي ينزل من عُلو إلى سفل. فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر.

وشبه نصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك، مما هو المقصود بالصيب، من حياة البلاد والعباد، والشجر والدواب، فإن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك: من برد شديد وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب. وهذه حال أكثر الخلق، إلا من صفت بصيرته. فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق، والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته. لم يقدم عليه، لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

---

(١) هذه الفقرة من شفاء العليل (٩٦).

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام، فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته. فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان، الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه. والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبلغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علماً وعملاً ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود.

□ □ □

وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة.

منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره، لا من قبل نفسه. فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة. وهكذا المنافق، لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه، وتصديق جازم، كان ما معه من النور كالمستعار.

ومنها: أن ضياء النار يحتاج دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح، يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا لم توجد مادة الإيمان طفئ كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

ومنها: أن الظلمة نوعان؛ ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور؛ وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه؛ فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار، الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

ومنها: أن في هذا المثل إيذاناً وتنبيهاً على حالهم في الآخرة، وأنهم يعطون نوراً ظاهراً، كما كان نورهم في الدنيا ظاهراً. ثم يطفأ ذلك أحوج ما يكونون إليه إذ لم تكن له مادة باقية تحمله، وبقوا في الظلمة على الجسر، لا يستطيعون العبور، فإنه لا يمكن أحداً عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر. فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما

كان إليه صاحبه. فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار، وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم النور.

ومن هاهنا يعلم السر في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: أذهب الله نورهم.

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقد سئل عن الورود؟ فقال: «نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس. قال: فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد: الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك، فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك. قال: فينطلق بهم، فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم ـ منافق أو مؤمن ـ نوراً ثم يتبعونه. وعلى جسر جهنم كلاليب وحَسَك، تأخذ من شاء الله تعالى. ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون. فتنجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفاً لا يحاسبون. ثم الذين يلونهم، كأضوإ نجم في السماء، ثم كذلك. ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء...»(١)، وذكر باقي الحديث.

فتأمل قوله: «فينطلق فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم نوراً: المنافق والمؤمن» ثم تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، وتأمل حالهم إذ أطفئت أنوارهم، فبقوا في الظلمة، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم عز وجل.

ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة، التي هي الضلال والحيرة التي ضدها الهدى. والمثل الثاني: متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن. فلا أمن ولا هدى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال ابن عباس(٢) وغيره من السلف: مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً

---

(١) رواه مسلم (١٩١).
(٢) راجع تفسير الطبري في تفسير الآية (١/ ١٤٠).

في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء ورأى ما حوله. فاتقى ما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمته خائفاً متحيراً. كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم وأولادهم، وناكحوا المؤمنين ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم؛ فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور: بأنها في الدنيا، وفسرت بأنها في البرزخ وفسرت بيوم القيامة. والصواب: أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم، جزاء وفاقاً: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فإن المعاد يعود إلى العبد فيه ما كان حاصلاً منه في الدنيا، ولهذا يسمى يوم الجزاء: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]. ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

ومن كان مستوحشاً مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار؛ فوحشته معه في البرزخ ويوم المعاد أعظم وأشد. ومن قرت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرت عينه به يوم القيامة وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه. ويعود عليه عمله بعينه، فينعم ظاهراً وباطناً، فيورثه من الفرح والسرور واللذة والبهجة، وقرة العين والنعيم، وقوة القلب واستبشاره وحياته وانشراحه، ما هو من أفضل النعيم، وأجله وأطيبه وألذه، وهل النعيم إلا طيب النفس، وفرح القلب وسروره وانشراحه، واستبشاره؟.

هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذ عينه من سائر المشتهيات التي تشتهيها الأنفس وتلذها الأعين، ويكون تنوع تلك المشتهيات، وكمالها وبلوغها مرتبة الحسن والموافقة، بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه، وبلوغه مرتبة الإحسان فيه وبحسب تنوعه، فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار، وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده متبوعها والابتهاج بها، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال، ومتبوعه فيها في هذه الدار.

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة أثراً وجزاء ولذة ونعيماً يخصه، لا يشبه أثر الآخر وجزاءه، لهذا تنوعت لذات أهل الجنة، وآلام أهل النار، وتنوع ما فيها من الطيبات والعقوبات. فليست لذة كل من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من إنما سهمه ونصيبه في نوع

واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مساخط الله بنصيب، كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه.

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد، وتفاوت الناس في أحواله، وما يجري فيه من الأمور(١).

فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً، وإلى الإيمان وحقائقه منادياً، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً، وإلى طريق الرشاد هادياً. لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذاناً واعية، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً خالية. ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات. فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة، فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل، فلم تصغ بعد إلى الملام، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة، وأسر الهوى والشهوة، وما لجرح بميت إيلام(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٤].

فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين، من إثبات الصانع وصفات كماله؛ من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله، وحدوث العالم وإثبات نوعي توحيده تعالى؛ توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٢ ـ ١٦).

(٢) الوابل الصيب (٦٨ ـ ٧٠) بتحقيق الأرناؤوط.

ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن المعاد والجنة، والنار فثبت صحة ذلك ضرورة.

فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه، فصدَّرها تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم، ثم قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، فأمرهم بعبادة ربهم؛ وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكاً خالصاً حقيقياً، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه ـ فعبادته له وشكره إياه واجب عليه.

ولهذا قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، ولم يقل: إلٰهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها؛ فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾، فنبه بهذا أيضاً على وجوب عبادته وحده، وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فإذا كان هو وحده الخالق، فكيف لا يكون وحده المعبود؟! وكيف تجعلون معه شريكاً في العبادة، وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق؟! وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلٰهية.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم، وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته فلا شبيه له فيها، ولا في أفعاله فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه، ويذكرونه فلا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه؛ فهذه حقيقة تقواه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى: اعبدوه لتتقوه بعبادته. وقيل: المعنى خلقكم لتتقوه، وهو أظهر لوجوه:

(أحدها) أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.

(الثاني) أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(الثالث) أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من الأمر.

ولمن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: لعلكم تتقون تعليلاً للأمر بالعبادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فهذا تعليل لكتب الصيام، ولا يمتنع أن يكون تعليلاً للأمرين معاً، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. فذكر تعالى دليلاً آخر متضمناً للاستدلال بحكمته في مخلوقاته؛ فالأول متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء، والثاني متضمن للحكم المشهودة في خلقه ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيراً ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن، وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالم وهو الأرض، وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد، وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشاً على تمام حكمته، في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها؛ فجعلها فراشاً ومهاداً وبساطاً وقراراً، وجعل سقفها بناء محكماً مستوياً لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب.

ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وأن كل متكلم ومستدل ومحجاج إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه، فغايته ـ إن صح ما يذكره ـ أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن. فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لا ندَّ له يشاركه في فعله.

فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النبوة فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به، وقلتم: إنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل

الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، حتى إن الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته، وقبح ركاكته وخسته؛ فهو كمن أظهر طيباً لم يشم أحد مثل ريحه قط، وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقان بعذرة منتنة خبيثة، وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به. فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهاناً وعظمة وجلالة!

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد عليَّ بكل من تقدر عليه من أصحابك، وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحداً حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلاً إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله.

والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق؛ أميّهم وكتابيّهم وعربهم وعجمهم، ويقول: لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبداً، فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة، وإيتام الأولاد، وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته، وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة: هذا **(أحدها)**.

(وثانيها) إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالاً عاماً إلى يوم القيامة؛ أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

(وثالثها) النظر إلى نفس ما تحدى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه.

وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره ولو لم يتأمله، فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن، تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه، حتى قَصَرَ بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها، وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام، وبعضهم على

ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله.

فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره، وقد أخبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقيناً، فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] الآية. فاشتملت الآيات على تقرير مهمات أصول الدين من إثبات خالق العالم وصفاته ووحدانيته ورسالة رسوله، والمعاد الأكبر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمته، وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به وضمنه لك وجعله أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج جمع زوج، والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، هذا هو الأفصح وهو لغة قريش وبها نزل القرآن؛ لقوله: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ومن العرب من يقول: زوجة وهو نادر لا يكادون يقولونه.

وأما المطهرة، فإن جرى صفة على الواحد فيجري صفة على جمع التكثير إجراء له مجرى جماعة، كقوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ [الصف: ١٢]، وقولهم: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨] ونظائره. والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣١ ـ ١٣٦).

قال عبد الله بن المبارك[١]: حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، قال: «من الحيض والغائط والنخامة والبصاق»، وقال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس: (مطهرة: لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنجسن). وقال ابن عباس أيضاً: (مطهرة من القذر والأذى لا يبلن ولا يتغوَّطن ولا يمذين ولا يمنين ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخَّمن ولا يلدن)، وقال قتادة: (مطهرة من الإثم والأذى، طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقذر ومأثم)[٢].

وقولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة؟

قيل: فيه قولان: ففي تفسير السدي[٣] عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل أنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهاً يعرفونه. وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من ثمار الجنة، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً في اللون والطعم، واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض؛ أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا، ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

---

(١) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٤) في تفسير الآية ذاتها.
وقال: رواه الحافظ «أبو أبكر بن مردويه»، ثم قال: هذا حديث غريب، وقد رواه الحاكم في مستدركه، وقال: على شرط الشيخين. وهذا الذي ادعاه فيه نظر.. إلخ.اهـ. وقد بذلت جهدي ولم أعثر عليه في المستدرك، وانظر: «فتح القدير» للشوكاني في (١/ ٥٥)، والطبري (١/ ٣٩٧) بتحقيق آل شاكر.

(٢) حادي الأرواح (١٧٧ ـ ١٧٨).

(٣) السُّدّي، إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن أبي كريمة، الإمام المفسر أبو محمد الحجازي الأعور.. روى عن أنس وابن عباس وغيرهم، وحدث عنه شعبة وسفيان الثوري وآخرون. توفي في سنة سبع وعشرين ومائة، روى له مسلم والأربعة. وهو غير السدي الصغير، محمد بن مروان الكوفي أحد المتروكين، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٤)، الطبقات الكبرى (٦/ ٣٢٣)، والأثر رواه الطبري في تفسيره (١/ ١٧١).

الحجة الثانية: ما حكاه ابن جرير[١] عنهم قال: ومن علة قائلي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله كما كان، حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، حدثنا سفيان: سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة وذكر ثمر الجنة، وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى.

الحجة الثالثة: قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾، وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: هذا الذي رزقنا من قبل.

والحجة الرابعة: أن المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها.

ورجحت طائفة: منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه: قال ابن جرير[٢]: والذي يحقق صحة قول القائلين: إن معنى ذلك هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا: أن الله جل ثناؤه قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا﴾، يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون بعض، فإذا كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها، الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه، فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل، هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها: هذا هو الذي رزقنا من قبل، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب، الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال، فقد تبين أن معنى الآية كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول يخصون في هذا العام بما عدا الرزق الأول، لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصه ولا بد بأنواع من التخصيصات:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٧١).
(٢) المصدر السابق.

أحدها: أن كثيراً من ثمار الجنة؛ وهي التي لا نظير لها في الدنيا، لا يقال لها ذلك.

الثاني: أن كثيراً من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد، كلما أكلوا ثمرة واحدة: قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائماً إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتني بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب.

ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضاً ليس أوله خيراً من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها؛ من نقصان حملها وصغر ثمارها وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله، وهو خيار كله يشبه بعضه بعضاً. فهذا وجه قولهم ولا يلزم مخالفة ما قصد الله ﷻ، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه. والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه. والله أعلم.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، قال الحسن: خيار كله لا رذل، ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه، وأن ذلك ليس فيه رذل؟

وقال قتادة: خيار لا رذل فيه.

فإن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها.

وكذلك قال ابن جريج وجماعة. وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق والتماثل.

وقالت طائفة أخرى، منهم ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: متشابهاً في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم، قال مجاهد: متشابهاً لونه مختلفاً طعمه.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وقال يحيى بن أبي كثير: «عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها فيقولون: هذا الذي رزقنا جئتمونا به آنفاً. فيقول لهم الخدم: كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف. فهو قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾. وقالت طائفة وناس معنى الآية: أن يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب. قال ابن وهب: قال عبد الرحمٰن بن زيد: يعرفون أسماءه؛ كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في

الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً يعرفونه. وليس هو مثله في الطعم، واختار ابن جرير[١] هذا القول قال: ودليلنا على فساد قول من قال: إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل؛ أي في الجنة وتلك الدلالة على فساد ذلك القول، هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، أن الله ﷻ أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، قلت: هذا لا يدل على فساد قولهم كما تقدم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

وهذا جواب اعتراض اعترض به الكفار على القرآن، وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة؛ فلو كان ما جاء به محمد ﷺ كلام الله لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة، فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه، كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض.

فكأن معترضاً اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك؛ فأخبر تعالى عمَّا له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء.

ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك، فأخبر تعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]. فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سبباً لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٧١).
(٢) حادي الأرواح (١٤١ ـ ١٤٤).
(٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٦).

عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق.

(الأول) كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم بل نطفاً وعلقاً، ومضغة مواتاً لا حياة فيها.

(الثاني) أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

(الثالث) أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

(الرابع) أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول ويكذب بالرابع! وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق! فالذي أحياكم بعد أن كنتم مواتاً ثم أماتكم بعد أن أحياكم، ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم؟ وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه! ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

فهذه كالمناظرة من الملائكة والجواب عن سؤالهم، كأنهم قالوا: إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك، ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك.

فأجابهم تعالى عن هذا السؤال: بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحكماً لا تعلمونها أنتم، وقد ذكرنا منها قريباً من أربعين حكمة في كتاب «التحفة المكية»،

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٦، ١٣٧).

فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين، وعمر بهم الجنة، وميز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار. وكان ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم يكن للملائكة تعلمه.

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريماً له وتعظيماً له وإظهاراً لفضله. وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض، ويسفك الدماء فأسجدهم له، وأظهر فضله عليهم لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة، كما فعل سبحانه ذلك بموسى، لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض، فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث. وهذه سنته تعالى في خليفته، وهو الحكيم العليم.

ومنها: جبره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام؛ لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة، فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية والذل، وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين؛ إنعام قبلها وإنعام بعدها، ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء، وجعل العاقبة لهم، فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها: استخراجه تعالى ما كان كامناً في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود؛ فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامناً في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهراً للخبث والكفر الذي كان كامناً فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه، فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافياً عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريماً لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض وجبراً له وتأديباً للملائكة، وإظهاراً لما كان مستخفياً في نفس إبليس، وكان ذلك سبباً لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم.

ثم إنه سبحانه لما علم آدم ما علمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه

فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جواباً لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض، فإنه يفسد فيها، ويسفك الدماء، فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.

المعنى: نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، وهذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، ومما أضاف إليك أهل الكفر بك.

قال: وقال بعضهم: نعظمك ونمجدك، قاله أبو صالح، وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك. انتهى.

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك، واللام فيه على حدها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]؛ لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله.

قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: نسبح بحمدك، فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: سبحان الله كلمة يعظم بها الرب ويحاشى بها من السوء، وقال ابن عباس: هي تنزيه لله من كل سوء. وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم: سبحت الأرض إذا تباعدت فيها، ومنه: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء فقد سبَّحه، ويقال: سبَّح الله وسبَّح له، وقدسه وقدس له[2].

وفي قصة آدم بيان فضل العلم من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأجاب سؤالهم: بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمون وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه، وصالحي عباده والشهداء والصديقين، والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان، من هو خير من الملائكة، وظهر إبليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٧ ـ ١٣٩).
(٢) شفاء العليل (١٧٩).

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله، ميَّزه عليهم بالعلم فعلَّمه الأسماء كلها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربُّنا خلقاً هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾، أقروا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علَّمه، قال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فعرَّفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علماً بظاهرهم وباطنهم وبغيب السمٰوات والأرض، فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

في ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه، وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتاً، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه، وأما شبهته الداحضة؛ وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير منه فهي باطلة من وجوه عديدة:

(أحدها) أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٥٦، ٥٧).

(**الثاني**) أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

(**الثالث**) أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم، ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

(**الرابع**) أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة ولا عن ما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقاً، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور فلا تدعوه إليها الضرورة، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان؟

(**الخامس**) أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفاً، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر.

(**السادس**) أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها.

(**السابع**) أن النار مفتقرة إلى التراب؛ وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكوناً من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب، وهو الغني عنها.

(**الثامن**) أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب، قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه؛ فاجتباه واصطفاه فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضاً سريع الزوال فزال، وكان الثبات والرزانة أصلياً له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

(**التاسع**) أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع، فالشر كامن فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته، فأين أحدهما من الآخر؟!

(**العاشر**) أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها وخلقها،

وأنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكر فيها، والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب، إلا موضعين ذكرها فيهما بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون، وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟!

(**الحادي عشر**) أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصاً، وأخبر أنه بارك فيها عموماً، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. فهذه بركة عامة؛ وأما للبركة الخاصة ببعضها فلقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨]، وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلاً، بل المشهور أنها مذهبة للبركة ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه، المبارك فيما وضع فيه، إلى مزيل البركة وماحقها؟

(**الثاني عشر**) أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبح له فيها بالغدو والآصال عموماً، وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً فيه وهدى للعالمين خصوصاً، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفضلاً على النار.

(**الثالث عشر**) أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب والأقوات، وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والنبات والرياض، والمراكب البهية والصور البهيجة، ما لم يودع في النار شيئاً منه، فأي روضة وجدت في النار، أو جنة أو معدن أو صورة، أو عين فوارة أو نهر مطرد، أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة؟

(**الرابع عشر**) أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط؛ إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه ومن يقضي حوائجه.

(الخامس عشر) أن اللعين لقصور نظره، وضعف بصيرته رأى صورة الطينِ شراباً ممتزجاً بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين؛ الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، والتراب الذي جعل خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة، فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته، لرأى أنه خير من النار وأفضل.

وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها؛ وجدتها كثيرة جداً، وإنما أشرنا إليها إشارة، ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له، إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خلقاً وخلقاً؟ وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب.

فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين، وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم، فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل، ونظره الفاسد.

فقياسه باطل نصاً وعقلاً، وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ بالله من الخذلان، ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشر منه، ولأن يلقى الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه.

والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة، أقوى من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم.

فالعالم يتدبر سر تكرير الله لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر، فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالى ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا

سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله عن عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله، وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم على الله، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٦].

فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين:

أحدها: من لفظة اهبطوا، فإنه نزول من علو إلى سفل.

الثاني: ولكم في الأرض مستقر عقب قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾، فدل أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض، ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]. ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

قالوا: وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]. وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً. فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لا بد أن يعرض له شيءٌ من ذلك.

وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ، والعري والضحى، فإن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر. فنفى عن سكانها ذل الظاهر والباطن، وحر الظاهر والباطن، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعري والضحى. وهذا شأن ساكن جنة الخلد.

قالوا: وأيضاً فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية، وأن ملكها يبلى.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٩ ـ ١٤٣).

قالوا: وأيضاً، هذه القضية في سورة البقرة ظاهرة جداً في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٤ ـ ٣٧].

فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة، فلهذا أتى فيه بضمير الجمع.

وقد قيل: إن الخطاب لهما وللحية، وهذا ضعيف جداً، إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم ولا في السياق ما يدل عليها.

وقيل: الخطاب لآدم وحواء وأتى فيه بضمير الجمع، كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وهما داود وسليمان. وقيل: لآدم وحواء وذريتهما.

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول، لأنها بين قول لا دليل عليه، وبين ما يدل اللفظ على خلافه، فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين.

فإذا تقرر هذا، فقد ذكر سبحانه الإهباط ثانياً بقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. والظاهر أن هذا الإهباط الثاني غير الأول، وهو إهباط من السماء إلى الأرض، والأول إهباط من الجنة، وحينئذ فتكون الجنة التي أهبط منها أولاً فوق السماء جنة الخلد.

وأما قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]. فهذا خطاب لآدم وحواء. وقد جعل بعضهم لبعض عدواً، فالضمير في قوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾، إما أن يرجع إلى آدم وزوجته، وإما أن يرجع إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له.

وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط، وهما آدم وإبليس فالأمر ظاهر.

وأما على الأول ـ وهو رجوعه إلى آدم وزوجه ـ فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط.

والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه، وبين إبليس. ولهذا أتى بضمير الجمع في الثاني، دون الأول. ولا بد أن يكون إبليس داخلاً في حكم هذه العداوة قطعاً.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]. وقال لذريته: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع، دون التثنية.

وأما الإهباط: فتارة يذكر بلفظ الجمع، وتارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الإفراد، كقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وكذلك في سورة صٓ، وهذا لإبليس وحده. وحيث ورد بصيغة الجمع، فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم. وحيث ورد بلفظ التثنية، فإما أن يكون لآدم وزوجه؛ إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس، إذ هما أبوا الثقلين، وأصلا الذرية. فذكر حالهما ومآل أمرهما، ليكون عظة وعبرة لأولادهما، وقد حكيت القولين في ذلك.

والذي يوضح أن الضمير في قوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [طه: ١٢٣] لآدم وإبليس: أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم، دون زوجه. فقال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٣]، وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم، وإبليس الذي زين له المعصية، ودخلت الزوجة تبعاً.

فإن المقصود إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذكرُ أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنسان فقط. وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة. فعلم أن حكم الزوجة كذلك، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم. وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوي الثقلين أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الإنس وأمهم، فتأمله.

وبالجملة، فقوله: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ظاهر في الجمع، فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله: ﴿ٱهْبِطَا﴾ من غير موجب[١].

* * *

(١) حادي الأرواح (٣٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ..﴾ [البقرة: ٤٠].

فإنما يذكِّرهم بنعمته على آبائهم، ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة؛ بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله، ولم ينقد لدينه وطاعته، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له، ومعاداتكم إياه، وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم، والله أعلم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٤١].

أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

فنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه. ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، من التلبيس، وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لُبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق، وتكلم بلفظ له معنيان: معنى صحيح ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل، فهذا من الإجمال في اللفظ[3].

وقال: وقد اختلف في قوله: ﴿وَتَكۡتُمُواْ﴾: هل هو منصوب أو مجزوم؟ على قولين مبنيين على «الواو»، هل هي «واو» عطف أو «واو» صرف؟

فمن جعلها «واو» عطف قال: النهي تعلق بكل واحد من الأمرين على انفراده، ولو كانت «واو» صرف لكان المنهي عنه جمعهما لا أفرادهما، ومن جعلها «واو»

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٣).
(٢) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٢٤).
(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٦).

صرف قال: لبس الحق بالباطل مستلزم لكتمانه، كما يكتم الحق من لبسه بما يستره ويغشيه، فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالنهي عن أحدهما نهي عن الآخر بطريق اللزوم، ففي كون الواو «واو» جمع إفادة هذا المعنى، وإن كتمان الحق ملازم للبسه بالباطل لا ينفك عنه، ولا يمكن إيقاع أحدهما إلا بالآخر، وهذا شأن كل متلازمين، وهذا القول أميز من الأول وأعرب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

فإنما كبرت على غير هؤلاء، لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه، والخشوع له وقلة رغبتهم فيه، فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها، وتكميله لها واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها، على قدر رغبته في الله(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

أنهم قيل لهم ـ وهم مع نبيهم ـ والوحي ينزل عليه من الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾. قال قتادة، وابن زيد، والسدي، وابن جرير(٤) وغيرهم: هي قرية بيت المقدس.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي هنيئاً واسعاً ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال السدي: هو باب من أبواب بيت المقدس، وكذلك قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: والسجود بمعنى الركوع.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢١٤).
(٢) كتاب الصلاة (١٧٠).
(٣) كتاب الصلاة (١٧١).
(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٩٩).

وأصل السجود: الانحناء لما تعظمه. فكل منحنٍ لشيء تعظيماً له فهو ساجد. قاله ابن جرير وغيره، قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقين عند السلام، أحدهما لصاحبه من السجود المحرَّم، وفيه نهي صريح عن النبي ﷺ[١].

ثم قيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾؛ أي: حط عنا خطايانا. هذا قول الحسن، وقتادة وعطاء.

وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: (لا إلٰه إلا الله).

وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تُحطُّ بها الخطايا، وهي كلمة التوحيد.

وقال: سعيد بن جبير عن ابن عباس «أمروا بالاستغفار»، وعلى القولين: فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم. فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أمروا به.

فروى البخاري[٢] في صحيحه، ومسلم أيضاً من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة». فبدلوا القول والفعل معاً؛ فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء.

قال أبو العالية: هي الغضب. وقال ابن زيد: هو الطاعون.

وعلى هذا، فالطاعون بالرصد لمن بدل دين الله قولاً وعملاً. اهـ[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

---

(١) روى أنس بن مالك ﷺ قال: «سمعت رجلاً يقول لرسول الله ﷺ: الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه، أينحني له؟ قال: لا، قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا، قال: أيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم».
أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠) في الاستئذان، باب في المصافحة، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٠) في الآداب، باب المصافحة.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥). (٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).

ومن تلاعب الشيطان باليهود، أنهم كانوا في البريّة قد ظلل عليهم الغمام، وأُنزل عليهم المن والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل، والعدس والبقل والقثاء، فسألوه موسى عليه السلام.

وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ أي: مصراً من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأنتان والأقذار، سقفهم الذي يظلهم من الشمس: الغمام، وطعامهم: السلوى، وشرابهم المن.

قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحداً، وشرابهم واحداً، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء، يقال له: المن، وطعامهم: طير يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكن لهم خبز ولا غيره.

ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عيناً من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذمُّوا على ذلك.

فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغي بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى، بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥].

قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]. قال: رموا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء، فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها، فأكلوها والله أَوْخَم أكلة، أكلة أسرعت في الدنيا عقوبة، وأسرعت عذاباً في الآخرة، واللهِ ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا أنه عجل لهؤلاء، وأخر لهؤلاء. وقوله: (رموها في

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٠٨).

السبت)، يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضاً ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت، إذ لو اجترؤوا على ذلك لاستخرجوها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ **- إلى قوله تعالى -** ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

ومن تلاعب الشيطان باليهود - في حياة نبيهم - ما قصَّه الله ﷻ من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة، وضربه ببعضها.

وفي هذه القصة أنواع من العبر.

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عَدْل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هدى المهتدي، وإعذاراً وإنذاراً للضال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكيناً، وصم يوماً، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

فإن الآية غنيَّة عن البيان المفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير[٢] عن الربيع عن أبي العالية: لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢١٢).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٣٦) وما بعدها.

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾، فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه ـ قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله.

فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم، قولهم لنبيهم: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر.

وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾، فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح. فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير[(١)]: وقد كان بعض السلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، وزعم أن ذلك نفي منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلاً منهم، وهفوة من هفواتهم.

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان منها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: «إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله».

وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: ٧٤].

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدراً.

فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٣٦).

ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب. ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة. والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلٰهاً معبوداً من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل. اهـ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة، لم تكن دونها، وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل «أو» في هذه المواضع بمعنى «بل»، ومن قال: «من» جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي، وقول من جعلها بمعنى الواو(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ **ـ إلى قوله ـ** وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٩].

فذمَّ ﷻ المحرِّفين لكتابه، والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة، وهي الأماني، والذين يكتبون الباطل، ويقولون: هذا حق وهو من عند الله، وذم في عدة مواضع الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب والبينات والهدى، وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصوص الوحي المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم، فإنهم تارة يكتمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم، ومنهم طوائف تضع أحاديث على وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع، ويقولون: هذا من عند الله، وتارة يضعون كتباً بآرائهم وعقولهم، وأذواقهم وخيالاتهم، ويدعون أنها الدين الذي يجب اتباعه ويقدمونها على نصوص الوحي(٣).

* * *

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣١٤ ـ ٣١٧). (٢) التبيان في أقسام القرآن (٢٥٠، ٢٥١).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٩، ١٠٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر فإن قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله، وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتف قطعاً، فتعين أن يكون خبراً كاذباً قائله كاذب على الله تعالى(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب، فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق: أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يجليه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضاً من الأسر، فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين وأخذوا بالثالث؛ فقتل بعضهم بعضاً وأخرجه من دياره، ثم فادوا أسراهم لأن الله أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم فلم قتلتم بعضكم بعضاً وأخرجتموهم من ديارهم، والله قد نهاكم عن ذلك؟ والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه؛ فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون(٢).

وقد سمى الله ﷻ من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به.

* * *

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٣).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٣، ١٤٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء: التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه، إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له عليهما البتة، فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(١) [المؤمنون: ٧١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾. قال(٢) أوعية: (قلت) هذا أحد القولين، والقول الثاني وهو أرجح: غلف أي في غشاوة لا نفقه عنك ما تقول، نظيره قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يضعف قول من قال: أوعية جداً، وقال: إنما هي جمع أغلف، ويقال للقلب الذي في الغشاء: أغلف وجمعه غلف، كما يقال للرجل غير المختون: أقلف وجمعه قلف(٣).

وقال ابن عباس وقتادة: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول.

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن. كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]. وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف: ١٠١] ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة. وليس

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٤).
(٢) أي الإمام أحمد رضي الله عنه.
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١١٦).

له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم.

والغلاف قد يكون وعاءً للجيد والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافاً أن يكون داخله العلم والحكمة، وهذا ظاهر جداً.

فإن قيل: فالإضراب: بـ«بل» على هذا القول الذي قويتموه، ما معناه؟

أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلاً للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور. وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه. فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان. فأكذبهم الله وقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله، إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.

والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهون، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب، والختم عليها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته، فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان؛ فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي، كان جحد نبوته محالاً، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقاً كان استفتاحهم به باطلاً، فإن كان استفتاحهم

---

(١) شفاء العليل (٩٣).

به حقاً فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلاً فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة، ويمكن تقريرها على صور عديدة:

(منها) أن يقال: قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

(الثانية) أن يقال: كنتم تستفتحون به، وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استناداً إلى ما عندكم من العلم بظهوره، فلما شاهدتموه وصار المعلوم معايناً بالرؤية، فالتصديق به حينئذ يكون أولى، فكفرتم به عند كمال المعرفة، وآمنتم به حين كانت غيباً لم تكتمل، فآمنتم به على تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا؟

(الثالثة) أن يقال: إيمانكم به لازم لاستفتاحكم به، ووجود الملزوم بدون لازمه محال.

(الرابعة) أن يقال: استفتاحكم به هل كان عن دليل أو لم يكن عن دليل؟ فلا بد أن يقولوا: كان عن دليل، وحينئذ يجب طرد الدليل، والقول: بموجبه حيث وجد، فأما أن يقال: بموجبه في موضع ويجحد موجبه في موضع أقوى منه؛ فمن أبطل الباطل.

(الخامسة) أن يقال: إن كان الاستفتاح به تصديقاً للنبي الذي أخبر بظهوره وقامت البراهين على صدقه؛ فالإيمان به متعين تصديقاً للنبي الأول أيضاً، وإن كان ترك الإيمان قبل ظهوره تكذيباً للنبي الأول؛ فترك الإيمان به بعد ظهوره أشد تكذيباً، فأنتم في كفركم به مكذبون للنبي الأول والثاني، وهذا من أحسن الوجوه.

(السادسة) أن يقال: إن كان الاستفتاح به حقاً لما ظهر على يد النبي المبشر به من المعجزات، فالإيمان به عند ظهوره يكون أقوى؛ لانضمام المعجزات التي ظهرت على يده، وهي تستلزم لصدقه إلى المعجزات التي ظهرت على يد النبي المبشر به، فقويت أدلة الصدق، وتظافرت براهينه.

والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة، وفي أي قالب أفرغت، وصورة أبرزت، ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها؛ ظهرت في غاية الصحة والبيان، فالحمد لله المان بالهدى على عباده المؤمنين[1].

* * *

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٤ ـ ١٤٧).

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح.

والغضب الثاني: بسبب كفرهم بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما. اهـ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود، كأنه لما قال لهم: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، فأجابوه بأن قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره؛ فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين؛ دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ إلى آخر الآية.

[الوجه الأول] قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم؛ لأنه حق فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان، فلزمكم الإيمان بالحقين جميعاً، أو الكفر الصراح.

وفي قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ نكتة بديعة جداً؛ وهي أنهم لما كفروا به وهو حق؛ لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم؛ لأجل أنه حق، فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم؛ ولا فيما جاء به محمد ﷺ، لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني، وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني، وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، لم ينفعه إيمانه بما آمن به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي، فإن ذلك لا ينفعه؛ لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له، فالشبهة التي عرضت لمن

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٢٠).

رد بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة، وإن كانت هذه عذراً له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها.

وكما أنه لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم، فكذلك لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول؛ فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله. فتأمل هذا الموضع، واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان، ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ووجه النقض أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم، فلم قتلتموهم من قبل؟ وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم، فلا آمنتم بما أنزل إليكم ولا بما أنزل على محمد ﷺ؟ ثم كأنه توقع منهم الجواب بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته، ولم نكذب به، فأجيبوا على التقدير هذا الجواب الباطل منهم: بأن موسى قد جاءكم بالبينات، وما لا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله، وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **[البقرة: ٩٤]**.

كانوا يقولون: نحن أحباء الله ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة، ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم: إن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة بالمطالبة، وتقسيم الأمر بين أن يكون لهم عند الله عهد عهده إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوا عليه ما لا يعلمون، ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد، فتعين الثاني وقد تقدم.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٨، ١٤٩).

ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لا سيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به، بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه، فحيث لم يحب ذلك ولم يتمنه، فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه.

ونظير هذا قوله في سورة المائدة رداً عليهم قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه.

وههنا نكتة لطيفة جداً قل من ينتبه لها، ونحن نقررها بسؤال وجواب (فإن قيل): معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره، (قيل): لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، لعلمت الفرق بين هذا التعذيب، وبين الهجران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب من المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم، ويسبون ذراريهم؛ فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه.

ومعلوم أن الرحمٰن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها، وعتوها على الله، واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم، فالتأديب شيء، والتعذيب شيء، والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون.

وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ، وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عدوانه وتكذيبه، وهو يخبرهم خبراً جزماً أنهم لن يتمنوا الموت أبداً، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقاً إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله من الخزي والعذاب الأليم؛ بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين، فقالوا: فنحن نتمناه، قيل: وهذا أيضاً معجزة أخرى، وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم فلم

ترده قلوبهم، ولم تنطق به ألسنتهم تصديقاً لقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠١].

تأمل قوله تعالى في هذه الآية، كيف نجد تحته برهاناً عظيماً على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول، ويصدقه مع تباعد زمنهما، وشهادة أعدائه، وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذاً عن بشر أن يأخذوا هم عن ملك، أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود: أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة، ولا تشاعر ولا تلقٍّ منه ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معاً.

ونظير هذا أن يشهد الرجل بشهادة، فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقاً لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه إذا تجرد الإخبار، فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول، فكيف في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول، فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

[جاء هذا في حق السحرة من اليهود]؛ أي علموا: مَنْ أخذ السحرَ وقَبِلَهُ لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترون به ويقبلونه ويتعلمونه(٣).

* * *

---

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٩، ١٥٠).

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٤٧، ١٤٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٩).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير؛ لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم، فإنهم كانوا يخاطبون[(١)] بها النبي ﷺ ويقصدون بها السبَّ، يقصدون «فاعلاً» من الرعونة، فنهي المسلمون عن قولها سداً لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي ﷺ؛ تشبهاً بالمسلمين يقصدون بها غير ما قصده المسلمون[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وإذا كان الرب تعالى لا حَجْر عليه، بل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويبتلي عباده بما شاء، ويحكم ولا يحكم عليه، فما الذي يحيل عليه، ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة، ثم ينهى أمة أخرى عنه، أو يحرم محرماً على أمة ويبيحه لأمة أخرى؟

بل أي شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين، بحسب المصلحة؟ وقد بين ذلك ﷻ بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه، وتصريفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت، فهكذا أحكامه الدينية الأمرية، ينسخ منها ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء، فمن أكفر الكفر، وأظلم الظلم: أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته، وتجحد رسالته: بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرماً على من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحاً لهم. وبالله التوفيق، يضل من يشاء ويهدي من يشاء[(٣)]. اهـ.

* * *

(١) راجع: الطبري (١/ ٤٦٩)، وابن كثير (١/ ١٥٢).
(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٨٢). (٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانياً. فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس، ووضوح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل؛ فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقاً فيما ادعيت، ويحتج بهذه الآية من يقول: بلزوم النافي الدليل كما يلزم المثبت، وحكوا في ذلك ثلاث مذاهب **(ثالثها)** يلزمه في الشرعيات دون العقليات، واستدلالهم بالآية لا يصح لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد، بل ادعوا دعوى مضمونها إثبات دخولهم هم الجنة، وأن غيرهم لن يدخلها، فطولبوا بالدليل الدال على هذه الدعوى المركبة من النفي والإثبات، وصاحب هذه الدعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس، وإنما الخلاف في النفي المجرد. ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. لكان أقرب مع كونه متضمناً للنفي والإثبات، لكن الدعوى فيه إنما توجهت إلى النفي.

ومقصود الكلام أنا لا نعذب بعد تلك الأيام، فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعذيب تلك الأيام، بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها، وذلك نفي محض، فلذلك قلنا: إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية. وبعد فالتحقيق في مسألة النافي هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان:

(نوع) مستلزم لإثبات ضد المنفي، فهذا يلزم النافي فيه الدليل؛ كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بالدليل قطعاً؛ لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها ولا بد من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم، ولا بد له من دليل.

(النوع الثاني) نفي لا يستلزم ثبوتاً؛ كنفي صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات، فالنافي إن

نفى العلم به لم يلزمه دليل، وإن نفى المعلوم نفسه وادعى أنه منتف في نفس الأمر فلا بد له من دليل(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد ونزه نفسه عنه، ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد.

أحدها: كون ما في السمٰوات والأرض ملكاً له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقاً له مملوكاً له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب؛ فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره؟ فهذا من أبطل الباطل! وأكد مضمون هذه الحجة بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾، فهذا تقرير لعبوديتهم له، وأنهم مملوكون مربوبون ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله من أعظم الإشراك به؛ فإن المشرك به جعل له شريكاً من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك، كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم: (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)، فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكاً له عبداً مخلوقاً، والنصارى جعلوا له شريكاً هو نظير وجزء من أجزائه، كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

فإذا كان له ما في السمٰوات والأرض عبيداً قانتين مربوبين مملوكين؛ استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن لله ما في السمٰوات وما في الأرض لزمه أن يقرَّ له بالتوحيد ولا بد، ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥].

(الحجة الثانية) قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه، ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٠ ـ ١٥٢).

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. أي من أين يكون لبديع السمٰوات والأرض ولد؟ ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هذه السمٰوات والأرض ـ مع عظمهما وآياتهما ـ وفطرهما وابتدعهما فهو قادر على اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما البتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيراً وشريكاً وجزءاً مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفاطره ومخترعه وبارئه، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا: إنه ولده! فإذا كان قد ابتدع العالم علويه وسفليه، فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي؟

فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده، فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر، وهو أن يقال: إذا كان نسبة السمٰوات والأرض وما فيهما إليه، إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع، أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة، وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل، ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك؟!

وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول: النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السمٰوات والأرض، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ٦٨]. فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه، ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته. ولذلك كان نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى شتمني عبدي ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»[١].

وقال عمر بن الخطاب في النصارى: «أذلوهم ولا تظلموهم فلقد سبُّوا الله مسبَّة ما سبَّه إياها أحد من البشر»، وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ الآية [الكهف: ٤، ٥]. وأخبر تعالى: (أن السموات كادت تتفطر من قولهم هذا أو تنشق الأرض منه وتخر الجبال هداً)[1]، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتنقص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته، وغناه إليه.

(الحجة الثالثة): قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وتقرير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: كن، فأي حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثر به من قلة ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد، وقد ذكر تعالى حججاً أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في هذا الموضع.

(فمنها) كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء واستحالة نسبة الصاحبة إليه، فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ الآية [الأنعام: ١٠١]. فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر؛ فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقاً بل جزءاً، وهذا ينافي كونه خالق كل شيء، وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون: بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة شر من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقاً لله، وقوله أخبث من قول النصارى، لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصاً واحداً أو شخصين، ومن قال: بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقاً لله، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد.

وأما منافاة عدم المصاحبة للولد فظاهر أيضاً؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين: فاعل ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصاً، فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد؟! ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم الصاحبة لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلهة، وأنها والدة الإله عيسى، فيقول عوامهم: يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب، ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، وإثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم فخواص النصارى في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا:

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم].

بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص، وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه؛ لأنه بكل شيء عليم وهو تعالى لا يعلم له ولد، فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه، إذ لو كان لعلمه فحيث لم يعلمه فهو غير كائن(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ **[البقرة: ١٢١]**.

واختلف في الضمير في ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، فقيل: هو ضمير الكتاب الذي أوتوه.

قال ابن مسعود: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويقرؤونه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه.

قالوا: وأنزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقيل: هذا وصف للمسلمين، والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن، وهذا بعيد إذ عرف القرآن يأباه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ **[البقرة: ١٢٤]**.

فلما أتم ما أمر به من الكلمات؛ جعله الله إماماً للخلائق يأتمون به(٣).

فإن الله ﷻ لما عاهد إبراهيم ووعده أن يجعله للناس إماماً؛ وعده أن يكون أباً لشعوب كثيرة، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختتنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجسادهم، فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ [البقرة: ١٣٨] على الختان(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ﴾ **[البقرة: ١٢٥]**.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٢ ـ ١٥٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١١٢).

(٣) جلاء الأفهام (١٥٩).

(٤) تحفة الودود (١٦٢).

فأمر نبيه ﷺ وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء وإحياء آثاره ﷺ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٦].

وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة، أما المنع فما تضمنه حرف «بل» من الإضراب؛ أي ليس الأمر كما قالوا. وأما المعارضة ففي قوله: ملة إبراهيم حنيفاً؛ أي أتتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي، لا من كان يهودياً أو نصرانياً، فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيعبد وحده ويحب وحده ويطاع وحده ولا يجعل معه إلٰهاً آخر، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟ ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد.

وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضاً لم نخرج عنها، وإبراهيم وبنوه كانوا هوداً أو نصارى، فأجيبوا عن هذا السؤال: بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، فقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ﴾ الآية [البقرة: ١٤٠]. وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

(فإن قالوا): فهب أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم.

---

(١) جلاء الأفهام (١٦٠).

(فأجيبوا) عن هذا بقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فهذه حال المؤمنين، ثم قال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾، وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء، وإنما هم في شقاق وعداوة؛ فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم، مشاق لمن هو على ملته.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

أي الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل، وأنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، فالله تعالى يعلم ذلك، فلو كانوا يهوداً أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم، هذا مع أن عندكم شهادة وبينة من الله بما كان عليه إبراهيم، وبأن هذا النبي على ملته، ولكنكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها، ولا أظلم ممن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله إلا أنه كتمها من الله، فالمجرور متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [**البقرة**: ١٣٧].

وقوله: ﴿بِمِثْلِ﴾ فليس له مثل، والجواب من أوجه:

(الأول): أن المراد به التبكيت، والمعنى: حصلوا ديناً آخر مثله وهو لا يمكن.

(الثاني): أن المثل صلة.

(الثالث): أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

(الرابع): أن المراد إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين، روى ابن جرير أن ابن عباس قال: «قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به». قال عبد الجبار: ولا يجوز ترك القراءة المتواترة(٢).

* * *

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٥ ـ ١٥٧). (٢) وانظر ص(٢١٥، ٢١٦).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٥) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٤٢ ـ ١٥٠].

هذا سؤال من السفهاء أورده على المؤمنين، ومضمونه أن القبلة الأولى إن كانت حقاً فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلاً فقد كنتم على باطل، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه، فأجاب الله تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه، والسؤال من جهة الكفار أورده على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد، فقالوا ما تقدم، وقالوا: لو كان نبياً ما ترك قبلة الأنبياء قبله، وقالوا: لو كان نبياً ما كان يفعل اليوم شيئاً وغداً خلافه، وقال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم، وقال أهل الكتاب: لو كان نبياً ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام، وعظمت المحنة على بعض الناس كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطأه ومهَّده وذلَّله بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئاً أتى بمثله أو خير منه، وإنه قادر على ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يُعْتَرَض عليه، ويُسألَ تعنتاً كما جرى لموسى مع قومه، ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة، وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت، ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين، وأضافه إليه بقوله: (أن طهِّرا بيتي)، وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت، وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه.

فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها، فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت، فلما برز مرسوم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيداً عندهم؛ لأن رسول الله ﷺ[1] كان كثيراً ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحوله الله عن قبلة أهل الكتاب، فولاه الله القبلة التي يرضاها، وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة وذكر الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله والمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس، فلا تعبأوا بقولهم فإنه قول سفيه ثم قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له، وأنه رب ذلك، فأين ما تعبد له عبادة بأمره إلى أي جهة كانت فهم مطيعون له، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥]. فلم يصل مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى، فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة بأمره، ثم أمركم أن تصلوا إليها فما صليتم إلا له أولاً وآخراً، وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر؛ لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانتقلتم من رضاه إلى رضاه.

---

(١) راجع: تفسير الطبري (٢/ ١٩) طبعة الحلبي. و(٣/ ١٧٢) طبعة المعارف.

ثم نبه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانياً، بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها أولاً لحكمة له في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتبع الرسول ويدور معه حيثما دار، ويأتمر بأوامره كيف تصرفت وهو العالم بكل شيء، ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عياناً مشاهداً؛ فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المسلم للرسول المنقاد له ممن يعبد الله على حرف فينقلب على عقبه بأدنى شبهة.

فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة فلم يشرع ذلك سدى ولا عبثاً، ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبدهم، فكذلك جعلهم أمة وسطاً فاختار القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم، ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة، ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾، وفيه قولان:

أحدهما: ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يجازيكم عليها لأنها كانت بأمره ورضاه.

والثاني: ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى، وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها.

وأكثر السلف والخلف على القول الأول، وهو مستلزم للقول الآخر.

ثم ذكر منته على رسوله واطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى، فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم ولم يذكر للضمير مفسراً غير ما في السياق، وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته.

ثم أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب؛ بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ما تبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برأه من قبلتهم فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾.

ثم ذكر اختلافهم في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى، لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم.

فأخبر تعالى في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول لما تبعوا قبلته عناداً وتقليداً لآبائهم، وأنهم وإن اشتركوا في خلاف القبلة الحق، فهم مختلفون في باطلهم؛ فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى، فهم متفقون على خلاف الحق، مختلفون في اختيار الباطل.

وفي هذه الآية أيضاً تثبيت للرسول ﷺ والمؤمنين على لزوم قبلتهم، وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم، فإن هذا خداع ومكر منهم؛ فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدقك ما تبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضاً بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم، وكذلك هم أيضاً مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته، بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين، اختارها الله لكم ورضيها، وأكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]. فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك، وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله بالتحويل عنها، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن اختصاص كل أمة بقبلتهم، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ وأصح القولين أن المعنى: هو متوجه إليها أي موليها وجهه فالضمير راجع إلى «كل»، وقيل: إلى الله؛ أي الله موليها إياه، وليس بشيء، لأن الله لم يول القبلة الباطلة أبداً ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط، بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم.

وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ مشعر بصحة هذا القول؛ أي إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات، وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه

وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة، كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تؤمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل؛ يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا، فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة، فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفوراً وذهاباً في الطريق الباطلة وعبادة غيره وإن دانوا غير دينه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

□ □ □

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من الكلام في ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة، ونصر الله لهم بالحجة عليهم. وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي(١) في الكلام على هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه: قال في قول النبي ﷺ للبراء بن معرور: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها»، يعني: لما صلى إلى الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها، ولم يأمره بالإعادة لأنه كان متأولاً.

فقال أبو القاسم: وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة إلى بيت

---

(١) في «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ١١٣، ١١٤)، والحديث ذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٨٦ ـ ٨٨)، وانظر: الإصابة لابن حجر (١/ ٢٣٨)، وذكر صاحب كنز العمال الحديث، وعزاه لأبي نعيم (٨/ ٢٨).

المقدس، وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء «لقد كنت على قبلة»، وقالت طائفة ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً، فعلى هذا يكون في القبلة نسخان: نسخ سُنَّة بسُنَّة، ونسخ سُنَّة بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة، فروي عنه من طرق صحاح(١): أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلما كان ﷺ يتحرى القبلتين جميعاً لم يبين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، ولذلك، والله أعلم، قال الله تعالى في الآية الناسخة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ ...﴾ [البقرة: ١٤٩، ١٥٠]. أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها؛ فاستقبل الكعبة، كنت مستدبراً بيت المقدس أو لم تكن، لأنه كان بمكة يتحرى في استقباله بيت المقدس أن تكون الكعبة بين يديه. قال: وتدبر قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، وقال لأمته: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ ولم يقل: حيث ما خرجتم، وذلك لأنه ﷺ كان إمام المسلمين، فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم، وكان ذلك واجباً عليه إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج، ولا سيما النساء، ومن لا جماعة عليه.

قلت: ويظهر في هذا معنى آخر، وهو أن قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾. خطاب عام له ﷺ ولأمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض، وقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ خطاب بصيغة الإفراد والمراد هو والأمة، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]. ونظائره، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه. وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك، فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة. وفي أي بقعة كانوا من الأرض فهو مأمور هو والأمة باستقباله.

فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا، وفي غايته

---

(١) راجع: الطبري (٢/ ١٩).

إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد، فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبو القاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم، بما أراد من كلامه وإنما هو كد أفهام أمثالنا من القاصرين.

فقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة، وكان أولى بهذا الخطاب، لأن مبدأ التوجه على يديه كان، وكان شديد الحرص على التحويل، وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة، وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم، واستدارتها حول الكعبة شرقاً وغرباً ويمناً وعراقاً، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ، فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله أعلم.

قال أبو القاسم: وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠]؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس: اليهود لأنهم لا يقولون: بالنسخ في أصل مذهبهم، وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل، وكفار قريش قالوا: ندم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا. وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل وآثر عليها قبلة اليهود. فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أي لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون، وقال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، أي: من الذين شكُّوا وامتروا.

ومعنى ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: الذي أمرتك به من التوجه إلى البيت الحرام، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك، فلا تمتر في ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء.

ثم ساق من طريق أبي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ، قال: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا عنبسة عن يونس عن ابن شهاب قال: كان سليمان بن عبد الملك لا

يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه وهو ولي عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، فقال سليمان وهو جالس فيه: «والله إن في هذه القبلة التي صلى إليها المسلمون والنصارى لعجب كذا رأيته». والصواب اليهود. قال خالد بن يزيد: «أما والله إني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة؛ فلما غضب الله ﷻ على بني إسرائيل رفعه فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم». وروى أبو داود أيضاً أن يهودياً خاصم أبا العالية في القبلة، فقال أبو العالية: إن موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه، وقال اليهودي: بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ، فقال أبو العالية: فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة. انتهى.

□ □ □

(قلت): وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة، وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد، أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبداً وهم مقرون بذلك، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة، وهم يعتذرون عنهم بأن المسيح فوض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام، وأن ما حللوه وحرموه فقد حلله هو وحرمه في السماء، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبداً، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك.

وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام. يعظمونه ويحجون إليه، ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله، وقلت: هو قبلة باطلة مبتدعة. فقال مشار إليه في دينهم: هذه هي القبلة الصحيحة، واليهود أخطأوها؛ لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عيناً. ثم ذكر نصاً يزعمه من التوراة في استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعاً على التوراة؛ لأنها إنما أنزلت على

بني إسرائيل فهم المخاطبون بها وأنتم فرع عليهم فيها وإنما تلقيتموها عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم وأنا رأيتها وليس هذا فيها. فقال لي: صدقت إنما هو في توراتنا خاصة، قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبين بها، وهم الذين تلقوها عن الكليم وهم متفرقون في أقطار الأرض، قد كتموا هذا النص وأزالوه وبدلوا القبلة التي أمروا بها، وحفظتموها أنتم وحفظتم النص بها فلم يرجع إليَّ الجواب.

□ □ □

(قلت): وهذا كله مما يقوي أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ راجعاً إلى «كل»، أي: هو موليها وجهه، ليس المراد أن الله موليه إياها، لوجوه هذا أحدها.

(الثاني): أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه في الآية، وإن كان مذكوراً فيما قبلها، ففي إعادة الضمير إليه تعالى دون «كل» رد الضمير إلى غير من هو أولى به، ومنعه من القريب منه الملاحق به.

(الثالث): أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال: هو موليه إياها، هذا وجه الكلام كما قال تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، فوجه الكلام أن يقال: ولاه القبلة، لا يقال: ولي القبلة إياه، فتأمله.

وقول أبي القاسم أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثاً؛ رداً على الطوائف الثلاث ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك، والذي يظهر فيه أنه أمر به في كل سياق لمعنى يقتضيه، فذكره أول مرة ابتداء للحكم ونسخاً للاستقبال الأول فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم حيث يجدونه في كتبهم كذلك، ثم أخبر عن عبادتهم وكفرهم، وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، ولا هو أيضاً بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذره من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم، وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء، ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها وموليها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات،

ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكراراً محضاً، بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولاً حيثما كانوا، عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له؛ فتأمله، والله أعلم.

وقوله: إن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ منقطع قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له؛ فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «ليس الاستثناء بمنقطع؛ بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه؛ حيث ظنوا أن الحجة هاهنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق». والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقوله: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

[والثانية]: ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل، كقوله: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]. وإذا كانت الحجة اسماً لما يحتج به من حق أو باطل صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، وهذا في غاية التحقيق.

والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة فلا تخشوهم واخشوني(١).

□ □ □

وتأمل حكمته الباهرة في شرع الصلاة أولاً إلى بيت المقدس إذ كانت قبلة الأنبياء، فبعث بما بعث به الرسل، وبما يعرفه أهل الكتاب، وكان استقبال بيت المقدس مقرراً لنبوته، وأنه بعث به الأنبياء قبله، وأن دعوته هي دعوة الرسل بعينها، وليس بدعاً، ولا مخالفاً لهم، بل مصدقاً لهم مؤمناً بهم، فلما استقرت أعلام نبوته في القلوب وقامت شواهد صدقه من كل جهة، وشهدت القلوب له بأنه رسول الله حقاً، وإن أنكروا رسالته عناداً وحسداً وبغياً، وعلم سبحانه أن المصلحة

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٧ ـ ١٧٤).

له ولأمته أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله، وأعظم البيوت وأشرفها وأقدمها قرر قبله أموراً كالمقدمات بين يديه؛ لعظم شأنه فذكر النسخ أولاً:

وأنه إذا نسخ آية أو حكماً أتى بخير منه، أو مثله، وأنه على كل شيء قدير[١].

□ □ □

وتأمل قصة نسخ القبلة ـ لما كانت شديدة على النفوس جداً ـ كيف وطَّأ سبحانه قبلها عدة موطئات:

منها: ذكر النسخ.

ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني، كما كان صالحاً للأول.

ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله، كما اعترض من قبلهم على موسى، بل أمرهم بالتسليم والانقياد.

ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود، وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودُّون أن يردوهم كفاراً من بعد ما تبين لهم الحق.

ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل، والنية لله مع متابعة أمره.

ومنها: إخباره سبحانه عن سعته، وأنه حيث ولى المصلي وجهه؛ فثم وجهه تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية، بل حيثما توجهوا؛ فثم وجهه تعالى.

ومنها: أنه ﷻ حذر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحي إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

ومنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وسَفَّه مَنْ يرغب عنها، وأمر باتباعها، فنوَّه بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة، والمطالب السنية.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٥٨)، وإعلام الموقعين (٤/٢٠٨).

ثم ذكر فضل هذه الأمة، وأنهم الأمة الوسط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكتابهم كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك؛ فظهرت المناسبة شرعاً وقدراً في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية؛ وظهرت حكمته الباهرة، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

يدل على وجوب اتباع الصحابة ﷺ ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم، ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم، وتدعو لهم وتستغفر لهم.

والشاهد المقبول عند الله الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦][(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٧]

وعد الله الصابرين بثلاثة أشياء، وكل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية وهذا مفهوم لحصر الهدى فيهم[(٣)].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «نعم العدلان، ونعمت العلاوة»، فبالهدى خلصوا

---

(١) إعلام الموقعين (٤/٢٠٨).
(٢) إعلام الموقعين (٤/١٦٦، ١٦٧).
(٣) عدة الصابرين (١١٣).

من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة، والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب، والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

فلعنة الله لهم تتضمن مقته وإبعاده وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك بمن هو أهل للعنة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥].

أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا نِدٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾، وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم، وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة أشد من المحبة المشركة.

والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾، فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة لله، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم، كما يحب المؤمنون الله، ثم بيَّن أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٢، ١٧٣). (٢) جلاء الأفهام (٨٦).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن شَرَّكوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله، كمحبة المؤمنين له، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار: أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فالمعنى في أظهر الوجهين: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا؛ إذ يرون العذاب في الآخرة، والجواب محذوف، ثم قال: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢].

وقد اختلف في تعلق قوله: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بماذا؟.

فقالت طائفة: هو مفعول يرى، أي: ولو يرون أن القوة لله جميعاً؛ لما عصوه ولما كذبوا رسله، وقدموا عقولهم على وحيه.

وقالت طائفة: بل المعنى لأن القوة لله جميعاً، وجواب «لو» محذوف على التقديرين: أي: لو يرى هؤلاء حالهم، وما أعد الله لهم إذ يرون العذاب لرأوا أمراً عظيماً، ثم قال: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وهو متضمن للتهديد الشديد والوعيد[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فالأسباب التي تقطعت بهم هي: العلائق التي بغير الله، ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لمَّا اضمحلت وبطلت؛ اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غايتها، وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٠، ٢١). (٢) أقسام القرآن (٣).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨١).

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا؛ من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له؛ عدم ذلك العمل، وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوى الحرمان، ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدل مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا». فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم؛ فتتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم؛ فإذا كورت الشمس، وانتثرت النجوم؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت، وصارت حسرة عليهم[(١)].

[والأسباب هي]: الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله.
وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها.

وبالجملة فسمى الله سبحانه ذلك كله أسباباً؛ لأنها كانت يتوصل بها إلى مسبباتها، وبالله التوفيق[(٢)].

فكل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله ﷻ ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة، وموالاة كانت لغير الله تعالى، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه؛ وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة والتقريب والإبعاد، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره، وترك ما خالف ما جاء به، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به، وتجريد متابعته تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه.

---

(١) طريق الهجرتين (١٢٦).
(٢) شفاء العليل (١٩٠).

فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول، ثم إليها مرجعه.

وهذه هي النسبة التي تنفع العبد، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة: أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فلا قوام له، ولا عيش ولا نعيم، ولا فلاح إلا بهذه النسبة. وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله، ولقد أحسن القائل:

إِذَا تَقَطَّعَ حَبْلُ الْوَصْلِ بَيْنَهُمُ ... فَلِلْمُحِبّينَ حَبْلٌ غَيْرُ مُنْقَطِعِ
وَإِنْ تَصَدَّعَ شَمْلُ الْقَوْمِ بَيْنَهُمُ ... فَلِلْمُحِبّينَ شَمْلٌ غَيْرُ مُنْصَدِعِ

والمقصود: أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق، إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثوراً. ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة، أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فتضمن هذا المثل: ناعقاً، أي: مصوتاً بالغنم وغيرها، ومنعوقاً به. وهو الدواب.

فقيل: الناعق العابد، وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعو، وأن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه. هذا قول طائفة، منهم عبد الرحمٰن بن زيد وغيره.

واستشكل صاحب الكشاف(١) وجماعة معه هذا القول، وقالوا قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداءً.

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (١/ ١٠٧)، وراجع: الطبري (٢/ ٧٩).

أحدها: أن «إلَّا» زائدة، والمعنى بما لا يسمع دعاء ونداء.

قالوا: وقد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر:

حراجيح ما تنفك إلا مناخة[١]

أي: ما تنفك مناخة، وهذا جواب فاسد. فإن «إلا» لا تزاد في الكلام المثبت.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء، لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أن المعنى: أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم، كمثل الناعق بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء. وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته وليه الميت إلا العناء.

وقيل: المعنى: ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت. فإن الراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المنعوق بها.

قال سيبويه: المعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به.

وعلى قوله: فيكون المعنى: مثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها، ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق.

فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي ينعق بها الراعي، فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرق، فالذين كفروا بمنزلة البهائم ودعاء داعيهم إلى الطريق، والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم، مجرد صوت الناعق، والله أعلم[٢].

وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتاً مجردة، أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل الدواب التي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء؛ فالقولان متلازمان بل هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان[٣].

---

(١) الشعر لذي الرمة في وصف إبل، وشطره الآخر:

على الخسف أو نرمي بها بلداً قفراً

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٧، ٢٣٨). (٣) مفتاح دار السعادة (٨٦).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

الذي حسن مجيء «إن» ههنا الاحتجاج والإلزام.

فإن المعنى: أن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هي الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جملتها؛ فكلوا من رزقه واشكروه على نعمه، وهذا كثيراً ما يورد في الحجاج، كما تقول للرجل: إن كان الله ربك وخالقك فلا تعصه، وإن كان لقاء الله حقاً فتأهب له، وإن كانت الجنة حقاً فتزود إليها. وهذا أحسن من جواب من أجاب: بأن «إن» هنا قامت مقام إذا(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قد جمع الله خصال البرّ في هذه الآية الكريمة، فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنه الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة. وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

في ضمن هذا الخطاب: ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن في إعدام هذه البنية الشريفة، وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول؛ تكثيراً لمفسدة

---

(١) بدائع الفوائد (١/٤٨).
(٢) الرسالة التبوكية (١٥).

القتل، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصاً بمن قتله كَفَّ عن القتل وارتدع، وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم، قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحَيِّه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره، وتشتد مؤنته، فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله، ففي ذلك حياة عشيرته وحَيِّه وأقاربه. ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل، بل من حيث كونه قصاصاً، يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز، والبلاغة والفصاحة، والمعنى العظيم.

فصدَّر الآية بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم، عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحساناً إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم، لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه.

ثم عقبه بقوله: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ إيذاناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل بالمقتول.

و«القصاص» في اللغة: المماثلة، وحقيقته راجعة إلى الاتباع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]؛ أي: اتبعي أثره. ومنه قوله: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]؛ أي: يقصان الأثر ويتبعانه. ومنه: قص الحديث واقتصاصه، لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر، فسمي جزاء الجاني قصاصاً؛ لأنه يتبع أثره، فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به، لتحقيق معنى القصاص.

ونكر سبحانه «الحياة» تعظيماً وتفخيماً لشأنها، وليس المراد حياة ما، بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل، والتنكير كثيراً ما يجيء للتعظيم والتفخيم، كقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

ثم خص أولي الألباب، وهم: أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته، إذ هم المنتفعون بالخطاب، ووازن بين هذه الكلمات وقولهم: «القتل أنفى للقتل»؛ ليتبين مقدار التفاوت، وعظمة القرآن وجلالته[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢].

فرفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته، وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحاً، وما كان فيه جنف أو إثم، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا الشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤].

فرق الشارع بين أيام رمضان، وبين أيام القضاء، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين، لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها، وأطلق أيام قضائه فأطلق العدة ولم يوقتها، وهذا يدل على أنها تجزئ في أي أيام كانت؛ ولم يجئ نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على تقييدها بأيام لا تجزئ في غيرها.

وليس في الباب إلا حديث عائشة رضي الله عنها: «كان يكون عليّ الصوم من رمضان، فلا أقضيه إلا في شعبان، من الشغل برسول الله ﷺ»[3].

ومعلوم أن هذا ليس صريحاً في التوقيت بما بين الرمضانين كتوقيت أيام رمضان، بما بين الهلالين، فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع، وجمع بين ما فرق الله بينهما، فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد، لا تتقدم عنه ولا تتأخر.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٣١، ٤٣٢). (٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٢٩).
(٣) رواه البخاري (١٩٥٠)، ومسلم (١١٤٦).

وأطلق أيام القضاء، وأكد إطلاقها بقوله: ﴿أُخَرَ﴾، وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر، جبراً لزيادة التأخير عن المدة التي بين الرمضانين، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء، بل هي قضاء، وإن فعلت بعد رمضان آخر؛ فحكمها في القضاء قبل رمضان وبعده واحد، بخلاف أيام رمضان.

يوضح هذا: أنه لو أفطر يوماً من أيام رمضان عمداً بغير عذر؛ لم يتمكن أن يقيم مقامه يوماً آخر مثله البتة. ولو أفطر يوماً من أيام القضاء قام اليوم الذي بعده مقامه.

وسر الفرق: أن المعذور لم يتعين في حقه أيام القضاء، بل هو مخير فيها، وأي يوم صامه قام مقام الآخر. وأما غير المعذور: فأيام الوجوب متعينة في حقه، لا يقوم غيرها مقامها(١).

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ الآية. اختلف السلف في هذه الآية على أربعة أقوال:

أحدها: أنها ليست بمنسوخة، قاله ابن عباس.

الثاني: أنها منسوخة، كما قاله سلمة والجمهور.

الثالث: أنها مخصوصة، خص منها القادر الذي لا عذر له، وبقيت متناولة للمرضع والحامل.

الرابع: أن بعضها منسوخ، وبعضها محكم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

يتناول نوعي الدعاء(٣)؛ وبكل منهما فسرت الآية، قيل: أعطيه إذا سألني. وقيل: أثيبه إذا عبدني. والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمله، فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له. وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً: هي من هذا القبيل(٤).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٨٣، ٣٨٤). (٢) تهذيب السنن (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨).
(٣) دعاء العبادة ودعاء المسألة، راجع الآية (٥٤، ٥٥) من سورة الأعراف.
(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٣).

وقال:

وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا؛ فأجيبوا: بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجىٰ لا مسألة البعيد المنادى.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قرباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً»(١)، فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله؛ فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فروى شعبة عن الحكم عن مجاهد، قال: هو الولد، وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك، وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد عن أبيه: حدثني عمي عن أبيه، حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: هو الولد(٣).

وقال ابن زيد: هو الجماع.

وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وعن ابن عباس رواية أخرى، قال: ليلة القدر.

والتحقيق أن يقال: لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة، وقضاء الوطر حتى لا يخطر بقلبه غير ذلك، أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر، والولد الذي يخرج

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٧، ٨). (٣) الطبري (٢/ ١٦٩).

من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ويبتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه، فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته، ومما كتب لهم ليلة القدر، فأمروا أن يبتغوها، لكن يبقى أن يقال مما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم، فيقال: التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها. والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

أي: تضيفوا ذلك إلى الحكام، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها.

فإن قيل: لو أراد هذا المعنى لقال: وتدلوا بالحكام إليها، وأما الإدلاء بها إلى الحكام؛ فهو التوصل بالبراطيل[٢] بها إليهم، فترشوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوته إلى الأكل بالباطل.

قيل: الآية تتناول النوعين، فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معاً[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

سألوه[٤] عن سبب ظهور الهلال خفياً، ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدريج حتى يكمل، ثم يأخذ في النقصان، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس، التي بها تمام مصالحهم في أحوالهم ومعاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج، وإن كانوا سألوا عن السبب؛ فقد أجيبوا بما هو أنفع لهم مما سألوا عنه، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ما سألوا عنه. ولفظ سؤالهم محتمل، فإنهم قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم، ثم يأخذ في النقص[٥]؟

* * *

(١) تحفة الودود (١٣).
(٢) البراطيل: الرشوة.
(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٢٩).
(٤) الطبري (٢/ ١٨٥).
(٥) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠١، ٢٠٢).

قوله تعالى[1]: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين، والمجاهر بالسب والعدوان على الإسلام غير مُنْتَهٍ، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حتم، وهو ظالم، فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال، وهذا بحمد الله في غاية الوضوح[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أمر الحجيج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد. ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى.

فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى، والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى فجمع بين الزادين[3]. اهـ.

وقال: فذكر الزاد الظاهر، والزاد الباطن.

وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة[4].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة؛ لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله ﷻ كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله، وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة، ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته أعظم مما حصله[5].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

---

(١) في بيان ما ينقض العهد وما لا ينقض.
(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٢٩).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٥٨).
(٤) روضة المحبين (٢٢٦).
(٥) الوابل الصيب (٥٩).

قال سعيد(١) عن قتادة: «ذُكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله عز وجل نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبُعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق».

وقال ابن عباس: «كان الناس أمة واحدة كانوا على الإسلام كلهم»(٢).

وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أمة واحدة، كانوا كفاراً»(٣).

وهذا قول الحسن وعطاء، قالا: «كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليه السلام أمة واحدة على ملة واحدة، وهي الكفر، كانوا كفاراً كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحاً وإبراهيم والنبيين».

وهذا القول ضعيف جداً، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا همام حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: «كانوا على الإسلام كلهم»(٤).

وهذا هو الصواب قطعاً، فإن قراءة أُبي بن كعب: «فاختلفوا فبعث الله النبيين ومبشرين ومنذرين»، ويشهد لهذه القراءة: قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ [يونس: ١٩]. والمقصود: أن العدو كادهم، وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين ـ كفاراً ومؤمنين ـ فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث. اهـ(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٥].

فسألوه عن المنْفَق، فأجابهم بذكر المصْرِف، إذ هو أهم مما سألوه عنه ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾، وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه(٦).

* * *

(١)(٢)(٣) راجع هذه الأقوال في الآية: في تفسير الطبري (٢/ ٣٣٤)، والقرطبي (١/ ٨٣٨)، فتح القدير للشوكاني (١/ ٢١٤)، والدر المنثور (١/ ٥٨٢).

(٤) راجع هذه الأقوال في الآية في: تفسير الطبري (٢/ ٣٣٤)، والقرطبي (١/ ٨٣٨)، فتح القدير للشوكاني (١/ ٢١٤)، والدر المنثور (١/ ٥٨٢).

(٥) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٦) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب ـ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد ـ، أوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شق عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب المنهي، وإن هويته نفسه، ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب؛ وخاصية العاقل تحمل الألم اليسير، لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة، لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مباديها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة؛ فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء مر المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه مرارة مذاقه عن تناوله؛ أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم، تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره؛ هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها: تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له، ويقتضيه له لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه، ورضي بما يختاره له أمره فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله؛ أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه؛ اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره، إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه: تحيُّله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميت. فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف(١).

فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم [على المسلمين]، وإن كان كبيراً، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله، والصد عن سبيله، وعن بيته، وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

وأكثر السلف فسروا الفتنة هاهنا بالشرك، كقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ أي: لم يكن مآل شركهم، وعاقبته، وآخر أمرهم، إلا أن تبرؤوا منه، وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه، ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤].

---

(١) الفوائد (١٣٤، ١٣٥).
(٢) شفاء العليل (٣٣).

قال ابن عباس: تكذيبكم. وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم، وغايتها ومصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

وكما فتنوا عباده على الشرك، فتنوا على النار، وقيل لهم: ذوقوا فتنتكم. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]. فسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار، واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتتنوا عن دينهم، فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان، والاختبار، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون، وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر، والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام، كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر.

وهي الفتنة التي قال فيها النبي ﷺ: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي»(١).

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين(٢) هي هذه الفتنة، وقد تأتي الفتنة ويراد بها المعصية كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: ٤٩]. يقوله الجد بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لي في القعود، ولا تفتني بتعرضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]؛ أي: وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر(٣).

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ من باب بدل الاشتمال، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فلم قدم الشهر وقد قلتم: إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم، وهم به أعنى؟

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: (١٣/ ٣٨) الفتن، باب: كيف الأمر إذ لم تكن جماعة، ومسلم (٤/ ٥١٤) في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين.

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٦٨ ـ ١٧٠).

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر، وتشنيع أعدائهم عليهم، وانتهاك حرمته، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال. فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر، فلذلك قُدم في الذكر، وكان تقديمه بلفظ الظاهر، وهلا اكتفى بضميره فقال: (قل: هو كبير)، وأنت إذا سألته عن زيد: أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدار؟

(قيل): في إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة، وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموماً، ولو أتى بالمضمر، وقال: (هو كبير)؛ لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولم يقل: «فيه» تعليقاً لحكم الاعتزال بنفس الحيض، وأنه هو سبب الاعتزال.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾، ولم يقل الحيض؛ لأن الآية جارية على الأصل، ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمراً، ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضاً بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾، فإنه إخبار بالواقع، والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً بخلاف تعليق الحكم، فإنه إنما يعلم بالشرع، فتأمله[2].

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾؟ فقال: تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها، يعني: في الحيض، وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول في الفرج ولا تَعْدُه إلى غيره[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لطهور الماء، وطهور الماء لا ينفع بدونه، بل هو مكمل له معه مهيئ بحصوله؛ فكان أولى بالتقديم؛ لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك، ثم يتطهر بالماء من الحدث[4].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٧).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤٨).
(٣) زاد المعاد (٤/ ٢٦١).
(٤) بدائع الفوائد (١/ ٦٨).

قوله تعالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

كانت قريش والأنصار تشرح النساء على أقفائهن، فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

وفي الصحيحين عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها، كان الولد أحولَ، فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، وفي لفظ لمسلم: «إن شاء مجبية، وإن شاء غير مجبية، غير أن ذلك في صمام واحد»(١).

والمجبية: المنكبة على وجهها، والصمام الواحد: الفرج، وهو موضع الحرث في الولد.

وأما الدبر: فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء، ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها، فقد غلط عليه.

وفي سنن أبي داود، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى المرأة في دبرها»(٢).

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»(٣).

وفي لفظ للترمذي وأحمد: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(٤).

وفي الترمذي عن علي بن طلق، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء في أعجازهن، فإن الله لا يستحي من الحق»(٥).

وإذا كان الله حرَّم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض، فما الظن بالحشِّ الذي هو محل الأذى اللازم، مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل..

وأيضاً: فللمرأة حق على الزوج في الوطء، ووطؤها في دبرها يفوِّت حقها، ولا يقضي وطرها، ولا يحصِّل مقصودها.

وأيضاً: فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يخلق له، وإنما الذي هُيئ له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٤ و٤٧٩)، وأبو داود (٢١٦٢)، وصحح البوصيري إسناده.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٢، ٣٤٤)، وابن ماجه (١٩٢٣).
(٤) أخرجه أحمد (٢/٤٠٨، ٤٧٦)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥).
(٥) رواه الترمذي (١١٦٤).

وأيضاً: فإن ذلك مضر بالرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم..

وأيضاً: فإنه محل القذر والنجو..

وأيضاً: فإنه يضر بالمرأة جداً، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة.

وأيضاً: فإنه يحدث الهم والغم، والنفرة عن الفاعل والمفعول.

وأيضاً: فإنه يسوِّد الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة، تصير عليه كالسيماء يعرفها من له أدنى فراسة.

وأيضاً: فإنه من أكبر أسباب زوال النعم، وحلول النقم، فإنه يوجب اللعن والمقت من الله تعالى..

وأيضاً: فإنه يذهب الحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب، فإذا فقدها القلب، استحسن القبيح، واستقبح الحسن، وحينئذٍ فقد استحكم فساده(١)..

* * *

قوله تعالى ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه.

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على أن لا تبروا، وأن لا تتقوا، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفتم، وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة، وأنها تقتضي تعذيباً؛ فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين.

والقول الأول أصح، وهو قول جمهور أهل التفسير؛ فإنه قابل به لغو اليمين، وهو أن لا يقصد اليمين؛ فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو: عقده وعزمه. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فتعقيد الأيمان: هو كسب القلب.اهـ(٢).

وقال:

---

(١) زاد المعاد (٤/٢٥٦ ـ ٢٦٣).

(٢) شفاء العليل (١٢٠).

فأخبر تعالى أنه إنما يعتبر في الأيمان قصد القلب وكسبه، لا مجرد اللفظ الذي لم يقصده أو لم يقصد معناه، على التفسيرين في اللغو، فكيف إذا كان قاصداً لضد ما يتخيل عليه؟![(١)].

قال: واللغو نوعان:

أحدهما: أن يحلف على الشيء يظنه كما حلف عليه، فيبين بخلافه.

والثاني: أن تجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف، كـ «لا والله»، و«بلى والله» في أثناء كلامه.

وكلاهما رفع الله المؤاخذة به، لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده؛ ألا يرتِّبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقةً وحكماً[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

ثبت في صحيح البخاري: عن أنس قال: آلى رسولُ الله ﷺ من نسائه، وكانت انفكت رجلُه، فأقام في مَشْرُبَةٍ له تِسعاً وعِشرين ليلة، ثم نزل، فقالُوا: يا رَسولَ الله، آليتَ شهراً، فقال: «إنَّ الشَّهْرَ يَكونُ تِسْعاً وعِشْرِينَ»[(٣)].

والإيلاء: لغة: الامتناع باليمين، وخُصَّ في عرف الشرع: بالامتناعِ باليمينِ مِن وطء الزوجة، ولهذا عُدِّيَ فعله بأداة «مِن»؛ تضميناً له معنى «يمتنعون» من نسائهم، وهو أحسنُ من إقامةِ «من» مقام «عَلَى».

وجعل سبحانه لِلأزواج مُدَّةَ أربعة أشهر يمتنعون فيها مِن وطء نسائهم بالإِيلاء، فإذا مضت فإما أن يَفيء، وإما أن يُطَلّق، وقد اشتهر عن علي، وابنِ عباس: أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضى، كما وقع لِرسول الله ﷺ مع نسائه، وظاهرُ القرآن مع الجمهور.

وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين، ورجل آخر، فاحتج على محمد بقول علي؛ فاحتج عليه محمد بالآية؛ فسكت.

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٩٢).
(٢) زاد المعاد (٥/ ٢٠٧).
(٣) رواه البخاري (١٩١١).

وقد دلت الآية على أحكام:

منها: هذا.

ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقلَّ من أربعة أشهر لم يكن مؤلياً، وهذا قولُ الجمهور، وفيه قول شاذ، أنه مؤل.

ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يَحْلِفَ على أكثر من أربعة أشهر، فإن كانت مدة الامتناع أربعة أشهر، لم يثبت له حكمُ الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعدَ انقضائها إما أن يُطلِّقوا، وإما أن يفيئوا، وهذا قول الجمهور، منهم: أحمد، والشافعي، ومالك، وجعله أبو حنيفة مؤلياً بأربعة أشهر سواء، وهذا بناء على أصله أن المدةَ المضروبة أجلٌ لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة أجلاً لاستحقاق المطالبة، وهذا موضع اختلف فيه السلفُ من الصحابة ﷺ والتابعين ومَنْ بعدهم.

فقال الشافعي: حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، قال: أدركتُ بضعة عشرَ رجلاً مِن الصحابة، كلهم يُوقِفُ المؤلي[١]. يعني: بعد أربعةِ أشهر. وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: سألتُ اثني عشر رجلاً مِن أصحابِ رسول الله ﷺ عن المؤلي، فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضيَ أربعةُ أشهر[٢]. وهذا قولُ الجمهور مِن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال عبد الله بن مسعود، وزيدُ بن ثابت: إذا مضت أربعة أشهر ولم يفء فيها، طلقت منه بمضيها، وهذا قول جماعةٍ من التابعين، وقولُ أبي حنيفة وأصحابه، فعند هؤلاء يستحِقُّ المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء وإلا طلقت بمضيها، وعند الجمهور: لا يستحق المطالبة حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحينئذٍ يقال: إما أن تفيء، وإما أن تُطلق، وإن لم يفء، أُخِذَ بإيقاع الطلاق، إما بالحاكم، وإما بحبسه حتى يطلِّق.

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبدَ الله بن مسعود قرأ: (فإن فاؤوا فيهنَّ فإن الله غفور رحيم)، فإضافة الفيئة إلى المدة تدل على استحقاق الفيئة فيها، وهذه القراءة إما أن تُجرى

---

(١) أخرجه الإمام الشافعي (٢/ ٢٩٤). بدائع المنن.

(٢) رواه الدارقطني (٤/ ٦١).

مجرى خبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم تُوجب كونها مِن القرآن، وإما أن تكون قرآناً نسخ لفظه، وبقي حكمه لا يجوز فيها غير هذا البتة.

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفيئةُ بعدها، لزادت على مدة النص، وذلك غيرُ جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء، لوقعت الفيئةُ موقِعَها، فدل على استحقاق الفيئة فيها.

قالوا: ولأن الله ﷻ جعل لهم تربصَ أربعة أشهر، ثم قال: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾، وظاهر هذا أن هذا التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بديني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك، ولا يفهم من هذا إلا إن وفَّيتني في هذه المدة، ولا يُفهم منه إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفيئة بأنها في المدة، وأقلُّ مراتبها أن تكون تفسيراً.

قالوا: ولأنه أجلٌ مضروب للفرقة، فتعقبه الفرقة كالعدة، وكالأجل الذي ضُرِبَ لوقوع الطلاق، كقوله: إذا مضت أربعة أشهر، فأنت طالق.

قال الجمهور: لنا من آية الإيلاء عشرة أدلة.

أحدها: أنه أضاف مدة الإيلاء إلى الأزواج، وجعلَها لهم، ولم يجعلها عليهم، فوجب ألا يستحق المطالبة فيها، بل بعدَها، كأجل الدَّين، ومن أوجبَ المطالبة فيها لم يكن عنده أجلٌ لهم، ولا يُعقل كونها أجلاً لهم، ويستحق عليهم فيها المطالبة.

الدليل الثاني: قوله: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فذكر الفيئةَ بعد المدة بفاء التعقيب، وهذا يقتضي أن يكونَ بعدَ المدة، ونظيرُه قولُه سبحانه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وهذا بعدَ الطلاق قطعاً.

فإن قيل: فاء التعقيب تُوجب أن يكون بعد الإيلاء لا بعدَ المدة؟

قيل: قَد تقدَّمَ في الآية ذكر الإيلاء، ثم تلاه ذكر المدة، ثم أعقبها بذكر الفيئة، فإذا أوجبت الفاءُ التعقيبَ بعدما تقدم ذكرهُ، لم يجز أن يعود إلى أبعدِ المذكورين، ووجب عودُها إليهما أو إلى أقربهما.

الدليل الثالث: قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وإنما العزم ما عزم العازمُ على فعله، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فإن قيل: فتركُ الفيئة عزم على الطلاق؟

قيل: العزمُ هو إرادة جازمة لفعل المعزوم عليه أو تركه، وأنتم توقعون الطلاق بمجرد مضيِّ المدة وإن لم يكن منه عزم لا على وطء ولا على تركه، بل لو عزم على الفيئة، ولم يُجامع طلقتم عليه بمضيِّ المدة، ولم يعزم الطلاق، فكيفما قدرتم، فالآية حجة عليكم.

الدليل الرابع: أن الله سبحانه خيَّره في الآية بين أمرين: الفيئةِ أو الطلاق، والتخييرُ بين أمرين لا يكون إلا في حالة واحدة كالكفارات، ولو كان في حالتين، لكان ترتيباً لا تخييراً، وإذا تقرر هذا، فالفيئة عندكم في نفس المدة، وعزمُ الطلاق بانقضاء المدة، فلم يقع التخييرُ في حالة واحدة.

فإن قيل: هو مخيَّر بين أن يفيء في المدة، وبين أن يترك الفيئة، فيكون عازماً للطلاق بمضي المدة. **قيل**: ترك الفيئة لا يكون عزماً للطلاق وإنما يكون عزماً عندكم إذا انقضت المدة، فلا يتأتَّى التخييرُ بين عزم الطلاق وبين الفيئة البتة، فإنه بمضي المدة يقع الطلاق عندكم، فلا يُمكنه الفيئة، وفي المدة يمكنه الفيئة، ولم يحضر وقتُ عزم الطلاق الذي هو مضي المدة، وحينئذٍ فهذا **دليل خامس** مستقل.

الدليل السادس: أن التخيير بين أمرين يقتضي أن يكون فِعلُهما إليه، ليصح منه اختيارُ فعل كل منهما وتركه، وإلا لبطل حكمُ خياره، ومضي المدة ليس إليه.

الدليل السابع: أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فاقتضى أن يكون الطلاقُ قولاً يسمع، ليحسن ختم الآية بصفة السمع.

الدليل الثامن: أنه لو قال لغريمه: لك أجلُ أربعة أشهر، فإن وفيتني قبلتُ منك، وإن لم تُوفني، حبستُك، كان مقتضاه أن الوفاء والحبس بعد المدة لا فيها، ولا يَعْقِلُ المخاطبُ غيرَ هذا.

فإن قيل: ما نحن فيه نظيرُ قوله: لك الخيار ثلاثة أيام، فإن فسخت البيع وإلا لزمك، ومعلوم أن الفسخَ إنما يقع في الثلاث لا بعدها؟ **قيل**: هذا من أقوى حُججنا عليكم، فإن موجبَ العقد اللزومُ، فجعل له الخيار في مدة ثلاثة أيام، فإذا انقضت ولم يفسخ، عاد العقدُ إلى حكمه، وهو اللزومُ، وهكذا الزوجة لها حقٌّ على الزوج في الوطء، كما له حقٌّ عليها، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فجعل له الشارعُ امتناعَ أربعة أشهر لا حقَّ لها فيهن، فإذا

انقضت المدةُ، عادت على حقِّها بموجب العَقد، وهو المطالبة لا وقوع الطلاق، وحينئذٍ فهذا **دليل تاسع** مستقل.

الدليل العاشر: أنه سبحانه جعل للمؤلين شيئاً، وعليهم شيئين، فالذي لهم تربُّصُ المدة المذكورة، والذي عليهم إما الفيئةُ وإما الطلاقُ، وعندكم ليس عليهم إلا الفيئة فقط، وأما الطلاقُ، فليس عليهم، بل ولا إليهم، وإنما هو إليه سبحانه عند انقضاء المدة، فيُحكم بطلاقها عقيب انقضاء المدة شاء أو أبى، ومعلوم أن هذا ليس إلى المؤلي ولا عليه، وهو خلافُ ظاهر النص، قالوا: ولأنها يمين بالله تعالى توجب الكفارةَ، فلم يقع بها الطلاق كسائر الأيمان، ولأنها مدة قدرها الشرعُ، لم تتقدمها الفرقة، فلا يقع بها بينونة، كأجل العنين، ولأنه لفظ لا يَصِحُّ أن يقع به الطلاق المعجَّل، فلم يقع به المؤجلُ كالظهار، ولأن الإيلاء كان طلاقاً في الجاهلية، فنسخ كالظهار، فلا يجوز أن يقع به الطلاق لأنه استيفاء للحكم المنسوخ، ولما كان عليه أهلُ الجاهلية.

قال الشافعي: كانت الفِرَقُ الجاهلية تَحلِفُ بثلاثة أشياء: بالطَّلاق، والظِّهار، والإيلاء، فنقل الله ﷻ الإيلاء والظِّهار عما كانا عليه في الجاهلية من إيقاع الفرقة على الزوجة إلى ما استقرَّ عليه حكمهما في الشرع، وبقي حكمُ الطلاق على ما كان عليه، هذا لفظه.

قالوا: ولأن الطلاقَ إنما يقع بالصريح والكناية، وليس الإيلاء واحداً منهما، إذ لو كان صريحاً، لوقع معجَّلاً إن أطلقه، أو إلى أجل مسمًّى إن قيَّده، ولو كان كنايةً، لرجع فيه إلى نيته، ولا يَرِدُ على هذا اللعان، فإنه يُوجب الفسخَ دونَ الطلاق، والفسخُ يقع بغير قول، والطلاقُ لا يقع إلا بالقول.

قالوا: وأما قراءةُ ابنِ مسعود، فغايتُها أن تدُلَّ على جواز الفيئة في مدة التربُّص، لا على استحقاق المطالبة بها في المدة، وهذا حق لا ننكِرُه.

وأما قولُكم: جوازُ الفيئة في المدة دليلٌ على استحقاقها فيها، فهو باطل بالدَّينِ المؤجَّلِ.

وأما قولُكم: إنه لو كانت الفيئة بعد المدة، لزادت على أربعة أشهر، فليس بصحيح، لأن الأربعة الأشهر مدة لزمن الصبر الذي لا يستحِقُّ فيه المطالبة، فبمجرد انقضائها يستحِقُّ عليه الحقُّ، فلها أن تعجِّل المطالبة به، وإمَّا أن تُنْظره. وهذا كسائر الحقوق المعلَّقة بآجال محدودة، إنما تُستحق عند انقضاء آجالها، ولا

يُقال: إن ذلك يستلزمُ الزيادةَ على الأجل، فكذا أجلُ الإيلاء سواء[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل.

فكما رجع إلى التي هي أحسن، رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم، فإن الطلاق لما كان لفظاً يسمع ومعنى يقصد، عقبه باسم (السميع) للنطق به، (العليم) بمضمونه[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ...﴾ [البقرة: ٢٢٨، ٢٢٩].

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها، فهو حق لها على الزوج بنص القرآن. وأيضاً فإنه سبحانه أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل، أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة، ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه رداً عليه. والله ﷻ إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا غيره، فقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾.

وقالت طائفة: يجب عليه وطؤها في العمر مرة واحدة؛ ليستقر بذلك لها الصداق. وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجه آخر، فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف، والصداق دخل في العقد تعظيماً لحرمته وفرقاً بينه وبين السفاح، فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة، واحتجوا على ذلك بأن الله ﷻ أباح للمؤلي تربص أربعة أشهر؛ وخير المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه.

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٣٤٤ ـ ٣٥٣).
(٢) جلاء الأفهام (٩٣، ٩٤).

فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة، وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله فليس أيضاً بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها.

وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظراً منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة؛ لعارض من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بمهم، فجعل الله ﷻ له أجلاً أربعة أشهر. ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً في كل أربعة أشهر مرة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله ﷻ أن يعاشرها بالمعروف، فالوطء داخل في هذه المعاشرة ولا بد، قالوا: وعليه أن يشبعها وطءاً إذا أمكنه ذلك، كما عليه أن يشبعها قوتاً، وكان شيخنا رحمه الله يرجح هذا القول ويختاره[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فيه جواز الخلع كما دل عليه القرآن.

ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس خالفت النص والإجماع.

وفي الآية دليل على جوازه مطلقاً بإذن السلطان وغيره، ومنعه طائفة بدون إذن. والأئمة الأربعة والجمهور على خلافه.

وفي الآية دليل على حصول البينونة به، لأنه سبحانه سماه فدية، ولو كان رجعياً كما قال بعض الناس لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له، ودل قوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، على جوازه بما قل أو كثر، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها[(٢)].

و[الآية] دليل على أن الخلع المأذون فيه، إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله، فإنه شَرَطَ في الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العودة ظن إقامة حدوده[(٣)].

---

(١) روضة المحبين (٢١٠، ٢١١).
(٢) زاد المعاد (٥/ ١٩٣).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

إن الله سبحانه قال ذلك في المطلقة ثلاثاً.

أي إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا، والمراد به تجديد العقد، وليس ذلك مختصاً بالصورة التي يطلق فيها الثاني فقط، بل متى تفارقا بموت أو خلع أو فسخ أو طلاق، حلَّت للأول قياساً على الطلاق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وذلك نص في أن الرجعة إنما تثبت لمن قصد الصلاح، دون الضرار، فإذا قصد الضرار لم يملكه الله تعالى الرجعة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فدلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولان، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه، وأكد بكاملين؛ لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

وثانيها: أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل، فلهما ذلك.

وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضاراً بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر، وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد، وقد تكامل نبات أسنانه وأضراسه،

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٦، ٢٦٧). (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٧).

وقويت على تقطيع الغذاء وصحته، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له، ووقت الاعتدال الخريفي أنفع في الفطام من وقت الاعتدال الربيعي؛ لأنه في الخريف يستقبل الشتاء والهواء يبرد فيه، والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو، والهضم يزداد قوة وكذلك شهوة[١].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

ثبت عنه ﷺ في صحيح مسلم، أنه قال في خطبة حجة الوداع: «واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»[٢].

وثبت عنه ﷺ في الصحيحين: أن هنداً امرأة أبي سفيان قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[٣].

وفي سنن أبي داود، من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! ما تقول في نسائنا؟ قال: «أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن»[٤].

وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله عز وجل حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم، وسوَّى بينهما في عدم التقدير، وردَّهما إلى المعروف[٥].

□ □ □

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾.

قال ابن جريج قلت لعطاء: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾؟

قال: على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه.

قلت له: أيحبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟

قال: أفيدعه يموت؟

---

(١) تحفة الودود (٢٠٥، ٢٠٦). (٢) رواه مسلم (١٢١٨).

(٣) رواه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤). (٤) رواه أبو داود (٢١٤٤).

(٥) زاد المعاد (٥/ ٤٩٠ ـ ٤٩١).

وقال الحسن: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قال على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني.

وبهذا فسر الآية جمهور السلف، منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم سفيان الثوري وعبد الرزاق، وأبو حنيفة وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد وإسحاق وداود وأصحابهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة.

ولا تدخل فيه الحامل، لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه.

وأيضاً: فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ في غير الحامل بالاتفاق، فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

لما ذكر سبحانه التعريض بخطبة المرأة الدال على أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها، وأن ذلك يحمله على الكلام الذي يتوصل به إلى نكاحها، رفع الجناح عن التعريض، وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة، ونفي مواعدتهن سراً.

فقيل: هو النكاح. والمعنى: لا تصرحوا لهن بالتزويج، إلا أن تُعرِّضوا تعريضاً. وهو القول المعروف.

وقيل: هو أن يتزوجها في عدتها سراً. فإذا انقضت العدة أظهر العقد، ويدل

(١) زاد المعاد (٥/٥٤٦).

(٢) زاد المعاد (٥/ ٥٩٥).

على هذا قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، وهو انقضاء العدة. ومن رجح القول الأول قال: دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح، وتحريم التصريح بالنهي عن المواعدة سراً، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة. فلو كان معنى مواعدة السر: هو إسرار العقد. كان تكراراً.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أن تتعدوا ما حدّ لكم فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون.

ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ولولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه سبحانه مطلع عليكم، يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون، فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار، فإنه هو الغفور الحليم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فكبر قدره في باطنه بالعلم، وفي ظاهره باشتداد الجسم، فكمل ظاهره وباطنه ومعناه وصورته، وهذا أكمل من أن يكمل معناه وفكره دون ذاته وصورته، وهذا شأنه ـ سبحانه ـ فيما يريد تكميله من خلقه، فإنه يكمله ذاتاً ومعنى ظاهراً وباطناً[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قلت: اختلفوا [في السكينة]، هل هي عين قائمة بنفسها أو معنى؟ على قولين:

أحدهما: أنها عين. ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها. فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنها ريح هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان».

ويروى عن مجاهد: أنها صورة هرة لها جناحان، وعينان لهما شعاع. وجناحان من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب بن منبه: هي روح من روح الله تتكلم. إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون.

---

(١) جلاء الأفهام (٩٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٧٦).

والثاني: أنها معنى. ويكون معنى قوله: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي ومجيئه إليكم: سكينة لكم وطمأنينة.

وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينة في نفس التابوت، ويؤيده عطف قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾، قال عطاء بن أبي رباح: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾، هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها.

وقال قتادة، والكلبي: هي من السكون، أي طمأنينة من ربكم؛ ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

ففي الآية أربعة أدلة على خلق الله تعالى الأعمال وتكوينه وإيجاده لها:

أحدها: قوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، والصبر فعلهم الاختياري، فسألوه ممن هو بيده مشيئته وإذنه، إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فسألوه النصر؛ وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم، ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر، وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره؛ إما أن يكون بأفعال الجوارح، وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضاً فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه.

الرابع: قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري، ؛ أي بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر، فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة(٢).

* * *

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥٠٤، ٥٠٥). (٢) شفاء العليل (٦٣، ٦٤).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ففي آية الكرسي ذكر «الحياة» التي هي أصل جميع الصفات، وذكر معها قيوميته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه، من النوم والسِّنة والعجز وغيرها، ثم ذكر كمال ملكه. ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه، ثم ذكر سعة كرسيه منبهاً به على سعته سبحانه وعظمته وعلوه، وذلك توطئة بين يدي ذكر علوه وعظمته، ثم أخبر عن كمال اقتداره ولا تعب. ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته في نفسه، وقال في سورة طه:

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

وقد اختلف في تفسير الضمير في (به)؛ فقيل: هو الله ـ سبحانه ـ؛ أي: ولا يحيطون بالله علماً، وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم.

فعلى الأول يرجع إلى العالم، وعلى الثاني يرجع إلى المعلوم.

وهذا القول يستلزم الأول من غير عكس، لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فأن لا يحيطوا علماً به ـ سبحانه ـ أولى.

وكذلك الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾، يجوز أن يرجع إلى الله، ويجوز أن يرجع إلى ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾، أي: ولا يحيطون بشيء من علم ذلك إلا بما شاء.

فعلى الأول: يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل.

وعلى الثاني: يكون مضافاً إلى المفعول.

والمقصود أنه لو كان ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ إنما يراد به اتصافه بالعلم والقدرة والملك، وتوابع ذلك كان تكريراً بل دون التكرير، فإنّ ذكر ذلك مفصلاً أبلغ من الدلالة عليه بما لا يفهم إلا بكلفة، وكذلك إذا قيل: إن علوه وعظمته مجرد كونه أعظم من مخلوقاته وأفضل منها، فهذا هضم عظيم لهاتين الصفتين العظيمتين، وهذا لا يليق ولا يحسن أن يذكر ويخبر به عنه؛ إلا في معرض الرد لمن سوَّى بينه

وبين غيره في العبادة والتأله؛ كقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩][١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا نفي في معنى النهي، أي لا تكرهوا أحداً على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح: أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبين له أنه لم يكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم، فمَنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بالقتال، حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضاً هم جاؤوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فوحد ﴿وَلِىُّ﴾ الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد، وجمع ﴿وَلِىُّ﴾ الذين كفروا

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٧١، ١٣٧٢). (٢) هداية الحيارى (٣٧، ٣٨).

لتعددهم وكثرتهم. وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحد ﴿ٱلنُّورِۗ﴾، وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه(١).

وهذا يتضمن إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال(٢).

فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإن من تأمل موقع الاحتجاج، وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة، فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا؛ فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة، أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقاً فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه. وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

طلب إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه، طلب أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهداً.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٢٠).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ٥٣٢).

(٣) اجتماع الجيوش (٥).

(٤) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي ﷺ بالشك في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»(١)، حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

وهو ﷺ لم يشك، ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي، أي لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال، ولم نشك نحن.

وهذا القول صحيح أيضاً، أي: لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه، لكن لم يطلب ما طلب شكاً، وإنما طلب ما طلبه طمأنينة.

فالمراتب ثلاث: علم يقين يحصل عن الخبر، ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصير العلم به عين يقين، ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين.

فعلمنا بالجنة والنار الآن، علم يقين.

فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف، وبرزت الجحيم للغاوين وشاهدوهما عياناً، كان ذلك عين يقين كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ ـ ٧].

فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فذلك حق اليقين(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

هذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثَّله سبحانه بهذا المثل؛ إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيِّبت في الأرض، فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة، فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني؛ فيقوى إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١). (٢) مدارج السالكين (١/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل؛ وهي من جموع الكثرة، إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]. فجاء بها على جمع القلة؛ لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، قيل: المعنى: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء، وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه لصفات المنفق وأحواله وفي شدة الحاجة، وعظيم النفع وحسن الموقع. وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمائة بل يجاوز المضاعفة في هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تقدير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة، وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به؛ فههنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر، فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه؛ فذكر من شق الممثل المنفق، إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها، وذكر من شق الممثل به البذر، إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر لأن القرض لا يتعلق بذكره، فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان.

وهذا كثير في أمثال القرآن؛ بل عامتها ترد على هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها؛ وهما «الواسع العليم»، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة، ولا يضيق عنها عطاؤه فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه؛ تقتضي حصولها لكل منفق، فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته؛ بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا بيان للقرض الحسن ما هو؟ وهو أن يكون في سبيله؛ أي: في مرضاته، والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها سبيل الجهاد.

وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام.

وأن لا يتبع صدقته بمنٍّ ولا أذى، فالمَنُّ نوعان:

أحدهما: مَنٌّ بقلبه من غير أن يصرح له بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في عطائه المال، وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فللَّه المنة عليه من كل وجه. فكيف يشهد قلبه مِنَّة لغيره؟.

والنوع الثاني: أن يمُنَّ عليه بلسانه، فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقاً وطوقه مِنَّة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده. قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت. وقال عبد الرحمٰن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكِنَّ سلامك عنه. وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسدي إليكم صنيعة فلا تنسوها، وفي ذلك قيل:

وإنَّ امرءًا أهدى إلي صنيعة   وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان: من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضن، وحظر الله على عباده المنَّ بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأنه من العباد تكدير وتعيير، ومن الله ﷻ إفضال وتذكير.

وأيضاً فإنه هو المنعم في نفس الأمر، والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة، وأيضاً فالامتنان استعباد، وكسر، وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضاً فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل، والإنعام، وأنه ولي النعمة، ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله، وأيضاً فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفعاً على الآخذ، مستعلياً عليه غنياً عنه عزيزاً، ويشهد ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته ولا ينبغي ذلك للعبد، وأيضاً فإن المعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى، فبقي عوض ما أعطى عند الله. فأي حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه فقد ظلمه ظلماً بيناً، وادعى أن حقه في قبله.

ومن هنا ـ والله أعلم ـ بطلت صدقته بالمن، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده فلم يرض به، ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه، بطلت معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ودلالته على ربوبيته، وإلٰهيته وحده، وأنه

يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته، وإلٰهيته، لا إله غيره، ولا رب سواه.

ونبه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ على أن المن والأذى، ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه، ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو، وقال: (ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي مبطلاً لأثر الإنفاق مانعاً من الثواب، فالمقارن أولى وأحرى.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء، فقال: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء؛ فإن المعنى أن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقته؛ فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سراً وعلانية. فذكر عموم الأوقات، وعموم الأحوال فأتى بالفاء في الخير ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية. فإنه سبب للجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد، ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن؛ فلعلك تظفر بها إذ تمر بك في التفاسير. والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فأخبر أن القول المعروف وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره. والمغفرة وهي العفو عمن أساء إليك، خير من الصدقة بالأذى، فالقول المعروف إحسان وصدقة

بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة. ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى لك بسبب رده، فيكون عفوه عنه خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: إن المغفرة من الله؛ أي: مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل، خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذ رُدَّ وتعذر المسؤول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جداً؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسؤول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له، والتجاوز والعفو خير لك من أن تصدق عليه وتؤذيه.

ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة، فنفعها عائد عليكم لا إليه ﷻ، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه؟ ومع هذا فهو حليم؛ إذ لم يعاجل المانَّ بالعقوبة. وفي ضمن هذا: الوعيد والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه ﷻ مع غناه التام من كل وجه، فهو الموصوف بالحلم والتجاوز، والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره؟!

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فتضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن

الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقاً.

وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، يدل على أن المن والأذى المبطل هو المقارن، كالرياء وعدم الإيمان، فإن الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله، ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمانِّ المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارناً للعمل؛ لأنه فعال من الرؤيا التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله، فلا يكون متراخياً؛ وهذا بخلاف المن والأذى؛ فإنه يكون مقارناً ومتراخياً؛ وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ﴾؛ إما أن يكون المعنى: كإبطال الذي ينفق، فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال؛ أو المعنى: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاء الناس، فيكون تشبيهاً للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته كمثل صفوان وهو الحجر الأملس، وفيه قولان: أحدهما: أنه واحد. والثاني: جمع صفوة ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد، فتركه صلداً وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره.

وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها؛ فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر بالحجر، لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به، وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر، فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها، كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر، فيتركه صلداً، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر: وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه

الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بذرت في التراب الطيب، أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؛ ولكن وراء هذا الإنفاق مانعاً يمنع من نموه وزكاته، كما أن تحت التراب حجراً يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه، فلا ينبت ولا يخرج شيئاً.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق؛ فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص. والتثبيت من النفس وهو الصدق في البذل؛ فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية.

إحداهما: طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية. وهذا حال أكثر المنفقين.

الآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها. هل يفعل أم لا؟.

فالآفة الأولى: تزول بابتغاء مرضاة الله.

والآفة الثانية: تزول بالتثبيت، فإن تثبيت النفس تشجعها وتقويتها والإقدام بها على البذل. وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله، إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة ـ وهي البستان الكثير الأشجار ـ فهو مجتنٌّ بها؛ أي: مستتر ليس قاعاً فارغاً. والجنة بربوة وهو المكان المرتفع، لأنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض، لأنها إذا ارتفعت كانت بمدْرَجة الأهوية والرياح. وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها. فكانت أنضج ثمراً وأطيبه وأحسنه وأكثره، فإن الثمار تزداد طيباً وزكاء بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال، وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب، فقال تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد العظيم القدر، فأدت ثمرتها وأعطت بركتها، فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها، أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل. فهذا حال السابقين المقربين ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ﴾، فهو دون الوابل. فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب

مغرسها تكتفي في إخراج بركتها بالطل، وهذا حال الأبرار والمقتصدين في النفقة، وهم درجات عند الله؛ فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم.

فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.

واختلف في الضعفين. فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائداً عليه، وضعفه مثله، وقيل: ضعفه مثلاه وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفاً زاد مثلاً، والذي حمل هذا القائل على ذلك فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية، فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلى المثل صار مثلين، وهما الضعف. فلو قيل: لها ضعفان، لم يكن فرق بين المفرد والمثنى. فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه ثلاثة أمثاله مضافة إلى الأصل. وهكذا أبداً.

والصواب: أن الضعفين هما المثلان فقط، الأصل ومثله. وعليه يدل قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾؛ أي مثلين، وقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. أي مثلين. ولهذا قال في الحسنات: (نؤتها أجرها مرتين).

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية، فوهم منشؤه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان، والله أعلم.

واختلف في رفع قوله: ﴿فَطَلّٞ﴾.

فقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: وطله يكفيها.

وقيل: خبر مبتدؤه محذوف تقديره: فالذي يرويها ويصيبها طل، والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما أن يرجع إلى الجنة، أو إلى الربوة، وهما متلازمان.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

ﭐلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن: هذا مثل، قَلَّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

وفي صحيح البخاري عن عبيد بن عمير قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ: «فيم هم يرون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ﴾ الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: قل: يا ابن أخي، ولا تحقر بنفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله»(١).

فقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي وألطف موقعاً، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحاً، فتقول له: لا يفعل هذا عاقل، أيفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة؟.

وقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول: أيودون. وقوله: ﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغ في الإنكار مما لو قيل: أيريد، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار، وأكثرها نفعاً فإن منهما القوت والغذاء، والدواء والشراب والفاكهة، والحلو والحامض، ويؤكلان رطباً، ويابساً، ومنافعهما كثيرة جداً.

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما.

فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججاً لقولها، فذكرناها في غير هذا الموضع.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٨).

وفصل الخطاب: أن هذا يختلف باختلاف البلاد؛ فإن الله ﷻ أجرى العادة بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر؛ فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيراً. لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة المعتدلة غير السبخة، فينمو فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة السبخة، وهي لا تناسب العنب. فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها، والله أعلم.

والمقصود: أن هذين النوعين هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها. فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها، ومع ذلك فلم يعدم شيئاً من أنواع الثمار المشتهاة، بل فيها من كل الثمرات، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب. فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعناب، و﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٤].

وقد قيل: إن الثمار في آية الكهف وفي آية البقرة المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها؛ لقوله في البقرة: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي الجنة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، وفي الكهف: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] وما ذلك إلا ثمار الجنة، ثم قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾، هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه:

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه.

الثالث: أن له ذرية، فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء، فهم كَلٌّ عليه، لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه، لضعفهم وعجزهم.

وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة، لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها. فإذا تصورت هذا الحال وهذه الحاجة، فكيف تكون مصيبة

هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار، وهو الريح التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود وفيها نار، مرت بتلك الجنة فأحرقتها، وصيرتها رماداً.

فصدق والله الحسن ـ هذا مثل قل من يعقله من الناس ـ ولهذا نبه الله ﷻ على عظم هذا المثل، وحدا القلوب إلى التفكر فيه لشدة حاجتها إليه، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه، فكذلك العبد إذا عمل بطاعة الله، ثم أتبعها بما يبطلها ويحرقها من معاصي الله، كان كالإعصار ذي النار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي، لما سولت له نفسه ـ والله ـ إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه عند المعصية. ولهذا استحق اسم الجهل، فكل من عصى الله فهو جاهل.

فإن قيل: الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ واو الحال أم واو العطف؟ وإذا كانت للعطف، فعلام عطفت ما بعدها؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنها واو الحال، اختاره الزمخشري(١)، والمعنى: أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا في حال كبره وضعف ذريته؟

والثاني: أن تكون للعطف على المعنى. فإن فعل التمني وهو قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ لطلب الماضي كثيراً. فكان المعنى: أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب، وأصابه الكبر فجرى عليها ما ذكر؟

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان: بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئاً أصلاً، بل ذهب بذره ضائعاً لعدم إيمانه وإخلاصه. ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصاً بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه، بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها. فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله، ثم أحرقه، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق.

فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ١٦٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

أضاف سبحانه الكسب إليهم، وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدوراً لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه. ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنه بالكلية.

وخص سبحانه هذين النوعين، وهما: الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي: إما بحسب الواقع فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، وإما لأنهما أصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ. فإن الكسب يدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها؛ من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء، كما هو عادة أكثر النفوس: تمسك الجيد لها وتخرج الرديء للفقير.

ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك لا عن قصد وتيمم، بل عن اتفاق إذ كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث، بل تيمم إخراج بعض ما من الله به عليه.

وموقع قوله: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾؛ أي: لو كنتم أنتم المستحقين له وبُذل لكم؛ لم تأخذوه في حقوقكم، إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه. ويقال للبائع: أغمض، أي: لا تستقص، كأنك لا تبصر. وحقيقته: من إغماض الجفن، فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه، بل يغمض من بصره، ويغمض عنه بعض نظره بغضاً، ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضـ ... ـيم رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم، ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له؟ والله أحق من يختار له خيار الأشياء وأنفسها.

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيباً؟.

ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، فغناه وحمده يأبيان قبوله الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث؛ إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه، الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق، والحث عليه بأبلغ الألفاظ، وأحسن المعاني. فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح: هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم. وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإن أحدهم يهم بالصدقة والبذل؛ فيجد في قلبه داعياً يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك، حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل، الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين: أن الفحشاء، هنا البخل[(١)]. فهذا وعده، وهذا أمره، وهو الكاذب في

(١) يذكر عن مقاتل والكلبي: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنا، إلا في هذا الموضع فإنها البخل»، والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم، أي بالفعْلَة الفحشاء، والخلَّة الفحشاء ومن جملتها البخل. [إغاثة اللهفان (١/ ١٠٧)].

وعده، الغادر الفاجر في أمره. فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد. كما قيل:

دلاهـمُ بـغـرور ثـم أوردهـم ... إن الـخـبـيـث لـمـن والاه غـرار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه، ولا نصيحة له، كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنياً، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته. وإنما وعده له بالفقر، وأمره إياه بالبخل؛ ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه؛ فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلاً بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة.

فهذا وعد الله، وذاك وعد الشيطان. فلينظر البخيل والمنفق أيَّ الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه، وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وفي الحديث المشهور(١): «إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد»، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ الآية.

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان(٢).

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فإنه واسع العطاء، عليم بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

فتأمل هذه الآيات، ولا تستطل بسط الكلام فيها، فإن لها شأناً لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه، وفهم مراده: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٨٨).

(٢) الحديث وما بعده من إغاثة اللهفان (١/ ١٠٧، ١٠٨).

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٩ ـ ٢٧٢].

وتأمل ختم هذه السورة، التي هي سنام القرآن بأحكام الأموال، وأقسام الأغنياء وأحوالهم، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام: محسن، وهم المتصدقون. فذكر جزاءهم ومضاعفته، وما لهم في قرض أموالهم للمليء الوفي سبحانه، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم، ويحرقها بعد استوائها وكمالها من المن والأذى، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها ابتداء من الرياء، ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها، ولا يتيمموا أردأها وخبيثها، ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش، وأخبر أن استجابتهم لدعوته سبحانه، وثقتهم بوعده أولى بهم. وأخبر أن هذا من حكمته التي يؤتيها من يشاء من عباده، وأن من أوتيها؛ فقد أوتي خيراً كثيراً: أوتي ما هو خير، وأفضل من الدنيا كلها؛ لأنه سبحانه وصف الدنيا بالقلة، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فدل على أن ما يؤتيه الله عبده من حكمته خير له من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد، بل لا يعقله إلا من له لب، وعقل زكي. فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر، فإنه يعلمه، فلا يضيع لديه، بل يعلم ما كان منه لوجهه؛ فيتولى هو سبحانه مجازاته من واسع فضله، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له، فإنه ظالم لنفسه، وما له من نصير.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها إن أبدوها أو كتموها، بعد أن تكون خالصة لوجهه، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾؛ أي: فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه؛ فيمنعه ذلك من إخراجها، وينتظر بها الإخفاء، فتفوت أو تعترضه الموانع، ويحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخر

صدقته العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لم يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس، وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن هذه هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد عن الإحسان إليه بمجرد الصدقة، مع تضمنه الإخلاص، وعدم المراءاة وطلب المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير خيراً من إظهارها بين الناس، ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمٰن يوم القيامة، ولهذا جعله سبحانه خيراً للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم؛ فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم، يعود عليهم أحوج ما كانوا إليه؛ فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟ وإن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصاً؛ لأنها صادرة عن إيمانهم، وإن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة.

وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته، وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم؛ بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

* * *

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة، فوصفهم بست صفات:

إحداها: الفقر.

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه، ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب، والضرب في الأرض: هو السفر. قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم: وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى. يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم، وعدم تعرضهم، وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم: وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسبان الجاهل أنهم أغنياء، لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف: هو المتوسم المتفرس الذي يعرف الناس بسيماهم. فالمتوسمون خواص المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس، فلا يسألونهم إلحافاً، والإلحاف: هو الإلحاح. والنفي متسلط عليهما معاً، أي: لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف. وهذا كقوله:

على لاحب لا يهتدى لمناره

أي: ليس فيه منار فيهتدى به.

وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال: هو سؤال الإلحاف. فأما السؤال بقدر الضرورة ـ من غير إلحاف ـ فالأفضل تركه ولا يحرم.

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة(١)، فألغاها أكثر الناس، ولحظوا منها ظاهر الفقر، وزيه من غير حقيقته. وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز. والله يختص بتوفيقه من يشاء، فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم.

* * *

---

(١) جاء في مدارج السالكين (١/٤٣٨) قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟﴾ [البقرة: ٢٧٣]، أي: الصدقات لهؤلاء. كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفاً على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.
وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله.
وقيل: حبسهم الفقر والعُدْم عن الجهاد في سبيل الله.
وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضرباً في الأرض. والصحيح: أنهم ـ لفقرهم وعجزهم وضعفهم ـ لا يستطيعون ضرباً في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من يعرف حالهم أغنياء.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

صدَّر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية، وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم، ولولا ذلك لردوا ما قبضوه به قبل التحريم، وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه.

ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء، وأشده وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ولرسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجئ هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا، وقطع الطريق، والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس: هذا بقهره وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها. فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله.

ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، يعني: إن تركتم الربا، وتبتم إلى الله منه، وقد عاقدتم عليه، فإنما لكم رؤوس أموالكم، لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها؛ فيظلمكم من أخذها. فإن كان هذا القابض معسراً؛ فالواجب إنظاره إلى ميسرة، وإن تصدقتم عليه، وأبرأتموه، فهو أفضل لكم وخير لكم، فإن أبت نفوسكم، وشحت بالعدل الواجب، أو الفضل المندوب فذكروها يوماً ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم؛ فيوفيكم جزاء أعمالكم أحوج ما أنتم إليه.

فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق، ثم عقبه بالظالم وهو المرابي، ثم ذكر العادل: في آية التداين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ولولا أن هذه تستدعي سفراً وحدها، لذكرت بعض تفسيرها.

والغرض إنما هو التنبيه والإشارة، وقد ذكر أيضاً العادل، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان، ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام، وأصول الإيمان، ومقامات الإحسان ما يستدعي بيانه كتاباً مفرداً[1].

□ □ □

(١) طريق الهجرتين (٣٣٩ ـ ٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإن الله سبحانه قسم البياعات المقصودة التي شرعها لعباده، ونصبها لمصالحهم في معاشهم ومعادهم إلى بيوع مؤجلة وبيوع حالة، ثم أمرهم أن يستوثقوا في البيوع المؤجلة بالكتاب والشهود، وإن عدموا ذلك في السفر استوثقوا بالرهن، حفظاً لأموالهم، وتخلصاً من بطلان الحقوق بجحود أو نسيان، ثم أخبرهم أنه لا حرج عليهم في ترك ذلك في البيوع الحالَّة، لأمنهم فيها مفسدة التجاحد والنسيان.

فالمراد بالتجارة الدائرة: البيعات التي تقع غالباً بين الناس.

ولم يفهم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من التابعين ولا تابعيهم، ولا أهل التفسير، ولا أئمة الفقهاء منها: المعاملة الدائرة بالربا بين المترابيين، بل فهموا تحريمها من نصوص تحريم الربا، ولا ريب أن دخولها في تلك النصوص أظهر من دخولها في هذه الآية.

ومما يدل عليه: أن هذه المعاملة الدائرة بينهما بالربا، لا تكون في الغالب إلا مع أجل، بأن يبتاع منه سلعة بثمن حال، ثم يبيعها إياه بأكثر منه إلى أجل، وذلك في الغالب مما يطلب عليه الشهود، والكتاب؛ خشية الجحود.

قال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾، فاستثنى هذا من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، وهذه المعاملة الربوية قد اتفقا فيها على التداين إلى أجل مسمى، واتفقا فيها على المائة بمائة وثلاثين ونحو ذلك، فأين هي من التجارة الحاضرة، التي يعرف الناس فيها الفرق بين التجارة والربا؟.

فالتجارة في كلام الله ورسوله، ولغة العرب، وعرف الناس: إنما تنصرف إلى البياعات المقصودة التي يقصد فيها الثمن والمثمن.

وأما ما تواطآ فيه على الربا محض، ثم أظهرا بيعاً غير مقصودة لهما البتة، يتوسلان به إلى أن يعطيه مائة حالة بمائة وعشرين مؤجلة، فهذا ليس من التجارة المأذون فيها، بل من الربا المنهي عنه، والله أعلم[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدل عن الشاهدين، وأنه لا يقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها، فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين، لأن النساء يتعذر غالباً حضورهن مجالس الحكام، وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم، ولم يقل سبحانه: احكموا بشهادة رجلين، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان، وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام.

أحدها: هذا.

والثاني: في الميراث.

والثالث: في الدية.

والرابع: في العقيقة.

والخامس: في العتق.

كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «من أعتق امرأً مسلماً أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار، ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضواً من النار»[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، فيها أن الشاهد إذا

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) المقطع الأول من الحديث رواه البخاري (٦٧١٥)، والثاني رواه الترمذي (١٥٤٥).

نسي شهادته فذكره بها غيره: لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها، وليس له أن يقلده، فإنه سبحانه قال: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، ولم يقل: فتخبرها، وفيها قراءتان: التثقيل والتخفيف، والصحيح أنهما بمعنى واحد من «الذّكر» وأبعد من قال: فيجعلها ذكراً لفظاً ومعنى، فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر، فإذا ضلت أو نسيت ذكرتها الأخرى فذكرت، وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ﴾، تقديره عند الكوفيين: لئلا تضل إحداهما، ويطردون ذلك في كل ما جاء من هذا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

ويرد عليهم نصب قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ إذ يكون تقديره لئلا تضل، ولئلا تذكر.

وقدره البصريون بمصدر محذوف، وهو الإرادة والكراهة والحذر ونحوها، فقالوا: يبين الله لكم أن تضلوا، أي: حذر أن تضلوا، وكراهة أن تضلوا ونحوه، ويشكل عليهم هذا التقدير في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾؛ فإنهم إن قدروه كراهة أن تضل إحداهما: كان حكم المعطوف عليه ـ وهو فتذكر ـ حكمه، فيكون مكروهاً، وإن قدروها: وإرادة أن تضل إحداهما كان الضلال مراداً.

والجواب عن هذا: أنه كلام محمول على معناه.

والتقدير: أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وهذا مراد قطعاً، والله أعلم.

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾

فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل، هو لإذكار إحداهما الأخرى إذا ضلت. وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط. وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ حيث قال: «أما نقصان عقلهن: فشهادة امرأتين بشهادة رجل»؛ فبين أن شطر شهادتهن إنما هو لضعف العقل، لا لضعف الدين. فعلم بذلك أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال؛ وإنما عقلها ينقص عنه. فما كان من الشهادة لا يخاف فيه الضلال في العادة لم تكن فيه على نصف الرجل، وما يقبل فيه شهادتهن منفردات إنما هو في أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها، من غير توقف على عقل، كالولادة والاستهلال والارتضاع والحيض، والنفاس، والعيوب تحت الثياب. فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا

تحتاج معرفته إلى كمال عقل، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدِّين وغيره؛ فإن هذه معان معقولة، ويطول العهد بها في الجملة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [**البقرة: ٢٨٣**].

وقاست الأمة الرهن في الحضر على الرهن في السفر، والرهن مع وجود الكاتب على الرهن مع عدمه، فإن استدل على ذلك بأن النبي ﷺ رهن درعه في الحضر(٢)، فلا عموم في ذلك، فإنما رهنها على شعير استقرضه من يهودي، فلا بد من القياس، إما على الآية، وإما على السنة(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [**البقرة: ٢٨٦**].

وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، وقد فسر ذلك بالعشق، وليس المراد اختصاصه به؛ بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به.

وقال مكحول: هو شدة الغلمة.

وقال النبي ﷺ: «لا ينبغي للمرء أن يذل نفسه»(٤).

قال الإمام أحمد: تفسيره أن يتعرض من البلاء ما لا يطيق، وهذا مطابقة لحال العاشق، فإنه أذل الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه. والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبوب(٥)(٦).

* * *

(١) الطرق الحكمية (١٦٠، ١٦١). (٢) رواه البخاري (٢٠٦٩).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦).

(٥) روضة المحبين (١٨١).

(٦) من الواضح أن الإمام ابن القيم لم يقصد تفسير الآية الكريمة.. فهي أعم وأشمل مما تناوله، وإنما استشهد بها في باب «الحب»، فجاء كلامه عنها في هذا المجال. [الشامي].

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣].

وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]. أفلا ترى كيف اطرد في القرآن وصف الكتاب بأنه مصدق لما بين يديه.

وباتفاق الناس أن المراد: مصدق لما تقدمه من الكتب، وبهذه الطريق يكون مصدقاً للنبي ﷺ، ويكون أبلغ في الدليل على صدقه من أن يقال: هذا كتاب مصدق لك.

فإنه إذا طابق الكتب المتقدمة وصدقها وشهد بصحة ما فيها، مما أنزله الله من غير مواطأة ولا اقتباس منها، دلَّ على أن الذي جاء به رسول الله ﷺ صادق، كما أن الذي جاء بها كذلك، وأن مخرجهما من مشكاة واحدة.

ولهذا قال النجاشي حين قرئ عليه القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة، يعني: فإذا كان موسى صادقاً وكتابه حق، فهذا حق كذلك، إذ من المحال أن يخرج شيئان من مشكاة واحدة، ويكون أحدهما باطلاً محضاً، والآخر حقاً محضاً، فإن هذا لا يكون إلا مع غاية التباين والتنافر.

فالقرآن صدَّق الكتب المتقدمة، وهي بشَّرت به، وبمن جاء به، فقام الدليل على صدقه من الوجهين معاً.

من جهة بشارة من تقدمه به.

ومن جهة تصديقه ومطابقته له، فتأمله[١].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١١٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

لقد دل سبحانه على نفسه أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه في حاله وحدوثه وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهد حكمته فيه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٧].

أخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة، وهو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التي هي عزّ أصحابها وفخرهم وحصونهم، وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم... وغير ذلك من مصالحهم، والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم، وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا،

---

(١) تحفة الودود (٢٣٣، ٢٣٤).

وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه؛ وهو رضوانه عليهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

تضمنت هذه الآية الكريمة: إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف ـ التي فصل عقائدها الباطلة قبل هذا ـ والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية، ببيان ما تضمنته من المعارف الإلٰهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية: أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها، من أجلِّ شاهد، بأجل مشهود.

وعبارات السلف في «شهد» تدور على: الحكم والقضاء، والإعلام والبيان والإخبار.

قال مجاهد: حكم وقضى. وقال الزجاج: بيَّن. وقالت طائفة: أعلم وأخبر.

وهذه الأقوال كلها حق، لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد، وخبره وقوله، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به. وإن لم يُعلم به غيره، بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

١ ـ **أما مرتبة العلم**: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال النبي ﷺ: «على مثلها فاشهد» وأشار إلى الشمس.

٢ ـ **وأما مرتبة التكلم والخبر**: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا

---

(١) عدة الصابرين (١٦٧، ١٦٨).

تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله». وشهادة الزور: هي قول الزور، كما قال تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، وعند هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله». فسمى قول الزور شهادة.

وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النساء: ١٣٥]. فشهادة المرء على نفسه: هي إقرار المرء على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ». وقال تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره، لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مَرْضِيُّون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس»[(١)]؛ ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة: لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة، بل قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، الحديث»[(٢)].

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة. وقد دخل في قوله ﷺ: «حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله»، وفي اللفظ الآخر: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فدل على أن قولهم: «لا إله إلا الله» شهادة منهم، وهذا أكثر من أن تذكر شواهده في الكتاب والسنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة دليل يعتمد عليه، والله أعلم.

٣ ـ **وأما مرتبة الإعلام والإخبار**: فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل مسلم معلِّم لغيره بأمر؛ تارة يعلمه بقوله، وتارة بفعله، ولهذا كان من جعل

---

(١) رواه البخاري (٥٨١)، ومسلم (٨٢٦). (٢) رواه الترمذي (٣٧٤٧).

داراً مسجداً وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها؛ معلماً أنها وقف، وإن لم يتلفظ به. وكذلك من وُجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار ـ معلماً له ولغيره: أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى.

فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، مما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وأخبر بذلك، وأمر عباده أن يشهدوا به.

وشهادته سبحانه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ معلومة من جهة كل من بلَّغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة.

وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة والإرشاد والبيان، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر، بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ، وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولاً له وكلاماً، لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

وقالت العينان سمعاً وطاعة ... وحَدَّرتا بالدُّر لمَّا يُثَقَّب

ويسمى هذا شهادة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله، فهي شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت بها عليهم.

والمقصود: أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. أي: أن القرآن هو الحق، فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية: قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير.

قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

٤ ـ وأما المرتبة الرابعة: وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه، وتتضمنه، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد: «أنه لا إلٰه إلا هو»، فقد أخبر وبيَّن وأعلم وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإلٰه، وأن إلٰهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلٰهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلٰهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلٰهاً، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي، أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل، فتقول له: هذا ليس بمفت، ولا شاهد، ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضاً: فإن الآية دلت أنه وحده هو المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد، وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم، فإذا شهد سبحانه أنه لا إلٰه إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضاً: فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية، ويقال للجمل الخبرية: قضية وحكم، وقد حكم فيها بكيت وكيت. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٤]، لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إلٰه إلا هو: متضمن للإلزام، والله سبحانه أعلم.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾.

«القسط» هو: العدل. فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال. فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه. والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات حقائق الأسماء والصفات على ما يليق بالرب سبحانه، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر، والحِكم والغايات المحمودة بفعله وأمره، لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذي هو إنكار الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذي هو التكذيب بالقدر، أو نفي الحكم والغايات، والعواقب الحميدة التي يفعل الرب لأجلها ويأمر.

وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته: يتضمن أموراً:

أحدها: أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أظلم الظلم على الإطلاق، فلا أعدل من توحيد الرسل، ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولاً وفعلاً، حيث شهد بها وأخبر، وأعلم عباده وبيَّن لهم تحقيقها وصحتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به، وجعل الثواب والعقاب عليها، وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها.

فالدين كله من حقوقها، والثواب كله عليها، والعقاب كله على تركها. وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة.

فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها، ونواهيه كلها صيانة لها عما يهدمها ويضادها، وثوابه كله عليها، وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها، وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها.

وهي الحق الذي خلقت به المخلوقات، وضدها هو الباطل والعبث الذي نزه الله نفسه عنه، وأخبر أنه لم يخلق به السماوات والأرض.

قال تعالى رداً على المشركين المنكرين لهذه الشهادة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ١ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وهذا كثير في القرآن.

والحق الذي خلقت به السماوات والأرض، ولأجله: هو التوحيد وحقوقه؛ من الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والشرع والقدر، والخلق. والثواب والعقاب: قائم بالعدل، والتوحيد صادر عنهما، وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب ﷻ: قال تعالى حكاية عن نبيه هود أنه قال: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا

مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]. فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله. فهو يقول الحق ويفعل العدل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فالصراط المستقيم الذي عليه ربنا تبارك وتعالى: هو مقتضى التوحيد والعدل.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، هو كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ نصب على الحال، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من الفاعل في ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾، والعامل فيه معنى الفعل، والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إلٰه إلا هو.

والثاني: أنه حال من قوله: «هو»، والعامل فيها معنى النفي، أي: لا إلٰه إلا هو حال كونه قائماً بالقسط.

وبين التقديرين فرق ظاهر:

فإن التقدير الأول يتضمن أن المعنى: شهد الله متكلماً بالعدل به، آمراً به، فاعلاً له، مجازياً عليه: أنه لا إلٰه إلا هو. فإن العدل يكون في القول والفعل، و«المقسط» هو العادل في قوله وفعله. فشهد الله قائماً بالعدل قولاً وفعلاً: أنه لا إلٰه إلا هو. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط.

وأما التقدير الثاني: ـ وهو أن يكون قوله: ﴿قَآئِمَۢا﴾ حالاً مما بعد ﴿إِلَّآ﴾؛ فالمعنى: أنه لا إلٰه إلا هو قائماً بالعدل، فهو وحده المستحق الإلٰهية، مع كونه قائماً بالقسط.

قال شيخنا: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم، يشهدون له بأنه لا إلٰه إلا هو، وأنه قائم بالقسط.

قلت: مراده: أنه إذا كان قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ حالاً من المشهود به، فهو كالصفة له؛ فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها، كان كلاهما مشهوداً به. فيكون الملائكة وأولو العلم قد شهدوا بأنه قائم بالقسط، كما شهدوا بأنه لا إلٰه إلا هو.

والتقدير الأول لا يتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله قائماً بالقسط: أنه لا إلٰه إلا هو، والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إلٰه إلا هو، كان القيام بالقسط حالاً من اسم الله وحده.

وأيضاً: فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة.

فإن قيل: فإذا كان حالاً من ﴿هُوَ﴾ فهلا اقترن به؟ ولِمَ فُصِل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسطاً بين صاحب الحال وبينها؟

قلت: فائدته ظاهرة، فإنه لو قال: شهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط والملائكة وأولو العلم. أوهَمَ عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾، ويحسن العطف لأجل الفصل... وليس المعنى على ذلك قطعاً. وإنما المعنى على خلافه، وهو أن قيامه بالقسط مختص به كما أنه مختص بالإلٰهية. فهو وحده الإلٰه المعبود المستحق للعبادة، وهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل.

□ □ □

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ذكر محمد بن جرير الطبري أنه قال: الأولى وصف وتوحيد. والثانية: رسم وتعليم، أي قولوا: لا إلٰه إلا هو(١).

ومعنى هذا: أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والتالي للقرآن إنما يخبر عن شهادة الله، لا عن شهادته هو؛ وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه، فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالي؛ فيكون شاهداً هو بها أيضاً.

وأيضاً: فالأولى خبر عن الشهادة بالتوحيد، والثانية خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فتضمنت الآيات توحيده وعدله، وعزته وحكمته.

فالتوحيد يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقاً.

والعزة تتضمن كمال قدرته، وقوته وقهره.

والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى، وخلق وقدر، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد.

---

(١) لم أجد هذا القول لابن جرير في تفسيره في النسختين اللتين بين يدي (٣/٢٠٩، ٢١٠) ط الحلبي، و(٦/٢٦٨ ـ ٢٧١) ط المعارف، تحقيق: محمود وأحمد شاكر.

فاسمه «العزيز» يتضمن الملك، واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد، وأول الآية يتضمن التوحيد، وذلك حقيقة «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله[١].

و«الحكيم» الذي إذا أمر بأمر كان المأمور به حسناً في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان المنهي عنه قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً؛ وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال: لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب.

ففيها: الشهادة له بالتوحيد والعدل والقوة، والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف؛ إلا أهل السنة، وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

□ □ □

قد فسرت شهادة أولي العلم: بالإقرار، وفسرت بالتبيين والإظهار. والصحيح أنها تضمن الأمرين. فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][٢].

استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦٩٦١)، والترمذي (٣٥٨٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٠ ـ ٤٧٤).

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[(١)(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

اختلف المفسرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة، فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر «إن» وفتحها. فالأكثرون على كسرها على الاستئناف، وفتحها الكسائي وحده.

والوجه: هو الكسر؛ لأن الكلام الذي قبله قد تم. فالجملة الثانية: مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها. وهذا أبلغ في التقرير، وأدخل في المدح والثناء، ولهذا كان كسر «إن» من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، أحسن من الفتح. وكان الكسر في قول الملبي: «لبيك إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح[(٣)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه جمع من الحفاظ وصححه الإمام أحمد رضي الله عنه، كما ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله في (شرف أصحاب الحديث). حديث رقم (٢٨).

(٢) مفتاح درا السعادة (٥٢، ٥٣).

(٣) وقد ذكر في توجيه قراءة الكسائي ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين. فهي واقعة على: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وهو المشهود به. ويكون فتح «أنه» من قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على إسقاط حرف الجر، أي: بأنه لا إله إلا هو، وهذا توجيه الفراء، وهو ضعيف جداً. فإن المعنى على خلافه، وأن المشهود به هو نفس قوله: «إنه لا إله إلا هو»، فالمشهود به «إن» وما في حيّزها. والعناية إلى هذا صرفت، وبه حصلت.

ولكن لهذا القول ـ مع ضعفه ـ وجهاً، وهو أن يكون المعنى: شهد الله بتوحيده: أن الدين عند الله الإسلام، والإسلام: هو توحيده سبحانه.

فتضمنت الشهادة توحيده وتحقيق دينه: أنه الإسلام لا غيره.

الوجه الثاني: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معاً، كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام. فتكون جملة استغنى فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه، كما وقع الاستغناء عنها في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما =

قال ابن عباس: افتخر المشركون بآبائهم، فقال كل فريق: لا دين إلا دين آبائنا وما كانوا عليه. فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، يعني: الذي جاء به محمد، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد دل قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ على أنه دين أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط، ولا يكون له دين سواه.

قال أول الرسل نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ ـ إلى قوله ـ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال موسى لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

= حذفت هنا، وذكرت في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

الوجه الثالث: وهو مذهب البصريين ـ أن يجعل «إن» الثانية بدلاً من الأولى. والتقدير: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام. وقوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توطئة للثانية وتمهيد، ويكون هذا من البدل الذي الثاني فيه نفس الأول، فإن الدين الذي هو نفس الإسلام عند الله، هو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها، ولكن أن تجعله على هذا الوجه؛ من باب بدل الاشتمال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد.

فإن قيل: فكان ينبغي ـ على هذه القراءة ـ أن يقول: إن الدين عند الله الإسلام؛ لأن المعنى: شهد الله أن الدين عنده الإسلام. فلم عدل إلى لفظ الظاهر؟

قيل: هذا يرجح قراءة الجمهور، وأنها أفصح وأحسن. ولكن يجوز إقامة الظاهر مقام المضمر. وقد ورد في القرآن، وكلام العرب كثيراً.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمٰن وخمسة للشيطان. فدين الرحمٰن هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ودين المشركين.

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآيات العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف، ولا تستطل الكلام فيها[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿ٱللَّهُمَّ﴾ لا خلاف أن لفظ «اللهم» معناها: يا الله؛ ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب. فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني.

واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم:

فقال سيبويه: زيدت عوضاً من حرف النداء. ولذلك لا يجوز عنده الجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: «يا اللهم» إلا فيما ندر، كقول الشاعر:

إنِّي إذا ما حدثٌ ألمَّا ... أقولُ يا اللهمَّ يا اللهمَّ

ويسمى ما كان من هذا الضرب عوضاً؛ إذ هو في غير محل المحذوف. فإن كان في محله سمي بدلاً، كالألف في «قام وباع» فإنها بدل عن الواو والياء. ولا يجوز عنده أن يوصف هذا الاسم أيضاً: فلا يقال: «يا اللَّهم الرحيم ارحمني»، ولا يبدل منه.

والضمة التي على الهاء ضمة الاسم المنادى المفرد، وفتحت الميم لسكونها وسكون الميم التي قبلها، وهذا من خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه مع لام التعريف، وبقطع همزة وصله في النداء، وتفخيم لامه وجوباً غير مسبوقة بحرف إطباق، هذا ملخص مذهب الخليل وسيبويه.

وقيل: الميم عوض عن جملة محذوفة، والتقدير: «يا الله أُمَّنا بخير»، أي: اقصدنا، ثم حذف الجار والمجرور، وحذف المفعول، فبقي في التقدير: «يا الله أُمَّ»، ثم حذفت الهمزة، لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء على ألسنتهم، فبقي «يا اللَّهم»، وهذا قول الفراء.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٧٤ ـ ٤٧٦).

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم.[(١)]

□ □ □

فصدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء لا غيره.

فالأول: تفرده بالملك.

والثاني: تفرده بالتصرف فيه.

وأنه، سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه وليس لأحد معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه، وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيديه وأنها كلها خير. فسلبه الملك عمن يشاء، وإذلاله من يشاء خير وإن كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل.

فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به، كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «لبيك وسعديك والخير بين يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت»[(٢)]؛ فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شراً كما سيأتي بيانه.

وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله، ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما تقدم، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله فإذا وضع في محله؛ لم يكن شراً فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك، فإن منها القدوس السلام العزيز الجبار المتكبر. فالقدوس المنزه من كل شر ونقص وعيب[(٣)].

* * *

---

(١) جلاء الأفهام (٧٢ ـ ٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٢٢).

(٣) شفاء العليل (١٧٨، ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومعلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال، إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاة لهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له، وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محباً لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله.

فالطاعة للمحبوب عنوان محبته، كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع(٢)

وقد قال غير واحد من السلف: «ادعى قوم محبة الله تعالى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾»(٣).

فلم يقل: فارقصوا وغنوا واطربوا على صوت المزامير والشبابات والألحان المطربات بالتوقعات والنغمات، فمن أضل سبيلاً ممن يدعي محبة الله، ويزعم أنه يتقرب إليه بهذا السماع الشيطاني الذي هو حظ النفس والشيطان(٤).

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسِل لكم، فما لم تحصل المتابعة، فليست محبتكم حاصلة، ومحبته لكم منتفية(٥).

فالمحبون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين(٦).

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩).
(٢) روضة المحبين (٢٥١).
(٣) الطبري (٣/ ٢٣٢).
(٤) الكلام عن مسألة السماع (١٤٧).
(٥) مدارج السالكين (٣/ ٢٢).
(٦) روضة المحبين (ص٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

قال [بعضهم]: السجود كان في دينهم قبل الركوع، وهذا قائل ما لا علم له به.

والذي يظهر في الآية، والله أعلم بمراده من كلامه: أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص فذكر القنوت أولاً، وهو الطاعة الدائمة فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه، وهو السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر، والتلاوة ويشرع في الصلاة، فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة فلا يسن الإتيان به منفرداً فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام النزول من الأعم إلى الأخص وعكسها، وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه إلى ما هو أعم، ونظيرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧]، فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال قتادة: «كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاحَّ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا عليها بسهامهم، أيهم يكفلها، فقرع زكريا، وكان زوج أختها، فضمها إليه»(٢).

وروي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس: «لما وضعت مريم في المسجد اقترع عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها»(٣)، وهذا متفق عليه بين أهل التفسير(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٠، ٨١).

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٣) الطبري (٣/ ٢٦٨).

(٤) الطرق الحكمية (٢٩٤).

لما كان للنصارى نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بمجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم؟ فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١].

يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته، وبأنه الحق فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧].

في صحيح البخاري، من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل كان على فضل ماء بالطريق فمنعه ابن السبيل، ورجل بايع إمامه، لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعة بعد العصر، فقال: والذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل»، ثم قرأ هذه الآية[(٤)(٥)].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٨٥).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨١).
(٣) مفتاح دار السعادة (٩٩).
(٤) رواه البخاري (٢٣٥٨).
(٥) زاد المعاد (٤/ ٤٩٨).

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قال ابن عباس ﷺ[١]: هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به، وشهدوا له بالنبوة وإنما كفروا بغياً وحسداً.

قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أنه لا جهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم؛ لأنهم كفروا بعد البيِّنات، ومعنى كيف يهديهم أي: أنه لا يهديهم لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمداً. فمن أين تأتيهم الهداية فإن الذي ترتجى هدايته من كان ضالاً ولا يدري أنه ضال، بل يظن أنه على الهدى فإذا عرف الهدى اهتدى، وأما من عرف الحق وتيقنه، وشهد به قلبه، ثم اختار الكفر والضلال عليه، فكيف يهدي الله مثل هذا[٢]؟

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣ ـ ٩٥].

تضمنت هذه الآيات بيان كذبهم[٣] صريحاً في إبطال النسخ؛ فإنه ﷻ أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾؛ أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، هل تجدون فيها أن إسرائيل حرَّم على نفسه ما حرَّمته التوراة عليكم؟

---

(١) في الطبري عن ابن عباس ﷺ: «أنها نزلت في رجل من الأنصار»، وله قول آخر: «إنها نزلت في أهل الكتاب». الطبري (٣/ ٣٤٠، ٣٤١). أسباب النزول للواحدي (٨٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٩، ١٠٠).

(٣) أي: اليهود.

أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه، ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع والحجر على الله تعالى في نسخها، فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردوه.

وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم، بأن التوراة حرمت أشياء كثيرة من المناكح والذبائح والأفعال والأقوال، وذلك نسخ لحكم البراءة الأصلية، فإن هذه المناظرة ضعيفة جداً، فإن القوم لم ينكروا دفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب؛ إذ هذا شأن كل الشرائع، وإنما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالى فيجعله حراماً، أو تحليل ما كان حرمه فيجعله مباحاً، وأما رفع البراءة والاستصحاب فلم ينكره أحد من أهل الملل(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

«حج البيت» مبتدأ، وخبره في أحد المجرورين قبله.

والذي يقتضيه المعنى: أن يكون في قوله على الناس؛ لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على».

ويجوز أن يكون في قوله: «ولله»؛ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق.

ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، وكان الأحق أن يكون «ولله»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال: قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمله.

وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول، وليس بخبر، فائدتان:

إحداهما: أنه اسم للموجب للحج؛ فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب؛ فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع. **أحدها**: الموجب لهذا الغرض فبدئ بذكره. **والثاني**: مؤدي الواجب، وهو المفترض عليه وهم الناس. **والثالث**: النسبة والحق المتعلق به إيجاباً، وبهم وجوباً وأداءً وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان لله اسماً سبحانه؛ وجب

(١) إغاثة اللهفان (٣٢١، ٣٢٢).

الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره.

□ □ □

وأما قوله: «من» فهي بدل:

وقد استهوى طائفة من الناس القول: بأنها فاعل المصدر كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه:

منها: أن الحج فرض عين ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية؛ لأنه إذا حج المستطيعون؛ برئت ذمم غيرهم لأن المعنى يؤول إلى: ولله على الناس أن يحج البيت مستطيعهم فإذا أدى المستطيعون الواجب؛ لم يبق واجباً على غير المستطيعين. وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذه به، ولا يطالبه بأدائه. فإذا حج أسقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط للفرض عن العاجزين.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان «من» هو الفاعل لأضيف المصدر إليه، وكان يقال: ولله على الناس حج من استطاع، وحمله على باب: يعجبني ضرب زيداً عمرو؛ مما يفصل به بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول، والظرف حمل على المكثور ـ المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم)، بفتح الدال ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فلا يصار إليه.

وإذا ثبت أن «من» بدل بعض من كل؛ وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى الناس، كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه ها هنا أمور:

منها: أن «من» واقعة على من يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به.

ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك (إذا قلت): رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق. تريد من ذهب منهم لكان قبيحاً، لأن الذاهب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: ألبس الثياب ما حسن وجمل، تريد (منها)، ولم تذكر الضمير لكن أبعد في الجواز؛ لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب بدل البعض من الكل: أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول؛ ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف الضمير في هذه الآية أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

□ □ □

وأما المجرور من قوله: «إليه» فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون في موضع حال من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها لأنه لو تأخر؛ لكان في موضع النعت لسبيل.

الثاني: أن يكون متعلقاً بسبيل (فإن قيل): كيف يتعلق به، وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: لما السبيل كان ها هنا عبارة عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم، وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير؛ لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعنى، هذا تعبير السهيلي، وهو بعيد جداً.

بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه: وهو الوجوب المفهوم من قوله: (على الناس)؛ أي: يجب على الناس الحج فهو حق واجب، وأما تعليقه بالسبيل أو جعله حالاً منها ففي غاية البعد؛ فتأمله، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما يقول: لله عليك الحج، ولله عليك الصلاة والزكاة.

ومن فوائد الآية وأسرارها: أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر، أو بلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه:

أحدها: أنه قدم اسمه تعالى.

وأدخل عليه لام الاستحقاق، والاختصاص.

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (على).

ثم أبدل منه أهل الاستطاعة.

ثم نكر السبيل في سياق الشرط؛ إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت

من قوت أو مال فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: بعدم التزام هذا الواجب وتركه.

ثم عظم الشأن، وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد.

وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له، وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه.

ثم أكد ذلك بذكر اسم رب العالمين عموماً، ولم يقل: فإن الله غني عنه؛ لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار، وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه.

ثم أكد هذا المعنى بأداة (إن) الدالة على التوكيد.

فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين: مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البدل: تقوية المعنى، وتأكيده بتكرار الإسناد، ولهذا كان في نية تكرار العامل وإرادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين اعتناء به، وتأكيداً لشأنه.

□ □ □

ثم تأمل، كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه، بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك، منها: فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. فوصفه بخمس صفات.

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيراً ولا أدوم وأنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس: الأمن لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده، ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره.

ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً. وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباً له، وشوقاً إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطراً أبداً، كلما ازدادوا له زيارة؛ ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً فلا الوصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

والاعتصام: افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها؛ فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية، واتباع الدليل والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يسلم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فالاعتصام به نوعان:

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٢ ـ ٤٦).

اعتصام توكل واستعانة وتفويض ولجأ وعياذ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوحيه، وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم..

فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاصاً واستعانة ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة(١).

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال: عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: «بعهد الله»، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: «هو القرآن». قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن هذا القرآن هو حبل الله، ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسَّك به، ونجاة من تبعه»(٢)، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في القرآن: «هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء. ولا تختلف به الألسن، ولا يَخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء»(٣). وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»(٤)، رواه مسلم في الصحيح(٥).

* * *

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٢٣).

(٢) ضعيف. رواه الدارمي (٣٣١٨) في فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، وعبد الرزاق (٣/ ٣٧٥) برقم (٦٠١٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٣٩) رقم (٨٦٤٦)، وفي جميعها «مسلم بن إبراهيم الهجري»: «متروك». انظر: التهذيب (١/ ١٦٤)، والمجروحين (١/ ١٠٠)، وميزان الاعتدال (١/ ٦٥).

(٣) ضعيف، رواه الترمذي (٢٩٠٦).

(٤) رواه مسلم (١٧١٥)، والموطأ (٩٩٠).

(٥) مدارج السالكين (١/ ٤٦٠، ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فخص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم، والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾ [آل عمران: ١١١].

المعنى: لن ينالوا منكم إلا أذى، وأما الضرر فإنهم لن ينالوه منكم، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فنفى لحوق ضرر كيدهم بهم مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم، ولو أنه بالإرهاب والكلام وإلجائهم إلى محاربتهم وما ينالهم بها من الأذى، والتعب ولكن ليس ذلك بضارهم. ففرق بين الأذى والضرر(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦، ١١٧].

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر، وكسب الثناء وحسن الذكر، لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جداً يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته.

واختلف في الصِّرِّ، فقيل: البرد الشديد، وقيل: النار، قاله ابن عباس.

قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها صرٌّ لتعديتها عند الالتهاب.

وقيل: الصرُّ: الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها، والأقوال الثلاثة متلازمة، فهو برد شديد محرق بيبسه للحرث كما تحرقه النار، وفيه صوت شديد.

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٢٤).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٧٢).

وفي قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، تنبيه على أن سبب إصابته لحرثهم هو ظلمهم، فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة، حتى أهلكت زرعهم وأيبسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

في الصحيحين عن أبي حازم أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: والله إني لأعرف من كان يغسل جُرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء.. كانت فاطمة ابنته تغسله وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، فألصقتها، فاستمسك الدم(٢).

وفي الصحيح أنه كسرت رباعيته، وشجَّ رأسه وجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعو إلى الله؟»(٣).

فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين فذكر بذلهم للإحسان في حالة العسر واليسر، والشدة والرخاء. فإن من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء، ولا يبذل في حال العسر والشدة. ثم ذكر كف أذاهم عن

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٤١، ٢٤٢).
(٢) رواه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).
(٣) رواه مسلم (١٧٩١).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

الناس بحبس الغيظ بالكظم، وحبس الانتقام بالعفو، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم، وأنها إذا صدرت منهم قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار، فهذا حالهم مع الله وذاك حالهم مع خلقه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة التكذيب، والحكم الهلاك(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٣].

إنَّ الله سبحانه إذا أراد أن يُهْلِكَ أعداءه ويمحقهم، قيَّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقَهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيُهم، وطغيانُهم، ومبالغتُهم في أذى أوليائه، ومحاربتُهم، وقتالُهم، والتسلط عليهم. فيتمحَّصُ بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقِهم وهلاكهم. وقد ذكر ﷻ ذلك في [هذه الآية]:

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حُسنِ التسلية، وذكر الحِكم الباهِرَة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فقد استويتُم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب. كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا۟

---

(١) حادي الأرواح (١٠٢، ١٠٣). (٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨١).

تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. فما بالكم تَهِنُونَ وتضعُفون عند القرحِ والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصِبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يُداوِلُ أيامَ هٰذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حاضر. يقسمها دُولاً بين أوليائه وأعدائِهِ بخلاف الآخِرةِ، فإن عزَّها ونصرها ورجاءَها خالصٌ للذين آمنُوا.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمُهم عِلْمَ رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنَّما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحسِّ.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده، وقد أعدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن ينيلهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. تنبيه لطيفُ الموقِع جداً على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَذَلُوا عن نبيه يومَ أحد، فلم يشهدوه، ولم يَتَّخِذْ منهم شهداء، لأنه لم يُحبهم، فأركَسَهم، وردَّهُم لِيَحْرِمَهُم ما خص به المؤمنين في ذلكَ اليوم، وما أعطاهُ من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءَه وحِزبه.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتُهم وتخليصُهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضاً فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فَتمَيَّزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محقُ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسبانَهم، وظنَّهُم أن يدخلُوا الجنَّة بدون الجهاد في سبيله، والصبرِ على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيثُ يُنْكَرُ على من ظنه وحَسِبَه. فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. أي: ولما يَقَعْ ذِلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي

العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومُه، ثم وبَّخهم على هزيمتهم مِن أمر كانوا يتمنَّونه ويودُّون لِقاءه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، تمنوا قتالاً يستشهدُون فيه، فيلحقُون إخوانَهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسبّبه لهم، فلم يَلْبَثُوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٦].

إنَّ وقعةَ أحدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصاً بين يدي موتِ رسول الله ﷺ، فثبَّتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أن ماتَ رسول الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلُوا، فإنهم إنما يعبدُونَ ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو ماتَ محمد أو قُتِلَ؛ لا ينبغي لهم أن يَصْرِفَهُم ذَلك عن دينه. وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وما بُعِثَ محمد ﷺ لِيخلَّد لا هُوَ ولا هُم، بل لِيمُوتُوا على الإسلامِ والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء ماتَ رسول الله ﷺ أو بَقِيَ، ولهذا وبَّخَهُمْ على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إنَّ محمداً قد قُتِلَ.

والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا.

فظهر أثرُ هذا العِتَابِ، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسولُ الله ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكِرُون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحَقَ به، فَيردُ

الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِداً واحِداً، وإن تنوَّعت أسبابه، ويصدرونَ عن موقف القِيامة مصادِرَ شَتَّى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِلَ معهم أتباعٌ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بقيَ منهم لِما أصابهم في سبيله، وما ضَعفُوا، وما استكانُوا، وما وَهَنُوا عندَ القتل، ولا ضعفُوا، ولا استكانوا، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ، والعزيمةِ، والإِقْدَامِ، فلم يُسْتَشْهَدُوا مُدْبِرِينَ مستكينين أذلة، بل استُشْهِدُوا أعزَّةً كِراماً مقبلينَ غير مدبرين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧ ـ ١٥٠].

أخبر سُبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّت أقدامَهم، وأن ينصُرَهم على أعدائهم.

ولما علم القومُ أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطانَ إنما يستزِلُّهم ويهزِمُهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حق أو تجاوزٌ لحد، وأن النصرةَ منوطة بالطاعة، قَالُوا: ربنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنَا في أمرنا، ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهم؛ لم يَقْدِرُوا هُمْ على تثبيتِ أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألُوه ما يعلمون أَنَّهُ بيده دُونهم، وأنه إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصِروا، فوفوا المقامَينِ حقهما: مقامَ المقتضي، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه. ومقام إزالةِ المانع من النصرة، وهو الذنوبُ والإسرافُ، ثم حذَّرهم سبحانه مِن طاعة عدوِّهم، وأخبر أنَّهم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخِرَة، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقينَ الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفِروا يومَ أحد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

* * *

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ

صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١، ١٥٢].

أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهُجُوم عليهم، والإقدام على حربهم، وأنه يؤيِّد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم مِن الشركِ بالله. وعلى قدر الشرك يكون الرعبُ؛ فالمشركُ بالله أشدُّ شيءٍ خوفاً ورُعباً، والذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بالشِّرْكِ، لهم الأمنُ والهُدى والفلاح، والمشرك له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ.

ثم أخبرهم أنه صَدَقَهُمْ وعدَه في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادقُ الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعةِ، ولزومِ أمر الرسول لاستمرَّت نُصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقُوا مركزهم؛ فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصْرَةُ؛ فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاء، وتعريفاً لهم بسوء عواقِب المعصيةِ، وحُسنِ عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عَفا عنهم بعد ذٰلك كُلِّه، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين.

قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتى قتلُوا منهم من قتلوا، ومثَّلُوا بهم، ونالُوا منهم مَا نالوه؟ فقال: لولا عفُوه عنهم، لاستأصلَهم، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين على استئصالهم.

وقال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾. وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يُريد الدنيا، حتى كان يوم أحد، ونزلت هذه الآية»، والذين أريدوا بهذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون(١).

* * *

(١) عدة الصابرين (١٦٦، ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

ثمَّ ذكَّرهم بحالهم وقت الفرارِ مصعدين، أي: جادين في الهربِ، والذهاب في الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلْوونَ على أحد من نبيهم ولا أصحابهم، والرسولُ يدعوهم في أخراهم: إليَّ عِبَادَ الله، أنَا رسُولُ الله، فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غمًّا بعدَ غَمٍّ: غَمَّ الهزيمة والكسرةِ، وغمَّ صرخةِ الشيطان فيهم: بأن محمداً قد قتل.

وقيل: جازاكم غمًّا بما غممتُم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوِّهِ، فالغمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغم الذي أوقعتموه بنبيه، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ﴾ تنبيهٌ على حِكمة هذا الغم بعدَ الغمِّ، وهو أن يُنسيهم الحزنَ على ما فاتهم مِن الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراحِ، فنسُوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصلُ بالغمِّ الذي يعقُبُه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنَّه حَصَلَ لهم غمُّ فوات الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ الهزيمةِ، ثم غمُّ الجراح التي أصابتهم، ثم غَمُّ القتلِ، ثم غَمُّ سماعِهم أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، ثم غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة، بل غمًّا متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: «بغم» من تمام الثوابِ، لا أنه سببُ جزاء الثواب. والمعنى: أثابكم غمًّا متَّصِلاً بغم، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيَّهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفشلهم، وكلُّ واحد من هٰذه الأمور يُوجب غمًّا يخصُّه، فترادفت عليهم الغمومُ، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه؛ لكان أمراً آخر وَمِن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة؛ فقيَّض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتَّب عليها آثارها المكروهة؛ فعلموا حينئذٍ أن التوبة منها والاحترازَ مِن أمثالها، ودفعها

بأضدادها أمرٌ متعيَّنٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذراً بعدها، ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها، ورُبَّما صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالعِلَلِ.

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ثم إنه تداركهم سُبحانه برحمته، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ، وغيَّبه عنهم بالنُّعاس الذي أنزله عليهم أمناً منه ورحمة، والنعاسُ في الحرب علامةُ النصرة والأمنِ، كما أنزله عليهم يومَ بدر، وأخبر أن من لم يُصبْه ذلك النعاسُ، فهو ممن أهمته نفسُه لا دِينهُ ولا نبيُّه ولا أصحابُه، وأنهم يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية.

وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله: بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسولَه، وأن أمْرَهُ سيضمحلُّ، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حِكمة له فيه، ففسر بإنكار الحِكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتمَّ أمر رسوله ويُظهِره على الدِّين كُلِّه، وهذا هو ظنُّ السَّوْءِ الذي ظَنَّهُ المنافِقُونَ والمشركون به ﷻ في (سورة الفتح)؛ حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظنَّ السَّوْءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غير الحق، لأنه ظنّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العُليا، وذاتِه المبرَّأة من كُلِّ عيبٍ وسوء، بخلاف ما يليقُ بحكمته وحمدِه، وتفرُّدِهِ بالربوبية والإلهيَّة، وما يَليق بوعده الصادِقِ الذي لا يُخلِفُهُ وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصُرُهم ولا يخذُلُهم، ولجنده بأنهم هُمُ الغالبون، فمن ظنَّ بأنه لا ينصرُ رسولَه، ولا يُتِمُّ أمرَه، ولا يؤيِّده، ويؤيد حزبه، ويُعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ

دينه وكتابه، وأنه يُديل الشركَ على التوحيد، والباطل على الحقِّ إدالة مستقرة يضمحِل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً؛ فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإنَّ حمده وعزَّته وحِكمته وإلٰهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يَذِلَّ حزبه وجنده، وأن تكون النصرةُ المستقرة، والظفُر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به.

فمن ظن به ذٰلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءَه، ولا عرف صفاتِه وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدَّر ما قدَّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردةٍ عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحبُّ إليه من فوتها، وأن تلك الأسبابَ المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمة لإفضائِهَا إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قدَّرها سُدى، ولا أنشأها عبثاً، ولا خلقها باطلاً. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم، وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذٰلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءَه وصفاتِهِ، وعرفَ موجب حمدِهِ وحكمته، فمن قَنِطَ مِن رحمته، وأيسَ مِن روحه، فقد ظن به ظنَّ السوءِ(١).

---

(١) قال ابن القيم في تتمة كلامه السابق: ومن جوَّز عليه أن يعذِّبَ أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه، فقد ظَنَّ به ظن السوءِ.
ومن ظنَّ به أن يترُك سُدى، معطَّلينَ عن الأمر والنهي، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزِّل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام، فقد ظَنَّ به ظن السوء.
ومن ظن أنه لن يجمع عبيدَه بعد موتِهم للثوابِ والعِقاب في دار يُجازي المحسنَ فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبيِّنُ لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهرُ للعالمين كلِّهم صدقَه وصدقَ رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.
ومن ظنَّ أنه يُضيِّعُ عليه عَملَه الصالحَ الذي عملَه خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويُبطِلَه عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يُعاقِبُهُ بما لا صُنعَ فيه، ولا اختيار له، ولا قدرةَ، ولا إرادة في حصوله، بل يُعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظنَّ به أنه يجوزُ عليه أن يؤيِّدَ أعداءَه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يُؤيِّدُ بها أنبياءه ورسله، ويُجريها على أيديهم يُضِلُّونَ بها عباده، وأنه يحسُن منه كُلُّ شيء، حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلدُه في الجحيم أسفل السافلينَ، ويُنعِمُ من استنفد عُمُرَه في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى =

= أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناعُ أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقُبح أحدهما وحُسنِ الآخر؛ فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوْء.

ومن ظن به أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحقَّ، لم يخبر به، وإنما رَمزَ إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلْغِزةً لم يُصرح به، وصرَّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبُوا أذهانَهم وقُواهم وأفكارهم في تحريفِ كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائِه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابِه، بل أراد منهم أن لا يحمِلوا كلامه على ما يعرفُون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصَرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحَهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل. بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ، فإنه إن قال: إنه غيرُ قادر على التعبير عن الحقِّ باللفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفُه، فقد ظن بقُدرته العجز، وإن قال: إنه قادِرٌ ولم يُبَيِّن، وعدَلَ عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم، بل يُوقِعُ في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظَنَّ السَّوءِ، وظنَّ أنه، هو وسلفُه عبروا عن الحق بصريحه دُونَ الله ورسوله، وأن الهُدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوِّكين الحيارى، هو الهُدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فكُلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يَقْدرُ على إيجاده وتكوينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

ومن ظن به أنه كان مُعَطَّلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعلَ، ولا يُوصفُ حينئذٍ بالقدرة على الفعل، ثم صارع قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومن ظنَّ به أنه لا يَسمع ولا يُبصرُ، ولا يعلم الموجودات، ولا عَدد السمٰواتِ والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدمَ وحركاتِهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومن ظنَّ أنه لا سمعَ له، ولا بصرَ، ولا عِلم له، ولا إرادة، ولا كلامَ يقولُ به، وأنه لم يُكلِّم أحداً من الخلق، ولا يتكلَّمُ أبداً، ولا قال ولا يقولُ، ولا له أمرٌ ولا نهي يقومُ به، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومن ظنَّ به أنه فوق سماواتِه على عرشه بائناً من خلقه، وأن نِسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنِسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفلُ، كما أنه أعلى، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسوأه.

ومن ظنَّ به أنه يُحِبُّ الكفر، والفسوقَ، والعصيانَ، ويحبُّ الفسادَ كما يُحبُّ الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظنَّ به ظن السَّوء. =

....

= ومن ظنَّ به أنه لا يُحبُّ ولا يَرضى، ولا يَغضب ولا يَسخط، ولا يُوالي ولا يُعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرُب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القُرب مِن ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومن ظنَّ أنه يُسوي بين المتضادَّيْن، أو يفرِّق بين المتساويين من كل وجه، أو يُحْبِطُ طاعاتِ العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبدَ الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحبطُ بها جميع طاعاته ويُخَلِّدُه في العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

وبالجملة فمن ظنَّ به خِلَافَ ما وصف به نَفسه ووصفَه به رسله، أو عطَّل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رُسله، فقد ظنَّ به ظن السَّوء.

ومن ظن أن له ولدَاً، أو شريكاً، أو أن أحداً يشفعُ عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائطَ يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نَصَبَ لعباده أولياء مِن دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم فقد ظنَّ به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقربِ إليه، فقد ظنَّ به خلافَ حِكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظنَّ به أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يُعوِّضه خيراً منه، أو من فعل لأجله شيئاً لم يُعطه أفضل منه؛ فقد ظنَّ به ظن السَّوءِ.

ومن ظنَّ به أنه يغضب على بعده، ويُعاقبه ويحرمه بغير جُرم؛ ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظنَّ به ظن السوء.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبُه ولا يُعطيه ما سأله؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه.

ومن ظنَّ به أنه يُثيبه إذا عصاه بما يُثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظنَّ به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلافَ ما هو أهلُه وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه ولياً، ودعا من دونه مَلَكاً، أو بشراً حَياً، أو ميتاً، يرجُو بذلك أن ينفَعَه عند ربِّه، ويُخَلِّصَه مِن عذابه، فقد ظنَّ به ظَنَّ السوء، وذلك زيادة في بعده من الله، وفي عذابه.

ومن ظنَّ به أنه يُسلِّطُ على رسولِهِ محمد ﷺ أعداءَهُ تسليطاً مستَقِرًا دائماً في حياته وفي مماته وابتلاه بهم لا يُفارقونه، فلما مات استبدُّوا بالأمر دون وصية، وظلموا أهلَ بيته، وسلبُوهم حقَّهُم، وأذلُّوهم، وكانت العزَّةُ والغلبةُ والقهرُ لأعدائِه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى قهرَهم لهم، وغصبهم إياهم حقَّهم، وتبديلَهم ديْنَ نبيهم، وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصُرُهم ولا يُديلهم، بل يُديل أعداءهم عليهم أبداً، أو أنَّه لا يقدِرُ على ذٰلك، بل حصل هذا بغير قُدرته ولا =

فليعتن اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضع، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمةُ التامة، المنزهُ عن كل سوء في ذاته وصفاتِهِ، وأفعالِه وأسمائه، والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

ثم أخبر عن الكلام الذي صدَر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾. وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾. فليس مقصودُهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كُلِّه إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذمُّوا عليه، ولما حَسُنَ الردُّ عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظَنَّ الجاهلية.

ولهذا قال غيرُ واحد من المفسرين: إن ظنَّهم الباطل ها هنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمرَ لو كان إليهم، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم

= مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تُسَلِّمُ أمَّته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضةُ، فقد ظنَّ به أقبح الظنِّ وأسوأه، سواءً قالوا: إنه قادرٌ على أن ينصرَهم، ويجعل لهم الدولة والظفرَ، أو أنه غيرُ قادر على ذلك، فهم قادِحون في قُدرته، أو في حِكمته وحمده، وذلك مِن ظنِّ السَّوءِ به، ولا ريب أن الربَّ الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجبُ أن يفعل خلاف ذلك، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسدَ بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرَّمضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يَقْدِرُ على أفعال عباده، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته، فظنُّوا به ظَنَّ إخوانهم المجوس والثَّنويةِ بربهم، وكل مبطل، وكافر، ومبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السوء، فإن غالبَ بني إدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ الله، ولِسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه، ونفسهُ تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومن فتَّش نفسَه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامِناً كُمونَ النار في الزِّناد، فاقدح زناد من شئت يُنبئك شَرَارُه عما في زِناده، ولو فتَّشت من فتشته، لرأيت عنده تعتُّباً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌّ ومستكثِر، وفتِّشْ نفسَك، هل أنت سالم مِن ذلك؟

يسمعُونَ منهم، لما أصابهم القتل، ولكان النصرُ والظفرُ لهم، فأكذبهم الله ﷻ في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظنُّ الجاهلية، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدٌّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم، لما نفذ القضاء، فأكذَبَهُم الله بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدرُه، وجرى به عِلمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولا بُد، شاءَ الناسُ أم أبَوْا، وما لم يَشَأْ لم يكن، شاءه الناسُ أم لم يَشاؤوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنَّكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كتب القتل، على بعضكم لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُد، سواء كان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القَدَرِيَّةِ النفاة، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير، هي ابتلاءُ ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً والمنافقُ ومن في قلبه مرض، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصهُ وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوبَ يُخالطها بغلبات الطائع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يضادُّ ما أُودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة، لم تَتخَلَّص من هذه المخالطة، ولم تتمحَّص منه، فاقتضت حِكمةُ العزيزِ أن قَيَّض لها مِن المِحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خِيف عليه منه الفسادُ والهلاكُ، فكانت نعمتهُ سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم، تُعادلُ نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمةُ التامةُ في هذا وهذا.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا

مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥، ١٥٦].

ثم أخبر ﷻ عن تولِّي مَنْ تَولَّى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاسْتزلَّهُمْ الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوْا، فكانت أعمالهم جنداً عليهم، ازداد بها عدوُّهم قوة.

فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه، ولا بُدَّ. فللعبد كلَّ وقت سَرِيَّةٌ من نفسه تَهزمُه، أو تنصره، فهو يمُدُّ عدوَّه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه؛ فأعمال العبد تسوقُهُ قسراً إلى مقتضاها مِن الخير والشر، والعبدُ لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرارُ الإنسان من عدوه، وهو يُطيقه إنما هو جند من عمله، بعثه له الشيطان واستزلَّه به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شكٍّ، وإنما كان عارضاً عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباتُه إلى مركزها ونصابها، ثم كرَّر عليهم سبُحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه مِن قِبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكية، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبةُ، فالنعمةُ مِن الله مَنَّ بها عليك، والمصيبةُ إنما نشأت من قبل نفسِك وعمِلك، فالأول فضلُه، والثاني عدلُه، والعبد يتقلَّب بين فضلِه وعدله، جار عليه فضلُهُ، ماض فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه. وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾ إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثبات القدرِ والسببِ، فذكر السببَ، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عمومَ القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجَبْرَ، والثاني ينفي القول: بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين عِلْمَ عَيان ورؤية، يتميز فيه أحدُ الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير

تكلُّمُ المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَّ الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدَّى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبُه سعادةَ الدنيا والآخرة، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة، فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغةٍ، ونعمة، على المؤمنين سابغةٍ، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشاد وتنبيه، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر وما لهما وعاقبتهما!

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئوا في حق الله أو في حق رسوله؛ فإن أساؤوا في حقك، فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم، واستجلب قلوبهم، واستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك، بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك، فإن الله يحب المتوكلين[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وأصل الخذلان: الترك والتخلية، ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المرعى وتركت صواحباتها: خذول.

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، ولن يضرك خذلان من خذلك، وإن يخذلك فلن ينصرك الناس، أي: لا تترك أمري للناس، وارفض الناس لأمري.

والخذلان: أن يخلّي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها. والتوفيق ضده: أن لا يدعه ونفسه، ولا يكله إليها، بل يصنع له ويلطف به ويعينه، ويدفع عنه، ويكلؤه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه. فمن خلى بينه وبين نفسه فقد هلك كل الهلاك. ولهذا كان من دعائه ﷺ: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات

---

(١) تفسير هذه الآية جاء في الرسالة التبوكية (٨٦).

والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إلٰه إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»[١].

فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس. فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان، كما يفترس الذئب الشاة[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

ثم عزَّى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم في سبيله أحسنَ تعزية، وألطفَها وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها، فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يَتمُّ سُرورُهم ونعيمهُم، واستبشارهم بما يُجدِّدُ لهم كلَّ وقت مِن نعمته وكرامته، وذَكَّرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظمِ مننه ونعمه عليهم، التي إن قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية، تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهي منَّتُه عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلُو عليهم آياته، ويُزكيهم، ويُعلمهم الكتابَ والحِكمة، ويُنقذهم مِن الضلال ـ الذي كانوا فيه قبل إرساله ـ إلى الهدى، ومِن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظُّلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم. فكُلُّ بليةٍ ومحنةٍ تنالُ العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له، أمرٌ يسيرٌ جداً في جنب الخير الكثير، كما ينالُ الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير.

فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره لِيوحِّدوا ويتَّكِلُوا، ولا يخافوا غيره. وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لئلا يتهموا في قضائه وقدره، وليتعرف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدراً، وأعظم خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزَّاهم عن قتلاهم

---

(١) رواه الترمذي ـ الصحيح ـ (٣/ ١٧٢) في الدعوات، باب: (٩٩)، وحسنه الألباني.

(٢) جاء تفسير هذه الآية في شفاء العليل (١٠٠، ١٠١).

بما نالُوه من ثوابه وكرامته، لينافسوهم فيه، ولا يحزنوا عليهم. فله الحمدُ كما هو أهلُه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله[1].

□ □ □

وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم، فما الظن بحياه الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل:

فالعيش نوم، والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة ـ التي هي يقظة من نوم الدنيا ـ أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم، يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها، والله المستعان[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣].

ولما انقضت الحربُ انكفأ المشركون، فظنَّ المسلمون أنهم قَصَدُوا المدينةَ لإحراز الذراري والأموال، فَشَقَّ ذٰلك عليهم، فقال النبيُّ ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اخْرُجْ في آثارِ القَوْمِ فانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَمَاذَا يُرِيدُون، فَإِنْ هُمْ جنبوا الخَيْلَ وامْتَطوا الإبِلَ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَكِبُوا الخَيْلَ وَسَاقُوا الإبلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ المَدِينَةَ. فوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ أَرادُوهَا لَأَسيرَنَّ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ لأنَاجزَنَّهُمْ فِيهَا».

قال علي: فخرجت في آثارهم أنظرُ ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيلَ، وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكة. ولما عزمُوا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم: مَوْعِدُكم المَوْسِمُ ببدر، فقال النبي ﷺ: «قولوا: نَعَمْ قَدْ فَعَلْنَا»، قال أبو سفيان: «فَذٰلِكُم المَوْعِد»، ثم انصرف هو وأصحابه. فلما كان في بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعُوا شيئاً، أصبتُم شوكتَهم وحدَّهم، ثم تركتُموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجِعُوا حتى نستأصِل شأفَتَهم. فبلغ ذٰلِكَ رسول الله ﷺ فنادى في الناس، وندبَهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: «لَا يَخْرُجْ مَعَنَا إلَّا مَنْ شَهِدَ القِتَال»، فقال له

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٨٢).

عبد الله بن أبي: أركب معك؟ قال: «لا». فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوفِ، وقالوا: سمعاً وطاعةً. واستأذنه جابرُ بنُ عبد الله، وقال: يا رسول الله، إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خلَّفني أبي على بناتِهِ، فأذَنْ لي أسِرْ معك، فأذن له، فسارَ رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بَلَغُوا حمراء الأسد(١)، وأقبل معبدُ بن أبي معبد الخُزاعي إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، فأمره أن يلحقَ بأبي سفيان فيخذِّله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبدُ؟ فقال: محمد وأصحابه، قد تحرَّقوا عليكم، وخرجُوا في جمع لم يخرجُوا في مثله، وقد نَدم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقولُ؟ فقال: ما أرى أن ترتَحِلَ حتى يطلع أولُ الجيش من وراء هذه الأكَمَة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم، قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، ولقي أبو سفيان بعض المشركين يريد المدينة، فقال: هل لك أن تُبلِّغ محمداً رسالة، وأُوقِرَ لك راحلتك زبيباً إذا أتيت إلى مكة؟ قال: نعم. قال: أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكَرَّةَ لِنَستأصِلَه ونَسْتأْصِلَ أصحابَه. فلما بلغهم قولُه قالُوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

من كيد عدو الله تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر. وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فكلما قوي إيمان

(١) حمراءُ الأسد: الأَسَد مفرد الأُسْد بالمد والإضافة، وهي موضع على ثمانية أميال من المدينة. معجم البلدان (٢/ ٣٠١). وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٨٥)، وتفسير الطبري (٤/ ١٧٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢١٨، ٢٤٤).

العبد؛ زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»[(١)].

وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقيق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته. فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني. والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاء وإن تقدم، كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، كل منهما مستلزم للآخر. لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتف عند انتفاء الآخر، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [**آل عمران**: ١٧٩].

هذه الآية من كنوز القرآن. نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تميز الخبيث من الطيب، وأن ذلك التمييز لا يقع إلا برسله، فاجتبى منهم من شاء وأرسله إلى عباده فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب، والولي من العدو، ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لا يصلح إلا للوقود.

وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال الرسل وأنه لا بد منه، وأن الله تعالى لا يليق به الإخلال به، وأن من جحد رسالة رسله فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ونسبه إلى ما لا يليق به كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام: ٩١].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١١٠).

(٢) طريق الهجرتين (٢٦٣).

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، وأعطه حظه من الفكر؛ فلو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان من أجل ما يستفاد، والله الهادي إلى سبيل الرشاد[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

أثنى تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته؛ بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلاً، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به، علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وذكروا في دعائهم هذين الأمرين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢]، فلما علموا أن خلق السمٰوات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السمٰوات والأرض، فقالوا: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. فكانت ثمرة فكرهم في خلق السمٰوات والأرض، والإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم، إلى مغفرة ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدهموها؛ وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولاً إلى إنعامه عليهم آخراً، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته، وهي إحدى الوسائل إليه[(٣)].

وتأمل كيف أخبر سبحانه عنه بنفي الباطلية عن خلقه، دون إثبات الحكمة، لأن

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤١٤).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٤).
(٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٦٦).

بيان نفي الباطل على سبيل العموم، والاستغراق أوغلُ في المعنى المقصود وأبلغ من إثبات الحكم. لأن بيان جميعها لا يفي به أفهام الخليقة، وبيان البعض يؤذن بتناهي الحكمة.

ونفي البطلان، والخلو عن الحكمة والفائدة تفيد أن كل جزء من أجزاء العالم، علويه وسفليه متضمن لحكم جمة وآيات باهرة.

ثم أخبر سبحانه عنهم بتنزيهه عن الخلق باطلاً خلواً عن الحكمة.

ولا معنى لهذا التنزيه عند النفاة فإن الباطل عندهم هو المحال لذاته. فعلى قولهم نزهوه عن المحال لذاته، الذي ليس بشيء كالجمع بين النقيضين، وكون الجسم الواحد لا يكون في مكانين، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس مراد الرب تعالى؛ مما نزه نفسه عنه وأنه لا يُمْدَحُ أحد بتنزيهه عن هذا، ولا يكون المنزه به مثنياً ولا حامداً، ولم يخطر هذا بقلب بشر، حتى ينكره الله على من زعمه ونسبه إليه[(١)].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، فعمَّ بذكره أحوال العباد كلها، لأن العبد إما أن يكون قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلها[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع؛ لأن هذا القدر حاصل في تركيب البقة والبعوضة، وفي حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى دلالة من تركيب الأجرام الفلكية على وجود الصانع؛ لأن الحياة لا يقدر عليها إلا الله. أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله. فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصلاً في غير الأفلاك ثم إنه تعالى خصها بهذا التشريف، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، علمنا أن له تعالى في تخليقها أسراراً عالية، وحكماً بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤١٩، ٤٢٠). (٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٨٠).
(٣) مفتاح دار السعادة (٥٢٩).

وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

والمعنى: وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من دخول الجنة.

وقالت طائفة: معناه: وآتنا ما وعدتنا على الإيمان برسلك، وليس بسهل حذف الاسم والحرف معاً، إلا أن يقدر: على تصديق رسلك وطاعة رسلك. وحينئذ فيتكافأ التقديران، ويترجح الأول بأنه قد تقدم قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾، وهذا صريح في الإيمان بالرسول والمرسل، ثم توسلوا إليه بإيمانهم أن يؤتيهم ما وعدهم على ألسنة الرسل؛ فإنهم إنما سمعوا بوعدهم لهم بذلك من الرسل، وذلك أيضاً يتضمن التصديق بهم، وأنهم بلغوهم وعده فصدقوا به، وسألوه أن يؤتيهم إياه، وهذا هو الذي ذكره السلف والخلف في الآية[١].

وقيل: المعنى آتنا ما وعدتنا من النصر والظفر على ألسنة الرسل. والأول أعم وأكمل.

وتأمل كيف تضمن إيمانهم به الإيمان بأمره ونهيه، ورسله ووعده ووعيده وأسمائه وصفاته وأفعاله، وصدق وعده، والخوف من وعيده، واستجابتهم لأمره، فبمجموع ذلك صاروا مؤمنين بربهم. فبذلك صح لهم التوسل إلى سؤال ما وعدهم به والنجاة من عذابه.

وقد أشكل على بعض الناس سؤالهم أن ينجز لهم وعده، مع أنه فاعل لذلك ولا بد.

وأجاب: بأن هذا تعبد محض، كقوله: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقول الملائكة: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

وخفي على هؤلاء أن الوعد معلق بشروط منها: الرغبة إليه سبحانه وتعالى، وسؤاله أن ينجزه لهم؛ كما أنه معلق بالإيمان وموافاتهم به، وأن لا يلحقه ما يحبطه. فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم تضمن ذلك توفيقهم وتثبيتهم، وإعانتهم على الأسباب التي ينجز لهم بها وعده، فكان هذا الدعاء من أهم الأدعية وأنفعها، وهم أحوج إليه من كثير من الأدعية[٢].

[وانظر في تفسيرها أيضاً (٣/ ٣٩٧)].

* * *

(١) تفسير الطبري (٤/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) حادي الأرواح (٨٠، ٨١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه.

والمصابرة هي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين، كالمشاتمة والمضاربة.

والمصابرة هي حالة في الصبر مع خصمه.

والمرابطة: وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة. فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى. فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته(١).

وقال: وقيل في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى. «فالصبر» دون «المصابرة»، و«المصابرة» دون «المرابطة»، والمرابطة مفاعلة من الربط وهو الشد.

وسمي المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرهم: مرابط. ومنه قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»(٢).

وقال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»(٣).

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله.

وقيل: اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء، لعلكم تفلحون في دار البقاء.

---

(١) عدة الصابرين (٢١). (٢) رواه مسلم (٢٥١).

(٣) رواه البخاري (٢٨٩٢)، ومسلم (١٨٨١).

وقيل: تجرع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً.

وقيل: الصبر لله غناء، وبالله تعالى بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وقاء، وعن الله جفاء. والصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المحن عنوان الفرج[(١)].

وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة. فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل.

فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه. فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٥٩، ١٦٠).
(٢) الجواب الكافي (١٣٩، ١٤٠).

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

قال الشافعي(١): «أن لا تكثر عيالكم. فدل على أن قلة العيال أولى».

قيل: قد قال الشافعي ذلك، وخالف جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقالوا: معنى الآية: ذلك أدنى أن لا تجوروا ولا تميلوا. فإنه يقال: عال الرجل يعول عولاً إذا مال وجار. ومنه: عول الفرائض؛ لأن سهامها زادت. ويقال: عال يعيل عيلة إذا احتاج. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال الشاعر(٢):

وما يدري الفقيرُ متى غناهُ ... وَمَا يَدْرِي الغنيُّ مَتَى يَعيلُ

أي: متى يحتاج ويفتقر. وأما كثرة العيال فليس من هذا، ولا من هذا، ولكنه من أفعل. يقال: أعال الرجل يعيل، إذا كثر عياله؛ مثل ألبن وأتمر إذا صار ذا لبن وتمر، هذا قول أهل اللغة. قال الواحدي في بسيطه(٣): ومعنى تعولوا: تميلوا وتجوروا، عن جميع أهل التفسير واللغة. وروي ذلك مرفوعاً. روت عائشة رضي الله عنها

---

(١) انظر: توجيه هذا القول عن الشافعي رحمه الله تعالى في فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٢١)، والزمخشري (١/ ٢٤٥).

(٢) قائله هو «أحيحة بن الجلاح»، انظر: هامش (١، ٢) من تفسير الطبري (٧/ ٥٤٩) تحقيق: آل شاكر.

(٣) الإمام العلامة، الأستاذ علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، الشافعي، صاحب التفسير، وإمام علماء التأويل، صنّف التفاسير الثلاثة «البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز»... وغيرها من الكتب النافعة. سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٣٩).

عن النبي ﷺ[1]: «أن لا تعولوا»، قال: «لا تجوروا»، وروي: «أن لا تميلوا» قال: وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة والربيع والسدي وابن مالك وعكرمة والفراء والزجاج وابن قتيبة وابن الأنباري.

قلت: ويدل على تعين هذا المعنى من الآية، وإن كان ما ذكره الشافعي لغة حكاه الفراء عن الكسائي، قال: ومن الصحابة من يقول: عال يعول إذا كثر عياله. قال الكسائي: وهي لغة فصيحة سمعتها من العرب، لكن يتعين الأول لوجوه:

أحدها: أنه المعروف في اللغة الذي لا يكاد يعرف سواه، ولا يعرف: عال يعول، إذا كثر عياله، إلا في حكاية الكسائي، وسائر أهل اللغة على خلافه.

الثاني: أن هذا مروي عن النبي ﷺ، ولو كان من الغرائب، فإنه يصلح للترجيح.

الثالث: أنه مروي عن عائشة وابن عباس، ولم يعلم لهما مخالف من المفسرين، وقد قال الحاكم أبو عبد الله: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع.

الرابع: أن الأدلة التي ذكرناها على استحباب تزوج الولود، وإخبار النبي[2] ﷺ أنه يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة يرد هذا التفسير.

الخامس: أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون من الظلم والجور فيه إلى غيره. فإنه قال في أولها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ، وأباح لهم منهن أربعاً، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن. فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، ثم أخبر سبحانه أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور. وهذا صريح في المقصود.

---

(١) رواه ابن حبان (٦/ ١٣٤). وقال الحافظ ابن حجر: «رواه ابن حبان، وإبراهيم الحربي، والطبري، وابن أبي حاتم، وغيرهم... عن عائشة، قال ابن أبي حاتم: والصواب موقوف». انظر: الكافي الشاف في تخريج الكشاف (٣٨) رقم (٣١٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٧٦)، والدر المنثور (٢/ ٤٣٠).

(٢) عن معقل بن يسار قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات جمال وحسب وأنها لا تلد أفأتزوجها؟ قال: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم». رواه أبو داود (٢٠٥٠).

السادس: أنه لا يلتئم قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ في الأربع فانكحوا واحدة أو تسروا بما شئتم بملك اليمين. فإن ذلك أقرب إلى أن تكثر عيالكم، بل هذا أجنبي من الأول. فتأمله.

السابع: أنه من الممتنع أن يقال لهم: إن خفتم ألا تعدلوا بين الأربع فلكم أن تتسروا بمائة سرية أو أكثر، فإنه أدنى ألا تكثر عيالكم.

الثامن: أن قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ تعليل لكل واحد من الحُكمين المتقدمين، وهما نقلهم من نكاح اليتامى إلى نكاح النساء البوالغ، ومن نكاح الأربع إلى نكاح الواحدة أو ملك اليمين، ولا يليق تعليل ذلك بقلة العيال.

التاسع: أنه سبحانه قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، ولم يقل: وإن خفتم أن تفتقروا أو تحتاجوا، ولو كان المراد قلة العيال لكان الأنسب أن يقول ذلك.

العاشر: أنه تعالى إذا ذكر حكماً منهياً عنه وعلل النهي بعلة، أو أباح شيئاً وعلل عدمه بعلة، فلا بد أن تكون العلة مضادة لضد الحكم المعلل، وقد علل ﷻ إباحة نكاح غير اليتامى والاقتصار على الواحدة أو ملك اليمين؛ بأنه أقرب إلى عدم الجور، ومعلوم أن كثرة العيال لا تضاد عدم الحكم المعلل فلا يحسن التعليل به[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].

قال ابن عباس: لا تعتمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك وبنيك، فيكونوا هم الذين يقومون عليك في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم.

فالسفهاء هم النساء والصبيان، وقد جعل الله سبحانه الأزواج قوامين عليهم، كما جعل ولي الطفل قوّاماً عليه. والقوّام على غيره أمير عليه[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢].

فإنه ﷻ إنما قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حراماً، وكان للورثة إبطالها، وحرم على الموصى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة، وأكد ﷻ ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

---

(١) تحفة الودود (١٩ ـ ٢١).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٥٩).

وتأمل كيف ذكر ﷻ الضرار في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف من الزوجين، والإخوة.

والعادة أن الميت قد يضار زوجته وإخوته، ولا يكاد يضار والديه وولده.

والضرار نوعان: جنف، وإثم، فإنه قد يقصد الضرار، وهو الإثم، وقد يضار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار، قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية، وإن أوصى بالثلث فما دونه، ولم يعلم أنه قصد الضرار وجب إمضاؤها، فإن علم الموصى له أن الموصي إنما أوصى ضراراً؛ لم يحل له الأخذ، ولو اعترف الموصي إنه إنما أوصى ضراراً، لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية.

وقد جوز الله ﷻ إبطال وصية الجنف والإثم، وأن يُصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصى له، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾[البقرة: ١٨٢]، وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوصيِّ الجنف أو الإثم في الوقف ومصرفه، أو بعض شروطه فأبطل ذلك، كان مصلحاً لا مفسداً. وليس له أن يعين الواقف على إمضائه الجنف والإثم، ولا يصحح هذا الشرط، ولا يحكم به فإن الشارع قد رده وأبطله، فليس له أن يصحح ما رده الشارع وحرمه، فإن ذلك مضادة له ومناقضة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾؟ فقالوا(٢): كل من عصى الله فهو جاهل. ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. وقال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصيَ الله به فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وقال مجاهد: من شيخ أو شاب فهو بجهالة. وقال: من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن خطيئته. وقال هو وعطاء: الجهالة: العمد.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٣٧٧، ٣٧٨). (٢) تفسير الطبري (٤/٢٩٨).

وقال مجاهد: من عمل سوءاً خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع منه.

ذكر هذه الآثار «ابن أبي حاتم»، ثم قال: وروي عن قتادة وعمرو بن مرة والثوري نحو ذلك خطأ أو عمداً. وروي عن مجاهد والضحاك: ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً، ولكن من جهالته حين دخل فيه.

وقال عكرمة: الدنيا كلها جهالة(١).

و«الجهالة» هاهنا: جهالة العمل، وإن كان عالماً بالتحريم.

أما التوبة من قريب فجمهور المفسرين: على أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت.

وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت.

وقال السدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته.

وفي المسند(٢) وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، وفي نسخة دراج ـ أبي الهيثم ـ عن أبي سعيد مرفوعاً(٣): «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم». فقال الرب عز وجل: «وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

فهذا شأن التائب من قريب. وأما إذا وقع في السياق(٤) فقال: إني تبت الآن لم تقبل توبته. ذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) شفاء العليل (١٧١، ١٧٢).

(٢) رواه الإمام أحمد بسند صحيح برقم (٦١٦٠) طبعة المعارف، والترمذي وحسنه (٥/ ٥١١) في الدعوات، باب: فضل التوبة والاستغفار، وابن حبان (٢٤٤٩) الموارد، وابن ماجه برقم (٤٢٥٣)، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٢٥٧).

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/ ٢٩)، وأبو يعلى (٢/ ٤٥٨)، والحاكم (٤/ ٢٦١)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٠٤).

(٤) السياق: النزع الذي يسبق الموت.

(٥) مدارج السالكين (١/ ٢٨٣، ٢٨٤).

وقد استشكل بعض المفسرين معنى وراثتهم النساء المنهي عنها، حتى قال: المعنى: لا يحل لكم أن ترثوا نكاحهن، لترثوا أموالهن كرهاً.

قال: وفي المراد بميراثهن وجهان:

أحدهما: ما يصل إلى الأزواج من أموالهن بالموت دون الحياة على ما يقتضيه الظاهر من لفظ الميراث.

الثاني: الوصول إلى أموالهن في الحياة وبعدها، وقد يسمى ما وصل في الحياة ميراثاً، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١].

وهذا تكلف وخروج عن مقتضى الآية. بل الذين مُنعوا من أن يجعلوا حق الزوجية حقاً موروثاً ينتقل إلى الوارث كسائر حقوقه، وهذه كانت شبهتهم، أن حق الزوجية انتقل إليهم من مورثهم، فأبطل الله ذلك وحكم بأن الزوجية لا تنتقل بالميراث إلى الوارث، بل إذا مات الزوج كانت الزوجة أحق بنفسها، ولم يرث بضعها أحد، وليس البضع كالمال، فينتقل بالميراث.

واستنبط بعضهم من الآية أنه لا يحل للرجل أن يمسك امرأته ولا أرب له فيها، طمعاً أن تموت فيرث مالها، وفيه نظر. والله أعلم(١).

وهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدي نفسها منه، وهو ظالم لها بذلك، لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه هو(٢).

فحرم ﷻ أن يأخذ منها شيئاً مما آتاها، إذا كان قد توسل إليه بالعضل(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

فهذا من الاستثناء السابق زمان المستثنى فيه زمان المستثنى منه، فهو غير داخل فيه، فمن لم يشترط الدخول فلا يقدر شيئاً، ومن قال: لا بد من دخوله قدر دخوله في مضمون الجملة الطلبية بالنهي؛ لأن مضمون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ الإثم والمؤاخذة؛ أي: أن الناكح ما نكح أبوه آثم مؤاخذ، إلا ما قد سلف قبل النهي وإقامة الحجة، فإنه لا تتعلق به المؤاخذة.

---

(١) تهذيب سنن أبي داود (٣/ ٣٥، ٣٦). (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٨).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٨).

وأحسن من هذا عندي أن يقال: لما نهى سبحانه عن نكاح منكوحات الآباء؛ أفاد ذلك أن وطْأهن بعد التحريم لا يكون نكاحاً البتة، بل لا يكون إلا سفاحاً فلا يترتب عليه أحكام النكاح من ثبوت الفراش ولحوق النسب، بل الولد فيه يكون ولد زنية، وليس هذا حكم ما سلف قبل التحريم، فإن الفراش كان ثابتاً فيه والنسب لاحق، فأفاد الاستثناء فائدة جليلة عظيمة، وهي أن ولد من نكح ما نكح أبوه قبل التحريم ثابت النسب وليس ولد زنا، والله أعلم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

وهذا من أشكل مواضع الاستثناء، لأن مملوكته إذا كانت محصنة إحصان التزويج فهي حرام عليه. والإحصان هاهنا إحصان التزويج بلا ريب، إذ لا يصح أن يراد به إحصان العفة ولا إحصان الحرية ولا إحصان الإسلام فهو إحصان التزويج قطعاً، فكيف يستثنى من المحرمات به المملوكة؟

فقال كثير من الناس: الاستثناء هاهنا منقطع، والمعنى: لكن ما ملكت أيمانكم فهن لكم حلال.

ورد هذا بأنه استثناء من موجب والانقطاع إنما يقع حيث يقع التفريغ.

ورد هذا الرد بأن الانقطاع يقع في الموجب وغيره. قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥].

وقالت طائفة: الاستثناء على بابه متصل وما ملكت أيمانكم مستثنى من المزوجات، ثم اختلفوا فقالت طائفة من الصحابة منهم ابن عباس وغيره من التابعين: إنه إذا زوج أمته ثم باعها كان بيعها طلاقاً، وتحل للسيد؛ لأنها ملك يمينه واحتج لهم بالآية.

ورد هذا المذهب بأمور: أحدها: أنه لو كان صحيحاً لكان وطؤها حلالاً لسيدها إذا زوجها؛ لأنها ملك يمينه، فكما اجتمع ملك سيدها لها وحلها للزوج، فكذلك يجتمع ملك مشتريها لها وحلها للزوج، وتناول اللفظ لهما واحد. الثاني: أن المشتري خليفة البائع فانتقل إليه بعقد الشراء ما كان يملكه بائعها، وهو كان يملك رقبتها مسلوبة منفعة البضع ما دامت مزوجة، وينتقل إلى المشتري ما كان

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٨، ٦٩).

يملكه فملكها المشتري مسلوبة منفعة البضع، فإذا فارقها زوجها رجع إليه البضع كما كان يرجع إلى بائعها كذلك، فهذا محض الفقه والقياس. الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين(١) أن عائشة ﵂ اشترت بريرة وكانت مزوجة فعتقتها وخيرها النبي ﷺ، ولو بطل النكاح بالشراء لم يخيرها، وهذا مما أخذ الأئمة الأربعة وغيرهم فيه برواية ابن عباس وتركوا رأيه، فإنه راوي الحديث وهو ممن يقول: بيع الأمة طلاقها.

وقالت طائفة أخرى: الآية مختصة بالسبايا. قال أبو سعيد الخدري: نزلت في سبايا أوطاس، قالوا: فأباح الله تعالى للمسلمين وطء ما ملكوه من السبي وإن كن محصنات، ثم اختلف هؤلاء متى يباح وطء المسبية، فقال الشافعي وأبو الخطاب وغيرهما: يباح وطؤها إذا تم استبراؤها؛ سواء كان زوجها موجوداً أو مفقوداً، واحتجوا بثلاث حجج: إحداها: أن الله سبحانه أباح وطء المسبيات بملك اليمين مستثنياً لهن من المحصنات. الثانية: ما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ(٢) يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس فلقي عدواً فقاتلوهم، فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب النبي ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن. وفي الترمذي(٣) عن أبي سعيد: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج في قومهن، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وهذا صريح في إباحتهن وإن كن ذاوت أزواج، وفي الترمذي ومسند أحمد من حديث العرباض بن سارية: «أن النبي ﷺ(٤) حرم وطء السبايا حتى يضعن ما في بطونهن»؛ فهذا التحريم إلى غاية وهي وضع الحمل، فلا بد أن يحصل الحل بعد الغاية، ولو كان وجود أزواجهن مانعاً من الوطء لكان له غايتان: إحداهما: عدم الزوج، والثاني: وضع الحمل وهو خلاصة ظاهر الحديث. قالوا: ولأن ملك الكافر الحربي البضع لم يبق له حرمة ولا عصمة؛ إذ قد ملك المسلمون عليه ما كان يملكه فملكوا رقبة زوجته، فكيف يقال: ببقاء العصمة في ملك البضع

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: (٢٥٣٦)، ومسلم (١٥٠٤).

(٢) رواه مسلم (١٤٥٦).

(٣) رواه الترمذي (١١٣٢).

(٤) رواه الإمام أحمد ﵁ (٤/ ١٢٧)، رواه الترمذي (١٤٧٤، ١٥٦٤).

لا سيما والمسلمون يستحقون ملك رقبته وأولاده وسائر أملاكه، فما بال ملك البضع وحده باقياً على العصمة؟ فهذا لا نص ولا قياس ولا معنى، قالوا: فقد أذن النبي ﷺ في وطء السبايا بعد انقضاء عدتهن مطلقاً؛ ولو كان بقاء الزوج مانعاً لم يأذن في وطئهن إلا بعد العلم بموته، وهذا المذهب كما تراه قوة وصحة.

وقال أصحابنا القاضي وغيره: إنما يباح وطؤها. قالوا: لأنها إذا سبيت وحدها فبقاء الزوج مجهول والمجهول كالمعدوم فنزِّلت منزلة من لا زوج لها فحل وطؤها، ولا كذلك إذا كان زوجها معها، ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً وهو: إذا سبيت وحدها وعلم بقاء زوجها في دار الحرب؟ وهذا سؤال لا محيد لهم عنه، ولا ينجيهم منه إلا قولهم: بالحل، وإن علم بقاء الزوج استناداً إلى زوال عصمة النكاح بالسبي، فإنهم إذا أجابوا بالتزام التحريم خالفوا النصوص خلافاً بيناً، وإن أجابوا بالحل مع تحقيق بقاء الزوج نقضوا أصلهم؛ حيث أسندوا الحل إلى كون المسبية خالية من الزوج تنزيلاً للمجهول منزلة المعدوم.

فقول أبي الخطاب أفقه وأصح، وعليه تنزل الآية والأحاديث، ويظهر به أن الاستثناء متصل، وأن الله تعالى أباح من المحصنات من سباها المسلمون.

(فإن قيل): فعلى ما قررتموه يزول الإحصان بالسبي فلا تدخل في المحصنات، فيجيء الانقطاع في الاستثناء، (قيل): لما كانت محصنة قبل السبي صح شمول الاسم لها فأخرجت بالاستثناء.

(فإن قيل): فما تقولون في الأمة المزوجة إذا بيعت فإنها محصنة قد ملكت نفسها، فهل هي مخصوصة من هذا العموم أو غير داخلة فيه؟ (قيل): هاهنا مسلكان للناس أحدهما أنها خصت من العموم بالأدلة على أن البيع لا يفسخ النكاح، وأن الفرج لا يكون حلالاً لشخصين في وقت واحد، (والمسلك الثاني) أنها لم تدخل في المستثنى منه؛ لأن السيد إذا زوجها فقد أخرج منفعة البضع عن ملكه، فإذا باعها فقد انتقل إلى المشتري ما كان للبائع فملكها المشتري مسلوبة منفعة البضع، فلم تدخل هذه المنفعة في ملكه بعقد البيع فلم تتناولها الآية، وهذا المسلك ألطف وأدق من الأول. والله أعلم[١].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٣ ـ ٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال طاوس ومقاتل وغيرهما[(١)]: لا يصبر عن النساء.

وقال الحسن: هو خلق من ماء مهين.

وقال الزجاج: ضعف عزمه على قهر الهوى.

والصواب: أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر: فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه.

وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التي يحمد عليها الرب سبحانه ويثني عليه بها، وهو موجب حكمته وعزته، فكل ما يحدث من هذه الخلقة عن صفات كماله؛ من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته، وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى خير وشر وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية وبراً وفجوراً، بل أخص من ذلك، مثل كونها صلاة وصياماً وحجاً وزناً وسرقة وأكلاً وشرباً، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجب أمر الله له ونهيه، ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلق وأمر به، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاء لخلقه. وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع في معصيته، وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنع[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

فهذا استثناء منقطع، تضمن نفي الأكل بالباطل وإباحة الأكل بالتجارة الحق، ومن قدر دخوله في الأول، قدر مستثنى منه عاماً، أي: لا تأكلوا أموالكم بينكم بسبب من الأسباب إلا أن تكون تجارة، أو يقدر: بالباطل ولا بغيره إلا بالتجارة،

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢١٥، ٢١٦) ط المعارف.

(٢) طريق الهجرتين (١٠١)، وروضة المحبين (٢٠١).

ولا يخفى التكلف على هذا التقدير بل هو فاسد، إذ المراد بالنهي الأكل بالباطل وحده، وقرئ برفع التجارة ونصبها، فالرفع على التمام والنصب على أنها خبر كان الناقصة، وفي اسمها على هذا وجهان:

أحدهما: التقدير إلا أن يكون سبب الأكل أو المعاملة تجارة.

والثاني: إلا أن تكون أموال الناس تجارة[١].

□ □ □

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أباح التجارة التي تراضى بها المتبايعان، فإذا تراضيا على شرط لا يخالف حكم الله جاز لهما ذلك، ولا يجوز إلغاؤه وإلزامها بما لم يلتزماه، ولا ألزمهما الله ولا رسوله به، ولا يجوز إلزامهما بما لم يلزمهما الله ورسوله به، ولا هما التزماه، ولا إبطال ما شرطاه مما لم يحرم الله ورسوله عليها شرطه، ومحرم الحلال كمحلل الحرام[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

[إذا تأملنا قوله تعالى] نجد نحن بألطف دلالة، وأدقها وأحسنها أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره، وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر، فإذا وقعت الصغائر باجتناب الكبائر؛ فالكبائر تقع باجتناب الشرك.

وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى، وهو قوله[٣] ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة».

وقوله[٤]: «إن الله حرم على النار من قال: لا إلٰه إلا الله خالصاً من قلبه»، بل محو التوحيد ـ الذي هو توحيد ـ الكبائر أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر»[٥].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٣). (٢) إعلام الموقعين (١/ ٣٤٩).

(٣) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٥/ ١٤٧)، رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٤) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣/ ٢٦٣ ماجه).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٢٩٠، ٢٩١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

قد اختلف السلف والخلف في الحكمين: هل هما حاكمان، أو وكيلان؟ على قولين:

أحدهما: أنهما وكيلان، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي في قول، وأحمد في رواية.

والثاني: أنهما حاكمان، وهذا قول أهل المدينة، ومالك، وأحمد في الرواية الأخرى، والشافعي في القول الآخر، وهذا هو الصحيح.

والعجب كل العجب ممن يقول: هما وكيلان لا حاكمان، والله تعالى قد نصبهما حَكَمين، وجعل نصبهما إلى غير الزوجين، ولو كانا وكيلين، لقال: فليبعث وكيلاً من أهله، ولتبعث وكيلاً من أهلها.

وأيضاً: فلو كانا وكيلين، ولم يختصَّا بأن يكونا من الأهل. وأيضاً فإنه جعل الحكم إليهما، فقال: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، والوكيلان لا إرداة لهما، إنما يتصرفان بإرادة موكليهما.

وأيضاً: فالحَكَم من له ولاية الحكم والإلزام، وليس للوكيل شيء من ذلك.

وأيضاً: فإن الحكم أبلغ حاكم، لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبوت، ولا خلاف بين أهل العربية في ذلك، فإذا كان اسم الحاكم لا يصدق على الوكيل المحض، فكيف بما هو أبلغ منه.

وأيضاً: فإنه سبحانه خاطب بذلك غير الزوجين، وكيف يصح أن يوكل عن الرجل والمرأة وغيرهما؟ وهذا يحوِجُ إلى تقدير الآية هكذا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾، فمروهما أن يوكلا وكيلين: وكيلاً من أهله ووكيلاً من أهلها، ومعلوم بعد لفظ الآية ومعناها عن هذا التقدير، وأنها لا تدل عليه بوجه، بل هي دالة على خلافه، وهذا بحمد الله واضح.

وبعث عثمانُ بن عفان[١] عبد الله بن عباس ومعاوية حكمين بين عقيل بن أبي طالب وامرأته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، فقيل لهما: إن رأيتما أن تفرِّقا فرِّقتما.

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٦/ ٥١٢) برقم (١١٨٨٥)، والطبري (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨) ط المعارف.

وصح عن علي بن أبي طالب أن قال للحكمين يبن الزوجين[(١)]: عليكما إن رأيتما أن تفرِّقا، فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا، جمعتما.

فهذا عثمان، وعلي، وابن عباس، ومعاوية جعلوا الحكم إلى الحكمين، ولا يعرف لهم من الصحابة مخالف، وإنما يعرف الخلاف بين التابعين فمن بعدهم.

وإذا قلنا: إنهما وكيلان، فهل يُجبر الزوجان على توكيل الزوج في الفرقة بعوض وغيره؟ وتوكيل الزوجة في بذل العِوَض. أو لا يجبران؟ على روايتين، فإن قلنا: يجبران، فلم يوكلا، جعل الحاكم ذلك إلى الحكمين بغير رضى الزوجين، وإن قلنا: إنهما حكمان، لم يحتج إلى رضى الزوجين[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم. قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: بماذا يعلم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشى سره المكتوم.

وقال محمد بن داود الأصفهاني[(٣)]: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم[(٤)].

فلم يرتب على كلام السكران حكماً، حتى يكون عالماً بما يقول، ولذلك أمر النبي ﷺ[(٥)] رجلاً يشكك المقر بالزنا، ليعلم هل هو عالم بما يقول، أم غير عالم

---

(١) رواه عبد الرزاق (٦/ ٥١٢) برقم (١١٨٨٣)، والطبري (٨/ ٣٢١) ط المعارف، والشافعي في الأم (٥/ ١٧٧)، والبيهقي في السنن (٧/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) زاد المعاد (٥/ ١٨٩ ـ ١٩٢).

(٣) محمد بن داود بن علي الظاهري: العلامة البارع ذو الفنون، صاحب المذهب. سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٠٩)، تاريخ بغداد (٥/ ٢٥٩)، وفيات الأعيان (٤/ ٢٥٩).

(٤) روضة المحبين (١٥١)، ومدارج السالكين (٣/ ٣٠٦).

(٥) روى البخاري عن ابن عباس ﷺ: لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ قال له: لعلك قبَّلت =

بما يقول، ولم يؤاخذ حمزة بقوله في حال سكره: هل أنتم إلا عبيد لأبي[١]، ولم يكفِّر من قرأ في حال سكره في الصلاة: أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون[٢][٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله.

وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر، بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك: ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره.

ولهذا كثيراً ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع؛ كقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ [الجمعة: ٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

ثم قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

= أو غمزت أو نظرت؟ قال: لا يا رسول الله، . . . الحديث. (١٢/ ١٣٨) في الحدود، باب: هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت؟

وانظر: صحيح مسلم (٤/ ٢٧٥) في الحدود، باب: حد الزنا، والترمذي (٤/ ٢٨) في الحدود، باب: ما جاء في درء الحد. . . .

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٦٧) في المغازي، باب (١٢)، ومسلم (٥/ ٦٥٨) في الأشربة، باب: بيان تحريم الخمر.

(٢) رواه أبو داود (١٠/ ١٠٤) في الأشربة، باب تحريم الخمر، والترمذي (٥/ ٢٢٢) في تفسير القرآن، باب: من سورة النساء، الطبري (٨/ ٣٧٦) ط المعارف، ومسند عبد بن حميد برقم (٨٢)، والحاكم (٢/ ٣٠٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١٤٢).

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملاً واحداً. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله. ولكن الواقع هنا في الآية المناسب.

وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة.

فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه.

كما قال النبي ﷺ: «يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ مُتَكِئٌ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَاب الله تَعَالَىٰ مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ شَيءٍ اتَّبَعْنَاهُ، أَلا وَإِني أُوتيتُ الْكِتَابَ وَمثلَهُ مَعَهُ»(١).

أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول؛ لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَىٰ الْمرءِ السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيما أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِية الله تعالَى. فَإِذَا أُمِرَ بِمْعصِيَةِ الله تَعَالَىٰ فَلا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»(٢).

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ولم يقل: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾؟ فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول؟ فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله.

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله. وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله، فقد رددتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

□ □ □

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولي الأمر، وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء.

والقولان: ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

جميعاً، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء ولاته حفظاً وبياناً وذباً عنه ورداً على من ألحد فيه وزاغ عنه.

وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]؛ فيا لها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم.

والأمراء ولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه.

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه، فدل على أن من حَكَّمَ غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بياناً وشفاء، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها، الممتثلين ما أمرت به.

قال الله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته.

□ □ □

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إليَّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة.

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله، هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً. ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول.

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها، إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط.

وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين.

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة، إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه.

وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة، إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملاً.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم الله سبحانه بنفسه المقدسة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم، ولا يكفي ذلك في حصول الإيمان حتى يزول الحرج من نفوسهم بما حكم به في ذلك أيضاً، حتى يحصل منهم الرضا والتسليم، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ . . .﴾ الآية.

فأكد ذلك بضروب من التأكيد:

أحدها: تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي المتضمن لتأكيد النفي المقسم عليه، وهو ذلك كتصدير الجملة المثبتة بإن.

الثاني: القسم بنفسه سبحانه.

الثالث: أنه أتى بالمقسم عليه بصيغة الفعل الدالة على الحدوث، أي لا يقع منهم إيمان ما حتى يحكموك.

الرابع: أنه أتى في الغاية بحتى دون إلا، المشعرة بأنه لا يوجد الإيمان إلا بعد حصول التحكيم، لأن ما بعد حتى يدخل فيما قبلها.

الخامس: أنه أتى المحكم فيه بصيغة الموصول الدالة على العموم، وهو قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: في جميع ما تنازعوا فيه من الدقيقة والجليلة.

السادس: أنه ضم إلى ذلك انتفاء الحرج، وهو الضيق من حكمه.

السابع: أنه أتى به نكرة في سياق النفي، أي لا يجدون نوعاً من أنواع الحرج البتة.

الثامن: أنه أتى بذكر ما قضى به بصيغة العموم، فإنها إما مصدرية، أي: من قضائك، أو موصولة، أي: من الذي قضيته، وهذا يتناول كل فرد من أفراد قضائه.

التاسع: أنه لم يكتف منهم بذلك حتى يضيفوا إليه التسليم، وهو قدر زائد على التحكيم وانتفاء الحرج، فما كل من حكم انتفى عنه الحرج، ولا كل من انتفى عنه الحرج يكون مسلماً منقاداً، فإن التسليم يتضمن الرضا بحكمه والانقياد له.

العاشر: أنه أكد فعل التسليم بالمصدر المؤكد[1].

□ □ □

فأقسم سبحانه بأجلّ مقسم به ـ وهو نفسه ﷻ ـ على أن لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله، حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين.

فإن لفظة «ما» من صيغ العموم، فإنها موصلة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم.

ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً ـ وهو الضيق والحصر ـ من حكمه، بل يقبلوا حكمه بالانشراح: ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا منافٍ للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله، ويطالعه في قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها؟ وكم من شجى في حلوقهم

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٢٠، ١٥٢١).

منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء، ويخزي يوم تُبلى السرائر.

ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضاً، وتسليماً لا قهراً ومصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه، ويعلم بأنه أولى به من نفسه، وأبرُّ به منها وأرحم به منها وأنصح له منها وأعلم بمصالحه منها وأقدر على تخليصها.

فمتى علم العبد هذا من رسول الله ﷺ استسلم له، وسلم إليه وانقادت له كل علة في قلبه، ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد.

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة، بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه، لا تفي العبارة بمعناه، ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأماني.

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً لِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

وفرق بين علم الحب وحال الحب. فكثيراً ما يشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده، وفرق بين المريض والعارف بالصحة والاعتدال، وهو مثخن بالمرض، وبين الصحيح السليم، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها. وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك[(١)].

فأخبر أن مرافقة المنعَم عليهم لا تحصل إلا لمن أطاعه وأطاع رسوله، وأن ذلك هو الفضل منه سبحانه، وهو عليم أين يجعله وعند مَن يضعه ويخص به[(٢)].

فذكر مراتب السعداء وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨). (٢) الكلام على مسألة السماع (٩٨).

المراتب، وهؤلاء هم أهل الجنة الذين هم أهلها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه(١).

□ □ □

قال الشعبي: جاء رجل من الأنصار وهو يبكي إلى النبي ﷺ، فقال: «ما يبكيك يا فلان؟»، فقال: يا نبي الله، والله الذي لا إله إلا هو، لأنت أحب إليَّ من أهلي ومالي، والله الذي لا إله إلا هو، لأنت أحب إليَّ من نفسي، وأنا أذكرك أنا وأهلي، فيأخذني كذا، حتى أراك، فذكرت موتك وموتي فعرفت أني لن أجامعك إلا في الدنيا، وأنك ترفع مع النبيين، وعرفت أني إن دخلت الجنة كنتُ في منزل أدنى من منزلك، فلم يردَّ النبي ﷺ شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ. . . ﴾ إلى قوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

جمعت بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والحض على فعل الخير والزجر عن فعل الشر؛ إذ قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يتضمن حثهم على كسب الخير وزجرهم عن كسب الشر(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

[محل البحث في هاتين الآيتين الكريمتين هو الآية الثانية، ومحل الإشكال هو قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ مع قوله قبل ذلك: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ والجواب على ذلك هو قوله:]

ومنشأ الغلط الظن أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها الطاعات والمعاصي التي هي فعل العبد الاختياري، وهذا وهم محض في الآية، وإنما المراد بها النعم والمصائب.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٨٥).
(٢) الروح (ص١٩).
(٣) بدائع الفوائد (٤/٨).

ولفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله يراد به هذا تارة وهذا تارة.

فقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠].

وقوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

المراد في هذا كله النعم والمصائب.

أما قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

والمراد به في هذا كله الأعمال المأمور بها والمنهي عنها.

وهو سبحانه إنما قال: ﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ ولم يقل: ما أصبت وما كسبت، فما يفعله العبد يقال فيه: ما أصبت وكسبت وعملت، كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]، وكقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾(١) [النساء: ١١٢]، وقول المذنب التائب: «يا رسول الله أصبت ذنباً فأقم عليَّ كتاب الله»، ولا يقال في هذا: أصابك ذنب وأصابتك سيئة.

وما يفعل به بغير اختياره يقال فيه: أصابك، كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠].

وقوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فجمع الله في الآية بين ما أصابوا بفعلهم وكسبهم وما أصابهم مما ليس فعلاً لهم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [التوبة: ٥٢]،

---

(١) وردت الآيتان بالأصل كأنهما آية واحدة.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، وقوله: ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

فقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ هو من هذا القسم الذي يصيبه العبد لا باختياره، وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية.

فليس بين اللفظين تناقض لا في المعنى ولا في العبارة؛ فإنه ﷻ ذكر عن هؤلاء الناكلين عن الجهاد أنهم إن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا لرسوله ﷺ هذه من عندك، أي: بسبب ما أمرتنا به من دينك وتركنا ما كنا عليه أصابتنا هذه السيئات؛ لأنك أمرتنا بما أوجبها.

فالسيئات هاهنا هي المصائب والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب هي التي أمروا بها، وقولهم في السيئة التي تصيبهم: (هذه من عندك) تتناول مصائب الجهاد التي حصلت لهم من الهزيمة والجراح، وقتل من قتل منهم وتتناول مصائب الرزق على وجه التطير والتشاؤم، أي أصابنا هذا بسبب دينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]؛ أي: إذا جاءهم ما يسرون به ويتنعمون به من النعم قالوا: نحن أهل ذلك ومستحقوه، وإن أصابهم ما يسوؤهم قالوا: هذا بسبب ما جاء به موسى.

وقال أهل القرية للمرسلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، وقال قوم صالح له عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وكانوا يقولون لما ينالهم من سبب الحرب: هذا منك؛ لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة له، وللمصائب الحاصلة من غير جهة العدو: وهذا أيضاً منك، أي: بسبب مفارقتنا لديننا ودين آبائنا والدخول في طاعتك.

وهذه حال كل من جعل طاعة الرسول ﷺ سبباً لشر أصابه من السماء أو من الأرض، وهؤلاء كثير في الناس، وهم الأقلون عند الله تعالى قدراً، الأرذلون عنده.

ومعلوم أنهم لم يقولوا: هذه من عندك، بمعنى: أحدثتها، ومن فهم هذا تبين له أن قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ لا يناقض قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ بل هذا تحقيق له فإنه سبحانه بين أن النعم والمصائب كلها من عنده، فهو الخالق لها المقدر لها المبتلي خلقه بها، فهي من عنده، ليس بعضها من عنده وبعضها خلقاً لغيره، فكيف يضاف بعضها إلى

الرسول ﷺ وبعضها إلى الله تعالى؟ ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يحدثها، فلم يبق إلا ظنهم أنه سبب لحصولها؛ إما في الجملة كحال أهل التطير، وإما في الواقعة المعينة كحال اللائمين له في الجهاد.

فأبطل الله سبحانه ذلك الوهم الكاذب والظن الباطل، وبين أن ما جاء به لا يوجب الشر البتة، بل الخير كله فيما جاء ﷺ به، والشر بسبب أعمالهم وذنوبهم، كما قال الرسل عليهم السلام لأهل القرية: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ [يس: ١٩]، ولا يناقض هذا قول صالح عليه السلام لقومه: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [النمل: ٤٧]، وقوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]؛ بل هاتان النسبتان نظير هاتين النسبتين في هذه الآية وهي نسبة السيئة إلى نفس العبد، ونسبة الحسنة والسيئة إلى أنهما من عند الله ﷻ.

فتأمل اتفاق القرآن وتصديق بعضه بعضاً. فحيث جعل الطائر معهم والسيئة من نفس العبد، فهو على جهة السبب والموجب، أي الشر والشؤم الذي أصابكم هو منكم ومعكم فإن أسبابه قائمة بكم، كما تقول: شرك منك وشؤمك فيك يراد به العمل وطائرك معك.

وحيث جعل ذلك كله من عنده، فهو لأنه الخالق له المجازي به عدلاً وحكمة، فالطائر يراد به العمل وجزاؤه، فالمضاف إلى العبد العمل، والمضاف إلى الرب الجزاء، فطائركم معكم طائر العمل وطائركم عند الله طائر الجزاء.

فما جاءت به الرسل ليس سبباً لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة الله ورسوله سبباً لمصيبة قط، بل طاعة الله ورسوله لا توجب إلا خيراً في الدنيا والآخرة.

ولكن قد يصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله، كما لحقهم يوم أحد ويوم حنين، وكذلك ما امتحنوا به من الضراء وأذى الكفار لهم، ليس هو بسبب نفس إيمانهم ولا هو موجبه، وإنما امتحنوا به ليخلص ما فيهم من الشر، فامتحنوا بذلك كما يمتحن الذهب بالنار ليخلص من غشه.

والنفوس فيها ما هو من مقتضى طبعها، فالامتحان يمحص المؤمن من ذلك الذي هو من موجبات طبعه، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فطاعة الله ورسوله لا تجلب إلا خيراً ومعصيته لا تجلب إلا شراً.

ولهذا قال سبحانه: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]؛ فإنهم لو فقهوا الحديث لعلموا أنه ليس في الحديث الذي أنزله الله على رسوله ما يوجب شراً البتة، ولعلموا أنه سبب كل خير، ولو فقهوا لعلموا أن العقول والفطر تشهد بأن مصالح المعاش والمعاد متعلقة بما جاء به الرسول، فلو فقهوا القرآن علموا أنه أمرهم بكل خير ونهاهم عن كل شر.

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم حسنه بالعقل، وأنه كله مصلحة ورحمة ومنفعة وإحسان، بخلاف ما يقوله كثير من أهل الكلام الباطل: إنه سبحانه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه، بل يأمرهم بما فيه مضرة لهم، وقول هؤلاء تصديق وتقرير لقول المتطيرين: بالرسل(١).

□ □ □

وقد ذمَّ [الله سبحانه] من لم يفقه كلامه، والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا، تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم(٢).

□ □ □

ومما يوضح الأمر في ذلك أنه سبحانه لما قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، عقب ذلك بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وذلك يتضمن أشياء:

منها: تنبيه أمته على أن رسوله الذي شهد له بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه فما الظن بغيره؟

ومنها: أن حجة الله قد قامت عليهم بإرساله، فإذا أصابهم سبحانه بما يسوؤهم لم يكن ظالماً لهم في ذلك، لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم وما يجلبها لهم، وما فيه مضرتهم وما يجلبها لهم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ومنها: أنه سبحانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات الدالة على صدقه، وأنه رسوله حقاً؛ فلا يضره جحد هؤلاء الجاهلين الظالمين المتطيرين به لرسالته، وهو من شهد له رب السماوات والأرض.

---

(١) شفاء العليل (١٥٩ ـ ١٧٢).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢١٩).

ومنها: أنهم أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتها حجة على إبطال رسالته، فشهد له بالرسالة، وأخبر أن شهادته كافية؛ فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم: إن المصائب من عند الرسول ﷺ، وإثبات أنها من عند أنفسهم بطريق الأولى.

ومنها: ذم من لم يتدبر القرآن، ولم يفقه وأن إعراضه عن تدبره وفقهه يوجب له من الضلال والشقاء بحسب إعراضه.

ومنها: إثبات الأسباب وإبطال قول من ينفيها ولا يرى لها ارتباطاً بمسبباتها.

ومنها: أن الخير كله من الله، والشر كله من النفس؛ فإن الشر هو الذنوب وعقوبتها، والذنوب من النفس وعقوباتها مترتبة عليها؛ والله هو الذي قدر ذلك وقضاه، وكل من عنده قضاء وقدراً وإن كانت نفس العبد سببه، بخلاف الخير والحسنات؛ فإن سببها مجرد فضل الله ومنّه وتوفيقه كما تقدم تقريره.

ومنها: أنه سبحانه لما رد قولهم: إن الحسنة من الله والسيئة من رسوله، وأبطله بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] دفع وهم من توهم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة، ولا هي منها أصلاً بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، وخاطبه بهذا تنبيهاً لغيره كما تقدم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤].

فلما أمره بالقتال أخبره أنه لا يكلف بغيره، بل إنما كلف نفسه، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لئلا يتوهم سامع له، وإن لم يكلف بهم، فإنه يهملهم ويتركهم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

وكل من أعان غيره على أمر بقوله أو فعله فقد صار شفيعاً له.

والشفاعة للمشفوع له، هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعاً في قضائها؛ لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين على خير أو شر بقول أو عمل، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

(١) شفاء العليل (١٥٩ ـ ١٧٢).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٩٠، ٣٩١).

وفي صحيح البخاري[١]: أن بريرة لما عتقت اختارت نفسها، فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيته، فقال لها النبي ﷺ: «لو راجعتيه فإنه أبو ولدك»؛ فقالت: أتأمرني؟ قال: «لا إنما أنا شافع»، قالت: فلا حاجة لي فيه.

فهذه شفاعة من سيد الشفعاء لمحب إلى محبوبه، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله، ولهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين.

وتأمل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة: (يكن له نصيب منها)، وفي السيئة: (يكن لها كفل منها). فإن لفظ «الكفل» يشعر بالحمل والثقل، ولفظ «النصيب» يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وإن كان كل منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

قال الفراء: «أركسهم» ردهم إلى الكفر، وقال أبو عبيدة: يقال: أركست الشيء وركسته ـ لغتان ـ إذا رددته.

والركس: قلب الشيء على رأسه، أو رَدُّ أوله على آخره. والارتكاس: الارتداد.

قال أمية[٣]:

فَأُرْكِسُوا في حَمِيمِ النَّارِ إِنَّهُمُ   كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الإفكَ والزُّورا

ومن هذا يقال للروث: الركس، لأنه رد إلى حال النجاسة، ولهذا المعنى سمي رجيعاً والركس والنكس، والمركوس والمنكوس: بمعنى واحد.

قال الزجاج: أركسهم: نكسهم وردهم. والمعنى: أنه ردهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار.

---

(١) البخاري (٩/٣١٩) في الطلاق، باب: شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة.

(٢) روضة المحبين (٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) أمية بن أبي الصلت، وانظر: تفسير الطبري وتعليق الشيخ الأستاذ محمود شاكر حفظه الله تعالى، على هذا البيت (٩/٧)، المعارف.

وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن إركاسه لهم كان بسبب كسبهم وأعمالهم، كما قال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤].

بعث [ﷺ] سرية إلى إضم، وكان منهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلِّم بن جثَّامة بن قيس، في نفر من المسلمين، فمرَّ بهم عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، معه مُتْبع له ووطب من لبن، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، وحمل عليه محلِّم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتبعه، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر، فنزلت هذه الآية.

فلما قدموا أخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أقتلته بعدما قال آمنت بالله»[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين، ثم أخبر سبحانه عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر أنه فضلهم عليهم درجات.

وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس، من جهة أن القاعدين الذين فُضِّلَ عليهم المجاهدون بدرجات، إن كانوا هم القاعدين الذين فُضِّلَ عليهم أولو الضرر، فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقاً. وعلى هذا فما وجه استثناء أولي الضرر من القاعدين، وهم لا يستوون والمجاهدون أصلاً؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحداً.

---

(١) شفاء العليل (١٠١).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٦٣).

فهذا وجه الإشكال.

ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله. فنقول:

اختلف القراء في إعراب «غير»؛ فقرئ رفعاً ونصباً وهما في السبعة، وقرئ بالجر في غير السبعة. وهي قراءة أبي حيوة[1].

١ ـ فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء، لأن «غير» يعرب في الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد «إلا» وهو النصب. هذا هو الصحيح.

وقالت طائفة: إعرابها نصب على الحال، أي: لا يستوي القاعدون غير مضرورين، أي لا يستوون في حال صحتهم هم والمجاهدون.

والاستثناء أصح، فإن «غير» لا تكاد تقع حالاً في كلامهم إلا مضافة إلى نكرة، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله ﷻ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله ﷺ: «مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى»[2].

فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها. كقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ولو قلت: مرحباً بالوفد غير الخزايا ولا الندامى لجررت «غير»، هذا هو المعروف من كلامهم.

والكلام في عدم تعريف «غير» بالإضافة، وحسن وقوعها إذ ذاك حالاً له مقام آخر.

٢ ـ وأما بالرفع: فعلى النعت للقاعدين. هذا هو الصحيح.

وقال أبو إسحاق وغيره: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره: الذين هم غير أولي الضرر.

والذي حمله على هذا: ظنه أن «غير» لا يقبل التعريف بالإضافة، فلا تجري صفة للمعرفة. وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها، سوى أن «غير» توغلت في الإبهام، فلا تتعرف بما يضاف إليه.

وجواب هذا: أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه.

٣ ـ وأما قراءة الجر: ففيها وجهان أيضاً.

---

(١) انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد (٢٣٧).

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس ﵄ (١/١٥٧) في الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان.

أحدهما: ـ وهو الصحيح ـ أنه نعت للمؤمنين.

والثاني: ـ وهو قول المبرد ـ: إنه بدل منه. بناء على أنه نكرة. فلا ينعت به المعرفة.

وعلى الأقوال كلها: فهو مفهم معنى الاستثناء، وأن نفي التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه «غير».

وقوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو مبين لمعنى نفي المساواة.

قالوا: والمعنى: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر درجة واحدة؛ لامتيازهم عنهم بالجهاد بنفسهم ومالهم. ثم أخبر سبحانه أن الفريقين كليهما موعود بالحسنى، فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي المجاهد والقاعد المضرور لاشتراكهم في الإيمان.

قالوا: فهذا حكم القاعد من أولي الضرر والمجاهد.

وأما القاعد من غير أولي الضرر: فقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾، قيل: هو نصب على البدل من قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقيل: تأكيد له، وإن كان بغير لفظه؛ لأنه هو هو في المعنى.

قال قتادة: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة.

وقال ابن زيد: الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع: وهي التي ذكرها الله في براءة، إذ يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] فهذه خمس.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١] فهاتان اثنتان.

وقيل: الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين حُضْر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة.

والصحيح: أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري(١) في صحيحه عن النبي ﷺ: أنه قال: «من آمن بالله ورسوله، وأقام

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: (٦/ ١٤). في الجهاد، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله.

الصلاة، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله، أفلا تخبر الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

قالوا: وجعل ﷺ التفضيل الأول بدرجة فقط، وجعل هاهنا بدرجات، ومغفرة ورحمة. وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولي الضرر.

فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

أراد بالحيلة التحيل على التخلص من بين الكفار، وهذه حيلة محمودة يثاب عليها، وكذلك الحيلة على هزيمة الكفار، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق، أو على تخليص ماله منهم كما فعل الحجاج بن علاط بامرأته[٢]، وكذلك الحيلة على قتل رأس من رؤوس أعداء الله، كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحقيق اليهودي[٣]، وكعب بن الأشرف[٤]، وأبا رافع[٥] وغيرهم، فكل هذه حيل محمودة محبوبة لله ومرضية له[٦].

* * *

---

(١) طريق الهجرتين (٣٣٣ ـ ٣٣٦).

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ١٣٨)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٤٦٦)، وأبو يعلى (٦/ ١٩٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٢٠)، وابن هشام في السيرة (٣/ ٢٩٣)، والبزار (٢/ ٣٤٠). والحديث صححه الهيثمي كما في مجمع الزوائد (٦/ ١٥٤)، وانظر: الإصابة لابن حجر (٢/ ٢١٤).

(٣) هو سلام بن أبي الحقيق، أبو رافع، وهو ممن حزَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ. الطبقات لابن سعد (٢/ ٩١)، وابن هشام في السيرة (٣/ ٢١٨ ـ ٢٢٠).

(٤) هو كعب بن الأشرف، اليهودي، الذي آذى الله ورسوله ﷺ، فقال ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله...» الحديث. رواه البخاري (٧/ ٣٩٠، ٣٩١) في المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، ومسلم (٤/ ٤٤٤) في الجهاد، باب قتل كعب بن الأشرف، والطبقات لابن سعد (٢/ ٣٢)، والسيرة لابن هشام (٣/ ١٢).

(٥) أبو رافع، هو ابن أبي الحقيق، انظر: هامش رقم (٣) في هذه الصفحة.

(٦) إعلام الموقعين (٣/ ٣٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته.

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فمغايظة الكفار غاية محمودة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية، وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال[(١)]: «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان»، وفي رواية: «ترغيماً للشيطان»، وسماها: «المرغمتين».

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة.

ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله ﷻ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأولى.

وبالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [النساء: ١٠٨].

فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتون من القول، المتضمن البهت، ورمي البريء،

(١) صحيح مسلم (٥٧١).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وشهادة الزور، وبراءة الجاني، فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها، مع أن ذلك كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أن ما شاء الله كان وما لم يشأ فلا يكون. ولم يخالف في ذلك إلا القدرية المجوسية، الذين يقولون: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه ديناً، مع محبته لوقوعه: مما ينبغي أن يصان كلام الله عنه. إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له، ولكن لا يثاب فاعله عليه، فهو محبوب لمشيئته، غير مثاب عليه شرعاً.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدراً وشرعاً، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه؛ فإنه يخلق ما يحب وما يكره[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب، فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن.

قال ابن عباس: هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه.

قال مجاهد: هي القرآن، والعلم والفقه، وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والعمل.

وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله، كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة، كذلك قال الشافعي، وغيره من الأئمة. وقيل: هي القضاء بالوحي، وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٥٣).

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان.

«والحكمة» حكمتان: علمية وعملية.

فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً.

والعملية كما قال صاحب المنازل: «هي وضع الشيء في موضعه»، قال: وهي على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه.

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث، بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها، فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها، فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض. وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد. وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله. وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس: إخلال بالحكمة. وتعدي الحد المحتاج إليه: خروج عنها أيضاً. وتعجيل ذلك قبل وقته: إخلال بها. وتأخيره عن وقته: إخلال بها.

فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي. والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه. فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل كالمرأة له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأكملهم أولو العزم.

وأكملهم محمد ﷺ، ولهذا امتن الله ﷻ عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. فكل نظام الوجود

مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود وفي العبد فسببه: الإخلال بها.

فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منهم ميراثاً، ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة. وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة. فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول، والله أعلم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠].

قال الضحاك: «مفروضاً، أي: معلوماً».

وقال الزجاج: «أي: نصيباً افترضته على نفسي».

قال الفراء: «يعني: ما جعل له عليه السبيل من الناس، فهو كالمفروض».

قلت: حقيقة الفرض هو التقدير. والمعنى: أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾، يعني: عن الحق ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، قال ابن عباس: «يريد تعويق التوبة وتأخيرها».

وقال الكلبي: «أمنِّيهم أنه لا جنة، ولا نار ولا بعث».

وقال الزجاج: «أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة».

وقيل: لأمنينهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع.

وقيل: أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا، فأطيل لهم الأمل ليؤثروا على الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٨ ـ ٤٨٠).

البتك: القطع، وهو في هذا الموضع: قطع آذان البحيرة عند جميع المفسرين، ومن ههنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق، ورخص بعضهم في ذلك للأنثى دون الذكر، لحاجتها إلى الحلية، واحتجوا بحديث أم زرع، وفيه: «أناس من حلي أذني».

وقال النبي ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»، ونص أحمد رحمه الله على جواز ذلك في حق البنت وكراهته في حق الصبي.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عباس: «يريد دين الله»، وهو قول إبراهيم، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وقتادة، والسدي، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير.

ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة، وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

ولهذا قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها»؟ ثم قرأ أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. متفق عليه(١).

فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما: فطرة الله بالكفر، وهو تغير الخلقة التي خلقوا عليها، وغَيَّرَ الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والجدع، فهذا تغيير فطرة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾، فوعده: ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول وستكون لك كما كانت لغيرك، ويطوِّل أمله، ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه، ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها.

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨)..

والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل، ويمنِّي المحال، والنفس المهينة التي لا قَدْر لها تغتذي بوعده وتمنيته، كما قال القائل:

منًى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته، فإن الشيطان يمنِّي أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مبطل فله نصيب من قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قال زياد بن الربيع: قلت لأُبي بن كعب: آية من كتاب الله قد أحزنتني، قال: وما هي؟ قلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر.

وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة، هذه معاقبة الله تعالى لعبده، بما يصيبه من الحمى والبلية، والشوكة، وانقطاع شسعه، حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع لها فيجدها في أضبته، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام وأنه لا شيء أحسن منه، بأنه يتضمن إسلام الوجه لله، وهو إخلاص القصد والتوجه، والعمل له سبحانه. والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله، بل هو مخلص لربه محسن في عبادته، بما يحبه ويرضاه، وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده، وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته، وهذا احتجاج

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٥ ـ ١٠٧). (٢) عدة الصابرين (٩٧).

منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان؛ بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد، بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد، عدواً كان أو وليّاً، وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب، إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره.

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله، مُنافٍ لما بعث به رسوله.

والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولعباده.

وأولئك هم الوارثون حقاً.

لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له، يعادي من خالفه، ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد؟ وهو في هذا الباب أعظم فرضاً، وأكبر وجوباً؟.

ثم قال: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ الشاهد هو المخبر، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور.

وأمر تعالى أن يكون شهيداً له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط، وأن تكون لله لا لغيره.

□ □ □

وقال في الآية الأخرى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]؛ فتضمنت الآيتان أموراً أربعة:

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٧).

أحدها: القيام بالقسط.

الثاني: أن يكون لله.

الثالث: الشهادة بالقسط.

الرابع: أن تكون لله.

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله، وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن، ليس هذا موضع ذكره.

□ □ □

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد، فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله، وأقاربه الذين هم أخص به، والصديق من سائر الناس، فإن كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقاربه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم، فإنه لا يقوم به في هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما.

وهذا يمتحن به العبد إيمانه، فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق.

كما قال بعض السلف: «العَادلُ هو الَّذي إذا غضب لم يُدْخِلْهُ غَضَبُه في بَاطِلٍ، وَإذا رَضِي لَم يُخْرِجْهُ عَن الْحَقِّ».

اشتملت الآيتان على هذين الحكمين: وهما القيام بالقسط، والشهادة به، على الأولياء والأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم، هو ربهما ومولاهما وهما عبيده، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه، ولا فقيراً لفقره، فإن الله أولى بهما منكم.

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط، وأداء الشهادة على الغني والفقير.

أما الغني فخوفاً على ماله، وأما الفقير فلإعدامه وأنه لا شيء له؛ فتتساهل

النفوس في القيام عليه بالحق. فقيل لهم: الله أولى بالغني والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غني ولا فقير.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾.

نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله، وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا، أو حذر أن تعدلوا، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه. وعلى قول الكوفيين التقدير: أن لا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق، محذراً منهما ومتوعداً عليهما.

أحدهما: اللَّي.

والآخر: الإعراض.

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها، فكان شيطاناً أخرس، وتارة يلويها ويحرفها.

اللّي مثال الفتل وهو التحريف.

وهو نوعان: لَيٌّ في اللفظ، ولَيٌّ في المعنى.

- فاللّي في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق، إما بزيادة لفظة، أو نقصانها، أو إبدالها بغيرها.

- ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ، فهذا أحد نوعي اللي.

- والنوع الثاني منه: لَيُّ المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم، وبجهالة ما لم يرده، أو يسقط منه لبعض المراد به، ونحو هذا من لي المعاني، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها، كان الإعراض نظير الكتمان.

واللّي نظير تغييرها وتبديلها.

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود: أن الواجب الذي لا يتم الإيمان ـ بل لا يحصل مسمى الإيمان ـ إلا

به. مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوى الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

قيل: بالحجة والبرهان، فإن حجتهم داحضة عند ربهم، وقيل: هذا في الآخرة وأما في الدنيا فقد يتسلطون عليهم بالضرر لهم، والأذى، وقيل: لا يجعل لهم عليهم سبيلاً مستقرة، بل وإن نصروا عليهم في وقت، فإن الدائرة تكون عليهم، ويستقر النصر لأتباع الرسول ﷺ(١).

فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسببوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى يجعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطاً وقهراً، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه(٢).

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، ويجيب آخرون: بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الحجة.

والتحقيق: أن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى.

فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور، مكفيٌّ، مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهراً وباطناً.

وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٣٩٣ ـ ١٣٩٤). (٢) إغاثة اللهفان (١/١٠١).

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جند من جنود الله، يحفظهم بها، ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره، ولم تكن موافقة لأمره[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

تجد ضمن هذا الخطاب: أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده بغير جرم، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكذب والحسبان الباطل علواً كبيراً، فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [النساء: ١٥٥].

أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد ما علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ حتى صارت غلفاً.

والغلف: جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، وكل شيء في غلافه فهو أغلف وجمعه: غلف، يقال: سيف أغلف وفرس غلفاء ورجل أغلف إذا لم يختتن.

والمعنى: قلوبنا علينا غشاوة وغطاء؛ فلا تفقه ما تقول يا محمد ﷺ، ولم تع شيئاً[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٨٢، ١٨٣). (٢) عدة الصابرين (٢٨٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (١٠٨).

ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٨].

وقد اختلف في معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾، فقيل: المعنى: ولكن شبه للذين صلبوه بأن ألقي شبهه على غيره فصلبوا الشبه، وقيل: المعنى: ولكن شبه للنصارى؛ أي: حصلت لهم الشبهة في أمره، وليس لهم علم بأنه ما قتل وما صلب، ولكن لما قال أعداؤه: إنهم قتلوه وصلبوه واتفق رفعه من الأرض وقعت الشبهة في أمره، وصدقهم النصارى في صلبه لتتم الشناعة عليهم، وكيف ما كان، فالمسيح صلوات الله وسلامه عليه لم يُقتل ولم يصلب يقيناً لا شك فيه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

فأي شيء أصرح من هذا؟ حيث أخبر سبحانه أنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه؛ فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم.

وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم؛ فهذا تحريم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة، فإنه تحريم صيانة وحماية[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

الآية صريحة في أن المراد بها تكليم أخص من الإيحاء، فإنه ذكر أنه أوحى إلى نوح والنبيين من بعده، وهذا الوحي هو التكليم العام المشترك، ثم خص موسى باسم خاص وفعل خاص وهو كلم تكليماً، ورفع توهم إرادة التكليم العام عن الفعل بتأكيده بالمصدر، وهذا يدل على اختصاص موسى بهذا التكليم، ولو كان المراد تكليماً ما، لكان مساوياً لما تقدم من الوحي أو دونه وهو باطل.

---

(١) هداية الحيارى (٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (٣٣٧).

وأيضاً فإن التأكيد في مثل هذا السياق صريح في التعظيم وتثبيت حقيقة الكلام والتكليم؛ فعلاً ومصدراً، ووصفه بما يشعر بالتقليل مضاد للسياق، فتأمله.

وأيضاً فإن الله سبحانه قال لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]؛ فلو كان التكليم الذي حصل له تكليماً ما، كان مشاركاً لسائر الأنبياء فيه، فلم يكن لتخصيصه بالكلام معنى.

وأيضاً فإن وصف المصدر ههنا مؤذن بقلته، وإن نوعاً من أنواع التكليم حصل له؛ وهذا محال ههنا فإن الإلهام تكليم ما، ولهذا سمَّاه الله تعالى وحياً، والوحي تكليم ما فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] ونظائره.

وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه.

فكل هذه الأنواع تسمى تكليماً ما.

وقد كلم الله سبحانه موسى واصطفاه على البشر بكلامه له.

وأيضاً، فإن الله سبحانه حيث ذكر موسى ذكر تكليمه له باسم التكليم الخاص دون الاسم العام، كقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ بل ذكر تكليمه له بأخص من ذلك، وهو تكليم خاص كقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، فناداه وناجاه والنداء والنجاء أخص من التكليم لأنه تكليم خاص، فالنداء تكليم من البعد يسمعه المنادي، والنجاء تكليم من القرب(١).

❀ ❀ ❀

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٨٠).

سُورَةُ المَائِدَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضاً، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأما ما بينه وبين الخلق: من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم، وصحبته لهم، تعاوناً على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى، اللذان هما جماع الدين كله، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر، إما تضمناً، وإما لزوماً، ودخوله فيه تضمناً أظهر؛ لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى، فإنه جزء مسمى البر. وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر.

ونظير هذا: لفظ «الإيمان والإسلام»، و«الإيمان والعمل الصالح»، و«الفقير والمسكين»، و«الفسوق والعصيان»، و«المنكر والفاحشة»، ونظائره كثيرة.

وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة، أشكلت على طوائف كثيرة من الناس.

ولنذكر من هذا مثالاً واحداً يستدل به على غيره، وهو البر والتقوى.

فإن حقيقة البر: هو الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام.

ومنه «البُرُّ» بالضم لمنافعه وخيره، بالإضافة إلى سائر الحبوب.

ومنه رجل بار، وبر، وكرام بررة، والأبرار.

فالبر: كلمة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد، وفي مقابلته الإثم. وفي حديث النواس بن سمعان: أن النبي ﷺ قال له: «جِئْتَ تَسألُ عَنِ البِر وَالإِثْم»[(١)].

فالإثم: كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يذم العبد عليها.

فيدخل في مسمى البر: الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى. وأكثر ما يعبر عن بر القلب، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته، وسلامته، وانشراحه وقوته، وفرحه بالإيمان. فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب، فمن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه. وهو من القسم الذي قال الله ﷻ فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهؤلاء ـ على أصح القولين ـ مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقة.

وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ـ إلى قوله ـ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها.

وأنه الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة.

وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأما «التقوى» فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به؛ إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده، ويترك ما نهى الله عنه؛ إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده.

---

(١) هذا اللفظ من حديث «وابصة بن معبد» رضي الله عنه، أخرجه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/ ٢٢٧، ٢٢٨)، والدارمي (٢/ ١٦١) برقم (٢٥٣٣)، وأما حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الذي أراده ابن القيم، فرواه مسلم (٢٥٥٣) بلفظ: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر، وكرهت أن يطلع عليه الناس).

كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله».

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

فإن كل عمل لا بد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب.

ولهذا كثيراً ما يُقْرَنُ بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَان إيماناً واحتساباً»، و«ومَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْر إيمَاناً وَاحْتِساباً»[1]، ونظائره.

فقوله: «على نور من الله» إشارة إلى الأصل الأول: وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه.

وقوله: «ترجو ثواب الله» إشارة إلى الأصل الثاني: وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل، ولها يقصد به.

ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البر داخل في هذا المسمى.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾. فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإن البر مطلوب لذاته؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم.

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه، ولفظها يدل على هذا. فإنها فُعْلَى، ومن وقى يقي، وكان أصلها «وَقْوى»، فقلبوا الواو تاء، كما قالوا: تُراث من الوراثة، وتُجاه من الوجه، وتُخمة من الوخمة، ونظائرها. فلفظها دال على أنها من الوقاية، فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضرر، فالتقوى والبر كالعافية والصحة.

وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظ القرآن ودلالته، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، فإنه هو العلم النافع.

---

(١) رواه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠).

وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله.

فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين.

إحداهما: أن يُدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ، فيساوي بين ما فرق الله بينهما.

والثانية: أن يخرج من مسمىٰ بعض أفراده الداخلة تحته، فيسلب عنه حكمه، فيفرق بين ما جمع الله بينهما.

والذكي الفطن يتفطن لإفراد هذه القاعدة وأمثالها، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع.

وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم.

والمقصود: أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم: هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملاً.

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه، فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائماً بعضه ببعضه، معيناً بعضه لبعضه.

□ □ □

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

و﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ في جانب النهي نظير: ﴿ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ في جانب الأمر.

والفرق بين الإثم والعدوان، كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القَدْرِ.

فالإثم: ما كان حراماً لجنسه.

والعدوان: ما حرم لزيادة في قدره وتعدي ما أباح الله منه.

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها: إثم.

ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه: عدوان.

فالعدوان: هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال في موضع آخر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]. فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية، وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه فتكون لها حكم المقابلة، فالاعتبار الأول نهي عن تعديها، وبالاعتبار الثاني نهي عن قربانها.

□ □ □

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس: وهو أن تكون مخالطته لهم تعاوناً على البر والتقوى، علماً وعملاً.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى: فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾.

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الحق.

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلّا بعزل الخلق من البين، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين، إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملاً، وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدَّس الله روحه: «كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فرطاً»(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام؛ إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به المقيمون له. وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمة حقاً، وهم قابلوها.

وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم.

وفي إتمام النعمة بـ«على» المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء بـ«أتممت» في مقابلة (أكملت)، و«عليكم» في مقابلة «لكم»، و«نعمتي» في مقابلة (دينكم)، وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله: (ورضيت لكم الإسلام ديناً).

---

(١) الرسالة التبوكية (١٢ ـ ٢٣).

وكان بعض السلف يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً[(١)].

والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة ونعمة مقيدة.

فالنعمة المطلقة: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام والسنة. وهي التي أمرنا الله ﷻ أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط أهلها، ومن خصهم بها، وجعلهم أهل الرفيق الأعلى، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة، وأصحابها أيضاً هم المعنيون بقول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، فأضاف الدين إليهم، إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم.

والدين تارة يضاف إلى العبد، وتارة يضاف إلى الرب، فيقال: الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه، ولهذا يقال في الدعاء: اللهم انصر دينك الذي أنزلت من السماء.

ونسب الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة، مع إضافتها إليه؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم. وهم محل محض النعمة قابلين لها. ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين: «واجعلهم مثنين بها عليك، قابليها، وأتممها عليهم»[(٢)]، وأما الدين فلما كانوا هم القائمين به، الفاعلين له بتوفيق ربهم نسبه إليهم، فقال: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، وكان الإكمال في جانب الدين والإتمام في جانب النعمة.

واللفظتان ـ وإن تقاربتا وتواخيتا ـ فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل. فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني، ويطلق على الأعيان والذوات، ولكن باعتبار صفاتها وخواصها، كما قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد»[(٣)]، وقال

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٢٤).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٥٤٣، ٥٤٤) في أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ . . .﴾ الآية.

(٣) مسلم (٥/ ٢٩٠) في فضائل الصحابة، باب: من فضائل خديجة أم المؤمنين.

أقول: ليس في الحديث ذكر خديجة رضي الله عنها، انظر: البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) [الشامي].

عمر بن عبد العزيز: «إن للإيمان حدوداً وفرائض، وسنناً وشرائع، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان».

وأما الإتمام فيكون في الإيمان والمعاني، ونعم الله أعيان وأوصاف ومعان.

وأما دينه فهو شرعه المتضمن لأمره ونهيه ومحابه. فكانت هبة الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة أحسن، كما كانت إضافة الدين إليهم والنعمة إليه أحسن.

والمقصود: أن هذه النعمة هي النعمة المطلقة: وهي التي اختصت بالمؤمنين. وإذا قيل: ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح.

والنعمة الثانية: النعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسطة الجاه، وكثرة الولد والزوجة الحسنة، وأمثال هذه. فهذه النعمة مشتركة بين البر والفاجر، والمؤمن والكافر وإذا قيل: لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار، فهو حق.

فلا يصح إطلاق السلب والإيجاب إلا على وجه واحد، وهو أن النعمة المقيدة لما كانت استدراجاً للكافر، ومآلها إلى العذاب والشقاء، فكأنها لم تكن نعمة، وإنما كانت بلية، كما سماها الله تعالى في كتابه كذلك. فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧]؛ أي: ليس كل من أكرمته في الدنيا ونعمته فيها فقد أنعمت عليه، وإنما كان ذلك ابتلاء مني له واختباراً، ولا كل من قدرت عليه رزقه فجعلته بقدر حاجته بقدر فضله أكون قد أهنته، بل أبتلي عبدي بالنعم كما أبتليه بالمصائب.

فإن قيل: كيف يلتئم هذا المعنى ويتفق مع قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ فأثبت له الإكرام، ثم أنكر عليه قوله: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾، وقال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس ذلك إكراماً مني هو ابتلاء، فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه.

قيل: الإكرام المثبت غير الإكرام المنفي، وهما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة، فليس هذا الإكرام المقيد بموجب لصاحبه أن يكون من أهل الإكرام المطلق.

وكذلك: أيضاً إذا قيل: إن الله أنعم على الكافر نعمة مطلقة، ولكنه رد نعمة الله وبدّلها. فهو بمنزلة من أعطي مالاً ليعيش به فرماه في البحر، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فهدايته إياهم نعمة منه عليهم ، فبدلوا نعمة الله، وآثروا عليها الضلال.

فهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر نعمة أم لا؟.[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦].

وأما تقديم غسل الوجه ثم اليد ثم مسح الرأس ثم الرجلين في الوضوء، فمن يقول: إن هذا الترتيب واجب وهو الشافعي وأحمد ومن وافقهما، فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوباً لقرائن عديدة:

أحدها: أنه أدخل ممسوحاً بين مغسولين وقطع النظير عن نظيره. ولو أريد الجمع المطلق لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم والممسوح بعدها، فلما عدل إلى ذلك دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله.

الثاني: أن هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد مأمور به وهو الوضوء؛ فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض، والفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب، إذ هو الربط المذكور في الآية. ولا يلزمه كونها لا تفيد الترتيب بين أفعال لا ارتباط بينهما نحو: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النور: ٥٦]، أن لا تفيده بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض، فتأمل هذا الموضع ولطفه، وهذا أحد الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب؛ وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه، وهو قول «ابن أبي موسى» من أصحاب أحمد، ولعله أرجح الأقوال.

الثالث: أن لبداءة الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة، فيجب مراعاتها وأن لا تلغى وتهدر فيهدر ما اعتبره الله ويؤخر ما قدمه الله؛ وقد أشار النبي ﷺ إلى أن ما قدمه الله فإنه ينبغي تقديمه ولا يؤخر، بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخَّره الله، فلما طاف بين الصفا والمروة بدأ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»[(٢)].

وفي رواية النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به» على الأمر، فتأمل بداءته بالصفا معللاً ذلك بكون الله بدأ به فلا ينبغي تأخيره.

وهكذا يقول المرتبون للوضوء سواء: نحن نبدأ بما بدأ الله به، ولا يجوز تأخير

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١ ـ ٣). (٢) رواه مسلم (١٢١٨).

ما قدمه الله ويتعين البداءة بما بدأ الله به، وهذا هو الصواب؛ لمواظبة المبين عن الله مراده ﷺ على الوضوء المرتب، فاتفق جميع من نقل عنه وضوءه كلهم عن إيقاعه مرتباً، ولم ينقل عنه أحد قط أنه أخل بالترتيب مرة واحدة، فلو كان الوضوء المنكوس مشروعاً لفعله، ولو في عمره مرة ليبين جوازه لأمته، وهذا بحمد الله واضح(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [**المائدة**: ٦].

فألحقت الأمة أنواع الحدث الأصغر على اختلافها في نقضها بالغائط.

والآية لم تنص من أنواع الأصغر إلا عليه، أو على اللمس أو على قول من فسره بما دون الجماع، وألحقت الاحتلام بملامسة النساء، وألحقت واجد ثمن الماء بواجده، وألحقت من خاف على نفسه أو بهائمه من العطش إذا توضأ بالعادم، فجوزت له التيمم وهو واجد للماء، وألحقت من خشي المرض من شدة برد الماء بالمريض في العدول عنه إلى البدل.

وإدخال هذه الأحكام وأمثالها في العمومات المعنوية التي لا يستريب من له فهم عن الله ورسوله في قصد عمومها، وتعليق الحكم به، وكونه متعلقاً بمصلحة العبد، أولى من إدخالها في عمومات لفظية بعيدة التناول لها(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [**المائدة**: ٨].

فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى، ولعله لا يدري أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه؛ علماً وعملاً ودعوة إلى الله على بصيرة وصبراً من قومهم على الأذى في الله وإقامة الحجة لله، ومعذرة لمن خالفهم بالجهل، لا كمن نصب معالمه صادرة عن

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٩، ٧٠).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٨).

آراء الرجال، فدعا إليها وعاقب عليها وعادى من خالفها بالعصبية وحمية الجاهلية. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

والقسوة: الشدة والصلابة في كل شيء. يقال: حجر قاس وأرض قاسية لا تنبت شيئاً.

قال ابن عباس: قاسية عن الإيمان.

وقال الحسن: طبع عليها.

والقلوب ثلاثة: قلب قاس وهو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورة الحق ولا تنطبع فيه. وضده القلب اللين المتماسك، وهو السليم من المرض الذي يقبل صورة الحق بلينه ويحفظه بتماسكه، بخلاف المريض الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه لميعانه ورخاوته كالمائع الذي إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين، ولكن رخاوته تمنعه من حفظها.

فخير القلوب القلب الصلب الصافي اللين؛ فهو يرى الحق بصفائه ويقبله بلينه، ويحفظه بصلابته، وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»[(٢)(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قيل: هي سبل تجمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي سبل شعب الإيمان وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبيل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا[(٤)]!.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٥، ١٦٦).

(٢) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٩١): «أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (المنتقى منه)، . . .، وإسناده قوي، رجاله كلهم ثقات أثبات غير بقية، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء. . . وهو هنا قد صرح بالتحديث. . .».

(٣) شفاء العليل (١٠٥، ١٠٦).

(٤) حادي الأرواح (٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ **إلى قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

(ومن تلاعب الشيطان باليهود): أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب ونصرهم وآواهم وأعزهم، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين.

ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم، وفي ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون، ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم. فأبوا طاعته وامتثال أمره، وقابلوا هذا الأمر والبشارة، بقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

وتأمل: تلطف نبي الله تعالى موسى عليه السلام بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره، ولم يمتثلوا: انقلبوا خاسرين. فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة، فقابلوه أقبح المقابلة، فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، فلم يوقروا رسول الله وكليمه، حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله. وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارين ـ الذين نواصيهم بيد الله ـ أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع عن الطاعة. فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾، فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدور الجملة بحرف تأكيد، وهو «إنَّ»، ثم حققوا النفي بأداة «لن» الدالة على نفي المستقبل، أي: لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل.

ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها فـ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون الله. هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

وقيل: من الذين يخافون من الجبارين، أسلما واتبعا موسى عليه السلام: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾؛ أي: باب القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد ملئوا منكم رعباً ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾، ثم أرشداهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل.

فكان جواب القوم أن: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

فسبحان من عظم حلمه؛ حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه، وكان أقصى ما عاقبهم به: أن ردهم في برية التيه أربعين عاماً يظلل عليهم الغمام من الحر، وينزل عليهم المن والسلوى.

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال[١]: «لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا فقاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك ومن خلفك. فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه لذلك، وسُرّ به.

فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[٢]».

قال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ قال: أراد الطول والقوة والعظم. ذهب في هذا إلى الجبار من النخل والطويل الذي فات الأيدي. ويقال: رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً بالجبار من النخل، قال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم.

وقيل: الجبار ههنا من جبره على الأمر إذا أكرهه عليه.

قال الأزهري وهي لغة معروفة وكثير من الحجازيين يقولونها[٣].

---

(١) هو في صحيح البخاري (٧/ ٣٣٥) في المغازي، باب: قصة غزوة بدر... وأخرجه في التفسير (٨/ ١٢٢).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٣١٢، ٣١٤). (٣) شفاء العليل (١٢١).

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فجعل التوكل شرطاً في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه، على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه، علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقال: معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾... ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله، أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه.

كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته، فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق وتعوضت بالباطل عن كلام الله

---

(١) طريق الهجرتين (٢٣٧، ٢٣٨). (٢) مفتاح دار السعادة (٩٠).
(٣) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٢١، ٢٢٢).

تعالى ورسوله، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله»، فالقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة، ولا يصح أن تفسر الإرادة ههنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة، ولم يرده منهم كوناً، فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير[1] في القدر.

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه، فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه، ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالجنة لا يدخلها خبيث ولا من فيه شيء من الخبث.

فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط، حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهذبون وينقون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، والله سبحانه

(١) هو كتابه النفيس «شفاء العليل...»، وهو مطبوع.

بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر.

فهما طهارتان: طهارة البدن وطهارة القلب، ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه(١): «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»؛ فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [**المائدة**: ٤٤ ـ ٤٧].

فأكد هذا التأكيد، وقرر هذا التقرير في موضع واحد؛ لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله، وعموم مضرته وبلية الأمة به(٣).

وقال رحمه الله تعالى: قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر. وكذلك قال طاوس وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح، فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضاً بعيد؛ إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزَل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمداً عن غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاه البغوي(٤) عن العلماء عموماً.

---

(١) حديث صحيح مستقيم الإسناد. كذا قال محدث مصر الشيخ أحمد شاكر رحمه الله. في سنن الترمذي (١/ ٧٩). فانظر: تخريجه هناك مفصلاً فإنه هام ونفيس.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٥٥، ٥٦).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٢٨٨).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٥٧، ٥٨).

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة، والضحاك، وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ، فلا يُصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة؛ فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه حكم الله فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه؛ فهذا مخطئ، له حكم المخطئين[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن عباس: سبيلاً وسنة.

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، فالسبيل الطريق وهي المنهاج، والسنة الشرعة وهي تفاصيل الطريق وحزوناته، وكيفية المسير فيه، وأوقات المسير، وعلى هذا فقوله: سبيلاً وسنة: يكون السبيل المنهاج، والسنة الشرعة فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير، وفي لفظ آخر: سنة وسبيلاً، فيكون المقدم للمقدم والمؤخر للتالي[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

أخبر سبحانه أن كل حكم خالف حكمه الذي أنزله على رسوله فهو من أحكام الهوى، لا من أحكام العقل، وهو من أحكام الجاهلية، لا من حكم الله والهدى.

فأخبر ﷻ: أنه ليس وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى، الذي يضل عن سبيله، وليس وراء حكمه إلا حكم الجاهلية، وكل هذه الآراء والمعقولات المخالفة لما جاء به الرسول، هي من قضايا الهوى وأحكام الجاهلية، وإن سماها أربابها

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٦، ٣٣٧).   (٢) شفاء العليل (٨١، ٨٢).

بالقواطع العقلية، والبراهين اليقينية كتسمية المشركين أوثانهم وأصنامهم آلهة، وتسمية المنافقين السعي في الأرض بالفساد وصد القلوب عن الإيمان إصلاحاً وإحساناً وتوفيقاً(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فقد ذكر لهم أربع علامات:

أحدها: أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قيل: معناه: أرقاء، رحماء مشفقين عليهم. عاطفين عليهم. فلما ضمن ﴿أَذِلَّةٍ﴾ هذا المعنى عداه بأداة «على»؛ قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩](٢).

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم على محبوبه؛ فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه اللوم(٣)

قال: وكذلك وصف أهل المحبة في قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، فوصفهم بست صفات:

أحدها: محبتهم له.

والثانية: محبته لهم.

والثالثة: ذلهم ولينهم على أوليائه.

والرابعة: عزهم وشدتهم على أعدائه.

والخامسة: جهادهم في سبيله.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٦).

(٢) لم يذكر المصنف الثانية، وهي في قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشامي].

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢٢).

والسادسة: احتمالهم لوم الخلق لهم على ذلك، وأنهم ليسوا بمنزلة من يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله، ولا بمنزلة من أظهر من مكروهات الرب تبارك وتعالى، ما يلامون عليه، ويسمون بالمُلامتية؛ إظهاراً منهم لما يلامون عليه في الظاهر، وهم منطوون في الباطن على الصدق والإخلاص ستراً لحالهم عن الناس، فهم فعلوا ذلك لعدم احتمالهم الملام، والأولون احتملوا الملام في ما لا يحبه الله، وأحباء الله فعلوا ما أحبه الله، ولم تأخذهم فيه لومة لائم، فالأقسام ثلاثة:

أحدها: من يصده اللوم عن محاب الله.

والثاني: مَن لا تأخذه في محبة الله لومة لائم.

والثالث: مَن يظهر ما يلام عليه إخفاء لقيامه بمحاب الله.

فالأول مفرط، والثالث مؤمن ضعيف، والوسط هو الوسط الخيار، وهو المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وأعلى ما يحبه الله ورسوله الجهاد في سبيل الله، واللائمون عليه كثير، إذ أكثر النفوس تكرهه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤].

فهذا إما أن يراد به: العداوة التي بين اليهود والنصارى، أو يراد به العداوة التي بين فرقهم، وإن كانوا ملة واحدة، وهذا لا يمنع قبول شهادة بعضهم على بعض، فإنها عداوة دينية، فهي كالعداوة يبن فرق هذه الأمة وإلباسهم شيعاً، وإذاقة بعضهم بأس بعض[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

كسر عتبة بن أبي وقاص رباعية النبي ﷺ يوم أحد، قال بعض العلماء[(٣)]

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) الطرق الحكمية (١٩١).

(٣) قائل ذلك: الإمام العلامة «السهيلي» في الروض الأنف (٥/ ٤٧٠). وانظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٥)، والسيرة لابن هشام (٣/ ٤٢).
«الأبخر: النتن في الفم وغيره، والهتم، يقال: هتم فاهُ يهتِمُهُ: ألقى مقدَّم أسنانه»، مستفاد من القاموس المحيط.

بالأخبار: إنه استقرئ نسله فلا يبلغ أحد منهم الحلم إلا أبخر وأهتم، يعرف ذلك فيهم، وهو من شؤم الآباء على الأبناء. واختلف فيما وقع للنبي ﷺ من هذا ونحوه، فقيل: وهو قبل نزول قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقيل: العصمة الموعود بها عصمة النفس من القتل لا عصمته من أذاهم بالكلية، بل أبقى الله تعالى لرسوله ثواب ذلك الأذى، ولأمته حسن التأسي به إذا أوذي أحدهم نظر إلى ما جرى عليه ﷺ فتأسى وصبر، وللمؤذين الأشقياء الأخذة الرابية(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقد تضمنت هذه الحجة دليلين ببطلان إلٰهية المسيح وأمه:

أحدهما: عن القيام بنفسيهما، بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب. والمحتاج إلى غيره لا يكون إلٰهاً؛ إذ من لوازم الإلٰه أن يكون غنياً.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان، من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها، ولهذا، والله أعلم، كنى الله سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة. فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولداً من هذا الجنس؟!

ولو كان يليق به ذلك أو يمكن، لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يُستحيى منها ويرغب عن ذكرها.

فانظر ما تضمنه هذا المعنى العظيم الجليل الذي لا يجد سامعه مغمزاً له، ولا مطعناً فيه، ولا تشكيكاً ولا سؤالاً يورده عليه، بل يأخذ بقلبه وسمعه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فلفظ الخمر عام في كل مسكر، فإخراج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢١١، ٢١٢). (٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨٢، ٤٨٣).

الخمر لها تقصير به، وهضم لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: كل مسكر خمر[١]، وإخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمها لها تقصير أيضاً به، وهضم لمعناه، فما الذي جعل النرد الخالي عن العوض من الميسر، وأخرج الشطرنج عنه مع أنه من أظهر أنواع الميسر، كما قال غير واحد من السلف: إنه ميسر، وقال علي كرم الله وجهه: هو ميسر العجم[٢].

ومن أعظم مكايد الشيطان: ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام، التي هي من عمله، وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك، وعلق الفلاح باجتنابه.

فالأنصاب: كل ما نصب يعبد من دون الله: من حجر، أو شجر أو وثن، أو قبر. وهي جمع، واحدها نصب، كطنب وأطناب.

قال مجاهد وقتادة وابن جريج: كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويُشرِّحُون اللحم عليها، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها. قالوا: وليست بأصنام، إنما الصنم ما يصور وينقش.

وقال ابن عباس: هي الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى.

وقال الزجاج: حجارة كانت لهم يعبدونها، وهي الأوثان.

وقال الفراء: هي الآلهة التي كانت تعبد من أحجار وغيرها.

وأصل اللفظة: الشيء المنصوب الذي يقصده من رآه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

قال ابن عباس: إلى غاية، أو علم يسرعون. وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن: يعني: إلى أنصابهم، أيهم يستلمها أولاً.

قال الزجاج: هذا على قراءة من قرأ «نُصُب» بضمتين[٣]، كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] قال: ومعناه: أصنام لهم.

والمقصود: أن النصب كل شيء نصب من خشبة، أو حجر، أو علم، والإيفاض: الإسراع.

وأما الأزلام، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي قداح كانوا يستقسمون بها الأمور، أي: يطلبون بها علم ما قسم لهم.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٠٣).. (٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٨٢).

(٣) قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: «إلى نُصُب» بضم النون والصاد. وقرأ الباقون: «إلى نَصْب» بفتح النون وسكون الصاد. (القراءات لابن مجاهد: ٦٥١).

وقال سعيد بن جبير: كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو، أو يجلس، استقسم بها.

وقال أيضاً: هي القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم. أحدهما عليه مكتوب: أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي. فإذا أرادوا أمراً ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه أمرني، فعلو ما هَمُّوا به. وإن خرج الذي عليه نهاني تركوه.

وقال أبو عبيد: الاستقسام: طلب القسمة.

وقال المبرد: الاستقسام: أخذ كل واحد قَسْمَه.

وقيل: الاستقسام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح، كقسم اليمين.

وقال الأزهري: وأن تستقسموا بالأزلام: أي تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين.

وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره: الاستقسام بالأزلام حرام. ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: لا نخرج من أجل نجم كذا، وأخْرُج من أجل طلوع نجم كذا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤].

وذلك دخول في علم الله ﷻ الذي هو غيب عنا. فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله تعالى.

والمقصود: أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهن، وطلب علم ما استأثر الله به، هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين الله ﷻ مضاد لهذا وهذا، والذي جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إبطالهما، وكسر الأنصاب والأزلام.

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين: من شجرة أو عمود أو وثن، أو قبر، أو خشبة، أو عين، ونحو ذلك.

والواجب هدم ذلك كله أو محو أثره. كما أمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض. كما روى مسلم (١) في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي. قال: قال لي علي رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».

---

(١) رواه مسلم (٩٦٩).

وعَمّى الصحابة بأمر عمر رضي الله عنه قبر دانيال، وأخفوه عن الناس ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه فقطعها. رواه ابن وضاح[1] في كتابه، فقال: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها. فخاف عليهم الفتنة.

قال عيسى بن يونس: هو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: أن الناس كانوا يأتون الشجرة، فقطعها عمر رضي الله عنه.

فإذا كان هذا فعل عمر رضي الله عنه بالشجرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن، وبايع تحتها الصحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان، التي قد عظمت الفتنة بها، واشتدت البلية بها؟.

وأبلغ من ذلك: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هدم مسجد الضرار[2].

ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه، كالمساجد المبنية على القبور. فإن حكم الإسلام فيها أن تهدم كلها، حتى تسوى بالأرض. وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور، يجب هدمها كلها؛ لأنها أسست على معصية الرسول، لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم. فبناءٌ أُسِّس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً.

وقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بهدم القبور المشرفة كما تقدم. فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى، لأنه لعن متخذي المساجد عليها. ونهى عن البناء عليها، فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فاعله ونهى عنه. والله عز وجل يقيم لدينه وسنَّة رسوله من ينصرهما، ويذُبُّ عنهما فهو أشد غيرة وأسرع تغيراً.

وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سرج على قبر، وطَفْيُه.

---

(١) انظر كتاب: «البدع والنهي عنها» ص(٤٢) لمحمد بن وضاح القرطبي.

(٢) وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ... إلى قوله... لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ...﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].
وانظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٧١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤١٤).

فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا يصح هذا الوقف. ولا يحل إثباته وتنفيذه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

حرم الله سبحانه وتعالى السكر لشيئين ذكرهما [في الآية الكريمة].

فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة. بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه؛ وإلا لم يكن شرطاً له.

إذا ثبت هذا فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، دون الاكتفاء بالفعل الأول، سر لطيف وفائدة جليلة، سنذكرها عن قريب، إن شاء الله تعالى(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

وقد اختلف في هذه الأشياء المسؤول عنها: هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية؟ على قولين:

---

(١) إغاثة اللهفان (٢٠٧ ـ ٢١٠). (٢) روضة المحبين (١٥٢).

(٣) الرسالة التبوكية (٤٥، ٤٦)، وانظر ذلك في تفسيره للآية (٥٩) النساء.

فقيل إنها أحكام شريعة، عفا الله عنها، أي: سكت على تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها، ولو لم يسألوا؛ لكانت عفواً، ومنه قوله ﷺ وقد سئل عن الحج[١]: «أفي كل عام؟ فقال: لو قلت: نعم، لوجبت، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم». ويدل على هذا التأويل حديث أبي ثعلبة المذكور: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً»[٢] الحديث، ومنه الحديث الآخر: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»[٣].

وفسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية؛ كقول عبد الله بن حذافة: من أبي يا رسول الله؟[٤] وقول آخر: أين أبي يا رسول الله؟ قال: «في النار»[٥].

والتحقيق أن الآية تعم النهي عن النوعين، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾؛ أما في أحكام الخلق والقدر، فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما يكرهون مما يسألون عنه، وأما في أحكام التكليف، فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما يشق عليهم تكليفه مما سألوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، فيه قولان:

أحدهما: إن القرآن إذا نزل بها ابتداء بغير سؤال فسألتم عن تفصيلها وعلمها، أبدي لكم، وبين لكم، والمراد بحين النزول زمنه المتصل به لا الوقت المقارن للنزول، وكأن في هذا إذناً لهم في السؤال عن تفصيل المنزَل ومعرفته بعد إنزاله، ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقاً.

والقول الثاني: إنه من باب التهديد والتحذير، أي: ما سألتم عنها في وقت نزول الوحي جاءكم ما سألتم عنه بما يسوؤكم، والمعنى: لا تتعرضوا للسؤال عما يسوؤكم بيانه، وإن تعرضتم له في زمن الوحي أبدي لكم.

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٣) رواه الدارقطني (٤/ ٢٩٧، ٢٩٨)، وفيه «نهشل الخراساني» كذاب. وانظر: (١/ ٦٩) من مشكاة المصابيح.

(٤) رواه البخاري (٩٢)، ومسلم (٢٣٦٠). (٥) رواه مسلم (٢٠٣).

وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾، أي: عن بيانها خبراً وأمراً؛ بل طوى بيانها عنكم رحمة ومغفرة وحلماً والله غفور رحيم، فعلى القول الأول؛ عفا الله عن التكليف بها توسعة عليكم، وعلى القول الثاني؛ عفا الله عن بيانها لئلا يسوءكم بيانها.

وقوله: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾، أراد نوع تلك المسائل لا أعيانها، أي: قد تعرض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل فلما بينت لهم كفروا بها، فاحذروا مشابهتهم، والتعرض لما تعرضوا له، ولم ينقطع حكم هذه الآية؛ بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه، بل يستعفي ما أمكنه ويأخذ بعفو الله.

ومن هاهنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١): يا صاحب الميزاب لا تخبرنا، لما سأله رفيقه عن مائه: أطاهر أم لا؟

وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه، وستره، فلعله يسوؤه إن أبدي له، فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله، فإنه سبحانه يكره إبداءها، ولذلك سكت عنها، والله أعلم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

---

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، ولم يبين صاحب «فقه السنة» وهو ممن استشهد به مصدره، والذي في الموطأ (١/ ٢٣، ٢٤): أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص رضي الله عنه حتى وردوا حوضاً. فقال عمرو بن العاص لصاحب الحوض: يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر بن الخطاب: يا صاحب الحوض، لا تخبرنا، فإنا نرد على السباع وترد علينا. ورواه الدارقطني (١/ ٣٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٤٢)، وذكره النووي في المجموع (١/ ١٧٣، ١٧٤)، وقال: «هذا الأثر إسناده صحيح إلى يحيى بن عبد الرحمن لكنه مرسل منقطع، فإن يحيى وإن كان ثقة فلم يدرك عمر، بل ولد في خلافة عثمان. هذا هو الصواب... إلا أن هذا المرسل له شواهد تقويه...»، وابن قدامة صاحب المغني (١/ ٨٧)، ولم يذكر صاحب كنز العمال إلا هذه الرواية (٣/ ٨٠٤)، وانظر: مشكاة المصابيح، حديث رقم (٤٨٦)، (٩/ ٥٨٢)، والله أعلم.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٠٩ ـ ١١١).

ذكر محمد بن إسحاق[(١)] عن أبي النضر بن باذان ـ مولى أم هانئ ـ عن ابن عباس عن تميم الداري، قال: برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء ـ وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام ـ فأتيا الشام ـ وقدم زيد بن أبي مريم ـ مولى بني سهم ـ ومعه جام من فضة وهو أعظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما، قال تميم: فلما ما أخذنا الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا دفعنا ماله إلى أهله، فسألوا عن الجام؟ فقلنا: ما دفع إلينا غير هذا، فلما أسلمت تأثمت من ذلك، فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، وأديت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به إلى النبي ﷺ، فسألهم البينة فلم يجيبوا، فأحلفهم بما يعظم به على أهل دينهم فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، فحلف عمرو بن العاص وأخو سهم، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء[(٢)].

وروى يحيى بن أبي زائدة[(٣)] عن محمد بن القاسم عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة بالتجارة، فخرج رجل معهم من بني سهم، فتوفي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله، وحبسا جاماً من فضة مُخَوَّصاً بالذهب، فتفقده أولياؤه، فأتوا رسول الله ﷺ فحلفهما: ما كتمنا، ولا أضعنا، ثم عرف الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله: إن هذا لجام السهمي، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين فأخذ الجام، وفيهما نزلت هذه الآية. والقول بهذه الآية هو قول جمهور السلف.

قالت عائشة ﵂: سورة المائدة آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها حلالاً فحللوه، وما وجدتم فيها حراماً فحرموه.

وصح[(٤)] عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: هذا لمن مات وعنده المسلمون،

---

(١) أبو النضر بن باذان، هو محمد بن السائب الكلبي وضاع، ورواه الترمذي (٥/ ٢٤١) في التفسير، حديث رقم (٣٠٥٩)، وقال: حديث غريب وليس إسناده بصحيح... وانظر: الطبري (٧/ ١٠٠)، وابن كثير (٢/ ١٢٠)، والدر المنثور (٣/ ٢٢٠). وانظر: ترجمة (عدي بن بداء) في الإصابة (٦/ ٤٠٠).

(٢) رواه البخاري تعليقاً برقم (٢٧٨٠)، والترمذي برقم (٣٠٥٩)..

(٣) رواه الحاكم (٢/ ٣١١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الطبري (٧/ ١٠٨).

فأمر الله أن يشهد في وصيته عدلين من المسلمين، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، فأمر الله ﷻ أن يشهد رجلين من المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما، استحلفا بعد الصلاة بالله: لا نشتري بشهادتنا ثمناً، وقد تقدم أن أبا موسى حكم بذلك.

وقال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن شرحبيل قال: لم يُنسخ من سورة المائدة شيء.

قال وكيع: عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من أهل الكتاب. وفي رواية صحيحة عنه: من غير أهل ملتكم.

وصح عن شريح قال: لا تجوز شهادة المشركين على المسلمين إلا في الوصية، ولا تجوز في الوصية إلا أن يكون مسافراً.

وصح عن إبراهيم النخعي: من غيركم من غير أهل ملتكم.

وصح عن سعيد بن جبير: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: إذا كان في أرض الشرك، فأوصى إلى رجلين من أهل الكتاب، فإنهما يحلفان بعد العصر، فإن اطلع بعد حلفهما على أنهما خانا، حلف أولياء الميت، أنه كذا وكذا، واستحقوا. وصح عن الشعبي: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، قال: من اليهود والنصارى. وصح ذلك عن مجاهد قال: من غير أهل الملة. وصح عن يحيى مثله، وصح عن ابن سيرين ذلك.

فهؤلاء أئمة المؤمنين: أبو موسى الأشعري، وابن عباس، وروي نحو ذلك عن علي رضي الله عنه، وذكر ذلك أبو محمد بن حزم[1]، وذكره أبو يعلى عن ابن مسعود ولا مخالف لهم من الصحابة.

ومن التابعين: عمرو بن شرحبيل، وشريح، وعبيدة، والنخعي، والشعبي، والسعيدان، وأبو مجلز، وابن سيرين، ويحيى بن يعمر، ومن تابعي التابعين: كسفيان، ويحيى بن حمزة، والأوزاعي.

وبعد هؤلاء: كأبي عبيد، وأحمد بن حنبل، وجمهور فقهاء أهل الحديث، وهو قول جميع أهل الظاهر.

وخالفهم آخرون، ثم اختلفوا في تخريج الآية على ثلاثة طرق:

---

(١) «المحلى» لابن حزم (٩/ ٤٠٥، ٤٠٦).

أحدها: أن المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: من غير قبيلتكم، وروي ذلك عن الحسن، وروي عن الزهري أيضاً.

والثاني: أن الآية منسوخة، وهذا مروي عن زيد بن أسلم وغيره.

والثالث: أن المراد بالشهادة فيها: إيمان الوصي بالله تعالى للورثة لا الشهادة المعروفة.

قال القائلون بها: أما دعوى النسخ فباطلة، فإنه يتضمن أن حكمها باطل، لا يحل العمل به، وأنه ليس من الدين، وهذا ليس بمقبول إلا بحجة صحيحة لا معارض لها، ولا يمكن أحداً قط أن يأتي بنص صحيح صريح متأخر عن هذه الآية مخالف لها، لا يمكن الجمع بينه وبينها، فإن وجد إلى ذلك سبيلاً صح النسخ، وإلا فما معه إلا مجرد الدعوى الباطلة، ثم قد قالت أعلم نساء الصحابة بالقرآن: إنه لا منسوخ في المائدة، وقاله غيرها أيضاً من السلف، وعمل به أصحاب رسول الله ﷺ، بعده. ولو جاز قبول دعوى النسخ بلا حجة لكان كل من احتج عليه بنص يقول: هو منسوخ، وكأن القائل لذلك لم يعلم أن كون النص منسوخاً، أن الله سبحانه حرم العمل به، وأبطل كونه من الدين والشرع ودون هذا مفاوز تنقطع فيها الأعناق.

قالوا: وأما قول من قال: المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير قبيلتكم: فلا يخفى بطلانه وفساده، فإنه ليس في أول الآية خطاب لقبيلة دون قبيلة، بل هو خطاب عام لجميع المؤمنين، فلا يكون غير المؤمنين إلا من الكفار، هذا مما لا شك فيه، والذي قال من غير قبيلتكم: زلة عالم، غفل عن تدبر الآية.

وأما قول من قال: إن المراد بالشهادة أيمان الأوصياء للورثة فباطل من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه قال: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾، ولم يقل: أيمان بينكم.

الثاني: أنه قال: ﴿ٱثْنَانِ﴾، واليمين لا تختص بالاثنين.

الثالث: أنه قال: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، واليمين لا يشترط فيها ذلك.

الرابع: أنه قال: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، واليمين لا يشترط فيها شيء من ذلك.

الخامس: أنه قيد ذلك بالضرب في الأرض، وليس ذلك شرطاً في اليمين.

السادس: أنه قال: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾، وهذا لا يقال في اليمين في هذه الأفعال، بل هو نظير قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

السابع: أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، ولم يقل: بالأيمان.

الثامن: أنه قال: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [المائدة: ١٠٨]، فجعل الأيمان قسيماً للشهادة، وهذا صريح في أنها غيرها.

التاسع: أنه قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ [المائدة: ١٠٧]، فذكر اليمين والشهادة، ولو كانت اليمين على المدعى عليه لما احتاجا إلى ذلك، ولكفاهما القسم: أنهما ما خانا.

العاشر: أن الشاهدين يحلفان بالله ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، ولو كان المراد بها اليمين، لكان المعنى يحلفان بالله لا نكتم اليمين، وهذا لا معنى له البتة، فإن قيل: اليمين لا تكتم؛ فكيف يقال: احلف أنك لا تكتم حلفك؟

الحادي عشر: أن المتعارف من «الشهادة» في القرآن والسنة: إنما هو الشهادة المعروفة، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، ونظائره.

فإن قيل: قد سمى الله أيمان اللعان شهادة في قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٦] وقال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٨].

قيل: إنما سمى أيمان الزوج شهادة؛ لأنها قائمة مقام البينة، ولذلك ترجم المرأة إذا نكلت، وسمى أيمانها شهادة، لأنها في مقابلة شهادة الزوج.

وأيضاً: فإن هذه اليمين خصت من بين الأيمان بلفظ: (الشهادة بالله) تأكيداً لشأنها، وتعظيماً لخطرها.

الثاني عشر: أنه قال: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، ومن المعلوم أنه لا يصح أن يكون أيمان بينكم إذا حضر أحدكم الموت، فإن الموصي إنما يحتاج للشاهدين، لا إلى اليمين.

الثالث عشر: أن حكم رسول الله ﷺ الذي حكم به ـ وحكم الصحابة بعده ـ هو تفسير الآية قطعاً، وما عداه باطل، فيجب أن يرغب عنه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

---

(١) الطرق الحكمية (١٩٣ ـ ١٩٧).

فذكر الأمرين[١] ولم يجئ في القرآن سواه، ولا رأيت أحداً تعرض لهذا ولا نبه عليه.

وتحته سر عجيب دال على كمال معرفة المسيح بربه وتعظيمه له؛ فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، فخوفهم بالله وأعلمهم أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه وأن الإيمان يرده. فلما ألحوا في الطلب وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يجابوا إلى ما سألوا؛ بدأ في السؤال باسم (اللهم)[٢] الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصوره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها. وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة، إنما هو أن يثني على الرب بذلك ويمجده به ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته ويكون برهاناً على صدق رسوله فيحصل بذلك من زيادة الإيمان، والثناء على الله أمر يحسن معه الطلب ويكون كالعذر فيه.

فأتى بالاسمين اسم الله الذي يثني عليه به، واسم الرب الذي يدعى ويسأل به، لما كان المقام مقام الأمرين.

فتأمل هذا السر العجيب ولا ينب عنه فهمك؛ فإنه من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه وله الحمد[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾. ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره. فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾، ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه، وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به

(١) أي: الدعاء والثناء معاً.

(٢) راجع في معناها الآية رقم (٢٦) من سورة آل عمران.

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٤).

ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله ﷻ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي: شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإن عذبتهم ـ مع كونهم عبيدك ـ فلولا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ إلا لفرط عتوهم، وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب؟!

وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم؛ فإذا عذبتهم؛ عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه.

فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه.

فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهلة ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ولم يقل: (الغفور الرحيم). وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قال في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم.

فلو قال: (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأشعر باستعطاف ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة

القادر العالم. وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب[1].

وأما قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، فليس المراد به أنك قادر عليهم مالك لهم، وأي مدح في هذا لو قلت لشخص: إن عذبت فلاناً فإنك قادر على ذلك. أي مدح يكون في ذلك؟ بل في ضمن ذلك الإخبار بغاية العدل.

وأنه تعالى إن عذبهم فإنهم عباده؛ أنعم عليهم بإيجادهم وخلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم لا بوسيلة منهم، ولا في مقابلة بذل بذلوه؛ بل ابتدأهم بنعمه وفضله؛ فإذا عذبهم بعد ذلك وهم عبيده؛ لم يعذبهم إلا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم، فإن من أنعم عليهم ابتداء بجلائل النعم كيف يعذبهم بغير استحقاق أعظم النقم.

وفيه أيضاً أمر آخر ألطف من هذا وهو كونهم عباده، يقتضي عبادته وحده، وتعظيمه، وإجلاله، كما يجل العبد سيده، ومالكه الذي لا يصل إليه نفع إلّا على يده، ولا يدفع عنه ضرّاً إلّا هو، فإذا كفروا به أقبح الكفر، وأشركوا به أعظم الشرك، ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، كانوا أحق عباده وأولاهم بالعذاب.

والمعنى: هم عبادك الذين أشركوا بك، وعدلوا بك، وجحدوا حقك فهم عباد مستحقون للعذاب.

وفيه أمر آخر أيضاً لعله ألطف مما قبله وهو: إن تعذبهم فإنهم عبادك، وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه. فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم، وإلا فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متبع لمرضاته؟

فتأمل هذه المعاني، ووازن بينها وبين قول من يقول: إن تعذبهم فأنت الملك القادر، وهم المملوكون المربوبون وإنما تصرفت في ملكك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب[2]!!.

[وأما قوله]: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾. فهذا شرط دخل على ماضي اللفظ

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٧٨، ٣٧٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٤٥، ٤٤٦).

وهو ماضي المعنى قطعاً؛ لأن المسيح إما أن يكون صدر هذا الكلام منه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة.

وعلى التقديرين: فإنما تعلق الشرط وجزاؤه بالماضي.

وغلط على الله من قال: إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه.

والتقدير: إن أكن أقول هذا فإنك تعلمه، وهذا تحريف للآية؛ لأن هذا الجواب إنما صدر من بعد سؤال الله له عن ذلك، والله لم يسأله وهو بين أظهر قومه، ولا اتخذوه وأمه إلٰهين إلا بعد رفعه بمئين من السنين؛ فلا يجوز تحريف كلام الله؛ انتصاراً لقاعدة نحوية هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية.

وقال ابن السراج في أصوله: يجب تأويلها بفعلين مستقبلين تقديرهما: إن ثبت في المستقبل أني قلته في الماضي يثبت أنك علمته، وكل شيء تقدر في الماضي كان ثبوته في المستقبل فيحسن التعليق عليه.

وهذا الجواب أيضاً ضعيف جداً ولا ينبئ عنه اللفظ، وليت شعري ما يصنعون بقول النبي ﷺ: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري وتوبي إليه»!

هل يقول عاقل: إن الشرط هنا مستقبل؟!

أما التأويل الأول: فمنتف هنا قطعاً.

وأما الثاني: فلا يخفى وجه التعسف فيه، وأنه لم يقصد أنه يثبت في المستقبل أنك أذنبت في الماضي فتوبي، ولا قصد هذا المعنى. وإنما المقصود المراد ما دل عليه الكلام: إن كان صدر منك ذنب فيما مضى فاستقبليه بالتوبة، لم يرد إلا هذا الكلام[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٤٥).

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

أي: يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].

تأمل كيف أتت [السماوات] مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلٰهية.

فالمعنى: وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة من السماوات، ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود.

فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد. ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسنِّنة؛ فسَّر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام على السمٰوات، ثم يبتدي بقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ﴾، وغلط في فهم الآية.

وإن معناها ما أخبرتك به، وهو قول محققي أهل التفسير(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢١).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١١٦).

فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم. فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب: العلة الجامعة، والحكم: الهلاك، فهذا محض قياس العلة، وقد أكده سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۞ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

فأخبر سبحانه عن المانع الذي منع من إنزال الملك عياناً بحيث يشاهدونه، وأن حكمته وعنايته بخلقه منعت من ذلك، فإنه لو أنزل الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعقوبة، ولم ينظروا، وأيضاً فإنه جعل الرسول بشراً؛ ليمكنهم التلقي عنه، والرجوع إليه، ولو جعله ملكاً؛ فإما: أن يدعه على هيئة الملائكة أو يجعله على هيئة البشر، والأول يمنعهم من التلقي عنه.

والثاني: لا يحصل مقصودهم؛ إذ كانوا يقولون: هو بشر لا ملك(٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: لو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه في صورة آدمي، إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها، وحينئذٍ فيقع اللبس منا عليهم، لأنهم لا يدرون: أرجل هو، أم ملك؟ ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره.

وقوله: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه جزاء لهم على لبسهم على ضعفائهم.

والمعنى: أنهم شبهوا على ضعفائهم، ولبسوا عليهم الحق بالباطل، فشُبه عليهم، وتلبس عليهم الملك بالرجل.

الثاني: أنا نلبس عليهم ما لبسوا على أنفسهم، وأنهم خلطوا على أنفسهم ولم يؤمنوا بالرسول منهم، بعد معرفتهم صدقه، وطلبوا رسولاً ملكياً يعاينونه.

وهذا تلبيس منهم على أنفسهم(٣).

* * *

(١) إعلام الموقعين (١٨١، ١٨٢).
(٢) مفتاح دار السعادة (١٩٦، ١٩٧).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

قد أخبر سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه، وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح، ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح(١): «لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه في كتاب فهو عنده موضوع فوق العرش؛ إن رحمتي تغلب غضبي»، وفي لفظ: «سبقت غضبي».

فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد وهو إيجاب منه على نفسه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

المراد بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته، فإن المشركين(٣) قالوا لرسول الله ﷺ: من يشهد على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات شهادته له وشهادة ملائكته، وشهادة علماء أهل الكتاب به، فقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]. أي: ومن عنده علم الكتاب يشهد لي، وشهادته مقبولة؛ لأنها شهادة بعلم ما قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه، وكفى به شهيداً، فإن قيل: وما شهادته لصدقه بعد العلم بها ضرورة؟ فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق. فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة، وأعظمها، وأدلها على ثبوت المشهود به.

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النحام بن زيد، وقردم بن كعب، وبحري بن عمير، جاؤوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلٰهاً غيره، فقال رسول الله ﷺ: «لا إلٰه إلا الله بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو»، فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً . . . إلى قوله . . . لَا يُؤْمِنُونَ﴾، تفسير الطبري (٧/ ١٦٤)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٥٦).

فهذا وجه. ووجه آخر أنه صدَّقه بقوله، وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه. فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً؛ لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر، وصحت الشهادة له به قطعاً، فهذا معنى الآية[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

أي ومن بلغه القرآن، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه؛ فهو منذَر به، والأحاديث التي رويت في امتحان[٢] الأطفال، والمعتوهين، والهالك في الفترة؛ إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام. فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم لم تبلغهم الدعوة، ولم يعقلوا الإسلام، ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم؛ لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة.

وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ، لا يدل على عدم ترتبها عليهم في الآخرة.

وهذا القول هو المحكي عن أبي وأصحابه، وهو في غاية القوة[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

أي: لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرؤوا منه وأنكروه[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وهذه الأكنَّة والوقر هي شدة البغض، والنفرة، والإعراض، التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً، والتحقيق أن هذا ناشئ عن الأكنَّة والوقر، فهو موجب ذلك ومقتضاه. فمن فسر الأكنَّة والوقر به؛ فقد فسرهما بموجبها ومقتضاها. وبكل حال فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم، وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم، والله جاعله، فهو الجاعل

---

(١) طريق الهجرتين (٣١٥، ٣١٦).

(٢) انظر: الأحاديث الواردة في هذه المسألة وأقوال العلماء، وفهمهم لها عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

(٣) تحفة الودود (٢٥٢).

(٤) روضة المحبين (٥١).

للذوات وصفاتها وأفعالها وإرادتها واعتقادها، فذلك كله مجعول مخلوق له، وإن كان العبد فاعلاً له باختياره وإرادته[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين[(٢)] حول معنى هذه الآية وما أوردوا، فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾، قدروا مضافاً محذوفاً وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه، وهو: أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه، ولما عللوا أن هذا وارد عليهم؛ قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير. ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً، فإن السياق والإضراب ببل والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لا يلتئم بهذا الذي ذكروه، فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزّجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث.

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخاف.

وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم؛ إذ خفيت عليهم مضرته. ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله، فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته

---

(١) شفاء العليل (٥٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٧٤ ـ ١٧٦)، وما ذهب إليه ابن القيم لا يبعد عما ذهب إليه الطبري في تفسير الآيات المذكورة. والدر المنثور (٣/ ٢٦١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٤٠٦).

وشره. قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل: قد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك. وقد كان ظاهراً له قبل هذا، ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كان ينادون به على رؤوس الأشهاد، ويدعون إليه كل حاضر وباد، بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم. ولا يقال لمن أظهروا الظلم، والفساد، وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد، أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته، وخفائها عليه.

فمعنى الآية ـ والله أعلم بما أراد من كلامه: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار، وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا؛ فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان، بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها، تبين معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم، والذي كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم؛ بل تواصوا بكتمانه.

فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل، وأن الرسل على حق؛ فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه، ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذٍ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله.

وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته، وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك. وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب. فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفي قلبه من محبته

والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد لعاد لما نهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي: ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلوماً، وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

لا يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان؛ ومنه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها؛ لأن المنكر قد يكون محقاً فلا يسمى جاحداً(٢).

والمعنى: أنهم قد عرفوا صدقك، وأنك غير كاذب فيما تقول، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون، قال قتادة: يعلمون أنك رسول، ولكن يجحدون، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد اختلف في الكتاب هاهنا(٣): هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ على قولين:

فقالت طائفة: المراد به القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص، أي: ما

---

(١) عدة الصابرين (١٨٧). (٢) بدائع الفوائد (٤/ ١١٨، ١١٩).

(٣) وممن ذهب إلى أنه اللوح المحفوظ: الإمام الطبري في تفسيره (٧/ ١٨٨)، والبغوي (٣/ ١٣٢)، والزمخشري (٢/ ١٢)، وابن كثير (٢/ ١٤١). ولم يرجح «القرطبي» أحد القولين، وإن يفهم ميله إلى أنه القرآن (٣/ ٢٤١٧). وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٦٦).

فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه. والمراد أن كل شيء ذكر مجملاً ومفصلاً، كما قال ابن مسعود[١]، وقد لعن الواصلة والمستوصلة: ما لي لا ألعن من لعن الله في كتابه؟ فقالت: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. ولعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة. وقال الشافعي: ما نزل بأحد من المسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية: اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس، وكأن هذا القول أظهر في الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل، والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدى، بل هي معبدة مذللة، قد قدر خلقها وأجلها ورزقها، وما تصير إليه، ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، فذكر مبدأها ونهايتها وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾، أي: كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

ولمن نصر القول الأول أن يجيب عن هذا: بأن في ذكر القرآن هاهنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به، فلم نفرط فيه من شيء، بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن إجمالاً وتفصيلاً.

ويرجحه أمر آخر وهو أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] منبههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله ﷺ، وهو الكتاب الذي يتضمن بياناً لكل شيء ولم يفرط فيه من شيء، ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السماوات والأرض، وهذا يتضمن التعريف بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه، وسعة ملكه وكثرة جنوده والأمم التي لا يحصيها غيره، وهذا يتضمن أنه لا إله غيره ولا رب سواه، وأنه رب العالمين.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨٦) ومسلم (٢١٢٥).

فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه، فهذا استدلال بأمره، وذاك بخلقه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ولمن نصر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ؛ أن يقول: لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك، فإنه قادر على ذلك، وإنما ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم، إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا. ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة التي لا يحصي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها؛ كيف يعجز عن إنزال آية؟ ثم أخبر عن كمال قدرته، وعلمه بأنّ هؤلاء الأمم قد أحصاهم وكتبهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرط فيه من شيء، ثم يميتهم ثم يحشرهم إليه، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: ٣٩] عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته، ووحدانيته، وصدق رسله، ثم أخبر أن الآيات لا تستقل بالهدى، ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر، بل الأمر كله له ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُۖ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩]، فهو أظهر القولين، والله أعلم[1].

□ □ □

قوله ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ..﴾ قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس بثيابه، كما يتطوس الطاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليداً كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب تروغ كروغانها.

وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي: بالحمر تارة، وبالكلب تارة وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطناً، حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد[2].

* * *

(١) شفاء العليل (٤٠، ٤١).
(٢) الجواب الكافي (١٦٠).

قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم، في أقوالهم وأفعالهم، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره، فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده، وكماله، ومجده، من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذا من أعظم الغرة: أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره. فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والشيطان الغرور، والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف.

فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم ـ مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه ـ في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف، حتى هجم الأجل، فأخذوا على أسوأ أحوالهم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فلا ريب أن هذا التعليل لفعله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا؟ فلو كان ذلك خيراً وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه. فهذا القول منهم هو بعض الحكم، والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به، وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢١٥). (٢) الروح (٢٩٨).

والعلل الغائية تارة تطلب لنفسها وتارة تطلب لغيرها، فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ما قالوه. وما يترتب عليه هذا القول موجب لآثار مطلوبة لنفسه، وقول هؤلاء: عدله وحكمته، وعزه وقهره وسلطانه، وعطاؤه من يستحق عطاءه، ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما منَّ عليهم، من بين من لا يعرفها، ولا يشكر ربه عليها، وكانت فتنة بعضهم ببعض لحصول هذا التميز الذي ترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

والله سبحانه قد بيَّن في كتابه: سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل فيها هؤلاء.

وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما، وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر، كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «أعوذ بوجهك»(٣)، ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لا بد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عاماً، وهذا عذاب من تحت الأرجل، وروي أنه كان في الأمة قذف أيضاً، وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من المقدرة على ما لا يريده.

وقد صرح سبحانه: بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله، في غير موضع من كتابه(٤).

* * *

(١) شفاء العليل (١٩١، ١٩٢).
(٢) الفوائد (١٠٧).
(٣) رواه البخاري (٤٦٢٨).
(٤) التبيان في أقسام القرآن (٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٨٠].

[إنها] أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته، ودحضت حجتهم، فقال بعد أن بين بطلان إلٰهية الكواكب والقمر والشمس: بأفولها، وأن الإلٰه لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهداً غير غائب، كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور، نافعاً لعباده، يملك لعابده الضر والنفع، فيسمع كلامه ويرى مكانه ويهديه ويرشده ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه، وذلك ليس إلا الله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة، صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها. والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلٰهاً. فحاجه قومه في الله، ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة. فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾، وهذا من أحسن الكلام، أي: تريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه، وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك، وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به، وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد؟

فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في الإلٰه الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلٰهه الذي يؤلهه مع الله أن يناله بسوء.

فقال الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها، وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يخاف ويرجى، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾، وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف آلهتكم فإنها لا مشيئة لها، ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئاً نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء، ولا تعلم شيئاً، وربي له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علماً؛ فمن أولى بأن يخاف ويعبد هو سبحانه، أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له، ولا يعلم شيئاً ممن له المشيئة التامة، والعلم التام.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل، أو عند ذي لب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكاً في الإلٰهية، وهي ليست بموضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في إلٰهيته أشياء لم ينزل [الله بها] حجة عليكم، ولا شرعها لكم؟ فالذي أشرك بخالقه وفاطره وباريه ـ الذي يقر بأنه خالق السمٰوات والأرض ورب كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع ـ آلهة لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، وجعلها نداً له ومثلاً في الإلٰهية تعبد، ويسجد لها، ويخضع لها، ويتقرب إليها، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلٰهاً آخر، بل وحّده، وأفرده بالإلٰهية، والربوبية، والعظمة، والسلطان، والحب، والخوف والرجاء، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟

فحكم الله سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر،

وانقادت له العقول، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

فتأمل هذا الكلام، وعجيب موقعه، في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق لطاعن مطعناً، ولا سؤالاً.

ولما كانت بهذه المثابة، أشاد سبحانه بذكرها وعظمها بالإشارة إليها، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لشأنها، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله، ولقنها إياه، وعنه سبحانه أخذها الخليل، وكفى بحجة يكون الله ﷻ ملقنها لخليله وحبيبه أن تكون قاطعة لمواد العناد، قامعة لأهل الشرك والإلحاد[(١)].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أنكر على من فهم أنه ظلم النفس بالمعاصي، وبين أنه الشرك، وذكر قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك، فإن الله سبحانه لم يقل: ولم يظلموا أنفسهم، بل قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به، وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ **[الأنعام: ٨٣].**

قال زيد بن أسلم[(٣)] وغيره: بالحجة والعلم، ولما غلب أعداء الله معه بالحجة وظهرت حجته عليهم، وكسر أصنامهم، فكسر حججهم، ومعبودهم، هموا بعقوبته، وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين، إذا غلبوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

---

(١) الصواعق المرسلة (٤٨٥، ٤٩٠). (٢) إعلام الموقعين (١/ ٤٣٤).

(٣) انظر: الطبري (٧/ ٢٥٩)، والدر المنثور (٣/ ٣١٠).

فأضرموا له النار وألقوه في المنجنيق، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه، فإنه ما سافر سفرة أبرك ولا أعظم ولا أرفع شيئاً وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]: قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار، فجعل الله سبحانه عليه النار برداً وسلاماً.

وقد ثبت في صحيح البخاري(١) من حديث أم شريك: أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: «كانت تنفخ على إبراهيم»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ **[الأنعام: ٨٨، ٨٩]**.

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ. وقيل: كل مؤمن. هذه أمهات الأقوال، بعد أقوال متفرعة من هذه، كقول من قال: هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أو قوم من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة.

قال ابن جرير(٣): وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم في الآيات قبل الآية. قال: ذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما يليها بأن يكون خبراً عنهم أولى وأحق بأن يكون خبراً عن غيرهم.

فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا، وكذبوا بها، وجحدوا حقيقتها؛ فقد استحفظناها، واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها، ويؤمنون بصحتها.

قلت: السورة مكية، والإشارة بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلاً

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٩).
(٢) جلاء الأفهام (١٦٠).
(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٦٣).

ومن عداهم تبعاً، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة، والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلاً، والمؤمنون بهم تبعاً، فيدخل كل من قام بحفظها، والذب عنها، والدعوة إليها.

ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً، وللمؤمنين بهم تبعاً، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول، خلفاؤه في أمته، وورثته؛ فهم الموكلون بها، وهذا ينتظم في الأقوال التي قيلت في الآية.

وأما قول من قال: إنهم الملائكة[1]. فضعيف جداً لا يدل عليه السياق، وتأباه لفظة ﴿قَوْمًا﴾؛ إذ الغالب في القرآن، بل المطرد تخصيص القوم ببني آدم دون الملائكة. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، فإنما قاله لما ظنهم من الإنس.

وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها، ولم يقبلوها فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها، ويذبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها، ولا يذهبها، ولا يضرها شيئاً، فإن لها أهلاً، ومستحقاً سواهم.

فتأمل شرف هذا المعنى، وجلالته، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها، والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من احتقارهم، وازدرائهم، وعدم المبالاة، والاحتفال بهم، وإنكم وإن لم تؤمنوا بها؛ فعبادي المؤمنون بها، الموكلون بها سواكم كثير، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

وإذا كان للملك عبيد قد عصوه، وخالفوا أمره، فنظر إليهم وقال: إن يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي فإن لي عبيداً سواهم، وهم أنتم تطيعون أمري، وتحفظون عهدي وتؤدون حقي؛ فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح، والسرور، والنشاط، وقوة العزيمة، ما يكون موجباً لهم المزيد من القيام

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور، عن ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، ونسبوه لأبي رجاء العطاردي (٣/ ٣١٢).

بحق العبودية، والمزيد من كرامة سيدهم، ومالكهم، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان.

وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها ومراعاتها، والذب عنها، والنصيحة لها، كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده، ويحافظ عليه.

وقوله: (بها) الأولى متعلقة بـ(وكلنا)، و(بها) الثانية متعلقة ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾، والباء في ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ لتأكيد النفي.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين أنه وكيل الله بهذا المعنى، كما يقال: ولي الله؟.

قلت: لا يلزم من إطلاق فعل التوكيد المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق. كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال: خليفة الله لقوله: «ويستخلفكم في الأرض»، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم: إنه خليفة الله، لأنه استخلاف مقيد، ولما قيل للصديق: يا خليفة الله. قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك. ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾.

والمقصود: أن هذا التوكيل خاص بمن قام به علماً، وعملاً، وجهاداً لأعدائها وذبًّا عنها، ونفياً لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وأيضاً فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه. ولهذا قال بعض السلف: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾، يقول: رزقناها قوماً. فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها: إنه وكيل الله. وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة فإنها المحبة والقرب. فكما يقال: عبد الله، وحبيبه، يقال: والله تعالى يوالي عبده إحساناً إليه وجبراً له ورحمة، بخلاف المخلوق فإنه يوالي المخلوق؛ لتعزه به، وتكثره بموالاته، لذل العبد، وحاجته. وأما العزيز الغني، فلا يوالي أحداً من ذل ولا حاجة.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، فلم ينف الولي نفياً عاماً مطلقاً، بل نفى أن يكون له ولي من الذل، وأثبت في موضع آخر أن له أولياءه بقوله: ﴿أَلَآ

﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وهذا إنما وصف به الذين لا يؤمنون بجميع كتبه المنزلة من المشركين واليهود وغيرهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، ولم يقل: وما قدروا الله قدره، فإن حق قدره هو الحق الذي لقدره، فهو حق عليهم لقدره سبحانه، فجحدوا ذلك الحق وأنكروه، وما قاموا بذلك الحق معرفة، ولا إقراراً، ولا عبودية، وذلك جحود وإنكار لبعض قدره من صفات كماله وأفعاله، لجحودهم أن يتكلم أو يعلم الجزئيات أو يقدر على إحداث فعل. فشبهات منكري الرسالة ترجع إلى ذلك.

أما إنكار علمه تعالى، أو إنكار قدرته، أو إنكار كلامه، فمن أقر بما أرسل به رسله، وأنه عالم به متكلم بكتبه التي أنزلها عليهم؛ قادر على الإرسال لا يليق بحكمته تركه، فقد قدره حق قدره من هذا الوجه إن لم يقدره حق قدره مطلقاً(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

يعني: الذي أنزله. جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة، إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء؟ وهذا من فضل العلم وشرفه، وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة، والله الموفق للرشاد(٣).

ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٧٥ ـ ١٧٧).
(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٦٢).
(٣) مفتاح دار السعادة (٦٢).

ولا سيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب، وهل ذلك صالح لغير اليهود؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب ما لا يوافق أهواءهم، وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه؛ فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم وبخهم بأنهم خانوا الله ورسوله فيه، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه، وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية، وذلك إخفاء لها وكتمان إلى جحد ما أقروا به كتابهم بإخفائه وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر، إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند الله، فكيف لا يجحد أصل النبوة؟

ثم احتج عليهم بأنهم قد علموا الوحي ما لم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم، ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله لم يصلوا إليه، ثم أمر الرسول أن يجيب على هذا السؤال، وهو قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: الله الذي أنزله، أي: إن كفروا به وجحدوه فصدق به أنت وأقر به ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وجواب هذا السؤال أن يقال: إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين، وهم أولو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي إن جحدتم أصل النبوة وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فهذا كتاب موسى يقر به أهل الكتاب ـ وهم أعلم منكم ـ فاسألوهم عنه. ونظائر هذا في القرآن كثيرة، يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد.

والمعنى: أنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً فمن أنزل كتاب موسى؟ فإن لم تعلموا ذلك فاسألوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بتاء للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك؛ أي تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك.

وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله.

ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾؛ بل هذا استطراد من الشيء إلى نظيره، وشبهه، ولازمه. وله نظائر في القرآن كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ

مُضْغَةً﴾ إلى آخر الآية [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين وهو آدم إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده، وأوقع الضمير إلى الجميع بلفظ واحد.

وعلى التقديرين فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي ﷺ ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتكذيب العام، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته ظهر تناقضهم وتفريقهم بين المتماثلين، وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي وجحد نبوة من نبوته أظهر وآياتها أكثر وأعظم ممن أقروا به، وأخبر سبحانه أن من جحد أن يكون قد أرسل رسله وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به بل يتعالى ويتنزه عنه، فإن في ذلك إنكار دينه وإلٰهيته وملكه وحكمته ورحمته والظن السيء به أنه خلق خلقه عبثاً باطلاً، وإنه خلَّاهم سدًى وهملاً، وهذا ينافي كماله المقدس وهو متعالٍ عن كل ما ينافي كماله.

فمن أنكر كلامه وتكليمه وإرساله الرسل إلى خلقه فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظَّمه حق عظمته، كما أن من عبد معه إلٰهاً غيره لم يقدره حق قدره معطل، جاحد لصفات كماله، ونعوت جلاله، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، ولا عظمه حق عظمته[1].

□ □ □

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١].

رتب على ذلك بعضهم أن الذكر بالاسم المفرد وهو «الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر».

وهذا فاسد مبني على فاسد، فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلاً، ولا مفيد شيئاً، ولا هو كلام أصلاً، ولا يدل على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلق به إيمان ولا ثواب، ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر: «الله، الله». من أول عمره إلى آخره لم يصر بذلك مسلماً، فضلاً عن أن يكون من جملة الذكر، أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! فالذكر بقوله: «هو، هو» أفضل من الذكر بقولهم: «الله، الله».

(١) هداية الحيارى (٢٧٩).

وكل هذا من أنواع الهوس، والخيالات الباطلة المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات، فهذا فساد هذا البناء الهائر، وأما فساد المبني عليه، فإنهم ظنوا أن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل هذا الاسم. فقال: الله الله. وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله، فإن اسم الله هنا جواب لقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ إلى أن قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل: الله أنزله. فإن السؤال معاد في الجواب، فيتضمنه فيحذف اختصاراً، كما يقول: من خلق السماوات والأرض؟ فيقال: الله، أي: الله خلقها. فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه. فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [**الأنعام: ٩٣**].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة ـ وهم الصادقون ـ أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ **إلى قوله**: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [**الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩**].

فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره، ووقت نضجه وإدراكه، يقال: أينعت الثمار، إذا نضجت وطابت، لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة، إلى ذلك اللون المشرق الناصع، والطعم الحلو اللذيذ الشهي، لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف: حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا إليها ثم تلا: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩](٣).

* * *

(١) طريق الهجرتين (٣١٦، ٣١٧). (٢) الروح (٧٥).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

لو كان المراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: إنه لا يرى بحال. لم يكن في ذلك مدح ولا كمال، لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى، ولا تدركه الأبصار، والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإن المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية. فالرب تعالى يُرى ولا يدرك، كما يُعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية.

قال ابن عباس[(١)]: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به الأبصار. وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وقال عطية[(٢)]: ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تحيط به؛ إذ كان غير جائز أن يوصف الله ﷻ بأن شيئاً يحيط به، وهو بكل شيء محيط، وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه، ولا يحيطون بكلامه، وهكذا يعلم الخلق ما علمهم، ولا يحيطون بعلمه[(٣)].

ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل، وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً ساخ الجبل في الأرض وتدكدك، ولم يقم لربه تبارك وتعالى، وهذا معنى قول ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال: ذلك الله ﷻ إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء. وهذا من بديع فهمه رضي الله تعالى عنه، ودقيق فطنته، كيف وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل، فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عياناً، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له، وإن رأته فالإدراك أمر وراء الرؤية، وهذه الشمس ـ ولله المثل الأعلى ـ نراها ولا ندركها كما هي عليه، ولا قريباً من ذلك، ولذلك قال ابن

(١) انظر: الطبري (٧/ ٣٠٠) في الفرق بين الإدراك والنظر.
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٩٩)، والدر المنثور (٣/ ٣٣٥).
(٣) حادي الأرواح (٢٣٧).

عباس لمن سأله وأورد عليه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أفتدركها؟ قال: لا، قال: فالله تعالى أعظم وأجل(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين، مع كون السب غيظاً وحمية لله وإهانة لآلهتهم، لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبّنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز؛ لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز(٢).

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

فهذا التزيين منه سبحانه حسن؛ إذ هو ابتلاء واختبار للعبد ليتميز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وأيضاً فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيء عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته، وإيثار سيء العمل على حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيء من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه، زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه، بعد أن رآه قبيحاً، وكل ظالم وفاجر وفاسق، لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً، فإذا تمادى عليه، ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسناً، عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، وهو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيّه وظلمه ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم.

ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة، وبالتعريف الأول.

فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين(٣).

* * *

(١) الوابل الصيب (٧٤).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨١).
(٣) شفاء العليل (١٠٣، ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له[١].

[وقوله: (ونقلب)] عطف على قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. قال ابن عباس في رواية عطاء عنه: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي. قال: وهذا كقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون: المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن. فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل. كقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]، والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه ـ الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر.

والتقليب: تحويل الشيء من وجه إلى وجه. وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا: أن يؤمنوا إذ جاءتهم؛ لأنهم رأوها عياناً وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها. فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليباً لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد، يصرفه كيف يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[٢].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

وروى الترمذي من حديث أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»(١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروى حماد عن أيوب وهشام ويعلى بن زياد عن الحسن قال: قالت عائشة رضي الله عنها: دعوة كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، دعوة كثيراً ما تدعو بها؟ قال: «إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله. فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه»(٢).

وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، قال ابن عباس: أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به، بصغوها وميلها إليه، ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً.

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها، وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل، رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة، ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، ـ وأكثر الخلق كذلك ـ حتى إن الفجار

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠).

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦/ ٩١)، والآجري في الشريعة، ص(٣١٧)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٢٢٤ ـ ٢٣٣)، وصححه العراقي كما في الإحياء (٣/ ٤٤)، والألباني في تعليقه على السنة.

(٣) شفاء العليل (٩٩، ١٠٠).

ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح.. ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة[١]، حتى إن بعضهم لما عزل عن شيء من ذلك قال لعازله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته. فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة[٢]؟

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

اللام على بابها للتعليل، فإنها إن كانت تعليلاً لفعل العدو، وهو إيحاء بعضهم إلى بعض، فظاهر، وعلى هذا فيكون عطفاً على قوله: غروراً، فإنه مفعول لأجله، أي ليغروهم بهذا الوحي، ولتصغي إليه أفئدة من يلقى إليه فيرضاه، ويعمل بموجبه فيكون سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور، وهو أربعة أمور: غرور من يوحون إليه، وإصغاء أفئدتهم إليهم، ومحبتهم لذلك، وانفعالهم عنده بالاقتراف.

وإن كان ذلك تعليلاً لجعله سبحانه لكل نبي عدواً، فيكون هذا الحكم من جملة الغايات، والحكم المطلوبة بهذا الجعل، وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها، لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة، مطلوبة للرب سبحانه، وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها، وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وهذا يبيِّن أن الحَكَم بين الناس هو الله ﷻ وحده، بما أنزله من الكتاب

(١) رحم الله هذا الإمام ذا البصيرة المستنيرة بنور الله تعالى. فالذي ذكره ديدن أعداء الدين إلى الآن فهم يُرغبون الناس في الفسق والفجور، بعد تسميتها بأسماء مزخرفة. فيصرفون قلوب العباد عن القرآن إلى الغناء وتسميته: «غذاء الروح»، و«الإمتاع النفسي»، والتبرج والمسرحيات والأفلام الماجنة الفاجرة تحت اسم «الإبداع الفني» و«التنوير الفكري» و«الحرية الشخصية» و«الموضة»، حتى سموا الخمر التي هم أم الخبائث: «بالمشروبات الروحية» وهلم جرًّا... فلبسوا على الناس دينهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٤٣٨). (٣) شفاء العليل (١٩٣).

المفصل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾.

استفهام إنكار، يقول: كيف أطلب حكماً غير الله، وقد أنزل كتاباً مفصلاً؟ فإن قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ جملة في موضع الحال وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل بين، ضد ما يصفه به من يزعم أن عقول الرجال(١) وآراءهم تعارض بعض نصوصه، وأن نصوصه خيلت وأفهمت خلاف الحق، لمصلحة المخاطب، وأن لها معاني لا تفهم، ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة خلاف ما دلت عليه ظواهرها.

فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل.

□ □ □

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيه علم علماً يقيناً أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، لا سيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة مطابقة للقرآن في ذلك، موافقة له، وهذا يدل على أن ما في التوراة من ذلك ليس هو من المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم، بل هو من الحق الذي شهد للقرآن وصدقه، ولهذا لم ينكر النبي ﷺ عليهم ما في التوراة من الصفات ولا عابهم به، ولا جعله تشبيهاً وتجسيماً وتمثيلاً، كما فعل كثير من النفاة، وقالوا: اليهود أمة التشبيه والتجسيم ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم فسروا ما

(١) انظر في ذلك: درة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مؤلَّفه العظيم: «درء تعارض العقل والنقل». مطبوع بتحقيق جيد، للدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى.

في التوراة. فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل لم يعبهم به المعطلة النفاة بل شاركوهم فيه، والذي استشهد الله سبحانه على نبوة رسوله به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات، عابوهم به ونسبوهم فيه إلى التجسيم والتشبيه.

وهذا ضد ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئاً من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيماً وتشبيهاً، صدقهم عليه أو أقرهم ولم ينكره، كما صدَّقهم في خبر الخبر المتفق على صحته[1] من حديث عبد الله بن مسعود، وضحك تعجباً وتصديقاً له، وفي غير ذلك.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فقرر أن ما أخبر به فهو صدق، وأمر به فهو عدل، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به، لا نعرض عنه، ولا نعارضه، ومن دفعه أو عارضه بعقله لم يصدقوا به، ولو صدقه تصديقاً مجملاً ولم يصدقه تصديقاً مفصلاً في أعيان ما أخبر به لم يمكن مؤمناً، ولو أقر بلفظه مع جحد معناه، أو حرَّفه إلى معان أخر غير ما أريد به لم يكن مصدقاً، بل هو إلى التكذيب أقرب[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

---

(١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ: أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله يمسك السمٰوات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ: «وما قدروا الله حق قدره». قال يحيى بن سعيد: وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله: فضحك رسول الله ﷺ تعجُّباً وتصديقاً له.
هذه رواية البخاري (١٣/ ٤٠٤) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ومسلم (٥/ ٦٥٥) في صفة القيامة.

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٢ ـ ١٠٤٦).

فجمع له بين النور والحياة، كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة، فقال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافراً ضالًّا فهديناه وجعلنا له نوراً.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور، وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم(١).

[وفي قوله]: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، جمع بين الأصلين: الحياة والنور، فالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياءه وعفته، أو شجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر(٢).

فإن المراد بها: من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده ومحبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

---

(١) الفوائد (٨٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٠).

فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة: فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

[في] تسمية الجنة بدار السلام، وإضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها إضافة إلى مالكها السلام سبحانه.

الثاني: أنها إضافة إلى تحية أهلها، فإن تحيتهم فيها سلام.

الثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة، أي: دار السلامة من كل آفة ونقص وشر.

والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها، فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام، وكان يقال: دار الرحمٰن، أو دار الله، أو دار الملك، ونحو ذلك، فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود.

وأيضاً فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها؛ **أما الأول**: فنحو دار القرار، دار الخلد، جنة المأوى، جنات النعيم، جنات الفردوس. **وأما الثاني**: فنحو دار المتقين ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن.

وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين: **أحدهما**: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة، وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصاً بها، كالخلد والقرار والبقاء. **الثاني**: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها، مثل كونها دائمة وباقية ودار الخلد، والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر، فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام، التي لا يتم النعيم فيها إلا به، فإضافتها إليه أولى وهذا ظاهر[2].

* * *

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٨، ٢٥٩).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٣٤، ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

يعني: قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم(١): أضللتم منهم كثيراً. فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر، فاستمتاع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به: من الكفر والفسوق والعصيان، فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس، فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مناهم. واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين والتزيين والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها. فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم: من الشرك والفواحش والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم: من التأثيرات والإخبار ببعض المغيبات فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية، الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمٰن، وإنما هم من أولياء الشيطان. أطاعوه في الإشراك ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله وأنزل به كتبه، فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسننه، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين، وشطحات المارقين، وترَّهات المتصوفين.

والبصير الذي نوَّر الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة، إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق، وكان ناقداً لا يروج عليه الزغل؛ تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية وهي منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشيطان بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في قَبوله منه، وطاعته له، فيسره ذلك ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه وإعانته له.

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٣). وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٥٧).

ومن لم يحط علماً بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسر امتحان الرب سبحانه كلًّا من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، وهو يتناول أجل الموت، وأجل البعث، فكلاهما أجل الله تعالى لعباده. وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

وكأن هذا ـ والله أعلم ـ إشارةٌ منهم إلى نوع استعطاف، وتوبة، فكأنهم يقولون: هذا أمر كان إلى وقت وانقطع بانقطاع أجله فلم يستمر ولم يدم، فبلغ الأمر الذي كان أجله، وانتهى إلى غايته ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله، فقد بقي زمن العقوبة. فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك وتمتع بعضكم ببعض أنّ مفسدته زالت بزواله، وانتهت بانتهائه، والمقصود أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبدوه واتخذوه وذريته أولياء من دون الله[(١)].

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف[(٢)]، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

دلت الآية على أنه لا تلازم بين قبح الفعل والعقوبة، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل. وعلى أحد القولين ـ وهو أن يكون المعنى: لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل ـ فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨).
(٢) أي: الجن.
(٣) طريق الهجرتين (٣٩٠).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٣٢).

فهذا قياس جلي بقوله سبحانه: إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فالضمير في قوله: «فإنه» وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به، لثلاثة أوجه.

أحدها: قربه منه.

والثاني: تذكيره دون قوله: فإنها رجس.

والثالث: أنه أتى «بالفاء» و«إن» تنبيهاً على علة التحريم، لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته فنفى عنه ذلك، وأخبر أنه رجس، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجساً أمر مستقر معلوم عندهم، ولهذا في القرآن نظائر فتأملها[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فأخبر سبحانه: أن الحجة له عليهم: برسله وكتبه، وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان. ومعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول. فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

[هذا] مما يدل على أن لفظ الشهادة غير مشترط.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٥).
(٢) زاد المعاد (٥/ ٧٦٢).
(٣) شفاء العليل (١٧).

ومعلوم قطعاً أنه لم ينكر عليهم إلا مجرد قولهم: إن الله حرم هذا. لم يخص الإنكار بقول من قال: يشهد أن الله حرمه، ولا نهى رسول الله ﷺ أن يتلفظ بالشهادة على التحريم، بل هو نهي له أن يقول: إن الله حرمه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فلما ذكر إتيانه سبحانه، ربما توهم متوهم أن المراد إتيان بعض آياته، أزال هذا الوهم ورفع الإشكال بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصاً صريحاً في معناه، لا يحتمل غيره وإذا تأملت أحاديث الصفات؛ رأيت هذا لائحاً على صفاتها، بادياً على ألفاظها، كقوله ﷺ[٢]: «إنكم ترون ربكم عياناً كما تُرى الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب، وكما يُرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أنَّث عدد الأمثال لتأويلها بحسنات، ومثله قراءة أبي العالية[٤]: (لا تنفع نفساً إيمانها) بالتاء والفعل مسند إلى الإيمان لكنه طاعة وإثابة في المعنى[٥].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما[٦]: سيداً وإلٰهاً، يعني: فكيف أطلب رباً غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٥٥).
(٢) انظر ما سبق.
(٣) الصواعق المرسلة (١/ ٣٩٥، ٣٩٦).
(٤) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٠٧).
(٥) بدائع الفوائد (٤/ ٢٠٩).
(٦) يشير إلى الحديث الشريف الصحيح: «من قال حين يمسي: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، كان حقاً على الله أن يرضيه». رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٦٧)، وأبو داود (١٣/ ٤١٢، ٤١٣) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، والترمذي (٥/ ٤٣٤) في الدعوات، باب: ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى. وقال: حسن غريب.
والطبراني في الدعاء (٢/ ٩٣١، ٩٣٢)، والحاكم (١/ ٥١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ كما في «نتائج الأفكار» (٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٣٤).

يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً. ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً، بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك.

بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حَكَماً، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاثة هي أصل التوحيد: أن لا يتخذ سواه رباً ولا إلٰهاً ولا غيره حكماً(١).

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٨١، ١٨٢).

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [**الأعراف**: ١، ٢].

والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه؛ ارتفع به عنها ذلك الحرج، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومن آمن به من وجه دون وجه ارتفع عنه الحرج والضيق من الوجه الذي آمن به دون ذلك الوجه، فمن أقر أنه منزل من عند الله أنزله على رسوله، ولم يقر بأنه كلامه الذي تكلم به، بل جعله مخلوقاً من مخلوقاته كان في صدره من الضيق والحرج ما يناسب ذلك، ومن أقر بأنه تكلم بشطره، وهو المعاني، دون شطره الآخر ـ وهو حروفه ـ كان من الحرج منه ما يناسب ذلك.

ومن زعم أنه غير كاف في معرفة الحق، وأن العباد يحتاجون معه إلى معقولات وآراء ومقاييس وقواعد منطقية ومباحث عقلية؛ ففي صدره منه أعظم حرج، وأعظم حرج منه من اعتقد أن فيه ما يناقض العقل الصريح، ويشهد العقل بخلافه، وكذلك من زعم أن آياته لا يستفاد منها علم ولا يقين ففي صدره منه من الحرج ما الله به عليم.

ومن زعم أن الخطاب به خطاب جمهوري يخيل للعامة ما ينتفعون به مما ليس له حقيقة في نفس الأمر؛ ففي صدره منه أعظم حرج، ومن زعم أن أجل ما فيه وأشرفه وأفضله، وهو قسم التوحيد المتضمن للأسماء والصفات مجازات واستعارات وتشبيهات لا حقائق؛ ففي صدره منه أعظم حرج.

فكل هذه الطوائف في صدورهم منه حرج وريب، وليس في حقهم هدى، ولا شفاء، ولا رحمة، ولا هو كاف لهم بشهادتهم على أنفسهم، وشهادة الله وملائكته والشهداء من عباده عليهم، وبالله التوفيق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره. فما هو إلا اتباع المنزل، واتباع أولياء من دونه. فإنه لم يجعل بينهما واسطة فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف.

وهذه الموازنة تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته، فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

فإن نفي كونه من الساجدين، أخص من نفي السجود عنه، لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية، والاستعداد. فهو أبلغ في الذم من أن يقال: لم يسجد(٤).

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٥١٨، ١٥١٩). (٢) الرسالة التبوكية (٥٤).
(٣) طريق الهجرتين (٣٨٠). (٤) بدائع الفوائد (٣/٥٧، ٥٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [**الأعراف**: ١٢].

وقد قيل: إن طرد إبليس، ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص بالقياس، وقدمه عليه، وتأوّل لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه، وهي أن الفاضل لا يخضع للمفضول، وطوى ذكر هذه المقدمة (كأنها مقدمة)؛ لكونها معلومة، وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، فكان نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود، وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه في تأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، ولا إله إلا الله كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين!

وأنت إذا تأملت عامة شُبَه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطّلوها رأيتها من جنس شبهته، والقائل: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هاهنا اشتق هذه القاعدة، وجعلها أصلاً لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها، كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه، وعرضت لعدو الله هذه الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي، وهكذا تجد كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل، إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ما هو ببالغه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦][1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [**الأعراف**: ١٦، ١٧].

قال جمهور المفسرين والنحاة[2]: حذف «على» فانتصب الفعل[3]، والتقدير:

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٧١، ٣٧٢).
(٢) راجع: الطبري (٨/ ١٣٣)، وابن كثير (٢/ ٢٢٠)، والقرطبي (٣/ ٢٦١٠)، والآلوسي (٨/ ٩٤).
(٣) كذا في الأصل والصحيح «فانتصب الاسم»، وهو: «صراطك».

لأقعدن لهم على صراطك، والظاهر: أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنه، ولأرصدنه، ولأعوجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: دينك الواضح. وقال ابن مسعود: هو كتاب الله. وقال جابر: هو الإسلام. وقال مجاهد: هو الحق.

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق إلى الله تعالى، وقد تقدم حديث سبرة بن الفاكه(١): «أن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها ـ الحديث»، فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، قال ابن عباس(٢) في رواية عطية عنه: من قِبَل الدنيا. وفي رواية علي عنه: أشككهم في آخرتهم. وكذلك قال الحسن: من قبل الآخرة، تكذيباً بالبعث والجنة والنار. وقال مجاهد: من بين أيديهم من حيث يبصرون. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ قال ابن عباس: أرغبهم في دنياهم. وقال الحسن: من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهِّيها لهم. وعن ابن عباس رواية أخرى: من قبل الدنيا. قال أبو صالح: أشككهم في الآخرة وأباعدهم عليها، وقال مجاهد أيضاً: من حيث لا يبصرون.

﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ قال ابن عباس: أشبه عليهم أمر دينهم. وقال أبو صالح: الحق أشككهم فيه. وعن ابن عباس أيضاً: من قبل حسناتهم أيضاً.

قال الحسن: من قبل الحسنات أثبطهم عنها، وقال أبو صالح أيضاً: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾: أُنَفِّقُه عليهم وأرغبهم فيه.

وقال الحسن: ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ السيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويزينها في أعينهم. وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال(٣): «ولم يقل: من فوقهم؛ لأنه علم أن الله فوقهم».

---

(١) رواه النسائي (٦/ ٢١، ٢٢) في الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. وابن حبان (٧/ ٥٧)، وصححه. والطبري (٨/ ١٣٤). وحسنه الحافظ، كما في الإصابة (٤/ ١٢٠). وصححه الألباني (صحيح الجامع رقم ١٦٤٨).
سَبْرة بن الفاكه ويقال ـ: ابن الفاكهة ويقال: ابن أبي الفاكه ـ صحابي نزل الكوفة، الإصابة (٤/ ١٢٠)، وانظر: شرح الحديث في تفسير الآلوسي (٨/ ٩٤، ٩٥).

(٢) الطبري (٨/ ١٣٧، ١٣٨)، الدر المنثور (٣/ ٤٢٦).

(٣) رواه الطبري (٨/ ١٣٧)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٤٢٦، ٤٢٧).

قال الشعبي: فالله ﷻ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم. وقال قتادة: أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

قال الواحدي: وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات؛ حسن، لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المتقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين. وأنشد لابن الدمينة[1]:

أَلُبْنَى أفي يُمْنى يَديك جعلتني   فأفرحَ أم صَيّرتنِي في شمالك؟

وروى أبو عبيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين، أي: بمنزلة حسنة، وبضد ذلك: هو عندنا بالشمال، وأنشد:

رأيت بني العَلَّات لما تظافروا   يحوزون سهمي بينهم في الشمائل

أي: ينزلونني بالمنزلة السيئة.

وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية: (لأغوينهم) حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث (وعن أيمانهم وعن شمائلهم)، أي: لأضلنهم فيما يعملون، لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئاً؛ لأنهما الأصل في التصرف، فجعلتا مثلاً لجميع ما يعمل بغيرهما. وقال آخرون ـ منهم أبو إسحاق والزمخشري[2] ـ واللفظ لأبي إسحاق: ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي: لآتينهم من جميع الجهات والحقيقة، والله أعلم، أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم.

وقال الزمخشري: ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: أتاك من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك.

وهذا القول أعم فائدة ولا يناقض ما قال السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين.

---

(١) هو: عبيد الله بن عبد الله، والدُّمَينة أُمُّه وهو من خثعم.
طبقات الشعراء لابن قتيبة (٣٧٥).

(٢) الكشاف للزمخشري (٢/٥٦)، وانظر: القرطبي (٣/٢٦١٢).

قال شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ومن قِبَل يميني يأتيني من قبل النساء فأقرأ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ومن قِبل شمالي يأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

قلت: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له، وخادماً، ومعيناً، وممنياً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. قال الكلبي: ألزمناهم قرناء من الشياطين. وقال مقاتل: هيأنا لهم قرناء من الشياطين. وقال ابن عباس: ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة. والمعنى: زينوا لهم الدنيا حتى آثروها، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة، والإعراض عنها، وقال الكلبي: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: إنه لا جنة ولا نار، ولا بعث، وما خلفهم من أمر الدنيا ما هم عليه من الضلالة. وهذا اختيار الفراء، وقال ابن زيد: زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم وما يستقبلون منها.

والمعنى على هذا: زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه.

فقول عدو الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها، فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها[1].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/١٠٢ ـ ١٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

علم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انهتك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي ﷺ في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم.

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يواري العورة ويسترها، ولباساً باطناً من التقوى، يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

وقوله ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن ها هنا دخل عليهما، لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم(١).

□ □ □

وخروج آدم من الجنة، إنما كان بسبب التأويل وإلا فهو «ﷺ» لم يقصد بالأكل معصية الرب، والتجرؤ على مخالفة نهيه، وأن يكون ظالماً مستحقاً للشقاء بخروجه من الجنة، هذا لم يقصده أبو البشر قطعاً، ثم اختلف الناس في وجه تأويله.

فقالت طائفة: تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة، وغرَّه عدو الله بأن جنس هذه الشجرة هي شجرة الخلد، وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة. وفي هذا الذي قالوه نظر ظاهر، فإن الله سبحانه أخبر أن إبليس قال له: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها إما بعينها، أو بجنسها، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها، ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصياً بأكله من غيرها، ولا أخرجه الله من الجنة ونزع عنه لباسه.

وقالت فرقة أخرى: تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم على الأكل لذلك.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١١١).

وهذا باطل قطعاً من وجوه كثيرة يكفي منها قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وأيضاً فحيث نهى الله عن فعل الشيء بقربانه لم يكن إلا للتحريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وأيضاً لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة وأخبر أنه عصى ربه.

وقالت طائفة: بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معاً، لا عن أكل كل منهما على انفراده، لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ [البقرة: ٣٥] نهي لهما على الجميع، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد، وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب[١] في تفسيره.

وهو كما ترى في البطلان والفساد. ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة، وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهاماً، أفترى فهم أحد عن الله تعالى من قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] ونظائره، أي: إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به!

فيا للعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيانات، وتجد لها حاملاً وقابلاً يستحسنها ويصغي بقلبه وسمعه إليها.

والصواب في ذلك أن يقال: إن آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قاسمه عدو الله أنه ناصح، وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:

أحدها: القسم.

الثاني: الإتيان بالجملة اسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالًّا على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل فيه.

ولم يكن آدم يظن أن أحداً يقسم بالله كاذباً يمين غموس، يتجرأ فيها هذه الجرأة على الله، فغرَّه عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه، وأنه إن أكل منها

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣/ ٥، ٦).

لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك إما باعتذار، وإما بتوبة، وإما بغير ذلك، كما تجد هذا التأويل قائماً في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر، إيماناً لا شك فيه إذا أقدم على المعصية.

فوازن بين هذا التأويل وبين تأويلات المحرفين؛ يظهر لك الصواب من الخطأ. والله الموفق للصواب[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها، وعقابها، ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولا بد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه، وإلا ضره ولا بد، وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به؛ وإلا خسر، والمغفرة تمنع الشر والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقه السيئات ويرحمه فيؤته الحسنات، وإلا هلك ولا بد، إذ كان ظالماً لنفسه ظلوماً بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر، فضرَّت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفساً، لأن ما ليس حساساً متحركاً بالإرادة فليس نفساً، ففي الصحيح[2] عن النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»؛ فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة؛ فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فأخبر سبحانه أن لباس التقوى وزينتها خير من المال، والرياش، والجمال

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٥٠)، ولم أجده في الصحيحين.

(٣) طريق الهجرتين (١٠٠).

الظاهر. فالله سبحانه خلق عباده، وجمَّل ظواهرهم بأحسن تقويم، وجمَّل بواطنهم بهدايته إلى الصراط المستقيم(١).

فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقوله ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا كلام يصان عن آحاد العقلاء، فكيف بكلام رب العالمين؟ ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفِطَر، فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده، لا لغيره، ويدعونه وحده، مخلصين له الدين، لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠].

وروى ابن عبد البر بإسناده عن موسى بن عبيدة: سمعت محمد بن كعب القرظي(٤) في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، قال: من ابتدأ الله خلقه على الهدى صيَّره إلى الهدى، وإن عمل بعمل أهل الضلالة، ومن ابتدأ خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة، وإن عمل بعمل أهل الهدى، ابتدأ

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٥٢، ١٥٥٣). (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٥٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٦، ٣٣٧).

(٤) رواه الطبري (٨/ ١٥٦). وانظر: الدر المنثور (٣/ ٤٣٧).

خلق إبليس على الضلالة، وعمل بعمل أهل السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتدأ خلقه عليه من الضلالة، فقال: وكان من الكافرين، وابتدأ خلق السحرة على الهدى، وعملوا عمل أهل الضلالة، ثم هداهم الله إلى الهدى، والسعادة، وتوفاهم عليها مسلمين.

فهذا المنقول عن محمد بن كعب يبين أن الذي ابتدأهم عليه هو ما كتب أنهم صائرون إليه، وأنهم قد يعملون قبل ذلك غيره، وأن من ابتدئ على الضلالة أي كتب أن يكون ضالاً؛ فقد يكون قبل ذلك عاملاً بعمل أهل الهدى، وحينئذٍ فمن ولد على الفطرة السليمة المقتضية للهدى؛ لا يمنع أن يعرض لها ما يغيرها فيصير إلى ما سبق به القدر.

كما في الحديث الصحيح[(١)]: «إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة».

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: كما كتب عليكم تكونون، وقال مجاهد: كما بدأكم تعودون؛ شقي وسعيد. وقال أيضاً: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً. وقال أبو العالية: عادوا إلى علمه فيهم؛ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة.

قلت: هذا المعنى صحيح في نفسه، دل عليه القرآن والسنة والآثار السلفية وإجماع أهل السنة. وأما كونه هو المراد بالآية ففيه ما فيه، والذي يظهر من الآية أن معناها معنى نظائرها وأمثالها من الآيات التي يحتج الله سبحانه فيها على النشأة الثانية بالأولى، وعلى المعاد بالمبدأ، فجاء باحتجاج في غاية الاختصار والبيان، كما بدأكم تعودون. كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦، ٤٠]، وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨]، أي: على رجع الإنسان حياً بعد موته، هذا هو الصواب في معنى الآية.

يبقى أن يقال: فكيف يرتبط هذا بقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ الآية؟

فيقال: هذا الذي أوجب لأصحاب ذلك القول ما تأولوا به الآية، ومن تأمل الآية علم أن القول أولى بها، ووجه الارتباط أن الآية تضمنت قواعد الدين علماً، وعملاً، واعتقاداً، فأمر سبحانه فيها بالقسط الذي هو حقيقة شرعه ودينه، وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل، والعدل في معاملة الخلق، والعدل في العبادة وهو الاقتصاد في السنة. ويتضمن الأمر بالإقبال على الله، وإقامة عبوديته في ثبوته، ويتضمن الإخلاص له، وهو عبوديته وحده لا شريك له.

فهذا ما فيها من العمل، ثم أخبر بمبدأهم ومعادهم؛ فتضمن ذلك حدوث الخلق وإعادته فذلك الإيمان بالمبدأ والمعاد، ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد، فقال: فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة؛ فتضمنت الآية الإيمان بالقدر، والشرع، والمبدأ، والمعاد، والأمر بالعدل، والإخلاص، ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر؛ بأنه قد والى الشيطان دون ربه، وأنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى، والله أعلم[(١)].

□ □ □

فإن قيل: فما الفرق بين قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦] وبين قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قيل الفرق من وجهين: لفظي، ومعنوي.

أما اللفظي فهو أن الحروف الحواجز بين الفعل والفاعل في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أكثر منها في قوله: ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ﴾، وقد تقدم أن الحذف مع كثرة الحواجز أحسن.

وأما المعنوي فإن (مَنْ) في قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ واقعة على الأمة، والجماعة، وهي مؤنثة لفظاً ألا تراه يقول: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، ثم قال: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؟ أي: من تلك الأمم أمم

(١) شفاء العليل (٢٩٢، ٢٩٣).

حقت عليهم الضلالة، ولو قال بدل ذلك ضلَّت لتعينت التاء، ومعنى الكلامين واحد، وإذا كان معنى الكلامين واحداً، كان إثبات التاء أحسن من تركها، لأنها ثابتة فيما هو في معنى الكلام الآخر، وأما ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؛ فالفريق مذكر، ولو قال: فريقاً ضلوا لكان بغير تاء وقولهم: «فحق عليهم الضلال» في معناه، فجاء بغير تاء، وهذا أسلوب لطيف من أساليب العربية؛ تدع العرب حكم اللفظ الواجب له في قياس لغتها إذا كان في معنى كلمة لا يجب لها ذلك الحكم، تراهم يقولون: هو أحسن الفتيان وأجمله، لأنه في معنى هو أحسن فتى وأجمله. ونظيره: تصحيحهم حَوِل وعَوِر؛ لأنه في معنى أحول وأعور ونظائره كثيرة جداً، فإذا حسن الحمل على المعنى؛ فيما كان القياس لا يجوزه، فما ظنك به حيث يجوزه القياس والاستعمال(١)؟

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

جمعت أصول أحكام الشريعة كلها، فجمعت الأمر والنهي والإباحة والخبر(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها، لا تستحسنها العقول، فتعلق التحريم بها لفحشها. فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق، يدل على أنه هو العلة المقتضية له، وهذا دليل على أنه حرمها لكونها فواحش، وحرم الخبيث لكونه خبيثاً، وأمر بالمعروف لكونه معروفاً، والعلة يجب أن تغاير المعلول. فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهياً عنه، وكونه خبيثاً هو معنى كونه محرماً: كانت العلة عين المعلول، وهذا محال، فتأمله. وكذا: تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم(٣).

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٢٦، ١٢٧).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٧).
(٣) راجع: مفتاح دار السعادة (٣٣٣).

ودخل في قوله تعالى تحريم كل فاحشة ظاهرة وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله، وإن دق في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عدلاً بغيره في اللفظ، أو القصد، أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه، ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط، أو خبر عنه باسم أو صفة نفياً أو إثباتاً، أو خبراً عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه[١].

□ □ □

فهذه الأنواع الأربعة التي حرمها تحريماً مطلقاً؛ لم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق، ولا في حال من الأحوال؛ بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير، فإنها تحرم في حال وتباح في حال، وأما هذه الأربعة فهي محرمة.

فالفواحش متعلقة بالشهوة، وتعديل قوة الشهوة باجتنابها.

والبغي بغير الحق متعلق بالغضب، وتعديل القوة الغضبية باجتنابه.

والشرك بالله ظلم عظيم، بل هو الظلم على الإطلاق، وهو مناف العدل والعلم. وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه وهو عبادته وحده لا شريك له[٢].

وذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئاً بالأسهل منها، ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك حتى ختمها بأعظمها وأشدها، وهو القول عليه بلا علم، فكيف بالكذب عليه؟ قالوا: ولأن الكذب عليه بأنه قال: كذا ولم يقله، نسبه للقول المكذوب إليه بأنه قاله فالكاذب يعلم أن ما اختلقه كذب، فإذا نسبه إلى رسول الله ﷺ فقد نسب إليه الكذب[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤١٣). (٢) مفتاح دار السعادة (٤٥٨).

(٣) الكلام على مسألة السماع (٣٢٤، ٣٢٥).

ادَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٧ ـ ٣٩].

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية: أي: ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة. ثم قرأ عطية: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

والمعنى: أن هؤلاء أدركهم ما كتب لهم من الشقاوة. وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء قال: يريد ما سبق في علمي في اللوح المحفوظ، فالكتاب على هذا القول الكتاب الأول، ونصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها.

وقال ابن زيد والقرظي والربيع بن أنس: ينالهم ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال، فإذا فَنِيَ نصيبهم واستكملوه، جاءتهم رسلنا، يتوفونهم.

ورجح بعضهم هذا القول لمكان «حتى» التي هي للغاية، يعني: أنهم يستوفون أرزاقهم، وأعمارهم إلى الموت.

ولمن نصر القول الأول أن يقول: «حتى» في هذا الموضع هي التي تدخل على الجمل، ويتصرف الكلام فيها إلى الابتداء كما في قوله:

فيا عجبا حتى كليب تسبني

والصحيح: أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين، فهو نصيبهم من الشقاوة، ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك؛ فعمت الآية هذا النصيب كله، وذكر هؤلاء بعضه، وهؤلاء بعضه، هذا على القول الصحيح. وأن المراد ما سبق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب القرآن. قال الزجاج: معنى نصيبهم من الكتاب: ما أخبر الله من جزائهم، نحو قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، وقوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، قال أرباب هذا القول: وهذا هو الظاهر؛ لأنه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع؛ ثم أخبر أنه ينالهم نصيبهم منه.

والصحيح القول الأول، وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا.

ولهذا القول وجه حسن، وهو أن نصيب المؤمنين من الرحمة والسعادة ونصيب هؤلاء من العذاب والشقاء. فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم(١).

□ □ □

فليتدبر العاقل هذه الآيات، وما اشتملت عليه من العبر.

وقوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾.

ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني: كفره بجحود الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين: عذاباً بكفرهم وعذاباً بصدهم عن سبيله.

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب.

كقوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾.

يعني: ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧]، زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة، ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾، ادخلوا في جملة هذه الأمم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾، كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾، ضاعفه عليهم

(١) شفاء العليل (٤٢).

بما أضلونا وصدُّونا عن طاعة رسلك، قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، لا تعلم كل طائفة بما فيها أختها من العذاب المضاعف. ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا، وترك الحق الذي أتتكم به الرسل، فأي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين، فأي فضل كان لكم علينا؟

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، فيالله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة، لو صادفت من القلوب حياة. فإن هذه الآية وأمثالها، مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها؛ لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة؛ بل أغلقت عنها. وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه، فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه، وقامت بين يديه فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهذا أحسن مِنْ قول مَنْ قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد. فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا؛ بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة

---

(١) الرسالة التبوكية (٥٦ ـ ٥٨). (٢) طريق الهجرتين (٢٥٥).

محذوفة، أي: نفساً منها، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

قول أهل الجنة ذلك، يحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم، ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦ ـ ٤٩].

فقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، أي: بين أهل الجنة والنار حجاب، قيل: هو السور الذي يضرب بينهم له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهتهم العذاب.

والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار، عليه أهل الأعراف.

قال حذيفة وعبد الله بن عباس(٣): هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار؛ فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته.

قال عبد الله بن المبارك: أخبرنا أبو بكر الهذلي قال: كان سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٢١، ٢٢٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٢، ٩٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٨٨) وما بعدها.

أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم، وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذٍ نوراً، فإذا أتوا على الصراط، سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ماذا لقي المنافقون قالوا: ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨].

وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا بها، فبقي في قلوبهم الطمع، إذا لم ينزع النور من أيديهم، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾. فكان الطمع للنور الذي في أيديهم، ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً ـ يريد آخر أهل الجنة دخولاً ممن لم يدخل النار ـ.

وقيل: هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم، وهذا من جنس القول الأول.

وقيل: هم في قوم رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس، ثم يدخلهم الجنة، وهي من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما.

وقيل: هم أصحاب الفترة، وأطفال المشركين.

وقيل: هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف، فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعاً.

وقيل: هم الملائكة لا من بني آدم.

والثابت عن الصحابة هو القول الأول، وقد رويت فيه آثار[1] كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها[2].

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/٤٥٩) وما بعدها.

(٢) انظر: المستدرك للحاكم، وقال: «وقد ذكرت في شرائط هذا الكتاب إخراج التفاسير عن =

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ صريح في أنهم من بني آدم ليسوا من الملائكة، وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، يعني: يعرفون الفريقين بسيماهم ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها.

قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم، وقال الحسن: الذي جمع الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون.

وفي هذا رد على قول من قال: إنهم أفاضل المؤمنين علوا على الأعراف يطالعون أحوال الفريقين، فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة وهم أعلم الأمة بكتاب الله ومراده منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾، هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار. فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٨]، يعني: من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] يعني: ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق، ولا استكباركم. وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم.

ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يستزلونهم في الدنيا،

= الصحابة» (١/ ٥٥).

وقال أيضاً: «. . . إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند» (٢/ ٢٥٨).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إن أصح الطرق ـ في تفسير القرآن ـ أن يفسر القرآن بالقرآن، . . . ثم بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. . . وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى قول الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها. . .».

من مقدمة التفسير، في أول تفسيره (١/ ١١٠، ١١١). والموقوف عن الصحابة في حكم المرفوع ـ والله أعلم ـ إذا تعلق بالتفسير والعقيدة؛ لأنهم يعلمون حكم القائل في القرآن: برأيه. وانظر: حديث رقم (١٦٢٣) من السلسلة الصحيحة والتعليق عليه.

ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضله، كما لم يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ [الأعراف: ٤٩]. أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة، فها هم في الجنة يتمتعون ويتنعمون وفي رياضها يحبرون.

ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيَّروا الكفار، وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم، عيَّرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة، وأنهم يصيرون إلى النار فتقول لهم الملائكة حينئذٍ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، والقولان قويان محتملان، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار، ويسمى تعبير الرؤيا تأويلاً بالاعتبارين، فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تؤول إليه(٢).

فتأويل ما أخبرت به الرسل هو مجيء حقيقته ورؤيتها عياناً، ومنه تأويل الرؤيا؛ وهو حقيقتها الخارجية التي ضربت للرائي في عالم المثال(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره. فمصدر الخلق والأمر عن هذين المتضمنين لهاتين الصفتين. ولهذا يقرن سبحانه بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته، إذ هما مصدر الخلق والأمر.

ولما كان سبحانه كاملاً في جميع أوصافه، ومن أجلها كلمته كانت عامة التعلق بكل مقدور، كما أن علمه عام التعلق بكل معلوم، ومشيئته عامة التعلق بكل

---

(١) طريق الهجرتين (٣٥٥ ـ ٣٥٧). (٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٧٦).
(٣) جلاء الأفهام (١١٥).

موجود، وسمعه وبصره عام التعلق لكل مسموع ومرئي، فهذا من لوازم صفاته فلا بد أن تكون حكمته عامة التعلق بكل ما خلقه وقدره وأمر به ونهى عنه، وهذا أمر ذاتي للصفة يمتنع تخلفه وانفكاكه عنها، كما يمتنع تخلف الصفة نفسها وانفكاكها عنه، وهذا وحده برهان كاف شاف في إبطال تلك الأسولة كلها، وأنه يكفي في إبطالها إثبات عموم تعلق صفاته، وذلك يستلزم إثبات الصفات، وهي تستلزم إثبات الذات فإثبات ذات الرب تعالى كاف في بطلان الأسولة الإبليسية(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة. ويراد به مجموعهما وهما متلازمان.

فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره، أو دفعه. ومن يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً. والمعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر.. ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر، القاصر والمتعدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا في القرآن كثير بَيِّنٌ: أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، فهو يُدْعَى للنفع ودفع الضر دعاء المسألة، وَيُدْعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة.

فعلم أن النوعين متلازمان: فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٦٤، ١٥٦٥).

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء. وبكل منهما فسرت الآية.

قيل: أعطيه إذا سألني. وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان. وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً.

فتأمله فإنه موضع عظيم النفع، قلَّ من يفطن له.

وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً، هي من هذا القبيل.

□ □ □

فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، ولكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره، قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلّا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وأن الله ذكر عبداً صالحاً ورضي بفعله، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيماناً، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي. وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم. ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى. فإذا كان ربنا يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده. فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته، وكسرته، وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء؛ فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في حمده وتجريد همته وقصده للمدعو ﷻ.

وسادسها: ـ وهو من النكت السرية البديعة جداً ـ أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه، وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه. فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد. ولهذا: أثنى ﷻ على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]؛ فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليساً له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال: «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا[(٢)]: «يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ هذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا: بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى، لا مسألة البعيد المنادَى.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قرباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، و«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[(٣)]؛ وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى[(٤)]: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً»؛ فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله، فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) رواه الطبري (٣/ ٤٨٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى: «وهذا الحديث ضعيف جداً، منهار الإسناد بكل حال» (٣/ ٤٨١). وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٤).

(٣) رواه مسلم (٤٨٢).

(٤) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

وقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من مُحِبِّه فنوع آخر، وبناء آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب التحفة المكية. على أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب. وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها فتزل بك قدم بعد ثبوتها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم؛ فوقعوا في أنواع الطامات والشطح، وقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في «كتاب التحفة» أكثر من مائة طريق.

والمقصود هاهنا: الكلام على هذه الآية.

وسابعها: أنه أَدْعَى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ، ويكرر رافعاً صوته؛ فإنه لا يطول له ذلك، بخلاف من يخفض صوته.

وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع، والمشوشات، والمضعفات. فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل له هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته ولو لم يكن من ذلك إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى. ومن له تجربة يعرف هذا؛ فإذا أسرّ الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم هو الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه والتبتل إليه. ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة. فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له. وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥]، وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه. ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحداً ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهداً لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مذيعاً بعض سرهم حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتماناً لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدي والسالك. فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه؛ بحيث لا يخشى من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به لم يبال. وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: «أفضل الدعاء الحمد لله»(١)، فسمى «الحمد لله» دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء. والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب من ربه حاجة ما.

فتأمل هذا الموضع؛ فإذا تأملته لا تحتاج إلى ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال، وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أمية بن أبي الصلت في ممدوحه:

أأذكر حاجتي، أم قد كفاني حياؤك؟ إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحبة، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه. وقد قال

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣).

تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه. قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكره في الصدر بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح. وقد تقدم حديث أبي موسى: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(١).

□ □ □

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، فذكر التضرع فيهما معاً، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها. وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد. فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات، إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل. ولقد حدثني رجل: أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى. فقال له: فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم، أو كما قال. وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه. فقال له: هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله. فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعي حفظ قلبه، أو كما قال.

فتأمل هذا الغرور العظيم؛ كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة. وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته، ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري. ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن. وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرّب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف. فهذه طريقة عبّاده وأوليائه.

وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرّد إلى استحلال المحرمات، ويقول: المحب لا يضره ذنب، وقد صنف بعضهم في ذلك مصنفاً، وذكر فيه أثراً مكذوباً: «إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب»، وهذا كذب قطعاً منافٍ للإسلام. فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم بالبدن، ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ ـ وأما عن رسول الله ﷺ فمعاذ الله من ذلك ـ فله محمل، وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب منافٍ لكونه محباً لله، وإذا لم يصر على الذنب، بل بادر إلى التوبة النصوح منه، فإنه يُمْحَى أثره ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب وأناب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره، فهذا المعنى صحيح.

والمقصود: أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق، وردّه إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته، لئلا تخرج عن الدرب والرجاء حادٍ يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها. فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصي تردها إذا حادت عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه.

وما وصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فساداً لا يرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضاً، فإنه قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فلم يحتج بعدها أن يقول: «خفية»، وقال في الدعاء: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، فلم يحتج أن يقول في الأولى: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية فانتظمت كل واحدة من الآيتين، للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة.

وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع.

وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم. فذكر في كل آية ما هو اللائق بها، والأولى بها: من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء. كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك. وقد روى أبو داود[١] في سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة وتعوذ من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء».

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء. فكل سؤال يناقض حكمة الله أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله.

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدعاء. قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء، والنداء في الدعاء والصياح.

وبعد، فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مراداً بها فهو من جملة المراد، والله لا يحب المعتدين في كل شيء، دعاء كان أو غيره، كما قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

---

(١) رواه الإمام أحمد ﷺ (٤/ ٨٧)، وأبو داود (٩٦).

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم الذين يدعون معه غيره. فهؤلاء أعظم المعتدين عدواناً. فإن أعظم العدوان هو الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها. فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلاً في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

ومن العدوان: أن يدعوه دعاء غير متضرع، بل دعاء مُدِلٍّ، كالمستغني بما عنده المدل على ربه به. وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد.

ومن الاعتداء: أن تعبده بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه. فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب.

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى مرضي له، وهو الدعاء تضرعاً وخفية.

والثاني: مكروه له مبغوض، مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله ومن لم يحبه الله فأي خير يناله؟

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم.

فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعاً وخفية، ومعتد بترك ذلك.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله. فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به، ومخالفة أمره. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم، فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ: هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول. فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة. فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين؛ وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عموماً وخصوصاً، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف، والطمع. فأمر أولاً بدعائه تضرعاً وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضاً خوفاً وطمعاً، وفصل بين الجملتين بجملتين؛ إحداهما: خبرية متضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، والثانية: طلبية، وهي قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؛ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها. ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفاً وطمعاً، ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية، وهي قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فتعلق هذه الجملة بقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، كتعلق قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنما ينال الرحمة من دعاه خوفاً وطمعاً، فهو المحسن والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية، عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

وانتصاب قوله: «تضرعاً، وخفية، وخوفاً، وطمعاً»، قيل: هو على الحال، أي: ادعوه متضرعين، مخفين، خائفين، طامعين، وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره.

وقيل: هو نصب على المفعول له. وهذا قول كثير من النحاة.

وقيل: هو نصب على المصدر. وفيه على هذا تقديران:

أحدهما: أنه منصوب بفعل مقدّر من لفظ المصدر، والمعنى: تضرعوا إليه تضرعاً وأخفوا خفية.

الثاني: أنه منصوب بالفعل المذكور نفسه؛ لأنه في معنى المصدر، فإن الداعي متضرع طامع في حصول مطلوبه خائف من فواته. فكأنه قال: تضرعوا تضرعاً.

والصحيح في هذا: أنه منصوب على الحال، والمعنى عليه، فإن المعنى ادعوا ربكم متضرعين إليه خائفين طامعين. ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقولهم: رجل عدل، ورجل صوم، قال الشاعر:

فـــإنـــمـــا هـــي إقـــبـــال وإدبـــار

وهو أحسن من أن يقال: ادعوه متضرعين خائفين، وأبلغ. والذي حسّنه أن المأمور به هنا شيئان: الدعاء الموصوف المقيّد بصفة معينة وهي صفة التضرع والخوف والطمع. فالمقصود تقييد المأمور به بتلك الصفة، وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها. فأتى بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته؛ لأن يكون صفة للفاعل وصفة للفعل المأمور به.

فتأمل هذه النكتة؛ فإنك إذا قلت: اذكر ربك تضرعاً فإنك تريد: اذكره متضرعاً إليه، واذكره ذكر تضرع، فأنت مريد للأمرين معاً. ولذلك إذا قلت: ادعه طمعاً، أي: ادعه دعاء طمع، وادعه طامعاً في فضله، وكذلك إذا قلت: ادعه رغبة ورهبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] كان المراد: ادعه راغباً وراهباً وادعه دعاء رغبة ورهبة.

فتأمل هذا الباب تجده كذلك، فأتى فيه المصدر الدال على وصف المأمور به بتلك الصفة، وعلى تقييد الفاعل بها تقييد صاحب الحال بالحال.

ومما يدل على هذا: أنك تجد مثل هذا صالحاً وقوعه جواباً لكيف. فإذا قيل: كيف أدعوه؟ قيل: تضرعاً وخفية، وتجد اقتضاء «كيف» لهذا أشد من اقتضاء «لِمَ»،

ولو كان مفعولاً له لكان جواباً للم، ولا تحسن هنا. ألا ترى أن المعنى ليس عليه. فإنه لا يصح أن يقال: لم أدعوه؟ فيقول: تضرعاً وخفية. وهذا واضح، ولا هو انتصاب على المصدر المبيّن للنوع الذي لا يتقيّد به الفاعل، لما ذكرناه من صلاحيته جواباً لكيف.

وبالجملة، فالمصدرية في هذا الباب لا تنافي الحال، بل الإتيان بالحال هاهنا بلفظ المصدر يفيد ما يفيده المصدر مع زيادة فائدة الحال، فهو أتم معنى ولا تنافي بينهما، والله أعلم.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم. فإن الله هو الغني الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه. فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم، لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته. وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعداً ببعد وقرباً بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته. والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان هاهنا هو فعل المأمور به؛ سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه. فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكل عليه، وأن

يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»(١).

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريبة من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ يعني: هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه؟ قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟

وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَـٰنِ إِلَّا الْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]، ثم قال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»(٢).

□ □ □

وأما الإخبار عن الرحمة ـ وهي مؤنثة بالتاء ـ بقوله: «قريب» وهو مذكر، ففيه اثنا عشر مسلكاً [نذكر منها ما اختاره الإمام ابن القيم].

المسلك السادس: أن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر، لكونه تبعاً له ومعنى من معانيه. فإذا ذكر أغنى عن ذكره لأنه يفهم منه.

فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله قريب من المحسنين. وأن رحمة الله قريبة من المحسنين؛ فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى.

وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيراً أحسن من هذا، وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الإفهام، وهو من أسرار القرآن.

والذي ينبغي أن يعبر عنه به: أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها. فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩ ـ ١٠).

(٢) رواه البغوي (٧/ ١١، ١٢). وقال السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٧١٣): «أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه».

وقد تقدم في أول الآية أن الله تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته ومن أهل سؤاله بإجابته، وذكرنا شواهد ذلك، وأن الإحسان يقتضي قرب الرب من عبده كما أن العبد قرب من ربه بالإحسان، وأن من تقرَّب منه شبراً تقرَّب الله منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً.

فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته.

ففي حذف التاء ها هنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة، وأن الله تعالى قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القربين؛ قربه وقرب رحمته.

ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم، لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك، فإن له شأناً، وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب. وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به، وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم.

فهو مسلك سابع: في الآية وهو المختار، وهو من أليق ما قيل فيها.

فهذا تمام اثني عشر مسلكاً في هذه الآية؛ أصحها المسلك المركب من السادس والسابع. وباقيها ضعيف واه ومحتمل، والمبتدي والمقلد لا يدرك هذه الدقائق، والفاضل المنصف لا يخفى عليه قويها من ضعيفها. وليكن هذا آخر الكلام على الآية، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [**الأعراف**: ٥٧، ٥٨].

أخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأن أحدهما معتبر بالآخر مقيس عليه. ثم ذكر قياساً آخر: أن من الأرض ما يكون أرضاً طيبة. فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١ _ ٣٥).

نباتها بإذن ربها، ومنها ما يكون أرضاً خبيثة، لا يخرج نباتها إلا نكداً، أي قليلاً غير منتفع به. فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ما أخرجت الأرض الطيبة.

فشبّه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض، لحصول الحياة بهذا وهذا.

وشبه القلوب بالأرض، إذ هي محل الأعمال، كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي، ولا يزكو عليه، ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر، ولا تخرج نباتها به إلا قليلاً، لا ينفع.

وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه، وعمل بما فيه كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر.

فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله، وتدبره بان أثره عليه، فشبّه بالبلد الطيب الذي يمرج ويخصب، ويحسن أثر المطر عليه، فينبت من كل زوج كريم، والمعرض عن الوحي عكسه، والله الموفق[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

من تأمل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ تبيّن له تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنى، أي: هو فاحشة من الفواحش وعرَّفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل ونعم الرجل زيد، أي: أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩].

أي: الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد، ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى،

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٧، ١٨٨).

فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١]. ثم نبه عن استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي مال لأجلها الذكر إلى الأنثى، من قضاء الوطر، ومن لذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة، وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة[(١)] النبي ﷺ بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح.

والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتُربي عليه بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله، ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركَّبها الله في الذكور، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه ديارهم فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوا هم ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

فتأمل: هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى.

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. وسمَّاهم مفسدين في قول نبيهم: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]. وسمَّاهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات، ومن ذمَّه الله بمثل هذه المذمَّات، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة، وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ

(١) يشير للحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله (٣/ ١٥٨) عن أنس رضي الله عنه. ورواه أبو داود (٦/ ٤٥) في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء. والنسائي (٦/ ٦٥، ٦٦) في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، وانظر: تخريجه في آداب الزفاف للألباني، ص(١٣٢).

عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦][١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

[هذا ما قاله نبي الله شعيب لقومه]، وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى الأمر، فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، ثم قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له سبحانه في خلقه علماً محيطاً ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩].

إنما هو في حق الفجار والكفار، ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون، والذي يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن قوم لا يؤمنون، كما قال عن نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. واحتج على هذا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم.

(١) الداء والدواء (٢٥٨ ـ ٢٦٠). (٢) شفاء العليل (٦٤).
(٣) الفوائد (١٦١).

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا يوم أخذ ميثاقهم، حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً، وأقرّوا باللسان وأضمروا التكذيب.

وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم.

قلت: وهو نظير قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال آخرون: لما جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها، ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها، فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبة من رد الحق أو أعرض عنه فلم يقبله، فإنه يصرف عنه ويحال بينه وبينه ويقلب قلبه عنه.

فهذا إضلال العقوبة وهو من عدل الرب من عبده، وأما الإضلال السابق الذي ضل به عن قبوله أولاً والاهتداء به، فهو إضلال ناشئ عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدى ولا يليق به، وأن محله غير قابل له، فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه.

كما هو أعلم حيث يجعل رسالته فهو أعلم؛ حيث يجعلها أصلاً وميراثاً، وكما أنه ليس كل محل أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، فليس كل محل أهلاً لقبولها والتصديق بها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية قالوا لنا: هذه، أي: نحن الجديرون الحقيقيون به ونحن أهله، وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا: هذا بسبب موسى وأصحابه أُصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم، يقوله المتطير لمن يتطير به، فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، كما قال تعالى عن أعداء رسول الله ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

---

(١) شفاء العليل (٣١).

فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه، وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه: أن طائرهم عند الله لا بسبب موسى، وأجاب عن تطير رسول الله ﷺ بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وأجاب عن الرسل بقوله: ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]، وأما قوله: «ألا إنما طائركم عند الله»، فقال ابن عباس[١]: طائرهم ما قضي عليهم وقدر، وفي رواية: شؤمهم عند الله ومن قبله، أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وبيان الدلالة[٣] من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمٰن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان والصابئة الفرعونية بمنزلة من يسأله أن يأكل ويشرب وينام، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه ويجب له وأشد تنزيهاً له منه.

الوجه الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه، ولهذا لمَّا سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه[٤]، ولما سأل عيسى بن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر[٥] سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٩، ٣٠). والدر المنثور (٣/ ٥١٨، ٥١٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٨٧).

(٣) أي: الدلالة على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة، وذلك يوم الدين جعلنا الله منهم برحمته.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ...﴾ الآية [البقرة: ٢٦].

(٥) وذلك في قوله تعالى ذكره: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ الآية [المائدة: ١١٤].

ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجاب بقوله: (لن تراني). ولم يقل: لا تراني، ولا أني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي. والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه ﷻ يُرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟

الوجه الخامس: أن الله تعالى قادر أن يجعل الجبل مستقراً مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية محالاً لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته، ويريهم نفسه، فأعلم ﷻ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ﷻ قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم أن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم؛ وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يكلم أحداً أو يراه أحد، ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعه كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله، كما لم يثبت الجبل لتجليه، وأما قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي، ولو قيّدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾[1] [الزخرف: ٧٧].

---

(١) حادي الأرواح (٢٢٩، ٢٣٠).

إن الله سبحانه أراد أن يُري موسى ﷺ من كمال عظمته، وجلاله، ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته، ومشاهدته عياناً؛ لصيرورة الجبل دكاً عند تجلي ربه سبحانه أدنى تجل، كما رواه ابن جرير(١) في تفسيره من حديث حماد بن سلمة: أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال حماد: «ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن»، فقال حميد لثابت: أتحدّث بمثل هذا؟ فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده، وقال: «رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا أحدث به». رواه الحاكم في صحيحه، وقال: هو على شرط مسلم، وهو كما قال(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨].

نبه بهذا الدليل على أن من لا يُكلِّم، ولا يهدي، لا يصلح أن يكون إلٰهاً(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: إن ذلك إلا امتحانك واختبارك، كما يقال: فتنت الذهب إذا امتحنته واختبرته، وليس من الفتنة التي هي الفعل المسيء(٤).

[وقال]: أي امتحانك وابتلاؤك، تضل بها من وقع فيها وتهدي من نجا منها(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٩/ ٥٣). ورواه الإمام أحمد ﷺ (٣/ ١٢٥). والترمذي (٥/ ٢٤٨) في التفسير باب (٨): «ومن سورة الأعراف». وقال: حديث حسن غريب صحيح. والحاكم (٢/ ٣٢٠، ٣٢١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير: «ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي الخلال عن محمد بن علي بن سويد عن أبي القاسم البغوي عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه...»، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٢، ٢٦٣). ورواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٠) وما بعدها، وصححه الألباني.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٠٠).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٤).

(٤) طريق الهجرتين (١٥٥).

(٥) إغاثة اللهفان (١/ ١٥٩).

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إذا كان لا معنى عند نفاة الحكمة عن الرب، والحسن والقبيح الفطريين للمعروف: إلا ما أمر به، فصار معروفاً بالأمر فقط، ولا للمنكر: إلا ما نهى عنه. فصار منكراً بنهيه فقط، فأي معنى لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؟

وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه؟

وهذا كلام ينزه عنه كلام آحاد العقلاء، فضلاً عن كلام رب العالمين.

وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول، وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم. ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول؛ بحيث إذا عرض أمره ونهيه على العقل السليم قبله أعظم قبول، وشهد بحسنه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال: ليته أمر به.

فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء، وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح ما نهي عنه، حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته.

ولو كان جهة كونه معروفاً ومنكراً هو الأمر المجرد لم يكن فيه دليل، بل كان يطلب له الدليل من غيره.

ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه.

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به، والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه، وشواهد نبوته. ومن يثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له، ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقول عنه، فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلاً عليه فقط.

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، فهذا صريح في أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه. ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس التحليل والتحريم.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، يطلعك على أسرار الشريعة، ويشرفك على محاسنها، وكمالها، وبهجتها، وجلالها. وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين: أن تكون بخلاف ما وردت به. وأن الله تعالى منزه عن ذلك، كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به(١).

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ سمى سبحانه التكاليف الشاقة أغلالاً لشدتها وصعوبتها، قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة، كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم، وقال ابن قتيبة: هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ، وجعلها أغلالاً لأن التحريم يمنع، كما يقبض الغل اليد(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة؛ لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد.

قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه، إذ الفقيه هو من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه.

ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى ﵇، وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل، واحتيال ظاهره الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا، والله أعلم، مُسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى، بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٢، ٣٣٣). (٢) شفاء العليل (٩٤ ـ ٩٥).

دون حقيقته مسخهم الله تعالى قردة، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً[١].

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج الحرام، والدم الحرام؛ وذلك أعظم إثماً من مجرد العمل يوم السبت؛ ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال، مسخهم الله تعالى قردة.

وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يوماً واحداً، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه؛ فإنه يرسلها عليه بالقدر تزدلف إليه بأيها يبدأ، فانظر ما فعل الحرص وما أوجب من الحرمان بالكلية، ومن هاهنا قيل: من طلبه كله فاته كله[٢].

وهذا جار على قواعد من لم يعتبر المقاصد ولم يسد الذرائع[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

أخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى، مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك. وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق.

فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وكل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بدَّ أن يقول على الله غير الحق،

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٣).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣١٧، ٣١٨).
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٢٠٦).

في فتواه، وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب ـ سبحانه ـ كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس. ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم، إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً.

فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق[١]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم لما عرضت عليهم التوراة لم يقبلوها، وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه حتى أمر الله سبحانه جبريل: فقلع جبلاً من أصله على قدرهم، ثم رفعه فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناه عليكم، فقبلوها كرهاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قال عبد الله بن وهب: قال ابن زيد[٢]: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح، قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذي أمركم به ونهيه الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله إلينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى، فيقول: هذا كتابي فخذوه، فجاءت غضبة من الله تعالى، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله قالوا: لا. قال: فبعث الله ملائكته فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا، قالوا: نعم، الطور. قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم. قال: فأخذوه بالميثاق.

وقال السدي: لما قال الله تعالى لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فأبوا أن يسجدوا، فأمر الله الجبل أن يرتفع فوق رؤوسهم فنظروا إليه وقد غشيهم فسقطوا سجداً على شق ونظروا بالشق الآخر، ثم تولوا من بعد هذه

---

(١) الفوائد (٩٨).

(٢) انظر: الطبري (٩/ ١٠٨، ١٠٩)، والدر المنثور (٣/ ٥٩٥).

الآيات، وأعرضوا، ولم يعملوا بما في كتاب الله ونبذوه وراء ظهورهم، فقال تعالى مذكراً لهؤلاء بما جرى من أسلافهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤][١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قيل: هذا موضع قد اضطربت فيه الأقدام، وطال فيه النزاع والخصام.

وأحسن ما فسرت به الآية قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه وينصّرانه»، فالميثاق الذي أخذه سبحانه عليهم، والإشهاد الذي أشهدهم على أنفسهم، والإقرار الذي أقروا به، هو الفطرة التي فطروا عليها، لأنه سبحانه احتج عليهم بذلك، وهو لا يحتج عليهم بما لا يعرفه أحد منهم ولا يذكره، بل بما يشتركون في معرفته والإقرار به.

وأيضاً، فإنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ولم يقل: (من آدم)، ثم قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل (من ظهره)، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ولم يقل: (ذريته)، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وهذا يقتضي إقرارهم بربوبيته إقراراً تقوم عليهم به الحجة.

وهذا إنما هو الإقرار الذي احتج به عليهم على ألسنة رسله كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥]، ونظائر ذلك كثيرة: يحتج عليهم بما فطروا عليه من الإقرار بربهم وفاطرهم، ويدعوهم بهذا الإقرار إلى عبادته وحده، وألا يشركوا به شيئاً: هذه طريقة القرآن، ومن ذلك هذه الآية التي في «الأعراف»، وهي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية، ولهذا قال في آخرها: ﴿أَن تَقُولُوا۟[٢] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) قال القرطبي: «قرأ أبو عمرو بالياء». «أن يقولوا»، «أو يقولوا» - فيهما. ردهما على لفظ الغيبة المتكرر قبله، . . . وقرأ الباقون بالتاء فيهما. . .». =

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣]، فاحتج عليهم بما أقروا به من ربوبيته على بطلان شركهم وعبادة غيره، وألا يعتذروا، إما بالغفلة عن الحق، وإما بالتقليد في الباطل، فإن الضلال له سببان: إما غفلة عن الحق، وإما تقليد أهل الضلال، فيطابق الحديث مع الآية، ويبيّن معنى كل منهما بالآخر.

□ □ □

وأما قول أحمد في مواضع أخر: يولد على ما فطر عليه من شقاوة أو سعادة، فلا تنافي بينه وبين قوله: إنها الدين، فإن الله سبحانه قدّر الشقاوة والسعادة وكتبهما، وإنها تكون بالأسباب التي تحصل بها كفعل الأبوين: فتهويدهما وتنصيرهما وتمجيسهما هو بما قدّر الله تعالى، والمولود يولد على الفطرة مسلماً، ويولد على أن هذه الفطرة السليمة قد يغيّرها الأبوان، كما قدّر الله ذلك وكتبه، كما مثل النبي ﷺ ذلك بقوله: «كما تُنْتَجُ البهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء»؟ فبيّن أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدعها الناس، وذلك أيضاً بقضاء الله وقدره، فكذلك المولود يولد على الفطرة مسلماً، ثم يفسده أبواه.

وإنما قال أحمد وغيره: ولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة، لأن القدرية كانوا يحتجون بهذا الحديث على أن الكفر والمعاصي ليست بقدر الله، بل بما فعله الناس، لأن كل مولود يولد على الفطرة، وكفره بعد ذلك من الناس. ولهذا لما قيل لمالك: إن القدرية يحتجون علينا بأول الحديث، قال: احتجوا عليهم بآخره، وهو قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

فبيّن الأئمة أنه لا حجة فيه للقدرية، فإنه لم يقل: إن الأبوين خلقا تهويده وتنصيره، والقدرية لا تقول ذلك، بل عندهم أنه تهوّد وتنصّر باختياره، ولكن كان الأبوان سبباً في حصول ذلك بالتعليم والتلقين، وهذا حق لا يقتضي نفي القدر السابق من العلم والكتاب والمشيئة، بل ذلك مضاف إلى الله تعالى علماً وكتابة ومشيئة، وإلى الأبوين تسبباً وتعليماً وتلقيناً، وإلى الشيطان تزييناً ووسوسة، وإلى العبد رضى واختياراً ومحبة.

= تفسير القرطبي (٣/ ٢٧٥٤)، وانظر: «كتاب السبعة في القراءات» لابن مجاهد، ص(٢٩٨).

ويدل على صحة ما فسر به الأئمة الفطرة أنها «الدين» ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى[1]: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»، وهذا صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اقتطعتهم بعد ذلك عنها، وأخرجوهم منها.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وهذا يتناول إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال.

وفي المسند وغيره من حديث الأسود بن سريع[2]، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فقال لهم النبي ﷺ: «ما حملكم على قتل الذرية؟» قالوا: يا رسول الله، أليسوا أولاد المشركين؟ قال: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟» ثم قام النبي ﷺ خطيباً فقال: «ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه»، فخطبته لهم بهذا الحديث عقيب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين، وقوله لهم: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟» نص أنه أراد أنهم ولدوا غير كفار، ثم الكفر طرأ بعد ذلك. ولو أراد: أن المولود حين يولد يكون إما كافراً وإما مسلماً على ما سبق به القدر، لم يكن فيما ذكره حجة على ما قصده من نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين.

□ □ □

قال أبو عمر: والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص، ولا استقامة أكبر

---

(١) رواه الإمام أحمد ﷺ (٤/ ١٦٢، ٢٦٦). رواه مسلم (٥/ ٧١٦) في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. وأبو داود الطيالسي رقم (١٠٧٩)، ص(١٤٥). والنسائي في فضائل القرآن، ص(١٠٤)، وانظر: التمهيد (١٨/ ٧٣)، «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٤٠٠).

(٢) الأسود بن سريع، صحابي، شاعر مشهور. الإصابة (١/ ٦٨). والحديث رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٥) و(٤/ ٢٤). والدارمي (٢/ ١٤١، ١٤٢)، وأبو يعلى (٢/ ٢٤٠)، والطبراني (١/ ٢٨٤)، والحاكم (٢/ ١٢٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: «بعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح» (٥/ ٣١٦) مجمع الزوائد.

من الإسلام. قال: وقد روي عن الحسن قال: «الحنيفية حج البيت»، وهذا يدل على أنه أراد الإسلام. وكذلك روي عن الضحاك والسدي «حنفاء: حجاجاً»، وعن مجاهد: «حنفاء: متبعين»، قال: وهذا كله يدل على أن الحنيفية: الإسلام.

قال: وقال أكثر العلماء: الحنيف المخلص. وقال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، قال الراعي[(١)]:

أخليفةَ الرحمانِ إنّا مَعْشرٌ حنفاءُ نَسجدُ بُكرةً وأصيلَا
عربٌ نَرَى لِلَّهِ في أموالنا حقَّ الزكاةِ منزَّلاً تَنزيلَا

قال: فوصف الحنيفية بالإسلام، وهو أمر واضح لا خفاء به. قال: ومما احتج به من ذهب إلى أن الفطرة في هذا الحديث: «الإسلام» قوله ﷺ: «خمس من الفطرة»، ويروى: «عشر من الفطرة»، يعني: فطرة الإسلام. انتهى.

قال شيخنا[(٢)]: فالأدلة الدالة على أنه أراد فطرة الإسلام كثيرة: كألفاظ الحديث الصحيح المتقدمة، كقوله: «على الملة»: و«على هذه الملة»؛ وقوله: «خلقت عبادي حنفاء»، وفي الرواية الأخرى: «حنفاء مسلمين».

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

فذكر سبحانه لهم حجتين يدفعهما هذا الإشهاد:

إحداهما: أن يقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، فبيّن أن هذا علم فطري ضروري لا بد لكل بشر من معرفته، وذلك يتضمن حجة الله في إبطال التعطيل، وأن القول: بإثبات الصانع علم فطري ضروري، وهو حجة على نفي التعطيل.

والثانية: أن يقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون، وهم آباؤنا المشركون، أي: أفتعاقبنا بذنوب غيرنا؟ فإنه لو قدّر أنهم

---

(١) هو: حصين بن معاوية من بني نمير، قيل له: الراعي؛ لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره... انظر: «طبقات الشعراء» لابن قتيبة، ص(٢٠١). وطبقات فحول الشعراء (١/ ٥٠٨)، وجمهرة أشعار العرب، ص(١٧٢ ـ ١٧٦).

(٢) يعني: الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٧١).

لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم ووجدوا آباءهم مشركين، وهم ذرية من بعدهم ومقتضى الطبيعة العادية أن يحتذي الرجل حذو أبيه حتى في الصناعات والمساكن والملابس والمطاعم، إذ كان هو الذي رباه، ولهذا كان أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإذا كان هذا مقتضى العادة والطبيعة، ولم يكن في فطرهم وعقولهم ما يناقض ذلك، قالوا: نحن معذورون، وآباؤنا هم الذين أشركوا، ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، ولم يكن عندنا ما يبيّن خطأهم، فإذا كان في فطرهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبيّن بطلان هذا الشرك وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم.

فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء، كانت الحجةُ عليهم الفطرة الطبيعية الفعلية السابقة لهذه العادة الطارئة، وكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتجون بها؛ وهذا يقتضي أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك لا يحتاج ذلك إلى رسول، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا.

وهذا لا يناقض قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإن الرسول يدعو إلى التوحيد، ولكن الفطرة دليل عقلي يعلم به إثبات الصانع، لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم: فهذه الشهادة على أنفسهم التي تتضمن إقرارهم بأن الله ربهم، ومعرفتهم بذلك أمر لازم لكل بني آدم، به تقوم حجة الله تعالى في تصديق رسله، فلا يمكن أحداً أن يقول يوم القيامة: إني كنت عن هذا غافلاً، ولا أن الذنب كان لأبي المشرك دوني؛ لأنه عارف بأن الله ربه لا شريك له، فلم يكن معذوراً في التعطيل والإشراك، بل قام بما يستحق به العذاب.

ثم إن الله سبحانه ـ لكمال رحمته وإحسانه ـ لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسول إليه، وإن كان فاعلاً لما يستحق به الذم والعقاب: فللّه على عبده حجتان قد أعدهما عليه لا يعذبه إلا بعد قيامهما:

إحداهما: ما فطره عليه وخلقه عليه من الإقرار بأنه ربه ومليكه وفاطره، وحقه عليه لازم.

والثانية: إرسال رسله إليه بتفصيل ذلك وتقريره وتكميله، فيقوم عليه شاهد الفطرة والشرعة، ويقرُّ على نفسه بأنه كان كافراً، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فلم ينفذ عليهم الحكم إلا بعد إقرار وشاهدين، وهذا غاية العدل[1].

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فشبه(١) سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهاً وحرصاً. ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويستروح حرصاً وشرهاً. ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيفُ القذرة المروحة أحب إليه من اللحم، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلّا هَرَّ عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية، وحال رزيَّة نبحه، وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته. وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة: وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة ـ مع وفور علمه ـ بالكلب في حال لهثه: سر بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه: إنما كان لشدة لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة. فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه. واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج(٢): الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث. فهو مثل الذي يترك الهدى، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٢٨). وذكر أكثر الأقوال الواردة هنا.
(٢) الطبري (٩/ ١٢٩).

وهكذا هذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها. فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث عن قلة صبره عن الماء. فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإذا كان فيه صبر على الجوع. وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثاً: يلهث قائماً، وقاعداً، وماشياً، وواقفاً. وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث.

فهكذا مشبهه: شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مجاهد: ذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به. وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها. وإن تتركه لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضاً لهث، وإن طرد لهث.

وقال الحسن[1]: هو المنافق لا يثبت على الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ؛ كالكلب يلهث طرداً وتركاً.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة[2]: «كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، أو علة إلَّا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش».

فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني.

فمنها قوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه. ثم قال: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾، أي: خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، ص(٣٦٩).

ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه.

ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]، وكان محفوظاً محروساً بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئاً إلا على غِرَّةٍ وَخَطْفة. فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظَفَر الأسد بفريسته ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم. فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله. فإنَّ هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به. نعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأساً، فإن الرب الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه.

والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس: لو شئنا لرفعناه بعلمه.

وقالت طائفة[1]: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ عائد على الكفر. والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا. قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه.

وهذا المعنى حق: والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد.

وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض. وقال مجاهد: سكن. وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ.

والمخلد من الرجال: هو الذي يبطئ في مشيته. ومن الدواب: التي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته.

وقال الزجاج: خلد وأخلد. وأصله من الخلود... وهو الدوام والبقاء. يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به. قال مالك بن نويرة:

---

(١) انظر: تفصيل الأقوال في الآية في تفسير الطبري (٩/ ١٢٧).

بـأبـنـاء حَـيٍّ مِـنْ قَـبـائِـل مـالِـك وَعمْرِو بن يَرْبُوع أقاموا فأخْلَدوا

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]، أي: قد خلقوا للبقاء، لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم على سن واحد أبداً.

وقيل: هم المقرَّطون في آذانهم، والمسورون في أيديهم.

وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها. وذلك أمارة التخليد على ذلك السن فلا تنافي بين القولين.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها.

وقال أبو رَوْق[(١)]: اختارَ الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه.

وقال ابن زيد: كان هواه مع القوم، يعني: الذين حاربوا موسى وقومه.

وقال ابن يمان: اتبع امرأته؛ لأنها هي التي حملته على ما فعل.

□ □ □

فإن قيل: الاستدراك بـ«لكن» يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها، أو ينفي ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته، لكني لم أعطه، ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته. والاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ، أو لم نرفعه، فكيف استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾.

قيل: هذا من كلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني. وذلك أن مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات: من إيثار الله ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

وقال الزمخشري[(٢)]: المعنى: ولو لزم آياتنا لرفعناه بها.

فذكر المشيئة. والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه، كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها.

قال: ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ﴾، فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله. فوجب أن يكون: ولو شئنا في معنى: ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه، ولكنا لم نشأ.

---

(١) أبو روق، هو عطية بن الحارث، صاحب التفسير، صدوق. تهذيب التهذيب (٧/ ٢٢٤).

(٢) راجع: نص كلام «الزمخشري» في تفسيره «الكشاف» (٢/ ١٠٤).

فهذا من الزمخشري شنشنة نعرفها من قدري نافٍ للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً.

فأين قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ من قوله: ولو لزمها؟ ثم إذا كان اللزوم لها موقوفاً على مشيئة الله ـ وهو الحق ـ بطل أصله.

وقوله: إن مشيئة الله تابعة للزوم الآيات: من أفسد الكلام وأبطله، بل لزومه لآياته تابع لمشيئة الله، فمشيئة الله سبحانه متبوعة لا تابعة، وسبب لا مسبب. وموجب مقتض لا مقتضى، فما شاء الله وجب وجوده وما لم يشأ امتنع وجوده[1].

□ □ □

فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولم يقل: تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد، والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢١٦).

وثامنها: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفساً وأبخلها، وأشدها كلباً، ولهذا سمي كلباً.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها، وحرصه في تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا... هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا ـ وإن وعظ وزجر فهو كذلك ـ فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس، كانوا بمنزلة فاقديها، فالقلب يوصف: بالبصر، والعمى، والسمع، والصم، والنطق، والبكم، بل هذه له أصلاً، وللعين والأذن واللسان تبعاً، فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى. وإن كان مفتوح العين، أصم ولا آفة بأذنه، أبكم وإن كان فصيح اللسان. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦](٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، حيي يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم؛ فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح: خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه(٣).

□ □ □

(١) الفوائد (١٠٠ ـ ١٠٢).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠١).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠).

وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح. فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال، ولهذا لما سمع بعض العرب قارئاً يقرأ: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم﴾، قال: ليس هذا كلام الله تعالى، فقال القارئ: أَتُكَذِّبُ بكلام الله تعالى فقال: لا ولكن ليس هذا بكلام الله. فعاد إلى حفظه وقرأ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال الأعرابي: صدقت عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع. ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب، أو بالعكس ظهر تنافر الكلام وعدم انتظامه[1].

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د)؛ فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين، المائل عن الحق إلى الباطل. قال ابن سكيت: الملحد المائل عن الحق، المدخل فيه ما ليس منه، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] أي من تعدل وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلٰهية، والعُزَّى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلٰهاً، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علة فاعله بالطبع ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من

---

(١) جلاء الأفهام (٩٣).

الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات، ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به. وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها؛ فكلاهما ملحد في أسمائه، وكل من جحد شيئاً عما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو يستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها. وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى؛ بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم برياً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل. لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً. وأهل السنة وسط في النحل. كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل للوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فجعل علة السكون أنها منه، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيداً لقلبه عنه.

ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٩).

أنه شيء في ذات النفس، وربما كانت المحبة بسبب من الأسباب، فتفنى بفنائه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥].

فبيّن سبحانه أن هذه أشباح وصور خالية عن صفات الإلٰهية، وأن المعنى المعتبر معدوم فيها، وأنها لو دُعيت لم تجب، فهي صور خالية عن أوصاف ومعان تقتضي عبادتها، وزاد هذا تقريراً بقوله: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾، أي: أن جميع ما لهذه الأصنام من الأعضاء التي نحتتها أيديكم، إنما هي صور عاطلة عن حقائقها وصفاتها؛ لأن المعنى المراد المختص بالرجل هو مشيها، وهو معدوم في هذه الرجل، والمعنى المختص باليد هو بطشها، وهو معدوم في هذه اليد، والمراد بالعين إبصارها، وهو معدوم في هذه العين، ومن الأذن سمعها وهو معدوم فيها، والصور في ذلك كله ثابتة موجودة، وكلها فارغة خالية عن الأوصاف والمعاني فاستوى وجودها وعدمها[٢].

فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلاً على عدم إلٰهية من عدمت فيه هذه الصفات؛ فالبطش والمشي من أنواع الأفعال، والسمع والبصر من أنواع الصفات[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد: أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل[٤]: «ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل؟ فسأل، ثم رجع إليه فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال:

---

(١) روضة المحبين (٨٤). (٢) إعلام الموقعين (١/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٥).

(٤) رواه ابن جرير (٩/ ١٥٥)، مرسلاً عن سفيان بن عيينة، عن رجل قد سماه. وانظر: الدر المنثور (٣/ ٦٢٨)، وابن كثير (٢/ ٢٩٧).

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعاد له معارض، وله في كل واحدة من هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم وينهاهم عن ضده، وواجبه فيما يبذلونه من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعت له به أنفسهم سماحة واختياراً، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم، وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس. وقال مجاهد: يعني: خذ العفو من أخلاق الناس من غير تخسيس، مثل قبول الاعتذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، وهو كل معروف، وأعرفه: التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، يعني: إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وعلى هذا فليست بمنسوخة. بل يعرض عنه مع إقامة حق الله تعالى ولا ينتقم لنفسه، وهكذا كان خلقه ﷺ، قال أنس رضي الله عنه(١): «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»، وقال(٢): «ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت

---

(١) رواه البخاري (١٠/٥٩٨) في الأدب، باب: الكنية للصبي... ومسلم (٤/٨٥٧) في الأدب، باب: جواز تكنية من لم يولد له...

(٢) روى آخره البخاري (١٠/٤٧١)، وهو قوله: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت... إلخ» في الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء... وكذا مسلم (٥/١٦٦) في الفضائل، حسن خلقه ﷺ. ورواه بتمامه الترمذي (٤/٣٢٣، ٣٢٤) في البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ. وقال: حسن صحيح.

رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أفٍّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا»[١]. متفق عليهما.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه. قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم: صن نفسك عن مقابلتهم على سفههم، وهذا كثير في كلامهم[٢].

وفي هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم. فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم فإن العفو ما عفي من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

أمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتذكر: تفعُّل من الذكر، وهو حصول صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فالبصر ما جعل دليلاً عليه فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين التذكّر والتبصّر[٥].

* * *

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦).
(٢) مفتاح دار السعادة (١٠٩ ـ ١١٠).
(٣) الرسالة التبوكية (٨٥).
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٩٦).
(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٩٤).

سُورَةُ الأَنفَال

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

قرئ[١] بكسر الدال وفتحها، فقيل: المعنى: أنهم ردف لكم. وقيل: يردف بعضهم بعضاً أرسالاً لم يأتوا دفعة واحدة.

فإن قيل: ها هنا ذكر أنه أمدهم بألف، وفي (سورة آل عمران) قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

فكيف الجمع بينهما؟

قيل: قد اختلف[٢] في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بالخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم أحد، وكان إمداداً معلقاً على شرط فلما فات شرطه، فات الإمداد، وهذا قول الضحاك ومقاتل وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس ومجاهد، وقتادة. والرواية الأخرى عن عكرمة، اختاره جماعة من المفسرين.

وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٥] إلى أن قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: هذا الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾ [آل عمران: ١٢٦].

(١) قال القرطبي: «﴿مُرْدِفِينَ﴾ بفتح الدال قراءة نافع، والباقون بالكسر..» (٤/٢٨٠٦).

(٢) راجع: تفسير الطبري (٤/٧٦) و(٩/١٨٩)، والقرطبي (٣/١٤٣٢).

قال هؤلاء: فلما استغاثوا؛ أمدهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا، فكان هذا التدريج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً وأقوى لنفوسهم وأسر لهم من أن يأتي به مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أحد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١، ١٢٢]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة ثم عاد إلى قصة أُحد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق. والقصة في سورة آل عمران هي قصة أُحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في (آل عمران) غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥]. قد قال مجاهد: إنه يوم أحد. وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه. فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد، والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

قيل في تفسيرها: قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال. والقولان حق: فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ١٧٦ ـ ١٧٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [**الأنفال**: ١٧].

قلت: اعتقد جماعة أن المراد بالآية: سلب فعل الرسول ﷺ عنه، وإضافته إلى الرب تعالى.

وجعلوا ذلك أصلاً في الجبر، وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده، وهذا غلط منهم في فهم القرآن.

فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال، فيقال: ما صليت إذ صليت، وما صمت إذ صمت، وما ضحيت إذ ضحيت، ولا فعلت كل فعل إذ فعلته، ولكن الله فعل ذلك. فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد ـ طاعتهم ومعاصيهم ـ إذ لا فرق، فإن خصوه بالرسول ﷺ وحده وأفعاله جميعها، أو رميه وحده: تناقضوا، فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.

وبعد، فهذه الآية نزلت[(١)] في شأن رميه ﷺ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ.

فكان منه ﷺ مبدأ الرمي وهو الخذف، ومن الله ﷻ نهايته وهو الإيصال.

فأضاف إليه رمي الخذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته.

ونظير هذا قوله في الآية نفسها: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]، ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فأخبره: أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم. ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم، ولم يكن ذلك من رسوله، ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسباباً ظاهرة، كدفع المشركين، وتولى دفعهم، وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافاً إليه وبه، وهو خير الناصرين[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [**الأنفال**: ١٧].

فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من

---

(١) رواه ابن إسحاق (٢/ ٢٧٠) في أحداث غزوة بدر. والطبراني في الكبير (٣/ ٢٠٣) من حديث حكيم بن حزام ؓ. قال الهيثمي (رواه في الكبير والأوسط، وإسناده حسن) (٦/ ٨٤). ورواه في الكبير أيضاً (١١/ ٢٨٥) عن ابن عباس ؓ. قال الهيثمي: (ورجاله رجال الصحيح) (٦/ ٨٤). وصححه الألباني كما في فقه السيرة (ص٢٣٩). وانظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٠٤)، وابن كثير (٢/ ٣١٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٢٦، ٤٢٧).

الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاء حسناً إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله ولا ابتلاك. فأبلاه بالخير وابتلاه بالمكاره غالباً، كما في الحديث[1]: «إني مبتليك ومبتل بك»[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان، وإقامة حجة لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة؛ فصار القرآن لهم هدى ورحمة، ولأولئك هدى بلا رحمة.

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فتضمنت هذه الآية أموراً:

أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية، مشتركة بينه وبين أرذل

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/ ١٦٢، ٢٦٦)، ومسلم (٢٨٦٥).
(٢) طريق الهجرتين: (٣٢٠).
(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧١، ١٧٢).

الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً.

فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل الناس حياة، أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ؛ فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يعني: للحق.

وقال قتادة: هو هذا القرآن، فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.

وقال السدي: هو الإسلام، أحياهم به بعد موتهم بالكفر.

قال ابن إسحاق[1] وعروة بن الزبير ـ واللفظ له ـ ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾، يعني: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة[2]: وهي القيام بما جاء به الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً.

قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ هو الجهاد. وهو قول ابن إسحاق، واختيار أكثر أهل المعاني.

قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد؛ ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم.

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.

أما في الدنيا: فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد.

وأما في البرزخ: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما في الآخرة: فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم.

ولهذا قال ابن قتيبة[3]: «لما يحييكم» يعني: الشهادة.

وقال بعض المفسرين: «لما يحييكم» يعني: الجنة، فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٢). (٢) راجع: تفسير الطبري (٩/ ٢١٣).

(٣) في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: «أي: إلى الجهاد الذي يحيي دينكم ويعليكم»، (ص١٥١).

والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة. والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة.

والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة.

حياة بدنه: التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره. ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك؛ ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك.

وحياة قلبه وروحه: التي بها يميز بين الحق والباطل، والغي والرشاد، والهوى والضلال فيختار الحق على ضده؛ فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم، والإرادات، والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل، فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته ونصرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم، فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب.

فإذا بطلت حياته بطل تمييزه، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار، كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه؛ فيصير حياً بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات.

فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقي إليه. قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]. وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. فأخبر أن وحيه روح ونور. فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان.

ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين، وفاتته الأخرى.

□ □ □

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.

المشهور في الآية: أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وطاعته. وهذا قول ابن عباس، وجمهور المفسرين[(١)].

وفي الآية قول آخر: إنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه، ذكره الواحدي عن قتادة. وكأن هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه؟

وعلى القول الأول فوجه المناسبة: إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة، وأبطأتم عنها؛ فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، وعقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]. ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب، وإن استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر؛ وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة، وبين القدر وبين الإيمان به. فهي كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦]. والله أعلم[(٢)].

وتأمل كيف أخبر عن حيلولته بين المرء وقلبه بعد أمره بالاستجابة له ولرسوله، كيف تجد في ضمن هذا الأمر، والخبر أن من ترك الاستجابة له ولرسوله؛ حال بينه وبين قلبه عقوبة له على ترك الاستجابة، فإنه سبحانه يعاقب القلوب بإزاغتها عن هداها ثانياً، كما زاغت هي عنه أولاً. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥][(٣)].

* * *

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢١٤ ـ ٢١٧). (٢) الفوائد (٨٧ ـ ٩٠) و(١٣٠).
(٣) الكلام في مسألة السماع (١٠٠، ١٠١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فأشارت هذه الآية إلى أن محبة الرسول، وحقيقة ما جاء به، إذا كان في القلب؛ فإن الله لا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإذا كان وجود الرسول في القلب مانعاً من تعذيبه، فكيف بوجود الرب تعالى في القلب!! فهاتان إشارتان[٢].

وتأمل كيف يفهم منه أنه إذا كان وجود بدنه وذاته فيهم دفع عنهم العذاب، وهم أعداؤه. فكيف وجود سره والإيمان به ومحبته، ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص، أفليس رفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحرى[٣]!!.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

قال ابن عباس وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة: «المكاء: الصفير، التصدية: التصفيق».

وكذلك قال أهل اللغة: المكاء: الصفير. يقال: مكا، يمكو، مُكاء: إذا جمع يديه ثم صفر فيهما. ومنه: مكت است الدابة، إذا خرجت منها الريح بصوت، ولهذا جاء على بناء الأصوات كالرغاء والعواء والثغاء، قال ابن السكيت: الأصوات كلها مضمومة إلا حرفين: النداء والغناء.

وأما التصدية: فهي في اللغة: التصفيق. يقال: صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه.

قال حسان بن ثابت يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم:

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٥٨).
(٢) الكلام في مسألة السماع (٣٩٧).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ٢٩٠).

إذا قام الملائكة انبعثتم صلاتكم التصدِّي والمكاء

وهكذا الأشباه. يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع، وهم في الصفير والتصفيق.

قال ابن عباس: «كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، ويصفرون ويصفقون».

وقال مجاهد: «كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويصفرون ويصفقون يخلطون عليه طوافه وصلاته»، ونحوه عن مقاتل. ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا، فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول، وإخوانهم المخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثاني.

قال ابن عرفة وابن الأنباري: المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها: المكاء والتصدية؛ فألزمهم ذلك عظيم الأوزار. وهذا كقولك: زرته فجعل جفائي صلتي، أي: أقام الجفاء مقام الصلة.

والمقصود: أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح؛ لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً؟[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فناقض بين كون الفتنة، وبين كون الدين كله. فكل منهما يناقض الآخر. والفتنة قد فسرت بالشرك.

فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك وإما من أسباب الشرك، وهي جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات[2].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٥٨).

قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

أما اللام فهي لام التعليل على بابها، فإنها مذكورة في بيان حكمته في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد، ونصرة أوليائه مع قلتهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد، الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم.

فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بيّنة، فلا يكون له على الله حجة، ويحيا من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بيّنة، فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً؛ ليكونوا على رجاء من الفلاح، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أي: كثيراً[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم وأسلمهم، كما قال حسان:

دَلَّاهم بغرورٍ ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرار

وكذلك فعل بالراهب[(٣)] الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها ثم دل

---

(١) شفاء العليل (١٩٣).

(٢) الوابل الصيب (٤٩) طبعة: دار البيان.

(٣) يقصد ما رواه كثير من المفسرين عند قوله ـ جلّ ذكره ـ في سورة الحشر آية (١٦). انظر: =

أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود؛ فلما فعل فر عنه وتركه، وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]. وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر لينصره، ويقضي حاجته فإنه يتبرأ منه ويسلمه، كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار ويقول لهم: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فأوردهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس(١) في قول عدو الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، فقال قتادة وابن إسحاق: «صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وكذب في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه لا أنه خاف عقابه في الآخرة».

وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة.

قال الكلبي: «خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه». وهذا فاسد فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فر ونكص على عقبيه، إلا إنه يريد أنه إذا عرَّف المشركين أن الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك، وقد أبعد النجعة إن أراد ذلك، وتكلف غير المراد.

وقال عطاء: «إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك». وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه.

وقال الزجاج وابن الأنباري: «ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر ـ زاد ابن

= تفسير الطبري (٢٨/ ٤٩، ٥٠) عن علي وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وتفسير البغوي (٧/ ٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٢)، وقال: «وذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل، هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الواقع المشاكلة لها. . .»، ثم ساقها من رواية ابن جرير. ورواه مختصراً مرفوعاً القرطبي، وقال: «ذكره القاضي إسماعيل وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة الزرقي عن النبي ﷺ» (٨/ ٦٥١٦) عند تفسير آية الحشر. وانظر: الدر المنثور (٨/ ١١٦)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٠٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٨ ـ ٢٠).

الأنباري ـ قال: أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر، فيقع بي العذاب، فإنه لما عاين الملائكة؛ خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضى، فقال ما قال إشفاقاً على نفسه»[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وإشارتها أنه إذا عاقب قوماً وابتلاهم لم يغير ما بهم من العقوبة والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، كما قال العباس عم رسول الله ﷺ: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة». ومنه قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة»[(٢)].

فإذا منع الكلب والصورة دخول الملك إلى البيت، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبته في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها[(٣)].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غُير عليه جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

فإن غيَّر المعصية بالطاعة؛ غيَّر الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

وتأليف القلوب: جعل بعضها يألف بعضاً ويميل إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره[(٥)].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٨ ـ ١١٠).
(٢) رواه البخاري (١٠/ ٣٩٤) في اللباس، باب: التصاوير، ومسلم (٤/ ٨١٣) في اللباس، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان.
(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٩٧، ٣٩٨).
(٤) الجواب الكافي (١٠٥).
(٥) شفاء العليل (٥٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

أي: الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

وهنا تقديران:

أحدهما: أن تكون الواو عاطفة لـ«مَنْ» على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار. وشواهده كثيرة وشبه المنع منه واهية.

والثاني: أن تكون الواو واو «مع»، وتكون «من» في محل نصب عطفاً على الموضع. فإن «حسبك» في معنى: كافيك، أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاءُ وانشقَّتِ العصا   فحسبك والضَّحَّاكَ سيفٌ مهنّدُ

وهذا أصح التقديرين.

وفيها تقدير ثالث: أن تكون «من» في موضع رفع بالابتداء. أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله.

وفيها تقدير رابع: وهو خطأ من جهة المعنى؛ وهو أن يكون «من» في موضع رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعك.

وهذا ـ وإن قال: به بعض الناس ـ فهو خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. ففرق بين الحسب والتأييد. فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده.

وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده؛ حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله. فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: «الله وأتباعك حسبك»، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه؟! فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟ هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل، ونظير هذا: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾

[التوبة: ٥٩]. فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨]. فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله ﷻ.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. فالحسب هو الكافي، فأخبر ﷻ أنه وحده كاف عبده؛ فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر هاهنا(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق:

فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم، وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم.

وقال آخرون: وهو الصواب: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، والله أعلم(٢).

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٣٥).

(٢) شفاء العليل (٢٨).

الفهرس الموضوعي للمجلد الأول

الموضوع | الصفحة

سورة آل عمران

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

سورة الأعراف

بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام

ابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

جمعه وخرج أحاديثه
يسري السيد محمد

راجعه ونسق مادته ورتبها
صالح أحمد الشامي

طبعة جديدة منقحة

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٧هـ

طبعة جديدة منقحة

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ -
جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام

ابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

جمعه وخرج أحاديثه

يسري السيد محمد

راجعه ونسق مادته ورتبها

صالح أحمد الشامي

طبعة جديدة منقحة

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ التَّوبَةِ

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

فأمرهم بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب ودواؤه في شفاء غيظه فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أخر أصعب من مرض العشق[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

أي: وليجة[(٢)] ممن اتخذ رجلاً بعينه، عياراً على كلام الله ورسوله وكلام سائر علماء الأمة، يزن القرآن والسنة وكلام سائر العلماء على قوله، فما خالفه رده، وما وافقه قبله[(٣)].

ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام رسوله وكلام سائر الأمة يقدمه على ذلك كله، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله، فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله، وما خالفه منها تلطف في رده وتطلب له وجوه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة[(٤)]؟.

* * *

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩).

(٢) «وليجة» من الولائج: بطانة. أساس البلاغة، ص(٥٠٨)، وقال الأصفهاني في المفردات: «. . . كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله. . .»، ص(٥٣٢).

(٣) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٢٥). (٤) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩ ـ ٢٠].

فأخبر ﷻ أنه لا يستوي عنده عُمّار المسجد الحرام ـ وهم عمّاره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن ـ وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعُمّار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عُمّاره بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

فهؤلاء هم عُمّار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأما تقديمهم [أي: الآباء والأبناء] على الأموال فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولاً بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر

---

(١) طريق الهجرتين (٣٣٢، ٣٣٣).

والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم. ثم ذكر الفروع وهم الأبناء؛ لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب.

فذكر الأصول أولاً، ثم الفروع ثانياً، ثم النظراء ثالثاً، ثم الأزواج رابعاً، لأن الزوجة أجنبية عنده ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامساً، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالباً، وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير.

ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادساً، ووصفها بكونها مقترفة، أي: مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل، وله أحب، وبقدره أعرف؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفواً بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثاني، والحس شاهد بهذا وحسبك به.

ثم ذكر التجارة سابعاً، لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلا أنها مخوفة الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامناً، آخر المراتب لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه، ويكون خيراً منه فمنها عوض. وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منها بغيرها، فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبة الوطن آخر المراتب.

وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب، فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٥، ٧٦).

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فالجزية هي: الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغاراً.

والمعنى: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم.

واختلف في اشتقاقها، فقال القاضي في «الأحكام السلطانية»(١): اسمها مشتق من الجزاء، إما جزاءً على كفرهم لأخذها منهم صغاراً، أو جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقاً.

قال صاحب «المغني»: هي مشتقة من جزاه، بمعنى قضاه، لقوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، فتكون الجزية مثل الفدية. قال شيخنا(٢): والأول أصح وهذا يرجع إلى أنها عقوبة أو أجرة.

وأما قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ فهو في موضع النصب على الحال، أي: يعطوها أذلاء مقهورين: هذا هو الصحيح في الآية(٣).

وقالت طائفة: المعنى: من يد إلى يد نقداً غير نسيئة.

وقالت فرقة: من يده إلى يد الآخذ لا باعثاً بها ولا موكلاً في دفعها.

وقالت طائفة: معناه: عن إنعام منكم عليهم بإقراركم لهم، وبالقبول منهم.

والصحيح القول الأول، وعليه الناس، وأبعد كل البعد ولم يصب مراد الله من قال: المعنى: عن يد منهم، أي: على قدرة على أدائها، فلا تؤخذ من عاجز عنها.

وهذا الحكم صحيح، وحمل الآية عليه باطل، ولم يفسر به أحد من الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأمة، وإنما هو من حذاقة بعض المتأخرين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حال أخرى.

فالأول: حال المسلمين في أخذ الجزية منهم أن يأخذوها بقهر وعن يد.

والثاني: حال الدافع لها أن يدفعها وهو صاغر ذليل.

واختلف الناس في تفسير «الصغار»(٤) الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية، فقال عكرمة: أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخذ جالساً. وقالت طائفة: أن يأتي

---

(١) «الأحكام السلطانية» للقاضي أبي يعلى، ص(١٥٣).
(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. (٣) راجع: تفسير الطبري (١٠/١٠٩).
(٤) الطبري (١٠/١٠٩).

بها بنفسه ماشياً لا راكباً، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجر يده ويمتهن. وهذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ، ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك.

والصواب في الآية: أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية. فإن التزام ذلك هو الصغار، وقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل: كانوا يجرون في أيديهم، ويختمون في أعناقهم إذا لم يؤدوا الصغار الذي قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وهذا يدل على أن الذمي إذا بذل ما عليه، والتزم الصغار؛ لم يحتج إلى أن يجر بيده ويضرب.

وقد قال في رواية مهنا بن يحيى: يستحب أن يتعبوا في الجزية.

قال القاضي: ولم يرد تعذيبهم ولا تكليفهم فوق طاقتهم، وإنما أراد الاستخفاف بهم وإذلالهم.

قلت: لما كانت يد المعطي العليا، ويد الآخذ السفلى، احترز الأئمة أن يكون الأمر كذلك في الجزية، وأخذوها على وجه، تكون يد المعطي السفلى ويد الآخذ العليا.

قال القاضي أبو يعلى: وفي هذا دلالة على أن هؤلاء النصارى الذين يتولون أعمال السلطان، ويظهر منهم الظلم والاستعلاء على المسلمين، وأخذ الضرائب لا ذمة لهم وأن دماءهم مباحة؛ لأن الله تعالى وصفهم بإعطاء الجزية على وجه الصغار والذل. وهذا الذي استنبطه القاضي من أصح الاستنباط؛ فإن الله ﷻ مد القتال إلى غاية: وهي إعطاء الجزية مع الصغار، فإذا كانت حالة النصراني وغيره من أهل الجزية منافية للذل والصغار، فلا عصمة لدمه ولا ماله وليست له ذمة، ومن هنا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١] تلك الشروط التي فيها صغارهم، وإذلالهم وأنهم متى خرجوا عن شيء منها فلا عهد لهم ولا ذمة، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل الشقاق والمعاندة»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

---

(١) انظر: شرح كتاب «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢٢ ـ ٢٥).

ومعنى النسيء: تأخير رجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله مأخوذ من نسأت الشيء إذا أخرته. ومنه النسيئة في البيع.

وكان من جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم هذه الأشهر الحرم، فكانوا يتحرجون فيها عن القتال، وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضاً، إلى أن تنصرم هذه الأشهر، ويخرجوا إلى الحل، فكان أكثرهم يتمسكون بذلك، ولا يستحلون القتال فيها، وكان قبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل، ويقولون: نسأنا الشهر.

واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون في قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ، فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة يوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضعه الله[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب الرسول ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٥ ـ ٤٧].

والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله. قال ابن عباس[(٣)]: يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج.

وقال في رواية أخرى: حبسهم.

---

(١) تهذيب السنن (٢/ ٤٠٧).
(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧).
(٣) راجع: تفسير الطبري (١٠/ ١٤٤).

قال مقاتل: وأوحى إلى قلوبهم: اقعدوا مع القاعدين. وقد بيّن سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد.

ولما تركوا الإيمان به وبلقائه، وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله، ولم يستعدوا له، ولا أخذوا أهبة ذلك؛ كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه. فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفراً، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه فَثَبَّطَهُ لئلا يقع ما يكره من خروجه، وأوحى إلى قلبه قدراً وكوناً أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء، عنهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾.

والخبال: الفساد والاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف. قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالاً: عجزاً وجبناً. يعني: يجبنونهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم، وتعظيمهم في صدورهم.

ثم قال: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾، أي: أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد. قال ابن عباس: يريد أضعفوا شجاعتكم، يعني: بالتفريق بينهم، لتفرق الكلمة؛ فيجبنوا عن لقاء العدو. وقال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين. وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب. قال لبيد:

أرانا موضعين لحتم عيب   وسحر بالطعام وبالشراب

أي: مسرعين.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

يتألهن بالعرفان لما عرفنني   وقلن امرؤ باغ أكَلَّ وأوضعا

أي: أسرع حتى كلَّت مطيته.

قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم. وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم. ومعناه على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون؛ أفسدوهم عليكم.

قلت: تتضمن «سماعون» معنى مستجيبين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى: وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما

يسمعون منكم، أي: جواسيس. والقول هو الأول، كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قابلون له.

ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين، ينزلون معهم ويرحلون ويصلّون معهم، ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم، قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم. فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها، وأرصد بينهم عيوناً له. فالقول قول قتادة وابن إسحاق، والله أعلم(١).

□ □ □

قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، أي: قابلون مستجيبون لهم، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون، وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم، فلا يزال المنافقون في الأرض، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم؛ لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم.. (٢).

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعتهم له فكيف يكرهها؟ وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة، إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوباً له، فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤال له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعاً لرسوله ﷺ، ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم ورضيه لهم ديناً، وعلم سبحانه أن خروجهم ـ لو خرجوا ـ لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين. فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروهاً له من هذا الوجه، ومحبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه له، فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه، لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة، حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه، ولم يرضه منهم، وهذا الخروج المكروه له ضدان:

---

(١) شفاء العليل (١٠١ ـ ١٠٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٠٤، ١٤٠٥).

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب، وهذا الضد الذي يحبه.

والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه. وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً، وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، ولكن هاهنا أمران مكروهان له سبحانه، أحدهما أكره له من الآخر؛ لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه، فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى؛ فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين. فتأمل هذا الموضع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون؟

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراراً، وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله، وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك. ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته، فإن قلت: وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة؟

قلت: يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوباً له، فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم، وإظهار قدر أوليائه وشرفهم وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته وشدة أخذه وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ـ ولو تناهوا في العلم والمعرفة ـ إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر[١].

* * *

(١) شفاء العليل (١٠١ ـ ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

نزلت في الجد بن قيس(١) لما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تبوك قال له: «هل لك يا جد في بلاد بني الأصفر تتخذ منهم السراري والوصفاء»؟. فقال جد: ائذن لي في القعود عنك، فقد عرف قومي أني مغرم بالنساء وأني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال ابن زيد: يريد: لا تفتني بصباحة وجوههن.

وقال أبو العالية: لا تعرضني للفتنة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾. قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والرغبة بنفسه عنه أعظم». فالفتنة التي فر منها ـ بزعمه ـ هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

[هذا] مما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه.

قال السلف في هذه الآية(٣): أو بأيدينا، بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم. وهو كما قالوا: لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين لا يكون إلا بالقتل، فلو قبلت توبتهم بعد ما ظهرت زندقتهم؛ لم يمكن المؤمنون أن يتربصوا بالزنادقة أن يصيبهم الله بأيديهم؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك أظهروا الإسلام، فلم يصابوا بأيديهم قط. والأدلة على ذلك كثيرة جداً، وبالله التوفيق(٤).

* * *

---

(١) كان ذلك في غزوة «تبوك» في رجب سنة تسع. انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٥٥)، وتفسير الطبري (١٠/ ١٤٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢١٢)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧)، وانظر: مجمل أحاديثها في الدر المنثور (٤/ ٢١٣).
أقول: الذي عند ابن كثير قوله ﷺ: «هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟»، ولم يزد على ذلك [الشامي].

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٥٨، ١٥٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٥٠).

(٤) إعلام الموقعين (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير، كالجرجاني حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه على تأويل «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة». وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما[(١)]، وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك فروا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها، فاختلفوا في هذا التعذيب:

قال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها، والإنفاق في الجهاد. واختاره ابن جرير[(٢)] وأوضحه، فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً، بل على صغار منه وكره.

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسبي أولادهم فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضاً من جنس ما قبله؛ فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه: من غنيمة أموالهم، وسبي أولادهم، فإن الإرادة هاهنا كونية بمعنى: المشيئة، وما شاء الله كان ولا بد، وما لم يشأ لم يكن.

والصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها. والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السفر قطعة من العذاب»[(٣)]، وقوله: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»[(٤)]، أي: يتألم ويتوجع لا أنه يعاقب بأعمالهم.

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٠/ ١٥٣). (٢) المصدر نفسه.
(٣) رواه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧). (٤) رواه البخاري (١٢٨٦) ومسلم (٩٢٧).

وهكذا من الدنيا كل همه أو أكبر همه، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي[١] وغيره من حديث أنس ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦١ ـ ٦٣].

ذكر سبحانه هذه الآية عقب قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، فجعلهم مؤذين له بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾. ثم قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فجعلهم بهذا محادين، ومعلوم قطعاً أن من أظهر مسبة الله ورسوله، والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله[٣]، وإذا ثبت أنه محاد فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله، لأن من كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فليس بأذل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فبيّن سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد، فعلم أن من له عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلة عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل سبحانه المحادين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه الآية وهذا ظاهر، فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممن أراده بسوء، فإذا كان[٤] من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل.

فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه[٥].

* * *

(١) الترمذي (٢٤٦٥). وصححه الألباني. (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٥، ٣٦).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٦٧، ١٦٨).
(٤) قارن بما في الصارم المسلول ص(٢٢). (٥) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٢٥، ٨٢٦).

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد اختلف[1] في محل هذا الكاف [كالذين]، وما يتعلق به فقيل: هو رفع خبر مبتدأ محذوف، أي: أنتم كالذين من قبلكم.

وقيل: نصب بفعل محذوف، تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم. والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل، وقيل: إن التشبيه في العذاب. ثم قيل: العامل محذوف، أي: لعنهم وعذبهم، كما لعن الذين من قبل، وقيل: بل العامل ما تقدم، أي: وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولعنهم كلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود: أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد، وسوّى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فرق غير مؤثر، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وألغى الوصف الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء، فقال: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾، فهذه هي العلة المؤثرة، والوصف الجامع. وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ هو الحكم، والذين من قبل: هم: الأصل، والمخاطبون: الفرع.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر عن الحسن في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ﴾، قال: بذنبهم. ويروى عن أبي هريرة. وقال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا. وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا.

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ، كأنه الذي خُلق للإنسان وقدر له، كما يقال: قسمه الذي قسم له، ونصيبه الذي نصب له، أي: أثبت، وقطه الذي قط له، أي: قطع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

(١) راجع: تفسير الطبري (١٠/ ١٧٥).

وقول النبي ﷺ[1]: «إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة».

والآية تتناول ما ذكره السلف كله: فإنه سبحانه قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً﴾، فبتلك القوة التي كانت فيهم، كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة، وكذلك الأموال والأولاد، وتلك القوة والأموال والأولاد: هي الخلاق، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا، ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به، ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة، فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة، وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها.

ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾، فدل هذا على أن حكمكم حكمهم، وأنه ينالكم ما نالهم؛ لأن حكم النظير حكم نظيره، ثم قال: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ فقيل: «الذي» صفة لمصدر محذوف، أي: كالخوض الذي خاضوا. وقيل: لموصوف محذوف، أي: تخوض الذي خاضوا، وهو فاعل الخوض. وقيل: الذي مصدرية كما، أي: كخوضهم. وقيل: هي موضع الذين.

والمقصود: أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به؛ وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب؛ وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول: البدع.

والثاني: اتباع الهوى.

وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل وعصي الرب، ودخلت النار وحلت العقوبات.

فالأول: من جهة الشبهات.

والثاني: من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

---

(١) رواه البخاري (٨٨٦)، ومسلم (٢٠٦٨).

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله[(١)]: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها، والدنيا فأباها. وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات». فقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان، فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

والمقصود: أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه، كما استمتع الذين من قبله بخلاقهم، ويخوض كخوضهم، وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم، ثم حضهم على القياس، والاعتبار بمن قبلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن عُلق عليه من الحكم، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنى الذي عُلق به العقاب، وأكده كما تقدم بضرب من الأولى، وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه، فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه[(٢)]؟!.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

تأمل كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به،

---

(١) قائل ذلك: «أبو عمير بن النحاس الرملي»، كما في سير أعلام النبلاء (١١/١٩٨)، وإنني ـ والله ـ لأتقرب إلى الله بحب الإمام أحمد رضي الله عنه.

(٢) إعلام الموقعين (١/١٨٢ ـ ١٨٥).

فأيسر شيء من رضوانه أكبر من الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم[١] أي شيء يريدون، «فيقولون: ربنا أي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك، أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

فهو نذر مؤكد بيمين وإن لم يقل فيه: «فعليَّ»، إذ ليس ذلك من شرط النذر، بل إذا قال: إن سلمني الله تصدقت، أو لأتصدقن، فهو وعد وعده الله فعليه أن يفي به، وإلا دخل في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

فوعدُ العبدِ ربَّه نذر، يجب عليه أن يفي له به، فإنه جعله جزاء وشكراً له على نعمته عليه، فجرى مجرى عقود المعاوضات، لا عقود التبرعات، وهو أولى باللزوم من أن يقول ابتداء: «لله علي كذا»، فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط وقد وُجِد، فيجب فعل المشروط عنده، لالتزامه له بوعده.

فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومدح من وفى له بما نذره له[٤].

* * *

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٦، ١٦٧).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٥). (٤) إعلام الموقعين (٢/ ١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة. ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليتميزوا به عمن بعدهم، فقيل: التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط. وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وقيّد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة، فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان.

وأن الباء هاهنا للمصاحبة، والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أصل هذه اللفظة [الصلاة] في اللغة يرجع إلى معنيين(٢):

أحدهما: الدعاء والتبريك.

والثاني: العبادة.

فمن القول الأول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]. وقول النبي ﷺ(٣): «إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب، فإن كان صائماً فليصل»، فُسِّرَ بهما. قيل: فليدع لهم بالبركة.

وقيل: يصلي عندهم بدل أكله.

وقيل: إن الصلاة في اللغة معناها: الدعاء.

فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة، وهو الدعاء. والدعاء: دعاء

(١) الرسالة التبوكية (٦٢).

(٢) راجع ما كتبه الإمام النووي رحمه الله تعالى في معنى الصلاة، واشتقاقها في كتابه: «المجموع» (٣/ ٢).

(٣) رواه مسلم (١٤٣١، ١٤٣٢).

عبادة ودعاء مسألة. والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقة لا مجازاً، ولا منقولة، ولكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة والرأس ونحوها. فهذا غاية تخصيص اللفظ، وقصره على بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلاً، ولا خروجاً عن موضوعه الأصلي، والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه، وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرتفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية، حملت البدن، ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس، وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد لله ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء، فأحكم الأساس واحفظ القوة ودم على الحمية.. وقد بلغت المراد.

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق، والإحسان إلى الناس، ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو، ولا تبدو منه العورة، ثم أرخِ الستور على أبوابه ثم اقفل

---

(١) جلاء الأفهام (٨١ ـ ٨٥).

الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركِّب له مفتاحاً من ذكر الله، به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به.

فتكون حينئذٍ قد بنيت حصناً تحصَّنت فيه من أعدائك..[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكده بأنواع من التأكيد:

أحدها: إخباره ﷻ بصيغة الخبر المؤكد بأداة «إنَّ».

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي، الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة «على» التي للوجوب؛ إعلاماً لعباده بأن ذلك حق عليه، أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقاً عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه ﷻ أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضاً بشارة من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً، بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع هاهنا بمعنى: المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة، وقوله: ﴿بَايَعْتُم بِهِۦ﴾، أي: عاوضتم وثامنتم به.

---

(١) الفوائد (١٥٤).

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد، وتم لهم دون غيرهم، وهم التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون، وفسِّرت السياحة بالصيام، وفسِّرت بالسفر في طلب العلم، وفسِّرت بالجهاد، وفسِّرت بدوام الطاعة.

والتحقيق(١) فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال؛ ولذلك وصف الله سبحانه(٢) نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدَّله بهن بأنهن سائحات، وليست سياحتهن جهاداً ولا سفراً في طلب علم، ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى، وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب. والحمد والسياحة قرينتين: هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله. كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج: فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بيّن لهم، فلم يقبلوا ما بيّنه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

هذا من أعظم ما يُعرِّف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات(٥)، بعد أن قضوا

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١١/ ٣٦).
(٢) يقصد قوله تعالى من سورة التحريم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ . . .﴾ الآية ٥.
(٣) حادي الأرواح (٧٥، ٧٦).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٢).
(٥) أي: غزوة تبوك كما سبق.

نحبهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ[١] يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة.

فسبحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذب أهل سماواته وأرضه عذبهم، وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا ينجي أحداً منهم عمله.

وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمةً وعدلاً.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨].

قد فسَّرها كعب بالصواب، وهو أنهم خلفوا من بين من حلف لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأنه لو أراد ذلك، لقال: تخلفوا، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وذلك لأنهم تخلفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم، والله أعلم[٢].

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم؛ والحكم ينتفي لانتفاء علته[٣].

(١) قال ﷺ لكعب عند نزول توبته: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٤٥٦)، والبخاري (٦/ ٧١٧) في المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، ومسلم (٥/ ٦١٤) في التوبة، باب: توبة كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٩١، ٥٩٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال غير واحد من السلف[١]: هم أصحاب محمد ﷺ ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتم في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء ـ وإن وافقهم في غيره ـ لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط.

وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب، بحيث لا يستحق اسم المؤمن ـ وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم ـ الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان.

وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها. والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم[٣].

فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم، فلا يكتب لهم نفسه، ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح.

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٦٢).
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٦٥، ١٦٦).
(٣) الداء والدواء (٣٠٨).

وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها؛ كالإنفاق وقطع الوادي، فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم، حاصل بإرادتهم وقدرتهم، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها، وبالله التوفيق[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين، وهو تعلمه وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم.

وقد اختلف[(٢)] في الآية.

فقيل المعنى: أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة، تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم، والطائفة تقال على الواحد فما زاد. قالوا: فهو دليل على قبول خبر الواحد. وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة.

وقالت طائفة أخرى: المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد، وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقَّهتها القاعدة، وعلَّمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام.

وعلى هذا فيكون قوله: ليتفقهوا ولينذروا، للفرقة التي نفرت منها طائفة.

وهذا قول الأكثرين، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١]. وقال النبي ﷺ[(٣)]: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا». وهذا هو المعروف من هذه اللفظة.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٩١). (٢) راجع: تفسير الطبري (١١/ ٦٦).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها: (٦/ ٢١٩) في الجهاد والسير، باب: «لا هجرة بعد الفتح»، ومسلم (٤/ ٥٢٨) في الإمارة، باب: «المبايعة بعد فتح مكة..».

وعلى القولين فهو ترغب في التفقه في الدين، وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه[١].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

[قال القائلون: بالتقليد]: فأوجب قبول نذارتهم، وذلك تقليد لهم، جوابه من وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذروهم به من الوحي الذي ينزل في غيبتهم عن النبي ﷺ في الجهاد، فأين في هذا حجة لفرقة التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي.

الثاني: أن الآية حجة عليهم ظاهرة، فإنه سبحانه نوّع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين.

أحدهما: نفير الجهاد.

والثاني: التفقه في الدين، وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء أهل الجهاد وأهل العلم، فالنافرون يجاهدون عن القاعدين، والقاعدون يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدركوا ما فاتهم من العلم بإخبار من سمعه من رسول الله ﷺ.

فإن سميتم ذلك تقليداً فليس الشأن في الأسماء، ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسموه ما شئتم، وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عياراً على القرآن والسنن، فما وافق قوله منها قبل، وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة، ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يعلن بإنكاره وذمه وذم أهله[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

فأخبر سبحانه عن فعلهم: وهو الانصراف، وعن فعله فيهم: وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره؛ لأنهم ليسوا أهلاً لها، فالمحل غير صالح ولا قابل.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦٠، ٦١).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣).

فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل الإيمان بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض.

فالأول: مانع من الفهم.

والثاني: مانع من الانقياد والإذعان.

فأفهامهم سيئة، وقصودهم رديئة، وهذه سمة الضلال وعلم الشقاء. كما أن سمة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح، وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، كيف جعل هذه الجملة الثانية ـ سواء كانت خبراً أو إعادة ـ عقوبة لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول.

فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم؛ لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان؛ فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن. فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥].

وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه، ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع. فإنه لما عصى ربه تعالى، ولم ينقد لأمره، وأصر على ذلك؛ عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية. فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها، صغيرها وكبيرها. وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق. فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف، والإعراض عنه، وقد قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، و﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين، فكيف ينعي ذلك عليهم؟

قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم.

فمكَّنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب. فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الردى وأسباب الفلاح. وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً، فآثروا الهوى على التقوى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته.

فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم.

فهم سدُّوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، فسده عليهم اضطراراً، فخلَّاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه، وهم معرضون. فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله. ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، ولأنشأهم على غير هذه النشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل، والنور والظلمة، والنافع والضار، والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين، والشاء والذياب، ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له. فبعضها بطباعها، وبعضها بإرادتها ومشيئتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده، ومقتضى كماله المقدس، وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) شفاء العليل (٩٧، ٩٨).

سُورَةُ يُونس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: ٢].

قال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها. ولا قول من قال: إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ [يونس: ١١].

قال السلف[٢]: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب، ولو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيبه؛ لعلمه بأن الداعي لم يقصده[٣].

وقد قال جماعة من الأئمة: الإغلاق الذي منع[٤] النبي ﷺ من وقوع الطلاق والعتاق فيه هو: الغضب. هذا كما قالوه، فإن للغضب سكراً كسكر الخمر أو أشد[٥].

---

(١) شفاء العليل (٢٨). (٢) تفسير الطبري (١١/ ٩٢).

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٧٠).

(٤) يشير إلى الحديث الذي ورد بلفظ: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق».
رواه الإمام أحمد ﷺ (٦/ ٢٧٦)، وابن ماجه (١/ ٣٤٨) صحيح ابن ماجه، وأبو داود (٦/ ٢٦١) في الطلاق، باب: في الطلاق على غلط (على غضب)، ورواه الحاكم (٢/ ١٩٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وتعقبه الذهبي بقوله: (محمد بن عبيد لم يحتج به مسلم، وقال أبو حاتم: ضعيف). ورواه الدارقطني في سننه (٤/ ٣٦)، والبيهقي (٧/ ٣٥٧). وحسنه الشيخ الألباني كما في الإرواء (٧/ ١١٣)، والله أعلم.

(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز:

إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله ﷻ لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني، وأسماعكم وأفهامكم فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدونني وتعرفون حالي وتصحبونني حضراً وسفراً، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتتحققون سيرتي: هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق، وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه، وخالفه بالكذب والفرية عليه وطلب إفساد العالم، وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتاباً ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم أنتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه، وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها ما لم أشارككم فيه بوجه. ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان و[ما] سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له[(١)]؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبيّن سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم، وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقاً ولا أمراً ولا إذناً، بل هو سبب محرك له من خارج؛ كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه،

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧٢).

وقد يكون عنده ما يخالفه، كمن يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح.

فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله، هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه، فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع: إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته.

وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه؛ فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر، فإن أحداً من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى، وخلقه. فالرب ﷻ هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع.

والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل، والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره، وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق أو نصر أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته؛ تبيّن له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة، وبين ما نفاه وأبطله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور(١).

□ □ □

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم المستلزم لنفي

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٢، ٢٢٣).

المعلوم، ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك، لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكوَّنه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده، فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد.

وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب، فالرب تعالى لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه، فهو يعلمه مستحيلاً لا يعلمه واقعاً؛ إذ لو علمه واقعاً لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال. فهذه حجج الرب تبارك وتعالى على بطلان ما نسبه إليه أعداؤه المفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيراً، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه، وما أودعه من حججه وبيناته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

شبه الله سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سُلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر فيغتر بها، ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة؛ فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه منها صفراً. فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]. فسماها هنا دار السلام، لسلامتها من هذه الآفات التي

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٥).

ذكرها في الدنيا، فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية لها من يشاء. فذاك عدله، وهذا فضله[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم. كذلك فسرها رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن صهيب قال[٢]: «قال رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة».

ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة، وقدر زائد عليها، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١].

فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس وبين قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [سبأ: ٢٤]؟

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها، وألطفها فرقاً:

فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره، من كون الرب تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها. ومخرج الحي من الميت، والميت من الحي.

---

(١) إعلام الموقعين (١/٢٠٣).
(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦/١٥)، رواه مسلم (١٨١).
(٣) حادي الأرواح (٢٣١ ـ ٢٣٤).

فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم: أن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا، ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: لا بد أنهم يقرون بذلك، ولا يجحدونه. فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به.

والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية، إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قِبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا. فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لا سيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه. وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو، لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس، فلا يلتفت إلى غيره.

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم؛ لم يصلح فيه إلا إفراد السماء، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح. ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والمواد الربانية، والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق. ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم، بحيث لا يمكنهم إنكاره.

أما الآية التي في سبأ: فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السمٰوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: ٢٤]، ولم يقل: سيقولون: الله. فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب: بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السمٰوات السبع. وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر، وبر وفاجر[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١١٧، ١١٨).

فالآية إنما سيقت في الكلام على من يعبد غير الله، ويشرك به، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

[فمن] عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض، والباطل البحت، وأما من عبد الله بأمره وكان في مقام التمييز بين محابّه ومساخطه؛ مفرقاً بينهما يحب هذا ويبغض هذا، ناظراً بقلبه إلى ربه، عاكفاً بهمته عليه، منفذاً لأوامره، فهو مع الحق المحض، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى، ساووهم في العاقبة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى، والغي مرض شفاؤه الرشد؛ وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين، فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢].

ووصف رسوله ﷺ خلفاءه بضدهما، فقال(٣): «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاءً تاماً لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إذا بلَّ من داء به ظن أنه ... نجا وبه الداء الذي هو قاتله(٤)

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٤).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٥، ١٨٦).

(٣) حديث صحيح ـ نفعنا الله به ـ.
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٥، ١٦).

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله».

وقال هلال بن يساف: «بالإسلام الذي هداكم إليه، وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون: من الذهب والفضة».

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: «فضله الإسلام، ورحمته القرآن».

وقالت طائفة من السلف: «فضله القرآن ورحمته الإسلام»(١).

والتحقيق: أن كلًّا منهما [الإسلام والقرآن] فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان، ووضع من وضع بعدمهما. فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قيل: نعم إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط، بل سماها روحاً ونوراً، وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهداً ووصية ونحو ذلك(٢).

ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن، وهو يحب من عبده: أن يفرح بذلك ويسر به، بل يحب من عبده: أن يفرح بالحسنة إذا عملها، وأن يسر بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله، حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها، ويسرها له، ففي الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته(٣).

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم، وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته

(١) راجع: تفسير الطبري (١١/ ١٢٤). والدر المنثور (٤/ ٣٦٦).
وانظر: رقم (١٧٧) من تخريج الحافظ ابن حجر على الكشاف (٤/ ٨٤).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣١، ٣٢).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٠٦)، واجتماع الجيوش (٣)، والفوائد (١٣١)، راجع: مفتاح دار السعادة (٥٦).

عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة.

فأخبر سبحانه: أن ما آتى عباده من الموعظة: التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. وشفاء الصدور: المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه، وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا، فهنالك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدى: الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به والرحمة: التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناسُ من أعراض الدنيا وزينتها، أي: هذا هو الذي ينبغي أن يُفْرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجلِّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

□ □ □

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق، ومقيد.

فالمطلق: جاء في الذم كقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقيد نوعان أيضاً: مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته؛ فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضاً؛ فضل ورحمة بالسبب، وفضل ورحمة بالمسبب.

فالأول: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله ورسوله وبالإيمان والسنة، وبالعلم والقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

فالفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها واليأس من حصولها.

والمقصود: أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه.

والفرح بالشيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة، وسكونه انشراح، والفرح لذته بهجة وسرور، فكل فَرِحٍ راضٍ، وليس كل راض فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام، والله أعلم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

إن أولياء الرحمٰن، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون.

وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وفي وسطها في قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي أول الأنفال، إلى قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٤].

---

(١) مدارج السالكين (٣/١٥٦ ـ ١٥٩).

وفي أول سورة المؤمنون إلى قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].
وفي آخر سورة الفرقان: [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٧].
وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخر الآية. . . [الأحزاب: ٣٥].
فأولياء الرحمٰن: هم المخلصون لربهم، المحكمون لرسوله في الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً.
فأولياء الرحمٰن المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه، المحاربون لمن خرج عنه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].
هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولاً، إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوآ البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردؤه ووزيره، وكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة، وأيضاً فإن موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولاً واحداً، كقوله تعالى: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]. فهذا الرسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].
وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيراداً، وقالوا: كان في شك فأمر أن يسألنا.
وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم.

---

(١) الروح (٣٢٣).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٠).

وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ، وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط بل ولا على إمكانه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونظائره.

فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل[١]، وفي تفسير سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال[٢]: «لا أشك ولا أسأل».

وقد ذكر ابن جرير[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم.

وهذا اختيار ابن جرير قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت، يا محمد، في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولاً إلى خلقي؛ لأنهم يجدونك مكتوباً عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، كعبد الله بن سلام ونحوه، من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك.

وكذلك قال ابن زيد: قال: هو عبد الله بن سلام. وقال الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب[٤].

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها، وأين كان عبد الله بن سلام وقت نزول هذه الآية، فإن السورة مكية[٥]، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه؟!

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يسأل (٤/ ٣٨٩).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٢٥، ١٢٦)، عن قتادة مرسلاً. وكذا ابن جرير (١١/ ١٦٨). وهذا ضعيف للإرسال.

(٣) تفسير الطبري (١١/ ١٦٨).

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (١١/ ١٦٧).

(٥) هذا مما اختلف فيه. فقال القرطبي: «مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر». وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة. وقال الكلبي: مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠]، نزلت بالمدينة في اليهود. وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة» (٤/ ٣١٤٣) تفسيره. ونقل ذلك عنه الشوكاني (٢/ ٤٢١) فتح القدير. =

وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه[١]؟.

وقال كثير من المفسرين[٢]: هذا الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره، لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة. وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق[٣]: إن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ والخطاب شامل للخلق؛ والمعنى: وإن كنتم في شك. والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقال ابن قتيبة[٤]: كان الناس في عصر النبي ﷺ أصنافاً، منهم كافر به مكذب، ومؤمن به مصدق، وآخر شاك في الأمر لا يدري كيف هو، فهو يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً؛ فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس، وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد؛ فسل. قال: ووحد وهو يريد الجمع كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ

= وانظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٠)، وكذا تفسير الخازن (٣/ ١٧٢)، وتفسير الآلوسي (١١/ ٥٨)، وتفسير الجلالين للسيوطي (١/ ٢٥٢)، والدر المنثور (٤/ ٣٣٩).

وقال السيوطي في الإتقان: «فصل في تحرير السور المختلف فيها.. «سورة يونس» المشهور أنها مكية، وعن ابن عباس روايتان. فتقدم في الآثار السابقة عنها أنها مكية، وأخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عنه، ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه، ومن طريق خصيف عن مجاهد عن ابن الزبير...» (١/ ١٢) مختصراً.

وذهب إلى أنها مكية: ابن كثير (٢/ ٤٣٤)، وابن قتيبة في «غريب القرآن» (١٩٤). أما إسلام «عبد الله بن سلام» ﷺ فكان إسلامه بالمدينة في أول دخول النبي ﷺ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين». كما في فتح الباري (٧/ ١٦١) في مناقبه من كتاب مناقب الأنصار.

(١) إذا صح الدليل لا يورد عليه بكيف، وإنما يبحث في معناه ومفهومه، والله أعلم.

(٢) راجع: تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٢١)، والزمخشري (٢/ ٢٠٣)، وتفسير الخازن (٣/ ٢١٠)، والبغوي (٣/ ٢١٠) بهامش الخازن، وتفسير الآلوسي (١١/ ١٨٩).

(٣) أبو إسحاق، الإمام، نحوي زمانه، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، انظر: ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠).

وانظر: مبحثه النفيس حول الآية في كتابه «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٣٢)، طبعة عالم الكتب.

(٤) انظر قول ابن قتيبة في: «تأويل مشكل القرآن» (٨١، ٢٦٩). و«تفسير غريب القرآن» (١٩٩). فلعل ابن القيم نقله بالمعنى.

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨].

وهذا ـ وإن كان له وجه ـ فسياق الكلام يأباه، فتأمله.

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وهذا كله خطاب واحد متصل بعضه ببعض، ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا على النبي ﷺ، قالوا: الخطاب له والمراد به هذا الصنف الشاك. وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم: وهو وقوع الشك منه والسؤال؛ وقد بيّنا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلاً عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعاً ولا ممكناً فما مقصود الخطاب، والمراد به؟

قيل: المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه؛ فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود، بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك.

وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته[(١)]: من شك فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

و«إذنه» هاهنا قضاؤه وقدره، لا مجرد أمره وشرعه. كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية.

قال ابن المبارك[(٣)] عن الثوري: بقضاء الله.

وقال محمد بن جرير[(٤)]: يقول جلّ ذكره لنبيه: وما لنفس خلقها من سبيل إلا أن

---

(١) وهذا قريب من قول من قال: «إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد لغيره، فتأمله»، والله أعلم.
(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ١٢ ـ ١٥).
(٣) رواه الطبري (١١/ ١٧٤).
(٤) تفسير ابن جرير (١١/ ١٧٤، ١٧٥)، مع بعض اختلاف يسير في العبارة.

تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله ثم خلها، فإن هُداها بيد خالقها.

وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠] أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن، ثم قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير[٢]: يقول تعالى: يا محمد، قل لهؤلاء السائليك الآيات على صحة ما تدعو إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: (انظروا) أيها القوم ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الآيات الدالة على حقية ما أدعوكم إليه من توحيد الله؛ من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبراً، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار! فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم[١].

❁ ❁ ❁

(١) شفاء العليل (٦٠، ٦١).

سورة هــود

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين.

فإن طيب النفس، وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، هو التعميم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

وقال الآخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكر»(١)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي، وقدّر أجل الخلق وخلق ما على

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠).
(٢) الجواب الكافي (١٦٣).

الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو: ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر، والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والمقدرة، وتَأَتِّي الأسباب، أعظم الابتلاءين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة ﷺ: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها(١).

فأخبر في هذه الآية أنه خلق السمٰوات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

وهؤلاء ثنية(٣) الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.

فرتب ـ سبحانه ـ المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كانت له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد.

ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة منهم ابن عباس(٥): من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب. قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس. وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن

(١) عدة الصابرين (١٥١، ١٥٢).
(٢) شفاء العليل (٣٥).
(٣) أي: من استثناهم الله تعالى.
(٤) عدة الصابرين (٧٣، ٧٤).
(٥) راجع: تفسير الطبري (١٢/ ١١). والدر المنثور (٤/ ٤٠٦).

فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.

قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى؛ عجل له ثواب عمله في الدنيا.

واختار الفراء هذا القول، وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثواب، ولم يبخس. وهذا القول أرجح.

ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً فإن العاصي والفاسق، ولو بالغا في المعصية والفسق، فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته.

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه[1]: «في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، والمتصدق

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة.. وأما قصة استشهاد «معاوية» رضي الله عنه بالآية في فهم الحديث فرواها الترمذي (٢/ ٢٨٢)، صحيح الترمذي، في الزهد، باب: ما جاء في الرياء، والطبري في تفسيره (١٢/ ١٣)، وابن خزيمة (٤/ ١١٥)، وصححه الألباني.

وهي «أن شُفي بن ماتع الأصبحي، حدثه أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس.. ثم ذكر الحديث بطوله... ثم قال الوليد بن أبي الوليد، أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة: أن شُفَياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سيّافاً لمعاوية، قال: فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية ـ وعند الطبري فقال أبو هريرة ـ: قد فُعِلَ بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس، ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك. وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية. ورواه الحاكم دون القصة (١/ ٤١٨). وصححه ووافقه الذهبي.

الذي أنفق أمواله ليقال: فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال: هو جريء».

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء، كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس، قال: أخبرني عبد الحميد بن صالح، حدثنا قطري الخشاب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله ﷻ للدنيا، وفرقة يعبدونه رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك: الدنيا. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك: رياء وسمعة. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك: وجهك ودارك، فيقول: صدقتم، اذهبوا بهم إلى الجنة».

هذا حديث غني عن الإسناد، فالقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾، وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا، فوفّاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة، إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: «فعلى هذا القول: المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة، كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره».

ثم أورد أصحاب هذا القول على أنفسهم سؤالاً! قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار؟ وأجابوا عنه: بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله، ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا؛ فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة، فلا يوافي ربه بالإيمان.

قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى: بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد، فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري، وغيره.

□ □ □

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها، بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة.

والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار، وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد، والله الموفق.

□ □ □

وذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. ومنها قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]. فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً، ويصدق بعضها بعضاً، وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده، ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل، وهي غاية سعيه فهي له.

□ □ □

بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين، فبأيهما يلحق؟

قيل: من هاهنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة، ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أُحد ونزلت هذه الآية»(١).

والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وهاهنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر، دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة؛ كفرعون وثمود، واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ، وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة، والله المستعان(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

---

(١) راجع تفسيرها في سورة آل عمران. (٢) عدة الصابرين (١٦٣ ـ ١٦٧).

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

وهؤلاء المعارضون للوحي بعقولهم جمعوا بين الأمور الثلاثة، الكذب على الله، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجاً.

أما الكذب على الله: فإنهم نفوا عنه ما أثبته لنفسه من صفات الكمال، ووصفوه بما لم يصف به نفسه.

وأما صدهم عن سبيله وبغيها عوجاً: فإنهم أفهموا الناس، بل صرحوا لهم بأن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد علماً ولا يقيناً، وأن العقول عارضتها فيجب تقديم العقول عليها. وأي عوج أعظم من عوج مخالفة العقل الصريح، وقد وصف الله كتابه بأنه غير ذي عوج(١)، ولا ريب أن الله هو الصادق في ذلك، وأنهم هم الكاذبون.

فإن قلت: يبغونها متعدٍّ إلى مفعول واحد، فما وجه انتصاب عوجاً؟ قيل: فيه وجوه:

أحدهما: أنه نصب على الحال. أي: يطلبونها ذات عوج، لا يطلبونها مستقيمة، والمعنى: يطلبون لها العوج.

الثاني: أن عوجاً مفعول به يبغونها على تقدير حذف اللام، أي: يطلبون لها عوجاً يرمونها به، ويصفونها به.

وأحسن منهما أن تضمن يبغونها: إما معنى يعوجونها، فيكون عوجاً منصوباً على المصدر، ودل فعل البغي على طلب ذلك وابتغائه. وإما معنى يسومونها ويؤولونها.

وعلى كل تقدير فسبيل الله هداه وكتابه الهادي للطريق الأقوم، والسبيل الأقصد، فمن زعم أن في العقل ما يعارضه؛ فقد بغاه عوجاً، ودعا إلى الصد عنه، ومن له خبرة بالمعقول الصحيح، يعلم أن العوج في كلام هؤلاء المعوجين، الذين هم عن الصراط ناكبون، وعن سبيل الرشد حائدون، وعن آيات الله بعيدون، وبالباطل والقضايا الكاذبة يصدقون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي ريبهم يترددون، وهم للعقل الصريح والسمع الصحيح مخالفون(٢).

* * *

(١) في قوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].
وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٤٢ ـ ١١٤٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

والخَبْت في أصل اللغة(١): المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس ﵄، وقتادة لفظ «المخبتين»، وقالا: هم المتواضعون.

وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله ﷻ. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأخفش: الخاشعون.

وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون.

وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم.

وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله ﷻ، ولذلك عُدِّي بإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، وما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم؛ من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه، فَشَبَّهَهُ بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر: بصير القلب كبصير العين وسميع الأذن.

فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

فاعتبروا صورة مجرد الآدمية، وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٢/ ٢٤). وأساس البلاغة للزمخشري (١٠٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣). (٣) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

حكم أحد الشبهين حكم الآخر، فكما لا نكون نحن رسلاً، فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه؛ فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا، وهذا من أبطل القياس، فإن الواقع من التخصيص والتفضيل، وجعل بعض هذا النوع شريفاً، وبعضه دنياً، وبعضه مرؤوساً، وبعضه رئيساً، وبعضه ملكاً، وبعضه سوقه؛ يبطل هذا القياس(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

إن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم: قد أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل، فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم؛ فازدروهم واحتقروهم. وقالوا للرسول: (اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك)، وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]. [فكانت الآية جواب] نوح عليه السلام لقومه.

قال الزجاج: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس علي أن أطلع على ما في أنفسهم، فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهَّلهم لقبول دينه، وتوحيده، وتصديق رسله. والله جل جلاله عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه.

وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلهم للهدى والحق، وحَرَمَه رؤساء الكفار، وأهل العزة والثروة منهم، كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة.

فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده، من معرفة قدر النعمة ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء(٢).

* * *

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٨).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٧٠، ١٧١).

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣].

[الاستثناء منقطع] على أصح الوجوه في الآية، فإنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق، فكأنه قيل: لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه، فإنه لما قال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بقي الذهن طالباً للمعصوم! فكأنه قيل: فمن الذي يعصم؟

فأجيب: بأنه لا يعصم إلا من رحمه الله، ودل هذا اللفظ، باختصاره وجلالته وفصاحته، على نفي كل عاصم سواه، وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله.

فدل الاستثناء على أمرين: على المعصوم من هو، وعلى العاصم، وهو ذو الرحمة. وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه وأوجزه، ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك.

وقد قالوا فيها ثلاثة أقوال أخر(١):

أحدها: إن عاصماً بمعنى: معصوم؛ كماء دافق، وعيشةٍ راضية، والمعنى: لا معصوم إلا من رحمه الله.

وهذا فاسد، لأن كل واحد من اسم الفاعل واسم المفعول موضوع لمعناه الخاص به، فلا يشاركه فيه الآخر، وليس الماء الدافق بمعنى المدفوق، بل هو فاعل على بابه، كما يقال: ماء جار. فدافق كجار، فما الموجب للتكلف البارد؟ وأما عيشة راضية فهي عند سيبويه على النسب «كتامر» و«لابن»، أي: ذات رضى، وعند غيره «كنهار صائم» و«ليل قائم» على المبالغة.

والقول الثاني: إن (من رحم) فاعل لا مفعول، والمعنى: لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم، فهو استثناء فاعل من فاعل. وهذا وإن كان أقل تكلفاً، فهو أيضاً ضعيف جداً، وجزالة الكلام وبلاغته تأباه بأول نظر.

والقول الثالث: إن في الكلام مضافاً محذوفاً قام المضاف إليه مقامه، والتقدير:

---

(١) انظر هذه الأقوال في: «الكشاف» للزمخشري (٢/ ٢١٧).
وراجع: تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٦٧)، وتفسير البغوي (٣/ ٢٣٣، ٢٣٤).

لا معصوم عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله. وهذا من أنكر الأقوال وأشدها منافاة للفصاحة والبلاغة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

أخبر نبي الله هود ﷺ عن عموم قدرة الله تعالى وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته، فقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل، وأقبح الظلم؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه، فإنه على صراط مستقيم، فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا[٢].

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، كان في معنى: لا يخرج من قبضته وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فأتبع قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان على طريقة حسنة. وليس ثم طريق.

ثم ذكر وجهاً آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: لا تخفى عليه مشيئته ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به: الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٧، ٦٨).

(٢) الجواب الكافي (٣١١، ٣١٢).

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحداً بجريرة أحد، ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب: «له الملك وله الحمد»، ومن باب: «ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك»، ومن باب: «الحمد لله رب العالمين»، أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف، وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد. كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال الفراء يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، قال: وهذا كما تقول في الكلام «طريقك عليّ وأنا على طريقك» لمن أوعدته، وكذلك قال الكلبي والكسائي. ومثل قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] على إحدى القولين في الآية، وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه. ومنها ـ أي: ومن السبيل ـ ما هو جائر عن الحق ولو شاء لهداكم أجمعين، فأخبر عن عموم مشيئته وأن طريق الحق عليه موصلة إليه فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود: أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق، ويفعل العدل: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. فهذا العدل والتوحيد اللذان دل عليهما القرآن لا يتناقضان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ

(١) شفاء العليل (١، ٢، ٨٧)، وروضة المحبين (٧٠).

وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٢].

[إذا قيل]: ما السر في نصب «السلام» في تسليم الملائكة، ورفعه في تسليم إبراهيم؟

[فالجواب]: أنك قد عرفت قول النحاة فيه: إن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية، لأن نصب السلام يدل على: سلّمنا عليك سلاماً. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية، لأن رفعه يدل على أن المعنى: سلامٌ عليكم.

والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه ﷺ، وهو مقام الفضل إذ حيّاهم بأحسن من تحيتهم. هذا تقرير ما قالوه.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله: «سلاماً»، انتصاب مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا: سلاماً، وقالوا: سداداً وصواباً ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكى به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكياً به، بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه: قالوا: قولاً سلاماً. مثل: سداداً وصواباً، وسمى القول سلاماً: لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة، وحصول الاستيناس.

وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه، مرفوعاً بالابتداء محكياً بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال: سلاماً بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعاً فعلى الحكاية ليس إلا.

فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جداً: وهو أن قوله: سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها وباتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل، والله أعلم، وبالله التوفيق[١].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٧، ١٥٨).

وتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدهما بشارتين متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى، والبشارة الأولى كانت له، والثانية كانت لها، والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها دون الثانية[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٨ ـ ٨٣].

تأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله، حيث جاؤوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف، هم من أحسن البشر صوراً، فأقبل اللوطية إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن؛ خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ فردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾. فنفث نبي الله منه نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

فنفس له رسل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعبأ بهم وهون عليك. فقالوا: ﴿يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾. وبشروه بما جاؤوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا. فقالت الملائكة: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله، ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٥٦).

إلى عبده ورسوله جبرائيل، بأن قلبها عليهم كما أخبر به محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧]. أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فقلبت تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون.

مآرب كانت في الحياة لأهلها عِذاباً فصارت في الممات عَذابا

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، وتمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعاً وخيماً فأعقبهم عذاباً أليماً، وأسكرتهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين؛ فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقد قرَّب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1].

□ □ □

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

[الاستثناء منقطع] - في قراءة الرفع[2]، ويكون امرأتك مبتدأ، وخبره ما بعده.

وهذا التوجيه أولى من أن يجعل الاستثناء في قراءة من نصب من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، وفي قراءة من رفع من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، ويكون الاستثناء على هذا من ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ رفعاً ونصباً.

---

(١) الجواب الكافي (٢٦٠ - ٢٦٢).

(٢) انظر: «كتاب السبعة في القراءات»، ص(٣٣٨) لابن مجاهد. وتفسير القرطبي (٣٣٠٨/٤).

وإنما قلنا إنه أولى لأن المعنى عليه، فإن الله تعالى أمره أن يسري بأهله إلا امرأته، ولو كان الاستثناء من الالتفات لكان قد نهى المسري بهم عن الالتفات وأذن فيه لامرأته، وهذا ممتنع لوجهين:

أحدهما: أنه لم يأمره بأن يسري بامرأته، ولا دخلت في أهله الذين وعد بنجاتهم.

والثاني: أنه لم يكلفهم بعدم الالتفات، ويأذن فيه للمرأة[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أصبت من امرأة قبلة! فنزلت هذه الآية، فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: «بل لمن عمل بها من أمتي»[(٢)(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٦].

إن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله[(٤)]: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»[(٥)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

في الآية قولان:

أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٥، ٦٦).
(٢) رواه البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣).
(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٠).
(٤) حديث صحيح رواه الإمام أحمد (٥/٢٩٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر «إسناده صحيح». ورواه الترمذي (٢٦٢٩).
(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٩٤).

الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى **على القول الأول**: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم مصلحون الآن. أي: إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا، لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون؛ وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم[1].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (١/ ٢١٧، ٢١٨).

سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩].

قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه: إذا أرسلها في البئر، ودلاها ـ بالتخفيف ـ إذا نزعها من البئر، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلواً إذا نزعها وأخرجها.

ومنه الإدلاء: وهو التوصل إلى الرجل برحم منه.

ومنه الدل: وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبد الله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته، فالهدي الطريقة التي عليها العبد من أخلاقه وأعماله، والدل: ما يدل من ظاهره على باطنه، والسمت هيأته ووقاره ورزانته[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، **إلى قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ **الآية** [يوسف: ٢٤ ـ ٥٣].

وقد ذكر الله ﷻ عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن قيل: فقد همَّ بها!؟

قيل: عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ. هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب، أن هَمَّه كان همَّ خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمُّها كان همَّ إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه، فلم يستو الهمَّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهمُّ همَّان: همُّ خطرات، وهمُّ إصرار، فهمّ الخطرات لا يؤاخذ به، وهمُّ الإصرار يؤاخذ به.

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١١٥).

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾.

قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم، وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام.

والصواب معهم لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها:

﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣].

ومن جعله من قوله، فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللبس، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾، والسياق صريح في ذلك، فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠].

فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق، فقال النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾. [يوسف: ٥١]

وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

□ □ □

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي: إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله؛ ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. ثم إنه ﷺ قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذا من تمام معرفته عليه السلام بربه ونفسه، فإنه لما ظهرت براءته ونزاهته مما قذف به؛ أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها فإنها أمارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة، فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر

كلها في نسق واحد يدل عليه وهو: قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر، ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قول لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾؟ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك ـ أي: قولي هذا وإقراري ببراءته ـ ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خُنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ . . . ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء.

فتأمل ما أعجب هذه المرأة! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر.

فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرون بالرب تبارك وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩][(١)].

□ □ □

إن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركَّبه الله سبحانه في الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر على النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً.

---

(١) روضة المحبين (٢٩٧ ـ ٣٠١).

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشاب وحدَّته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى الغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

وزادني كلفاً في الحب أن منعت   أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحل عند إبائها وامتناعها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت، وبذلت الجهد؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي، ولا أحد من جهتها؛ فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلَّقت الأبواب وغيبّت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج، ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد وطوال السواد، تعني: قرب وساد الرجل من وسادتي، وطوال السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما؛ ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به: أنه قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، وللمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة، ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين.

وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه. وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا، إن وفق الله، أن نفردها في مصنف مستقل(١).

□ □ □

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

دل أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرْف المسبب صرف لسببه(٢).

□ □ □

وقد حكى الله سبحانه في كتابه عن الشاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز، وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عليه السلام، وكذب المرأة، بقوله:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٨].

وسمى الله سبحانه ذلك آية، وهي أبلغ من البينة، فقال: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

---

(١) الجواب الكافي (٣١٣ ـ ٣١٦). (٢) زاد المعاد (٣/ ٣١٩).

وحكى سبحانه ذلك مقراً له غير منكر، وذلك يدل على رضاه به[(١)].

□ □ □

وقد جمع الله ﷺ ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين [الصبر على عاجل العقوبة عن لذة الوصال الحرام]، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن، على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة:

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣].

فاختار السجن على الفاحشة ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله، وأحاط به الخذلان[(٢)].

□ □ □

قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: هذا هو الذي فتنت به، وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته، وهذا حسن منظره، ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، أي: فمع هذا الجمال، فباطنه أحسن من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن عيب محبوبه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه[(٣)].

□ □ □

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠].

إنما عبدوا المسميات، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة، كاللّات والعُزَّى، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة، فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلٰهية لها، وليس لها من الإلٰهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٦٦). (٢) روضة المحبين (٤١٣).

(٣) روضة المحبين (٢٢٤، ٢٢٥).

وهذا كمن سمى قشور البصل لحماً وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه. وكمن سمى التراب خبزاً وأكله، يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز. بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلٰهيتها بوجه، وما الحكمة ثَمَّ إلا مجرد الاسم. فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، **إلى قوله تعالى:** ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٦٢ ـ ٧٦].

وأما إخباره ﷺ عن يوسف عليه السلام أنه جعل صواعه في رَحل أخيه ليتوصل بذلك إلى أخذه وكيد إخوته، فنقول لأرباب الحيل:

أولاً: هل تجوِّزون أنتم مثل هذا حتى يكون حجة لكم؟ وإلا فكيف تحتجون بما لا تجوِّزون فعله؟! فإن قلتم: كان جائزاً في شريعته؟ قلنا: وما ينفعكم إذا لم يكن جائزاً في شرعنا؟

قال شيخنا(٢) رضي الله عنه: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بيّنا تحريمها وليس من جنسها قصَّةُ يوسف حيث كاد الله له في أخذ أخيه، كما قصَّ ذلك تعالى في كتابه، فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة:

أحدها قوله لفتيانه: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢].

فإنه تسبب بذلك في رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني:

منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها.

ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم.

ومنها: أنه رأى لؤماً إذا أخذ الثمن منهم.

ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة؛ ليكون أدعى لهم إلى العود.

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩، ٢٠).

(٢) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، وهذا الفصل منقول من كتابه «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٢٠٩) وما بعدها، يكاد يكون حرفياً.

ومنها: أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى العود ليردوها إليه.

فهذا المحتال به عمل صالح، والمقصود رجوعهم، ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح.

وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضاً منفعة لهم وله ولأبيهم، وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاد.

الضرب الثاني: أنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه، ورضا منه بذلك والحق له في ذلك، وقد دل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]. وفيه قولان:

أحدهما: إنه عرف أنه يوسف، ووطنه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له أنه يوسف، وإنما أراد: إني مكان أخيك المفقود، فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء. ومن قال هذا قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ لا يشعر(١)، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن، وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع.

وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره: لما قال له: إني أنا أخوك. قال(٢): فأنا لا أفارقك.

قال يوسف: فقد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحتمل.

قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك.

قال: فإني أدس صاعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك.

قال: فافعل. وعلى هذا، فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه.

الضرب الثالث: أنه أذن مؤذن:

---

(١) في تفسير الطبري (١٣/ ١٧).

(٢) في الطبري (١٣/ ١٧)، والفتاوى الكبرى (٣/ ٢١٠) تسمية أخيه «بنيامين».

﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٠ ـ ٧٦].

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيَّبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليها، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين: لصوصاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف. قال القاضي أبو يعلى وغيره(١): أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رَحْل أخيه، ثم قال بعض الموكلين، وقد فقدوه، ولم يدر من أخذه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، على ظن منهم أنهم كذلك، من غير أمر يوسف لهم بذلك. أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا. وعنى: أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصّواع، فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي.

وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ ليصح أن يضمن سرقتهم فيتم التعريض(٢)، ويكون الكلام صدقاً، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾، وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً، وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقل: إلا من سرق ـ وهو أخصر لفظاً ـ تحرياً للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه، وكان المتاع عنده حقاً، فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

□ □ □

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/١٦).

(٢) راجع معنى التعريض وحكمه في: (٥/٤٩) زاد المعاد، و(٢/ ٥٠٤، ٥٠٥) الصواعق المرسلة، و(٣٦٦) مفتاح دار السعادة.

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف، على أنه جائز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير، بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا مَنْ عليه الحق.

قال شيخنا[١] رضي الله عنه: وهذه الحجة ضعيفة، فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتصَّ منه. وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم، والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ [يوسف: ٦٦].

وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته، فإنه كان أكرم من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به، ليبلغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء، فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به.

وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون مَنْ سرقه أو خانه، مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم، لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره؛ لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضاً، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل بريء ويعتقل للانتقام من غيره، من غير أن يكون له جُرْم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف، فلا بد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحياً خاصاً، كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى امتحانه وابتلاؤه؛ لينال درجة الصبر على حكم الله، والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه.

وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها، ومن حال يوسف، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

---
(١) الفتاوى الكبرى (٣/ ٢١٢).

فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه، كما نسبه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وفي قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠].

وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكراً وكيداً واستهزاءً وخداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ونحو قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقيل ـ وهو أصوب ـ: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه، فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

وحسن: وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له. فالأول مذموم، والثاني ممدوح.

والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعباده، وإنما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل.

□ □ □

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة:

أولها: أن إخوته كادوا به كيداً، حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه.

ثم إن امرأة العزيز كَادَتْهُ بما أظهرت أنه راوَدَها عن نفسها.

ثم أودع السجن.

ثم إن النسوة كِدْنَهُ حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وقال تعالى في حق النسوة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٤].

وقال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد

المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغياً وعدواناً(١).

والمقصود: أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي، فقالوا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد.

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي سجدوا له، هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له حذراً من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك، كما رآه في منامه.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

وكيد الله سبحانه لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: أن يفعل سبحانه فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدراً محضاً ليس من باب الشرع، كما كاد الذين كفروا، بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات.

وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام، فإن يوسف أكثر ما قدر عليه أن ألقى الصُّواع في رحل أخيه، وأرسل مؤذناً يؤذن: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾، فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾، أي: جزاؤه استعباد المسروق ماله للسارق، إما مطلقاً، وإما إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب عليه السلام.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٨٢).

وكان إلهام الله تعالى لإخوة يوسف ﷺ قولهم: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ كيداً من الله تعالى ليوسف ﷺ، أجراه على ألسن إخوته، وذلك خارج عن قدرته، وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك، بأن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقاً.

وقد كان يوسف ﷺ عادلاً لا يأخذهم بغير حجة، وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا: جزاؤه أن يُفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم. وقد كان من دين ملك مصر ـ فيما ذكر ـ أن السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، فلو قالوا له ذلك، لم يمكنه أن يُلزمهم بما لا يلزم به غيرهم، فلذلك قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ ملك مصر، لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن إن شاء الله، أخذه بطريق آخر، ويجوز أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا أن يُهيئ الله سبباً آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة.

النوع الثاني: أن يلهمه أمراً مباحاً، أو مستحباً، أو واجباً يوصله إلى المقصود الحسن.

فيكون على هذا: إلهامه يوسف ـ ﷺ ـ أن يفعل ما فعل، هو من كيده سبحانه أيضاً. فيكون قد كاد له نوعي الكيد. ولهذا قال تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾. وفي ذلك تنبيه على أن العلم الدقيق بلطيف الحيل الموصلة إلى المقصود الشرعي الذي يحبه الله تعالى ورسوله.. صفة مدح يرفع الله تعالى بها درجة العبد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [**يوسف**: ٧٧].

أخبر عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾. فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا: هذا مقيس على أخيه، بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قرابة الأخوة ليس

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٠٨ ـ ١١٩).

بعلة للتساوي في السرقة، ولو كانت حقاً، ولا دليل على التساوي فيها، فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

لعله إنما قالها عند تلقيه لهم، ويكون دخولهم عليه في منزل اللقاء فقال لهم حينئذٍ: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. فهذا محتمل.

وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته، فالمعنى: ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمنين إن شاء الله[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

أخبر أنه يلطف لما يريده، فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه «اللطيف» يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه، وإلقائه في السجن، وبيعه رقيقاً، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه، وكذبها عليه، وسجنه، محناً ومصائب، وباطنها نعماً وفتحاً جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي [الله سبحانه] به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٨). (٢) إعلام الموقعين (٤/ ٩٣).
(٣) شفاء العليل (٣٤).

والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الفراء وجماعة: (ومن اتبعني) معطوف على الضمير في (أدعو)، يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وهذا قول الكلبي، قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة.

ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثم يبتدئ بقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية: بأنه وأتباعه على بصيرة.

والقولان متلازمان، فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه. وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقالات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء[٢].

وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة، فالقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقاً إلا من دعا على بصيرة، كما كان متبوعه يفعل ﷺ، فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهدايةً وإرشاداً وصبراً وجهاداً، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه[٣].

❁ ❁ ❁

(١) الفوائد (١٩٦).
(٢) مفتاح دار السعادة (١٦٧، ١٦٨).
(٣) مفتاح دار السعادة (٨٥).

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ فعجب قولهم كيف ينكرون هذا. وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً!.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان وهو محض إنكار الرب، والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ﴾ [الرعد: ٨].

قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير.

وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها؛ كان ذلك نقصاناً من الولد. ﴿وَمَا تَزْدَادُۖ﴾، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها. وقال أيضاً: الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها، وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر وهو تمام النقصان.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٢٦).

وقال الحسن: ما تغيض الأرحام: ما كان من سقط، وما تزداد: المرأة تلد لعشرة أشهر.

وقال عكرمة: تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل. فكل يوم رأت فيه الدم حاملٌ ازداد به في الأيام ظاهراً، فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً.

وقال قتادة: الغيض: السقط، وما تزداد: فوق التسعة أشهر. وقال: سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد، فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل.

تغيض وتزداد: فعلان متعديان مفعولهما محذوف، وهو عائد على «ما» الموصولة، والغيض: النقصان، ومنه غيض الماء.

والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى: هل هو ذكر أو أنثى؟

وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله (تعالى)، كما في الصحيح[(١)] عنه ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله». فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص.

وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه، كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضاً؛ كلما ذهب بدل جاء بدل آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبِّرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد[(٣)].

□ □ □

(١) رواه البخاري (٤٦٢٧).
(٢) تحفة الودود (٢٢٩، ٢٣٠).
(٣) الجواب الكافي (١٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فدلالة لفظها أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على عباده حتى يغيروا طاعته بمعصيته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ **[الرعد: ١٤].**

إنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى وحده، ويقصد ويشكر ويحمد، ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، فتكون الدعوة الإلٰهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا ـ معرفة وذوقاً وحالاً ـ صح له مقام التبتل والتجريد المحض.

وقد فسر السلف(٢) «دعوة الحق»؛ بالتوحيد والإخلاص فيه، والصدق، ومرادهم هذا المعنى.

فقال علي رضي الله عنه، دعوة الحق: التوحيد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «شهادة أن لا إلٰه إلا الله».

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله، ودعوة الحق دعوة الإلٰهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ **[الرعد: ١٦].**

فاحتج على تفرده بالإلٰهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلٰهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧).

(٢) راجع: تفسير الطبري (١٣/ ١٢٨).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٩، ٣٠).

(٤) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد، في حق المؤمنين:

[ففي] المثل المائي؛ شبه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب بالماء الذي أنزله من السماء، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل.

فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماء كثيراً، وقلب صغير يسع علماً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها.

ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغثاء، ونحوه مما يمر عليه السيل فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً يمر عليه متراكباً، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض، فيقذف الوادي ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شيء، ويبقى الماء الذي تحت الغثاء يسقي الله تعالى به الأرض، فيحيي به البلاد والعباد والشجر والدواب، والغثاء يذهب جفاء ويطرح على شفير الوادي.

فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله في القلوب، فاحتملته، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة، فطفا في أعلاها، واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء، ويزول شيئاً فشيئاً حتى يزول كله، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب يرده الناس، فيشربون ويسقون ويمرعون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال[1]: «مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به؛ فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكا الناس بها.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي القوة في أمر الله، والأبصار البصائر في دين الله ﷻ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه.

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل؛ ففجرت من النصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصاً، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل(١): هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس، فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه». فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة.

الطبقة الثانية: فإنها حفظت النصوص وكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقوها منهم؛ فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها، واتّجروا فيها، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ووردها كل بحسبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ(٢): «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وهذا عبد الله بن عباس(٣) حبر الأمة وترجمان القرآن، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه: (سمعت ورأيت). وسمع الكثير من الصحابة وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً.

قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار. وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن، بالموضع الذي فاق به الناس وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا،

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).
(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٣١).

ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وأين تقع فتاوي ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوي أبي هريرة[(١)] وتفسيره، وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درساً فكانت همته مصروفه إلى الحفظ، وبلغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها، وهكذا الناس بعده قسمان:

قسم حفاظ: معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا، ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه.

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها.

فالأول: «كأبي زرعة» و«أبي حاتم» و«ابن دارة»، وقبلهم كـ«بندار محمد بن بشار» و«عمرو الناقد» و«عبد الرزاق»، وقبلهم كـ «محمد بن جعفر غندر» و«سعيد بن أبي عروبة»، وغيرهم من أهل الحفظ والإتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص.

والقسم الثاني: كـ «مالك» و«الشافعي» و«الأوزاعي» و«إسحاق» و«الإمام أحمد بن حنبل» و«البخاري» و«أبي داود» و«محمد بن نصر المروزي»، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية.

فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً.

وأما الطائفة الثالثة: وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأساً، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

فالطبقة الأولى: أهل رواية ودراية.

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء، لا رواية ولا دراية ولا رعاية: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فهم الذين يضيقون الديار ويغلون الأسعار، إن همة

---

(١) انظر: سيرته الطاهرة ومناقبه العالية رضي الله عنه في سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٨).

أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس.

ثم ضرب ﷻ مثلاً ثانياً، وهو المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

وهذا كالحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح، ويبقى خالصها فهو الذي ينفع الناس.

ولما ضرب الله ﷻ هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ورفع بهداه رأساً، وحكم من لم يستجب له، ولم يرفع بهداه رأساً، فقال:

* * *

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين الروحي والجسمي بالنور، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه، كما لا إضاءة بدونه، وكما أنه به حياة القلب فبه انفساحه وانشراحه وسعته، كما في الترمذي(١) عن النبي ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسخ وانشرح»،

---

(١) هو «الحكيم الترمذي» صاحب «نوادر الأصول»، وهو عنده عن ابن عمر، دون سند (١٢٥، ١٢٦)، والحديث ضعيف. رواه ابن جرير (١٢/ ٩٨)، وأشار الشيخ محمود شاكر لضعفه بأرقام (١٣٨٥٢ ـ ١٣٨٥٤) ورقم (١٣٨٥٦)، وبيّن أن مدار الخبر على «أبي جعفر»، وهو «عبد الله بن المسور» ضعيف كذاب.

انظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٥٠٤)، ورواه ابن المبارك في الزهد (١٠٦، ١٠٧)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٣٠٥)، والبغوي في تفسيره دون سند (٢/ ١٨٠)، وأشار السيوطي في الدر إلى أنه رواه: «.. عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر...» (٤/ ٣٥٤)، وفيه بيان من رواه غيرهم.

وقال الحافظ ابن كثير بعد ذكر لبعض روايات الحديث: «.. وهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً، والله أعلم»، تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٩) عند تفسيره الآية رقم (١٢٥) من سورة الأنعام، خَطَّأ ذلك الشيخ محمود شاكر حفظه الله، لحال «أبي جعفر الهاشمي الكذاب» (١٢/ ٩٩)، وانظر لزاماً: ص(٣٤) من رسالة «القسطاس في تصحيح حديث الأكياس»، لأخي الشيخ «محمد عمرو» حفظه الله تعالى.

قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب، وهو نور ومصدره عن النور، ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور، كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ[1] قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الشياطين من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

فلما كانت مادة الملائكة من نور، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدي الله عز وجل، ثم يأمر أن يكتب كتابه في أهل عليين.

فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة.

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة فإنها لا تفتح لها أبواب السماء، ولا تصعد إلى الله تعالى، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وعنصرها؛ لأنها أرضية سفلية، والأولى علوية سمائية، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هي منه، وهذا مبين في حديث[2] البراء بن عازب الطويل الذي رواه الإمام أحمد وأبو عوانة الإسفرائيني في صحيحه والحاكم وغيرهم، وهو حديث صحيح[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء، وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك، وشهادة المؤمنين عليهم[4].

* * *

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/ ٢٨٧). رواه أبو داود (١٣/ ٨٨) في السنة، باب: المسألة في القبر وعذاب القبر، والحاكم (١/ ٣٧)، وصححه على شرط الشيخين.

(٣) الوابل الصيب (٨٢ ـ ٨٧).

(٤) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٥١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه.

ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل.

ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه:

فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له، والقيام بطاعته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وحبه، وخوفه، ورجائه والتوبة إليه، والاستكانة له، والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله ﷺ بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين؛ بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، ذلك مما أمر به أن يوصل. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات؛ بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء؛ بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقاتهم.

وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله، بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا.

وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر.

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس؛ بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم، ونستحي منهم، كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجلّه ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل.

ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله، إلا بخشيته ومتى ترحلت الخشية من القلب؛ انقطعت هذه الوصلة.

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد، هو آخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه، وهو الصبر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر، وهي الصلاة، فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم.

ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا، أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرؤون بالحسنة السيئة؛ فيحسنون إلى من يسيء إليهم، فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وقد فُسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

وقال النبي ﷺ[1]: «أتبع السيئة الحسنة تمحها». والتحقيق أن الآية تعم النوعين.

والمقصود: أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها: اشتملت على فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) حديث حسن. رواه الإمام أحمد رضي الله عنه في مواضع منها: (٥/ ١٥٣ و٢٢٨). ورواه الترمذي (١٩٨٧)، والدارمي (٢٧٩١)، وحسنه الألباني.

(٢) عدة الصابرين (٢٩ ـ ٣١).

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[١]، أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراراً وارتياباً، ومنه قوله ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب»[٢]، أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان:

أحدهما: إنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله، ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه:

فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، وإذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت. ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئن.

والقول الثاني: إن ذكر الله هاهنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين.

فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله ـ وهو كتابه ـ من أعرض عنه قيّض له شيطاناً يُضله ويصده عن السبيل، وهو يحسب أنه على هدى.

---

(١) جزء من حديث صحيح عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، وأوله: «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لَا يرِيبُكَ فإن الصدق طمأنينة...»، رواه الترمذي (٢٥١٨).

(٢) صحيح، من حديث «أبي ثعلبة الخشني» رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بما يحل وما يحرم عليَّ، فصعد في البصر وصوبه، وقال: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب...» الحديث.
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/ ١٩٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٥): «وفي الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات». وصححه الألباني رقم (٢٨٧٨) صحيح الجامع.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله ـ وهو كتابه ـ ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥ ـ ١٢٦].

وأما تأويل من تأوله على الحلف: ففي غاية البعد عن المقصود، فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب، والبر والفاجر. والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف.

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب(١).

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

سُورَةُ إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقد فسرت «أيام الله» بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي.

فالأول: تفسير ابن عباس، وأبيّ بن كعب، ومجاهد.

والثاني: تفسير مقاتل[(١)].

والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه التي ساقها على أوليائه؛ وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أياماً» لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب، وأيام الناس، أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام.

فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض، وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه؛ فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة؟[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) راجع: تفسير الطبري (١٣/ ١٨٢).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٨، ٤٤٩).

والذكر رأس الشكر، والشكر جلّاب النعم وموجب للمزيد، قال بعض السلف رحمة الله عليهم: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول، فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً، وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، فصاحب الحق ـ لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره ـ مضطر إلى توكله على الله، ولا يجد بداً من توكله، فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه، بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه فهو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم.

وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فشبَّه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٦٠).
(٣) طريق الهجرتين (٢٣٩).

شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان؛ وكونها لغير الله ﷻ وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبول، وثلاثة مردودة.

فالمقبول: الخالص الصواب، فالخالص: أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله.

والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله، وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالهم، وما يعبدون من دون الله وقود النار(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦].

فشبه ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضٍ لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله،

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

كشجرة طيبة: وهو المؤمن. أصلها ثابت قول: لا إلٰه إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء[١].

وقال الربيع بن أنس: كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابتُ الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علواً، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلٰهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدِّقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سُبُل ربه ذُللاً، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلماً كثيراً طيباً، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً

---

(١) أخرجها الطبري (١٣/ ٢٠٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٥)، والطبراني في الدعاء (٣/ ١٥٢٧).

وإثباتاً، متصفاً بموجبها، قائماً قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح(١).

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن. ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء، وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: أصلها ثابت وفرعها في السماء، قال: ذلك المؤمن، ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، قال: ذكره في السماء. ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مُشَبَّهة به، وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك.

ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

□ □ □

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به، وحكمته.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها: العلم، والمعرفة، واليقين، وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال، وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسَّمْت

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٧٥) في العلم، باب: قول المحدث: «حدثنا»..

الصالح، والهدى، والدَّلّ المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدَّلُّ والسَّمْت مشابه لهذه الأصول مناسب لها؛ علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس، علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشكت أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم»[(١)].

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده، أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة، أنه لا بد أن يخالطه دَغَل ونبت غريب، ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه، كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأذكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به؛ فإنه يفوته ربح كبير، وهو لا يشعر.

---

(١) لم أجده بعد بحث في مسند الإمام أحمد رضي الله عنه، ولم أر من أشار إلى أنه في المسند من مخرجي الحديث، وهو حديث صحيح.
أخرجه الحاكم (١/ ٤)، وقال: رواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن. مجمع الزوائد (١/ ٥٢).

فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله، لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ومن يختص برحمته.

□ □ □

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة[(١)]، فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عِرْق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جَنًى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق، ولا أعلاها مُونِق، ولا جنى لها، ولا تعلو، بل تُعْلَى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم؛ وجده كذلك، فالخسران: الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، [الذي هو كتاب الرب سبحانه].

قال الضحاك: ضرب الله مثلاً للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً، ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة: وهي الشرك، كشجرة خبيثة: يعني: الكافر، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك، ولا

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها القيامة.

وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلت من فوق الأرض.

* * *

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب الكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبّت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون عن القول الثابت فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبّت المؤمنين بفضله لإيمانهم[(١)].

□ □ □

وتحت هذه الآية كنز عظيم، من وُفّق لمظنته وأحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه، فقد غنم، ومن حرمه فقد حُرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت.

ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أُمر به العبد، فبهما

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٤ ـ ٢٣٠).

يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلباً: أثبتهم قولاً.

والقول الثابت: هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوناً، وأقلهم ثباتاً، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

فما منح العبد منحة أفضل من منحه القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ[١]: «إن هذه الآية نزلت في عذاب القبر»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه، إلا العلم بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل لأحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه، فجعله إيماناً علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

[جاء هذا على لسان إبراهيم ﷺ].

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١). (٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) عدة الصابرين (١٤٥).

فهاهنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام؛ ولأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء، ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له، إثابته على الثناء، وإجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

قيل: جزاء مكرهم عنده، فمكر بهم، كما مكروا برسله.

ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم.

وسمي جزاء المكر مكراً، وجزاء الكيد كيداً، تنبيهاً على أن الجزاء من جنس العمل[3].

* * *

(١) شفاء العليل (٥٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٤).

(٣) مفتاح دار السعادة (٥٧٩، ٥٨٠).

سُورَةُ الحِجرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١١ ـ ١٣].

وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين، هذا أحدهما.

والثاني: في سورة الشعراء في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ ـ ٢٠١].

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط، وقال أبو إسحاق: أي: كما فعل بالمجرمين الذي استهزؤوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: نسلكه.

فقال ابن عباس: سلكنا الشرك، وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: هو الضلال.

وقال الربيع: يعني: الاستهزاء.

وقال الفراء: التكذيب.

وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد: التكذيب والاستهزاء والشرك، كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم.

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء؛ فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر اتحاده.

فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟

قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذباً به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به.

وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به، فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم، فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؛ قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به، مؤمن به، مرضي به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه.

فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [**الحجر**: ٢١].

[هذا النص الكريم] متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب.

وكل محبوب لا يُحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾، واجتمع ما يراد له في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

---

(١) شفاء العليل (٦١، ٦٢).

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحب ويُراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره، بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه، ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال الحسن: معناه: صراط إليَّ مستقيم.

وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي: صراط موصل إليَّ.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء.

وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية.

وقيل: ﴿عَلَيَّ﴾ فيه للوجوب، أي: علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل، وهي: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر، أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله ويوصل إليه، قال طُفَيل الغنوي:

مضوا سلفاً قصْد السبيل عليهم … وصرف المنايا بالرجال تشقلبُ

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصلونا. وقال الآخر:

فهن المنايا: أيُّ وادٍ سلكتُه … عليها طريقي، أو علي طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء لا أداة «على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [لقمان: ٢٣]. وقال: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]. ونظائر ذلك.

(١) الفوائد (١٩٦، ١٩٧).

قيل: في أداة ﴿عَلَىَّ﴾ سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]. وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى»، فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً، وكيف يكون مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة على ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة في الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. فإنَّ طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

□ □ □

وفي قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قول ثالث وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد نظير قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، كما يقال: طريقك عليّ، وممرك عليّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ولا معجز، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله ﷻ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط؛ لأنه صراط عليّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف.

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، فلا يخفى

الفرق بينهما سياقاً ودلالة، فتأمله، ولا يقال في التهديد: هذا صراط مستقيم عليَّ، لمن لا يسلكه، وليست سبيل المهدد مستقيمة فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله فلا يستقيم هذا القول البتة.

□ □ □

وأما من فسره بالوجوب، أي: عليَّ بيان استقامته والدلالة عليه، فالمعنى صحيح، لكن في كونه هو المراد بالآية نظر؛ لأنه حذف في غير موضع الدلالة، ولم يؤلف الحذف المذكور؛ ليكون مدلولاً عليه إذا حذف، بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة فإنه حذف مألوف معروف حتى إنه لا يذكر البتة، فإذا قلت: له درهم عليَّ، كان الحذف معروفاً مألوفاً، فلو أردت: عليَّ نقدُه، أو عليَّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت؛ لم يَسُغ، وهو نظير: عليَّ بيانه؛ المقدر في الآية، مع أن الذي قاله السلف أليق بالسياق، وأجلّ المعنيين وأكبرهما(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [**الحجر**: ٤٧].

أخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: «أخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم عليه السلام، ستون ذراعاً في السماء»(٢).

والرواية على خَلْق، بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعاً للخلق ـ بالضم ـ فهي جمع للخلق ـ بالفتح ـ، والمراد تساويهم في الطول والعرض والسن، وإن تفاوتوا في الحسن والجمال.

وأما أخلاقهم وقلوبهم، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «أول زمرة تلج الجنة»(٣)، وفيه: «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشية»(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [**الحجر**: ٧٠ ـ ٧٢].

أكثر المفسرين من السلف والخلف، بل لا يعرف عن السلف نزاعاً أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٥ ـ ١٨). (٢) رواه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).
(٣) رواه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤). (٤) حادي الأرواح (١١٠).

ولم يوافق الزمخشري[(١)] على ذلك فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط، وأنه من قول الملائكة، فقال: هو على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف، لا أهل التعطيل والاعتزال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لعمرك، أي: وحياتك، قال: وما أقسم الله بحياة نبي غيره.

والعَمر والعُمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف؛ لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم، وأيضاً فإن العَمر حياة مخصوصة، فهو عمر شريف عظيم، أهل أن يقسم به؛ لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم، ولا ريب أن عمره وحياته ﷺ من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يتحيرون، وإنما وصف الله للوطية بالسكرة؛ لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمرة، كما قال القائل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران[(٢)]

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرستُه، كأنها أخذت من السيما، وهي فعلاً من السمة، وهي العلامة.

وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي الترمذي مرفوعاً[(٣)]: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ

---

(١) وذكر الزمخشري القول الثاني وكأنه أشار لضعفه، فقال: (وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه أقسم بحياته، وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له..) الكشاف (٢/٣١٧، ٣١٨). وانظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٨ ـ ٤٣٠).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٢٧٨، ٢٧٩) في تفسير القرآن، سورة الحجر.
وقال: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد روي عن بعض أهل العلم، وضعفه من جميع طرقه الألباني، كما في الضعيفة برقم (١٨٢١). فانظره مفصلاً، وقد يغني عنه قوله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم». صححه الألباني برقم (١٦٩٣) الصحيحة.

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، والله أعلم[١].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المتفرسين، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: للناظرين.

وقال قتادة: للمعتبرين.

وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم؛ أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: ٣٠].

فالأول: فراسة النظر والعين.

والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم، فقال: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾. وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه.

واللحن[٢] ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»[٣].

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية.

ومنه قول الشاعر[٤]:

وحديث أَلَذُّهُ وهو مما ... يشتهي السامعون يوزن وزنا
مَنْطِق صائب وتَلْحَنُ أحيَاناً ... وخَيْرُ الحَديث ما كان لَحْناً

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٨، ١١٩).

(٢) انظر: لسان العرب (٧/ ٤٠١٣)، مادة: لحن.

(٣) رواه البخاري (٥/ ٣٤٠) في الشهادات، باب: كيف يستحلف، ومسلم (٤/ ٣٠٢) في الأقضية، باب: حكم الحاكم لا يغير الباطن.

(٤) البيتان في الأمالي، «لأبي علي القالي» (١/ ٥)، والأول جاء بلفظ:
وحَديثٍ أَلَذُّهُ هو مِمَّا ... تشتهيه النفوس يُوزَن وَزْنا
وراجع: اللسان (٧/ ٤٠١٤)، وغريب الحديث للخطابي (٢/ ٥٣٦).

والثالث: فساد المنطق قي الإعراب، وحقيقته: تغير الكلام عن وجهه، إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه، أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية.

والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال[(١)]: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ـ ثم تلا قوله تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾»[(٢)].

□ □ □

وسمي المتفرس متوسماً؛ لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب، فيستدل بالعيان على الإيمان؛ ولهذا خصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء؛ لأنهم يستدلون بما يشاهدونه منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء، وبنوه هم نسخته وخلفاؤه، فكل قلب فهو قابل لذلك وهو فيه بالقوة، وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة، وبعث الله رسله مذكِّرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان، فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد فيصير نوراً على نور، فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم بزيادة مادته ودوامها، ولا يزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال.

ومن لم يقبل هدى الله، ولم يرفع به رأساً دخل قلبه في الغلاف والأكِنَّة، فأظلم، وعمي عن البصيرة، فحجبت عنه حقائق الإيمان، فيرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، والرشد غياً، والغي رشداً، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. و(الرين) و(الران) هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٢، ٤٨٣).

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله».

وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فالسؤال عن: ماذا كانوا يعبدون، هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عن: ماذا أجابوا المرسلين، سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها، هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

لما نزلت هذه الآية صدع ﷺ بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس.

ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة، وناداهم بسبِّ آلهتهم، وعيب دينهم، اشتد أذاهم له ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه، ونالوهم بأنواع الأذى، وهذه سنة الله في خلقه(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وهو الموت بإجماع أهل العلم كلهم، قال الحسن: لم يجعل الله لعبادة المؤمنين أجلاً دون الموت(٤).

* * *

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٠).
(٢) طريق الهجرتين (٢٩٧).
(٣) زاد المعاد (٢/ ١٠٨).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ٣١٦).

سُورَةُ النّحل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

تطلق الروح على القرآن الذي أوحاه تعالى إلى رسوله.

وسمي ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩].

أي: ومن السبيل جائر عن القصد وهي سبيل الغي(٢).

[وانظر تفسير الآية (٤١) من سورة الحجر (٢/ ١٠٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وقال في هذه السورة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال فيها عن خليله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.[النحل: ١٢٢].

فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع،

---

(١) الروح (٢٦٤).

(٢) حادي الأرواح (٦٨).

فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وإن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ [**النحل**: ٣٨ ـ ٣٩].

ذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعدما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذباً، وأنه كان على باطل، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه، فيخزيه ذلك أعظم خزي[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [**النحل**: ٤٣، ٤٤].

أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور، والذكر هاهنا: الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [**النحل**: ٤٩، ٥٠].

أخبر ـ سبحانه ـ عن سجود جميع المخلوقات، فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته وخضوعهم له بالسجود تعظيماً وإجلالاً[(٤)].

* * *

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٢).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٦١).
(٣) شفاء العليل (٣٩).
(٤) كتاب الصلاة (١٨٠).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [**النحل**: ٦٠].

وصف الله سبحانه نفسه [في هذه الآية] بأن له المثل الأعلى.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم.

وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده؛ ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل، أي: أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض، ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟! تعالى الله عن قول المعطلين علواً كبيراً.

فمثل السوء لعادم صفات الكمال؛ ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده، وكلامه، وحكمته؛ لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها [كان] كاملاً، وهي الإيمان، والعلم، والمعرفة، واليقين، والعبادة لله، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر، والرضا، والشكر، وغير ذلك من الصفات، التي اتصف بها من آمن بالآخرة.

فلما سلبت تلك الصفات عنهم، وهي صفات كمال؛ صار لهم مثل السوء.

فمن سلب صفات الكمال عن الله، وعلوه على خلقه، وكلامه، وعلمه، وقدرته، ومشيئته، وحياته، وسائر ما وصف به نفسه، فقد جعل له مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلى، فإن مثل السوء هو العدم، وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب تعالى هو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى وبصره وسائر صفاته علياً؛ كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه.

بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإنْ لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى، مثل، أو نظير.

وهذا برهان قاطع على إثبات صفات الكمال وعلى استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور، والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق، مع الوحدة، فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفؤ له؛ فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤاً، وكان القهار واحداً، فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه.

□ □ □

فإن قلت: قد فهمت هذا وعرفته، فما حقيقة المثل الأعلى؟.

قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين[1]، واستشكلوا قول السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ العذاب والنار ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لم قيل للعذاب: مثل السوء، وللإخلاص: المثل الأعلى؟ قال: وقال قوم: المثل السوء، الصفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث، خوف العيلة، والعار، ولله المثل الأعلى، الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد، قال: وهذا قول صحيح، فالمثل كثيراً يرد بمعنى: الصفة، قاله جماعة من المتقدمين.

وقال ابن كيسان: مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥]. وقال ابن جرير[2]: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

□ □ □

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٧٣٥).
(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٥).

والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته. وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها فكل أهل الأرض معظمون له، مجلون له، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره، وأكمل وأعظم من كل سواه.

الثالث: ذكر صفاته وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل، كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها، وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤][(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ﴾ [النحل: ٦٩].

هل الضمير في (فيه) راجع إلى الشراب، أو راجع إلى القرآن؟ على قولين:

الصحيح: رجوعه إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس والحسن، وقتادة، والأكثرين، فإنه هو المذكور؛ والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله: «صدق الله»[(٢)] كالصريح فيه، والله تعالى أعلم[(٣)].

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٠ ـ ١٠٣٦).

(٢) يشير للحديث الصحيح: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقه عسلاً»، فقال له في المرة الثالثة: «فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً، فسقاه، فبرأ»، رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [**النحل**: ٧٥، ٧٦].

هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفي الحكم بنفي علته، وموجبه.

فإن القياس نوعان: قياس طَرْدٍ، يقتضي إثبات الحكم في الفرع؛ لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس، يقتضي نفي الحكم عن الفرع؛ لنفي علة الحكم فيه.

□ □ □

فالمثل الأول: ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، وينفق كيف يشاء على عبيده، سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً، يمينه ملأى، لا يغيضها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، مثل المؤمن في الخير الذي عنده، ثم رزقه منه رزقاً حسناً، فهو ينفق منه على نفسه، وعلى غيره سراً وجهراً، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز، لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد العقلاء؟

والقول الأول: أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسباً بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]. ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه: أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا نبه عليه

المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس رضي الله عنهما منبهاً على إرادته، لا أن الآية اختصت به.

فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله.

□ □ □

وأما المثل الثاني: فهو مثل ضربه الله تبارك وتعالى لنفسه، ولما يعبد من دونه أيضاً، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة.

والله سبحانه حي قادر متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل ـ وهو الحق ـ يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راض به، آمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسواه، بل ينزه عن ضده، الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه، وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور.

وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني، والأمر القدري الكوني، وكلاهما عدل، لا جور فيه بوجه ما، كما في الحديث الصحيح: «اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك»[(١)]. فقضاؤه: هو أمره الكوني. فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون؛ فلا يأمر إلا بحق وبعدل، وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل، وإن كان في المقضي المقدَّر ما هو جور وظلم، فالقضاء غير المقضي، والقدر غير المقدر.

ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم، وهذا نظير قول رسوله هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦][(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [**النحل**: ٧٨].

---

(١) رواه الإمام أحمد بسند صحيح (١/ ٣٧١٢)، ورواه الحاكم (١/ ٥٠٩)، وصححه على شرط مسلم.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢١١ ـ ٢١٣).

فهو في أصل الخلقة خلق خالياً ساذجاً لا علم له بشيء من المعقولات ولا المحسوسات البتة.

فأول ما يخلق فيه حاسة اللمس فيدرك بها أجناساً من الموجودات؛ كالحرارة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها، فاللمس قاصر عن الألوان والأصوات، بل هي كالمعدومة بالنسبة إليه.

ثم يخلق له البصر فيدرك به الألوان والأشكال والقرب والبعد والصغر والكبر والطول والقصر والحركة والسكون وغير ذلك.

ثم ينفتح له السمع فيسمع الأصوات الساذجة والنغمات، ثم يترقى في مدارك هذه الحاسة على التدريج حتى يسمع من البعد ما لم يكن يسمعه قبل ذلك.

ويتفاوت الناس في قوة هذين الإدراكين، وضعفهما تفاوتاً بيّناً، حتى يدرك الواحد ما يجزم الآخر بكذبه فيه، والمدرك مشاهد له لا يمكنه تكذيب نفسه فيه وذنبه عند المكذب له أنه اختص بإدراكه دونه.

ثم يخلق له الذوق فيدرك به تفاضل الطعوم من الحلاوة والحموضة والمرارة، وما بين ذلك ما لم يكن له به شعور قبل ذلك، وكذلك الشم هو أكمله وليس عنده من المعقولات عين ولا أثر ولا حس ولا خبر.

ثم يخلق فيه التمييز وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك في هذا الطور أموراً أخر زائدة على المحسوسات لم يكن يدركها قبل ذلك، ثم يترقى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل، وأن حكم الشيء حكم مثله، والضد لا يجتمع مع ضده، والنقيضان إذا صدق أحدهما كذب الآخر، ونحو ذلك من أوائل العلوم الضرورية.

ثم يترقى إلى طور آخر يستنتج فيه العلوم النظرية من تلك الضروريات التي تقدم علمه بها، ثم يترقى في هذا الطور من أمر إلى أمر فوقه وأغمض منه، نسبة ما قبله إليه كنسبة الحس إلى العقل.

ثم وراء ذلك كله طور آخر نسبة ما قبله إليه كنسبة أطوار الإنسان إلى طور العقل أو دون هذه النسبة، ينفتح فيه عين يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأمور العقل معزول عنها كعزل الحس عن مدركات العقل، وهذا هو طور النبوة الذي نسبة نور العقل المجرد إليه دون نسبة ضوء السراج إلى الشمس، فإنكارُ العقل لما يخبر به النبي عين الجهل، ولا مستند له في إنكاره إلا أنه لم يبلغه ولم يصل

إليه، فيظن أنه غير ثابت في نفسه[(١)].

□ □ □

وقد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطى السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ الآية.

واحتج أنه في بطن الأم لا يرى شيئاً، ولا يسمع صوتاً، فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة.

وليس ما قاله صحيحاً ولا حجة له في الآية؛ لأن الواو لا ترتيب فيها، بل الآية حجة عليه، فإن فؤاده مخلوق وهو في بطن أمه، وقد تقدم حديث[(٢)] حذيفة بن أُسيد.

والصحيح: إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها، وهذا وإن كان المراد به: العين والأذن؛ فالقوة السامعة والباصرة مودعة فيها، وأما الإدراك بالفعل فهو موقوف على زوال الحجاب المانع منه، فلما زال بالخروج من البطن عمل المقتضي عمله، والله أعلم[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي: الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعه الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها؛ صورتها ومادتها وهيئاتها[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

---

(١) الصواعق (٣/ ٩٥٧).

(٢) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى (٢٦٤٤) في القدر، في كيفية خلق الآدمي.. والحديث: «عن حذيفة بن أُسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟...» الحديث.

(٣) تحفة الودود (٢٣٥). (٤) شفاء العليل (٥٤، ٥٥).

[إنه] سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى معرفته، ومحبته، وتصديق رسله، والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم وهي سورة النحل.

فذكرهم بأصول النعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم؛ ليسلموا له فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم.

ثم أخبر عمن كفره، ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

قال مجاهد: المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لكان كذا وكذا، وقال الفراء وابن قتيبة[١]: يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا.

وقالت طائفة: النعمة هاهنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنكارها جحدهم نبوته، وهذا يروى عن مجاهد والسدي[٢]، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجلّ النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث، فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال: إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابراً عن كابر، جاحدٌ لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع الذين ذكرهما الملك بنعم الله عليهما، فأنكرا وقالا: «إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر فقال: إن كنتما كاذبين فصيركما الله إلى ما كنتما»[٣]، وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم، ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.

وأما قول الآخرين: لولا فلان لما كان كذا فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، وغايته أن تكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده والسبب لا يستقل

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص(٢٤٨).

(٢) ذكر هذه الأقوال في الآية ثم رجح كون المقصود بالإنكار للنعمة: النعمة عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم داعياً إلى ما بعثه بدعائه إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول الله ﷺ، وعما بعث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده، إذا لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده. تفسير الطبري (١٤/١٥٨).

(٣) رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

بالإيجاد، وجَعْلُهُ سبباً هو من نعم الله عليه وهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب، وقد ينعم بدونه فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسبيبته، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: بشفاعة آلهتنا فتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي مُحضَرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمه فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [**النحل**: ٨٨].

فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله، وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به، وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم وهؤلاء عكسهم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [**النحل**: ٩٧].

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا، والحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين[٣].

---

(١) شفاء العليل (٣٦، ٣٧).
(٢) طريق الهجرتين (٣٨٠).
(٣) الجواب الكافي (١٧٧).

وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي، وبه يتحرك وبه يسكن، وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث(١).

□ □ □

ويغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة، حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء، والتفنن بأنواع الشهوات. ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام، فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد.

ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة.

ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده، ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً.

ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً.

وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب(٢).

---

(١) الجواب الكافي (٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (٣٨).

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [**النحل**: ٩٨ ـ ١٠٠].

ومعنى (استعذ بالله): امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ والعِيَاذ والمعَاذ. وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله ﷺ: «لقد عُذتِ بمعاذ»[٢]، وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب (أطيب اللحم عوذه) أي: الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها (عُوذ) كحمر، ومنه في حديث الحديبية: «معهم العُوذ المطافيل»[٣]، والمطافيل: جمع (مُطفِل)، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول[٤] ـ: استعار ذلك للنساء، أي: معهم النساء وأطفالهم.

ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي: قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها.

□ □ □

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك وجوه:

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٧).

(٢) رواه البخاري (٥٢٥٥). والحديث في (ابنة الجون): لما أُدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك... فذكره.

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٤) هو الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري رحمه الله تعالى، وانظر: جامع الأصول (٨/٣٠٣).
وانظر في معنى: «أعوذ» واشتقاقها، كتاب (إعراب ثلاثين آية من القرآن الكريم)، ص(٣ ـ ٥) للإمام (ابن خالويه) رحمه الله تعالى، وغيرها من كتب التفسير.

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، يُذهب ما يُلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب؛ ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكن منه ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب وقد خلا من مزاحم ومُضادٌ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أَحَسَّ بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله ﷻ منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن؛ وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلْحَظٌ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف وهو محصل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته، كما في حديث أُسيد بن حُضَير(١): لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك الملائكة»، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجلب على القارئ بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، و«الله تعالى أشد أَذَناً للقارئ

---

(١) رواه مسلم (٧٩٦).

الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته»[١]، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مفاجأة الله تعالى واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى، إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل ﷺ فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليها، فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه[٢].

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ[٣]: «إن شيطاناً تَفَلَّتَ عليَّ البارحة، فأراد أن يقطع عليَّ صلاتي..» الحديث. وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد[٤] من حديث سَبْرة بن أبي الفاكه: أنه سمع النبي ﷺ

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦/ ١٩)، وابن ماجه (١/ ٤٢٥) برقم (١٣٤٠) في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: حسن الصوت بالقرآن. وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد حسن لقصور درجة ميسرة مولى فضالة وراشد بن سعيد عن درجة أهل الحفظ والضبط... (١/ ٤٣٦) مصباح الزجاجة.
وضعفه الألباني كما في ضعيف سنن ابن ماجه، ص(٩٩)، والحاكم (١/ ٥٧٠، ٥٧١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي: (بل هو منقطع).

(٢) هذا المعنى فيه إشكال، فهو مرتبط بقصة الغرانيق المكذوبة على النبي ﷺ، وانظر ـ إن رغبت ـ: تفصيل ذلك في كتاب (الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية)، نشره المكتب الإسلامي [الشامي].

(٣) رواه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

(٤) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١، ٢٢) في الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: إسناده حسن، إلا أن في إسناده اختلافاً... وصححه ابن حبان (٧/ ٥٧)، الإصابة (٤/ ١٢٠).
وصححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٦٤٨)، وقد مر (٢/ ١٩٦).

يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال ـ فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد».

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم»، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ـ فهو بالرصد ـ ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ وإن كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

□ □ □

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم(١).

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى صلاته استفتح ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من همزه ونفخه ونفثه»(٢).

---

(١) انظر: مسائل الإمام أحمد رضي الله عنه، برواية ابنه عبد الله، ص(٧٦).

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٥٠)، وأبو داود (٢/ ٤٧٧، ٤٧٨) في الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح سبحانك اللهم وحمدك، والترمذي (٢/ ٩) في الصلاة، باب: ما =

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وهو رواية عن أحمد؛ بظاهر الآية، وحديث ابن المنذر وعن أحمد من رواية عبد الله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» لحديث أبي سعيد.

وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»(١).

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم».

وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ظاهره أنه يستعيذ بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وقوله في الآية الأخرى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف (إن)، لأنه سبحانه هكذا ذكر(٢).

□ □ □

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان،

= يقول عند افتتاح الصلاة، وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى، ورواه الدارمي (١/ ٢٢٦) في الصلاة، باب: ما يقال عند افتتاح الصلاة. وانظر: إرواء الغليل (٢/ ٥١). وانظر: المسألة في المغني (٢/ ١٤٥).

(١) رواه أبو داود (٢/ ٤٩٤) في الصلاة، باب: من لم ير الجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم. وقال: هذا حديث منكر.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩١ ـ ٩٥).

ف ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً؛ لأن صاحبها يتسلط بها تسلط القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين.

قال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢].

وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه[1].

□ □ □

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطاناً ـ بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؟

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٩٨).

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم(١).

□ □ □

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله ﷻ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له سلطان على من تولاه وأشرك مع الله فهؤلاء رعيته، فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [**النحل**: ١٠١].

تأمل حسن الاعتراض وجزالته [في الآية الكريمة].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟

ومنها: أن الذي بُدل وأتي بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلاً منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [**النحل**: ١٢٠ ـ ١٢٢].

فالأمة: هو القدوة المعلم للخير.

والقانت المطيع لله الملازم لطاعته.

والحنيف: المقبل على الله المعرض عما سواه، ومن فسره بالمائل فلم يفسره

---

(١) عدة الصابرين (٢٦). (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٩).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٢٤).

بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾؛ ولهذا فسرت (مخلصاً).

فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه، بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك:

الأول: توحيد الطلب.

والثاني: توحيد المطلوب(١).

□ □ □

هذه أربعة أنواع من الثناء.

[الأول]: افتتحها بأنه أمة، والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

(أحدهما): أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إماماً كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]. أي: بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة.

(الثاني): أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل؛ بحيث بقي فيها فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى ومنه الحديث: «أن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده»(٢)، فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة، ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله قانتاً لله، قال ابن مسعود: القانت المطيع والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

---

(١) جلاء الأفهام (١٥٥).

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ١١٦، ١١٧) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، وصححه أحمد شاكر.

الثالث: قوله حنيفاً، والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله شاكراً لأنعمه، والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة، والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات، كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [**النحل**: ١٢٥].

جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة.

والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن.

هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان: أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات، وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها(٢).

[وقد] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما (الموعظة) فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك (الجدال) قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن، ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٨٩، ١٩٠). (٢) مفتاح دار السعادة (١٦٧).

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين(١).

□ □ □

فمراتب الدعوة ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو:

فإنه إما أن يكون طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره، إذ عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال.

وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق، ولكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

إحداهما: أن يرد عن باطله، ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن يَنْكَفَّ شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

الصبر المحمود نوعان: صبر لله، وصبر بالله، وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل؟

فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية، وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل؛ ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبرراً وتقرباً إلى الله؛ لأنه نذر له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين؛ لأنه حلف به.

فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته؛ ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنهي من الشرك، دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦، ١٢٧٧).

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به، والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة، كقوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي».

وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له، وتحمل الأثقال لأجله، كما في الأثر الإلهي، يعني: وما يتحمل المتحملون من أجلي، فدل قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر.

وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً وتبليغاً، وعلى الحكم القدري احتمالاً له واضطلاعاً به، من لم يكن الله معه؟ فلا يطمع في درجة الصبر المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله(١).

❁ ❁ ❁

(١) عدة الصابرين (٤٥، ٤٦).

سُورَةُ الإسراءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

فذكره بالعبودية في مقام الإسراء[(١)].

وفي قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ دون بعث بعبده وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، فهي في قوله: هاجر بأهله وسافر بغلامه، وليست للتعدية، فإن أسرى يتعدى بنفسه يقال: سرى به وأسراه؛ وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان ﷺ إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر»[(٢)].

فإن قيل: فهذا المعنى يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل: سرى بعبده، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة:

أحدهما: أنهما بمعنى: وأن أسرى، لازم كَسَرى، تقول: سرى زيد وأسرى بمعنى: واحد، وهذا قول جماعة.

والثاني: أن أسرى متعد ومفعوله محذوف، أي: أسرى بعبده البراق، هذا قول السهيلي[(٣)] وغيره.

ويشهد للقول الأول قول الصديق[(٤)]: أسرينا ليلتنا كلها ومن الغد، حتى قام قائم الظهيرة.

والجواب الصحيح: أن الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيئان:

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٣). (٢) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٣) نص كلام السهيلي رحمه الله تعالى: أي: جعل البُراق يَسْري، كما تقول: أمضيته، أي: جعلته يمضي؛ لكن كثر حذف المفعول لقوة الدلالة عليه؛ أو للاستغناء عن ذكره... وراجع: هذا المبحث الجليل في الروض الأنف (٣/ ٤١٢).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩م).

أحدهما: صدور الفعل من فاعله.

الثاني: مصاحبته لما دخلت عليه الباء، فإذا قلت: سريت بزيد وسافرت به كنت قد وجد منك السرى، والسفر مصاحباً لزيد فيه، كما قال:

ولقد سريت على الظلام بمعشر

ومنه الحديث: «أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها»(١).

وأما المتعدي بالهمزة: فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] ونظائره.

فإذا قرن هذا المتعدي بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة من الباء، ولو أتى فيه بالثلاثي فهم منه معنى المشاركة في مصدره وهو ممتنع، فتأمله(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضي له أنه عامله، وما هو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه(٣).

وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائره: عمله وما قدر عليه، فهو ملازمة أينما كان وزائل معه أينما زال.

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عمله. زاد مجاهد: وما كتب له. وقال قتادة أيضاً: سعادته وشقاوته بعمله.

قال ابن جرير(٤): فإن قال قائل: فكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت؟ ولم يقل: في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟

قيل: إن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى

---

(١) رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠). (٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٢، ٢٠٣).
(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠). (٤) المصدر نفسه (١٥/ ٥١).

الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

وقال الفراء: الطائر معناه: عندهم العمل.

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه.

وأما قوله: في عنقه، فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي: لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق، قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا وقلدتك كذا، أي: صرفته نحوك وألزمتك إياه، ومنه قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق. وقيل: إنما خص العنق؛ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل فأضيف إلى الأعناق.

قالت القدرية: إلزامه ذلك وسمه به وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي والخبر عنه، لا أنه ألزمه العمل فجعله لازماً له.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة وهو خلاف حقيقة اللفظ، وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم، وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها، والقرآن بريء من ذلك، وبالله التوفيق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

هذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء.

والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه.

---

(١) شفاء العليل (٦١).

وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين:

أحدهما: أمرناهم بطاعتنا.

الثاني: فخالفونا أو عصونا، ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه، كقولك: أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك هذه القرية أمره المذكور، ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل: أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك.

قيل: هذا يبطل بالوجه:

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين، بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا.

الوجه السابع: أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم؛ لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]. فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدرياً لا شرعياً دينياً بالفسق في القرية، فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله: بالإهلاك(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ

---

(١) شفاء العليل (٢٨١).

جَهَنَّمَ يَصْلَنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩].

[انظر في تفسيرهما: الآيتان: ١٥، ١٦ من سورة هود (ج٢ ص٤٧)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

مذموماً لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذموماً منصوراً، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

علل النهي في الموضعين[٢] بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلاً للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: (لا تقربوا الزنا فإنه يقول لكم: لا تقربوه)، أو (فإنه منهي عنه)، وهذا محال من وجهين:

أحدهما: أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة.

والثاني: أنه تعليل للنهي بالنهي[٣].

فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا»[٤]. ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة[٥].

* * *

---

(١) مدارج السالكين (١/٤٥٨).
(٢) والموضع الآخر في الأعراف في الآية (٣٣).
(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٣، ٣٣٤). (٤) البخاري (٣٨٤٩).
(٥) الجواب الكافي (٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فقد أخبر سبحانه أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده، ونهاه أن يقفو، أي: يتبع ما ليس له به علم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

[سبق هذه الآية] ذكر توحيده، وذكر المناهي التي نهاهم عنها والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم بالآية الكريمة.

أي: مخالفة هذه الأوامر، وارتكاب هذه المناهي سيئه مكروهة لله.

فتأمل قوله: ﴿سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: أنه سيئ في نفس الأمر عند الله حتى لو لم ينزل به تكليف؛ لكن سيئه في نفسه عند الله مكروهاً له، وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أنْ كرهه، ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهاً لله، إذ لا معنى للكراهة عندهم[٢] إلا كونه منهياً عنه، فيعود قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إلى معنى كل ذلك نهي عنه عند ربك، ومعلوم أن هذا غير مراد الآية.

وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سبباً للنهي عنه؛ ولهذا جعله علة وحكمة للآمر، فتأمله، والعلة غير المعلول[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

فقيل: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخنا[٤] رضي الله عنه: والصحيح أن المعنى: لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له، قال: ويدل على هذا وجوه:

---

(١) الكلام في مسألة السماع (٢٣٦).
(٢) أي: نفاة الحكمة في الأمر والنهي.
(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٦).
(٤) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما هو معلوم.

منها: قوله تعالى ذكره: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]. أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ترجون رحمتي، وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

الثاني: أنه سبحانه لم يقل: لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلًا﴾، وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى، كقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النساء: ٣٤].

والثالث: أنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾، وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه[1]؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ **[الإسراء: ٤٥]**.

وقوله: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجاباً يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، وبينه قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ [الإسراء: ٤٦].

وهذه الثلاثة[2] هي الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، فأخبر سبحانه أن ذلك جعله.

فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقال الكلبي: الحجاب هاهنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله، بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه.

---

(١) الجواب الكافي (٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) الثلاثة: هي: الحجاب، والأكنة، والوقر.

ووصفه بكونه مستوراً، فقيل: بمعنى: ساتر.

وقيل: على النسب، أي: ذو ستر.

والصحيح: أنه على بابه، أي: مستوراً عن الأبصار فلا يرى[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

فتأمل ما أُجيبوا به على كل سؤال على التفصيل.

فإنهم قالوا: أولاً: إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟

فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقاً جديداً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد، أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديداً، فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً؟

وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما؛ لكان قادراً على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال.

ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها، بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال؟

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [الإسراء: ٥١].

وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨].

فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلاً؛ انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج ـ بمثل ذلك ـ وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2].

---

(١) شفاء العليل (٩٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٤٧٨ ـ ٤٨٠).

فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل واستلزامه بمدلوله استلزاماً لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالين والجواب عنهما أبلغ جواب وأصحه وأوضحه، فللّه ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

فالشيطان ينزغ بينهم إذا كلم بعضهم بعضاً بغير التي هي أحسن، فربَّ حرب وقودها جثث وهام، أهاجها القبيح من الكلام.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي»(٢).

وخبثت ولقست وغثت متقاربة المعنى، فكره رسول الله ﷺ لفظ «الخبث» لبشاعته، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه، وإن كان بمعناه؛ تعليماً للأدب في المنطق، وإرشاداً إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح في الأقوال كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار السالكين، وهي: الخوف والرجاء والمحبة.

فجمع [في الآية الكريمة] بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه، وفعل ما يحبه، ثم يقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾.

فذكر الحب والخوف والرجاء، والمعنى: إن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟(٤).

* * *

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧٩)، ومسلم (٢٢٥٠).

(٣) الطرق الحكمية (٤٩). (٤) طريق الهجرتين (٢٦٢، ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]:

أي: مبينة موجبة للتبصر. وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً. يقال: أبصرته، بمعنى: أريته، وأبصرته، بمعنى: رأيته.

فمبصرة في الآية بمعنى: مرئية، لا بمعنى: رائية، والذين ظنوها بمعنى: رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها.

فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيعدى بالباء تارة والهمزة تارة، ثم يقال: أبصرته كذا، أي: أريته إيّاه، كما يقال: بصرته به، وبصر هو به.

فهٰهنا بَصيرة، تبصِرة ومُبصِرة، فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر، مثل التذكرة، وسمي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له، كما كان تبعاً في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به.

وانتصب جزاءً موفوراً عند ابن مالك على المصدر وعامله عنده المصدر الأول، قال: والمصدر يعمل في المصدر تقول: عجبت من قيامك قياماً، ويعمل فيه الفعل نحو: قام قياماً، واسم الفاعل كقوله:

فأصبحت لا أقرب الغانيات مزدجراً عن هواها ازدجاراً

واسم المفعول هو مطلوب طلباً.

وبعد، ففي نصب جزاء قولان آخران:

أحدهما: إنه منصوب بما في معنى: فإن جهنم جزاؤكم من الفعل فإنه متضمن لتجازون وهو الناصب جزاء.

والثاني: إنه حال، وساغ وقوع المصدر حالاً هاهنا؛ لأنه موصوف، ذكر

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٩، ١٧٠).

الزمخشري[١] هذين القولين، وهذا كما تقول: خذ عطاءك عطاءً موفوراً.

والذي يظهر في الآية أن جزاءً ليس بمصدر، وإنما هو اسم للحظ والنصيب فليس مصدر جزيته جزاء، بل هو كالعطاء والنصيب؛ ولهذا وصفه بأنه موفور، أي: تام لا نقص فيه، وعلى هذا فنصبه على الاختصاص، وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة، وهذا كما قال الزمخشري[٢] وغيره في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ٧]، إلى قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]. قال: نصبه على الاختصاص، أي: أعني: نصيباً مفروضاً، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكدة كقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣] [النساء: ١١، التوبة: ٦٠].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي أخبرنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾، قال: كل داعٍ إلى معصية[٤].

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية؛ ولهذا فُسر صوت الشيطان به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي أخبرنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: استزل منهم من استطعت، قال: وصوته الغناء والباطل[٥].

وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال: صوته هو المزامير.

ثم روى بإسناده عن الحسن البصري قال: صوته هو الدف. وهذه الإضافة إضافة تخصيص، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك، فكل متكلم بغير طاعة الله ومصوتٍ بيراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل فذلك صوت الشيطان، وكل ساعٍ في

(١) انظر: تفسير (الكشاف) (١/ ٢٤٩)، وفيه زيادة عن المنقول هنا.
(٢) انظر: تفسير (الكشاف) (١/ ٢٤٩)، وفيه زيادة عن المنقول هنا.
(٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٨٥، ١٨٦).
(٤) ورواه الطبري (١٥/ ١١٨).
(٥) المصدر نفسه.

معصية الله على قدميه فهو من رجله، وكل راكب في معصية الله فهو من خيالته.

كذلك قال السلف، كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «رَجْلُهُ كل رجل مشت في معصية الله».

وقال مجاهد: كل رجل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجله.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورَجْلاً من الجن والإنس[(١)].

وصوت الشيطان كل صوت في غير طاعة الله نسب إلى الشيطان لأمره به ورضاه به، وإلا فليس هو الصوت نفسه، فصوت الغناء وصوت النوح وصوت المعازف من الشبَّابات والأوتار، وغيرها كلها من أصوات الشيطان التي يستفز بها بني آدم فيستخفهم ويزعجهم.

ولهذا قال السلف في هذه الآية: «إنه الغناء»[(٢)]، ولا ريب أنه من أعظم أصوات الشيطان التي يستفز بها النفوس ويزعجها ويقلقها، وهو ضد القرآن الذي تطمئن به القلوب، وتسكن وتخبت إلى ربها، فصوت القرآن يسكن النفوس ويطمئنها ويوقرها، وصوت الغناء يستفزها ويزعجها ويهيجها.

وكذلك صوته الذي يستفز به النفوس عند المصيبة، وهو النَّوح، فيستفزها بهذا الصوت إلى الحزن والأسف والسخط بما قضى الله، ويستفزها بذلك الصوت إلى الشهوة والإرادة والرغبة فيما يبغضه الله.

فينهاها بصوت النوح عما أمرها الله به، ويأمرها بصوت الغناء بما نهاها الله عنه.

وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أنه يحتنك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً، وهي استفزازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم، فكل راكب في معصية الله فهو من خيالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجالته، وكل مال أخذ من غير حله وأخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولد من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه[(٣)].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) كمجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ. أخرجه الطبري (١٥/ ١١٨). وانظر: تفسير الآية رقم (٦) من سورة لقمان.

(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٧٩ ـ ٣٨١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فسبحان من ألبسه خلَع الكرامة كلها، من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

فالتثبيت فعله [تعالى]، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبِت، وعبده الثابت(٢).

أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أي: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة(٣).

فضرورته ﷺ إلى ربه، وفاقته إليه، بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

قيل: يشهده الله ﷻ وملائكته.

وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر؛ وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل، فيشهدها ملائكة الليل والنهار؛ واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٣).
(٢) شفاء العليل (٥٩).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٣٣).
(٤) طريق الهجرتين (١٠).

النهار في صلاة الفجر» يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1]، رواه البخاري في الصحيح.

قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا وهو: أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة، فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة وهي شهادة حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماء الدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد: حدثني زيادة بن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد الأنصاري، عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، فيفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث، وهم: النبيون والصديقون والشهداء، ثم يقول: طوبى لمن دخلك. ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض، فيقول: قومي بعزتي ثم يطلع إلى عباده فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا من سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر؛ ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده الله ﷻ، وملائكته: ملائكة الليل والنهار»[2].

ففي هذا الحديث: أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر، وعلى هذا، فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له، وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر، ولا سيما هو معلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه.

وفي لفظ: «حتى يضيء الفجر».

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) إسناده ضعيف. رواه الطبري في التفسير (١٥/ ١٣٩)، والطبراني في (كتاب الدعاء) برقم (١٣٥)، والدارقطني في (كتاب النزول)، ص(١٥١)، كلهم من طريق (محمد بن زيادة الأنصاري)، منكر الحديث، كما في التقريب (١/ ٢٧١).
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، والبزار بنحوه وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث. (١٠/ ١٥٤، ١٥٥).
تنبيه: أحاديث النزول صحيحة ثابتة عند الشيخين وغيرهما، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي لفظ: «حتى يسطع الفجر»[(١)] ، وذلك هو وقت قراءة الفجر.

وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي ﷺ: «يقرأ فيها بالستين إلى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس»[(٢)] ، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت؛ لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص، مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحاً به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح. رواه الدارقطني في (كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا) من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح»[(٣)] .

رواه عن محمد جماعة منهم سليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل، كلهم قال: «أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر»[(٤)] ، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد، وإن لم تكن محفوظة، وكانت من شك الراوي: هل قال هذا أو هذا؟ فقد قدمنا أنه لا

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٤٤٦، ٤٤٧) بلفظ: «حتى يسطع الفجر»، من طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، و(إبراهيم الهجري) فيه لين، كان يرفع الموقوفات، كما في التقريب (١/ ٤٣).
ورواه الدارقطني في كتاب النزول، ص(٩٩) من طريقه أيضاً، ورواه الإمام أحمد (١/ ٣٨٨ ـ ٤٠٣)، وأبو يعلى (٩/ ٢١٩) بلفظ: «حتى يطلع الفجر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ورجالهما رجال الصحيح) (١٠/ ١٥٣).

(٢) رواه البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥).

(٣) الدارقطني في كتاب النزول، ص(١٠٣)، والإمام أحمد (٢/ ٥٠٤)، ورواه الدارمي (١/ ٢٨٦) في الصلاة، باب: ينزل الله إلى سماء الدنيا، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٨) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) انظر هذه الطرق كلها في: (كتاب النزول) من (١٠٢) وما بعدها. واللفظة ثابتة ـ إن شاء الله تعالى ـ كما سبق.

منافاة بين اللفظين، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر؛ وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود.

كما رواه يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ﷻ يمهل، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى هذه السماء، ثم أمر بأبواب السماء ففتحت ثم قال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داعٍ فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مستغيث أغيثه؟ هل من مضطر أكشفُ عنه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا ثم يصعد إلى السماء»[١].

قال الدارقطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة.

والمقصود: ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها، والله أعلم[٢].

□ □ □

وفُسر الدلوك بالزوال وفُسر بالغروب، وحكيا قولين في كتب التفسير، وليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معاً، فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها؛ ولهذا الميل مبدأ ومنتهى فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا يتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه، ومثاله ما تقدم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وإن ذلك ليس باختلاف، بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

---

(١) الدارقطني في (كتاب النزول)، ص(١٣٣)، وأما قوله: (زاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة)، فهذه الزيادة وهي «ثم يصعد إلى السماء» مما تفرد بها «يونس» عن أبيه، فخالف رواية الثقات مثل (منصور، وشعبة، ومعمر وأبي عوانة) وغيرهم، كما في كتاب النزول نفسه.
خاصة أن (يونس فيه غفلة وفي حديثه اضطراب، مع كونه صدوقاً، ولكن ليس مثل مسعر وشعبة)، كما في ميزان الاعتدال للذهبي (٤/ ٤٨٢، ٤٨٣). وانظر: السير (٧/ ٢٦)، والحديث رواه مسلم (٢/ ٤٠٩) في المساجد، باب: صلاة الليل، والإمام أحمد رحمه الله تعالى برقم (٨٩٦٢ و١١٣١٥)، وأبو عوانة (٢/ ٢٨٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٣) المحققة.

(٢) طريق الهجرتين (١٩٧ ـ ١٩٩).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٣).

قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضاً عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة، كما أمره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ١، ٢]. ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾. فلو كان المراد به التطوع، لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ زيادة في درجاته، وفي أجره؛ ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح، ومكفر للسيئات، وأما النبي ﷺ، فقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل على زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير.

قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: زيادة في الثواب ولغيره كفارة لذنوبه.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة فهو نافلة.

من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها[(١)].

حدثنا محمد بن نصر، حدثنا عبد الله، حدثنا عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي عثمان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ[(٢)].

وذكر عن الضحاك قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.

وذكر سُليم بن حيان، حدثنا أبو غالب، حدثنا أبو أمامة، قال: إذا وضعتَ الطهورَ مواضعه، قمتَ مغفوراً لك، فإن قمت تصلّي، كانت لك فضيلة وأجراً، فقال رجل: يا أبا أمامة، أرأيت إن قام يصلّي تكون له نافلة؟ قال: لا، إنما النافلة للنبي ﷺ، فكيف يكون له نافلة، وهو يسعى في الذنوب والخطايا؟! تكون له

---

(١) رواه الطبري (١٣/ ١٤٣)، وتعقبه. وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٢٣).

(٢) انظر: مختصر قيام الليل، ص(١١)، وأصله لمحمد بن نصر المروزي، واختصره المقريزي.

فضيلة وأجراً[(١)].

قلت: والمقصود أن النافلة في الآية، لم يُرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب، والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافياً لما دلَّ عليه الأمر من الوجوب[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

أمر رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته، بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر.

ومخرج الصدق: كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة، وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٥٥)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٢٤).
(٢) زاد المعاد (١/ ٣٢٢، ٣٢٣).

رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ولرسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب أصابهم معه ما أصابهم.

فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله، فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك، يريد أن لا يكون المخرج مخرج صدق، ولذلك فسر[(١)] مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء الكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن[(٢)]. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وفاقاً، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ويراد به الجارحة نفسها كما في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٤٨). (٢) تفسير الطبري (١٦/ ٩٣).

(٣) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١١/ ٨٠ ـ ٨٣)، ورجح الطبري أن الصواب قول من =

وحقيقة القدم: ما قدموه، وما يقْدِمُون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ: فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى، ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله.

فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

و(من) هنا لبيان الجنس، لا للتبعيض. فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء للقلوب من داء الجهل، والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم، ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

معنى الآية: كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها: عامل على ما يناسبه، ولا يليق به سواه، ومحب الصور: عامل على ما يناسبه ويليق به.

فكل امرئٍ يهفو إلى ما يحبه … وكل امرئٍ يصبو إلى ما يناسبه

فالمريد الصادق المحب لله: يعمل ما هو اللائق به والمناسب له، فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به، والأنسب لها[٣].

= قال: معناه: «أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب..»، وإن كان جمع ابن القيم بين الأقوال حسناً جيداً.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢). (٢) الجواب الكافي (٤).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٧١).

والنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من كل ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها.

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه، والتودد إليه والحياء منه، والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ **[الإسراء: ٨٥]**.

فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي القرآن منه كثير.

كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]. أي: مأموره الذي قدره وقضاه وقال له: كن فيكون.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ﴾ [هود: ١٠١]. أي: مأموره الذي أمر به من إهلاكهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما، وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر.

وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم(٢) على أن الروح المسؤول عنها في الآية

---

(١) الفوائد (١٧٣، ١٧٤).

(٢) وتفاسير السلف أيضاً موقوفة، وليس فيها شيء مرفوع لبيان المراد بالروح في قوله تعالى هنا. وانظر: تفسير الطبري (١٥/١٥٦).

=

ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء يكرهونه، وقال بعضهم: نسأله. فقام رجل فقال: يا أبا القاسم: ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه فقمت فلما تجلى عنه قال: «﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾»(١).

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس.

وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة(٢).

□ □ □

والروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

= وقال الحافظ المدقق ابن حجر رحمه الله تعالى: وجنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسؤول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ﴾ [النبأ: ٣٨]. قال: «وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفساً»، الروح، ص(١٥٠ ـ ١٥٤)، قال ابن حجر: «كذا قال، ولا دلالة في ذلك لما رجحه، بل الراجح الأول، فقد أخرج الطبري (١٥/ ١٥٦) من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه القصة أنهم قالوا عن الروح: وكيف يعذب الروح الذي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ فنزلت الآية».

فتح الباري (٨/ ٢٥٥، ٢٥٦) التفسير، باب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾.

قلت: ولكن هذا النقل عن ابن عباس مسلسل بالضعفاء، كما حقق ذلك الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى في تحقيقه على الطبري (١/ ٢٦٣، ٢٦٤) رقم (٣٠٥)، وقد ذهب الشوكاني إلى أنها «الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته» ورجحه كما في تفسيره (فتح القدير) (٣/ ٢٥٤)، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٢) وفسر الرازي الآية بناءً على أن الروح المسؤول عنها هي روح بني آدم التي هي سبب الحياة، وأورد من كلام الفلاسفة أموراً عجيبة وغريبة. التفسير الكبير (٢١/ ٣٠) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وسمى الوحي روحاً؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الثالث: جبريل كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وهو روح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا: بأنها من أمر الله، وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، وأنها الروح المذكور في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

الخامس: المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة(١)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

---

(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح، المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا، وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع...»اهـ. مختصراً من فتح القدير (٣/ ٢٥٤) فراجعه، فإنه مفيد، والله أعلم.

(٢) الروح (١٥٠ ـ ١٥٤).

جاء هذا رداً على الذين قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

أي: مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع، ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبط عليه أمر المعاد، وبقي منه في أمر مريج.

والمقصود: أنه دلهم سبحانه بخلق السماوات والأرض على الإعادة والبعث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسله، وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته؛ ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك: بأنه كافر بربه، جاحد له، ولم يقر برب العالمين فاطر السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٥].

وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦]، فقال له: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف: ٣٧][1].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

أي: هالكاً، على قراءة من فتح التاء[2] وهي قراءة الجمهور، وضمها الكسائي وحده.

وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقق كفر فرعون وعناده، ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، ص(٣٨٥) وانظر: الطبري (١٥/ ١٧٤).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤]. فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين، وهو أقوى العلم ظلماً منهم وعلواً لا جهلاً[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة: «يا الله»، ومرة: «يا رحمٰن»، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلٰهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده يا رحمٰن يا رحيم، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾[(٢)].

وقيل: إن الدعاء هاهنا بمعنى: التسمية كقولهم: دعوت ولدي سعيداً وادعه بعبد الله ونحوه.

والمعنى: سموا الله أو سموا الرحمٰن، فالدعاء هاهنا بمعنى: التسمية، وهذا قول الزمخشري[(٣)]، والذي حمله على هذا قوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، فإن المراد بتعدده معنى، أي: وعمومها هاهنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمٰن فله الأسماء الحسنى، أي: فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في (له) يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية. وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد. بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى: تسمُّوا، فتأمله، والمعنى: أيما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم، والله أعلم[(٤)].

❁ ❁ ❁

---

(١) مفتاح دار السعادة (٩٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٨٢) عن ابن عباس ﷺ، وعن مكحول مرسلاً.

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٨).

(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٥).

سُورَةِ الكَهفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك؛ وخلق السماوات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

إن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشر قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان، فالخذلان: حَلُّهُ من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه، ويصير أمره فرطاً، والربط على القلب: شده برباط التوفيق فيتصل بذكر ربه، ويتبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله[(٢)].

* * *

(١) عدة الصابرين (١٦٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٦٧، ٦٨).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

استنبط السهيلي في الروض(١) أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالى عطف عليهم الكلب بحرف الواو، فقال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ولم يذكر الواو فيما قبل ذلك من كلامهم، والواو تقتضي تقرير الجملة الأولى.

وما استنبطه حسن، غير أنه إنما يفيد إذا كان المعطوف بالواو ليس داخلاً في جملة قولهم، بل يكون قد حكى سبحانه أنهم قالوا: ﴿سَبْعَةٌ﴾، ثم أخبر تعالى: أن ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فحينئذ يكون ذلك تقريراً لما قالوه وإخباراً بكون الكلب ثامناً، وأما إذا كان الإخبار عن الكلب من جملة قولهم. وأنهم قالوا هذا وهذا لم يظهر ما قاله، ولا تقتضي الواو في ذلك تقريراً ولا تصديقاً، فتأمله(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء، أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

والذي أجمع عليه المفسرون(٣): أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فقال: «أخبركم غداً»، ولم يقل: (إن شاء الله)، فتلبث الوحي ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثنِ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ويجوز الاستثناء إلى سنة.

---

(١) الروض الأنف (٣/ ١٦٩، ١٧٠). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٦).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣٢١). وانظر: الروض الأنف (٣/ ١٢٨)، والطبري في تفسيره من طريق ابن إسحاق (١٥/ ١٩٠). وهذا سند ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق، ومر سبب نزول آية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ في سورة الإسراء، فراجعه عند الآية (٨٥). وادعاء الإجماع يحتاج لتحقيق، ولا يخفى بُعده.

وقال عكرمة رحمه الله: واذكر ربك إذا غضبت.

وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أي: إذا نسيت الصلاة فصلها متى ذكرتها [١].

ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله: غداً أفعل إن شاء الله.

وقد عتب الله على رسوله ﷺ حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: «غداً أخبركم» [٢]، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهراً ثم نزلت.

أي: إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك، فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء [٣] المتراخي.

ولم يقل ابن عباس قط، ولا من دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق، أو لعبده: أنت حر، ثم قال بعد سنة: إن شاء الله، أنها لا تُطلق، ولا يعتق العبد، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس أو عن أحد من أهل العلم البتة، ولم يفهموا مراد ابن عباس [٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

سُئِلَ أبو العباس ثعلب عن قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾، فقال: جعلناه غافلاً. قال: ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلاً.

قلت: الغفل الشيء الفارغ، والأرض الغفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٣١). (٢) انظر: التعليق السابق.
(٣) وإلى هذا ذهب الطبري رحمه الله تعالى، كما في تفسيره (١٥/ ٢٢٨). وذكره ابن كثير عنه، وصححه (٣/ ٨٤، ٨٥).
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٩٧).

فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها؟

قيل: القرآن قد نطق بهذا، وبهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجباً للأثر؟

قيل: الأثر إن كان وجودياً فلا بد له من مؤثر وجودي، وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، وإذا سمي موجباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك.

وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثراً فلا.

وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه وتفريطه في أمره.

قال الفراء: فرطاً: متروكاً يفرط فيما لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه(١).

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة كان فرطاً، ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود: أن الله ﷻ نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى ﷺ واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه.

ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت(٢).

---

(١) شفاء العليل (٩٨).
(٢) الوابل الصيب (٦٠، ٦١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الكهف: ٣٠ ـ ٣١].

قال جماعة من المفسرين: السندس: ما رقَّ من الديباج، والاستبرق: ما غلظ منه، وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق.

وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس، والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريماً له وتشريفاً، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم، فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك، كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال،

(١) حادي الأرواح (١٤١).
(٢) عدة الصابرين (١٧٣).

هذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه عدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟

ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾. كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟! بئس للظالمين بدلاً.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة(١)؟!

قال: فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد، وما تعرض له من المقت والخزي والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختياراً وطوعاً حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه؟ ولله المثل الأعلى(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب، فإنه سفر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

---

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١١٨، ١١٩).

(٢) طريق الهجرتين (٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٣).

وهذا الغلام الذي قتله الخضر يحتمل أنه كان بالغاً مطلقاً، وسمي (غلاماً) لقرب عهده بالبلوغ، وعلى هذا فلا إشكال فيه ويحتمل أن يكون مميزاً عاقلاً وإن لم يكن بالغاً، وعليه يدل الحديث، وهو قوله: «ولو أدرك لأرهق أبويه»(١). وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفاً في تلك الشريعة، إذ اشتراط البلوغ في التكليف إنما علم بشريعتنا، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً، كيف وقد قال جماعة من العلماء: إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام، كما قالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة وأحمد، وهو اختيار أبي الخطاب، وعليه جماعة من أهل الكلام.

وعلى هذا فيمكن أن يكون هذا الغلام مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ ولو لم يكن مكلفاً [بشرائعه]. فكفر الصبي المميز معتبر عند أكثر العلماء، فإذا ارتد عندهم صار مرتداً له أحكام المرتدين، وإن كان لا يقتل حتى يبلغ فيثبت عليه كفره، واتفقوا على أنه يضرب ويؤدب على كفره أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة.

فإن كان الغلام الذي قتله الخضر بالغاً فلا إشكال، وإن كان مراهقاً غير بالغ فقتله جائز في تلك الشريعة؛ لأنه إنما قتله بأمر الله؛ كيف وهو إنما قتله دفعاً لصوله على أبويه في الدين؟ كما قال: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله، بل الصبي إذا قاتل المسلمين قتل.

ولكن من أين يعلم أن هذا الصبي اليوم يصول على أبويه أو غيرهما في دينهما حتى يفتنهما عنه؟ فإن هذا غيب لا سبيل لنا إلى العلم به؛ ولهذا علق ابن عباس الفتيا به فقال لنجدة لما استفتاه في قتل الغلمان: «إن علمت منهم ما علم الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا». رواه مسلم في صحيحه.

ولكن يقال: قاعدة الشرع والجزاء أن الله سبحانه لا يعاقب العباد بما سيعلم أنهم يفعلونه، بل لا يعاقبهم إلا بعد فعلهم ما يعلمون أنه نهى عنه وتقدم إليهم بالوعيد على فعله، وليس في قصة الخضر شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضي أحكامها، ولم يعلم موسى تلك الأسباب: مثل علمه بأن السفينة كانت لمساكين، وأن وراءهم ملكاً ظالماً إن رآها

---

(١) حديث موسى ﷺ مع الخضر. رواه البخاري (٨/ ٢٦٣) في التفسير، باب: (فلما بلغ مجمع البحرين..)، ومسلم (٥/ ٢٣٠) في الفضائل، باب: فضائل الخضر، والترمذي (٥/ ٢٨٩) في التفسير، باب: ومن سورة الكهف، ورواه غيرهم.

أخذها فكان قلع لوح منها لتسلم جميعها ثم يعيده من أحسن الأحكام، وهو من دفع أعظم الشرين باحتمال أيسرهما.

وعلى هذا، فإذا رأى إنسان ظالماً يستأصل مال مسلم غائب فدفعه عنه ببعضه فكان محسناً، ولم يلزمه ضمان ما دفعه إلى الظالم قطعاً، فإنه محسن وما على المحسنين من سبيل، وكذلك لو رأى حيواناً مأكولاً لغيره يموت فذكاه لكان محسناً ولم يلزمه ضمانه، وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين، وأبوهما كان صالحاً، أمر يعلمه الناس ولكن خفي على موسى، وكذلك كفر الصبي يمكن أن يعلمه الناس حتى أبواه؛ ولكن لحبهما إياه لا ينكران عليه، ولا يقبل منهما، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الآية حجة على أنه قتل لما يتوقع من كفره؛ ولو قدر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً، ولكن سبق في علم الله أنه إذا بلغ يكفر وأطلع الله الخضر على ذلك.

فقد يقول القائل: قتله بالفعل كقتل نوح الأطفال الكفار بالدعوة المستجابة التي أغرقت أهل الأرض لما علم أن آباءهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً؛ فدعا عليهم بالهلاك العام دفعاً لشر أطفالهم في المستقبل، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، لا ينافي كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة، فإن قوله: ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ حالان مقدرتان: أي من سيفجر ويكفر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

أي: أمامهم، بدليل قراءة ابن عباس: (وكان أمامهم ملك)، وهذا المذهب ضعيف، ووراء لا يكون أماماً وراء، إلا بالنسبة إلى شيئين فيكون أمام الشيء وراء لغيره، ووراء الشيء أماماً لغيره، فهذا الذي يعقل فيها، وأما أن يكون وراء زيد بمعنى: أمامه فكلا، وأما ما استدلوا به فلا حجة فيه.

وأما قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦].

فالمعنى: أنه ملاق جهنم بعد موته فهي من بعده، أي: بعد مفارقته الدنيا، فهي لما كانت بعد حياته كانت وراءه؛ لأن وراء كبَعد، فكما لا يكون بعد قبل، فلا

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٥٨٤ ـ ٥٨٧).

يكون وراء أمام، وأنت لو قلت: جهنم بعد موت الكافر لم يكن فيها معنى قبل بوجه، فوراء هاهنا زمان لا مكان.

فتأمله رحمك الله تعالى فهي خلف زمان حياته وبعده، وهي أمامه ومستقبلته فكونها خلفاً وأماماً باعتبارين وإنما وقع الاشتباه؛ لأن بعدية الزمان إنما يكون فيما يستقبل أمامك، كقولك: بعد غد، وورائية المكان فيما تخلف وراء ظهرك.

فمن ورائه جهنم: ورائية زمان ولا مكان، وهي إنما تكون في المستقبل الذي هو أمامك، فلما كان معنى الأمام لازماً لها ظن من ظن أنها مشتركة ولا اشتراك فيها.

وكذلك قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وكذلك ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠].

وأما قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، فإن صحت قراءة (وكان أمامهم ملك)، فلها معنى لا يناقض القراءة العامة وهو أن الملك كان خلف ظهورهم وكان مرجعهم عليه، فهو وراءهم في ذهابهم، وأمامهم في مرجعهم، فالقراءتان بالاعتبارين، والله سبحانه وتعالى أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: علماً. قال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك: علماً تسبب به إلى ما يريد. وكذلك قال إسحاق: علماً يوصله إلى حيث يريد. وقال المبرد: وكل ما وصل شيئاً بشيء فهو سبب.

وقال كثير من المفسرين(٢): آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علماً ومعونة له.

وقد سمى الله سبحانه الطريق سبباً في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، قال مجاهد: طريقاً. وقيل: السبب الثاني هو الأول، أي: أتبع سبباً من تلك الأسباب التي أوتيها مما يوصله إلى مقصوده(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١].

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٩٥، ١٩٦).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٩).
(٣) شفاء العليل (١٨٩).

وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهذا حال أرباب الأعمال التي كانت لغير الله ﷻ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ وحال أرباب العلوم والأنظار التي لم يتلقوها عن مشكاة النبوة، ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال وكناسة أفكارهم، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم في تقرير آراء الرجال، والانتصار لهم، وفهم ما قالوه وبثه في المجالس والمحاضر، وأعرضوا عما جاء به الرسول ﷺ صفحاً، ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلباً للفضيلة، وأما تجريد اتباعه وتحكيمه وتفريغ قوى النفس في طلبه وفهمه، وعرض آراء الرجال عليه ورد ما يخالفه منها وقبول ما وافقه، ولا يلتفت إلى شيء من آرائهم وأقوالهم إلا إذا أشرقت عليها شمس الوحي، وشهد لها بالصحة.

فهذا أمر لا تكاد ترى أحداً منهم يحدث به نفسه، فضلاً عن أن يكون أخيته ومطلوبه.

وهذا الذي لا ينجي سواه فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه، واستنفد فيه أوقاته، وآثره على ما الناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله ﷺ مسدود، وقلبه عن المرسل ﷻ وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والتنعم بحبه والسرور بقربه مطرود، ومصدود، وقد طاف عمره كله على أبواب المذاهب فلم يفز إلا بأخس المطالب، سبحان الله وإن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرق قصدها[٢].

* * *

(١) شفاء العليل (٩٣).

(٢) اجتماع الجيوش (٢٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس جنة ذات كروم. يقال: كرم مفردس، أي: معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد. وقال: الفردوس: فيما سمعت من كلام العرب، الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه: الفراديس. قال: ولهذا سمي باب الفراديس بالشام، وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذا جد المسير بنا ... يا بعد نيرين من باب الفراديس

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية، واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثواب الله كل مخلد ... جنان من الفردوس فيها يخلد[(١)(٢)]

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، مراداً به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول؛ لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده؛ فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة[(٣)].

وكما أنه إله واحد، ولا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده،

---

(١) والصواب في معنى الفردوس ـ كما رجحه الطبري (١٦/ ٣٧) ـ وغيره ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ: أنها أوسط الجنة وأعلاها، منها ما رواه: البخاري (٦/ ١٤) في الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله وفيه: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة..».

(٢) حادي الأرواح (٨٨، ٨٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٠).

فكما تفرد بالإلٰهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه[(١)]: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العبادة، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً، فإنه ينزل منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله عز وجل إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله[(٢)]: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء»[(٣)].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد، كما في كنز العمال (١/ ٦٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٣) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١٩٦).

سُورَةُ مَريم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

[إنه من] قول زكريا عليه السلام.

فقد قيل: إنه دعاء المسألة، والمعنى: إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا؟! فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا وقضى حاجته، وهذا ظاهر هاهنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

(قيل): ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟

فسره والله أعلم: أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة، وتعلقت بها الهمة فذكرت هذه المواطن الثلاثة؛ لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص؛ لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقراً فيها، موطن النفس على صحبتها وسكناها، إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها،

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٤، ٥).

كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه إلى هذه الدنيا إذا هو يولد
تجد تحته سراً عجيباً كأنه بكل الذي يلقاه منها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد

ولهذا من حين ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك؛ ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون، وأما ما أخبر به الرسول ﷺ فليس في صناعتهم ما يدل عليه كما ليس فيها ما ينفيه، فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور.

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت، ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريباً وتمثيلاً، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر، وطلب السلامة أيضاً عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث: موطن يوم القيامة يوم يبعث الله الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله، فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوى، وفقره لا يسد.

فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها.

واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها، وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيداً مجرداً عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم؛ ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها، واستعمل بعمل أهلها، فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن؟ فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

قال سفيان بن عيينة: جعلني مباركاً أينما كنت، قال: معلماً للخير. وهذا يدل

---

(١) بدائع الفوائد (٢/١٦٨، ١٦٩).

على تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه؛ ولهذا سمى سبحانه كتابه مباركاً، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾» (متفق عليه)[(٢)].

وفي الصحيحين أيضاً من حديث ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه»[(٣)]. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، أتي بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة: لا موت ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»[(٤)].

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتي بالموت ملبياً، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون

(١) مفتاح دار السعادة (١٩٠). (٢) رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).

(٣) رواه البخاري (١١/ ٤١٤) في الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ومسلم (٥/ ٧٠٦) في صفة الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون.

(٤) رواه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).

مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه وهو الموت الذي وكل بنا، فيضجع فيذبح ذبحاً على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت»[١]. رواه النسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا الكبش والإضجاع، والذبح ومعاينة الفريقين، ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً: وقال: الموت عرض، والعرض لا يتجسم فضلاً عن أن يذبح وهذا لا يصح؛ فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صوراً معاينة يثاب بها ويعاقب، والله تعالى ينشئ من الأعراض أجساماً تكون الأعراض مادة لها وينشئ من الأجسام أعراضاً، كما ينشئ سبحانه من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً.

فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تبارك وتعالى، ولا يستلزم جمعاً بين النقيضين ولا شيئاً من المحال، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت، فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل، وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه، فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض تذبح.

وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول ويصير مكانه جسم يذبح، ولم يهتد الفريقان إلى هذا القول الذي ذكرناه، وأن الله سبحانه ينشئ من الأعراض أجساماً يجعلها مادة لها، كما في الصحيح عنه ﷺ: «تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان» الحديث[٢]. فهذه هي القراءة التي ينشئها الله سبحانه غمامتين.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: «إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن»[٣]. ذكره أحمد.

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٢/ ٢٦١)، وابن ماجه (٢/ ٤٣٥) صحيح ابن ماجه، في الزهد، باب: صفة النار.
والترمذي (٤/ ٥٩٦) في صفة الجنة، باب: ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار، وقال: (حديث حسن صحيح). ولم أهتد إليه عند النسائي، والله أعلم.

(٢) رواه مسلم (٨٠٤).

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٧١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٢) في الأدب، باب: فضل التسبيح.

=

وكذلك قوله في حديث عذاب[(١)] القبر ونعيمه للصورة التي يراها: «فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، وأنا عملك السيئ». وهذا حقيقة لا خيال، ولكن الله أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة.

وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة إلا نفس إيمانهم أنشأ الله سبحانه لهم منه نوراً يسعى بين أيديهم؟

فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص، فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل.

وقال سعيد عن قتادة: بلغنا أن نبي[(٢)] الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صوِّر له عمله في صورة حسنة وبشارة حسنة، فيقول له: من أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ الصدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة. وأما الكافر إذا خرج من قبره صوِّر له عمله في صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ السوء، فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخل النار».

وقال مجاهد مثل ذلك، وقال ابن جريج: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟؟ فيقول له: أنا عملك فيجعل له نوراً بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]. والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار.

وقال ابن المبارك: ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن: أنه ذكر هذه الآية: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٨، ٥٩]. قال: علموا أن كل نعيم بعده الموت أنه يقطعه، فقالوا: أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين؟ قيل: لا، قالوا: إن هذا لهو الفوز العظيم.

= قال البوصيري في الزوائد: (إسناده صحيح، رجال ثقات) (٣/ ١٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣)، صححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، كلهم من حديث (النعمان بن بشير) رضي الله عنه.

(١) يقصد حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الصحيح، وأوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فجلس رسول الله ﷺ..»، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مواضع منها (٤/ ٢٩٥)، وأبو داود الطيالسي، ص(١٠٢) برقم (٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧، ٣٩، ٤٠)، ورواه غيرهم، وانظر: تخريجه مفصلاً في كتاب (أحكام الجنائز)، ص(١٥٦ ـ ١٥٩) للعلامة الألباني حفظه الله تعالى.

(٢) مرسل، راجع: حديث البراء.

وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه: أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش، وأمنوا من الأسقام فهناهم في جوار الله طول المقام، ثم يبكي حتى تجري دموعه على لحيته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٢، ٤٣].

ابتدأ إبراهيم الخليل خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ ولم يقل: لا تعبد.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [مريم: ٤٣].

فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾. وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٥].

فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه.
وقال: (يمسك) فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمٰن، ولم يقل: الجبار ولا القهار.

فأي خطاب ألطف وألين من هذا. ونظير هذا خطاب صاحب يسٓ لقومه، حيث قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يسٓ: ٢٠، ٢٢]. ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [نوح: ٢ ـ ٤].

وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده ألطف خطاب وألينه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]. الآيات.

---

(١) حادي الأرواح (٣١٩ ـ ٣٢١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ[(١)] مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وتأمل ما في قول الله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، من اللطف الذي سلب العقول، وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]. على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها، والتحقيق أن إضاعتها تتناول تركها وترك وقتها وترك واجباتها وأركانها، وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعد لحدود الله، كمقدمها عن وقتها[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٤، ٦٥].

فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم، ولا ينزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم، وما بين ذلك، فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه، فلا ينسى شيئاً أبداً، وهو القائم بتدبير أمر السماوات والأرض وما بينهما، كما هو الخالق لذلك كله، وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له؛ لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال، فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني، فالعدم سمي له[(٤)].

* * *

(١) قال القرطبي: قرأ العامة «تدعون» بالتاء، وقرأ السُّلَمي وأبو العالية ويعقوب «يدعون» بالياء على الخبر. تفسير القرطبي (٥/ ٤٤٨٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٣) كتاب الصلاة (٧٦).

(٤) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٢٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].

فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضاً، أي: تابعه. ومنه الأشياع، أي: الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا، أي: تبع بعضهم بعضاً، وغالب ما يستعمل في الذم. ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع؛ ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال؛ لتفرقهم واختلافهم.

والمعنى: لننزعن من كل فرقة أشدهم عتواً على الله، وأعظمهم فساداً، فنلقيهم في النار، وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولاً، ثم تكون الأتباع تبعاً لهم فيه كما كانوا تبعاً له في الدنيا.

□ □ □

وأيهم أشد للنحاة فيه أقوال:

أحدها: قول الخليل(١): إنه مبتدأ وأشد خبره ولم يعمل لننزعن فيه؛ لأنه محكي والتقدير الذي يقال فيه: أيهم أشد على الرحمٰن عتياً، وعلى هذا فأي استفهامية.

الثاني: قول يونس: إنه رفع على جهة التعليق للفعل السابق، كما لو قلت: علمت أنه أخوك، فعلق الفعل عن الفعل كما تعلق أفعال القلوب.

الثالث: قول سيبويه: إن أي هنا أي موصولة مبنية على الضم والمسوغ لبنائها حذف صدر صلتها. وعنده أصل الكلام أيهم هو أشد فلما حذف صدر الصلة بنيت على الضم تشبيهاً لها بالغايات التي قد حذفت مضافاتها، كـ (قبل) و(بعد)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

فالإرسال هاهنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي فهو إرسال تسليط، بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

---

(١) راجع: (الكتاب) لسيبويه رحمه الله تعالى (٢/ ٣٩٩).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٥٥)، وانظر: مناقشة هذه الأقوال هناك إن رغبت.

قال أبو إسحاق: ومعنى الإرسال هاهنا: التسليط. تقول: قد أرسلت فلاناً على فلان إذا سلطته عليه، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فأعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه، قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فالأز في اللغة: التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز لتحرك الماء عند الغليان، وفي الحديث: «كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(١)، وعبارات السلف تدور على هذا المعنى.

قال ابن عباس: تغريهم إغراء. وفي رواية أخرى عنه: تسلهم سلًّا. وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضاً، وفي أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجاً، وفي أخرى: توقدهم إيقاداً، أي: كما يتحرك الماء بالوقد تحته.

قال أبو عبيدة: الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقول: أز قدرك، أي: ألهب تحتها النار وائتزت القدر إذا اشتد غليانها وهذا اختيار الأخفش.

والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعاً.

قالت القدرية: معنى أرسلنا الشياطين على الكافرين: خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط قال أبو علي: الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل، وما يريد فمعنى الآية خلينا بين الشياطين وبين الكافرين، ولم يمنعهم منهم بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾.

قال الواحدي: وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية، قال: وليس المعنى على ما ذهبوا إليه.

وقال أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. وإنما معنى الإرسال: التسليط(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٦)، وأبو داود (٣/ ١٧٢) في الصلاة، باب: البكاء في الصلاة.
(٢) راجع: تفسير الطبري (١٦/ ١٢٥).

قلت: وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: «إذا أرسلت كلبك المعلم»[(١)] أي: سلطته ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده.

وكذلك قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أي: سلطناها وسخرناها عليهم، وكذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]. وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [القمر: ٣١].

والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلاً، ولم يمنعه من فعله فهذا هو التسليط[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٥٤٨٣)، ومسلم (١٩٢٩).
(٢) شفاء العليل (٦٢، ٦٣).

سُورَةُ طَه

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: لأذكرك بها.

وقيل: مضاف إلى المذكور، أي: لتذكروني بها، واللام على هذا لام التعليل.

وقيل: هي اللام الوقتية، أي: أقم الصلاة عند ذكري، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وهذا المعنى يراد بالآية، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر؛ لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف، والذكر: مصدر، إلا أن يقدر زمان محذوف، أي: عند وقت ذكري، وهذا محتمل.

والأظهر: أنها لام التعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكري، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه، فذكر الله سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ [طه: ٤٠].

الفُتون مصدر فَتَنه يفتنه فتوناً، أي: امتحانك واختبرناك[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

والاصطناع في الأصل: اتخاذ الصنيعة. وهي الخير تُسديه إلى غيرك. قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة، فاقصد بها   وجه الذي يولي الصنائع أو دع

(١) الوابل الصيب (٩٤)، دار البيان.   (٢) روضة المحبين (٥٠).

قال ابن عباس: اصطنعتك لوحيي ورسالتي.
وقال الكلبي: اخترتك بالرسالة لنفسي، لكي تحبني وتقوم بأمري.
وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، فتكلم عبادي عني.
قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي، حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم.
وقيل: مثّل حاله بحال من يراه بعض الملوك ـ لجوامع خصال فيه وخصائص ـ أهلاً لكرامته وتقريبه، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه، ولا ألطف محلاً، فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، بحيث يسمع به، ويبصر به، ويطلع على سره[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨].

أما قول موسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فليس بسلام تحية فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى.

ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام، والله أعلم.

وتأمل حسن سياق هذه الجمل وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٦، ٢٩٧).

للرجل من عند مولاه: «أنا رسول مولاك إليك وأستاذك»، وإن كان أستاذهما معاً ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططاً، ولم يرهقه من أمره عسراً بل طلب منه غاية النصف.

ثم أخبره بعد الطلب بثلاثة اخبارات:

أحدها: قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى، فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحقه السامع المطيع وما يستحقه المكذب المتولي، بألطف خطاب، وأليق قول، وأبلغ ترغيب وترهيب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه، لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان.

وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى.

قال عطية، ومقاتل: أعطى كل شيء صورته.

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه.

والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه، ولفظ السدي أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه ثم هدى إلى الجماع(٢).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٩، ١٧٠).
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢).

وهذا القول اختيار ابن قتيبة[١] والفراء.

قال الفراء: أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها.

قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز، لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى، ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله فألهمه الله ذلك، وهداه إليه، قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها، فإن معناها أجلّ وأعظم مما ذكروه.

وقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يأبى هذا التفسير، فإن حمل (كل شيء) على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن مما لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له، وأين نظير هذا في القرآن، وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه، ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، فحمل قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ على هذا المعنى غير صحيح، فتأمله.

وفي الآية قول آخر، قاله الضحاك، قال: أعطى كل شيء خلقه؛ أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع.

ومعنى هذا القول: أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى: المفعول، أي: أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله، أودعها الأعضاء، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم.

والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره.

فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله «فرعون».

ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، عدل

---

(١) تفسير غريب القرآن (٢٧٩)، ومشكل القرآن (٤٤٤)، وكلاهما لابن قتيبة.

إلى سؤال فاسد عن وارد. فقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]. أي: فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان؟

والمعنى: لو كان ما تقوله حقاً لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل؛ ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء، بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم(١).

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [طه: ٥٢]. أي: أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي، قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال.

وقال الكلبي: يعني به: اللوح المحفوظ، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا: أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فتأمله(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

أخبر سبحانه أنه لا بد أن ينال المفترين غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وأعظم الافتراء الفرية عليه ﷻ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وقد ضمن سبحانه أنه لا بد أن يخيب أهل الافتراء ولا يهديهم، وأنه يسحتهم بعذابه، أي: يستأصلهم.

---

(١) رحم الله ابن القيم، فهو أباح عن مكنون صدورنا تجاه هؤلاء السائرين على ضرب سابقيهم في الصد عن دين الله تعالى ورميه بأنواع التهم وأشنع الأوصاف، مع رفع وتعظيم قوانين وعادات الكفار، حتى المحرم منها، يتهمون المسلمين بالتخلف لمجرد تحريمهم له كتحريم التبرج مثلاً، سواءً كان في محافل العلم أو في أجهزة الإعلام أو الرياضة. . . إلخ، فيكيلون ـ بالظلم ـ ألوان الاتهامات وهم أولى بها وأهلها، ولنا قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وقد رضينا بهذا الهدى وهذا التسليم، والحمد لله دائماً وأبداً ـ ونسأله الثبات على طاعته.

(٢) شفاء العليل (٧٨، ٧٩). وانظر في تفسيرها أيضاً (١/ ٨٤).

قال تعالى إخباراً عن كليمه موسى: إنه قال لرؤوس المعطلة وأئمتهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

ولما تمكن الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ...﴾. **إلى قوله تعالى:** ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...﴾ [طه: ٨٦ ـ ٩٧].

ومن تلاعبه [الشيطان] بهم(٣) عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة، والأخذة الرَّابِيَةِ، ونبيُّهم حَيٌّ لم يمت.

هذا وقد شاهدوا صانِعه يَصْنَعه(٤) ويَصُوغُه، ويَصليه النار، ويَدُقُّه بالمطرقة. ويَسْطُو عليه بالمبرد، ويُقَلِّبه بيديه ظهراً لبطن.

ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلٰههم، حتى جعلوه إلٰه موسى. فنسبوا موسى ﷺ إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دَفعاً عن نفسه، بحيث يضربُ به المثلُ في البلادة والذُّل، فجعلوه إلٰه كليم الرحمٰن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى ﷺ ضالًّا مخطئاً، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

قال ابن عباس: أي: ضَلَّ وأخطأ الطريق.

وفي رواية عنه: أي: إن موسى ذهب يطلب ربه فَضَلَّ ولم يعلم مكانه.

وعنه أيضاً: نسي أن يذكر لكم أن هذا إلٰهه وإلٰهكم.

وقال السُّدي: أي: ترك موسى إلٰهه هٰهنا وذهب يطلبه.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢١٢).
(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٨٩).
(٣) يقصد (اليهود) عليهم من الله اللعنات.
(٤) يعني: (العجل).

وقال قتادة: أي: إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر.

هذا هو القول المشهور: إن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامِرِيِّ وعُبَّاد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرى: أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري، أنه نسي، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان.

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره، فقال: «[فنسى موساهم] يقولونه: أخطأ الرب»[١].

فإنه لما جعله إلٰه موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذا إلٰه موسى، فلأيِّ شيء ذهب عنه لموعد إلٰهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم.

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلٰهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة، بعد مَرَّة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل، والضيَّمْ، وجعلوه إلٰه موسى. ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلٰهاً غيره.

قال محمد بن جرير[٢]: وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم، قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرَّمادي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا أبو سعيد عن عِكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما هجم فرعون على البحر، هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى، فلما رآها الحصان تقحم خلفها، قال: وعرف السامريُ جبريل فقبض قبضة من أثر فرسه قال: فأخذ قبضة من تحت الحافر.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها: (فَقَبَضْتُ قبضة مِنْ أَثرِ فَرسِ الرَّسُولِ)[٣].

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٧) في الأنبياء، باب: قول الله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ...﴾. وإلى هذا ذهب الطبري أيضاً (١٦/ ٢٠١) في تفسيره.

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٨١)، وقد اختصر ابن القيم بعض عباراته.

(٣) قال ابن كثير: (... أي: من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم). تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٣). وما ورد عن ابن مسعود ﷺ فهو من باب القراءة التفسيرية، والله أعلم.

قال أبو سعيد: قال عكرمة: عن ابن عباس: وأُلقي في رُوع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضةُ معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون. قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح، ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حلي من حلي آل فرعون، قد استعاروه فكأنهم تأثَّموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه قال السامري: بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه وقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فصار عجلاً جسداً له خوار، فكان يدخل الريح من دبره ويخرجه من فيه يسمع له صوت: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]. فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٠]، ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

وقال السدي: لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط، فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري، فأنكره. ويقال: إنه فرس الحياة.

فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس، فانطلق موسى عليه السلام، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله تعالى بعشر، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلي القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعاً واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة، فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلاً جسداً له خوار، فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ يقول: ترك موسى إلٰهه هاهنا وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾، يقول: إنما ابتليتم بالعجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل، لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى الله يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٥]. فأخبره خبرهم.

قال موسى: يا رب هذا السامريُّ أمرهم أن يتخذوا العجل، فالروحُ مَنْ نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يا رب أنت إذاً أضللتهم.

وقال ابن إسحاق: عن حكيم بن جُبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﵄ قال: كان السامري (من أهل باجِرما) وكان من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم ـ آل فرعون ـ وأمتعةً وحليّاً، فتطهروا منها، فإنها نَجَس وأوقد لهم ناراً.

فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها، فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحليُّ فيها ورأى السامري أثر فرس جبريل، فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبي الله، ألقي ما في يدي؟ ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة، فقذفه فيها، فقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فكان البلاء والفتنة، فقال: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حباً لم يحبوا مثله شيئاً قط. يقول الله ﷻ: ﴿فَنَسِىَ﴾، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامريَّ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩١]. فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل وتخوَّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤]. وكان له هائباً مطيعاً، قال تعالى مذكراً لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [البقرة: ٥١]. يعني: من بعد ذهابه إلى ربه، وليس المراد من بعد موته ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، أي: بعبادة غير الله تعالى؛ لأن الشرك أظلم الظلم؛ لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.

فلما قدم موسى ﵇ ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلام الله الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يعتب الله عليه في ذلك؛ لأنه حمله عليه الغضب لله، وكان الله ﷻ قد أعلمه بفتنة قومه،

ولكن لما رأى الحال مشاهدة حدث له غضب آخر، فإنه ليس الخبر كالمعاينة[(١)].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع (دليل على عدم الإلٰهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإلٰه لا بد أن يُكلم ويتكلم ويملك لعابده الضر والنفع)، وإلا لم يكن إلٰهاً[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨].

أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه.

قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قاله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى: عن، أي: لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى: لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج.

وفي القولين تكلف ظاهر، ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما.

والمعنى: لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقد اختلف في تفسير الضمير في (به)[(٤)]، فقيل: هو الله سبحانه، أي: ولا يحيطون بالله علماً.

وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم.

فعلى الأول: يرجع إلى العالم، وعلى الثاني: يرجع إلى المعلوم، وهذا القول

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٥).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٥).
(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٠١).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢١٥).

يستلزم الأول من غير عكس؛ لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فأن لا يحيطوا علماً به ـ سبحانه ـ أولى[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

يعني: لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ..﴾ [طه: ١١٥].

تأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم.

فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ..﴾ الآية، والنسيان سواء كان عدم العلم، أو عدم الصبر كما فسر بها هاهنا فهو أمر عدمي[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

كيف شرك بينهما في الخروج وخص الذَّكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش والمرأة في خدرها[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

فقابل بين الجوع والعري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذلة، والعري جوع الظاهر وذلة.

فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر فقابل بينهما[(٥)].

---

(١) الصواعق المرسلة (١٣٧٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٦).
(٣) طريق الهجرتين (١٠٠).
(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٩).
(٥) روضة المحبين (٢٢٦).

والواقف مع القالب ربما يخيل إليه: أن الجوع يقابل بالظمأ، والعري بالضحى.

والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن؛ والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فذكره: كلامه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه: ترك تدبره والعمل به.

والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير: أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس، وفيه حديث مرفوع(٣).

وأصل الضنك في اللغة(٤): الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك، في مقابلة التوسيع على النفس

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٤٠). (٢) إغاثة اللهفان (٥٨).

(٣) روى الطبري (١٦/ ٢٢٨) بسنده عن ابن حجيرة عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أتدرون ما المعيشة الضنك؟... عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً..»، فذكر حديثاً قال عنه ابن كثير بعد أن ذكر أن ابن حاتم رواه أيضاً: (رفعه منكر جداً) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٨)، ورواه البزار باختصار يسير (٣/ ٥٨، ٥٩)، وقال الهيثمي: (فيه من لم أعرفه)، مجمع الزوائد (٧/ ٦٧).
وأشار محقق (كشف الأستار) بعد ذكره لقول الهيثمي السابق: (كأنه يعني: أبا حجيرة) قلت: ـ والله أعلم ـ أن هذا وهم فإني لم أجد فيما بين يدي من مصادر من الرواة عن أبي هريرة من اسمه (أبو حجيرة)، وهو ثقة، وإنما هو (ابن حجيرة) واسمه (عبد الرحمٰن)، كما في التهذيب (٦/ ١٦٠)، وأشار إلى رواية مسلم والأربعة عنه.

(٤) لسان العرب (٥/ ٢٦١٣)، مادة: «ضنك».

والبدن، بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكاً، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما، وأشق البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن، فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون، والله المستعان(١).

□ □ □

وقال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾. يتناول الذكر الذي أنزله، وهو الهدى الذي جاءت به الرسل، ويدل عليه سياق الكلام، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]. فهذا هو الإعراض عن ذكره، فإذا كان هذا حال المعرض عنه، فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده، وأحسن الظن به، فكما أنه لا يكون مؤمناً إلا مَن قَبِله وانقاد له، فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به(٢).

□ □ □

والمقصود: أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره ـ وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى ـ فإن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة، ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا، والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة(٣).

* * *

(١) الفوائد (١٦٥).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٤٥، ٨٤٦).
(٣) مفتاح دار السعادة (٤٦ ـ ٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٥].

اختلف فيه: هل هو من عمى البصيرة، أو من عمى البصر؟[(١)].

والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧]. ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]، وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه، لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: وقد كنت بصيراً؟ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]. بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيل في هذه الآية أيضاً: إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون[(٢)].

ومن نصر أنه العمى والبكم والصم المضاد للبصر والسمع والنطق، قال

---

(١) انظر: الطبري (١٦/ ٢٢٩، ٢٣٠). (٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٦٧).

بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه.

ولهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا يرون شيئاً يسرهم».

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم: أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجتهم عُمي عنها، بل هم عمي عن الهدى، كما كانوا في الدنيا فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر، فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب: أن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة: الحشر إلى موقف القيامة، كقول النبي ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً»[1]. وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وكقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. فهذا الحشر هو بعد

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه (١١/ ٣٨٥) في الرقاق، باب: الحشر، ومسلم (٥/ ٧١٢) في الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

حشرهم إلى الموقف، وهو حشرهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١]، ثم قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ وهذا الحشر الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار.

فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون.

وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][1].

❁ ❁ ❁

(١) مفتاح دار السعادة (٤٦ ـ ٥٠).

سُورَةُ الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

فأخبر أن هذا الذي أضافه من نسبة الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل.

ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر، المجبول على الثبات والبقاء، لا من جوهر هذا العالم الفاني الدائر الكثير الأوساخ والأدناس والأقذار، ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨][(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

إن الوقف التام في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، ثم يبتدئ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾.

فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: إن له من في السمٰوات ومن في الأرض عبيداً وملكاً.

ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حَسَر واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨١).

فالأول: وصف لعبيد ربوبيته.

والثاني: وصف لعبيد إلٰهيته[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٣].

[انظر] كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لا تساويه، فسواها به مع أعظم الفرق.

فقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلٰهية وإفراد له بالربوبية والإلٰهية.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلٰهية، فإنها مسؤولة مربوبة مُدَبَّرة، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟

فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأً ومعقلاً في إنكار حكمته، وتعليل أفعاله بآياتها المحمودة وعواقبها السديدة، والله الموفق للصواب[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

سئل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا، وقد قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»[(٣)]؟

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: لو كان الخضر حياً لوجب أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه، ويتعلم منه، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»[(٤)].

وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر يومئذٍ؟

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والدليل على أن الخضر ليس بباق في الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء والمعقول..

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٢). (٢) مفتاح دار السعادة (٢٩٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠١)، ومسلم (٢٥٣٧). (٤) رواه مسلم (١٧٦٣).

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، فلو دام الخضر كان خالداً[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة، والرخاء، والصحة، والسقم، والغنى، والفقر، والحلال، والحرام، وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون؛ لننظر كيف صبركم، وشكركم فيما تحبون وما تكرهون.

وقال الكلبي: بالشر، بالفقر، والبلاء، والخير بالمال، والولد، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيَّتا الابتلاء والامتحان[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءاً، ويكون يكلؤكم مضمناً معنى يجيركم وينجيكم من بأسه، أو كانت (من) البدلية، أي: من يكلؤكم بدل الرحمٰن، أي: هو الذي يكلؤكم وحده لا كالئ لكم غيره.

وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم، وحفظهم، وحراستهم، مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه ﷻ، فإنه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه، وفي بعض الآثار يقول تعالى: «أنا الجواد، ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم»[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة.

فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

---

(١) المنار المنيف (٦٨). (٢) عدة الصابرين (١٦٠).
(٣) طريق الهجرتين (٢٩٤).

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ ولهذا قطعت (قبل) عن الإضافة وبنيت؛ لأن المضاف منوي معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ.

وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم الخلق عليه محمد وإبراهيم وموسى.

وقد قيل: (من قبل)، أي: في حال صغره قبل البلوغ، وليس في اللفظ ما يدل على هذا، والسياق إنما يقتضي من قبل ما ذكر.

وقيل: المعنى بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: في سابق علمنا، وليس في الآية أيضاً ما يدل على ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه.

والمقصود قوله: «وكنا به عالمين»، قال البغوي[(١)]: إنه أهل للهداية والنبوة.

وقال أبو الفرج[(٢)]: أي: عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد.

وقال صاحب الكشاف: المعنى: علمه به أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها حتى أهّله لمخاللته ومخالصته، وهذا كقولك في خَيِّرٍ من الناس: أنا عالم بفلان. فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف[(٣)]. وهذا كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢]. حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل جمع تمثال، وهي الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٢٩٧) بحاشية الخازن.

(٢) هو أبو الفرج ابن الجوزي الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد... الحنبلي، انظر ترجمته ومصادرها في: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥). وانظر كتابه: زاد المسير (٥/ ٣٥٧).

(٣) تفسير الكشاف (٣/ ١٣، ١٤).

(٤) شفاء العليل (٣٢، ٣٣).

تماثيل الأصنام؛ ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم.

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفاً عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها؛ ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال علي بن أبي طالب وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟» فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»[(٢)].

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري ﵄: «والفهم الفهم فيما أدلي إليك»[(٣)]. فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه[(٤)].

□ □ □

والحرث هو البستان؛ وقد روي: أنه كان بستان عنب، وهو المسمى بالكرم، والنَّفش: رعي الغنم ليلاً.

فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى

---

(١) الفوائد (١٩٠).
(٢) رواه البخاري (٣٠٤٧).
(٣) وهو الكتاب الذي شرحه ابن القيم ﵀ من (١/ ٨٥) إلى (٢/ ١٨٣) من إعلام الموقعين، ط الكليات الأزهرية.
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤١).

أصحاب الحرث؛ إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها، ورضي أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة.

وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل، بأن يعمروا البستان، حتى يعود كما كان، ولم يضيع عليهم مغلّه من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك، ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين، فوجدهما سواء، وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه.

وقد جُرِّب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره(٢)(٣).

□ □ □

فإن فيها من كمال التوحيد: التنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلى الله ـ سبحانه ـ في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠٣). (٢) الفوائد (١٩٥).

(٣) وجاء في فضل هذه الدعوة ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له».

رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٣٥، ٣٦)، وقال أحمد شاكر: إسناد صحيح، ورواه الترمذي (٥/ ٤٩٥) في الدعوات، باب: (٨٢)، ورواه الحاكم (١/ ٥٠٥)، (٢/ ٣٨٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، كما في صحيح الكلم رقم (١٢٢)، فانظره مفصلاً.

وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمَّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه.

فها هنا أربعة أمور، قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

أي: رَغباً فيما عندنا، ورهباً من عذابنا، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار، عندهم أجمعين وذكر ـ سبحانه ـ عباده الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها استعاذتهم به من النار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥][2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٢].

وفي صحيح[3] الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزير يُعبدون من دون الله[4].

---

(١) زاد المعاد (٤/٢٠٨). (٢) مدارج السالكين (٢/٧٦).

(٣) إطلاق (الصحيح) على مستدرك الحاكم، فيه تجاوز ومعلوم أنه احتوى على الضعيف وغيره، وانظر: ما ذكره ابن كثير عنه في الباعث الحثيث، ص(٢٣، ٢٤).

(٤) في المستدرك «فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها».

قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[(١)]، وهذا إسناد صحيح.

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم، ثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، قال: أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها؟

فقيل له: وما هي.

فقال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، شق ذلك على قريش أو على أهل مكة، وقالوا: يشتم آلهتنا.

فجاء ابن الزبعري فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا! قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، قال: ادعوه لي. فلما دعي النبي ﷺ قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله؟.

فقال: «لا بل لكل من عبد من دون الله».

قال: فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية ـ يعني: الكعبة ـ ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيراً عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً.

قال: فضج أهل مكة، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. قال: هو الضجيج[(٢)].

وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبعري لا يرد على الآية، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (ومن تعبدون)، وما لما لا

(١) والحديث في المستدرك (٢/ ٣٨٤، ٣٨٥)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: الطبري (١٧/ ٩٦، ٩٧).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٣٢٨، ٣٢٩) برقم (٢٩٢١). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. والطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٦٨، ٦٩) و(٧/ ١٠٤): وفيه عاصم بن بهدلة، وقد وثق، وضعفه جماعة. وقد وثقه الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٠)، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٨٢)، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٧٠)، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٢٩، ٢٣٠). وجاء في سنده (يحيى بن نوح)، والصواب (يحيى بن آدم)، والله أعلم.

يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة، والمسيح، وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل(١).

وأيضاً فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام، فإنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فلفظة ﴿إِنَّكُمْ﴾، ولفظة (ما) تبطل سؤاله وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي: إن كان كونه معبوداً يوجب أن يكون حصب جهنم، فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح، فأجيب بالفارق وذلك من وجوه:

إحداها: أن الملائكة والمسيح والعزير ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بغضهم ومعاداتهم لهم، فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا، والميتة والذَّكي، وهذا شأن أهل الباطل وإنما يسوون بين ما فرق الشرع والعقل والفطرة بينه، ويفرقون بين ما سوى الله ورسوله بينه.

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة، ولا ناطقة، فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب، بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون، فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلاماً وتعذيباً لهم.

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة، فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم، وإنما عبد المشركون الشياطين وتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله، وأنه معه إلٰه وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيراً من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ [يس: ٦٠].

وقول الله تعالى ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾

(١) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨).

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

فما عبد غير الله إلا الشيطان.

وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها، وبالله التوفيق.

والمقصود: ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبد الرحمٰن بن أبي حاتم: ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد، ثنا أبو عامر العقدي، ثنا عروة بن ثابت الأنصاري، ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف، أن عبد الرحمٰن بن عوف مرض مرضاً شديداً أغمي عليه فأفاق فقال: أغمي عليَّ؟ قالوا: نعم. قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بي، فتلقاهما رجل وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال: دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: ثنا داود بن رشيد، ثنا ابن علية، حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد، قال: أقبل سعد من أرض له فإذا الناس عكوف على رجل، فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعلياً فنهاه فكأنما زاده إغراء! فقال: ويلك تريد أن تسب أقواماً هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك.

فقال: كأنما يخوفني نبيٌّ من الأنبياء؟! فانطلق[1] فدخل داراً فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقواماً قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم، فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية.

وقال: تخرج بختية[2] من دار بني فلان لا يردها شيء حتى تنتهي إليه، ويتفرق الناس وتجعله بين قوائمها وتطأه حتى طفي.

قال: فأنا رأيت سعداً يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق، استجاب الله لك يا أبا إسحاق!

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ

(١) أي: سعد ﷺ ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا مختصراً في مجابي الدعوة، ص(٤٨).
(٢) هي الأنثى من الإبل، مختار الصحاح (٤٢)، وهو أعجمي معرب، كما في اللسان (١/ ٢١٩).

مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]. أي: الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن، فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]. وقال ابن عباس في رواية الوالبي(١) عنه في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ [يونس: ٢]. قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها، ولا قول من قال: إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه، وقد قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق(٢)، فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم.

وقال آخرون وهو الصواب: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، والله أعلم(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والسجل: الورق المكتوب فيه، والكتاب: نفس المكتوب، واللام بمنزلة على، (أي: نطوي السماء كطي الدرج على ما فيه من السطور المكتوبة)، ثم استدل على

(١) هو الإمام سعيد بن جبير ﷺ. وانظر: تفسير الآية (٢) من سورة يونس.
(٢) راجع: الآية (٦٨) من الأنفال. (٣) شفاء العليل (٢٦ ـ ٢٨).

النظير بالنظير فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكر أمُّ الكتاب الذي عند الله، والأرض الدنيا وعباده الصالحون أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء»(٢).

فهذا هو الذكر الذي كتب فيه: أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور، والذكر هاهنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل(٣).

وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وعن ابن عباس قول آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد ﷺ.

وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٧).
(٢) رواه البخاري (٧٤١٨).
(٣) شفاء العليل (٣٩).

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»(١).

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين.

وليست الآية مختصة بها(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أصح القولين في هذه الآية: أنها على عمومها.

وفيها على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عُجّل قتلهم وموتهم خَير لهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه: فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وآخرة، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض(٣).

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩). (٢) الروح (١٠٧).
(٣) جلاء الأفهام (١١٥، ١١٦) الطبعة المنيرية.

سُورَةُ الحَجِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ **الآيتان** [الحج: ١، ٢].

المرضع من لها ولد ترضعه.

والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أبلغ من مرضع في هذا المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل ـ رحمك الله تعالى ـ السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله: ﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومباديه، فإذا قيل: ﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملاً أو سقطاً، كما يقال: ذات ولد، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع، والله سبحانه وتعالى أعلم(١).

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ فهم سكارى من الدهش والخوف، وليسوا بسكارى من الشراب، فسكرهم سكر خوف ودهش، لا سكر لذة وطرب(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ [الحج: ٣، ٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٢١، ٢٢).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [**الحج**: ٨ ـ ٩].

إن هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم ليس عندهم علم، ولا هدى، ولا كتاب مبين، فمعارضتهم باطلة، وهم فيها أتباع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، فهذه حال كل من عارض آيات الله بمعقوله، ليس عنده إلا الجهل والضلال.

ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب، فبدأ بالأعم وهو العلم، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله، ثم انتقل منه إلى ما هو أخص، وهو الهدى، ثم انتقل إلى ما هو أخص، وهو الكتاب المبين.

فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفطرة، وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من جهة الرسل، وأخص منه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله، فإن الهدى قد يكون كتاباً، وقد يكون سنة.

وهذه الثلاثة منتفية عن هؤلاء قطعاً، أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل، فقد قالوا: إنه لا يفيد علماً ولا يقيناً، والمعقول يعارضه، فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا سنة، وبقي العلم فهم يَدَّعُونَه، والله تعالى قد نفاه عنهم.

ونحن نطالب هؤلاء المعارضين بواحدة من ثلاث: إما كتاب منزل، أو أثارة من علم يؤثر عن نبي من الأنبياء، أو معقول صحيح المقدمات، وقد اتفق العقلاء على صحة مقدماته، وهم يعلمون والله شهيد عليهم، بأنهم عاجزون عن هذا وهذا، فهل نترك ما علمناه من كتاب ربنا، وسنة نبينا، وما نزل به جبريل من رب العالمين، على قلب رسوله الأمين، بلسان عربي مبين، لوحي الشياطين، وشبه الملحدين، وتأويلات المعطلين؟!

□ □ □

فإن قيل: فما الفرق بين الصنف الأول الذي يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، والصنف الثاني الذي يجادل في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، كما ذكرهم سبحانه صنفين؟

قيل: قد ذكر سبحانه ثلاثة أصناف:

صنفاً يجادل في الله بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد، مكتوباً عليه إضلال من تولاه، وهذه حال المتبع لأهل الضلال.

وصنفاً يجادل في الناس بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيله، وهذه حال المتبوع المستكبر، الصاد عن سبيل الله.

فالأول حال الأتباع، والثاني حال المتبوعين.

ثم ذكر حال من يعبد الله على حرف، وهذه حال المتبع لهواه الذي إن حصل له ما يهواه في الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه.

وهذه حال من كان مريضاً في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء؛ ولهذا ذكر ذلك في العبادة فأصلها القصد والإرادة، وأما الأولان فحال الضال والمضل، وذلك مرض في العلم والمعرفة، وهي حال أهل الشبهات والنظر الفاسد، والجدال بالباطل، والله سبحانه يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات، ولا صلاح للعبد إلا بمعرفة الحق، وقصده كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فمن لم يعرف الحق كان ضالًّا، ومن عرفه ولم يتبعه كان مغضوباً عليه، ومن عرفه واتبعه فقد هدي إلى الصراط المستقيم.

وأول الشر الضلال ومنتهاه الغضب، كما أن أول الخير الهدى ومنتهاه الرحمة والرضوان، فذكر سبحانه في آيات الحج ما يعرض في العلم من الضلال والإضلال، وما يعرض في الإرادة والعمل من اتباع الأهواء، كما جمع بينهما في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فقال أولاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾.

وهذا يتضمن الجدال فيه بغير هدى ولا كتاب منير، فإن من جادل بغير ذلك فقد جادل بغير علم، فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علماً بأي طريقة حصل، وذلك ينفي أن يكون مجادلاً بهدى، أو كتاب منير، هذه حال الضال المتبع لمن يضله، فلم يحتج إلى تفصيل، فبين أنه يجادل بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد، كتب على ذلك الشيطان أن من اتبعه، فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، وهذه حال مقلدة أئمة الضلال من الكفار وأهل الأهواء والبدع.

ثم ذكر حال المتبوع الذي يثني عطفه تكبراً، كما قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان: ٧].

وذكر التفصيل في مجادلة المتبوع الداعي، وأنها في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، واكتفى في ذكر التابع بنفي العلم المستلزم، لنفي هذه الثلاثة، فإن مجادلة المتبوع أصل وهو أقعد(١) بها من مجادلة التابع، ومصدرها كبر، ومصدر مجادلة التابع ضلال وتقليد.

فذكر حال المتبوع على التفصيل، ولهذا ذكر فساد قصده وعلمه، وذكر من عقوبته أشد مما ذكر من عقوبة التابع، وهذا وأمثاله من أسرار القرآن التي حرمها الله على من عارض بينه وبين العقل، وقدم العقل عليه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ﴾ [**الحج**: ٥].

يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث، فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [**الحج**: ٥ ـ ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

---

(١) أي: أولى وأقرب. وانظر: أساس البلاغة (٣٧٢)، ولسان العرب (٦/ ٣٦٨٩).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨٦ ـ ١٠٩١). (٣) إعلام الموقعين (١/ ١٨٨).

جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يُخرج الموتى من القبور، كما أخرج النبات من الأرض(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السجود، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربه حيث لم يسجد له(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

واختلفوا(٣) في جر «لؤلؤ» ونصبه، فمن نصبه ففيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على موضع قوله: من أساور.

والثاني: أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول، أي: ويحلَّون لؤلؤاً.

ومن جره: أنه عطف على الذهب، ثم يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون لهم أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ.

[الثاني] ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معاً: الذهب المرصع

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٣). (٢) كتاب الصلاة (١٨٠).

(٣) انظر كتاب: السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٥).

باللؤلؤ، والله أعلم بما أراد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [**الحج**: ٢٥].

وهذا لا يختص بمقام الصلاة قطعاً، بل المراد به الحرم كله، فالذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، هو الذي توعد من صد عنه، ومن أراد الإلحاد بالظلم فيه.

فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة، والمسعى ومنى، وعرفة، ومزدلفة، لا يختص بها أحد، دون أحد بل هي مشتركة بين الناس، إذ هي محل نسكهم ومتعبدهم، فهي مسجد من الله وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يبنى له بيت بمنى يظله من الحر، وقال: «مِنى مُناخُ من سَبَقَ»(٢)(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [**الحج**: ٢٧].

وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة، وهي: أن الله شرط في الحج الاستطاعة ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيداً.

ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [**الحج**: ٣٠].

---

(١) حادي الأرواح (١٦٤).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث عائشة رضي الله عنها (٦/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وأبو داود (٥/ ٥٠١) في المناسك، باب تحريم مكة، والترمذي (٣/ ٢٢٨) في الحج، باب: ما جاء أن مِنى مناخ من سبق. وقال: (حديث حسن صحيح)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٠) في المناسك، باب: النزول بمنى. وضعفه الألباني، كما في ضعيف ابن ماجه (٢٣٨).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٣٥).

(٤) بدائع الفوائد (١/ ٦٩).

قال جماعة من المفسرين[(١)]: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هاهنا مغاضبه، وما نهى عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها.

قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات هي الأمر والنهي.

وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله، وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه، وحفظه من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [**الحج**: ٣٠، ٣١].

فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله، وتعلق بغيره.

ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهاً مركباً، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة؛ فصور حاله بصورة حال من خرَّ من السماء، فاختطفته الطير في الهوي، فتمزق مزقاً في حواصلها، أو عصفت به الريح، حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منه، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد، والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه، وتمزقه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مِزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٥٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٧٤).

وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق، هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان، وأبعده من السماء[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه إنما يناله التقوى، وهو التقرب إليه بها، وذكر اسمه عليها، فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعاً من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها، حيث لم يذكر عليها اسمه، أو ذكر عليها اسم غيره، وصف الخبث، فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية، وما ذكر عليه اسم غير الله، فما ذبحه عدوه المشرك به الذي هو أخبث البرية أولى بالتحريم؛ فإن فعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح، كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة.

وهذه أمور إنما يصدق بها من أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وباشر قلبه بشاشة حكمها، وما اشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقاها صافية من مشكاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وفي القراءة الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ﴾[(٣)]، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٤، ٢٣٥). (٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٦٠، ١٦١).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمر: (إن الله يَدْفَعُ)، (ولولا دَفْعُ) بغير ألف فيهما. وقرأ نافع: (إن الله يُدَافعُ)، (ولولا دِفَاعُ الله) بالألف فيهما. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: (إن الله يُدَافِعُ) بالألف، (ولولا دَفْعُ الله) بغير ألف. كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٧).

ذكراً كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكراً بذكر ونسياناً بنسيان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية(٢)، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحج: ٤٠]. وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ [الحج: ١٩]. نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين(٣).

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب (يا أيها الناس) فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٢) قال القرطبي رحمه الله تعالى: «وهي مكية سوى ثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢١] إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد. وعن ابن عباس أيضاً: أنهن أربع آيات، إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].
وقال الضحاك وابن عباس أيضاً: هي مدنية ـ وقاله قتادة ـ إلا أربع آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾ إلى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٥]، فهن مكيات وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات.
وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكي ومنها مدني، وهذا هو الأصح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك؛ لأن «يا أيها الناس» مكيّ، و«يا أيها الذين آمنوا» مدني.اهـ. تفسير القرطبي (٥/٤٣٩٣).

(٣) وهم من الصحابة الأبرار «حمزة وعلي وعبيدة ﷺ»، ومن أعدائهم الأشقياء «شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»، رواه البخاري (٧/٣٤٦) في المغازي، باب: قتل أبي جهل، و(٨/٢٩٧) في تفسير سورة الحج.

بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: بالقرآن جهاداً كبيراً، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في (مستدركه) من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾. وهي أول آية نزلت في القتال. وإسناده على شرط (الصحيحين)[١].

وسياق السورة يدل على أن فيها المكيَّ والمدنيَّ، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمنية الرسول مكية[٢]، والله أعلم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال الزجاج: تأويل هذا: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم ـ في كل شريعة نبي ـ المكان الذي يصلى فيه، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلى فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد.

وقال الأزهري: أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعه بعض الناس عن الفساد ببعضهم؛ لهدمت متعبَّدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان، فبدأ بذكر الصوامع والبيع؛ لأن صلوات من تقدم من بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن؛ وأخرت المساجد لأنها حدثت بعدهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد ﷺ (١/ ٢١٦)، والترمذي (٥/ ٣٠٤) في التفسير، باب: ومن سورة الحج، والحاكم (١/ ٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) إن كان هذا إشارة إلى قصة الغرانيق فهي قصة مكذوبة، قال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقال ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة، وانظر في إبطالها ـ إن رغبت ـ كتاب «الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية» لمؤلفه صالح أحمد الشامي، نشره المكتب الإسلامي. [الشامي].

(٣) زاد المعاد (٣/ ٧٠، ٧١).

وقال ابن زيد: الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو.

قال الأخفش: وعلى هذا القول: الصلوات لا تهدم، ولكن تحل محل فعل آخر، كأنه قال: تركت صلوات.

وقال أبو عبيدة: إنما يعني مواضع الصلوات.

وقال الحسن: يدفع عن مصليَّات أهل الذمة بالمؤمنين. وعلى هذا القول لا يُحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول؛ وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه: فإن الآية دلت على الواقع، ولم تدل على كون هذه الأمكنة ـ غير المساجد ـ محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقرَّ منها ما أقرَّ بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقرّ أهل الذمة وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعاً وقدراً: فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله ـ هو ابن موسى ـ عن إسرائيل، عن السدي، عمن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ قال: الصوامع التي يكون فيها الرهبان، والبيع: مساجد اليهود، والصلوات: كنائس النصارى، والمساجد: مساجد المسلمين[١].

قال ابن أبي حاتم وأخبرنا الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن داود، عن أبي العالية قال: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ قال: صوامع وإن كان يشرك به! وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر!

وفي تفسير شيبان[٢] عن قتادة: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين[٣].

* * *

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٧٤ ـ ١٧٨)، والدر المنثور (٦/ ٦٠).

(٢) شيبان بن عبد الرحمن النحوي، الإمام الحافظ الثقة. انظر: ترجمته ومصادرها في السير للذهبي (٧/ ٤٠٦).

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٨).

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

ذكر ﷻ أنواع القلوب:

فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان. ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ فترقَّ للقرآن قلوبهم، وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل: خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

قال ابن عباس: المخبتين: المتواضعين.

وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله.

وقال الأخفش: الخاشعين.

وقال ابن جرير(١): الخاضعين.

قال الزجاج: اشتقاقه من الخَبت وهو المنخفض من الأرض. وكل مخبت متواضع(٢).

فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

فإن قيل: فإذا كان معناه التواضع والخشوع، فكيف عدي بـ (إلى) في قوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]. قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود: أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتاً إليه وبعضها قاسياً، وجعل للقسوة آثاراً وللإخبات آثاراً.

---

(١) الطبري (١٧/ ١٦١ و١٩١، ١٩٢).

(٢) انظر أيضاً في معنى: الإخبات، لسان العرب (٢/ ١٠٨٧)، والمفردات للأصفهاني (١٤١).

فمن آثار القسوة تحريف الكلم عن مواضعه[1]؛ وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذكر به، وهو ترك ما أمر به علماً وعملاً، ومن آثار الإخبات وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه[2].

□ □ □

واللام [في ليجعل] على بابها وهي لام الحكمة والتعليل، أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول محنة واختباراً لعباده، فافتتن به فريقان وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

وعلم المؤمنون أن القرآن والرسول حق وأن إلقاء الشيطان باطل، فآمنوا بذلك وأخبتت له قلوبهم، فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا في عامة كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة، إلا أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لم تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه

---

(١) قال الله تعالى ذكره: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ..﴾ الآية [المائدة: ١٣].

(٢) شفاء العليل (١٠٦). (٣) شفاء العليل (١٩٢).

كذلك؛ لفرط حره ويبسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات، هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفي وربيعي[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلٰهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صوراً وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإلٰه الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك، وتعاونوا عليه، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلٰهيتهم، أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً، واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سوّى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٢٨، ٢٢٩).

قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز، وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب: الإله الباطل، والمطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه، وقيل: الطالب: الذباب، والمطلوب: الإله، . . .

والصحيح: أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود المستلِب والمستلَب، فمن جعل هذا إلٰهاً مع القوي العزيز، فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه[١].

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبيَّن إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يستكرهها غموض، ولم يُشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر، العظيم الشرف، البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ[٢].

□ □ □

فما قَدَّره مَنْ عَبَدَ مِنْ دونه من لا يخلق ذباباً واحداً. . . ولما كان هذا من جهلهم بالله وترك تعظيمه الذي ينبغي له، قال كثير من المفسرين في معنى ذلك:

ما عظموه حق عظمته.

وقال بعضهم: ما عرفوه حق معرفته.

وقال بعضهم: ما عبدوه حق عبادته.

وقال آخرون: ما وصفوه حق صفته.

ولما كان أهل العلم والإيمان قد قاموا من ذلك بحسب قدرتهم وطاقتهم التي أعانهم بها، ووفّقهم بها لمعرفته وعبادته وتعظيمه لم يتناولهم هذا الوصف؛ فإن التعظيم له سبحانه والمعرفة والعبادة ووصفه به نفسه قد أمر به عباده وأعانهم عليه ورضي منهم بمقدورهم من ذلك، وإن كانوا لا يقدرونه قدره ولا يقدر أحد من العباد قدره، فإنه إذا كانت السمٰوات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا، والأرضون السبع في يده الأخرى كذلك، فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلاً عن أن يقبض بهما شيئاً؟ فلا يد عند المعطلة ولا قبض في الحقيقة،

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧). (٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٦، ٤٦٧).

وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له، وللجهمية والمعطلة نفاة الصفات من هذا الذم أوفر نصيب، وللمتفلسفة وأفراخهم وأتباعهم ذنوب مثل ذنوب أصحابهم وأكثر[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨].

فأخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من: اجتبى الشيء يجتبيه إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين؛ ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلٰهاً معبوداً محبوباً على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلٰههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه وآثرهم بذلك على من سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه يسَّر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة، لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية، والتعظيم، والحبِّ، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والتفويض، والاستسلام؛ فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالى أنه نوه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم، وسمَّاهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم، ثم نوه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم؛ اعتناءً بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم.

ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله، ويشهدوا هم على الناس، فيكونوا مشهوداً لهم بشهادة الرسول، شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين.

والمقصود: أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالى، فمن المحال أن يحرمهم

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٣٦٣، ١٣٦٤).

كلهم الصواب في مسألة فيفتي فيها بعضهم بالخطأ، ولا يفتي فيها غيره بالصواب ويظفر فيها بالهدى من بعدهم، والله المستعان[١].

□ □ □

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فحقُّ جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانيَّ ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا.

واختلفت عبارات السلف في حقِّ الجهاد، فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه، وألا يخاف في الله لومة لائم.

وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله، واعبده حقَّ عبادته.

وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى.

ولم يصب من قال: إن الآيتين منسوختان[٢] لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق.

وحقّ تقاته وحقّ جهاده: هو ما يطيقه كل عبد في نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة، والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

والحرج: الضيق، بل جعله واسعاً يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع كلّ حي وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما.

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي (٤٤).

قال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفيَّة السَّمْحَةِ»(١)، أي: بالملة، فهي حنيفيَّة في التوحيد، سمحة في العمل، وقد وسع الله ﷻ على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد، وفتح لهم باباً لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة.

وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه، وأطيب، وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه.

وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله، ويسراً بعده، (فلن يغلب عسر يسرين).

فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه(٢).

□ □ □

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾.

و«ملة» منصوب على إضمار فعل، أي: اتبعوا والزموا ملة إبراهيم، ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾، وهذا هو الذي يقال له: الإغراء(٣).

وقيل: منصوب انتصاب المصادر، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله.

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢) عن حبيب بن ثابت مرسلاً، والخطيب في تاريخه (٧/ ٢٠٩)، وضعفه الألباني، كما في غاية المرام (٢٠) حديث رقم (٨). ويغني عنه ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (٣/ ٣٥٥) (المحققة) عن ابن عباس ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: (الحنفية السمحة)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٣٨٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٢٧) رقم (١١٥٧٢)، وأحمد في الزهد مرسلاً (٢٨٩ و٣١٠).
والبخاري معلقاً في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: الدين يسر (١/ ١١٦)، قال الحافظ ابن حجر: (إسناده حسن)، وكذا قال الألباني، كما في الصحيحة رقم (٨٨١)، وتمام المنة، ص(٤٥)، والله أعلم.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٨، ٩).

(٣) الإغراء هو: (أمر المخاطب بلزوم ما يحمد به). انظر: الألفية بشرح ابن عقيل (٣/ ٣٠١).

مسلماً وما كان من المشركين»[١][٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

أي: متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله[٣].

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه (٣/ ٤٠٧) عن عبد الرحمٰن بن أبزى، والدارمي (٢/ ٢٠٢) برقم (٢٦٩١)، والطبراني في الدعاء (٢/ ٩٢٦) برقم (٢٩٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٢) برقم (٣٣). قال النووي: (إسناده صحيح)، الأذكار (٦٨). وقال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح) مجمع الزوائد (٦/ ١١٦).

(٢) جلاء الأفهام (١٥٤).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٧٩، ١٨٠).

سُورَةُ المؤمنُون

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧].

علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه.

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات.

وأصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس: جنة ذات كروم مفردس، أي: معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد وقال: الفردوس ـ فيما سمعت من كلام العرب، الشجر الملتف والأغلب عليه العنب، وجمعه: الفراديس. قال: ولهذا سمي باب الفراديس بالشام، وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا ... يا بعد ما بين أبواب الفراديس

---

(١) الجواب الكافي (٢٢٧).

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية. واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العرب، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثـــواب الله كـــل مـــخـــلـــد جنان من الفردوس فيها يخلد[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

فاستوعب سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل تراباً وماء، إلى حين بعثه يوم القيامة، فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم يقلب الله سبحانه تلك النطفة علقة: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى، ثم يصيرها سبحانه مضغة: وهي قطعة لحم أربعين يوماً، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٣].

إن الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، والزُّبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله، وما بعث الله به رسوله.

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحاً، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين، فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك ممتثلين لأمر الله قابلين لرحمته، حتى نشأت خلوف قطّعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هذه الآيات ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان[3].

---

(١) حادي الأرواح (٨٨، ٨٩)، وراجع الآية برقم (١٠٧) من سورة الكهف.
(٢) تحفة المودود (٢١٣). (٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١].

روى الترمذي في جامعه عن عائشة ﵂ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات»[(١)].

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة ﷺ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ ـ ٧١].

[جاء هذا] في إثبات نبوة رسوله ﷺ، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يعلم من نفس القول تارة وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب باد على صفحاته وباد على ظاهره وباطنه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور، بل قلب هذا وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضاً، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تتبين لهم حقيقة الأمر وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨). (٢) الجواب الكافي (٤٧).

(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).

وأخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

ومعلوم أن عند النفاة[١] يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد، وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر، وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً.

وهذه مخالفة صريحة للقرآن وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم، وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك، ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به، ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإلٰه الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابديه النفع ويدفع عنهم الضر، فلو كان معه سبحانه إلٰه لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإلٰه الآخر معه، بل إن قَدِرَ على قهره والتفرد بالإلٰهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه.

فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

- إما أن يذهب كل إلٰه بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إلٰه واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإلٰه الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إلٰه غيره، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا ربَّ له غيره.

---

(١) أي: نفاة الحكمة والتعليل.

(٢) مفتاح دار السعادة (٣٣٨).

فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلٰهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان كذلك يستحيل أن يكون له إلٰهان معبودان[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

والهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد عن الكسائي:

همزته، ولمزته، ولهزته، ونهزته ـ إذا دفعته.

والتحقيق: أنه دفع بنخز وغمز، يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب.

قال ابن عباس والحسن: همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم.

وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد، وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون. وظاهر الحديث[(٢)]: أن الهمز نوع غير النفخ والنفث.

وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصابتهم لابن إدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، قال ابن زيد: في أموري.

وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن.

وقال عكرمة: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم[(٣)].

* * *

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٣، ٤٦٤).

(٢) هو قوله ﷺ: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»، رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٩٥، ٩٦).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أُمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى، فقال: (ارجعوني) ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: ﴿كَلَّآۚ﴾ لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمّرت ما يتذكر فيه من تذكر. ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله لسانه، وأنه لو رد لعاد لما نهي عنه وأنه من الكاذبين. فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد، والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السِّنَة والنوم واللُّغوب والحاجة واكترائه بحفظ السماوات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يُخْرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه، فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم.

فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلٓهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه، كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧][2].

---

(١) عدة الصابرين (١٨٤، ١٨٥).

(٢) عدة الصابرين (١٦١).

سُورَةُ النُّور

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

والصواب: القول: بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأت من ادّعى نسخها بحجة البتة، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى.

فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، هل هو خبر أو نهي، أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة، وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله ـ تعالى ـ عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟

ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عامُّ اللفظ خاصُّ المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي «عناق» البغيّ وصاحبها فإنه أسلم، واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها، فنزلت هذه الآية[1].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧١)، وأبو داود (٦/ ٤٨) في النكاح، باب: في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، والترمذي (٥/ ٣٠٧) تفسير سورة النور، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٦/ ٦٦) في النكاح، باب: تزويج الزانية، والحاكم (٢/ ١٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

وهذا أيضاً فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان ذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا تُنَاقِضُ إحداهما الأخرى، بل أَمَرَ سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرم نكاح الزانية، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟

فإن قيل: فما وجه الآية؟

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أُمِرَ أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة[(١)]، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانياً، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله ـ سبحانه ـ حرم على عبده أن يكون قرْناناً[(٢)] ديوثاً زوج بغي، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قحبة، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ

(١) في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [المائدة: ٥].

(٢) القَرْنانُ: الذي يُشارَكُ في امرأته كأن يقرن به غيره، وهو نعت سوءٍ في الرجل الذي لا غيرة له. لسان العرب (٦/ ٣٦١٢).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٦٥، ٦٦).

﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦ ـ ٩].

ثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد: أن عويمراً العجلاني قال لعاصم بن عدي: أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فسل لي رسول الله ﷺ.

فسأل رسول الله ﷺ، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ.

ثم إن عويمراً سأل رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: «قد نزل فيك وفي صاحبتك، فاذهب فائت بها».

فتلاعنا عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا قال: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ﷺ.

قال الزهري: فكانت تلك سنة المتلاعنين(١)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقاً. وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه. فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذباً، فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه(٣)؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك(٤).

* * *

(١) رواه البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢). (٢) زاد المعاد (٤/ ١٨٠).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٦٥). (٤) إغاثة اللهفان (١/ ٤٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

وقد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين، والكلمات الطيبات للطيبين، وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين، وهي تعم ذلك وغيره. فالكلمات، والأعمال، والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات، والأعمال، والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين.

فالله ﷻ جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار. فجعل الدور ثلاثة: داراً أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب وهي الجنة، وداراً أخلصت للخبيث والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار، وداراً امتزج فيها الطيب والخبيث، وخلط بينهما وهي هذه الدار، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية.

فإذا كان يوم ميعاد الخليقة، ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة، وهي دار الطيبين، والنار، وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام.

حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليري عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩][١].

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٦٦).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

لما كان غض البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد، ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضِّه مطلقاً، بل أمر بالغضِّ منه.

وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

□ □ □

وجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى. فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله ﷻ خيراً منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده؛ كما قيل:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلُّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة، ينصب إليه القلب بكليته. ثم تقوى فتصير غراماً يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوى فيصير عشقاً، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفاً، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تتيُّماً، والتتيُّم التعبد، ومنه «تيمه الحب» إذا عبده، و«تَيْم الله» عبد الله. فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له. وهذا كله جناية النظر. فحينئذ يقع القلب في الأسر، فيصير أسيراً بعد أن كان

ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً، يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرف يقول: «أنا رائدك، ورسولك وأنت بعثتني». وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب. فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره.

الفائدة الثانية: نور القلب وصحة الفراسة.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فمنعهن من الضرب بالأرجل، وإن كان جائزاً في نفسه؛ لئلا يكون سبباً إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن[2].

وهذه الآية في سورة مدنية[3]، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم[4].

فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه[5].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢، ٣٣].

فأمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محل كل من الآيتين؟

فالجواب: أن قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في حق الأحرار، أمرهم الله تعالى أن يستعفوا حتى يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٧). (٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٨١).

(٣) قال القرطبي: «مدنية بالإجماع» (٦/ ٤٥٥٠).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١٧٨). (٥) مدارج السالكين (٣٠٥، ٣٠٦).

تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم.

وأما قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾. فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامى وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن. هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل، وإن استعمل في حق المرأة. ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولى في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم.

وقوله في هذا القسم: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ يعم الأنواع الثلاثة التي ذكرت فيه، فإن الأيم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة. وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقاً فلا يمكن أن يجعل لنكاحه غاية وهي غناه ما دام عبداً، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذي ينتظر بنكاح الحر، والله أعلم.

وفي المسند وغيره مرفوعاً(١): «ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، .وذكر الثالث»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

فهذا نهي عن إكراههن على كسب المال بالبغاء، كما قيل: إن عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين كان له إماء يكرههن على البغاء(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢/ ٤٣٧)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨).

(٢) روضة المحبين (٢٩٦، ٢٩٧).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٩).

قال أبيٌّ بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم.

وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكر.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا.

منهم من نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج، وآخر يعطى نوراً عل إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أعطي نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب.

□ □ □

وقد فُسر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بكونه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض. وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به. ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول كقوله ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى، إذا جاء لفصل القضاء.

ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور[(١)]: «أعوذ بنور وجهك الكريم: أن تُضلَّني، لا إله إلا أنت».

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وعند مسلم (٥/ ٥٦٧) الذكر، باب: الأدعية من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ: «اللهم لك أسلمت.... اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني...»، والإمام أحمد (١/ ٣٠٢)، وهو عند البخاري مختصراً (١٣/ ٣٨٠) في التوحيد، باب: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وفي الأثر الآخر: «أعوذ بوجهك، أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[١].

فأخبر ﷺ: أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى: أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي وغيرها: عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه»[٢].

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض.

وأما من فسرها بأنه مُنَوِّر السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود.

والحق أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «قام بيننا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: «سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنَّى أراه؟!»[٤].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه: كان ثَمَّ نور، وحال دون رؤيته نور، فأنَّى أراه؟

قال: ويدل عليه: أن في بعض الألفاظ الصحيحة: «هل رأيت ربك؟ فقال:

---

(١) وأثر مشهور في قصة الطائف، رواها ابن إسحاق بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً (٢/ ٢٨)، لكن الدعاء وأوله: «اللهم أشكو إليك..» رواه دون سند. قال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات» (٦/ ٣٥)، وانظر: فقه السيرة (١٣٣).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٠)، قال الهيثمي: «فيه أبو عبد السلام... مجهول....، وعبد الله بن مكرر أو مكرز على الشك لم أر من ذكره.

(٣) رواه مسلم (١٧٩).

(٤) رواه مسلم (١٧٨).

رأيت نوراً»(١).

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حتى صححه بعضهم فقال: «نور إني أراه» على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظاً ومعنى. وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ: أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه، وكان قوله: «أنى أراه» كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه.

وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج. وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه ﷺ رأى ربه ﷻ. ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس رضي الله عنهما.

ويدل على صحته: ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه: قوله ﷺ في الحديث الآخر: «حجابه النور»، فهذا النور هو ـ والله أعلم ـ النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «رأيت نوراً».

□ □ □

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به. وعلى هذا عامة أمثال القرآن.

فتأمل صفة المشكاة، وهي كُوَّة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء، قد وضع فيها مصباح. وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً، من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح، محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة. والآفات إلى الأطراف دونها. فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار،

(١) رواه مسلم (١٧٨).

فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وصفه في قلب عبده المؤمن، وخصّه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة: قلبه. شبّه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها. وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن، ويتحنن، ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه. ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى.

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقّها وأصلبها وأصفاها»[1]، والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق. وهي مادة المصباح التي يتّقد منها. والنور على النور نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان. فهذا علامة النور على النور.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩ ـ ٤٠].

[وهؤلاء هم] أهل الجهل والظلم، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٩١): أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير) وإسناده قوي.

وهؤلاء قسمان:

أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال. فهؤلاء أهل الجهل المركّب، الذين يجهلون الحق ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله: وهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب، الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه. ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان. كما هو حال من أمَّ السراب فلم يجده ماءً، بل انضاف إلى ذلك: أنه وجد عنده أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين ﷻ، فحسب له ما عنده من العلم والعمل، فوفّاه إياه بمثاقيل الذر. وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباءً منثوراً، إذ لم يكن خالصاً لوجهه، ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة كذلك هباء منثوراً، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

و«السراب» ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض، كأنه ماء يجري.

و«القيعة» والقاع: هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد.

فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله: بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه، فيخيب ظنه، ويجده ناراً تتلظى.

فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، وإذا أتوه وجدوا الله عنده، فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميماً، وسقاهم إياه، كما أن طعامهم: ﴿مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. وهو تلك العلوم، والأعمال الباطلة، التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهم الذين عنى الله

بقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

القسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات.

وهم المنغمسون في الجهل، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد، واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى.

فظلمات: جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور.

فإن المعرض عن ما بعث الله به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جَدَّ في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره. فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى. كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ووافقها قِطْعٌ من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار، ونحاتة الأذهان، جال وصال، وأبدى وأعاد، وقعقع وفرقع. فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحَجَر في جحرة الحشرات.

قوله: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ «اللجي» العميق، منسوب إلى لجة البحر. وهو معظمه.

وقوله تعالى ذكره: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه.

فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض.

والضمير الأول في قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ راجع إلى البحر. والضمير الثاني في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ عائد إلى الموج.

ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب.

فهاهنا ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكد يراها.

واختلف في معنى (لم يكد يراها)(١):

والصحيح: أنها فعل يقتضي المقاربة. ولها حكم سائر الأفعال، ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها. فإنها لم توضع لنفيه، وإنما استفيد من لوازم معناها، فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً، فيكون منفياً باللزوم.

---

(١) فقال كثير من النحاة: هو نفي لمقاربة رؤيتها، وهو أبلغ من نفيه الرؤية، وأنه قد ينفي وقوع الشيء ولا تنفي مقاربته. فكأنه قال: لم يقارب رؤيتها بوجه.
قال هؤلاء: «كاد» من أفعال المقاربة، لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات. فإذا قيل: كاد يفعل فهو إثبات مقاربة الفعل. فإذا قيل: لم يكد يفعل، فهو نفي لمقاربة الفعل.
وقالت طائفة أخرى: بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد. وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر، لأجل تلك الظلمات.
قالوا: لأن «كاد» لها شأن ليس لغيرها من الأفعال. فإنها إذا أثبتت نفت، وإذا نفت أثبتت، فإذا قلت: ما كدت أصل إليك. فمعناه: وصلت إليك بعد الجهد والشدة. فهذا إثبات للوصول. وإذا قلت: كاد زيد يقوم فهي نفي لقيامه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ [القلم: ٥١]. وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً:

أنحوي هذا العصر: ما هي لفظة — جرت في لسان جرهم وثمود
وإذا استعملت في صورة النفي أثبتت — فإن أثبتت قامت مقام جحود؟

وقالت فرقة ثالثة، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره: إن استعمالها مثبتة يقتضي نفي خبرها، كقولك: كاد زيد يقوم. واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى. فهي عنده تنفي الخبر، سواء كانت منفية أو مثبتة. فلم يكد زيد يقوم أبلغ عنده في النفي من لم يقم، واحتج بأنها إذا نفيت وهي من أفعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل، وهو أبلغ من نفيه. وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها. وذلك يدل على عدم وقوعه.
واعتذر عن مثل قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. وعن مثل قوله: وصلت إليك وما كدت أصل، وسلمت وما كدت أسلم، بأن هذا وارد على كلامين متباينين، أي: فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له. فالأول يقتضي وجود الفعل. والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له، بل كان آيساً منه. فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان.
وذهبت فرقة رابعة: إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها. فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل، سواء كانت بصفة الماضي أو المستقبل، وإن كانت في طرف النفي، فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفي الفعل ومقاربته نحو قوله: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾، وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات، نحو قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.
فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة.

وأما إذا استعملت منفية فإن كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة، كما إذا قلت: لا يكاد البطال يفلح، ولا يكاد البخيل يسود، ولا يكاد الجبان يفرح، ونحو ذلك.

وإن كانت في كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد أن لم يكن مقارباً. كما قال ابن مالك[1].

فهذا التحقيق في أمرها.

والمقصود: أن قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة، وهو الأظهر. فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها؟ قال ذو الرمة:

إذا غَيَّر النأي المحبين، لم يكد ... رسيس الهوى من حب مَيَّة يبرح

أي: لم يقارب البراح وهو الزوال، فكيف يزول؟

□ □ □

فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد، فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه.

وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج، الذي قد غشيه السحاب من فوقه.

فيا له تشبيهاً ما أبدعه، وأشد مطابقته لحال أهل البدع والضلال، وحال من عبد الله ﷻ على خلاف ما بعث به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه.

وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم.

وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم. فهي سراب لا حاصل لها، وظلمات لا نور فيها.

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة، فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد. ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة. ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه[2].

□ □ □

---

(١) راجع: شرح ابن عقيل على الألفية (١/ ٣٢٢).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٦ ـ ١٢).

فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاث المنعم عليهم، وهم أهل النور، والضالين، وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم: وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين: لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع.

والمثل الثاني: لأصحاب العلم الذي لا ينفع، والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق.

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثلين فيعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه، أن الموجب لذلك: أنه لم يجعل لهم نوراً، بل تركهم على الظلمة التي خلفوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور، فإنه سبحانه وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها.

فنبه على الاشتراك والاختلاف فنشير إلى يسير منه: فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ما وراء ذلك، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال، واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره، واشتراك الماشي منها على بطنه في

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٩).

ذلك وتفاوت نوعه، واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت.

وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز عن كثير منها نوع الإنسان.

فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله، بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

أصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم.

كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: «من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»(٢).

فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه.

فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨].

أمر تعالى مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ لئلا يكون دخولهم هجماً بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان

---

(١) شفاء العليل (٢٣١، ٢٣٢).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٥١٢) في التوحيد، باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ ...﴾ الآية.
(٣) الرسالة التبوكية (٤٦، ٤٧).

في غيرها، وإن أمكن في تركه وجود هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه إذن فيه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وفيه قولان للمفسرين(٣):

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي: دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى: لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً. إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: دعاؤه إياكم(٤).

وقد يقال ـ وهو أحسن من القولين ـ: إن المصدر هنا لم يضف إضافته إلى فاعل ولا مفعول، وإنما أضيف إضافة الأسماء المحضة، ويكون المعنى: لا تجعلوا الدعاء المتعلق بالرسول المضاف إليه كدعاء بعضكم بعضاً، وعلى هذا فيعم الأمرين معاً، ويكون النهي عن دعائهم له باسمه كما يدعو بعضهم بعضاً وعن تأخير إجابته ﷺ، وعلى كل تقدير فكما أمر الله سبحانه بأن يميز عن غيره في خطابه ودعائه إياهم، قياماً للأمة بما يجب عليهم من تعظيمه وإجلاله، فتمييزه بالصلاة عليه عند ذكر اسمه من تمام هذا المقصود(٥).

* * *

---

(١) إعلام الموقعين (١٨١، ١٨٢).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨٧).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٧٧).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠).
(٥) جلاء الأفهام (٢٣٥).

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [**الفرقان**: ١].

البركة نوعان أيضاً.

أحدهما: بركة هي فعله ـ تبارك وتعالى ـ، والفعل منها «بارك» ويتعدى بنفسه تارة وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها «مبارك» وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله ـ تعالى ـ.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها «تبارك»، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ولا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما. فجاء بناء «تبارك» على بناء «تعالى» الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك «تبارك» دال على كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه: أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه، وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، ومن هنا قيل: معناه: تعالى وتعاظم، وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي: باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك: المرتفع. ذكره البغوي[١]. وقيل: تبارك أي: البركة تكتسب وتنال بذكره، وقال ابن عباس: جاء بكل بركة. وقيل: معناه: ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة أن البركة: كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصْفاً وفعلاً منه ـ تبارك وتعالى ـ، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين[٢] لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل «تعالى» و«تقدس» و«تعاظم». ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس فكذلك «تبارك» لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى؟ هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر «تبارك» بمعنى: «ألقى البركة» و«بارك في غيره» لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً فتبارك من باب «مجد»، والمجد كثرة صفات الجلالة والسعة والفضل.

وبارك من باب «أعطى وأنعم» ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسَّر مَنْ فسّر مِنَ السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عِنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه.

وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكي»[٣]، وبيّنا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً ورسوله مباركاً وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصى مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة[٤].

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٤٠). (٢) تفسير الطبري (١٨/ ١٧٩).

(٣) هذا من الكتب التي لم تصلنا ـ في حدود علمي ـ ولعل الله يمن بظهورها.

(٤) هي أربعة مواضع [الأعراف: ١٣٧]، و[الإسراء: ١]. و[الأنبياء: ٧١، ٨١]، والله أعلم.

من الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[١].
فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً، وكذلك البركة فهو تبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركاً: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٢]. وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخِرُّ ساجداً لربي فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»، وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، فدل على أن لله ﷻ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه ،وبالله التوفيق[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾ **[الفرقان: ٧، ٨]**.

(١) رواه مسلم (٥٩٢)
(٢) رواه أبو داود (١٤٢٧) والترمذي، (٣٥٦٦)، والنسائي (١٧٤٦)، وابن ماجه (١١٧٩).
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

أي: لو كان رسولاً لخالق السماوات والأرض، لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في طلب المعيشة ولأغناه عن أكل الطعام، ولأرسل معه ملكاً من الملائكة، ولألْقَى إليه كنزاً يغنيه عن طلب الكسب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ **[الفرقان: ١٧ ـ ١٩]**.

وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير وبيان، فقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عام في كل عابد ومن عبده من دون الله. وأما قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، فقال مجاهد، فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح، عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة»(٢). وروى عنه ابن جريج نحوه، وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبدتها. ثم يأذن ـ سبحانه ـ لها في الكلام، فيقول: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾، قال مقاتل: يقول سبحانه: «أأنتم أمرتموهن بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل، أي: أم هم أخطأوا الطريق»؟ فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومَنْ عَبَدَهُمُ المشركون من أولياء الله، ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيهاً لك يا ربنا وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون]، ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم، وقال ابن عباس، ومقاتل: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إلٰه».

وفيها قراءتان:

أشهرهما: (نَتّخِذ) بفتح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل، وهي قراءة السبعة.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٩٧).
(٢) تفسير الطبري (١٨/ ١٨٩).

والثانية: (نُتخَذ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع[١].

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظاً ومعنى، فأيهما أحسن وأبلغ في المعنى المقصود، والبراءة مما لا يليق بهم؟ فإنهم على قراءة الضّم يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا ولياً من دونه، بل أنت وحدك ولّينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجلُّ من الأول وأكبر، فتأمله.

والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة، ومَنْ عبد مِنْ دون الله من أوليائه، وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر. وقد يقال: إن الله ـ سبحانه ـ أنطقها بذلك، تكذيباً لهم، ورداً عليهم، وبراءة منهم. كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]. وفي الآية الأخرى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين بالإيمان بالله ـ تعالى ـ بقولهم: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

قال ابن عباس: «أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم، ووسعت لهم في الرزق».

وقال الفراء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قوماً بوراً، أي: هَلْكَى فاسدين. قد غلب عليهمُ الشقاء والخذلان، والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسي قوم ذكر الله ﷻ إلا باروا وفسدوا. والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾، أي: كذبكم المعبودون، بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون: إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا، أي: فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٤٧٢٦، ٤٧٢٧).

والأول أظهر. وعليه يدل السياق، ومَنْ قرأها بالياء ـ آخر الحروف ـ فالمعنى: فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ إخباراً عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله. قال ابن زيد: ينادي مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: مَنْ عُبدَ مِنْ دون الله، لا ينصر اليوم من عَبَدَهُ، والعابد لا ينصر إلٰهه: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمٰن، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢][(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك.

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة، وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين.

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم.

ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٢٣٨ ـ ٢٤٣).

ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، هؤلاء.

وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فإذا رأى الشريف الرئيسُ المسكينَ الذليل قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حَمِيَ وأنِفَ أن يسْلِمَ، فيكون مثله، وقال: أُسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء؟

قال الزجاج: كان الرجل الشريف ربما أراد الإسلام، فيمتنع منه، لئلا يقال: أسلم قبله من دونه، فيقيم على كفره، لئلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل.

ومن كون بعض الناس لبعضهم فتنة: أن الفقير يقول: لِمَ لَمْ أكن مثل الغنى؟ ويقول الضعيف: هلا كنتُ مثلَ القوي؟ ويقول المبتلى: هلا كنت مثل المعافى؟

وقال الكفار: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال مقاتل: نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين، نحو: بلال وخباب، وصهيب، وأبي ذر، وابن مسعود، وعمار، كان كفار قريش يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً من موالينا وأراذلنا؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ ـ ١١١]. فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

قال الزجاج: أي: أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون.

قلت: قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هاهنا وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا﴾ [النحل: ١١٠].

فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة، من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. فالفتنة قسمت الناس، إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر

عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [**الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩**].

فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا، هذا الخليل كنى عنه باسم فلان. إذا لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان.

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول واللعنة. كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧](٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [**الفرقان: ٣٠**].

هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هذا دَخَلَ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض(٣).

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٠ ـ ١٦٢).
(٢) الرسالة التبوكية (٥٥).
(٣) الفوائد (٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى، ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها، مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصف ـ سبحانه ـ به كتابه في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

فالحق: هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهي تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله في الظهور والبيان، وباقيه[1] في الاشتقاق الأكبر: الإسفار ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت وظهوره، ومنه السِّفْر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم وبيانه، فلا بد من أن يكون التفسير مطابقاً للمفسر مفهماً له، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن، ولهذا لا تجد كلاماً أحسن تفسيراً، ولا أتم بياناً، من كلام الله ـ سبحانه ـ، ولهذا سمّاه سبحانه بياناً، وأخبر أنه يسّره للذكر، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعاً من التيسير:

أحدها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب، لم يكن ميسَّراً له، بل كان معسَّراً عليه، فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، وهو مناف للتيسير؛ فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه ـ سبحانه ـ لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا مبايناً له، ولا محايثاً، ولا يرى بالأبصار عياناً، ولا له وجه، ولا يد، من قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١][2].

* * *

(١) أشار محقق الصواعق إلى أن في نسخة: و«تلاقيه»، وقال: ولعلها يلاقيه.

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فشبّه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق؛ فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون، ولا يهتدون، ولا يفرّقون بين ما يضرّهم وما ينفعهم.

والأنعام تفرّق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه، وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما أعطى وجعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار. فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل، أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

فأخبر تعالى: أنه بسط الظل ومدّه، وأنه جعله متحركاً تبعاً لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكناً لا يتحرك، إما بسكون المظهر له، والدليل عليه، وإما بسبب آخر. ثم أخبر أنه قبضه ـ بعد بسطه ـ قبضاً يسيراً، وهو شيء بعد شيء، لم يقبضه جملة. فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته، وكمال حكمته.

فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته. ولو شاء ربنا لجعله لاصقاً بأصل ما هو ظل له، من جبل وبناء وشجر وغيره. فلم ينتفع به أهله، فإن كان الانتفاع به تابعاً لمده وبسطه، وتحوله من مكان إلى مكان. وفي مده وبسطه، ثم قبضه شيئاً فشيئاً: من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى، فلو كان ساكناً دائماً، أو قبض دفعة واحدة: لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس، فمد الظل وقبضه شيئاً فشيئاً لازم لحركة الشمس، على ما قدرت عليه من مصالح العالم.

وفي دلالة الشمس على الظلال: ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى من

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢١٠).

اليوم، وما بقي منه. وفي تحركه وانتقاله: ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه.

وفي الآية وجه آخر، وهو: أنه سبحانه مد الظل حين بنى السماء، كالقبة المضروبة، ودحى الأرض تحتها، فألقت القبة ظلها عليها فلو شاء ـ سبحانه ـ لجعله ساكناً مستقراً في تلك الحال. ثم خلق الشمس ونصبها دليلاً على ذلك الظل، فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها، وينقص، ويمتد ويتقلص. فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر، وهو: أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه. وقوله تعالى: ﴿قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا﴾ كأنه يشعر بذلك. وقوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يشبه قوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]. وقوله: ﴿قَبَضْنَهُ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك. كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]. والوجه في الآية: هو الأول[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢].

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

هذا من ألطف خطاب القرآن، وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه. وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له ـ سبحانه ـ كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه.

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٣).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٥).

وعبارات السلف على هذا تدور.

ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.

وقال ليث عن مجاهد قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، ويعينه عليها. وقال زيد بن أسلم: ظهيراً، أي: موالياً.

والمعنى: أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه. فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان، ومع نفسه وهواه وقربانه.

ولهذا صدّر الآية بقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾، وهذه العبادة: هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته، ومساخطه، بخلاف وليه ـ سبحانه ـ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه.

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق[(١)].

□ □ □

[وقد] نفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي، فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير بَيِّنٌ أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خِلفَة، أي: يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما. وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار، كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا

---

(١) الفوائد (٧٩، ٨٠).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢، ٣).

يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه(١).

[والآية] تعظيم وثناء منه ـ تعالى ـ على نفسه بجعل هذا البروج والشمس والقمر في السماء، وقد اخْتُلِفَ في البروج المذكورة في هذه الآية فأكثر السلف على أنها القصور أو الكواكب العظام.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا موسى، حدثنا شجاع، حدثنا ابن إدريس عن أبيه عن عطية: ﴿جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾، قال: قصوراً فيها حرس.

حدثنا موسى، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو معاوية ووكيع عن إسماعيل عن يحيى بن رافع قال: قصوراً في السماء.

حدثنا موسى، حدثنا أبو بكر، حدثنا وكيع عن سفيان بن أبي نجيح عن مجاهد قال: النجوم يعني: بروجاً.

وكذلك قال عكرمة: حدثنا أبو أحمد، حدثنا يعلى، حدثنا إسماعيل عن أبي صالح: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال: النجوم الكبار(٢)، وهذا موافق لمعنى اللفظة في اللغة، فإن العرب تسمي البناء المرتفع برجاً.

قال ـ تعالى ـ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال الأخطل:

كَأَنَها بُرْجٌ رُومِيٌّ يُشَيِّدُهُ   بَانٍ يَجُصٌّ وَآجُرّ وأَحْجَارِ

قال الأعمش: كان أصحاب عبد الله يقرأونها: [تبارك الذي جعل في السماء قصوراً].

وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى البروج الاثني عشر التي تنقسم عليها المنازل، كل برج منزلتان وثلث، وهذه المنازل الثمانية والعشرون يبدو منها للناظر أربعة عشر منزلاً أبداً ويخفى منها أربعة عشر منزلاً، كما أن البروج يظهر منها أبداً ستة ويخفى ستة، والعرب تسمي أربعة عشر منزلاً منها شامية، وأربعة عشر يمانية، فأول الشامية السرطان وآخرها السماك الأعزل، وأول اليمانية

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) انظر: الدر المنثور (٦/ ٢٦٩)، وتفسير الطبري (١٩/ ٢٩).

العفر وآخرها الرشا. إذا طلع منها من المشرق غاب رقيبه من المغرب وهو الخامس عشر، وبها تنقسم فصول السنة الأربع، فللربيع منها: الحمل والثور والجوزاء ومنازلها الشرطين والبطين والثريا والديران والهقعة والهنعة والذراع، وللصيف منها: السرطان والأسد والسنبلة ومنازلها النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك، وللخريف منها: الميزان والعقرب والقوس ومنازلها الغفر والزبان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة، وللشتاء منها: الجدي والدلو والحوت ومنازلها سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية، والفرع المقدم ويسمى الأول، والفرع المؤخر ويسمى الثاني، والرشا ولما كان نزول القمر في هذه المنازل معلوماً بالعيان والمشاهدة ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٨، ٣٩].

فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس، وإن كانت مقدرة المنازل لظهور ذلك للحس في القمر وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل مَنْزِلٍ مُنْزَلٍ.

ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي، ولهذا قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾. ولم يقل ذلك في الشمس، ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله، لا على حساب الشمس وسيرها حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعذر الغلط والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب، فهذا الذي أخبرنا ـ تعالى ـ به من شأن المنازل وسير القمر فيها وجعل الشمس سراجاً، وضياء يبصر به الحيوان ولولا ذلك لم يبصر الحيوان، فأين هذا مما يدعيه الكذابون من علم الأحكام التي كَذِبُهَا أضعافُ صدقها[1]؟

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٥٣٨، ٥٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

إن الله ـ سبحانه ـ مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

فـ«سلاماً» هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه، أي: قالوا قولاً سلاماً، أي: سداداً وصواباً وسليماً من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل. فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلّموا عليهم، وليس هذا معنى الآية ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: بسكينة ووقار. والهَوْن بفتح الهاء من الشيء الهين وهو مصدر هان هوناً، أي: «سهل»، ومنه قولهم: يمشي على هينته ولا أحسبها إلا مولدة(١). ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة، فهي فعلة من الهون وأصلها هِوْنة فقلبت واوها ياءً لانكسار ما قبلها، فاللفظة صحيحة المادة والتصريف، وأما الهُون بالضم فهو الهوان فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهَون.

فوصف مشيهم بأنه مشيُ حلم ووقار وسكينة لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم، فتأمله(٢).

□ □ □

قال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سفه عليهم حلموا.

---

(١) لسان العرب (٨/ ٤٧٤١).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٨، ١٥٩).

«والهون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهُون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

والغرام: الشر الدائم واللازم والعذاب.

قال بشر:

وَيَوْمُ النِّسَارِ وَيَوْمُ الجِفَا رِكَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَاما

وقال الأعشى:

إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وَإنْ يُعْـ ـطِ جَزِيلاً فإنَّهُ لا يُبَالِي

وقال أبو عبيدة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كان هلاكاً ولزاماً لهم[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النَّمط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين.

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح[(٤)].

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٧).
(٢) روضة المحبين (٥٨).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٢).
(٤) الجواب الكافي (٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [**الفرقان: ٧٠**].

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[(1)] [الفتح: ١، ٢].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة، فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها هاهنا»، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[(2)].

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر. فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب.

والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين

---

(١) أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه، كما في الدر المنثور (٦/ ٢٧٩).

(٢) رواه مسلم (١٩٠).

في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟ والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فَهْم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عُرفت عُرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه. فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيرَ الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح. وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول.

يوضحه: أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلّت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله، فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها.

يوضحه: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعاً، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب،

كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ﴾، ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة. فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل، وأما في الحديث: فإن الذي عُذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبيّن ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: «أخبئوا عنه كبارها»، فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحاً واغتباطاً.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرضت عليه الصغائر، فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١].

التوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو **أحد التأويلات** في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

قال البغوي وغيره: ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ يعود إليه بعد الموت، متاباً حسناً يفضل عن غيره.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٤).

فالتوبة الأولى: وهي قوله: «ومن تاب»: ـ رجوع عن الشرك.

والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر، والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصاً، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه، والمعنى: فليعلم توبته إلى مَنْ؟ ورجوعه إلى مَنْ؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا ـ على أحد التأويلين ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. أي: اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته[١].

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوي العزم وصار جازماً: وُجد به فعل التوبة.

فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها.

والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها، والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً، وهذا نظير قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٢][٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ **[الفرقان: ٧٢]**.

قال محمد بن الحنفية: «الزور هٰهنا الغناء»، وقاله ليث عن مجاهد. قال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل. واللغو في اللغة: كل ما يلغى ويطرح.

والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل. وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه، أو يميلوا إليه. ويدخل في هذا: أعياد المشركين ـ كما فسرها به السلف ـ والغناء، وأنواع الباطل كلها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٠٧).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (١/ ٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣١٤، ٣١٥).

قال الزجاج: «لا يجالسون أهل المعاصي، ولا يمالئونهم عليها، ومرّوا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه، والاختلاط بأهله».

وقد روي: أن عبد الله بن مسعود ﷺ: مر بلهو فأعرض عنه فقال رسول الله ﷺ: «إن أصبح ابن مسعود لكريماً»[1].

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاصاً، فمعناها عام، متناول لكل من سمع لغواً فأعرض عنه، وقال بقلبه أو لسانه لأصحابه: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم».

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، ولم يقل: بالزور لأن «يشهدون» بمعنى: يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به، وفعله؟ والغناء من أعظم الزور، والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها. كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به، فقال: «هذا الزور» فالزور: القول، والفعل، والمحلُّ. وأصل اللفظ من الميل. ومنه الزَّوْر، بالفتح ومنه: زرت فلاناً، إذا ملت إليه، وعدلت إليه، فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفعلاً[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ **[الفرقان: ٧٣].**

قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صماً، لم يسمعوه، وعمياناً: لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به.

وقال ابن عباس: لم يكونوا عليه صمّاً وعمياناً، بل كانوا خائفين خاشعين.

وقال الكلبي: يخرون عليها سمعاً وبصراً.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٤) عن إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف. . .، فذكره. قال الألباني: ضعيف، إبراهيم بن ميسرة تابعي ثقة، فهو مرسل، ومحمد بن مسلم، وهو الطائفي صدوق يخطئ. الضعيفة برقم (١١٦٧). وانظر: التهذيب (٩/ ٤٤٤)، والثقات لابن حبان (٧/ ٣٩٩)، والدر المنثور (٦/ ٣٨٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤١، ٢٤٢).

وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعوه، فذلك الخرور، وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني.

والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صمّاً وعمياناً.

وقال الزجاج: المعنى: إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكياً سامعين مبصرين كما أمروا به.

وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعميٌّ لم يروها[١].

قلت: هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه، وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً، أو بالبدن سجوداً، أو ليس هناك خرور وعبّر به عن القعود؟[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال سعيد بن منصور حدثنا حزم قال: سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؟ فقال: يا أبا سعيد ما هذه القرة أعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟

قال: لا، بل والله في الدنيا.

قال: وما هي؟

قال: والله أن يريَ اللهُ العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه، طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولداً أو والداً أو حميماً، أو أخاً، مطيعاً لله عز وجل[٣].

وإمام بمعنى: قدوة، وهو يصلح للواحد وللجمع كالأمة والأسوة، وقد قيل: هو جمع آمم كصاحب وصحاب، وراجل ورجال، وتاجر وتجار، وقيل: هو مصدر كقتال وضراب، أي: ذوي إمام.

---

(١) تفسير غريب القرآن (٣١٥). (٢) الفوائد (٨٠).

(٣) تحفة الودود (١٣٤).

والصواب: الوجه الأول، فكل من كان من المتقين وجب عليه أن يأتم بهم، والتقوى واجبة، والائتمام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفتوا به مخالف للائتمام بهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

قال محمد بن علي بن الحسين: الغرفة: الجنة، بما صبروا. قال: على الفقر في الدنيا.

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة. قالت عائشة: وَلِمَ يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً، يا عائشة! لا تردّي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقرّبيهم فإن الله يقربك يوم القيامة»(٢).

قلت: أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن معصيته، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دلَّ على جزاء الصابرين، دلَّ على جزاء الشاكرين أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا.

وأما الحديث فإنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح، بل قال فيه البخاري: منكر الحديث، ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنّه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته(٣).

إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٠).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٤٩٩) في الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة... والحديث صححه الألباني ـ حفظه الله تعالى ـ كما في الصحيحة برقم (٣٠٨)، وفي إرواء الغليل (٣/ ٣٥٨)، فانظره مفصلاً.

(٣) راجع: الإرواء كما سبق بيانه.

ليست مسكنة فقر المال، بل مسكنة القلب، وهي انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر، فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز، وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [**الفرقان**: ٧٧].

[أي]: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أيُّ شيءٍ يعبأه بكم لولا عبادتكم إياه فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل[(٢)].

وأصح الأقوال في الآية: أن معناها: ما يصنع بكم ربي لولا عبادتكم إياه، فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته[(٣)].

❁ ❁ ❁

(١) عدة الصابرين (١٧٥، ١٧٦).
(٢) جلاء الأفهام (٨١).
(٣) مفتاح دار السعادة (٤١٨).

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

لا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة، فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

[انظر تفسيرها عند الآية (٨٠) من سورة الإسراء (ج٢، ص١٤٩)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

والسليم: هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف.

فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضاً فإنه ضد المريض، والسقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم.

والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم في محبته مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. هذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

---

(١) الجواب الكافي (٢٦٤).

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة، وتوكلاً، إنابة، وإخباتاً، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله وأمره كله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب، وهي العقائد. وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله، إلى ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قوة ولا عمل.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؟ أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرّب إلى الرب ﷻ، وابتغاء الوسيلة إليه ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤالك عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبّد، أي: هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص،

وهوى يعارض الاتباع. فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة(١).

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء:

من شرك يناقض التوحيد.

وبدعة تخالف السنة.

وشهوة تخالف الأمر.

وغفلة تناقض الذكر.

وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تنحصر(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومعلوم أنهم ما سووهم به ـ سبحانه ـ في الخلق، والرزق، والإماتة والإحياء، والمُلك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته وملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟(٣).

□ □ □

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧، ٨).
(٢) الجواب الكافي (١٧٩).
(٣) الجواب الكافي (١٩٧).

والعبودية والتعظيم، ومع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة أن لا إلٰه إلا الله.

فحقيق لمن تصلح نفسه، وأحب سعادتها ونجاتها: أن يستيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجلّ علومه وأعماله. فإن الشأن كله فيها والمدار كله عليه، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إلٰه إلا الله»، وهذا حق فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها.

فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها، ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم الرسل؟ فالسؤال عما إذا كانوا يعبدون: هو السؤال عنها نفسها. والسؤال عما إذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ولا يطلب على فضلة، والله الموفق لا إلٰه غيره ولا رب سواه[1].

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين (٣٨٣).

سُورَةُ النَّمْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثر سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصاً به. وأيضاً فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة أن يقال: «مات فلان وورثه ابنه»، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه. وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يبيّن أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٥، ١٦]، وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه وما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥، ٦].

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله، فيسأل الله العظيم ولداً يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم براء منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٧٣).

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النملة، حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد»(١). وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبِّح، فهلَّا نملة واحدة»(٢)؟

وذكر هشام بن حسان: «أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكم ونفعل قال: فذهبن». وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٣٣٢ و٣٤٧)، أبو داود (١٤/ ١٧٨) في الأدب، باب: في قتل الذر، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٤) في الصيد، باب: ما نهي عن قتله، ورواه غيرهم، وصححه الألباني، كما في الإرواء (٨/ ١٤٢). و«الصُّرد» هو طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود. انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٢١).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١).

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم»[1]. ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره. وقال: الإمام أحمد حدثنا[2].

قال: «خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم». «ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها. قال: فرفعتُ ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية، فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب».

والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل، ويُذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وبسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاءً لنفسي. فعجب سليمان من شدة حرصها.

وهذا من أعجب الهداية والعطية، ومن حرصها، أنها تكدُّ طول الصيف وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها

---

(١) لم أهتد إليه في كتاب الزهد، وإنما وقفت على الذي بعده.

(٢) وفي الزهد حدثنا عبد الله حدثنا أبي حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي. . . فذكره. الزهد، ص(٨٣).

شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟ فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه من فتات الخبز من أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً، حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيراً فلا، ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً ويملأه ماءً، ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك. وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزاً له وهو أبعد مكان في المحيط[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

---

(١) شفاء العليل (٦٩، ٧٠).

﴿لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٤].

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، وفي ضمن هذا: أنِّي أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم به شأن فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

والنبأ: هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفزعت قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلِّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذاناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصدَّ حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض.

وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض، قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك

بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض ـ جلت قدرته ولطف علمه ـ، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإِلٰه لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا، فكيف تجعلون معه إلٰهاً آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية: «أإلٰه مع الله فعل هذا» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إلٰه فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلٰهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى: «هل مع الله إلٰه آخر؟» من غير أن يكون المعنى: «فعل هذا»، فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير، أي: فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إلٰه آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلٰهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]، وهو كثير في القرآن، وبه تتم الحجة كما تبين[2].

□ □ □

---

(١) شفاء العليل (٧٠، ٧١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤١٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

هل السلام من الله؟ فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه؟ أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعاً؟

فالجواب عنه: أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح.

فيرجح كونه داخلاً في جملة القول لأمور:

منها: اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل. وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعاً على كل واحد منهما. هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد لله، وسبحان الله، فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها: أنه إذا كان معطوفاً على المقول كان عطف خبر على خبر، وهو الأصل. ولو كان منقطعاً عنه كان عطفاً على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب.

ومنها: أن قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، ظاهر في أن المسلم هو القائل: الحمد لله ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة، ولم يقل: سلام على عبادي.

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور:

أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن، من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى، كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

ومنها: أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم.

أما الأول: فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]. وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله، ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول ضُلَّال خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم، المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم أعدائهم لزم سلامة كل ما جاؤوا به من الكذب والفساد.

وأعظم ما جاؤوا به: التوحيد ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به

نفسه على ألسنتهم، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد: فهو الحق المحض. وما خالفه فهو الباطل والكذب المحال.

□ □ □

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاؤوا به من كل باطل.

فقابل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد بكون السلام هنا من الله تعالى، كما هو في آخر الصافات. وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره، فمنه قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ونظائره كثيرة جداً.

وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمها انتظاماً واحداً. فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس له فيه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه، وسلم على صفوة عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك. فإذا قال الرسول: «الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى»، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد الرب به نفسه وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد: اقتداء وطاعة.

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين[(٢)].

فأمر ـ سبحانه ـ بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، فإن كون العبد

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٠ ـ ١٧٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٧).

على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد. فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فوصف الكافر بأنه ميت، وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما[2].

* * *

(١) طريق الهجرتين (٢٣٩).
(٢) شفاء العليل (١٠٤).

سُورَةُ القَصَصِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدواً وحزناً، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزناً لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون له فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون في قبضته وتحت تصرفه. فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

فهذا جعلٌ كونيٌّ قدري، أي: قدرنا ذلك وقضيناه، وجعل العبد إماماً يدعو إلى النار أبلغ من جعله يزني ويسرق ويقتل، وجعله كذلك أيضاً لفظ مجمل يراد به أنه جبره وأكرهه عليه واضطره إليه، وهذا محال في حق الرب تعالى، وكماله المقدس يأبى ذلك وصفات كماله تمنع منه كما تقدم، ويراد به أنه مكنه من ذلك وأقدره عليه من غير أن يضطره إليه ولا أكرهه ولا أجبره فهذا حق(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

---

(١) شفاء العليل (١٩١). (٢) شفاء العليل (١٣٦).

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك؛ فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعاً الذين يقولون: إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط، والذين يقولون: إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلاً بدون البعثة فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين، ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه: أنها قبيحة في نفسها ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب، فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها وفرق بين الأمرين(١).

□ □ □

وهذا يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم. ولولا قبحه لم يكن سبباً لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم. فمنذ جاء الرسول انعقد السبب، ووجد الشرط، فأصابهم سيئات ما عملوا، وعوقبوا بالأول والآخر(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠].

فقسم الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر.

والمقصود: أن الواجب على الخلق بعد وفاته هو الواجب عليهم في حياته سواء، ففرض من سمع كلامه أن يأخذ به، ومن خفي عليه قوله سأل من يعرفه، فإذا سمعه ففرض عليه أن يأخذ به فإن خفي عليه، فغاية قول غيره أن يسوغ له الأخذ به؛ فيكون سائغ الاتباع بعد خفاء السنة لا واجب الإتباع، ولا سيما مع ظهور السنة وبالله التوفيق(٣).

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٤٩). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٢، ٢٣٣).
(٣) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٢٦، ١٥٢٧).

فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول، فهو من الهوى[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله ﷺ مكة فآمنوا به فعيرهم المشركون، وقالوا: قبحتم من وفد بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم، فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل، فقالوا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(٢)].

وكان رفع (السلام) متعيناً لأنه حكاية ما قد وقع، ونصب (السلام) في آية الفرقان متعيناً لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل.

فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة، والله المحمود وحده على ما منّ به وأنعم[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله ﷻ ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد اعبدوهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

ليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨١).

(٢) ذكره ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤١٨).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٩، ١٦٠).

المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار هاهنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، فإنه لا يخلق إلا باختياره، وداخل في قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ فإن المشيئة هي الاختيار.

وإنما المراد بالاختيار هاهنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص، وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق.

وأصح القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، ويكون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفياً، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع، وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٣٩).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي: على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقاً له إذ أُعطيته. وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود (النبي) فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل: هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، يعني: أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلي به فشكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه[(١)].

ولهذا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ [القصص: ٧٨].

فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضاء الله سبحانه عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده، لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته، علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨].

قال البخاري في صحيحه: يقال: كل شيء هالك إلا وجهه: إلا ملكه، وقال: إلا ما أريد به وجهه[(٣)].

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب، لأنه سقف الجنة، والله ﷻ عليه فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا

(١) الفوائد (٢٠٠). (٢) شفاء العليل (٣٧).

(٣) رواه البخاري معلقاً (٨/ ٣٦٤) في التفسير، أول سورة القصص، والطبري (٢٠/ ١٢٧).

وَجْهَهُۥ﴾، فذلك أن الله ﷻ أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦]. وقالت الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السماوات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: كل شيء هالك ـ يعني: ميت ـ إلا وجهه لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الإصطخري ذكره أبو الحسين في (كتاب الطبقات) قال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: «هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة والمتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، خلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً.

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وبنحو هذا من متشابه القرآن؟ قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك. وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة ولا أبداً. لأن الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع، وقد ضل عن سواء السبيل. وخلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمٰن ﷻ فوق الماء، وأن الله ﷻ على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السماوات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، وما في قعر البحر ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة وعدد كل كلمة وعدد الحصى والتراب والرمل ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة ودونه حجب من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم بها.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، ونحو هذا من متشابه القرآن، فقل: إنما يعني بذلك: العلم، لأن الله ﷻ على العرش فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كله، وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) حادي الأرواح (٤٩ ـ ٥١).

سُورَةُ العَنْكبُوتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٦].

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره.

وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل. وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه.

وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق. والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم. ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإنَّ بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر عنه.

فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت،

وإما أن لا يقول بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنا، امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلي به من قال: آمنت.

فمن آمن به وبرسله فلا بد أن يبتلى من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلا بد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين.

فلا بد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها يتألمون بفقدها ابتداء ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها.

فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات. فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث، فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم وللسرور والحزن والفرح والغم، وذلك من جهتين:

من جهة تركيبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لا بد أن يبغي بعضها على بعض فيخرج عن حد الاعتدال. فيحصل الألم.

ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته، كما لم يوافقهم على مراداتهم فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك.

فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على

أمور يعلم أنها عقائد باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصاً من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر.

فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم، أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلاً أضعاف أضعاف ما فر منه. وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم، وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة. وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لا بدَّ من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

ولما كان زمن التألم والعذاب فصبره طويل فأنفاسه ساعات وساعته أيام وأيامه شهور وأعوام، سلَّى سبحانه الممتحنين فيه بأن لذلك الابتلاء أجلاً ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلاً للقائه يسليهم به ويسكِّن نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلي سبحانه وإثابته هان عليه ما هو فيه، وخف عليه حمله.

ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره، كان أتم اجتهاداً وأوفر سعياً، فقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأيضاً فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما يعود مضرته وعنته عليهم في معاشهم ومعادهم.

فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم، واقتضت حكمته أن نصب

ذلك سبباً مفضياً إلى تميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي ومن يصلح له ممن لا يصلح. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم وجيدهم من رديئهم، فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان.

ثم لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه؛ لأنه لما آمن به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به، فيصبر على هذه المحنة والفتنة ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفاً، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله. وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء، وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه وفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الله له على الإيمان بالله ورسوله، وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله.

وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهم من المفتونين المعذبين وإن فرَّ من عذاب الناس له على الإيمان.

ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نُصروا لجأ إليهم وقال: كنت معكم والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم بالغرق(١).

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

يقول تعالى: انظروا كيف بدأتُ الخلق فاعتبروا الإعادة بالابتداء(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ

(١) شفاء العليل (٢٤٥ ـ ٢٤٧). (٢) زاد المعاد (٣/ ١٣ ـ ١٨).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٩٧).

ﭐتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم، وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً، وهو أوهن البيوت وأضعفها.

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء ضِعفاً كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده.

وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم ذلك بقوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؟.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه، يفيدهم عزاً وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر،

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر[(١)].

وقد أخبر سبحانه عن أمثاله التي يضربها لعباده، يدلهم على صحة ما أخبر به، أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها.

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه بكى، ويقول: لست من العالمين[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فقيل: المعنى: أنكم في الصلاة تذكرون الله، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: هو قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء.

وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق» الحديث[(٣)].

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول: الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩). (٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥١).
(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ١٩٥)، والترمذي (٣٣٧٧).

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس: أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر.

وفي السنن عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى»(١). رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧ ـ ٤٩].

إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم.

وسواء كان المعنى: أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين.

أحدهما: أنه آيات بينات.

الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم. أو كان المعنى: أنه آيات بينات في صدورهم، أي: كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم. والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم، فتأمله(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ذكر هذا جواباً لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل لم يكن دليلاً على صدقه فضلاً عن أن يكون كافياً. والمقصود أن الله سبحانه تمم

---

(١) رواه أبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢).
(٢) الوابل الصيب (٩٤، ٩٥) دار البيان. (٣) مفتاح دار السعادة (٥٤).

الدين وأكمله بنبيه وما بعثته به فلم يحوج أمته إلى سواه، فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه لم يكن كافياً للأمة ولا كان تاماً في نفسه.

في مراسيل أبي داود: أن الرسول ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة فيها شيء من التوراة فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على نبي غير نبيهم»، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1][2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ **[العنكبوت: ٦٤]**.

والمراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وإن الآخرة يعني: الجنة لهي دار الحياة التي لا موت فيها، فقال الكلبي: هي حياة لا موت فيها.

وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة. وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى: الحياة.

قال أبو عبيدة وابن قتيبة: «الحياة: الحيوان»، قال أبو عبيدة: الحياة والحيوان الحي ـ بفتح الحاء ـ واحد.

قال أبو علي: يعني: أنها مصادر، فالحياة فعلة كالجلبة، والحيوان كالنزوان والغليان، والحي كالعي، قال العجاج:

كُنا بِها إذا الحياة حي

أي: إذا الحياة حياة، أما أبو زيد فخالفهم. وقال: الحيوان: ما فيه روح، والموتان والموات: ما لا روح فيه.

والصواب: أن الحيوان يقع على ضربين:

أحدها: مصدر كما حكاه أبو عبيدة.

والثاني: وصف كما حكاه أبو زيد على قول أبي زيد: الحيوان مثل الحي خلاف الميت.

---

(١) لم أهتد إليه بهذا اللفظ، لكن جاء هذا المعنى في أحاديث أخر بلفظ: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟...»، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ٩٥) قريب منه، في العلم، باب: ما يتقي من تفسير حديث النبي ﷺ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧) ورواه غيرهم، والحديث حسنه الألباني، كما في السنة (١/ ٢٧)، والمشكاة (١/ ٦٣) وحسنه، وفصل تخريجه في الإرواء (٦/ ٣٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٢٦، ٨٢٧).

ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان.

وأجاب من رجح القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضاً، قالوا: رجل ضميان للسريع الخفيف، وزفيان قال في الصحاح: ناقة زفيان سريعة، وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم.

فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ معنيين:

أحدهما: أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي: لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار فيكون الحيوان مصدراً على هذا.

الثاني: أن يكون المعنى: أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه[2].

❀ ❀ ❀

---

(١) حادي الأرواح (٨٧، ٨٨).

(٢) الفوائد (٥٨).

سُورَةُ الرُّومِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١ ـ ٤].

روى الترمذي في جامعه عن ابن عباس: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، لأنهم أولياؤهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر ﵁، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «أما إنهم سيغلبون»، فذكروه لهم فقالوا: اجعلوا بيننا وبينكم أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا.

فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلت إلى دون العشرة».

قال سعيد بن جبير: والبضع ما دون العشرة.

قال: ثم ظهرت الروم بعد. قال فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيات[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٤، ١٥].

قال صاحب السماع[2]: جاء في التفسير أنه السماع، ولو كان حراماً لما كان من أفضل نعيم الجنة.

---

(١) الفروسية (٤).

(٢) مناظرة بين مبيح السماع المحرم وبين صاحب القرآن المقسط.

قال صاحب القرآن: لو أمسكتم عن استدلالكم لصحة ما ذهبتم إليه؛ لكان أستر له وأروج عند من قل نصيبه من البصيرة والعلم، ولكن يأبى الله إلا أن يكشفه ويهتكه على ألسنتكم.

ولا ريب أنه قال بعض السلف[1]: إن الحبرة ههنا السماع الحسن في الجنة، وإن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع خلائق بأحسن منها، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له.

وذكر أبو نعيم في صفة الجنة[2] من حديث سعيد بن أبي مريم: حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط. إن مما يغنين: نحن الخيرات الحسان، نحن أزواج قوم كرام، ينظرون بِقُرَّةِ أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه، نحن الآمنات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنه»، تفرد به سعيد بن أبي مريم[3].

وروي من طريق الوليد بن أبي ثور: حدثني سعد الطائي عن عبد الرحمٰن بن سابط عن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: فذكر حديثاً فيه: «أنه تجتمع الحور العين في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات حسان لم يسمع الخلائق مثلهن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن، طوبى لمن كان لنا وكنا له[4].

وروي من طريق ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن عون بن الخطاب عن ابن

---

(١) وهو أحد القولين اللذين ذكرهما ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٢٧، ٢٨).

(٢) صفة الجنة (٣/ ٢٧٨).

(٣) سعيد بن أبي مريم هو «سعيد بن الحكم» ثقة ثبت فقيه من كبار العاشرة، التهذيب (٤/ ١٧، ١٨)، والحديث رواه الطبراني في الأوسط والصغير (١/ ٢٥٩، ٢٦٠)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٥٥٧).

(٤) صفة الجنة (٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» برقم (٢٢٤) من وجه آخر، والحديث ضعفه العراقي، كما في تعليقه على الإحياء (٤/ ٥٢٥)، والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (١٩٨٢).

لأنس بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحور العين يغنين في الجنة: نحن الحور الحسان خلقنا لأزواج كرام»[١].

ومن طريق يزيد بن واقد عن رجل عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة جذوعها من ذهب وفروعها من زبرجد ولؤلؤ، فتهب لها ريح فتصفق فما سمع السامعون بصوت شيء قط ألذ منه»[٢].

ومن طريق خالد بن معدان عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزامير الشيطان»[٣].

وروى الترمذي: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الرحمٰن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم يسمع الخلائق مثلها، قال: يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»[٤]. وقال: حديث غريب.

وروى الطبراني من حديث سليمان بن أبي كريمة ـ وفيه كلام ـ عن هشام بن حسان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة، قالت: قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي، مجامرهن الدرر وأمشاطهن الذهب، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ألا ونحن

(١) صححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٥٩٨)، وانظر: تخريجه مفصلاً في صفة الجنة (٣/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٢) صفة الجنة (٣/ ٢٨٢)، وقال محققه: إسناده ضعيف جداً، فيه مسلمة بن علي هو ابن خلف الخشني، ضعفه جداً غير واحد.

(٣) صفة الجنة (٣/ ٢٨٢، ٢٨٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٣) برقم (٧٤٧٨)، وحسنه الحافظ العراقي كما في الإحياء (٤/ ٥٢٦) في باب: صفة الحور العين والولدان.

(٤) رواه الترمذي (٤/ ٦٠٠) كتاب صفة الجنة، باب: ما جاء في كلام الحور العين. وقال: «غريب»، أي: ضعيف.

الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا. . .»[١] الحديث.

فيقال لكم: هل يلزم من كون الشيء ينعم الله به عباده في الآخرة أن يكون مباحاً لهم في الدنيا؟ فإن قلتم: لا يلزم ذلك؛ بطل استدلالكم. وإن قلتم: يلزم؛ قيل لكم: فالله سبحانه ينعمهم في الآخرة بلباس الحرير وأساورة الذهب فجوزوا لهم لباس ذلك في الدنيا وخالفوا دينه وأمره، وأيضاً فإن الله ﷻ ينعمهم في الجنة بالخمر، فجوزوا لهم شربها في الدنيا على طرد قولكم، وأيضاً فإنهم في الجنة يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة، وقد قال ﷺ: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[٢]، وطرد قولكم: إنها كما هي للمسلمين في الآخرة تكون مباحة لهم في الدنيا، وقد قال النبي ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[٣]. وقال في صحاف الذهب والفضة: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». فأخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا من المطعوم والملبوس وغيرهما لم يستعملها في الآخرة، فإما أن يستعملها أهل الجنة ويحرمها هو وإن دخلها، كما روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا حسن ـ يعني: ابن علي بن حسن البراد ـ عن حميد الخراط عن محمد بن كعب قال: من شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة. قال: قلت: فإنه تاب حتى أدخله الله الجنة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]. قال: ينسيهم الله ذكرها أو أن ذلك وعيد له بأنه لا يدخل الجنة.

فإن هذه الأمور يستعملها أهل الجنة فمن لم تحصل له في الآخرة لم يكن من أهل الجنة. وهما تأويلان للسلف في هذه الأحاديث.

فلو قيل: إن هذا السماع اللذيذ الموعود به في الجنة، إنما هو لمن نزه سمعه في الدنيا عن سماع الغناء والملاهي اعتباراً بنظيره من اللباس وشرب الخمر واستعمال

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٦٧) برقم (٨٧٠). وانظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٧). وفيه سليمان بن أبي كريمة «ضعيف».

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).

(٣) هذان حديثان أولهما: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة. . .»، رواه مسلم (٢٠٠٣)، والجزء الثاني: «من لبس الحرير. . . إلخ»، رواه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

آنية الذهب والفضة، لكان هذا أشبه بالصواب وأصح من استدلالكم على إباحته في الدنيا باستعمال أهل الجنة له(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

فدل بالنظير على النظير وقرب أحدهما من الآخر جداً بلفظ الإخراج، أي: يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **إلى قوله**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ [**الروم**: ٢٠ ـ ٢٥].

ونوَّع سبحانه الآيات في هذه السور، فجعل خلق السماوات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون. فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكر والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل، والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم.

وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم، كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه.

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٤٦ ـ ٢٥٥). (٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

وجعل إراءهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون. فإن هذه أمور مرئية بالإبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها.

وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت آية له، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]. فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلٰهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا مفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلُّوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه؛ ولكن غيرت الفطر وأفسدت، كما قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تُنْتَج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟ ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢٠٣، ٢٠٤). (٢) الجواب الكافي (٢٠٧).
(٣) رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا، إنه قال: كل مال نحلته عبداً فهو له حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[1]، فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره.

وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السمٰوات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره.

فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك. كما أنه الغني القادر الحي القيوم السميع البصير فهو سبحانه الإلٰه الحق المبين، والإلٰه هو الذي يستحق أن يؤله محبة وتعظيماً وخشية وخضوعاً وتذللاً وعبادة، فهو الإلٰه الحق ولو لم يخلق خلقه، وهو الإلٰه الحق ولو لم يعبدوه؛ فهو المبعود حقاً، الإلٰه حقاً المحمود حقاً.

ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يؤلِّهوه، فهو الله الذي لا إلٰه إلا هو قبل أن يخلقهم، وبعد أن خلقهم، وبعد أن يفنيهم، لم يستحدث بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاق إلٰهية وحمد؛ بل إلٰهيته وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له لحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله.

فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يعبد، وإن لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتاباً ولو لم يخلق جنة أو ناراً؛ علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه.

وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفضيله وزيادته حسناً إلى حسنه.

فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا، وتوافقا وظهر أنهما من مشكاة واحدة؛ فعبدوه وأحبوه ومجَّدوه وحمدوه بداعي الفطر وداعي الشرع وداعي العقل، فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة، ودعتهم إلى وليهم وإلٰههم وفاطرهم، فأقبلوا إليه

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريباً وشكاً، ولا أَمْرَهُ شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه، فأجابوا دواعي المحبة والطاعة إذ نادت بهم: حي على الفلاح، وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل أخي السماح، وحمدوا عند الوصول إليه مسراهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح، فدينهم دين الحب وهو الدين الذي لا إكراه فيه، وسيرهم سير المحبين وهو الذي لا وقفة تعتريه[(١)].

□ □ □

وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وهذا يعم جميع الناس، فعلم أن الله سبحانه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وأيضاً فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم؛ فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة كدين الله وبيته وناقته، وأيضاً فإنه قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وأيضاً فإن هذا تفسير السلف، قال ابن جرير: يقول: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك الله يا محمد لطاعته، وهي الدين ﴿حَنِيفًا﴾ يقول: مستقيماً لدينه وطاعته ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها، ونصب فطرة على المصدر من معنى قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ لأن المعنى: فطر الله الناس على ذلك فطرة.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يقول: لا تغيير لدين الله، أي: لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يفعل، قال ابن نجيح: عن مجاهد ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله، ثم ذكر أن مجاهداً أرسل إلى عكرمة يسأله عن قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، قال: هو الخصا، فقال مجاهد: أخطأ، لا تبديل لخلق الله، إنما هو الدين ثم قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، وروي عن عكرمة: لا تبديل لخلق الله قال: لدين الله، وهو قول سعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وابن زيد.

وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد: هو الخصا[(٢)] ولا منافاة بين القولين، كما قال تعالى: ﴿وَلَأُمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأُمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]. فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصا وقطع آذان

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٢١ ـ ٤٢٣).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٢١/ ٤٠ ـ ٤٢)، وقد حاولت ضبط المنقول منه بقدر استطاعتي.

الأنعام تغيير لخلقه أيضاً، ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر، فأولئك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلقة، فذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

نزِّلْ هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات آخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض.

وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً؛ أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم.

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم، وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة ذكرها في «مسنده» على أثر حديث رواه.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكماً قسطاً وقضاء عدلاً.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل»، وكذلك سلط الله ﷻ الريح على قوم(٢) سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة.

وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سبباً لمنع الغيث من

(١) شفاء العليل (٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

السماء والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين وتعدي القوي على الضعيف سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها؛ فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزاً؛ لتحق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له.

والعاقل يُسَيِّرُ بصيرته بين أقطار العالم؛ فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، وبالله التوفيق[(١)].

□ □ □

قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد؛ فيحبس الله بذلك القطر؛ فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ثم قال: أما والله ما هو بَحركم هذا؛ ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر.

وقال عكرمة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء. وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف.

وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها، فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول، فالمراد بالفساد: النقص والشر، والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة. كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الفساد المراد به:

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).

الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، فهذا حالنا وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فهذا حق أحقه على نفسه فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على[٢].

* * *

(١) الجواب الكافي (٨٩، ٩٠).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٢).

سُورَةُ لُقْمَان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦، ٧].

قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير، ومقسم عنه، وقاله عبد الله بن مسعود في رواية أبي الصهباء عنه، وهو قول مجاهد وعكرمة.

وروى ثور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، قال: هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلاً ونهاراً.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: «هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل، وهذا قول مكحول، وهذا اختيار أبي إسحاق أيضاً.

وقال: أكثر ما جاء في التفسير: أن لهو الحديث ههنا هو الغناء؛ لأنه يلهي عن ذكر الله تعالى. قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في كل من اختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال والاختيار وهو كثير في القرآن. قال: ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية: لعله أن لا يكون أنفق مالاً، قال: وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق.

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء. ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة بإعلان الغناء.

قال: وأما غناء القينات: فذلك أشد ما في الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه، وهو ما روي: أن النبي ﷺ قال: «ومن استمع إلى قنية صب في أذنيه الآنك

يوم القيامة»[(١)] . الآنك: الرصاص المذاب.

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

ففي مسند الإمام أحمد ومسند عبد الله بن الزبير الحميدي وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة والسياق للترمذي: أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهم حرام»، في مثل هذا نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد بن زحر عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زَحْر ثقة، والقاسم ثقة وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله تعالى، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه: الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود، قال أبو الصهباء: سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾؟ فقال: والله الذي لا إله غيره، هو الغناء ـ يرددها ثلاث مرات.

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً أنه: الغناء. قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتاب المستدرك: ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند[(٢)] .

وقال في موضع آخر من كتابه: هو عندنا في حكم المرفوع. وهذا وإن كان فيه نظر فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه. فعليهم نُزل وهم أول من خوطب به من الأمة. وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علماً وعملاً، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل.

ولا تعارض بين تفسير ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث[(٣)] يحدث به أهل مكة يشغلهم به عن القرآن. فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: لهو الحديث: الباطل والغناء.

فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر ومنهم من جمعهما.

---

(١) قال الألباني: «موضوع» رواه ابن عساكر. ضعيف الجامع رقم (٥٤١٨).

(٢) المستدرك للحاكم (٢/٢٥٨) في التفسير، سورة الفاتحة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/٣١٩، ٣٢٠).

والغناء أشد لهواً وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم؛ فإنه رقية الزنا ومنبت النفاق، وشرك الشيطان، وخمرة العقل، وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل؛ لشدة ميل النفوس إليه، ورغبتها فيه.

إذا عرف هذا. فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه. فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبراً كأن لم يسمعه كأن في أذنيه وقراً، وهو: الثِّقل والصمم. وإذا علم منه شيئاً استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم.

يوضحه: أنك لا تجد أحداً غنى بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى، علماً وعملاً، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ، ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيب وافر من هذا الذم إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها؛ فأما من مات قلبه وعظمت فتنته، فقد سد على نفسه طريق النصيحة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١][1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ **[لقمان: ٨].**

هذا أيضاً اسم جامع لجميع الجنات؛ لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن[2].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٣٨ ـ ٢٤١).

(٢) حادي الأرواح (٨٩).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك، فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك؛ كانت إلٰهيتها باطلاً ومحالاً[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥].

وكل من الصحابة منيب إلى الله؛ فيجب اتباع سبيله وأقواله، واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم، وقد قال: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣][(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر. والشيخ[(٣)] دائماً يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور، وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ﴾.

فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٥). (٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٦٣).

(٣) يعني: الشيخ الجليل قدوة العارفين شيخ الإسلام وسلطان المشايخ، وسيد الطريقة في وقته، محيي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلي، صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف، الحنبلي رحمه الله تعالى. وكلامه هذا في كتابه «فتوح المعارف». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٣٩)، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).

(٤) عدة الصابرين (٢٩).

فأمر لقمان ابنه أن يغض من صوته وأن يقصد في مشيه، كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، وأصحاب السماع لا هذا ولا هذا ولا هذا؛ بل إطلاق البصر ورفع الأصوات والرقص[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[لقمان: ٢٧]**.

ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مداداً، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً، وجميع أشجار الأرض أقلاماً. وهو ما قام منها على ساق من النبات والأشجار المثمرة وغير المثمرة وتستمد بذلك المداد؛ لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

فأين هذا مِنْ وَصْفِ مَنْ يصفُه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد لا ينقضي، ولا يتجزأ، ولا له بعض ولا كل، ولا هو سور وآيات، ولا حروف وكلمات؟[2].

* * *

---

(١) الكلام في مسألة السماع (٣٥٤). (٢) المنار المنيف (٣٧، ٣٨).

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢].

فجعل سبحانه من أعظم أدلة صدقه نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب التي هي أصل مطالب بني آدم وأجل معارفهم وعلومهم على الإطلاق، فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل؛ لكان فيه أعظم الريب ولا اطمأنت به القلوب ولا ثلجت به الصدور[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٤ ـ ٦].

وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين. فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين: بقدم العالم، وأنه لم يزل، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازماً لذاته أزلاً وأبداً غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستوياً على عرشه، ولا

(١) الصواعق المرسلة (١١٧).

ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه، ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عياناً بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: «اللهم اشهد»[(١)].

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في: أن الله ﷻ فوق كل شيء وأنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرَّة الأعين في الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾».

وفي لفظ آخر فيهما: «يقول الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً بَلْه ما أطلعتكم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ الآية[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٦٧٠) في الحج، باب: الخطبة أيام منى. ومسلم (٤/ ٢٤٩) في القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء...
(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٨).
(٣) رواه البخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤).

وفي بعض طرق البخاري: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت مع النبي ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ(١) مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس، على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن؛ لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر: أن له فيه عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا؛ فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمّله(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات(٤).

* * *

(١) رواه مسلم (٢٨٢٥).
(٢) حادي الأرواح (٢٢٣).
(٣) الروح (٧٥، ٧٦).
(٤) زاد المعاد (٣/ ١٠).

سُورَةُ الأَحْزَابِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ ـ ٣].

أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه، محبة له وخشية ورجاء فإن التقوى لا تتم إلا بذلك، واتباع ما أوحي إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصة، وبالتوكل عليه. وهو يتضمن اعتماد القلب عليه وحده وثقته به وسكونه إليه دون غيره، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

فأنت تجد تحت هذه اللفظ: أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد. فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه؛ وإلا انصرف ذلك إلى غيره. ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب.

وقد اختلف الناس في هذه المسألة، فقالت طائفة: ليس للقلب إلا وجهة واحدة إذا توجه إليها لم يمكنه التوجه إلى غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً فلا يكون فيه حبان. وكان الشيخ إبراهيم الرَّقي رحمه الله يميل إلى هذا.

وقال طائفة: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجه إلى أحدهما ولا يشغله عن توجهه إلى الآخر، قالوا: والقلب حمال، فما حملته تحمل، فإذا حملته الأثقال حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده، ولا يشغله واحد من ذلك عن الآخر.

فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجه في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال من يصلي خلفه، «وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يشق على أمه»(١). أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأمرين؟ ولا يظن أن هذا من خصائص النبوة، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آن واحد، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه.

قالوا: وكمال العبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته، فلا يشغله أحد الأمرين عن الآخر.

قالوا: وهذا موجود في الشاهد، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده؛ فإن قلبه يتسع لمراعاة عمله وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له، بل هذا شأن كل محب يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته.

قالوا: وهذا رسول الله ﷺ: «بكى يوم موت ابنه إبراهيم»(٢)، فكان بكاؤه رحمة له، فاتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله، ولم يشغله أحدهما عن الآخر، ولكن الفُضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضحك، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله ﷻ قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه.

ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله ﷺ حينئذ تفاوتاً لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ.

ونظير هذا اتساع قلب رسول الله ﷺ لغناء الجويريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة ﵂(٣)؛ فلم يشغله ذلك عن ربه، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوعت ببذل ما عليها من الحق، ولم يتسع قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره، وكم بين من ترد عليه الواردات، فكل منها يثير همته ويحرك قلبه إلى الله، كما قال القائل:

يذكرنيك الخير والشر والذي ... أخاف وأرجو والذي أتوقع

ومن يرد عليه من الواردات فيشغله عن الله، ويقطعه عن سير قلبه إليه. فالقلب

---

(١) رواه البخاري (٧٠٨)، ومسلم (٤٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٣) رواه البخاري (٩٥٢)، ومسلم (٨٩٢).

الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالقفار والجبال والخلوات، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله، فإن لم يسر معه سار هو وتركه، ولا ينكر هذا، فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا في المغني إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ أكبادهم وكثافة طبعهم. وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى له قوته وحجته.

والتحقيق: أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالَم ربان متكافئان مستقلان، فليس الذي يحب لذاته إلا الإلٰه الحق الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير بذاته إليه وأما ما يحب لأجله سبحانه فيتعدد. ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه ولا يشركه معه في الحب. فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته وأحبهن إليه عائشة رضي الله عنها، وكان يحب أباها ويحب عمر رضي الله عنه. وكان يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم، ومع هذا فحبه كله لله، وقوى حبه جميعها منصرفة إليه سبحانه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم، وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

(١) روضة المحبين (٢٧٢ ـ ٢٧٥).

فيا عجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد.

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد بالصحة قَبِلَه، وإن شهد له بالبطلان رده. وإن لم تتبين شهادته له بصحة ولا ببطلان، جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به؟.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الخلق إليه من كل جهة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سئل الصادقون وحُوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟ قال مقاتل: يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين ـ يعني: النبيين ـ عن تبليغ الرسالة. وقال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعني: هل بلغوا عنهم، كما يسأل الرسل هل بلغوا عن الله تعالى.

والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود، وعن العبادة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

الزيغ: يوصف به القلب والبصر.

---

(١) الرسالة التبوكية (٣٨، ٣٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٨٣، ٨٤).

قال قتادة ومقاتل: شخصتْ فرقاً، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرف، ومنه شخص بصر الميت.

ولما مالت الأبصار عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب، اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه وشخصت بالنظر إلى الأحزاب.

وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم.

وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعباً، شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه؛ فإنه فر من الموت لما كان يسوءه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم يعلمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه، وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن؛ فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهْنَؤه وعلى مخلفه وزره.

وكذلك من رفَّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله؛ أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى. واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فسَّاق ذريته، وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلٰهاً واحداً سبحانه ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

---

(١) شفاء العليل (١٠٠).

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله أو يبذل ماله في مرضاته أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لا بد أن يذل لمن لا يسوى ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته؛ عقوبة له كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته، أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠ ـ ٣١].

وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها، فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح.

وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٣).

وأمرهن أن لا يلن في كلامهن كما تلين المرأة المعطية الليان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يغشن في القول بحيث يلتحق بالفحش؛ بل يقلن قولاً معروفاً(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٤، ١٩٥).
(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٠٩).
(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٤).
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٤).

ذلك؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً[(١)].

□ □ □

فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان.

وقد حكى الشافعي ﷺ إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، على أن «من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه.

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياذاً بالله من الخذلان[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ **[الأحزاب: ٣٧]**.

زعم بعض من لم يقدّر رسول الله ﷺ حق قدره، أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش وأنه رآها فقال: «سبحان مقلب القلوب»[(٣)]، وأخذت بقلبه وجعل يقول لزيد بن حارثة: أمسكها.

فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة. وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٦). (٢) الرسالة التبوكية (٤٤، ٤٥).

(٣) هذا من أبطل الباطل الذي جنته أيدي الضعفاء والمجروحين، فهذا مما رواه الواقدي، محمد بن عمر، وهو وإن كان من أوعية العلم لكنه مع هذا قد انعقد الإجماع على عدم الاحتجاج به، كما في سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٦٩). وروى عنه ذلك ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٠١، ١٠٢). والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥) وغيرهما. والأنبياء عليهم من الله تعالى أزكى صلاة وأطيب سلام معصومون من الذنوب، فينبغي عدم الكلام عليهم إلا بما ورد عنهم عن الله تعالى أو صح من حديث دون زيادة أو نقصان، وهذا مما لا ينبغي الخوض فيه لمنزلة هؤلاء الكرام سادة العالمين. انظر: ما قاله ابن العربي رحمه الله في أحكامه (٣/ ١٥٤٢). وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٨٣، ٣٨٤).

وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه.

فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ(١) قد تبناه، وكان يُدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفُّع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس: إنه تزوج امرأة ابنه لأن زيداً كان يدعى ابنه، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له.

ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج مما أحله له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زوَّجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها؛ لتقتدي أمته به في ذلك ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال في هذه السورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٤].

فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب؛ بل صح أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»(٢)، وفي لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمٰن»(٣)(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

والأصيل: قال الجوهري: هو الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أصل وآصال وأصائل(٥).

(١) انظر: البخاري (٨/٣٨٣) في التفسير، باب: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ...﴾ الآية.
(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢). (٣) زاد المعاد (٤/٢٦٦، ٢٦٧).
(٤) رواه مسلم، (٢٣٨٣). (٥) الوابل الصيب (١٢٧).

إن الذكر يوجب صلاة الله ﷻ وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]. فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم، وأي شر لم يندفع عنهم؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله! وبالله التوفيق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ **[الأحزاب: ٤٣].**

صلاة الله سبحانه على عباده نوعان: عامة، وخاصة.

أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾. ومنه دعاء النبي ﷺ بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله(٢): «اللهم صل على آل أبي أوفى». وفي حديث آخر(٣): «أن امرأة قالت له: صلّ علي وعلى زوجي، قال: صلى الله عليك وعلى زوجك».

النوع الثاني صلاته **الخاصة**: على أنبيائه ورسله، خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال:

أحدها: إنها رحمة.

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٢) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٣) حديث صحيح: رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/ ٣٩٨)، و(٣/ ٣٠٣)، وأبو داود (٤/ ٣٩٣) في الصلاة، الصلاة على غير النبي ﷺ، والدارمي (١/ ٢٨) في المقدمة، باب: ما أكرم به النبي ﷺ في بركة طعامه، وابن حبان برقم (١٩٥٠) الموارد، وأبو يعلى (٤/ ٥٩)، وابن حبان (٥/ ٤٨٤) كلهم من طريق: «نبيح العنزي» وهو ثقة، وثقه الترمذي (٤/ ١٨٧) حديث رقم (١٧١٧)، والعجلي برقم (١٦٨٢)، ص(٤٤٨)، وابن حبان في الثقات (٥/ ٤٨٤)، ونقل ابن حجر تصحيح حديثه عن الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم. تهذيب التهذيب (١٠/ ٤١٧).

قال إسماعيل[1]: حدثنا نصر بن علي قال: حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك قال: «صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء».

وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رحمة[2]، واستدعاء الرحمة من الله.

وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: إن صلاة الله مغفرته.

قال إسماعيل[3]: حدثنا محمد بن أبي بكر: حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾، قال: «صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء».

وهذا القول هو من جنس الذي قبله. وهما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته. فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما. هذا أصل العطف.

وأما قولهم:

وأَلْفَى قَوْلَها كَذِباً ومَيْناً

فهو شاذ نادر، لا يحمل عليه أفصح الكلام، مع أن المين أخص من الكذب.

الوجه الثاني: أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمرتها.

فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمراتها ومقصودها. وهذا كثيراً ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن.

والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلوازمها وجزء معناها، كتفسير الريب بالشك، والشك

(١) رواه القاضي إسماعيل «في فضل الصلاة على النبي ﷺ»، ص(٨٠) برقم (٩٦)، وقال محققه الشيخ الألباني: «إسناده موقوف ضعيف جداً، جويبر هو ابن سعيد الأزدي»، قال الحافظ في التقريب: «ضعيف جداً» (١/ ١٣٦).

(٢) هكذا في الطبعة المنيرية، والمحمدية، وفي طبعة «دار التراث: رِقّة»، ص(١٢٢).

(٣) إسناده ضعيف مثل رقم (٢) السابق.

جزء مُسمَّى الريب، وتفسير المغفرة بالستر، وهو جزء مُسمَّى المغفرة. وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة. ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين، واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال، سنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى. فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى: الرحمة، لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها، إذا قال: اللهم ارحم محمداً، وآل محمد. وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره، ورقّ عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه: صلى عليه. ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه، فيجد في قلبه له رحمة، ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لا بد فيها من كلام. فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه، وتنويه به وإشادة لمحاسنه وما فيه، وذكره. ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال[(١)]: «صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة».

وقال إسماعيل في كتابه[(٢)]: حدثنا نصر بن علي، قال: حدثنا خالد بن يزيد، عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال: صلاة الله ﷻ ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء».

الوجه الثامن: أن الله سبحانه فرّق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعها في فعل واحد. فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾. وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه سبحانه، وثناء ملائكته عليه.

---

(١) ذكره البخاري معلقاً عنه (٨/ ٣٩٢)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم...، وانظر: الدر المنثور (٦/ ٦٤٦)، وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ، وقال المحقق فضيلة الشيخ الألباني: «إسناده موقوف حسن، رجاله ثقات غير أبي جعفر وهو الرازي اختلف في اسمه، وفيه ضعف لسوء حفظه، فمثله إنما يتقى من حديثه ما كان مرفوعاً، وأما كان منه موقوفاً كهذا فلا بأس به إن شاء الله تعالى...»، ص(٨٠) رقم (٩٥)، وراجع: رقم (١) السابق.

ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك، ويجوز أن يستعمل في معنييه معاً، لأن في ذلك محاذير متعددة.

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد، كما نص على ذلك أئمة اللغة: منهم المبرد وغيره. وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقياً، بسبب تعدد الواضعين ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه، لا بطريق الحقيقة، ولا بطريق المجاز، وما حكي عن الشافعي ﷺ من تجويزه ذلك فليس بصحيح عنه. وإنما أخذ من قوله: إذا أوصى لمواليه، وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم. فظن من ظن أن لفظ المولى مشترك بينهما، وأنه عند التجرد يحمل عليهما. وهذا ليس بصحيح، فإن لفظ المولى من الألفاظ المتواطئة، فالشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ. وهو عنده عام متواطئ لا مشترك.

وأما ما حكي عن الشافعي ﷺ أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]. قد قيل له: وقد يراد بالملامسة المجامعة. قال: هي محمولة على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازاً. فهذا لا يصح عن الشافعي، ولا هو من جنس المألوف من كلامه، وإنما هذا من كلام بعض الفقهاء المتأخرين. وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً في بضعة عشر دليلاً في مسألة «القرء» من كتاب «التعليق على الأحكام»[1].

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن الصلاة في الآية مشتركاً محمولاً على معنييه، بل يكون مستعملاً في معنى واحد. وهذا هو الأصل في الألفاظ[2].

* * *

(١) قال فضيلة الشيخ «بكر أبو زيد» حفظه الله تعالى: «لم أر من ذكره من مترجمين سوى ما جاء في مقدمة شرح النونية لابن عيسى. .»، التقريب لفقه ابن قيم الجوزية (١/١٩٣).

(٢) جلاء الأفهام (٨١ ـ ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

يحتمل أن تكون الهبة شرطاً، ويكون فعل الإرادة جواباً له، ويكون التقدير: إن وهبت نفسها للنبي، فإن أراد النبي أن يستنكحها فخالصة له، ويحتمل أن تكون الإرادة شرطاً والهبة جواباً له، والتقدير: إن أراد النبي أن يستنكحها فإن وهبت نفسها، فهي خالصة له يحتمل الأمرين. فهذا ما ظهر لي من التفصيل في هذه المسألة وتحقيقها، والله أعلم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦][(٢)].

إن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقبَ إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه، والمعنى: أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله، فصلوا أنتم عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً، لما نالكم ببركة رسالته ويُمنِ سِفارته من خير شرف الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم: أنه لو عبر عن هذا المعنى بـ«الرحمة» لم يحسن موقعه، ولم يحسن النظم، فينتقض اللفظ والمعنى، فإن التقدير يصير إلى: أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه، فادعوا أنتم له وسلموا.

وهذا ليس مراد الآية قطعاً، بل الصلاة المأمور بها فيها، هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه، وإظهار لفضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، فهي تتضمن الخبر والطلب.

وسُميَ هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه، لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه، والإشارة بذكر شرفه وفضله، والإرادة والمحبة كذلك من الله تعالى، فقد تضمنت الخبر والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سُميَ منا صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلي عليه، فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٠).

(٢) سبق شرح معنى: «صلاة الله على النبي ﷺ» عند شرح الآية (٤٣) من هذه السورة.

وإذا ثبت هذا، فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي الرحمة، لم يصحَّ أن يقال لطالبها من الله: مصلياً، وإنما يقال له: مسترحماً له[١].

والفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ كثيرة:

منها: امتثال أمر الله تعالى.

ومنها: موافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف كما تقدم.

ومنها: حصولُ عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

ومنها: أنه يرفع عشر درجات، ويكتب له عشر حسنات، ويمحىٰ عنه عشر سيئات.

ومنها: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامَه.

ومنها: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له، أو أفردها.

ومنها: أنها سبب لغفران الذنوب.

ومنها: أنها سبب لكفاية الله العبدَ ما أهمَّه.

ومنها: أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

ومنها: أنها سبب لرد النبي ﷺ الصلاة والسلام على المصلي والمسلَّم عليه.

ومنها: أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب، واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه له وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه.

ومنها: أنها متضمنة لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله وذكر رسوله، وسؤاله: أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

---

(١) جلاء الأفهام (١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) جلاء الأفهام (٣٣٥ ـ ٣٤٣) باختصار.

وليس أذاه سبحانه من جنس الأذى الحاصل للمخلوقين، كما أن سخطه وغضبه وكراهته ليست من جنس ما للمخلوقين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق(٢).

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٥٠، ١٤٥١).

(٢) الرسالة التبوكية (٥٥، ٥٦).

سُورَةُ سَبَأ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١، ٢].

وأما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ، ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبداً، فإنه حمد يستحقه لذاته وكمال أوصافه وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبداً.

وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه وكمال من حمده وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً، والحمد بلا ملك يستلزم عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم.

فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفاً بحمدٍ قبله وحمدٍ بعده، ثم عقب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تعلق بمراد إلا لحكمة بالغة وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق

ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة.

فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها.

فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه، ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما: الرحمة والمغفرة، فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته. فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾. فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمه ومغفرته، وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

ومن الثاني: والله عليم حليم فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك. فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم.

وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير. ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وهذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضاً للعقل ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك. فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده. فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه.

فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها؛ ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له. ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن(٢).

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؛ وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فهو الذي يأذن للشافع فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٥٠).　(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

إن الله سبحانه إذا تكلم بالوحي صعقت الملائكة، وأخذهم شبه الغشي من تكلم الرب جل جلاله. فإذا كشف الفزع عن قلوبهم وخلي عنها، وأفاقوا من ذلك الغشي، قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيستخبر كل أهل سماء من يليهم. حتى ينتهي الأمر إلى أهل السماء السابعة، فيسألون جبريل: يا جبريل، ماذا قال ربنا؟ فيقول: قال الحق. وهو العلي الكبير[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [سبأ: ٢٤].

هل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]، وبين قوله في سورة سبأ؟

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقاً.

فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم. إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾، أي: لا بد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية، إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لا سيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر،

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦١).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣١٤).

فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه. وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره، فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، هو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره.

وأما الآية التي في سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾، ولم يقل: سيقولون: الله. فأمر نبيه ﷺ أن يجيب بأن ذلك: هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

فمن آمن، ليس داخلاً في الأموال والأولاد، ولكنه من الكلام المحمول على المعنى، لأنه تعالى أخبر أن أموال العباد وأولادهم لا تقربهم إليه، وذلك يتضمن أن أربابها ليسوا هم من المقربين إليه، فاستثنى منهم من آمن وعمل صالحاً، أي: لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحاً، سواء كان له مال وولد أو لم يكن له، والانقطاع فيه أظهر، فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير (لكن) هاهنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء.

---

(١) بدائع الفوائد (١/١١٧، ١١٨).

وإذا تأملت الكلام العربي رأيت كثيراً منه وارداً على المعنى لوضوحه، فلو ورد على قياس اللفظ مع وضوح المعنى لكان عياً.

وبهذه القاعدة تزول عنك إشكالات كثيرة، ولا تحتاج إلى تكلف التقديرات التي إنما عدل عنها المتكلم لما في ذكرها من التكلف، فقدر المتكلفون لنطقه ما فر منه وألزموه بما رغب عنه، وهذا كثير في تقديرات النحاة التي لا تخطر ببال المتكلم أصلاً، ولا تقع في تراكيب الفصحاء ولو سمعوها لاستهجنوها[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق والصواب حالتان:

إحداهما: أن يكون مناظراً مع الله.

والثانية: أن يكون مناظراً لغيره.

أمرهم بخصلة واحدة وهي: أن يقوموا لله اثنين اثنين فيتناظران، ويتساءلان بينهما، وواحداً واحداً، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه، ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال، فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف المبين والنصح التام[2].

فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة، وفرادى إلى النظر والتفكر، وكل منهما ينقسم إلى محمود ومذموم، فالنظر المحمود؛ النظر في الطريق الصحيح ليتوصل به إلى معرفة الحق، والنظر المذموم نوعان:

أحدهما: النظر في الطريق الباطل وإن قصد به التوصل إلى الحق، فإن الطريق الباطل لا يفضي إلى الحق.

والثاني: النظر والتفكر الذي يقصد به رد قول خصمه مطلقاً حقاً كان أو باطلاً، فهو ينظر نظراً يرد به قول من يبغضه ويعاديه بأي وجه كان.

فأما المناظرة فتقسم إلى: محمودة ومذمومة، والمحمودة نوعان، والمذمومة نوعان، وبيان ذلك: أن المناظر إما أن يكون عالماً بالحق، وإما أن يكون طالباً له، وإما أن لا يكون عالماً به ولا طالباً له، وهذا الثالث هو المذموم، وأما الأولان

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧١، ٧٢).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٢).

فمن كان عالماً بالحق فمناظرته التي تحمد أن يبين لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشداً طالباً للحق، أو تقطعه أو تكسره إن كان معانداً غير طالب للحق، ولا متبع له أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق إن كان يظن أنه على الحق وقصده الحق[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

فهذا نص صريح في أن هدي الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحي، فيا عجباً! كيف يحصل الهدى بغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان؟ وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى، والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين[٢].

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٥، ١٢٧٦). (٢) الرسالة التبوكية (٥٤).

سُورَةُ فَاطِرٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

الجمال الظاهر زينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة.

والقلوب كالمطبوعة على محبته، كما هي مفطورة على استحسانه، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قالوا: يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون نعله حسنة وثوبه حسناً، فذلك من الكبر؟ قال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَر الحق وغمط الناس»[1]؟

فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس: النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم، ولا بأس بهذا إذا كان لله، وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراء واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده، فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أي: فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

---

(١) رواه مسلم (٩١).
(٢) روضة المحبين (٢٣٧).
(٣) زاد المعاد (٦/٣).

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميتُ القلوبَ وقد يورث الذل إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب وخير لنفسك عصيانُها
وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانها(١)

فمن كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

بيّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه. وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلّة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له.

والمقصود: أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقة أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً(٢).

---

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٨١). (٢) طريق الهجرتين (٨).

وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه أحد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

فجعل من اهتدى بهداه، واستنار بنوره بصيراً حياً في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيراً بنوره، والآخر أعمى ميتاً في حر الكفر والشرك والضلال منغمساً في الظلمات(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية، حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع، فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه. وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس، فإنها كانت عن علم لا عن جهل وبقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾

---

(١) الروح (١٥٠). (٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٤).

[البقرة: ١٤٦]، يعني: القرآن أو محمداً ﷺ، وقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، والجحود إنكار الحق بعد معرفته، وهذا كثير في القرآن.

قيل: حجج الله لا تتناقض بل كلها حق يصدق بعضها بعضاً، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء، وقد أقرَّ به وبرسالته وبأنه حرم ذلك وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟

وقد سمى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم. فقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة، وعلموا أنه صادق، وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالجاهلون هنا الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل، بل يثبت له العلم وينفى عنه في موضع واحد، كما قال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت لهم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار وهذا نكتة المسألة وسرّ الجواب، فما دخل النار إلا عالم ولا دخلها إلا جاهل.

وهذا العلم لا يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد، يوضحه أن الهوى والغفلة والإعراض تصد عن كماله واستحضاره ومعرفة موجبه على التفصيل، وتقيم لصاحبه شبهاً وتأويلات تعارضه فلا يزال المقتضى يضعف، والعارض يعمل عمله حتى كأنه لم يكن، ويصير صاحبه بمنزلة الجاهل من كل وجه.

فلو علم إبليس أن تركه للسجود لآدم يبلغ به ما بلغ، وأنه يوجب له أعظم العقوبة وتيقن ذلك لم يتركه، ولكن حال الله بينه وبين هذا العلم ليقضي أمره، وينفذ قضاؤه وقدره، ولو ظن آدم وحواء أنهما إذا أكلا من الشجرة خرجا من الجنة وجرى عليهما ما جرى، ما قرباها، ولو علم أعداء الرسل تفاصيل ما يجري عليهم وما يصيبهم يوم القيامة وجزموا بذلك لما عادوهم.

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]. وقال: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾

[سبأ: ٥٤]، وقال عن المنافقين وقد شاهدوا آيات الرسول وبراهين صدقه عياناً: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤] وقال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. وهو مرض الشك ولو كان هذا لعدم العلم الذي تقوم به الحجة عليهم، لما كانوا في الدرك الأسفل من النار، بل هذا بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الذي لم ينفعهم، فالعلم يضعف قطعاً بالغفلة والإعراض واتباع الهوى وإيثار الشهوات.

وهذه الأمور توجب شبهات وتأويلات تضاده.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أسرار القدر والشرع والعدل. فالعلم يراد به العلم التام المستلزم لأثره، ويراد به المقتضى، وإن لم يتم بوجود شروطه وانتفاء موانعه، فالثاني يجامع الجهل دون الأول، فتبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم.

وإن كان كذلك فعدم العلم ليس أمراً وجودياً، بل هو لعدم السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والعدم ليس شيئاً حتى يستدعي فاعلاً مؤثراً فيه، بل يكفي فيه عدم مشيئة ضده، وعدم السبب الموجب لضده والعدم المحض لا يضاف إلى الله، فإنه شر والشر ليس إليه، فإذا انتفى هذا الجازم عن العبد، ونفسه بطبعها متحركة مريدة وذلك من لوازم شأنها، تحركت بمقتضى الطبع والشهوة وغلب ذلك فيها على داعي العلم والمعرفة فوقعت في أسباب الشر ولا بد[1].

□ □ □

ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته، قال النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[2][3].

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

(١) شفاء العليل (١٧٢، ١٧٣). (٢) مدارج السالكين (١/١٣٦، ١٣٧).
(٣) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [فاطر: ٣٢ ـ ٣٣].

[السائرون] إلى الله، وإلى دار السلام ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات: همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل. فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسراناً بيناً أن يمر عليه وقت في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه، فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة.

فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب.

فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة

مُيزَ ربحه من خسرانه، وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله.

وأما المقتصدون، فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم. فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام، والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلاً بها قائماً بأعيانها مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول.

فهو كذلك سائر يومه. فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقربون.

وهؤلاء الأصناف الثلاثة: هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون، وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمناً عند الإطلاق، وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

□ □ □

وقد اختلف في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ الآية. هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم؟ على قولين:

فذهبت طائفة إلى أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة، وهذا يروى عن ابن مسعود وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين.

قال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج(١).

قال أبو داود الطائي: أنبأنا الصلت بن دينار حدثنا عقبة بن صبهان الهنائي،

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٤).

قال: سألت عائشة عن قول الله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾. فقالت لي: يا بني، كل هؤلاء في الجنة، فأما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به. وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك قال: فجعلت نفسها معنا[1].

وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله: ما هؤلاء؟ وهو أعلم بهم، فتقول الملائكة: هم مذنبون، إلا أنهم لم يشركوا. فيقول الله: أدخلوهم في سعة رحمتي[2]. وقال كعب: تحاذت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم.

وقال الحسن: السابقون من رجحت حسناتهم، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم من خفت موازينه.

واحتجت هذه الفرقة بأنه سبحانه سمى الكل «مصطفين»، وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد، ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفين، لأن الاصطفاء هو الاختيار، وهو الافتعال من صفوة الشيء وهو خياره، فعلم أن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق، وبعضهم خيرٌ من بعض: فسابقهم مصطفى عليهم، ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم، ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك.

وقالت طائفة: بل الوعد بالجنات إنما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه، فإن الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق، والظالم لنفسه هنا هو الكافر، والمقتصد المؤمن العاصي، والسابق المؤمن التقي.

وهذا يروى عن عكرمة والحسن وقتادة، وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم: صاحب الكشاف[3]، ومنذر بن سعيد في تفسيره، والرماني، وغيرهم.

قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم، وهي نظير قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [الواقعة: ٧ ـ ١٠].

قالوا: فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة الظالمون لأنفسهم، والسابقون السابقون هم السابقون بالخيرات. قالوا: ولم يصطف الله من خلقه ظالماً

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٠٩). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٦).
(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٣٤). (٣) الكشاف (٣/ ٣٧٥).

لنفسه، بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين، ويتناولهم فعل الاصطفاء؟

قلت: روي من حديث معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال: «هم أمة محمد، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»(١).

وروي من حديث عثمان بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، حدثنا عمران بن محمد بن أبي ليلى، حدثنا أبي عن الحكم عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن البراء بن عازب ـ أو عن رجل عن البراء بن عازب ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله»، قال: «كلهم ناج وهي هذه الأمة»(٢).

ورواه الفريابي: حدثنا سفيان عن أبي ليلى عن الحكم عن رجل حدثه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية قال: «كل ناج»(٣).

وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا أبو فضالة عن الأزهري عبد الله الخزاز، حدثنا من سمع عثمان بن عفان يقول: ألا إن سابقنا أهل جهادنا، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا(٤).

وقد تقدم حديث عائشة وأبي الدرداء وحذيفة، قالوا: فهذه الآثار يشد بعضها بعضاً، وأنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها، وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلا تعدل عنها(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

---

(١) ورواه الطبري (٢٢/ ١٣٣). وهذا منقطع؛ لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما ولم يره.

(٢) ورواه الفريابي وابن مردويه كما في الدر المنثور (٧/ ٢٥)، ومحمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى سيء الحفظ.

(٣) انظر: الحديث السابق.

(٤) ضعيف؛ للإبهام وحال محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى كما تقدم.

(٥) طريق الهجرتين (١٧٤ ـ ١٨٨).

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه، وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته.

فإن العبد على جناح سفر، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل.

فالمسافر إما صاعد وإما نازل، وفي الحديث المرفوع: «خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله»(١).

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، وجعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله من أفراح آخرته.

فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده، كان رحمة به وخيراً له، وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه، وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالى. فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك: هو الصبر وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله(٣).

* * *

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه، كما في كشف الخفا.

(٢) الفوائد (١٨٩). (٣) عدة الصابرين (٢٧٧، ٢٧٨).

سُورَةُ يس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يسٓ: ١ ـ ٤].

الصحيح أن يسٓ بمنزلة حم وألم، ليست اسماً من أسماء النبي ﷺ.

وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وجوز فيه ثلاثة؛ أن يكون خبراً بعد خبر فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم.

وأن يكون متعلقاً بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله، أي: أرسلتك على صراط. وهذا يحتاج إلى بيان تقدير المجعولين على صراط مستقيم وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يسٓ: ٧ ـ ٩].

قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله.

وقال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلب كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان، فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟ قيل: لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٦).

محله، والمراد به القلب كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك، وهذا في عنقك، ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق، ومن هذا قال الفراء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ حبسناهم عن الإنفاق. قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي: لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق.

قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا وقلدتك كذا. ومنه: قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة، ومكان الطوق.

قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلاناً حكم كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه، وقد سمى الله التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فشبهها بالأغلال؛ لشدتها وصعوبتها. قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم. وقال ابن قتيبة: هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ وجعلها أغلالاً؛ لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد.

وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾. قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها، قالوا: لأن الغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد؛ ولذلك سمي جامعة، وعلى هذا فالمعنى: فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم. هذا قول الفراء والزجاج.

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى الأغلال وهذا هو الظاهر.

وقوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، أي: واصلة وملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق، حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، قال الفراء والزجاج: المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الإقماح في اللغة: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح.

وقال الأصمعي: بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم، ورؤوسهم صعداً كالإبل الرافعة رؤوسها. انتهى.

فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟

قيل: أحسن وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة، ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، قال ابن عباس: منعهم من الهدى لما سبق في علمه. والسد الذي جعل من بين أيديهم، ومن خلفهم، هو الذي سد عليهم طريق الهدى.

فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم، وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة، وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان، كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يسٓ: ١٢].

فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعدما أماتهم للبعث ويجازيهم بأعمالهم ونبه بكتابته لها على ذلك.

قال مقاتل: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ ما سنُّوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم.

وقال ابن عباس في رواية عطاء: آثارهم ما أثروا من خير أو شر، كقوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

فإن قلت: قد استفيد هذا من قوله: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾، فما أفاد قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ على قوله؟

---

(١) شفاء العليل (٩٤، ٩٥).

قلت: أفاد فائدة جليلة وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولَّد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سلمة أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»، وقد روى مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس[(١)].

وفي هذا القول نظر فإن سورة يس مكية[(٢)] وقصة بني سلمة بالمدينة، إلا أن يقال: هذه الآية وحدها مدنية، وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها، وذكروا بها عندها إما من النبي ﷺ وإما من جبريل، فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك: نزلت مرتين.

والمقصود: أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم. قال عمر بن الخطاب: لو كان الله سبحانه تاركاً لابن آدم شيئاً لترك ما عفت عليه الرياح من أثر. وقال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة.

---

(١) الذي في صحيح البخاري (٢/ ١٦٣، ١٦٤) في الأذان، باب: احتساب الآثار و(٤/ ١١٨) في فضائل المدينة، باب: كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، عن أنس ﷺ: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم؟ فأقاموا وذلك حين أرادوا التحول قرب المسجد، وليس فيه ذكر للآية، وكذا عند مسلم (٢/ ٣١٢) في المساجد، باب: فضل الصلاة المكتوبة في جماعة، من حديث جابر ﷺ، دون ذكر للآية.

ولكن عند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري (٥/ ٣٣٩) في التفسير، باب: من سورة يس... وذكر الآية.

وقال: حسن غريب، وصححه الألباني. صحيح الترغيب (١/ ١٢٣)، وصحيح الترمذي (٣/ ٩٧).

(٢) قال القرطبي: «وهي مكية بإجماع، إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ مدنية» (٦/ ٥٤٤٥).

والمقصود: أن قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يسٓ: ٢٠ ـ ٢٤].

فنبه على موجب الاتباع وهو كون المتبوع رسولاً لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى وأنه على هداية. ونبه على انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر فلا يريد منكم دنيا ولا رياسة، فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه منتف وهو طلب العلو في الأرض والفساد وطلب الأجر.

ثم قال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه ونعمه كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقه، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم ومحبة المحسن ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع.

ثم أقبل عليهم مخوفاً لهم تخويف الناصح فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دونه أنها باطلة وأن عبادتها باطلة فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وإنما إذا أرادني الرحمٰن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذونني بها من ذلك الضر، ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر، فبأي وجه

---

(١) شفاء العليل (٣٩، ٤٠).

يستحق العبادة و﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾. إن عبدت من دون الله مما هذا شأنه[(١)].

* * *

قـولـه تـعـالـى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يسٓ: ٥٤].

فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه في سيئاته أو ينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره، لا على وجه الجزاء فإن انتفاعه بما يُهدى إليه ليس جزاء على عمله، وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعي منه، بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يسٓ: ٦٩، ٧٠].

أخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان؛ بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك فأرسل إليه رسوله، فأمره ونهاه؛ فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: إنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: و﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]. وحق عليه العذاب. كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال وكلمة العذاب كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم، لا مع مراد أنفسهم. فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم. فاستحقوا كرامته.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٤ ـ ٤٩٧). (٢) الروح (١٢٩).

وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده وعلم سبحانه منهم: أنهم لا يؤثرون مراده البتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم فأمرهم ونهاهم، فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله؛ فعاقبهم بظلمهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يسٓ: ٧٧ ـ ٨٣].

تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة [على البعث]:

[١] أحدها: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يسٓ: ٧٧]، فذكّره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية.

[٢] ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل. فتحت قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ ألطف جواب، وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئاً: فلان جحدني الإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

[٣] ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فهذا جواب واستدلال قاطع.

[٤] ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه بجميع الخلق، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه، أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً، قال له: كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولى، ولا عن خلق السماوات والأرض.

[٥] ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف

(١) مدارج السالكين (١/٢١٨، ٢١٩).

الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، فإن هذا دليل على تمام قدرته، وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء، وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموت بارد يابس، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل، فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد، ليلزم ما قالوا؟! بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

[٦] ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السماوات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما؟ ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس، كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

[٧] ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به، فقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

[٨] ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه، ولا عن شيء أبداً فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يمكنه الاستعصاء عليه ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته.

[٩] ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد، معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده، يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاءه فيه.

[١٠] ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، كما أنهم ابتدأوا منه هو، فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ، وإليه المعاد، وهو الأول والآخر، وأن إلى ربك المنتهى[١].

□ □ □

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٩ ـ ١٩١).

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان، لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدء كونه وذكر خلقه لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكتة له عن هذا السؤال.

ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ وصرح به جواباً له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى عن النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر والأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ الصَّافَّات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ١ ـ ٥].

أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تصفُّون كما تصف الملائكة عند ربها؟ تتمون الصفوف الأولى، وتراصون في الصف»(١). وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]. والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء. والزاجرات: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ التي تتلو كلام الله.

وقيل: الصافات: الطير. كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النور: ٤١]. والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله، والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى.

وقيل: الصافات للقتال في سبيله، فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه، فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم.

وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله. فالتاليات آياته.

واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة. فإن الإقسام كالدليل، والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة وبواسطتها كان.

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلٰهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال:

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥].

من أعظم الأدلة على أنه إلٰه واحد، ولو كان معه إلٰه آخر لكان الإلٰه مشاركاً له في ربوبيته، كما شاركه في إلٰهيته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلٰهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده.

وخص المشارق هاهنا بالذكر إما لدلالتها على المغارب، إذ الأمران المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظاً من كل شيطان، فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق؛ والله تعالى أعلم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ **[الصافات: ٦، ٧]**.

فجعل المصابيح زينة لظاهرها ولباطنها بالحراسة من الشياطين، فهي زينة الظاهر والباطن[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **[الصافات: ٢٢، ٢٣]**.

قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: (أزواجهم) أشباههم ونظراءهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار[(٣)].

وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امرئٍ بشيعته؛ اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني.

وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٧، ٤٢٨). (٢) الصواعق المرسلة (٤/١٣٧٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٤٦).

وفي الآية ثلاثة أقوال أخر:

أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها.

الثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها.

الثالث: أنه تزويج المؤمنين الحور العين وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأول أظهر الأقوال. والله أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [**الصافات: ٣٥ ـ ٣٧**].

أي: مجيئه تصديق لهم من جهتين: من جهة إخبارهم بمجيئه وبعثه، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به ومطابقة ما جاء به لما جاؤوا به، فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يعلم إلا بالوحي ثم جاء نبي آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان، ولا تلقى عنه ما جاء به وأخبر بمثل ما أخبر به سواء، دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث يعلم أنه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمن تلقى عنه، فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواء، فإنه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني.

والمعنى الثاني: أنه لم يأت مكذباً لمن قبله من الأنبياء مزرياً عليهم كما يفعل الملوك المتغلبون على الناس بمن تقدمهم من الملوك، بل جاء مصدقاً لهم شاهداً بنبوتهم ولو كان كاذباً متقوِّلاً منشئاً من عنده سياسة لم يصدق من قبله، بل كان يزري بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الأنبياء[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [**الصافات: ٥٠ ـ ٥٧**].

---

(١) طريق الهجرتين (٣٩٦).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

أخبر ﷻ أن أهل الجنة، أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة، إلى أن قال قائل منهم: إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة، ويقول ما حكاه الله عنه يقول: أإنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً؟ ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون في النار لننظر منزلة قريني هذا وما صار إليه؟

وهذا أظهر الأقوال. وفيها قولان آخران:

أحدهما: أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً: هل أنتم مطلعون؟ رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: أنه من قول الله ﷻ لأهل الجنة يقول لهم: هل أنتم مطلعون؟

والصحيح القول الأول. وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه، والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه، قال كعب: بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوى.

وقوله: (فاطلع)، أي: أشرف. قال مقاتل: لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون؟ قالوا له: أنت أعرف به منا، فاطلع أنت فأشرف فرأى قرينه في سواء الجحيم، ولولا أن الله عرفه إياه لما عرفه، لقد تغير وجهه ولونه وغيره العذاب أشد تغيير، فعندها ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾. أي: إن كدت لتهلكني، ولولا أن أنعم الله علي بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ **[الصافات: ٦٢ ـ ٦٤]**.

قال قتادة: لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: يكون في النار شجرة، والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾، فأخبرهم أن غذاءها من النار، أي: غذيت بالنار.

قال ابن قتيبة: قد تكون شجرة الزقوم نبتاً من النار، ومن جوهر لا تأكله النار،

---

(١) حادي الأرواح (٢١٠).

وكذلك، سلاسل النار وأغلالها وأنكالها، وعقاربها، وحياتها، ولو كانت على ما يعلم الناس، لم تبق على النار.

وإنما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها، وجميع آلاتها على مثل ذلك.

والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [**الصافات**: ٧٨ ـ ٨٠].

فالذي تركه سبحانه على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور.

وقد حكى غير واحد الإجماع على أن الصلاة على جميع النبيين مشروعة.

منهم الشيخ محيي الدين النووي وغيره، وقد حكي عن مالك رواية: أنه لا يصلى على غير نبينا ﷺ، ولكن قال أصحابه: هي مؤولة بمعنى: أنه لم نتعبد بالصلاة على غيره من الأنبياء، كما تعبدنا الله بالصلاة عليه ﷺ(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [**الصافات**: ٨٥ ـ ٨٧].

أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمٰن بذاته فلا يحتاج إلى رحمته إلى من يستعطفه.

وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء؛ فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويعينهم إلى قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٣).

(٢) جلاء الأفهام (٢٧١ ـ ٢٧٦).

ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، والعالم بكل شيء، الرحمٰن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلٰهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح يوضح هذا: أن العابد معظم لمعبوده، متأله له خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ظن كثير من الناس أن (ما) مصدرية واحتجوا بها على خلق الأعمال، وليست مصدرية، وإنما هي موصولة، والمعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه وتنحتونه من الأصنام، فكيف تعبدونه وهو مخلوق لله؟ ولو كانت مصدرية لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم أقرب من أن يكون حجة عليهم، إذ بكون المعنى: أتعبدون ما تنحتون والله خلق عبادتكم لها، فأي معنى في هذا وأي حجة عليهم؟ والمقصود: أنه كثير ما تدخل إحداهما على الأخرى ويحتملها الكلام سواء(٢).

والصواب أنها موصولة وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية، بل هي حجة عليهم، مع كونها موصولة.

وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير وهي: أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والغاية بحال ما يحتج له وعليه، فإذا كان المستدل محتجاً على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك، فإنه يجرد الغاية إلى بيان بطلان تلك الدعوى، وأن ما ادعى له ذلك الوصف هو متصف بضده لا متصف به، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا.

(١) الجواب الكافي (٢٠٦، ٢٠٧).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٤٣، ١٤٤).

وإذا تقرر هذا فالله سبحانه أنكر عليهم عبادتهم الأصنام وبين أنها لا تستحق العبادة، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة، فلو أنه قال: لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون، لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنى: الذي، إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم وأوجد أعمالكم، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق، فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية.

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبين هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة.

وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]. كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له سبحانه وهي غير خالقة؟

فهذا يبين المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، أي: هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك، فكيف تعبدون المخلوق؟.

وتأمل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته، وانفراده بالخلق، كقول صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]، فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها ذكر الموجب لذلك وهو كونه خالقاً لعابده، فاطراً له. وهذا إنعام منه عليه فكيف يترك عبادته؟ ولو كان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كان يقتضي أن يقال: ألا يعبدون الله وهو خالقهم وخالق أعمالهم؟ فتأمله فإنه واضح.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون «ما» موصولة؟ قيل: نعم قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه وآن إبرازه.

ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير أن الله سبحانه أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان سبحانه هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق أن يكون خالقها بجملتها، أعني: مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما

أن مادتها كذلك لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة؛ لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها، كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل «ما» مصدرية.
ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يسٓ: ٤١، ٤٢]، والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد.

ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه سبحانه هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم.

ونظيره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٨٠]، والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتاً بعملهم.

فإن قلت: المراد من هذا الكلام المادة لا الصورة. قلت: المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم(١).

فالأولى أن تكون «ما» موصولة، أي: والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم، ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير معمولة لهم وإنما يصير معمولاً بعد عملهم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

إن إبراهيم ﷺ لما بلغ ما بلغ ـ هو وولده ـ في المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به ألقاه الوالد على جبينه في الحال، وأخذ الشفرة وأهوى إلى حلقه، أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفني بأمر الله عنهما، فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم على الله. وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

---

(١) بدائع الفوائد (١/١٤٦ ـ ١٥٣). (٢) شفاء العليل (٥٥).

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾، أي: استسلما وانقادا لأمر الله فلم يبق هناك منازعة لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف وتسليم محض.

قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، أي: صرعه على جبينه وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم، وتلك هي هيئة ما يراد ذبحه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

فهذه فيها قراءتان:

إحداهما: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بوزن إسماعيل وفيه وجهان:

أحدهما: أنه اسم ثان للنبي إلياس وإلياسين كميكال وميكائيل.

والوجه الثاني: أنه جمع وفيه وجهان:

أحدهما: أنه جمع إلياس وأصله: إلياسيين بيائين كعبرانيين، ثم خففت إحدى اليائين فقيل: إلياسين، والمراد: أتباعه، كما حكى سيبويه: الأشعرون ومثله الأعجمون.

والثانية: أنه جمع إلياس محذوف الياء.

والقراءة الثانية: (سلام على آل ياسين)، وفيه أوجه:

أحدها: أن ياسين اسم لأبيه، فأضيف إليه الآل، كما يقال: آل إبراهيم.

الثاني: أن آل ياسين: هو إلياس نفسه، فيكون آل مضافة إلى يس، والمراد بالآل: يس نفسه كما ذكر الأولون.

والثالث: أنه على حذف ياء النسب، فيقال: يس، وأصله: ياسيني كما تقدم، وآلهم: أتباعهم على دينهم.

والرابع: أن يس هو القرآن، وآله هم أهل القرآن.

والخامس: أنه النبي ﷺ، وآله: أقاربه وأتباعه كما سيأتي.

هذه الأقوال كلها ضعيفة، والذي حمل قائلها عليها استشكالهم إضافة آل إلى يس، واسمه إلياس وإلياسين، ورواها في المصحف مفصولة، وقد قرأها بعض القراء «آل يس»، فقال طائفة منهم: له أسماء: يس وإلياسين وإلياس.

---

(١) مدارج السالكين (٣/٢٠٦).

وقالت طائفة: «يس» اسم لغيره، ثم اختلفوا فقال الكلبي: يس محمد ﷺ وقالت طائفة: هو القرآن. وهذا كله تعسف ظاهر لا حاجة إليه.

والصواب ـ والله أعلم في ذلك ـ أن أصل الكلمة: آل ياسين، كآل إبراهيم فحذفت الألف واللام من أوله لاجتماع الأمثال ودلالة الاسم على موضع المحذوف، وهذا كثير في كلامهم إذا اجتمعت الأمثال كرهوا النطق بها كلها فحذفوا منها ما لا إلباس في حذفه، وإن كانوا لا يحذفونه في موضع لا تجتمع فيه الأمثال، ولهذا يحذفون النون من «إني، وأني، وكأني، ولكني»، ولا يحذفونها من ليتني، ولما كانت اللام في «لعل» شبيهة بالنون حذفوا النون معها، ولا سيما عادة العرب في استعمالها للاسم الأعجمي وتغييرها له، فيقولون مرة: «إلياسين»، ومرة: «إلياس»، ومرة: «ياسين»، وربما قالوا: «ياس»، ويكون على إحدى القراءتين قد وقع السلام عليه، وعلى القراءة الأخرى على آله.

وعلى هذا ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل: أن الآل إن أفرد دخل فيه المضاف إليه، كقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. ولا ريب في دخوله في آله هاهنا. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ونظائره.

وقول النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[(١)]، ولا ريب في دخول أبي أوفى نفسه في ذلك، وقوله: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم»، هذه أكثر روايات البخاري وإبراهيم هنا داخل في آله، ولعل هذا مراد من قال: آل الرجل نفسه.

وأما إن ذكر الرجل، ثم ذكر آله لم يدخل فيهم، ففرق بين اللفظ المجرد والمقرون. فإذا قلت: أعط هذا لزيد وآل زيد لم يكن زيد هنا داخلاً في آله، وإذا قلت: أعطه لآل زيد تناول زيداً وآله.

وهذا له نظائر كثيرة قد ذكرناها في غير هذا الموضع، وهي أن اللفظ تختلف دلالاته بالتجريد والاقتران، كالفقير والمسكين، هما صنفان إذا قرن بينهما، وصنف واحد إذا أفرد كل منهما، ولهذا كانا في الزكاة صنفين، وفي الكفارات صنف واحد، وكالإيمان والإسلام، والبر والتقوى، والفحشاء والمنكر، والفسوق

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

والعصيان، ونظائر ذلك كثيرة ولا سيما في القرآن[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ **[الصافات: ١٣٩ ـ ١٤١]**.

يقول تعالى: فقارع فكان من المغلولين، فهذان نبيّان[٢] كريمان استعملا القرعة، وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ **[الصافات: ١٥٩، ١٦٠]**.

فنزه سبحانه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن اتبعهم[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **[الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]**.

فنزه نفسه عما يصفه به الخلق، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد.

ومن هاهنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن إدريس الشافعي ـ قدس الله روحه ونوّر ضريحه ـ خطبة كتابه[٥] حيث قال: «الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه». فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته إنما تتلقى بالسمع، لا بآراء الخلق، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق، فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، وأن ما وصف به نفسه فهو الذي يوصف به، لا ما وصفه به الخلق، ثم قال:

---

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (١١٧ ـ ١١٩).

(٢) أي: سليمان ويونس عليهما السلام.

(٣) الطرق الحكمية (٢٩٤).

(٤) جلاء الأفهام (٩١).

(٥) انظر: الرسالة للإمام الشافعي، ص(٨).

«والحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدي شكر ماضي نعمه بأدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها».

فأثبت في هذا القدر أن فعل الشكر إنما هو بنعمته على الشاكر، وهذا يدل على أنه رحمه الله مثبت للصفات، والقدر.

وعلى ذلك درج بُدَّلُ[١] الإسلام والرعيل الأول، ثم فرق[٢] على أثرهم التابعون، وتبعهم على منهاجهم اللاحقون، يوصي بها الأول والآخر، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق وهم في ذلك بنبيهم مقتدون، وعلى منهاجه سالكون[٣].

❀ ❀ ❀

(١) أي: أصحاب العقول والآراء القارحة. انظر: نهج البلاغة (٢٢).

(٢) فرق: قال الزمخشري: «وفرق لي الطريق فروقاً وانفرق انفراقاً: إذا اتجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما، وطريق أفرق: بيّن»، نهج البلاغة (٣٤٠).

(٣) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٣، ١٥٤).

سُوْرَةُ صٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [صٓ: ١].

فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقاً من عند الله غير مفترى، كما يقوله الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين، متقدميهم ومتأخريهم: أن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق[١]. وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك[٢].

[وانظر تفسير الآية الأولى من سورة البقرة (١/ ٩١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [صٓ: ٥].

تأمل ما اشتملت عليه سورة صٓ من الخصومات المتعددة.

فأولها: خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ إلى آخر كلامهم.

ثم اختصام الخصمين عند داود.

ثم تخاصم أهل النار.

ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات.

ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم.

ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

فليتأمل اللبيب الفطن، هل يليق بهذه السورة غير «صٓ»؟ وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١١٨).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (١٠/ ١٣).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [صٓ: ٢٥].

فزاده على المغفرة أمرين:

الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف.

والثاني: حسن المآب وهو حسن المنقلب، وطيب المأوى عند الله، قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة على صحة ما قلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [صٓ: ٢٦].

فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [صٓ: ٢٧].

والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين، بل الذي ظنوه: أنه لا شرع ولا جزاء ولا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب، فأخبر: أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه، وذلك هو الحق الذي خلقت به، وهو التوحيد وحقه وجزاؤه وجزاء من جحده وأشرك بربه[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [صٓ: ٢٨].

قد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين كالتسوية بين الأبرار والفجار.

---

(١) طريق الهجرتين (٢١٧).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨١).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فدل على أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وأنه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة، فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، تعالى الله عن فعله[١].

وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [صٓ: ٣٩].

أي: أعط من شئت وامنع من شئت، لا نحاسبك وهذه المرتبة هي التي عرضت على نبينا ﷺ[٣]، فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها وهي مرتبة العبودية المحضة التي تصرف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد في كل دقيق وجليل[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ﴾ [صٓ: ٤٤].

قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ﴾.

هذه الجملة خرجت مخرج التعليل، كما في نظائرها. فعلم أن الله ﷻ إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره وتخفيفاً عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٨، ٣٣٩). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨).

(٣) عن أبي هريرة ﷺ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبياً يجعلك، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: «بل عبداً رسولاً».

رواه الإمام أحمد (١٢/ ١٤٢، ١٤٣) برقم (٧١٦٠)، وصحح إسناده أحمد شاكر. قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح، مجمع الزوائد (٩/ ١٩).

(٤) زاد المعاد (٥/ ٨٣).

اليمين، وأيضاً فإن الله ﷻ إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث كما أخبر تعالى[(١)].

ومن العجب أن يحتج بهذه الآية من يقول: إنه لو حلف: ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة، لم يبر في يمينه. هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد.

وقال الشافعي: إن علم أنها مسته كلها بر في يمينه، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر. وإن شك لم يحنث، ولو كان هذا موجباً لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب تعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضرب بها ضربة واحدة، وهذا إنما يجزي في حق المريض، كما قال الإمام أحمد في المريض عليه الحد: «يضرب بعثكال يسقط عنه الحد».

واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: «كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدج، فلم يُرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها، قال: فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان ذلك الرجل مسلماً فقال: اضربوه حده، فقالوا: يا رسول الله: إنه أضعف مما تحسب، لو ضربناه مائة قتلناه، فقال: خذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ ثم اضربوه ضربة واحدة، ففعلوا»[(٢)].

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق، فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته، وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك فقال: إنه الشيطان، ثم حلف: لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط، فكانت معذورة محسنة في شأنه.

ولم يكن في شرعهم كفارة، فإنه لو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط، فيضرب بها ضربة واحدة. وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٢٢)، وأبو داود (١٢/ ١٦٩، ١٧٠) في الحدود، باب: إقامة الحد على المريض. وصححه الألباني، كما في صحيح ابن ماجه (٢/ ٨٥) في الحدود، باب: الكبير والمريض يجب عليه الحد.

فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة.

فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى فلا يتعدى بها عن محلها.

فإن قيل: فقولوا: هذا في نظير ذلك، ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة وكانا معذورين، لا ذنب لهما: أنه يبر بجمع ذلك في ضربة بمائة شمراخ.

قيل: قد جعل الله له مخرجاً بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر عن يمينه ولا يعصي الله بالبر في يمينه هاهنا، ولا يحل له أن يبر فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة، ولا يحل له أن يضربها لا مفرقاً ولا مجموعاً.

فإن قيل: فإذا كان الضرب واجباً كالحد هل تقولون: ينفعه ذلك؟

قيل: إما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر والبرد الشديد والمرض اليسير، فهذا ينتظر زواله ثم يحد الحد الواجب، كما روى مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه: «أن أمةً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم زنت فأمرني أن أجلدها فأتيتها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «أحسنت، اتركها حتى تماثل»(١)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [صٓ: ٤٥، ٤٦].

أي: خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال تعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

---

(١) رواه مسلم (١٧٠٥).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٧ ـ ٩٩).

فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم، ومتابعتهم وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم[(١)].

[و] الأيدي: القوي في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق، وأكرمهم على الله تعالى[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾.

فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبيائه ورسله من اختصاصهم بالآخرة، وفيها قولان:

أحدهما: إن المعنى: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا، وذكرها، وإيثارها والعمل بها.

والقول الثاني: إنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة، واختصصناهم به عن العالمين[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: ٤٧].

أخبر سبحانه أنه أخلصهم، ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله ﷻ اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كرامته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عُبِد وأطيع، وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [صٓ: ٥٠، ٥١].

---

(١) الجواب الكافي (١١٤).
(٢) الجواب الكافي (١٣٤).
(٣) طريق الهجرتين (٣١٧).
(٤) طريق الهجرتين

[انظر] كيف تجد تحته معنى بديعاً وهو: أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي.

وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨]، أي: مطبقة مغلقة ومنه سمي الباب وصيداً، وهي: ﴿مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨، ٩]. قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل: يعني: أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد.

وأيضاً فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وثبوتهم في الجنة حيث شاؤوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت.

وأيضاً أشار إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٥٧ ـ ٦١].

فقولهم: لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار، أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع وقالوا: بل أنتم لا مرحباً بكم، أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان:

أحدهما: إنه ضمير الكفر والتكذيب، ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى: أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين، والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاؤوا به والشرك بالله ﷻ، أي: بدأتم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي: بئس المستقر والمنزل.

---

(١) حادي الأرواح (٥٤).

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: أنتم قدمتموه لنا ضمير العذاب، وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه. ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم ضعفاً وهم الشياطين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صٓ: ٧٥].

فهذا كلام ورد في معرض التوبيخ والتبكيت للَّعين على امتناعه من السجود، ولم يستحق هذا التبكيت والتوبيخ حيث كان السجود لمن يعقل، ولكن للمعصية والتكبر على ما لم يخلقه إذ لا ينبغي التكبر لمخلوق على مثله، إنما التكبر للخالق وحده فكأنه يقول سبحانه: لم عصيتني وتكبرت على ما لم تخلقه وخلقته أنا وشرفته وأمرتك بالسجود له؟

فهذا موضع «ما» لأن معناها أبلغ ولفظها أعم، وهو في الحجة أوقع، وللعذر والشبهة أقطع، فلو قال: ما منعك أن تسجد لمن خلقت؟ لكان استفهاماً مجرداً من توبيخ وتبكيت ولتوهم أنه وجب السجود له من حيث كان يعقل. ولعله موجود في ذاته وعينه وليس المراد كذلك، وإنما المراد توبيخه وتبكيته على ترك سجوده لما خلق الله وأمره بالسجود له.

ولهذا عدل عن اسم آدم العلم مع كونه أخصّ وأتى بالاسم الموصول الدال على جهة التشريف المقتضية لإسجاده له كونه خلقه بيديه، وأنت لو وضعت مكان «ما» لفظة «من» لما رأيت هذا المعنى المذكور في الصلة، وأن «ما» جيء بها وصلة إلى ذكر الصلة، فتأمل ذلك. فلا معنى إذاً للتعيين بالذكر إذ لو أريد التعيين لكان بالاسم العلم أولى وأحرى(٢).

□ □ □

ومن أقبح الغلط والتلبيس تأويل اليدين بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول: لفلان عندي يد، وقال عروة بن مسعود للصديق: لولا يد لك عندي لم أجزك بها

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٧، ١٨). (٢) بدائع الفوائد (١/ ١٣٢).

لأجبتك[(١)]، ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه ثم تعدي الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير: كتبت بالقلم وهي اليد، وجعل ذلك خاصة خص بها صفيه آدم دون البشر، كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه، وخص موسى بأن كلمه بلا واسطة، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة، وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [صٓ: ٧٩].

وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به، وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه، فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [صٓ: ٨٢ ـ ٨٣].

لا يفهم منها إلا أن المخلصين لا يتمكن من إغوائهم[(٤)].

* * *

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٨).

(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٥٩).

سُوْرَةُ الزُّمَرْ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره؛ فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة لله موصوفاً بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابدٌ الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره ولم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده، فله الحمد والمنة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

فإن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه، فذكر سبحانه أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلى حال وذكر ظلمات الحجب التي على الجنين فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، فإن كل واحد منها حجاب على الجنين، وقال آخرون: هي ظلمة أصلاب الآباء، وظلمة بطون الأمهات وظلمة المشيمة، وأضعف من هذا القول قول من قال: ظلمة الليل وظلمة البطن وظلمة الرحم، فإن الليل والنهار بالنسبة إلى الجنين سواء(٢).

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٣٧).

(٢) تحفة الودود (٢١٧).

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

قال صاحب الغناء: قد أمر الله رسوله أن يبشر من استمع القول واتبع أحسنه فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. قال: والألف واللام في القول تقتضي العموم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الحسن من القول، وهذا يعم كل قول فيدخل فيه قول السماع وغيره.

قال صاحب القرآن: قد كان ينبغي لك أن توقر كلام الله وتجله أن تنزله على أقوال المغنين والمغنيات وإخوانهم من النائحين والنائحات، وأن يحمل على رقية الزنا ومنبت النفاق وداعي الغي والهوى. فيكفي في فساد القول أنه لم يقله قبلك أحد من أئمة التفسير على اختلاف طبقاتهم.

ويدل على بطلانه وأنه يمتنع أن يراد بكلام من لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجوه عديدة:

أحدها: أن الله ﷻ لا يأمر بل لا يأذن في استماع كل قول حتى يقال: «اللام» للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]...

الوجه الثاني: أن المراد بالقول في هذه الآية التي احتججتم بها القرآن، كما جاء ذلك في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١]، فالقول الذي بشر مستمعيه ومتبعي أحسنه هو القول الذي وصله وحض على تدبره. وكلام الله يفسر بعضه بعضاً ويحمل بعضه على بعض.

الوجه الثالث: أن الألف واللام هنا لتعريف العهد وهو القول الذي دعي إليه المخاطب وأمر بتدبره، وأخبر بتوصيله له وهو كالكتاب والقرآن، والألف واللام فيه كالألف واللام في الكتاب سواء وكذلك الألف واللام في الرسول في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وفي قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. فهل يجوز أن يقال: إن اللام في الكتاب والرسول للاستغراق فتحمل على كل كتاب وعلى كل رسول؟

الوجه الرابع: أنها وإن كانت للعموم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾، فهي إنما تعم القول الذي أنزل الله ومدحه وأثنى عليه وأمر باتباعه واستماعه وتدبره وفهمه، فهي تقتضي العموم والاستغراق في جميع هذا القول، فإنها تقتضي عموم ما عرفته وقصد بمصحوبها.

الوجه الخامس: أن السياق كله من أول السورة إلى هذه الآية إنما هو في القرآن، قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣]، فذكر في أول السورة كتابه ودينه والكلم الطيب والعمل الصالح، فخير الكلام كتابه وخير العمل إخلاص الدين له، ثم أعاد ذكر الأصلين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ [الزمر: ١٧]، فهذا إخلاص الدين له، ثم قال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾، فهذا كتابه فتضمنت ذكر كتابه ودينه كما تضمنت (ذلك) أول السورة، فما لأقوال المغنين والمغنيات هاهنا.

الوجه السادس: أنه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥].

فهذا الأحسن الذي أمر باتباعه هنا هو الأحسن الذي بشر من اتبعه في أول السورة وهو أحسن المنزل في الموضوعين، ونظير هذا قوله تعالى لموسى في التوراة: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فهذا كله إذا تدبره المؤمن الناصح لنفسه؛ علم علماً يقينياً أن الكتاب والقول والحديث الذي أمر الله باستماعه وتدبره وفهمه واتباع أحسنه، هو كلامه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما مدح الاستماع لكل قول فهذا لا يليق نسبته إلى العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن الله سبحانه في كتابه إنما أثنى على المستمعين للقرآن وحمد هذا السماع وذم المعرضين عنه، وجعلهم أهل الكفر والجهل، الصم البكم الذين لا يعقلون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ

تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وهذا كثير في القرآن وكتاب الله يبين بعضه بعضاً.

الوجه الثامن: أن المعروف في القرآن إنما هو ذم استماع القول الذي هو الغناء، كما قال تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١]. قال غير واحد من السلف: هو الغناء، يقال: سمد لنا، أي: غنى لنا.

الوجه التاسع: أنه سبحانه قال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]. فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومن المعلوم أن كثيراً من القول بل أكثره ليس فيه حسن، فضلاً عن أن يكون أحسن بل غالب القول: يكب قائله في النار على منخره.

الوجه العاشر: أنه سبحانه علق الهداية على اتباع أحسن هذا القول، فقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، ومن المعلوم بالاضطرار أن الهداية إنما حصلت لمن اتبع القرآن، فهو الذي هداه الله فأين الهدي في أقوال المغنين والمغنيات؟

وبالجملة ففساد هذا القول، الذي حملتم عليه كتاب الله وألصقتموه به وهو منه بريء وحملتموه إياه وليس خليقاً بحمله معلوم لكل من في قلبه حياة ونور، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠][١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له، فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلٰهه الحق، لا يستويان[٢].

* * *

(١) السماع (٢٣٤ ـ ٢٤٦). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال أبو عبد الله بن منده: حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن حسين الحراني، حدثنا جدي أحمد بن شعيب، حدثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: «بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها»(١). وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا الحسين حدثنا عامر، حدثنا أسباط عن السدي، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذكران ويتعارفان قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها».

وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس.

وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً والمرسلة من توفيت وفاة النوم.

والمعنى على هذا القول: أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية: أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توَفَّى وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله.

واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال: عليه يدل القرآن والسنة، قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول؛ لأنه سبحانه أخبر بوفاتين، وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم، وقسم الأرواح قسمين؛ قسماً قضى عليها

---

(١) رواه الطبري عن سعيد بن جبير (٢٤/٩).

بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاها وفاة الموت، وقسماً لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً، فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها، فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين: وفاة موت ووفاة نوم، لم يقل: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، فإنها من حين قبضت ماتت وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾؟

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، بعد أن توفاها وفاة الموت فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك.

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين، فإنه سبحانه ذكر وفاتين؛ وفاة نوم ووفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة ويرسل نفس من لم يمت، فقوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

أخبر أن الشفاعة لمن له ملك السماوات والأرض وهو الله وحده، فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده.

وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ

(١) الروح (٢٠، ٢١).

يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]. وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور، فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك، فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول: اشفع في فلان، ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له وإذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمرهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه.

فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محال ممتنع شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج.

وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي، والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب والسيد والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير، والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع، لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضى.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السماوات والأرض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلٰهيته مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن حال ملكه للسماوات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع، والذي وفَّقه لفعل ما يستحق به الشفاعة، وقوله: فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده إلٰهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه

الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه، هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وقال البغوي[2]: على علم من الله أني له أهل.

وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله.

وقال آخرون: بل العلم له نفسه ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب. قاله قتادة وغيره.

وقيل: المعنى: قد علمت أني لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

قال تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها ومحنة نمتحنه بها لا يدل على اصطفائه واجتبائه، وأنه محبوب لنا مقرب عندنا[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾، هي في حق التائب؛ لأنه أطلق وعمم فلم يخصها بأحد ولم يقيدها بذنب، ومن المعلوم بالضرورة أن الكفر لا يغفره، وكثير من الذنوب لا يغفرها.

فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب فكل من تاب من أي ذنب كان؛ غفر له[4].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢).
(٢) تفسير البغوي (٧/ ٧٩).
(٣) شفاء العليل (٣٧).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٢٦).

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤].

الإنابة: إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع.

وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤]، فهذا حالهم بعد الإنابة.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلٰهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه فإن الله سبحانه اسم للإلٰه الموصوف بكل صفة كمال المنزه عن كل صفة نقص ومثال.

والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته[(٣)].

---

(١) الجواب الكافي (٢٥٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٣١).

(٣) قال ابن القيم: قالت القدرية: نحن نقول: إن الله خالق أفعال العباد لا على أنه محدثها ومخترعها لكن على معنى: أنه مقدرها فإن الخلق التقدير، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض ... القوم يخلق ثم لا يفري =

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وهذا الذي وصف به نفسه هاهنا يتضمن من اقتداره على تغيير العالم وتبديله ما

= أي: لأنت تمضي ما قدرته وتنفذه بعزمك وقدرتك وبعض القوم يقدر ثم لا قوة له ولا عزيمة على إنفاذ ما قدره وإمضائه، فالله تعالى مقدر أفعال العباد وهم الذين أوجدوها وأحدثوها.

قال أهل السنة: قدماؤكم ينكرون تقدير الله سبحانه لأعمال العباد البتة فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك، ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها وليس التقدير عندكم جعلها على قدر كذا وكذا، فإن هذا عندكم غير مقدور للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنع العبد وإحداثه فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر وهذا لا يسمى خلقاً في لغة أمة من الأمم، ولو كان هذا خلقاً لكان من علم شيئاً وعلم أسماءه وصفاته وأخبر عنه بذلك خالقاً له، فالتقدير الذي أثبتموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلاف مذهبكم، وإن لم يتضمن تأثيراً في إيجاده فهو راجع إلى محض العلم والخبر.

قالت القدرية: قوله: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من العام المراد به الخاص، ولا سيما فإنكم قلتم: إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم ومنعهم.

قالت أهل السنة: القرآن كلام الله سبحانه وكلامه صفة من صفاته وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق فإن الخالق غير المخلوق، فليس هاهنا تخصيص البتة بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق وكل ما عداه مخلوق وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه، إذ ليس إلا الخالق والمخلوق، والله وحده الخالق وما سواه كله مخلوق. وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم وإنما أفعالهم القائمة بهم وأنهم هم الذين فعلوها فكلها حق نقول بموجبها، ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالاً لهم ومخلوقة مفعولاً لله فإن الفعل غير المفعول، ولا نقول: إنها فعل لله والعبد مضطر مجبور عليها، ولا نقول: إنها فعل للعبد والله غير قادر عليها ولا جاعل للعبد فاعلاً لها، ولا نقول: إنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير، وهذه الأقوال كلها باطلة.

قالت القدرية: يعني: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما لا يقدر عليه غيره، وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال.

قالت أهل السنة: إضافتها إليهم فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقاً ومشيئة، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يقدر عليه ولا خلقه [شفاء العليل (٥٣ ـ ٥٤)].

يبطل قول أعدائه الملاحدة المكذبين بالمبدأ والمعاد، أئمة هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل والرأي[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ **[الزمر: ٦٨]**.

فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السماوات ومن في الأرض من هذا الصعق، فقيل: هم الشهداء، هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير.

وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وهذا قول مقاتل وغيره.

وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها.

قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا، وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰۖ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان.

أما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فتفسير هذه الآية [الآية] التي في البقرة وهي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها.

ففي الحديث الصحيح: «أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور»[٢].

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]، ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرى.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٦٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٣)، رواه البخاري (٢٤١١، ٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٣، ٢٣٧٤).

وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء، فقال أبو عبد الله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السماوات والأرض قال: فتستقل الأحاديث والآثار.

ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش، قال: وهذا إنما عند نفخة الفزع.

قال أبو عبد الله: وقال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال ـ إن شاء الله تعالى ـ أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي ﷺ: «أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء»(١)، وأنه ﷺ: «اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصاً بموسى».

وقد أخبر أنه: «ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام»(٢)، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٨)، وأبو داود (٣/ ٣٧٠، ٣٧١) في الصلاة، تفريع أبواب الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة وليلتها، والنسائي (٣/ ٩١، ٩٢) في الجمعة، باب: إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، وابن ماجه (١/ ١٧٨) صحيح ابن ماجه في الصلاة، باب: فضل الجمعة، كلهم من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، وصححه الألباني، كما في فضل الصلاة، برقم (٢٢/ ٢٣) والإرواء (١/ ٣٤).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود (٦/ ٣١) في المناسك، باب: زيارة القبور.

قال النووي في رياض الصالحين: «إسناده صحيح» رقم (١٤٠٩). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥/ ٣٣٨) برقم (٢٢٦٦).

راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا تراهم، وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق، ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «فأكون أول من يفيق»، فنبينا ﷺ أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى فإنه حصل فيه تردد، هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً؛ لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً. انتهى.

قال أبو عبد الله القرطبي: إن حُمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حُمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى: إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح؛ لأنه ﷺ تردد، هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى: لا أدري أصعق أم لم يصعق، وقد قال في الحديث: فأكون أول من يفيق، وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأنَّ التردد حصل في موسى، هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق، ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت.

وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى، نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ، وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش».

قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا والحديثان هكذا:

أحدهما: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق».

والثاني: هكذا: «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة». ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[١].

فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ[٢] يقول ذلك، (فإن قيل): فما تصنعون بقوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ»، والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة لا من صعقة يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل: هذا ـ والله أعلم ـ غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة[٣]، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»، فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثني منها، وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث، فكيف يقول: لا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

فتأمله، وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعاً، وأما موسى ﷺ فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة. فتأمل هذا المعنى العظيم ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه

---

(١) رواه الترمذي (٥/٥٤٨) في المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ، وابن ماجه (٢/ ٤٣٠) صحيح ابن ماجه للألباني في الزهد، باب: ذكر الشفاعة. وانظر: الصحيحة حديث رقم (١٥٧٢).

(٢) ما نقله ابن القيم عن المزي ـ رحمهما الله تعالى ـ ذكره ابن حجر في فتح الباري دون تعليق (٦/ ٥١٢) في أحاديث الأنبياء، في ذكر موسى عليه السلام.

(٣) انظر: فتح الباري (٦/ ٥١٣)، وفيه بحث نفيس لابن حجر رحمه الله تعالى.

لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق(١).

* * *

قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكور والقمر يخسف ويذهب نورهما وحجابه تبارك وتعالى النور. قال أبو موسى: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(٢)، ثم قرأ: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]. فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

[وسرّ حذف الواو في قوله: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أنه] فاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله فيها، فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر، إلا أنه متوقع منه شراً عظيماً ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه.

وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه.

وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحاً فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، وحذف الجواب تفخيماً لأمره وتعظيماً لشأنه على عادتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد، وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو، ومن دعوى كونها واو الثمانية؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحداً

(١) الروح لابن القيم (٣٥ ـ ٣٧).
(٢) رواه مسلم (١٧٩).
(٣) الوابل الصيب (٧٣، ٧٤).

بعد واحد فينتهون إلى السبعة ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو، وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها، فتأمله.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق ﷺ: «يأتي باب الجنة فيلقاه مغلقاً حتى يستفتحه»، قلنا: هذا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح لأهلها إلا على يديه، فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها هو وأهلها لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه، وأنه هو الذي استفتحها لهم.

ألا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ولم يمكنهم فتحه، حتى جاء رجل ففتحه لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه كان في ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجدوه مفتوحاً[(١)]؟

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وكلمته سبحانه إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ويفرح بعضهم ببعض. وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمراً يلعن بعضهم بعضاً ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحداً واحداً فلا تهمل تدبر قوله: زمراً.

وقال خزنة الجنة لأهلها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ فبدأوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، أي: سلامتكم وداخلوها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٤، ١٧٥).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢١٩).

وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن، وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه من توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

فاعترفوا وقالوا: بلى فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوى لهم.

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ادخلوها، وقول خزنة النار لأهلها: ادخلوا أبواب جهنم، تجد تحته سراً لطيفاً ومعنى بديعاً لا يخفى على المتأمل وهو: أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء وأشده حراً وأعظمه غماً يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها، ويدنو من الغم والحزن والكرب بدخول الأبواب، فقيل: ادخلوا أبوابها صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فبشروا من أول وهلة والدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

فحذف فاعل القول؛ لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه، فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار، قال الحسن أو غيره: «لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً».

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر: ٧٢]، وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]. كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب(٢).

* * *

(١) حادي الأرواح (٥١ ـ ٥٤).

(٢) روضة المحبين (٧٤، ٧٥).

سُوْرَةُ غَافِرٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ١ ـ ٣].

فأتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين الأخيرين؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه.

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة.

وحَسَّنَ العطف هاهنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن؛ ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. وترك في قوله: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقوله: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وأما ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطَوله لا ينافي شدة عقابه بل هما مجتمعان له، بخلاف الأول والآخر فإن الأولية لا تجامع الآخرية ولهذا فسرها النبي ﷺ بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[1]، فأولويته أزليته وآخريته أبديته[2].

□ □ □

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥٢، ٥٣).

تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي «رحمة» قبله وصفة «رحمة» بعده. فقبله ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، وبعده ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[1]، وفي لفظ: «سبقت غضبي»[2]، وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت.

وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك.

وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه. فهذا يدل على شيئين:

أحدهما: علوه تعالى على خلقه.

والثاني: أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه، وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً كما أنه منه تنزيلاً، فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به، ومثل هذا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، ومنه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ومثله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فاستمسك بحرف ﴿مِّنَ﴾ في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية.

وتأمل كيف قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ﴾ [فصلت: ٢] ولم يقل تنزيله فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه وثبوت الرسالة.

ثم قال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فتضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم وخلق أعمال العباد وحدوث كل ما سوى الله؛ لأن القدرة هي قدرة الله كما قال «أحمد بن حنبل»، فتضمنت إثبات القدر؛ ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه، أو أن يشاء ما لا يكون، فكأن عزته تبطل ذلك، وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل شيء وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك.

ثم قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والذنب مخالفة شرعه وأمره، فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله.

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٢).

ثم قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذا جزاؤه للمذنبين، و﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ جزاؤه للمحسنين فتضمنت الثواب والعقاب.

ثم قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فتضمن ذلك التوحيد والمعاد.

فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو والكلام والقدرة والعلم والقدر وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد.

وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة.

فهذه عشر قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة ولكن حور تزف إلى ضرير مقعد، فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؟ وهكذا سائر آيات القرآن فما أشدها من حسرة وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، فالله المستعان[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [**غافر**: ٧].

وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

ومن الثاني: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]. فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»[(٢)].

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحمد والرحمة إنما يحسنان مع العلم وقدم الرحيم في هذا الموضع؛ لتقدم صفة العلم فحسن ذكر الرحيم بعده؛ ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة؛ لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩١ ـ ١٩٤).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٧٤) عن هارون بن رئاب بلفظ: «حملة العرش ثمانية...»، وقال: أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان، وذكره ابن كثير (٤/ ٧٨) عن تفسير الآية عن شهر بن حوشب.

اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم؛ لأجل ما قبله قدم على الغفور[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء، وإن كان قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ.

فإن قيل: فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها: الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ[(٢)].

ولا يرد على هذا قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها.

وقيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها.

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله تعالى بسعة علمه وسعة رحمته.

فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم، إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٠).

(٢) في خطبة الحاجة من قوله: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك ما يكره، فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل التي يحبها، ثم سألوه أن يقيم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها. وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب من جملتها: دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي ﷻ ما شاء، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروح، فقدْ فَقَدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك.

وأما في الآخرة: فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧].

قرأ أهل الكوفة: [وَصُدَّ] على البناء للمفعول حملاً على زين، وقرأ الباقون: (وَصَدَّ) بفتح الصاد ويحتمل وجهين:

أحدهما: أعرض فيكون لازماً.

---

(١) الجواب الكافي (١٦٩ ـ ١٧١). (٢) مدارج السالكين (٣/١٥٨).

والثاني: يكون صد غيره فيكون متعدياً والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه وغرهم فاتبعوه، ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله، فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولهذا كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»[٢].

والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع؛ ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصي الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته.

ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر، كما أن الإيمان يتفاوت فإيمان أفضل من إيمان، فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات، ولا يظلم الله من خلقه أحداً وهو الغني الحميد[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

[أما القول]: إن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة، ففي غاية الفساد، فإن المراد من الخلق هاهنا الفعل لا نفس المفعول، وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد، أي: أن الذي خلق السماوات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقاً جديداً؟

ونظير هذا في قوله في سورة يسٓ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ

---

(١) شفاء العليل (٩٦). (٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) طريق الهجرتين (٣٨٠، ٣٨١).

أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. أي: مثل هؤلاء المنكرين، فهذا استدلال بشمول القدرة للنوعين وأنها صالحة لهما فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر، فكذلك قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي كيف يعجز عن خلق الناس خلقاً جديداً بعدما أماتهم[١].

❁ ❁ ❁

(١) مفتاح دار السعادة (٥٤١، ٥٤٢).

سُورَةُ فُصّلَتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلٰهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلٰهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي ـ وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد.

والتزكية: جعل الشيء زكياً إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يقال: عدَّلته وفسَّقته إذا جعلته كذلك في الخارج وفي الاعتقاد والخبر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

فهي أربعة باليومين الأولين، ولولا ذلك لكانت أيام التخليق ثمانية، ونظيره: قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان». سئل أبو نصر بن الصباغ عن القيراطين: هل هما غير الأول، أو به، فقال: بل القيراطان: الأول وآخر معه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

لا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياماً نحسات عليهم؛ لأن النحس أصابهم فيها، وإن كانت أيام خير لأوليائه

(١) إغاثة اللهفان (٤٩).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٧).

المؤمنين، فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين، وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم.

قال مجاهد: أيام نحسات مشائيم.

وقال الضحاك: معناه: شديد، أي: شديد البرد حتى كان البرد عذاباً لهم.

وقال ابن عباس: نحسات: متتابعات، وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]. وكان اليوم نحساً عليهم لإرسال العذاب عليهم، أي: لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين للرسل. ومستمر: صفة للنحس لا لليوم، ومن ظن أنه صفة اليوم وأنه كان يوم أربعاء آخر الشهر وأن هذا اليوم نحس[1] أبداً، فقد غلط وأخطأ فهم القرآن، فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه، وكم لله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه، كما يقع ذلك في غيره من الأيام.

فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل. واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين.

فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس، وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك؟ ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحساً على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب نحساً لطائفة سعداً لطائفة فهذا هو المحال[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ **[فصلت: ١٧]**.

يعني: بينا لهم ودللناهم وعرفناهم، فآثروا الضلالة والعمىٰ، فهذه هداية البيان

---

(١) رحم الله تعالى هذا الإمام النابه الحكيم، فهذا من أفسد الأخلاق المبثوثة بين الناس ممن يدَّعون ـ للأسف ـ الحضارة والمدنية شرقاً وغرباً، ولا يتحرك أحدهم إلا بعد النظر في برجه وقراءة ما اطلع عليه منجمه ـ زعم ـ من غيب، وما هذا إلا نوع من عبادة الشياطين واتباع الضالين والزنادقة الملحدين، عن دين الله يصدون، وللشرك يدفعون، وأتباعهم في غفلة ساهون سكارى حائرون، فهذا ديننا يعلمنا حسن التوكل مع الحكمة في الأخذ بالأسباب، ويحرم على المسلم الانصراف إلى هذه الضلالات، فلا فأل إلا فأل الله، ولا طير إلا طيره، ولا إله غيره. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٣٧).

والدلالة، التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ **[فصلت: ٢٣]**.

فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق.

فيا للّه، ما ظن أصحاب الكبائر الظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟!

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعمال ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن.. وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز. كما في الترمذي من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[(٢)].

وبالجملة: فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ **[فصلت: ٢٤]**.

وأما استعتب فللطلب، أي: طلب الإعتاب، فهو لطلب مصدر الرباعي الذي هو أعتب، أي: أزال عتبه لا طلب الثلاثي الذي هو العتب.

أي: وإن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم، ويقال: عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه، ثم يقال: استعتب السيد عبده، أي: طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده، أي: أزال عتبه بطاعته، ويقال: استعتب العبد سيده أي: طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده، أي: فأزال عتب نفسه عنه.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي: وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم ولا يقبل فيها توبتهم، وقوله: ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٤).
(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩).
(٣) الجواب الكافي (٢٧).

[النحل: ٨٤] أي: لا يطلب منهم إعتابنا، وإعتابه تعالى إزالة عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله.

وكذلك قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقول النبي ﷺ في دعاء الطائف: «لك العتبى»[(١)]، هو اسم من الإعتاب لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه ولك عليَّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك فافعل ما ترضى به عني، وما يزول به عتبك عليّ. فالعتب منه على عبده والعتبى والإعتاب له من عبده فها هنا أربعة أمور:

[**الأول:**] العتب: وهو من الله تعالى، فإن العبد لا يعتب على ربه فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم، ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط.

الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين، فإعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي تزول بها عتب الله عليه.

الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضاً ومن العبد بالاعتبارين، فالله يستعتب عباده أي: يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: «إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه»، والعبد يستعتب ربه، أي: يطلب منه إزالة عتبه.

الرابع: العتبى: وهي اسم الإعتاب.

فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبيط كثير من المفسرين لهذه المواضع، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإما محسن فلعله أن يزداد وإما مسيء فلعله أن يستعتب»[(٢)]، أي: يطلب من ربه إعتاباً إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه فيزول عتبه عليه.

والاستعتاب: نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى، وفي الأثر: إن العبد ليسترضي ربه فيرضى عنه، وإن الله ليسترضى فيرضى. لكن الاسترضاء فوق

---

(١) رواه ابن إسحاق دون سند (٢/ ٢٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني... عن عبد الله بن جعفر... وفيه من لم أعرفه»، مجمع الزوائد (٦/ ٣٥)، وضعفه الألباني، كما في «دفاع عن الحديث النبوي»، ص(١٩)، وتعليقه على «فقه السيرة»، ص(١٣٤).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الاستعتاب، فإنه طلب رضوان الله، والاستعتاب: طلب إزالة غضبه وعتبه وهما متلازمان[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٥].

ومعنى الآية: أن الله قيض للمشركين ـ أي: سبب لهم ـ قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

وقيل عكس هذا، وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع: وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولم يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي: زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها؛ ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره[٢].

وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾.

أي: وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم[٣].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٨١، ١٨٢).
(٢) تفسير البغوي (٦/ ١١٠).
(٣) طريق الهجرتين (٣٨٩، ٣٩٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

فالمَلَكُ يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ودفع عدوه عنه والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله فهو أنيسه في الوحدة ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن جأشه ومرغبه في الخير ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم،وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية[٢]، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً[٣].

وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في

---

(١) روضة المحبين (٢٤٦). (٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٣) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٤٣٧)، (٥/ ١٨٣) وغيرها، والترمذي (٥/ ٣٤) في العلم، باب: ما جاء في تعظيم الكذب على رسول الله ﷺ، وأبو داود (١٠/ ٩٤، ٩٥) في العلم، باب: فضل نشر العلم. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٤٠٤).

أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنِّه وكرمه، وهم كما قال فيهم عمر بن الخطاب في خطبته التي ذكرها ابن وضاح[١] في كتاب «الحوادث والبدع» له قال: «الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويحيون بكتاب الله أهل العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال تائه قد هدوه، بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، يقبلونهم في سالف الدهر وإلى يومنا هذا فما نسيهم ربك وما كان ربك نسياً. جعل قصصهم هدى وأخبر عن حسن مقالتهم. فلا تقصد عنهم فإنهم في منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضيعة».

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام ولياً من أوليائه يذب عنها وينطق بعلاماتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله».

ويكفي في هذا قول النبي ﷺ لعلي ولمعاذ أيضاً: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[٢]، وقوله ﷺ: «من أحيا شيئاً من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين»[٣]، وضم بين إصبعيه، وقوله: «من دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل أجر من اتبعه إلى يوم القيامة»[٤].

فمتى يدرك العامل هذا الفضل العظيم والحظ الجسيم بشيء من عمله، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فحقيق بالمبلغ عن رسول الله ﷺ الذي أقامه الله في هذا المقام أن يفتتح كلامه بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده، والاعتراف له بالوحدانية وتعريف حقوقه على العباد، ثم بالصلاة على رسول الله ﷺ وتمجيده والثناء عليه وأن يختمه أيضاً بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تسليماً[٥].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

---

(١) انظر: «البدع والنهي عنها» لابن وضاح، ص(٣).
(٢) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٣) رواه الترمذي بلفظ قريب من هذا، (٢٦٧٧، ٢٦٧٨).
(٤) رواه مسلم (٢٦٧٤).
(٥) جلاء الأفهام (٢٤٩، ٢٥٠).

فهذا لدفع شياطين الإنس ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. فأكد بإن، وبضمير الفصل، وأتى باللام في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة وهذا المعنى شامل للموضوعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه بهم كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود، قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر؛ قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣]»[1].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ في سياق هذا الإنكار، أي: هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون.

وحَسَّنَ ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضاً فإن السياق هاهنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده؛ ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

[فصلت: ٣٧]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة.

والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعيذ بأن له رباً يسمع ويعلم وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه، ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها فإنه سميع عليم وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تسوونها به في العبادة، فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة (حمٓ المؤمن)[1] هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر، قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[فصلت: ٣٩]**.

فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة: هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة[3].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ **[فصلت: ٤٤]**.

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن وهو عليهم عمى، أعمى الله

---

(١) أي: سورة «غافر». (٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٦، ٩٧).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

قلوبهم فلا يفقهون: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء.

وقال مجاهد بعيد من قلوبهم.

وقال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم: كذلك أنت تنادى من مكان بعيد. قال: وجاء في التفسير كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى.

والمعنى: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [**فصلت**: ٤٩، ٥٠].

قال ابن عباس: [هذا لي] يريد من عندي.

وقال مقاتل: يعني: أنا أحق بهذا.

وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به.

وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحقيته، فوصف الإنسان بأقبح صفتين إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: وما أظن الساعة قائمة، ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

أي: أن القرآن حق فأخبر أنه لا بد أن يريهم من آياتهم المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق.

ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله.

---

(١) شفاء العليل (٩٦).
(٢) شفاء العليل (٣٨).

فآياته شاهدة بصدقه وهو مشاهد بصدق رسوله بآياته فهو الشاهد والمشهود له وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء! فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه؛ ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه[١].

❁ ❁ ❁

(١) الفوائد (٢٣).

سُوْرَةُ الشُّورَى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده، وهو الحاكم فيه على لسان رسوله، فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بوحيه وكتابه[١].

* * *

- قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج. ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل والمعنى: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر: من جعله لكم أزواجاً فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان: بالأزواج. والضمير في قوله: «فيه» يرجع إلى الجعل ومعنى (الذرء): الخلق، وهو هنا الخلق الكثير فهو خلق وتكثير، فقيل: «في» بمعنى: الباء أي: يكثركم بذلك، وهذا قول الكوفيين.

والصحيح: أنها على بابها والفعل تضمن معنى: «ينشئكم»، وهو يتعدى بفي كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، فهذا تفسير الآية ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح وهو سبحانه الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذرءاً، والله أعلم[٢].

□ □ □

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٢٨). (٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٩، ٣٠٠).

فإنه سبحانه ذكر ذلك بعد ذكر نعوت كماله وأوصافه فقال:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾ [الشورى: ١ ـ ٦] إلى قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة، والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية، وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السماوات والأرض وهو السميع البصير، فهذا هو الذي ليس كمثله شيء، لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله وثبوتها له على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء.

فالمثبت للصفات والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء هو الذي يصفه سبحانه بأنه ليس كمثله شيء.

وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه له بأنه ليس كمثله شيء مجاز لا حقيقة كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

ولهذا قال من قال من السلف: إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل فسموا تعطيلهم تنزيهاً، وسموا ما وصف به نفسه تشبيهاً، وجعلوا ما يدل على ثبوت صفات الكمال وكثرتها دليلاً على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله له نوراً واغتر به من شاء وهدى الله من اعتصم بالوحي والعقل والفطرة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا

(١) الصواعق المرسلة (٣/١٠٢٨ ـ ١٠٣٠).

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ﴾ [الشورى: ١٣ ـ ١٥].

فأخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحاً والنبيين من بعده وهو دين واحد ونهانا عن التفريق فيه. ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق، وأن الحامل على ذلك التفرق: البغي من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها، ولقولها دون غيرها.

وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادراً عن هذا بعينه.

ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه وحذره من اتباع أهواء المتفرقين وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحقق أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت.

ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم وهذا يعمم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم.

فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى القدر المشترك بينهما من الحق فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به.

ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره.

ثم قال: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ والحجة هاهنا هي الخصومة، أي: للخصومة ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم بعدما ظهر الحق وأسفر صبحه وبانت أعلامه وانكشفت الغمة عنه.

وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول، وأن الدين لا احتجاج فيه، كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية، وأجوبة لمعارضتهم وإفساد لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين،

وإخبار عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد لحجج الخصم.

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته واختار بعضهم مسالمته ومتاركته وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة ولم يجد إلى ردها سبيلاً، وما خالفه أعداؤه إلا عناداً منهم وميلاً إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع، فما قام الدين إلا على ساق الحجة.

فقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة، فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع، فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحوداً وعناداً لم يبق للاحتجاج فائدة، فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار، فقد وضح الحق واستبان ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد، والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق على المبطل وإليه المصير(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

[انظر في تفسيرها: تفسير الآيتين ١٥ ـ ١٦ من سورة هود: (٢/ ٤٧)].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ﴾ [الشورى: ٢٢].

هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب، أو عند الموت، فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش؛ لأنه قد علم أنه صائر إليه، كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها فهو مشفق منها إذا رآها؛ لعلمه بأنه صائر إليها(٢).

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣٨٩ ـ ٣٩١).

(٢) طريق الهجرتين (٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

استدل شيعي على الوصية لأهل البيت بهذه الآية.

فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم، لا وصية إليهم، فهي حجة على خلاف قول الشيعة، لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي، وهذا القول دون الأول[(٢)] لوجوه:

أحدها: أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم: أن محمداً كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جواب وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه فيعود المعنى إلى: أنه لو افترى علي لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والإخبار بالغيوب ما لم يكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه، فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟

الوجه الثاني: أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٩).

(٢) (دون الأول) يقصد المؤلف: أنه أقرب من الأول [الشامي].

الثالث: أن الرابط على قلب العبد لا يقال له: ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار قي جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]. ونظائره، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]. والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

الرابع: أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم: «إنه افتراه» لا يجيبهم عليه هذا الجواب بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الأحقاف: ٨]. وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

الخامس: أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه، وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

السادس: أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة ولا التضمن ولا اللزوم، فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى فيحمل عليه بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه فقد ذكره في مواضع.

السابع: أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ﴾ [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدوراً لي لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكن أوحاه إلي وأذن لي في

تلاوته عليكم وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذباً وافتراءً كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته؛ لأن الكذب لا يعجز عنه البشر وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٦]. تعلمون حالي ولا يخفى سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي، ومن هذا لم أتمكن من قول شيء البتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمُّل ولا تعلم ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه ولا من بعضه. وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إلي وأنزله علي ولو شاء ما فعل، فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ولم أكن قبل أن يوحى إلي تالياً له، ولا لبعضه.

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. وهذا هو المناسب لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]. ولقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]. وهو برهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة، والله أعلم.

الثامن: أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣]. وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩]. ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفياً.

التاسع: أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١]. ومعنى الربط في اللغة: الشد؛ ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب، ومنه يقال: هو رابط الجأش، وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة والمعنى: يربط قلوبكم وليس كما ظن؛ بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر

فإنه يقال: ربط الفرس والدابة ولا يقال: ربط عليها، فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه كأنه أحاط عليه بالرباط، فلهذا قيل: «ربط على قلبه»، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه، والمقصود: أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

العاشر: أن الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فهو مانع يمنع العلم والتقصد، والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترى القرآن ويشعر به فلم يجعل الله على قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به، فإذا قيل: الأمر كذلك ولكن جعل الله على قلبه مانعاً من التأذي بقولهم قيل: هذا أولى أن يسمى ختماً وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له فإنه لم يؤذَ نبي ما أوذي، فالقول في الآية هو قول قتادة، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾. فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله(٢).

* * *

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخُلُق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨٥ ـ ١٩٠). (٢) الفوائد (٨١).

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار، وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: «كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا»، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي أثر معروف: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»؛ ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أي: إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهي كمال القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك.

إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر عن المسيء والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزاً ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو؛ ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط[(١)].

وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ **[الشورى: ٤٨]**.

كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى (بإذا)، وأتى في

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧). (٢) الروح لابن القيم (٢٤٢).

إصابة السيئة (بإن) فإن ما يعفو الله عنه أكثر. وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق ولا بد، وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم وإنها مذوقة لهم والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها، وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾، وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم.

وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية.

وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضاً لمقته أن يتسخط ما وهبه.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث فقيل: جبراً لهن؛ لأجل استقبال الوالدين لمكانهما.

وقيل: ـ هو أحسن ـ إنما قدمهن؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر: وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن، أي: هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر.

وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث وعرّف الذكور فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنزيه كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم.

ثم لما ذكر الصنفين معاً قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٤٧، ٤٨).

والمقصود: أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله سبحانه في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]. وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]. ومن هنا عبّر بعض المعبرين لرجل قال له: رأيت كأن وجهي أسود فقال له: ألك امرأة حامل؟ قال: نعم، قال: تلد لك أنثى[(١)].

□ □ □

وذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال.

إحداها: من تلد الإناث فقط.

الثانية: من تلد الذكور فقط.

الثالثة: من تلد الزوجين الذكر والأنثى، وهو معنى التزويج هنا: أن يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى.

الرابعة: العقيم التي لا تلد أصلاً.

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يُدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحي، ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، قال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟»، قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين»، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: «زيادة كبد حوت ذي النون» قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين تسمى سلسبيلاً»، قال: صدقت، وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نَبي أو رجل أو

---

(١) تحفة الودود في أحكام المولود (٢٣، ٢٤).

رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟»، قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مَنِي الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه وما لي علم به حتى أتاني الله به»(١).

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعاً، فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه فيلتقي الماءان على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له.

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال: بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن آنفاً جبريل»، فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها»، فقال: أشهد أنك رسول الله(٢)، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: «نعم إذا رأت الماء الأصفر». فضحكت أم سلمة، فقالت: أوتحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: «فبم يشبهها الولد»(٣)؟

فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين، وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره الآخر وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له، وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحي وليس في صناعتهم أيضاً ما ينافيها.

---

(١) صحيح مسلم (٣١٥). (٢) رواه البخاري (٣٩٣٨).
(٣) رواه البخاري في مواضع منها (٣٣٢٨)، ومسلم (١٣١٣).

على أن في النفس من حديث ثوبان[١] ما فيها، وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي، وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام؛ ولذلك لم يخرجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر بن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة، فإذا أراد أن يخلقها قال: قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»[٢]. أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل؟ أولا ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه أبلغ من الشبه، والله أعلم. وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق، وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث، والله أعلم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين فهو روح تحيا به القلوب ونور تستضيء وتشرق به[٤].

وقد اختُلف في الضمير في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ فقيل: يعود على الكتاب وقيل: على الإيمان. والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾.

---

(١) قال ابن القيم في الطرق الحكمية (٢٢٩): «وسمعت شيخنا رحمه الله يقول: في صحة هذا اللفظ نظر.
قلت: لأن المعروف المحفوظ في ذلك، إنما هو تأثير سبق الماء في الشبه، وهو الذي ذكره البخاري من حديث أنس..»اهـ.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦١٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢٧٨ ـ ٢٨٠).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٢١).

فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحاً ونوراً وهدى؛ ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة»، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أوليائهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات(١).

❊ ❊ ❊

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥).

سُوْرَةُ الزّخْرُفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٤].

قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقري عندنا.

قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ. وأم الكتاب: أصل الكتاب. وأم كل شيء: أصله، والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقول، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فتبّت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب.

وقوله: ﴿لَدَيۡنَا﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب، أي: أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس، ويجوز أن يكون من صلة الخبر أنه علي حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به، أي: وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم(٢)؟!

* * *

(١) شفاء العليل (٤١، ٤٢).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٧، ١٨].

احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات وإذا بشر بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر فيه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتاً فكيف تجعلونها لي، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه له وأنه أنقص الجنسين؛ ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وأضعفهما بياناً، فقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. فأشار بنشأتهن في الحلية إلى أنهن ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وأنهن عييات فلا يبن عن حجتهن وقت الخصومة مع أن في قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ تعريضاً بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن، وتعريضاً بأنهن لا ينشأن في الحرب والطعان والشجاعة، فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز والوهن(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة: لا إله إلا الله وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره وهو كتابه الذي أنزله على رسوله فأعرض

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥). (٢) الجواب الكافي (٢٩٤، ٢٩٥).

عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه؛ قيض الله له شيطاناً عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في المسير، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير:

رضيعا لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددتني عن الحق وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم، ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية؛ أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩][(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

المراد بسؤالهم: سؤال أممهم عما جاؤوا به: هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إلٰه غيره؟

قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم.

وقال قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلاً من قبلك، وهم أهل الكتاب.

وعلى كل تقدير، فالمراد: التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات

(١) الجواب الكافي (١٣٦، ١٣٧).

والتوحيد، وأن الله أرسل رسلاً، أو أنزل كتباً، أو حرم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم. وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [**الزخرف**: ٨٧].

أي: فأين يصرفون عن شهادة لا إله إلا الله وعن عبادته وحده وهم يشهدون: أنه لا رب غيره ولا خالق سواه[(٢)]؟

❁ ❁ ❁

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ١١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤١١).

سُورَةُ الدُّخَان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [الدخان: ١ـ٥].

وهذه هي ليلة القدر قطعاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط.

قال مجاهد: ليلة القدر ليلة الحكم.

قال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم.

قال ابن علية: حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر، في كل رمضان هي؟ قال: نعم ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها.

وذكر يوسف بن مهران عن ابن عباس، قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.

وعن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

* * *

(١) شفاء العليل (٢٢).

لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي: اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم، وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

والحق هو: الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله وهو أنواع كثيرة.

منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب ويعاقب، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً فيحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إلٰه غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهينه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها وأنه وحده إلٰهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه فتشهد حكمته الباهرة.

---

(١) شفاء العليل (٣٢).

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ولا بد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً.

ومنها: أنه يحب أن يثني عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلٰهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق.

فخلق مخلوقاته؛ بسبب الحق؛ ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق وهو في نفسه حق، فمصدره حق وغايته حق وهو متضمن للحق.

وقد أثنى تعالى على عباده المؤمنين حيث نزَّهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [صَ: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول: إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة، ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة.

وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده، بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران لحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإن الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه، فإنهم أثبتوا خلقاً وأمراً لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة وينهى عما فيه مصلحة والجميع بالنسبة إليه سواء.

ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه وينهى عن جميع ما أمر به ولا فرق بين هذا وهذا؛ إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به، والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول، وإلا فهو جائز عليه وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه، ولا

ينزهونه عن هذا الظلم والجور ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته، وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات، والله ولي التوفيق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ **[الدخان: ٥١ ـ ٥٦]**.

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار وحسن اللباس، وكمال العشرة؛ لمقابلة بعضهم بعضاً، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً.

والحور: جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرف. وعين: حسان الأعين.

وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون.

وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين.

واختلف في اشتقاق هذه اللفظة، قال ابن عباس: الحور في كلام العرب البيض، وكذلك قال قتادة: الحور البيض، وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه.

وقال مجاهد: الحور العين التي يحار فيهن الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة وصفاء اللون.

وهذا من الاتفاق وليست اللفظة مشتقة من الحيرة.

وأصل الحور: البياض، والتحوير: التبييض.

والصحيح: أن الحور مأخوذ من الحَوَر في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين.

---

(١) شفاء العليل (١٩٨، ١٩٩).

وفي الصحاح: الحور شدة بياض العين في شدة سوادها. امرأة حوراء: بينة الحور.

وقال أبو عمر: الحور: أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر، وليس في بني آدم حور، وإنما قيل: النساء حور العين؛ لأنهن شبهن بالظباء والبقر.

وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين؟

قلت: خالف أبو عمرو أهل اللغة في اشتقاق اللفظة ورد الحور إلى السواد، والناس غيره إنما ردوه إلى البياض أو إلى بياض في سواد والحور في العين: معنى يلتئم من حسن البياض والسواد وتناسبهما واكتساب كل واحد منهما الحسن من الآخر، عين حوراء: إذا اشتد بياض أبيضها وسواد أسودها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينيها بياض لون الجسد.

والعين جمع عيناء وهي العظيمة العين من النساء، ورجل أعين إذا كان ضخم العين، وامرأة عيناء، والجمع عين، والصحيح أن العين اللائي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة.

قال مقاتل: العين حسان الأعين ومن محاسن المرأة اتساع عينها في طول، وضيق العين في المرأة من العيوب، وإنما يستحب الضيق منها في أربعة مواضع: فمها، وخرق أذنها، وأنفها، وما هنالك[(١)].

□ □ □

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، و(المقام): موضع الإقامة و(الأمين): الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي جمع صفات الأمن كلها فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون من الخروج والنغص والنكد (والبلد الأمين): الذي قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم.

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾. فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتاً[(٢)].

□ □ □

(١) حادي الأرواح (١٧٨).
(٢) حادي الأرواح (٨٩).

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

فهذا الاستثناء؛ هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جار في كل منقطع فتأمله، فإنه من أسرار العربية[1].

❀ ❀ ❀

(١) مدارج السالكين (١/ ٣١٩).

سُورَةُ الجَاثِيَة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].

قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

فالشريعة التي جعله ربه عليها تتضمن ما أمره به، ورضيه له، وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لا يعلمون، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به، ويتخذه ديناً، وينهى عما يبغضه ويذمه إلا بهدى من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله وأمره والمؤمنين باتباعها؛ ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء في الدين: من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء؛ فيذمونهم بذلك ويحذرون عنهم ولو ظهر عنهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥١).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

قال يونس بن عبد الأعلى: قلت للشافعي: تدري ما قال صاحبنا؟ ـ يريد الليث بن سعد ـ كان يقول: لو رأيته ـ يريد صاحب البدعة ـ يمشي على الماء لا تثق به ولا تعبأ ولا تكلمه. قال: قصّر والله، يريد أقبح من ذلك[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حكم سيء، والحاكم به مسيء ظالم.

ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به، لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء، المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم. ولا كان هنا حكم سيء في نفسه ينكر على من حكم به[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [**الجاثية**: ٢٣].

قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه، وقال أيضاً: على علم قد سبق عنده، وقال أيضاً: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه.

وقال أبو إسحاق: أي: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين.

وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره، قال: وقيل: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج ابن الجوزي قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي[٣].

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية؛ هذا أحدهما، قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه، قال: وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول: يكون على علم حال من الفاعل، المعنى: أضله الله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه.

---

(١) الكلام في مسألة السماع (٢٨١، ٢٨٢). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٤/ ١٥٩، ١٦٠).

وعلى الثاني: حال من المفعول، أي: أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول، فالمعنى: أضله الله عالماً به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليس أهلاً أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها.

فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال.

وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه، وإعطاء الخير من يستحقه، ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه، وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر، كما قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(1) [الأنعام: ١٢٥].

□ □ □

[وفي] قول آخر: إنه على علم الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر، فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة، لم يضله على جهل وعدم علم، وهذا يشبه قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، ونظائره كثيرة. وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده وهو يراها عياناً، كما في الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»(2). فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعاً لهواه عالماً بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل(3).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

---

(١) شفاء العليل (٣٠).

(٢) ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٤): «رواه الطبراني في الصغير وفيه عثمان البري قال الفلاس: صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة، ضعفه أحمد والنسائي والدارقطني»، وضعفه الألباني كما في الضعيفة (١٣٨/٤) رقم (١٦٣٤). فانظره مفصلاً.

(٣) شفاء العليل (٣٩).

الغشاوة: هي غطاء العين، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه، وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديداً أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه، وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول، وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك الغشاوة غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم(٢).

قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة، قال: والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يوماً بيوم.

وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه.

وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن الآية تعم الأمرين(٣).

* * *

(١) شفاء العليل (٩٦).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٢).
(٣) طريق الهجرتين (٦٦).

سُورَةُ الأحْقَافِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني، قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك؛ ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: «كان رسول الله ﷺ موزعاً بالسواك»[(١)] . أي: مولعاً به، كأنه كف ومنع إلا منه.

وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعاً: كففته فاتزع عنه، أي: كف وأوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به، واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي: استلهمته فألهمني.

فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك واجعلني مغرى به وكفني عما سواه[(٢)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل إنه يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها في الدنيا[(٣)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

---

(١) في المطبوع «بالسؤال» والصحيح ما أثبته كما في الفائق للزمخشري (٤/ ٥٧).
«وقال: أي: مولعاً»، وكذا في النهاية لابن الأثير (٥/ ١٨١)، واللسان، مادة: «وزع»، ولم أستطع معرفة مخرجي الحديث، مع دلالة الأحاديث الصحيحة عليه.

(٢) شفاء العليل (٥٧).

(٣) طريق الهجرتين (٢٧٣).

أي: كل شيء يقبل التدمير ومن شأن الريح أن تدمره ونظائره كثيرة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ **إلى قوله**: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [**الأحقاف**: ٢٩ ـ ٣٢].

فهذا يدل على تكليف الجن من وجوه متعددة:

أحدها: أن الله ﷻ صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

الثاني: أنهم ولوا إلى قومهم منذرين، والإنذار هو الإعلام للخوف بعد انعقاد أسبابه. فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم، وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

الرابع: أنهم قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

الخامس: أنهم قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، والذنب مخالفة الأمر.

السادس: أنهم قالوا: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

السابع: أنهم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن والآية لا تستلزمه(٢).

□ □ □

(١) زاد المعاد (٤/ ١٥).

(٢) طريق الهجرتين (٣٩٠، ٣٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وتعبيرهم عنه هاهنا بالطريق فيه نكتة بديعة وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره؛ فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ، في قوله لقومه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم وإنما بعثت مصدقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي إلى سبيل مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه، والله أعلم[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦، ١٧).

سُورَةُ مُحَمَّد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

[يحتمل أن] تكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة، فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم.

ويحتمل أن يكون قوله: سيهديهم ويصلح بالهم إخباراً منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله قبل أنْ قتلوا، وأتى به بصيغة المستقبل إعلاماً منه بأنه يجدد له كل وقت نوعاً من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئاً بعد شيء.

فإن قلت فكيف يكون ذلك المستقبل خبراً عن الذين قتلوا؟

قلت: الخبر قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أنه لا يبطلها عليهم ولا يترهم إياها، هذا بعد أن قتلوا، ثم أخبر سبحانه خبراً مستأنفاً عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم لما علم أنهم سيقتلون في سبيله، وأنهم بذلوا أنفسهم له، فلهم جزءان: جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة فيرد السامع كل جملة إلى وقتها؛ لظهور المعنى وعدم التباسه، وهو في القرآن كثير، والله أعلم(١).

□ □ □

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم(٢).

* * *

(١) شفاء العليل (١٦١).
(٢) حادي الأرواح (١٠٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله، وكذلك كل موضع أمر الله ـ سبحانه ـ فيه بالسير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما، وهو الصواب.

فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حلَّ بالمكذبين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال.

وقال مقاتل: يعني: الطبع على القلب، وكأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠].

[وذلك في حق المنافقين]

فالأول: فراسة النظر والعين، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ﴾.

والثاني: فراسة الأذن والسمع، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية «رَحِمَهُ اللَّهُ» يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾، وهو تعريض الخطاب وفحوى الكلام ومغزاه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٣٢).

(٢) شفاء العليل (٩٥).

والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع.

وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]»[(١)][(٢)].

وظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدُوّاً خفياً يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفة في الوجه يراها أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وتفسير الإبطال هاهنا الردة؛ لأنها أعظم المبطلات؛ لا لأن المبطل ينحصر فيها[(٤)].

❁ ❁ ❁

(١) حديث ضعيف رواه الترمذي (٣١٢٧). (٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٣).
(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٧٢، ٣٧٣). (٤) مدارج السالكين (١/ ٢٧٨).

سُوْرَةُ الفَتْحِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢].

جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين.

والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

والثالث: هدايته الصراط المستقيم.

والرابع: إتمام نعمته عليه.

والخامس: إعطاء النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر: القدرة التامة على تنفيذ دينه.

فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد، وقهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيراً ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله.

كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. في موضعين في سورة [التوبة: ٣٣]، وفي سورة [الصف: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فهذا الهدى ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذا النصر.

فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤]. فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان، وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلاً منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل؛ ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقاناً، كما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين، ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة هذا هو معنى الآية، ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وإن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في [الأمالي المكية].

فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة(١).

□ □ □

قال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه، وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطاً مستقيماً في الدين، وإنما أراد صراطاً في الرأي والحرب والمكيدة، انتهى.

وقوله: إن المراد بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في الحرب والمكيدة؛ فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله، وأخبر النبي ﷺ: «أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها»(٢)، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطاً مستقيماً».

وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٤، ١٥).
(٢) رواه مسلم (١٧٨٦).

إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]. ونصب ديناً هنا على البدل من الجار والمجرور، أي: هداني ديناً قيماً، أَفْتَرَاهُ يمكنه هاهنا أن يقول: إن الحرب والمكيدة. فهذا جواب فاسد جداً(١).

□ □ □

قال عمر ـ حين نزلت ـ: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤](٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [**الفتح**: ١٨].

علم الله ﷻ ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله وحبسوا الهدي عن محله واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت ولم تطق الصبر فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاً وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [**الفتح**: ٢٦].

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل الله في قلوب أوليائه السكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور؛ فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٣، ١٤).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٠٨).

الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جنداً من جند الله أيد بها رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة: الطمأنينة للخير تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهة تعارض الخير، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد؛ ليقوى إيمانه؛ ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله(١).

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾

وكلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول: لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى، وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو الملزم وهم الملتزمون(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [**الفتح**: ٢٧].

بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون.

ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب لا ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت،

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥). (٢) شفاء العليل (٦٠).

وظهر لكل أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمداً وأصحابه أولي الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة؛ ولهذا سماه فتحاً، وسئل النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: «نعم»[(١)][(٢)].

□ □ □

وانظر قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، كيف جعل فعل الشرط ماضياً والجزاء مستقبلاً؛ لأن القصد كان إلى دخولهم المسجد الحرام، وعنايتهم كلها مصروفة، وهممهم معلقة به دون وقوع الأفعال بمشيئة الله تعالى، فإنهم لم يكونوا يشكون في ذلك ولا يرتابون، وأكد هذا المعنى تقديم الجزاء على الشرط، وهو إما نفس الجزاء على أصح القولين دليلاً كما تقدم تقريره، وإما دال على الجزاء وهو محذوف مقدر تأخيره، وعلى القولين؛ فتقدم الجزاء أو تقديم ما يدل عليه اعتناء بأمره وتجريداً للقصد إليه، ويدل عليه أيضاً تأكيده باللام المؤذنة بالقسم المضمر، كأنه قيل: والله لتدخلن المسجد الحرام فهذا كله يدلك على أنه هو المقصود المعني به[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذا شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبيَّن صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهداً لرسوله، معلوم بسائر أنواع الأدلة، عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥). (٢) شفاء العليل (٣٤).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٠٦، ١٠٧). (٤) مدارج السالكين (٣/ ٤٧٠).

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

سورة التوبة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

سورة الإسراء

سورة الكهف

۞ سورة الأنبياء ۞

۞ سورة الحج ۞

الموضوع | الصفحة

۞ سورة المؤمنون ۞

۞ سورة النور ۞

سورة الفرقان

الموضوع **الصفحة**

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

الموضوع	الصفحة
قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ...﴾ الآيتان (٦٩، ٧٠)	٣٦١
قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ...﴾ الآيات (٧٧ ـ ٨٣)	٣٦٢

سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر

سورة غافر

بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام

ابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

جمعه وخرج أحاديثه
يسري السيد محمد

راجعه ونسق مادته ورتبها
صالح أحمد الشامي

طبعة جديدة منقحة

المجلد الثالث

دار ابن الجوزي

الطَّبْعَةُ الأُولَى

رمضان ١٤٢٧هـ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنَقَّحَةٌ

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ -
جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام

ابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

جمعه وخرج أحاديثه
يسري السيد محمد

راجعه ونسق مادته ورتبها
صالح أحمد الشامي

طبعة جديدة منقحة

المجلد الثالث

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه؛ فأي تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به؟

قال غير واحد من السلف: ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

ومعلوم قطعاً أن من قدم عقله أو عقل غيره على ما جاء به فهو أعصى الناس لهذا النبي ﷺ، وأشدهم تقدماً بين يديه، وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته؛ فكيف يرفع معقولاتهم فوق كلامه وما جاء به؟

ومن المعلوم قطعاً أنه لم يكن يفعل هذا في عهده إلا الكفار والمنافقون، فهم الذين حكى الله سبحانه عنهم معارضة ما جاء به بعقولهم وآرائهم، وصارت تلك المعارضة ميراثاً في أشباههم كما حكى الله عن المشركين معارضة شرعه وأمره بقضائه وقدره، وورثهم في هذه المعارضة طائفتان:

إحداهما: إخوانهم المباحية، الذين خلعوا ربقة الشريعة من أعناقهم ودانوا بالقدر.

والثانية: الذين عارضوا قضاءه وقدره بأمره، وقالوا: لا يمكن الجمع بينهما فأبطلوا القدر بالأمر، وأولئك أقعد بالميراث من هؤلاء.

وقد ذكر سبحانه الأمثال العقلية التي عارض المشركون بها الوحي لتكون عبرة للمؤمنين، ومثلاً للمعارضين: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢][(١)].

وحذر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ؛ كما يجهر بعضهم

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٩٦ ـ ٩٩٨).

لبعض، وليس هذا بردة؛ بل معصية تحبط العمل وصاحبها لا يشعر بها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [**الحجرات**: ٦].

فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدِّقاً، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان: أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وهَمَّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله، فبدا له في الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله.

فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال له: «انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم، فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار»، ففعل ذلك خالد ووافاهم، فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[(٢)].

والنبأ: هو الخبر الغائب عن المخبَرِ إذا كان له شأن.

و«التبين»: طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علماً.

وهاهنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق ولو أخبر به من أخبر.

فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري

---

(١) الوابل الصيب (٢١).

(٢) رواه الإمام أحمد ﷺ (٤/ ٢٧٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥). وقال الهيثمي: «رجال أحمد ثقات»، مجمع الزوائد (٧/ ١٠٨، ١٠٩). وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٣ - ٢٢٥)، والطبري (٢٦/ ١٢٣).

وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته، وأما من فسقه من جهة الكذب؛ فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن بَدَرَ منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته.

فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين، حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده، فجاد عليهم به فضلاً منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه[٢].

وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك، ولا تبلغه.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٠، ٣٦١). (٢) شفاء العليل (٥٧).

فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون؛ لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم، وزينته في قلوبكم، وكرّهت إليكم ضده؛ لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [**الحجرات**: ١١].

قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢). وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور»، مائة مرة(٣). وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلى آخرها إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»(٤)، وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحداً منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(٥).

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله، وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها(٦).

□ □ □

وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. فحفظ حدود الله جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائباً: لرجوعه إلى أمر الله من

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٤، ٤١٥).
(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).
(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٦/ ٣٢٨)، وصححه أحمد شاكر، ورواه أبو داود (١٥١٦).
(٤) رواه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٥) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٦) مدارج السالكين (١/ ١٧٨، ١٧٩).

نهيه، وإلى طاعته من معصيته[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

نفياً للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه:

منها: أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها: أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاء، لا نفاقاً وكفراً.

ومنها: أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان.

ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾. [الحجرات: ١٤]، أي: لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها: أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم﴾ [الحجرات: ١٧]، فأثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]؛ لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها: أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ ولو كانوا منافقين لما منّ عليهم.

ومنها: أنه قال ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾، ولا ينافي هذا قوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، فإنه نفى الإيمان المطلق ومنَّ عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها: أن النبي ﷺ لما قسم القسم، قال له سعد: أعطيت فلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم»[٢] ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان، وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها.

والمقصود: الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها[٣].

* * *

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٠٦).

(٢) رواه البخاري في الإيمان (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [**الحجرات**: ١٥].

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله ثم لم يرتابوا في إيمانهم، وإنما انتفى عنهم الريب؛ لأن الإيمان قد باشر قلوبهم وخالطتها بشاشته فلم يبق للريب فيه موضع.

وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم، ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان ووجود حلاوته، فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد، كما قال الحسن: (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)[١].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (٣/ ٩١).

سُورَةُ قٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [قٓ: ١ ـ ٣].

الصحيح: أن (قٓ، ون، وص) بمنزلة (حم. وألم. وطس): تلك حروف مفردة، وهذه متعددة، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل(١).

وهاهنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده؛ ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به؛ لما في القسم من الدلالة عليه؛ أو لأن المقصود نفس المقسم به كما تقدم بيانه.

ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجيب، بل ربما لا ينبغي أن يقع سواء، كما قال سبحانه: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ١، ٢]، فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؟ وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥](٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [قٓ: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]. طلع النخل: ما يبدو من

(١) انظر: أول البقرة، وأول يس.

(٢) التبيان (٤٢٥، ٤٢٦).

ثمرته في أول ظهوره، وقشره يسمى الكفرى، والنضيد: المنضود الذي قد نضد بعضه على بعض، وإنما يقال له: نضيد ما دام في كفراه، فإذا انفتح فليس بنضيد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦].

فإن قيل: كيف تصنعون بهذا القول لله ﷻ؟

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس:

أحدهما: إنه قربه بعلمه؛ ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان.

و﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ حبل العنق وهو عرق بين الحلقوم والودجين الذي متى قطع مات صاحبه، وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضاً. وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء.

والقول الثاني: إنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه. فيكون أقرب إليه من ذلك العرق. اختاره شيخنا.

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]. فإن جبريل عليه السلام هو الذي قصه عليه بأمر الله. فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتى يقضيها(٢).

قلت: أول الآية يأبى ذلك، فإنه قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

قال: وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب، وتخليق الملائكة.

---

(١) زاد المعاد (٤/٣٣٨).

(٢) الذي في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان يحرك شفتيه إذا أنزل عليه فقيل له: لا تحرك به لسانك ـ يخشى أن ينفلت منه ـ إن علينا جمعه: أن نجمعه في صدرك، وقرآنه: أن نقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يقول: أنزل عليه ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أن نبينه على لسانك»، فتح الباري (٨/٤٩ و٥٥٠) في التفسير، في سورة القيامة، باب: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾. وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٧٦).

قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ في تخليق النطفة «فيقول الملك الذي يخلقه: يا رب، ذكر أم أنثى؟ أسويٌّ أم غير سوي؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك»(١)، فهو سبحانه الخالق وحده.

ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه، فما ثَمَّ خالق على الحقيقة غيره(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [قٓ: ٢٧ ـ ٢٩].

أي: لا أؤاخذ عبداً بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح؛ ولهذا قال قبله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ المتضمن لإقامة الحجة وبلوغ الأمر والنهي، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة، والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية.

ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يحضره ويشهد لما يلقى إليه، فإن كان غائباً عنه مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا

---

(١) صحيح مسلم (٥/ ٥٠٠، ٥٠١)، في القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٠).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٦).

بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه، وهاهنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر.

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية.

قال ابن عطية: القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب واع ينتفع به.

قال: وقال الشبلي: قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته في سمعه، فذلك إلقاء له عليها، ومنه قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]، أي: أثبتها عليك.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال بعض المتأولين معناه: وهو شاهد مقبل على الأمر غير معرض عنه ولا يفكر في غير ما يسمع.

قال: وقال قتادة: هي إشارة إلى أهل الكتاب، فكأنه قال: إن هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها؛ لعلمه بها من كتابه التوراة، وسائر كتب بني إسرائيل.

قال: فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثاني من الشهادة.

وقال الزجاج: معنى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: من شرف قلبه إلى التفهم، ألا ترى أن قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع.

ومعنى ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾: استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع. والعرب تقول: ألق إليَّ سمعك، أي: استمع مني، وهو شهيد، أي: قلبه فيما يسمع، قال: وجاء في التفسير أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبي ﷺ.

فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد، أي: شاهد أن صفة النبي ﷺ في كتابه.

وهذا هو الذي حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيداً فيه بمعنى: شاهد، أي: مخبر.

وقال صاحب الكشاف: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا

قلب له[(١)]، وإلقاء السمع: الإصغاء، وهو شهيد، أي: حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته، وأنه وحي من الله وهو بعض الشهداء في قوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده.

فلم يختلف في أن المراد بالقلب: القلب الواعي، وأن المراد بإلقاء السمع: إصغاؤه وإقباله على المذكر، وتفريغ سمعه له.

واختلف في الشهيد على أربعة أقوال:

أحدها: أنه من المشاهدة وهي الحضور، وهذا أصح الأقوال ولا يليق بالآية غيره.

والثاني: أنه شهيد من الشهادة، وفيه على هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه شاهد على صحة ما معه من الإيقان.

الثاني: أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة.

الثالث: أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة.

والصواب: القول الأول، فإن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جملة حالية؛ الواو فيها: واو الحال، أي: ألقى السمع في هذه الحال، وهذا يقتضي أن يكون حال إلقائه السمع شهيداً، وهذا هو من المشاهدة والحضور.

ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو في الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى، إذ يصير الكلام إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهداً بما معه في التوراة، أو حال كونه شاهداً يوم القيامة.

ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية.

وأيضاً فالآية عامة في كل من له قلب أو ألقى السمع، فكيف يدعى تخصيصها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبي ﷺ؟

وأيضاً فالسورة مكية[(٢)] والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذي علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع، فكيف يقال: هي في أهل الكتاب؟ فإن قيل: المختص بهم

---

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٢٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٦١٧١).

قوله: «وهو شهيد» فهذا أفسد وأفسد؛ لأن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم، وهو من له قلب أو ألقى السمع، فكيف يدعى عوده إلى شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً، ولا دلالة في اللفظ عليه.

وأيضاً فإن المشهود به محذوف ولا دلالة في اللفظ عليه، فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا؛ لذكر المشهود به، إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه، وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور، فإنه لا يقتضي مفعولاً مشهوداً به، فيتم الكلام بذكره وحده.

وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيماً وترديداً بين قسمين، أحدهما من كان له قلب، والثاني من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه.

وهذا والله أعلم سرُّ الإتيان بأو دون الواو؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط؛ لكمال استعداده وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوباً فيه، فهو قد أدركه مجملاً ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملاً، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه.

والنوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه، وجمع فكرته عليه، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله، وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج، وذكر المعارضات والأجوبة عنها.

والأولون هم الذين يدعون بالحكمة، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، فهؤلاء نوعا المستجيبين.

وأما المعارضون المدَّعون للحق فنوعان:

نوع يدْعَوْنَ بالمجادلة بالتي هي أحسن، فإن استجابوا وإلا فالمجالدة. فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد.

ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهؤلاء المدعوون بالكلام، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وأما من فسر الآية بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغني بفطرته عن علم المنطق، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة؛ فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعاة أوضاع المنطق، والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة، فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصغاؤه إليه وأن لا يزيغ في فكره، وفسر قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أنها القياس البرهاني ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ القياس الخطابي، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ القياس الجدلي.

فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير، بل ولا من تفاسير المسلمين، وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان، وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة، والقرآن بريء من ذلك كله منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات(١).

□ □ □

فالناس ثلاثة: [**الأول:**] رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد. تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب، ملقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٨٥ ـ ١٨٨).

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصدور(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث: من قال: كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر(٢).

□ □ □

[المعنى الإجمالي للسورة]

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول.

فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد، والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالك شقي وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء، وتضمنت إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائض والعيوب.

وذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى، والعالمين: الأكبر: وهو عالم الآخرة، والأصغر: وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده، وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]. أي: هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]. كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه.

□ □ □

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي

---

(١) مدارج السالكين (٤٤٢، ٤٤٣). (٢) الوابل الصيب (١٢٧).

أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم، بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء؛ ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦]. وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [قٓ: ٣].

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [قٓ: ٤] كبير معنى. فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر، وهو: أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها، وتأليفها خلقاً جديداً، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته.

فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص.

الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء، هكذا أبداً، كلما مات جيل خلفه جيل آخر. فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [قٓ: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته، كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

الثالث: كمال حكمته، كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

ولهذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص.

□ □ □

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم، ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [قٓ: ٥]، مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات؛ على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة ـ إذا تأملها العبد المنيب وتبصَّر بها ـ تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد.

فالناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجنَّاتهم، وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها. ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [قٓ: ١١]، أي: مثل هذا الإخراج من الأرض والفواكه والثمار والأقوات والحبوب، خروجكم من الأرض بعدما غيبتم فيها.

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير، وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً

فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك وصدق فيهم وعيده الذي أوعَدَتهم به رسله إن لم يؤمنوا.

وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب.

ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان، وتناقلته القرون قرناً بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

□ □ □

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ [قٓ: ١٥]. يقال لكل من عجز عن شيء: عيي به، وعيي فلان بهذا الأمر

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. قال ابن عباس: يريد: أفعجزنا، وكذلك قال مقاتل.

وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: ٣٨].

ثم أخبر سبحانه أنهم: ﴿فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: ١٥]. أي: أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد.

وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات... كل ذلك من نطفة ماء، فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته.

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به، حتى علم وساوس نفسه. ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي هو داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق:

□ □ □

ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعاً وأعظم أثراً من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

ثم أخبر عن القيامة الصغرى وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه والقدوم عليه وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى.

ثم ذكر القيامة الكبرى بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [قٓ: ٢٠]. ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التي كان عليها، له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين، فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [قٓ: ٢٢]. ولم يقل عنه، كما قال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [هود: ١١٠]. ولم يقل: في شك فيه، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجئ في الفعل فلا يقال: غفلت منه ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه فهو مبدأ غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك.

ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح. فنسبة كشف هذا الغطاء عن البعد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

□ □ □

ثم أخبر سبحانه أن قرينه، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، يكتب عمله وقوله، يقول لما يحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به؛ هذا قول مجاهد.

وقال ابن قتيبة: المعنى: هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي[(١)]، والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين، أي: هذا الشخص الذي وكلت به وهذا عمله الذي أحصيته عليه. فحينئذ يقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [قٓ: ٢٤]. وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً. وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة، ثم أجري الوصل مجرى الوقف.

ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفَّار لنعم الله وحقوقه، كفَّار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفَّار برسله وملائكته، كفَّار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً.

الثالثة: أنه منَّاع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أي: صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذ كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله إلٰهاً آخر يعبده ويحبه، ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له، ويوالي فيه ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله. فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وعلى هذا، فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله. وقالت طائفة: بل قرينه ها هنا هو المَلَك، فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى، وأنه لم يفعل ذلك

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٤٢٢).

كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ [قٓ: ٢٧]. فيقول الرب تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ [قٓ: ٢٨].

وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي الصافات والأعراف، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة الزمر، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة الشعراء وسورة (ص).

□ □ □

ثم أخبر سبحانه أنه لا يُبدل القول لديه.

فقيل: المراد بذلك قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. ووعده لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا يخلف.

قال ابن عباس: يريد: ما لوعدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي.

قال مجاهد: قد قضيت ما أنا قاض. وهذا أصح القولين في الآية.

وفيها قول آخر: إن المعنى ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس كما يغير عند الملوك والحكام. فيكون المراد بالقول قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة. قال الفراء: المعنى: ما يكذب عندي لعلمي بالغيب. وقال ابن قتيبة: ما يحرف القول عندي ولا يزاد فيه ولا ينقص منه. قال: لأنه قال: القول عندي ولم يقل: قولي، وهذا كما يقال: لا يكذب عندي.

فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [قٓ: ٢٩] من تمام قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في المعنى، أي: ما قلته ووعدت به لا بد من فعله. ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين:

أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه.

والثاني: أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده.

□ □ □

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقي فيها تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]. وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي: ليس من مزيد. والحديث الصحيح يرد هذا التأويل(١).

ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

إحداها: أن يكون أوّاباً، أي: رجّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير: الأواب: الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها. وقال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية: أن يكون حفيظاً، قال ابن عباس: لما ائتمنه الله عليه وافترضه. وقال قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته. فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب: المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [قٓ: ٣٣]. يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد. ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه. ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمٰن بالغيب إلا بعد هذا كله.

الرابعة: قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾. قال ابن عباس: راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله. وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه. ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٤، ٣٥].

□ □ □

ثم خوَّفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم وأنهم كانوا أشد منهم بطشاً ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد، وهل يجدون محيصاً ومنجى من عذاب الله؟ قال قتادة: حاص أعداء الله

---

(١) يشير للحديث الصحيح: «يقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط قط؟». رواه البخاري (٨/ ٤٦٠) في التفسير، سورة ق، باب: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، ومسلم (٥/ ٦٩٢) في صفة الجنة والنار، باب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، والترمذي (٥/ ٣٦٤) في التفسير، باب: «ومن سورة ق». وانظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٧٠).

فوجدوا أمر الله لهم مدركاً. وقال الزجاج: طَوَّفوا وفتشوا فلم يروا محيصاً من الموت. وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧]. ثم أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا إعياء، تكذيباً لأعدائه من اليهود، حيث قالوا: إنه استراح في اليوم السابع.

ثم أمر نبيه بالتأسي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود: إنه استراح، ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه، ثم أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود. فقيل: هو الوتر. وقيل: الركعتان بعد المغرب. والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر وعلي وأبي هريرة والحسن بن علي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة: أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.

ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر. وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ [قٓ: ٤٢]، بالبعث ولقاء الله يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات، فيخرجون سراعاً من غير مهلة ولا بطء، ذلك حشر يسير عليه سبحانه.

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه؛ وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.

ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده، فهو الذي ينتفع بالتذكير وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير(١).

❀ ❀ ❀

(١) الفوائد (٥ ـ ١٨).

سُوْرَةُ الذّاريَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١ ـ ٤].

أقسم بالذاريات وهي الرياح تذرو المطر وتذرو التراب وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، أي: تفرقه وتنشره، ثم بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقراً، أي: ثقلاً من الماء، وهي روايا الأرض، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح. كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «هذه العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه»(١)، ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك وهي ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾، وهي النجوم التي من فوق الغمام. و﴿يُسْرًا﴾ أي: مسخرة مذللة منقادة.

وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا رحمه الله القول الأول، وقال: هو أحسن في الترتيب، والانتقال من السافل إلى العالي فإنه بدأ بالرياح وفوقها السحاب وفوقه النجوم وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أُمرت به بين خلقه. والصحيح أن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ لا تختص بأربعة.

وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله، وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٢٩٨).

الصور، وهم المدبرات أمراً، وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم، والله أعلم.

وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة، والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته، وعظم قدرته. ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابِّها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها. فللمطر خمسة رياح: ريح ينشر سحابه، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه.

وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح.

وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها، يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاءً تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذاباً تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يغطيها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيماً، وتارة لاقحة، وتارة جنوباً، وتارة دبوراً، وتارة صباً، وتارة شمالاً، وتارة حارة، وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسار بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء.

تحمل الأصوات إلى الآذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجرز.

وهي من رَوح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فقال: بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا: يا رب، هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله»(١)، ورواه الإمام أحمد في مسنده.

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/ ١٢٤)، والترمذي (٣٣٦٩).

وفي الترمذي[١] في حديث قصة عاد: أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية. قال البخاري في صحيحه: عتت على الخَزَنة، فلم يستطيعوا أن يردوها[٢].

والمقصود: أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

□ □ □

ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو. في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح، فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض، حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه.

فسل السحاب: من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلاً، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولاً، فإن لم يجبك جواباً أجابك اعتبار مرسل الرياح، من أنشأها بقدرته وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشراً بين يدي رحمته، جعلها سبباً لتمام نعمته، وسلطاناً على من شاء بعقوبته، ومن جعلها رخاءً وذارية، ولاقحة، ومثيرة، ومؤلفة، ومغذية لأبدان الحيوان، والشجر، والنبات، وجعلها قاصفاً، وعاصفاً، ومهلكة وعاتية، إلى غير ذلك من صفاتها.

فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين؟

□ □ □

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥) في التفسير، باب: من سورة الذاريات.

(٢) ذكره البخاري (٦/ ٤٣٣) في كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، عن ابن عيينة قال: «عتت على الخزان». وانظر: تفسير ابن عيينة، ص(٣٣٨)، سورة الحاقة.

وسل الجاريات يسراً من السفن: من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها؟ ومن الذي أجرى لها ريحاً واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يميناً وشمالاً. تتلاعب بها الريح؟ ومن الذي علَّم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم، الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره، مقبلاً ومدبراً بريح واحدة، تجري في موج كالجبال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٤]. ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟.

□ □ □

وسل الجاريات يسراً من الكواكب، والشمس، والقمر: من الذي خلقها وأحسن خلقها، ورفع مكانها وزين بها قبة العالم، وفاوت بين أشكالها ومقاديرها، وألوانها، وحركاتها، وأماكنها من السماء، فمنها الكبير، ومنها الصغير، والمتوسط، والأبيض، والأحمر، والزجاجي اللون، والدري اللون، والمتوسط في قبة الفلك، والمتطرف في جوانبها. وبين ذلك؟ ومنها ما يقطع الفلك في شهر ومنها ما يقطعه في عام ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاماً ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك. ومنها ما لا يزال ظاهراً لا يغيب بحال فهو أبدي، ومنها أبدي الخفاء، ومنها ما له حالتان؛ ظهور واختفاء، ومنها ما له حركتان: حركة عرضية من المشرق إلى المغرب، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق، فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع، وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته وحكمته، ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله،

فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر. فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه، وقدرته وعلمه، وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة. ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا.

□ □ □

وأما دلالة ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ وهم الملائكة؛ فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم، والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ٥ ـ ١٢].

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾، أي: ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي: إن الجزاء لكائن لا محالة.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف، والمعنى: أن الذي توعدونه لصادق، أي: كائن وثابت. وأن تكون مصدرية، أي: إن وعدكم لحق وصدق.

ووصف الوعد بكونه صادقاً أبلغ من وصفه بكونه صدقاً، ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه، بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، فوصف كلامه بأنه صادق، وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، وماء دافق. ومنه ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. وليس ذلك بمجاز، ولا مخالف لمقتضى التركيب.

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالًّا عليه؛ مرشداً إليه.

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾.

أصل الحبك في اللغة إجادة النسج، يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل، وفرس محبوك الكفل، أي: مدمجه، وقال شمر: المحبوك في اللغة: ما أجيد عمله، ودابة محبوكة: إذا كانت مدمجة الخلق، وقال أبو عبيدة والمبرد: الحبك: الطريق، واحدها حباك، وحباك الحَمَام: طرائق على جناحيه، وحبك الماء طريقه، وقال الفراء: الحبك تكسير كل شيء، كالرمل إذا مرت به الريح والماء الدائم إذا مرت به الريح، وتجعد الشعر حبك أيضاً، واحدها حبيكة، مثل: طرق وطريقة، وحباك مثل: مثال ومثل.

والمقصود: بهذا كله ما أفصح به ابن عباس، فقال: يريد الخلق الحسن.

وروى سعيد بن جبير عنه قال: الحبك حسنها واستواؤها، وقال قتادة: ذات الخلق الشديد. وقال مجاهد: متقنة البنيان. وقال أيضاً: ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها، كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل، وكحبك الشعر، وقال عكرمة: بنيانها كالبرد المسلسل.

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال: «ورأسه حبك»[1]، أي: جعد الشعر، ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك: ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل تدرون ما فوقكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها الرقيع سقف محفوظ، وموج مكفوف»، وذكر الحديث[2].

□ □ □

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي ﷺ، وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم، وآراؤهم، وطرائقهم، وأقوالهم. فإن الحق شيء

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٧٥) برقم (٤٥٦). قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٢٩٨).

واحد وطريق مستقيم. فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [قٓ: ٥]، أي: مختلط ملتبس. وفي ضمن هذا الجواب: أنكم في أقوال باطلة متناقضة، يكذب بعضها بعضاً، بسبب تكذيبهم بالحق.

ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فـ«عن» هاهنا فيها طرف من معنى التسبيب، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣].

وقوله: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: من سبق في علم الله أنه يضل، ويؤفك، كقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣].

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإيمان، وقيل: إلى الرسول، والمعنى: يصرف عنه من صرف حتى يكذب به.

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلاً قال: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾، أي: المكذبون(١). ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾. وجهالة قد غمرت قلوبهم، أي: غطتها وغشتها، كغمرة الماء وغمرة الموت، فالغمرات ما غطاها من جهل، أو هوى، أو سكر، أو غفلة، أو حب، أو بغض، أو خوف، أو غم، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، أي: غفلة، وقيل: جهالة.

ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم، والسهو: الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة والسهو لا يستلزم ذلك.

ثم قال: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ استبعاداً للوقوع وجحداً. فأخبر تعالى أن ذلك:

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [**الذاريات**: ١٣ ـ ١٤].

والمشهور في تفسير هذا الحرف: أنه بمعنى: يحرقون، ولكن لفظة «على» تعطي

---

(١) وأصل الخرص: القول بلا علم، بل بالظن والتخمين، والقذف بالكلام من غير برهان على صحته، ومنه سمي الكاذب خارصاً، وصاحب الظن والتخمين خارصاً [الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٣٠)].

معنى زائداً على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل: يوم هم في النار يفتنون؛ ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم: «على» بمعنى «في»، كما تكون «في» بمعنى «على». والظاهر أن فتنتهم على النار.

قيل: فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها، ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولهم، والتعذيب بها فتنة أشد منها.

ومن جعل الفتنة هاهنا من الحريق؛ أخذه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج: ١٠]. واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات.

وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه؛ ولهذا سمى الله الكفر فتنة فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾.

وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها.

ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها، وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩].

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى، وهو الجنات والعيون، وأنهم: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

من الخير والكرامة.

وفي ذلك دليل على أمور:

منها: قبولهم له.

ومنها: رضاهم به.

ومنها: وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق.

ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم. فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له، والقيام بحقوقه، وحقوق عباده. ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه.

فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾

وقد قيل: إن ﴿مَا﴾ نافية، والمعنى ما يهجعون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير؟ وهذا ضعيف لوجوه[1].

---

(١) **أحدها**: أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.
الثاني: أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله.
الثالث: أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله ﷺ، وما قام ليلة حتى الصباح.
الرابع: أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا في الليل كله. فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٩].
الخامس: أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف، أو النقصان منه، أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاث، ولم يذكر قيامه كله.
السادس: أنه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم». ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت حبلاً بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله.
السابع: أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة؛ ولهذا جازاهم عن هذا التجافي ـ الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة ـ بقرة الأعين.
الثامن: أن الصحابة ـ الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية ـ لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلاً. فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء.
التاسع: أن في هذا التقرير تفكيكاً للكلام وتقديماً لمعمول العامل المنفي عليه؛ لأنك تجعل قليلاً مفعول يهجعون، وهو منفي، والبصريون لا يجيزون ذلك وإن أجازه الكوفيون. وفصَّل بعضهم، أجازه في الظرف، ولم يجزه في غيره.

وقيل: «ما» زائدة، وخبر كان ﴿يَهْجَعُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا﴾ منصوب إما على المصدرية أي: هجوعاً قليلاً. وإما على الظرف، أي: زمناً قليلاً.

واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه، ثم نوم سدسه أحب القيام إلى الله. فيكون وقت الهجوع أكثر من وقت القيام، فكيف يثني عليهم بما الأفضل خلافه؟

وأجيب عن ذلك: بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقظته قطعاً. فإنه مستيقظ من المغرب إلى العشاء، ومن الفجر إلى طلوع الشمس. فيبقى ما بين العشاء إلى طلوع الفجر، فيقومون نصف ذلك الوقت فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ.

وقيل: (ما) مصدرية، وهي في موضع رفع بقليل أي: كانوا قليلاً هجوعهم وهو قول الحسن.

وقيل: إنها موصولة بمعنى: الذي، والعائد محذوف، أي: قليلاً من الليل الوقت الذي يهجعون، وفيه تكلف.

وقيل: ما يهجعون بدل اشتمال من اسم كان، والتقدير كان هجوعهم من الليل قليلاً. ويرد عليه أن من الليل متعلق بيهجعون، ومعمول المصدر لا يتقدم عليه، وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير. ومعناه: أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور، وقليلاً خبر كان، وتم الكلام بذلك، والمعنى: كانوا صنفاً أو جنساً قليلاً، ثم قال: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، وأصحاب هذا القول يجعلون «ما» نافية، فيعود الكلام إلى نفي هجوعهم شيئاً من الليل. وقد تقدم ما فيه.

□ □ □

ثم أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر، فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة. فباتوا لربهم سجداً وقياماً، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك، «وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً»، وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار[1]، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة النصر: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣].

بالاستغفار[١]. وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة[٢]، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم. فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان، ضد ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم، الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل.

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء، وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر، وبالشرع، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ **[الذاريات: ٢٠].**

فآيات الأرض أنواع كثيرة:

منها: خلقها وحدوثها بعد عدمها، وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها.

ومنها: بروز هذا الجانب فيها عن الماء، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به.

ومنها: سعتها وكبر خلقها.

ومنها: تسطيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]. ولا ينافي ذلك كونها كروية، فهي كرة في الحقيقة، لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها: أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعلها قراراً، وجعلها مهاداً. وجعلها ذلولاً توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول، والفؤوس، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها، وجعلها بساطاً وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها، وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ . . .﴾ [البقرة: ١٩٩].

(٢) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (١/ ٧٧، ٧٨)، وصححه أحمد شاكر، والألباني، كما في الإرواء (١/ ١٣٥).

ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنة. وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها، ولا علاقة فوقها، ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيها تكفأ السفينة، فاقتضت العناية الأزلية، والحكمة الإلٰهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها؛ لئلا تميد؛ وليستقر عليها الأنام، وجعلها ذلولاً على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد، فيمتنع حفرها وشقها، والبناء فيها، والغرس، والزرع، والنوم عليها، والمشي فيها.

ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة، فلا تمسك بناء، ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة، بل جعلها بين الصلابة والدماثة.

وأشرف الجواهر عند الإنسان: الذهب، والفضة، والياقوت، والزمرد. فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها.

وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أغلى وأعز؛ فغلاؤها وعزتها لقلتها وإلا فالتراب أنفع منها، وأبرك وأنفس.

وكذلك لم يجعلها شفافة، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور وما كان كذلك لم يقبل السخونة، فيبقى في غاية البرد، فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأتى فيه النبات، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف.

فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء. فصلحت أن تكون مستقراً للحيوان، والأنام، والنبات.

ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي أبرز له جانبها كما تقدم، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه، وأنشأ منها طعامه وقوته، وكذلك خلق منها النوع الإنساني، وأعاده إليها ويخرجه منها.

□ □ □

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع، مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة، فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت، وهذه تربة، وتلاصقها رمال، وهذه صلبة،

ويلاصقها ويليها رخوة، وهذه سوداء، ويليها أرض بيضاء، وهذه حصى كلها، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره، وهذه سبخة مالحة، وهذه بضدها، وهذه ليس فيها جبل، ولا معلم، وهذه مسجرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلا على المطر، وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها: من نوَّعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصَّها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها، وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها، ثم يعيده إليها، ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستعصية ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟

ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها، وفرشها ومهدها وذللها، وطحاها ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟

ومن الذي أنشأ منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً صلى الله وسلم عليهم أجمعين، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق، والمعادن، والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة؛ فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ـ كما نشاهده في الصيف ـ فاحترقت أبدان الحيوان والنبات، وبالجملة: فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق، والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات، وظاهرها بيوتاً للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس؛ فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق. ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم.

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق، وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور.

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع، من التأثر والانفعال. ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة، مصنوعة، مربوبة مدبرة، حادثة بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته. فحرارة الربيع للإخراج، وحرارة الصيف للإنضاج، هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع. كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، دعاه خالقه وبارئه ومصوره، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر، والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل.

فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه؛ إذ يجده مكوناً من قطرة ماء: لحوماً منضدة، وعظاماً مركبة، وأوصالاً متعددة، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب قد قمطت وشددت، وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً، للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنائع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وباب للكلام والطعام والشراب والتنفس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها.

وجعل داخل بابي السمع مراً قاتلاً، لئلا تلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه. وجعل داخل بابي البصر مالحاً، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم. وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً، ليسيغ به ما يأكله ويشربه. فلا يتنغص به لو كان مراً أو مالحاً.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء، مركبين في أعلى مكان منه، وفي أشرف عضو من أعضائه، طليعة له. وركب هذا النور في جزء صغير جداً يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وغشاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات، بعضها فوق بعض، حماية له وصيانة وحراسة. وجعل على محله غلقاً بمصراعين أعلى وأسفل، وركب في ذيل المصراعين أهداباً من الشعر وقاية للعين، وزينة وجمالاً. وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر، يحجبان العين من العرق النازل. ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك. وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلاً مخصوصاً، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً مخصوصاً، لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة.

وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة. ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء

والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والجبال، والعالم العلوي والسفلي، مع اتساع أطرافه، وتباعد أقطاره، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضاً وسواداً، وجعل القوة الباصرة في السواد، وجعل البياض مستقراً لها ومسكناً وزين كلاً منهما بالآخر وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم، والحواجب بالأهداب، وجعلها سوداء، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر، فضعف الإدراك. فإن السواد يجمع البصر، ويمنع من تفرق النور الباصر. وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين.

ولما كانت العين كالمرآة، التي إنما تنطبع فيها الصور إذ كانت في غاية الصقالة والصفاء، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً بالطبع إلى الانطباق، من غير تكلف؛ لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات؛ ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً فإنها لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣].

أما الرزق ففسر بالمطر، وفسر بالجنة، وفسر برزق الدنيا والآخرة، ولا ريب أن المطر من الرحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة. فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، قال عطاء رضي الله عنه: من الثواب والعقاب. وقال الكلبي: من الخير والشر. وقال مجاهد: من الجنة والنار. وقال ابن سيرين: من أمر الساعة.

قلت: كون الجنة والخير في السماء فلا إشكال فيه، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين.

فإذا نظرت إلى أسباب الخير والشر، وأسباب دخول الجنة والنار، وافتراق الناس، وانقسامهم إلى شقي وسعيد، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره، النازل من السماء. وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة، وفي اللوح المحفوظ قبل

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٧٨ ـ ٣٠٥).

العمل وبعده. فالأمر كله من السماء. وقول من قال: من أمر الساعة: يكشف عن هذا المعنى، فإن أمر الساعة يأتي من السماء، وهو الموعود بها. فالجنة والنار الغاية التي لأجلها قامت الساعة. فصح كل ما قال السلف في ذلك، والله أعلم.

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به، على أجل مقسم عليه وأكد الإخبار بهذا القسم، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذي لا يشك فيه ذو حاسة سليمة. فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾

قال ابن عباس ﵄: يريد أنه لحق واقع، كما أنكم تنطقون، وقال الفراء: إنه لحق كما أن الآدمي ناطق، وقال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قلت: وفي الحديث: «إنه لحق كما أنك هاهنا»(١). فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمي ووجوده. والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده، ولا يخالجه شك في أنه ناطق. فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد، والنبوة، والمعاد، وأسمائه، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده. وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم. يقول أحدهم: هذا حق مثل الشمس. وأفصح الشاعر عن هذا بقوله:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

□ □ □

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه، وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه. وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معايناً مشاهداً بالبصائر، وإن لم يعاين بالإبصار.

ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له، ولا تأخذ له أهبة، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قد

---

(١) ذكره ابن كثير عن معاذ موقوفاً عليه: «كان إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق، كما أنك هاهنا» (٤/ ٢٥١) تفسير ابن كثير.

ملكهم الحس، وقلَّ نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل، وكأن المقيم لا يرحل وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله: لفلان ابن فلان بالأمان من عذابه. والفوز بجزيل ثوابه. فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها، ومن أي وجه لاحت أخذوها، غافلين عن المطالبة، آمنين من العاقبة. يسعون لما يدركون، ويتركون ما هم به مطالبون، ويعمرون ما هم عنه منتقلون، ويخربون ما هم إليه صائرون، وهم عن الآخرة هم غافلون. ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون في مصالحها، ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته، وتحصى عليه أنفاسه، ومطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل؟

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المحلين تنزل؟

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته، وذهاب لذاته، لا لما سبق من جناياته، ولا لسوء منقلبه بعد مماته، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولا بد.

فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله، وسار بفكره، وأمعن النظر، وتأمل الآيات، لفهم المراد من إيجاده، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق، ولأخذ المسافر في التزود، والمريض في التداوي، والحازم ما يجوز أن يأتي. فما الظن بأمر متيقن؛ كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم وكأنهم يعاينون الأمر.

فأضحت ربوع الإيمان من أهلها خالية، ومعالمه على عروشها خاوية. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن علي عن الأوزاعي، قال: كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم، حتى لو أن حبيباً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس، ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيتخلفون بأول ما يقتضون فيه أمر معادهم، وما هم صائرون إليه، ثم يأخذون في الفقه(١).

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢١ ـ ٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠].

ففي هذا ثناء على إبراهيم في وجوه متعددة:

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون وهذا على أحد القولين: إنه إكرام إبراهيم. والثاني: إنهم المكرمون عند الله. ولا تنافي بين القولين فالآية تدل على المعنيين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ فلم يذكر استئذانهم. ففي هذا دليل على أنه ﷺ كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيفة مطروقاً لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله: ﴿سَلَامٌ﴾ بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم فإن قولهم: ﴿سَلَامًا﴾ يدل على سلمنا سلاماً. وقوله: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: سلام عليكم.

الرابع: أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون. فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام.

الخامس: أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله فقال: ﴿مُنْكَرُونَ﴾ ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس: أنه راغ إلى أهله ليجيئهم بنزلهم، والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة فدل على أن ذلك كان معداً عندهم

مهيَّأ للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه.

الثامن: قوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه ﷺ.

العاشر: أنه سمين لا هزيل، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فآثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه إليهم ولم يقربهم إليه وهذا أبلغ في الكرامة أن تجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه ويحمله إلى حضرته ولا تضع الطعام في ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه.

الثالث عشر: أنه قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وهذا عرض وتلطف في القول وهو أحسن من قوله: كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه؛ ولهذا يقولون: بسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم لأنه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم: ألا تأكلون؛ ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم ولم يظهر لهم، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: لا تخف وبشروه بالغلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف، إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين[١].

□ □ □

(١) جلاء الأفهام (١٥٦ ـ ١٥٩).

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها. فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار.

□ □ □

وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام؛ ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى: (قد) التي تقتضي التحقيق. ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له، صدر له الكلام بأداة الاستفهام، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بألا، وتارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكراً به، وإما واعظاً له مخوفاً، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به، وإما مقرراً له.

فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]، ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته.

وفيه أمر آخر:

وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك. فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه

وأنس به، فلما علموا منه ذلك ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنَّى لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده. وقد بيَّن سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته. واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة. فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣١ ـ ٣٣]

ثم ذكر ﷻ قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة

المسوَّمة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب؛ لوقوعه عياناً في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام.

فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها، تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟ وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله تعالى.

كما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا يزال الدهر فيه الشقاوة والسعادة.

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء. ففرار السعداء: الفرار إلى الله ﷻ.

وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته وهو سبحانه كما أنه يحب أن يُعبد، يحب أن يُحمد ويُثنى عليه ويُذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى(٣).

❁ ❁ ❁

(١) الرسالة التبوكية (٧٣ ـ ٨٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٦٩).
(٣) طريق الهجرتين (١٢٥، ١٢٦).

سُورَةُ الطُّورِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [**الطور**: ١ ـ ٨].

تضمن هذا القسم خمسة أشياء وهي: مظاهر آياته، وقدرته، وحكمته، الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

[١] فالطور هو: الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرَّفه هاهنا باللام وعرَّفه في موضع آخر بالإضافة فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]. وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه. قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدثني محمد بن عبيد بن حبان قال: حدثنا جعفر بن سليمان قال: حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال: أوحى الله ﷻ إلى الجبال إني نازل على جبل منكم، قال: فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور فإنه تواضع وقال: أرضى بما قسم الله لي فكان الأمر عليه، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به وإنه لسيد الجبال.

[٢] الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب فقيل: هو اللوح المحفوظ وهذا غلط فإنه ليس برق، وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم.

وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور، وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول واختاره جماعة من المفسرين ومنهم من لم يزك غيره، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله وأقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته وأدلة توحيده وهداية خلقه.

ثم قيل: هو التوراة التي أنزل الله على موسى وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال: هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح.

وقيل: هو القرآن؛ ولعل هذا أرجح الأقوال؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة، بأيدي سفرة كرام بررة. فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشوراً.

وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب. ويكون ذلك متضمناً للنبوتين المعظمتين، نبوة موسى، ونبوة محمد. وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون.

□ □ □

[٣] ثم أقسم بسيد البيوت، وهو البيت المعمور.

وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوباً مفروغاً منه، وفي وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور.

وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء «يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[(١)]، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض، وقيل: هو البيت الحرام. ولا ريب أن كلًّا منهما معمور، فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت.

□ □ □

[٤] ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته، وعجائب صنعته، وهما: السقف المرفوع[(٢)]، وهو السماء، فإنها من أعظم آياته قدراً، وارتفاعاً، وسعة وسمكاً، ولوناً، وإشراقاً وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها انتظامه، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار، والسنين والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف. ومنها تنزل البركات، وإليها تصعد الأرواح، وأعمالها وكلماتها الطيبة.

[٥] [وأما] البحر المسجور، فهو آية عظيمة من آياته، وعجائبه لا يحصيها إلا الله

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).
(٢) هذا هو المخلوق العظيم الأول، أما الثاني فهو البحر المسجور المذكور في الفقرة التالية.

واختلف في هذا البحر، هل هو الذي فوق السماوات، أو البحر الذي نشاهده؟ على قولين: فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الذي رواه أبو داود، من حديث سماك عن عبد الله بن مخيمرة عن الأحنف بن قيس، قال: كنت بالبطحاء في عصابة، فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟»، قالوا: السحاب، قال: «والمزن؟»، قالوا: والمزن، قال: «والعنان؟»، قالوا: والعنان. قال: «هل تدرون ما بين السماء والأرض؟»، قالوا: لا ندري، قال: «إن بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك ـ حتى عد سبع سموات ـ. ثم فوق السابعة بحراً بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك»[(١)]. وهذا لا يناقض ما في جامع الترمذي: «إن بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام»[(٢)]، إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسمائة مقدرة بسير الإبل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الإبل سبعة أضعاف. وهذا القول في البحر الذي تحت العرش محكي عن علي بن أبي طالب.

والثاني أنه بحر الأرض. واختلف في المسجور، فقيل: المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة. قال الفراء: المسجور في كلام العرب المملوء. يقال: سجرت الإناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدعا   مسجورة متجاور أقلامها

وقال المبرد: المسجور المملوء عند العرب، وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عيناً مملوءة ماء، وكذا قال ابن عباس: المسجور الممتلئ.

وقال مجاهد: المسجور الموقد. قال الليث: السجر، إيقادك في التنور تسجره سجراً، والسجر اسم الحطب. وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال:

---

(١) رواه أبو داود (١٣/ ٥ ـ ٩) في السنة، باب: في الجهمية، ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/ ٢٠٤) برقم (١٧٧١)، بتحقيق: الشيخ أحمد شاكر، وضعفه من أجل الوليد بن أبي ثور، فانظره مفصلاً.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٨).

مسجور. قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول، لأنك تقول: سجرت التنور إذا ملأته حطباً. وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس: أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف، وهذا القول اختيار أبي العالية، قال أبو زيد: المسجور المملوء، والمسجور الذي ليس فيه شيء، جعله من الأضداد.

وقد روي عن ابن عباس أن المسجور المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه. والمعنى على هذا: أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض على الأرض فيغرقها، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامراً للأرض فوقها، كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم».

وأقوى الأقوال في المسجور: إنه الموقد. وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت ناراً، ومن قال: يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها ناراً موقدة، وكذا من قال: ملئت، فإنها تملأ ناراً.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير ناراً: فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني. والله أعلم.

□ □ □

وأقسم سبحانه بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾. ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له، وهذا يتناول أمرين:

أحدهما: أنه لا دافع لوقوعه.

والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال:

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ٩ ـ ١٦].

والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب، والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء؛ ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال، فقال: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]. من مكان إلى مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ، وتموج، وتذهب، وتجيء.

قال الجوهري: مار الشيء يمور موراً، أي: تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخلة العيدانة، أي: الطويلة، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾، قال الضحاك: تموج موجاً، وقال أبو عبيدة، والأخفش: تكفأ، وأنشد للأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب، ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعا، أي: يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعاً بعد دفع، فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وتقولون: لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق.

ثم يقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الآن، كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة، فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ ثم سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها، فقيل لهم يومئذ: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾.

كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثم اعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذاباً، فلم يجدوا من اقترانهم به بداً. بل صارت عذاباً لازماً لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا.

فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالاً كلياً لم يعذبوا عليه في الآخرة؛ لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له. والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها.

وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض، وغلب الأقوى الأضعف، وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار، فهذا حكم الله وحكمته في خلقه، وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحداً.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ **[الطور: ١٧ ـ ٢٠]**.

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان وحالهم في المساكن وهو النعيم، وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه ـ بالكسر ـ يفكه فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس، والفاكه البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشيء، إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها، ومنه قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]. قيل: معناه: تندمون، وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده، يقال: تحنث إذا زال الحنث عنه، وتحرج وتحوب وتأثم، ومنه تفكه، وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم، وللخارج منه: كتحرج وتأثم.

والمقصود: أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب؛ فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم.

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله: ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾.

فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾.

وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]. فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه، ولا يكون بعيداً منه، قد حيل بينه وبنيه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجاً كما يزوج البعل بالبعل، جعلناهم اثنين اثنين. وقال يونس: قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج، واحتج على هذا بأن العرب لا تقول: تزوجت بها وإنما تقول: تزوجتها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وفي الحديث: «زوجتكها بما معك من القرآن»[١]، وقال غيره: العرب تقول: تزوجت بامرأة، وقال الأزهري: العرب تقول: زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

أي: قرناهم. وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع، أي: شفعناهم وقرناهم بهن، وقالت طائفة منهم مجاهد: زوجناهم بهن، أي: أنكحناهم إياهن.

قلت: وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم، فالقولان واحد، والله أعلم.

وأما الحور العين فقال مجاهد: التي يحار فيها الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون، وقال قتادة: ﴿بِحُورٍ﴾، أي: بيض، وكذا قال ابن عباس، وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه، العين: الحسان الأعين. وعين حوراء: شديدة السواد، نقية البياض، طويلة الأهداب مع سوادها كاملة الحسن، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة، كما قال: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمٰن: ٧٠]. فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن. وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف بما سكت عنه.

* * *

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢١-٢٨]

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل؛ وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك؛ بل: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق، كما في قوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما نقصناهم.

ثم ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه؛ ليتم بذلك فرحهم وسرورهم.

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم فقال: قوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

فنفى باللغو السباب، والتخاصم، والهجر والفحش في المقال، والعربدة. ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولم يقل: ولا إثم، أي: ليس فيها ما يحملهم على الإثم ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون. قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم.

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون: المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة. بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في

موضع آخر: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]. ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم، وذهابهم، ومجيئهم، وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن منّ الله علينا، فأمنا مما نخاف ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾.

وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسروراً، فهذا كان مسروراً مع إساءته، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم. فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فبالله سبحانه المستعان.

ثم أخبر عن حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا يعبدون الله فيها، فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره، ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته؛ فإنه هو البر الرحيم.

فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة، والله أعلم(١).

□ □ □

روى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، قال: ما نقصنا الآباء مما أعطى البنين»(٢).

وذكر ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك: أظنه حكاه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك، فيقول: يا رب فقد عملت لي ولهم فيؤمر بالإلحاق بهم». ثم تلا ابن عباس:

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٦٤ ـ ٢٧٨).

(٢) رواه البزار (٣/ ٧٠) في تفسير سورة الطور، وقال الهيثمي: «رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقة شعبة والثوري وفيه ضعف»، مجمع الزوائد (٧/ ١١٤).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ . . .﴾، إلى آخر الآية[١].

وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية: هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان؟ على ثلاثة أقوال: واختلافهم مبني على أن قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين.

فقالت طائفة: المعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم فأتوا من الإيمان بمثل ما أوتوا به ألحقناهم بهم في الدرجات قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ فجعل الفعل في الاتباع لهم قالوا: وقد أطلق الله سبحانه الذرية على الكبار كما قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]. وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]. وقال: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

وهذا قول الكبار العقلاء قالوا: ويدل على ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: «إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه»[٢]. فهذا يدل على أنهم دخلوا بأعمالهم ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم فبلغهم إياها وإن تقاصر عملهم عنها، قالوا: وأيضاً فالإيمان هو القول والعمل والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار، وعلى هذا فيكون المعنى: أن سبحانه يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا الإيمان بمثل إيمانه إذ هذا حقيقة التبعية وهذا كما أن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعاً وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن.

وقالت طائفة أخرى: الذرية هٰهنا الصغار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء وإن كانوا صغاراً في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك إلا فيما كان من أحكام البالغين، ويكون قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين، أي: وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء قالوا: ويدل على صحة هذا القول: إن البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب فإنهم مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٤٠) رقم (١٢٢٤٨)، والصغير (١/ ٢٤٣) رقم (٦٣١)، قال الهيثمي: «فيه محمد بن عبد الرحمٰن بن غزوان وهو ضعيف»، مجمع الزوائد (٧/ ١١٤).

(٢) انظر: الحديث قبل السابق.

لاستقلالهم بأنفسهم ولو كان المراد بالذرية البالغين؛ لكان أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم، ويكون أولاد التابعين البالغين كلهم في درجة آبائهم وهلم جرًّا إلى يوم القيامة فيكون الآخرون في درجة السابقين.

قالوا: ويدل عليه أيضاً أنه سبحانه جعلهم معهم تبعاً في الدرجة كما جعلهم معهم تبعاً في الإيمان ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعاً بل إيمان استقلال، قالوا: ويدل عليه أن الله سبحانه جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين، وأما الأتباع فإن الله سبحانه يرفعهم إلى درجة أهليهم وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضاً فالحور العين الخدم في درجة أهليهم وإن لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم.

وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية على الصغار والكبار؛ لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه والصغير يتبع الأب بإيمان الأب قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير الواحد والكثير والابن والأب، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]. أي: آبائهم والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعي قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. فلو أعتق صغيراً أجاز قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عيونهم ثم قرأ هذه الآية.

وقال ابن مسعود في هذه الآية: الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه؛ لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك.

وقال أبو مجلز: يجمعهم الله له كما كان يحب أن يجمعوا في الدنيا، وقال الشعبي: أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة، وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء، وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئاً.

قالوا: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين فمن قرأ: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتَهُم﴾، فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ومن

قرأ: (وأتبعناهم ذرياتهم) فهذا حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكماً فدلت القراءتان على النوعين.

قلت: واختصاص الذرية هٰهنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم مثل هذا في الصغار، فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته، والله أعلم[١].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: أنا كنا من قبل نخلص له العبادة وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السمٰوات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [**الطور**: ٣٥، ٣٦].

فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر فيها فرأى فيها بنياناً وقصوراً وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعاً صنعها وبانياً بناها.

ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وهذا أيضاً من المستحيل أن يكون العبد موجداً خالقاً لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعاً ولا ظفراً، ولا شعرة، كيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه؟

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقاً خلقهم وفاطراً فطرهم، فهو الإلٰه الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلٰهاً غيره وهو وحده الخالق لهم!؟

---

(١) حادي الأرواح (٣١٦ ـ ٣١٨). (٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥، ٦).

فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من هذه الحجة؟

قيل: أحسن موقع، فإنه بيَّن بالقسمين الأولين أن لهم خالقاً وفاطراً وأنهم مخلوقون، وبيَّن بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السماوات والأرض وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥ ـ ٤٧].

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا.

وقد يقال وهو أظهر: إن من مات منهم عذب في البرزخ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ(٢).

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

(٢) الروح لابن القيم (٧٥).

سُورَةُ النَّجْمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢].

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي.

واختلف الناس في المراد بالنجم، فقال الكلبي عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله: أربع آيات، وثلاثاً، والسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة. وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء، وعلى هذا فسمي القرآن نجماً لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفرق تنجماً والمفرق نجماً، ونجوم الكتاب أقساطها. ويقول: جعلت مالي على فلان نجوماً منجمة كل نجم كذا وكذا.

وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها فيقولون: إذا طلع النجم ـ يريدون الثريا ـ حل عليك الدين، ومنه قول زهير في دية جعلت نجوماً على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجم تفريقاً وإن لم يكن موقتاً بطلوع نجم.

وقوله: ﴿هَوَىٰ﴾ على هذا القول، أي: نزل من علو إلى سفل. قال أبو زيد: هوى العقاب تهوي هوياً ـ بفتح الهاء ـ إذا انقضت على صيد أو غيره، وكذلك قال ابن الأعرابي. وفرق بين الهوي لقوله: والدلو في إصعادها عجل الهوى.

وقال الليث: العامة تقول: الهُوي ـ بالضم ـ في مصدر هوى يهوي. وكذلك قال الأصمعي: هوى يهوي هو بفتح الهاء، إذا سقط إلى أسفل، قال: وكذلك الهوي في السير إذا مضى.

وقال ابن عباس، في رواية علي بن أبي طلحة، وعطية: يعني: الثريا إذا سقطت

وغابت، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به: الثريا، قال: فباتت تعد النجم، وقال أبو حمزة اليماني: يعني: النجوم إذا انتشرت يوم القيامة.

وقال ابن عباس: في رواية عكرمة: يعني: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع.

وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال.

ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي، وحرساً له.

وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هوياً، ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه، وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت، وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة، بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً؛ لعدم ظهوره للمخاطبين، ولا سيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن، والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى؛ فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله، بها ظهر دينه وشرعه، وأسماؤه، وصفاته وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى، والغي المنافي للرشاد، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد، فالهدى في علمه والرشاد في علمه، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وفلاحه، وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه، فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»[1].

فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢ ـ ٤٤).

والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلباً، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية. ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: [**الأول**:] ضال في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل.

الثاني: مهتد في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به.

الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر.

الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قدراً، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: ما ضل محمد. تأكيداً لإقامة الحجة عليهم، بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي، ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط. وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ **[النجم: ٣ ـ ٤]**.

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى، وبهذا الكمال هداه ورشده وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه؛ فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى. وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحى.

وقد احتج الشافعي لذلك فقال: لعل من حجة من قال: بهذا قوله: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ

﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. قال: ولعل من حجته أن يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك...» الحديث(١).

وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجعرانة سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته بعدما تضمخ بالخلوق، فنظر إليه النبي ﷺ ساعة ثم سكت، فجاء الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محرم يغط، ثم سُرِّي عنه، فقال: «أين السائل آنفاً؟» فجيء به، فقال: «انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجتك»(٢).

وقال الشافعي: أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحي. وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة وعقول فإنما نزل به الوحي. وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنَّة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه.

وذكر الأوزاعي أيضاً عن أبي عبيد، صاحب سليمان: أخبرني القاسم ابن مخيمرة، حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله ﷺ: سعر لنا. قال: «لا تسألني عن سنة أحدثها فيكم، لم يأمرني بها ولكن سلوا الله من فضله»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٧٢٤)، ومسلم (١٦٩٧).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٤٩٨٥)، ومسلم (١١٨٠).

(٣) لم أعرف من «طلحة بن فضيلة» هذا، وذكره الهيمثي في مجمع الزوائد (٤/ ١٠٠) «عن أبي بصيلة قال: قيل للنبي ﷺ... فذكره»، وقال: «فيه بكر بن سهل الدمياطي ضعفه النسائي ووثقه غيره وبقية رجاله ثقات»، ولم أعرف من «أبو بصيلة» ولعله مصحف من «عبيد بن نضلة أو نضيلة» و«عبيد بن نضلة» ذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ١٣٨)، وقال ابن حجر: «تابعي شهير وذكر ابن حزم أنه أدرك النبي ﷺ ولم يلقه، وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده، من طريق القاسم بن مخيمرة عن عبيد نضلة أن الناس قالوا للنبي ﷺ في عام المجاعة: سعر لنا.. الحديث، قال العسكري: ليس يصح سماعه وأكثر ظني أنه مرسل، وكذلك ابن أبي حاتم وقال: مختلف في صحبته، سوى الحديث المرسل وأما إدراكه فصحيح..». اهـ. الإصابة (٧/ ٢٦٠)، وانظر: التهذيب (٧/ ٧٥)، وذكر الحديث صاحب كنز العمال، وقال: «رواه الطبراني والبغوي عن عبيد بن نضلة» (٤/ ١٠٣)، ولعله في الجزء المفقود من الطبراني لكنه عنده عن أبي جحيفة (٢١/ ١٢٥) بلفظ: «إن الله هو المسعر القابض..»، وفيه «غسان بن الربيع ضعيف» مجمع الزوائد (٤/ ١٠٠)، ولكنه صح عن أنس وأبي هريرة بلفظ =

وابن فضيلة هذا يسمى طلحة، وقد صح عنه أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»(١). وهذا هو السنة بلا شك، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وهما القرآن والسنة. وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٥ ـ ١٠].

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهذا نظير قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠]. وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: جميل المنظر حسن الصورة، ذو جلالة، ليس شيطاناً أقبح خلق الله وأشوههم صورة. بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله.

وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما تقدم نظيره في سورة التكوير. فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته.

وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي، فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم، وأجملهم، وأجلهم.

والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق وأضعفهم همماً ونفوساً.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ، وإيحاء الله ما أوحى. فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده، إلى أن استوى بالأفق، ثم دنا وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى، مستوياً عليه، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ وخاطبه بما أمره الله به، قائلاً: ربك يقول لك كذا وكذا.

= قريب رواه أبو داود (الصحيح) (٢/ ٦٦٠) كتاب البيوع، باب: التسعير، والترمذي (الصحيح) (٢/ ٣٢) في البيوع، باب (١١) والله أعلم بالصواب.

(١) حديث صحيح عن المقدام بن معد يكرب ﷺ، رواه الإمام أحمد (٤/ ١٣٠)، ورواه أبو داود (الصحيح) (٤٦٠٤).

وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين البتة كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. تحقيق لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجل واحداً ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها.

وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل «أو» في هذه المواضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول من جعلها بمعنى: الواو، فتأمله. انتهى.

وقوله ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] أي: أمر عظيم فوق الصفة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١ ـ ١٢].

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. وفيها قراءتان(٢): إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها، يقال: كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده، إذا أخلف ما ظنه وحدسه. قال الشاعر:

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

أي: أرتك ما لا حقيقة له.

فنفى هذا عن رسوله، وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه.

و﴿مَا﴾ إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ما كذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه(٣).

---

(١) هذه الفقرة من مدارج السالكين (٣/ ٢٢١).

(٢) قال ابن مجاهد: «قرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان: (ما كَذَبَ) خفيفة، وفي هشام بن عمار: (ما كَذَّب) مشددة. وقرأ الباقون: (مَا كَذَبَ) مخففة الذال»، انظر: كتاب السبعة في القراءات، ص(٦١٤).

(٣) وهذا ظاهر جداً في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال: في هذه =

ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له على ما علمه وفيها قراءتان: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ و(أَفَتَمْرُونَهُ).

وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول: مريت الرجل حقه إذا جحدته، كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة ... لقد مريت أخاً ما كان يمريكا

ومنه: المماراة، وهي المجادلة والمكابرة؛ ولهذا عدي هذا الفعل بعلى وهي على بابها، وليست بمعنى: عن كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنى المكابرة. وهذا في قراءة الألف أظهر، ورجح أبو عبيدة: قراءة من قرأ: (أفتمرونه)[1]. قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم، يعني: أن من قرأ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ فمعناه: أفتجادلونه؟ ومن قرأ: (أفتمرونه) معناه: أفتجحدونه؟ وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم، وكان أكثر من مجادلتهم له، وخالفه أبو علي وغيره، واختاروا قراءة ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ قال أبو علي: من قرأ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ فمعناه: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما علمه وشاهده؟ ويقوي هذا الوجه قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]. ومن قرأ: (أفتمرونه) كان المعنى: أفتجحدونه. قال: والمجادلة كأنها أشبه في هذا؛ لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره. وقد جادله المشركون في الإسراء.

= القراءة بعد. قال: لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضاً بقلبه، وإذا وقعت العلم فلا كذب معه؛ فإنه إذا كان الشيء في القلب معلوماً، فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين:

أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه. فنفى سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه. كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به. فإنه يصح أن يقال: لم تكذبه عينه.

الثاني: أن يكون الضمير في ﴿رَأَىٰٓ﴾ عائداً إلى الرأي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر. وهذا بحمد الله لا إشكال فيه، والمعنى ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، بل صدقه. وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، ولا اتهم بصره.

(١) قرأ حمزة والكسائي: (أَفَتَمْرُونَهُ) بفتح التاء بغير ألف، وقرأ الباقون: (أَفَتُمَارُونَهُ) بضم التاء وألف، المصدر السابق.

قلت: القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار. فكان جدالهم جدال جحود ودفع، لا جدال استرشاد وتبين للحق، وإثبات الألف يدل على المجادلة. والإتيان بعلى يدل على المكابرة؛ فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعاً، فهي أولى، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى: فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى. وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين، كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، قال: أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح[١].

وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[٢]، وقال البخاري، عنه: رأى رفرفاً أخضر يسد الأفق[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام[٤].

وفي صحيحه أيضاً عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست. فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني؛ ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض»، فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤). (٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).
(٣) رواه البخاري (٣٢٣٣). (٤) صحيح مسلم (١٧٥).

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى: ٥١]. قالت: ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]. ولو كان محمد كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآيـة: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾(١) [الأحزاب: ٣٧].

وفي الصحيحين عن مسروق أيضاً قال: سألت عائشة ﵂، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله! لقد قف شعري مما قلت(٢).

وفيهما أيضاً قال: قلت لعائشة: فأين قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٨، ٩]؟ قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق(٣).

وفي صحيح مسلم أن أبا ذر سأله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور، أنى أراه؟»(٤).

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(٥).

وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له، ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة: «فيكشف الحجاب، فينظرون إليه» فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه، وهو لو كشف لم يقم له شيء، كما قال ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء، وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ على

---

(١) صحيح مسلم (١٧٧). (٢) رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).
(٣) رواه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧). (٤) رواه مسلم (١٧٨).
(٥) رواه مسلم (١٧٩).

عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى، بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك، وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم؛ ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء منه تجلى الرب تسافى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: «جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما؛ وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن»[(١)]، فهذا يدل على أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات، ولا يمنع من أصل الرؤية، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق، وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله. ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن. وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل.

□ □ □

وأما قول ابن عباس: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين[(٢)]، فالظاهر أن مستنده هذه الآية. وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي[(٣)] الإجماع على ما قالته عائشة، فقال ـ في نقضه

---

(١) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣٦٨) في التفسير، سورة النجم، وقال: «حسن غريب».

(٣) عثمان بن سعيد الدارمي، الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، صاحب «المسند الكبير» والتصانيف، انظر: ترجمته في السير (١٣/ ٣١٩)، وأما بشر المريسي فكان متكلماً بارعاً، وكان من الفقهاء، أخذ عن القاضي أبي يوسف، وروى عن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة، نظر في الكلام فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول: بخلق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم وكفره عدة.
انظر: السير (١٠/ ١٩٩)، وكتاب الإمام الدارمي، مطبوع سنة ١٣٥٨هـ في مطبعة السنة المحمدية، وهو كتاب جيد، كان أجود لو أمسك عن بعض ما ذكره من صفات لم ترد في الكتاب والسنة كما نبه العلماء.

على بشر المريسي ـ في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ: إن رسول الله ﷺ قال: «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة»(١). فحكى تأويل المريسي الباطل، ثم قال: ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه، أما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: «إنه لم ير ربه»(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «لن تروا ربكم حتى تموتوا»(٣)، وقالت عائشة ﵂: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. وأجمع المسلمون على ذلك، مع قول الله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «صليت ما شاء الله من الليل، ثم وضعت جنبي، فأتاني ربي في أحسن صورة»(٤)، فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم.اهـ.

□ □ □

وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء أم لا على ثلاث روايات..

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/ ٣١٧) برقم (٩٣٨) قال الهيثمي: «فيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين عن أبيه ولم أر من ترجمهما»، مجمع الزوائد (١/ ٢٣٧)، ولكن هذا المعنى صح من طرق أخرى، كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

(٢) رواه مسلم (١٧٨).

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت ﵁ (٥/ ٣٢٤)، وأوله: «إني قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا..»، ورواه أبو داود (الصحيح) (٣/ ٨١٤) في الملاحم، باب: خروج الدجال، وصححه الألباني، والحديث عند مسلم (٥/ ٧٧٥) في الفتن، باب: ذكر ابن صياد، والترمذي (٤/ ٤٤٠) في الفتن، باب: ما جاء في الدجال، من حديث الزهري عن عمر بن ثابت الأنصاري قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ... فذكره ضمن حديث ابن عمر عن ابن صياد، وقال: حسن صحيح و«عمر بن ثابت» من ثقات التابعين، أخطأ من عدَّه في الصحابة، روى عن أبي أيوب وعن بعض الصحابة حديث الدجال وعن عائشة، التهذيب (٧/ ٤٣٠)، ورواه الإمام أحمد (٥/ ٤٣٣)، وانظر: تحفة الأشراف (٥/ ٤٠٦) و(١١/ ١٩٢)، والله أعلم.

(٤) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٥/ ٣٤٣) في التفسير باب: سورة ص، وقال: «هذا حديث صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث، فقال: حديث حسن صحيح...»، وللحافظ ابن رجب رسالة «اختيار الأولى...» في شرح الحديث، وانظر: ظلال الجنة للألباني (١/ ١٦٩ ـ ١٧٠)، والإرواء (٣/ ١٤٧).

والمسألة رواية واحدة عنه، فإنه لم يقل: بعينه، وإنما قال: رآه، واتبع في ذلك قول ابن عباس رأى محمد ربه، ولفظ الحديث: «رأيت ربي» وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل: من زعم أن محمداً رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية.

وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية إذ هو مخالفته للحديث، وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية وأطلق أنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال: رآه، ولا يقول: بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة.

وكيف يقول أحمد: رآه بعيني رأسه يقظة ولم يجئ ذلك في حديث قط. فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت وإنكاره قول من قال: لم يره أصلاً لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه، والله أعلم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٤ ـ ١٥].

وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء؛ وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها[(٢)].

والمأوى مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به.

وقال عطاء عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة.

وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء. وقال كعب: جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء. وقالت عائشة رضي الله عنها وزر بن حبيش: هي جنة من الجنان.

والصحيح: أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١][(٣)].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٤٢ ـ ٢٦٤).
(٢) حادي الأرواح (٦١).
(٣) حادي الأرواح (٨٦، ٨٧).

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عباس: ما زاغ البصر يميناً ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به. وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء، من التفاته يميناً وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمد بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أري، دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب، وطمأنينته. وهذا غاية الكمال. وزيغ البصر التفاته جانباً، وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي، فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح.

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا[(١)]

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فالظن الشبهة، وما تهوى الأنفس: الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا وهذا[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، بنص القرآن والسنة وإجماع السلف.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»[(٣)].

وأما ما يحكى عن أبي إسحاق الإسفرائيني أنه قال: الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر. فليس مراده: أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء من الحرام، وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِيَ بها كلها

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٤٢ ـ ٢٦٤).

(٢) الكلام في مسألة السماع (١٧٢). (٣) رواه مسلم (٢٣٣).

كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى.

والذي جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لمماً» و«محقرات» كما في الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب»(١).

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر وهو منقطع، أي: لكن يقع منهم اللمم.

وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب، والغالب خلافه أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحاً. فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال: «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ثم اختلفوا في فصلين:

أحدهما: في «اللمم» ما هو؟

والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها أو حد يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

□ □ □

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيراً.

قال البغوي: هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «اللمم ما دون الشرك»، قال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم

---

(١) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن سهل بن سعد رضي الله عنه (٥/ ٣٣١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة، وهو عند الطبراني في الكبير (٦/ ١٦٥)، وقال ابن حجر: إسناده حسن فتح الباري (١١/ ٣٣٧) في الرقاق، باب: (٣٢)، ورواه الإمام أحمد (١/ ٤٠٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه أيضاً الإمام أحمد (٦/ ٧٠ و١٥١)، والدارمي (٢/ ٢١٣)، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٤١٦) في الزهد، باب: ذكر الذنوب، وصححه الألباني، كما في السلسلة الصحيحة رقم (٣٨٩ و٥١٣).

لا يعاوده»، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في صحيح البخاري من حديث طاووس عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه: «والعينان: زناهما النظر، والأذنان: زناهما الاستماع، واللسان: زناه الكلام، واليد: زناها البطش، والرجل: زناها الخطى»(١).

وقال الكلبي: «اللمم» على وجهين؛ كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش.

والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب عنه.

قال سعيد بن المسيب: هو ما ألم بالقلب، أي: ما خطر عليه. قال الحسين بن الفضيل: «اللمم» النظر من غير تعمد، فهو مغفور، فإن أعاد النظر فليس بلمم، وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جمّاً، وأي عبد لك لا ألمّا»(٢).

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا يؤاخذهم به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبي ولا ينافي هذا قول أبي هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى: «أنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها»، فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا ويكون على وجهين، كما قال الكلبي أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره باللمم

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٢٧٠) في التفسير، سورة النجم، وقال: حسن صحيح غريب.. وصححه الألباني، كما في صحيح الترمذي (٣/ ١١١).

ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة.

وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم وغور علومهم، ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته وتكرر منه مراراً كثيرة وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا.

ويذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه دفع إليه سارق، فأمر بقطع يده فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت فلما قطعت يده قال: اصدقني كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب، أو كما قال.

فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبي هريرة وابن عباس، متفقان غير مختلفين، والله أعلم.

□ □ □

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين، فإنه يقال: ألَمَّ بكذا، إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمماً؛ لأنها تلم بما بعدها ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماماً، أي: حيناً بعد حين.

فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية، وليس معنى الآية: «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم فإنهم لا يجتنبونه»، فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم وهذا محال.

وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه؛ فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ومضمون هذا: أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فحسن حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل في الكبائر فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش[(١)(٢)].

* * *

(١) مدارج السالكين (١/ ٣١٥ ـ ٣١٩).

(٢) [قال]: وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه، ولم يتناوله لفظه، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]. فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام، وكذلك قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥].

=

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

فقد اختلفت طرق الناس في المراد بالآية.

فقالت طائفة[1]: المراد بالإنسان هاهنا الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعي له بالأدلة التي ذكرناها، قالوا: وغاية ما في هذا التخصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل.

وهذا الجواب ضعيف جداً، ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذي قبله، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨].

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤٠، ٤١].

وهذا يعم الشر والخير قطعاً ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وكقوله له في الحديث الإلهي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[2]. وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

= فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم، فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً.

وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئاً إلا حميماً وغساقاً، ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن وأدق من هذا دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم فإنه عفو وكذلك: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله فحسن أن يقال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

(١) في الرد على منكري وصول الأعمال من الحي إلى الميت.

(٢) جزء من حديث قدسي أوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي...»، رواه مسلم (٢٥٧٧).

ولا تغتر بقول كثير من المفسرين في لفظ الإنسان في القرآن، الإنسان هاهنا أبو جهل، والإنسان هاهنا عقبة بن أبي معيط، والإنسان هاهنا الوليد بن المغيرة. فالقرآن أجل من ذلك، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، و﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته، فليس له من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده، فهو الذي حبب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان، وهو الذي يثبت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء.

□ □ □

وقالت طائفة: الآية إخبار بشرع من قبلنا، وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سُعي له.

وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه، فإن الله سبحانه أخبر بذلك إخبار مقرر له محتج به لا إخبار مبطل له؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦]. فلو كان هذا باطلاً في هذه الشريعة لم يخبر به إخبار مقرر له محتج به.

وقالت طائفة: اللام بمعنى على، أي: وليس على الإنسان إلا ما سعى.

وهذا أبطل من القولين الأولين فإنه قول موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة، وأما نحو ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]، فهي على بابها أي: نصيبهم وحظهم، وأما أن العرب تعرف في لغاتها لي درهم بمعنى: علي درهم فكلا.

وقالت طائفة: في الكلام حذف تقديره: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أو سعي له، وهذا أيضاً من النمط الأول فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم.

وقالت طائفة أخرى: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. وهذا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا ضعيف أيضاً ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس ﷺ ولا غيره: إنها منسوخة والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع، فإن الأبناء تبعوا الآباء في الآخرة كما كانوا تبعاً لهم في الدنيا، وهذه التبعية هي من كرامة الآباء وثوابهم الذي نالوه بسعيهم، وأما كون الأبناء لحقوا بهم في الدرجة بلا سعي منهم، فهذا ليس هو لهم وإنما هو للآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم في الجنة، وتفضل على الأبناء بشيء لم يكن لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذي ينشئهم للجنة بغير أعمال والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه.

فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس والعقل والفطرة شاهدان بهما، **فالأولى**: تقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره. **والثانية**: تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه، **فالأولى**: تؤمّن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا. **والثانية**: تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب.

فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة:

أحدها: أن هدي العبد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره.

الثاني: أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه على نفسه لا على غيره.

الثالث: أن أحداً لا يؤاخذ بجريرة غيره.

الرابع: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله.

فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته.

□ □ □

وقالت طائفة أخرى: المراد بالإنسان هاهنا الحي دون الميت، وهذا أيضاً من النمط الأول في الفساد.

وهذا كله من سوء التصرف في اللفظ العام وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه

في دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها وما يتبادر إلى الذهن منها وهو تصرف فاسد قطعاً يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه، وسبب هذا التصرف السيء أن صاحبه يعتقد قولاً، ثم يرد كل ما دل على خلافه بأي طريقة اتفقت له، فالأدلة المخالفة لما اعتقده عنده من باب الصائل لا يبالي بأي شيء دفعه، وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضاً.

وقالت طائفة أخرى: وهو جواب أبي الوفاء بن عقيل، قال: الجواب الجيد عندي أن يقال: الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه كما قال ﷺ: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولد من كسبه»[١]. ويدل عليه قوله في الحديث الآخر: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به من بعده، وصدقة جارية عليه، أو ولد صالح يدعو له»[٢].

ومن هنا قال الشافعي: إذا بذل له ولده طاقة الحج كان ذلك سبباً لوجوب الحج عليه حتى كأنه في ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبي، وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام، فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعة فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له في الصلاة فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره، كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر.

بل قد قيل: إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين، وكذلك اشتراكهم في الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى.

وقد قال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»[٣]. ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى منه بأمور الدنيا، فدخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم،

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (١٣٥٨) وأبو داود (٣٥٢٨).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم[(١)].

وأخبر عن ذعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين كنوح وإبراهيم ومحمد ﷺ. فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه فكأنه من سعيه.

□ □ □

يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه، وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ لعمرو بن العاص: «إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك»[(٢)]. يعني: العتق الذي فعل عنه بعد موته فلو أتى بالسبب لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب العتق، وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً.

وقالت طائفة أخرى: القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره، وإنما نفى ملكه لغير سعيه وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه وهو سبحانه لم يقل: لا ينتفع إلا بما سعى، وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]. واجتمع ما يراد له في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . .﴾ الآية [غافر: ٧].

(٢) رواه الإمام أحمد (١٠/١٧٦) رقم (٦٧٠٤)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وفيه الحجاج بن أرطأة وهو مدلس، مجمع الزوائد (٤/ ١٩٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) الروح (١٢٥ ـ ١٢٩).

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره.

وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى.

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما يكون إليه.

ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

الضحك والبكاء فعلان اختياريان، فهو ـ سبحانه ـ المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة.

وتأويل الآية بخلاف ذلك، إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات، وإبكاء السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبكاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له، لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه ومعناه، من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه، بل الجميع حق(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١].

قال عكرمة عن ابن عباس: السمود: الغناء في لغة حمير، يقال: اسمدي لنا، أي: غني لنا، وقال أبو زبيد:

وكأن العزيف فيها غناء ... للندامى من شارب مَسْمود

قال أبو عبيدة: المسمود: الذي غُني له.

وقال عكرمة: كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا. فنزلت هذه الآية، وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية: من أن «السمود» الغفلة والسهو عن الشيء. قال المبرد: هو الاشتغال عن الشيء بهمّ أو فرح يتشاغل به وأنشد:

---

(١) الفوائد (١٩٦، ١٩٧).

(٢) شفاء العليل (٥٩).

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سمودا

وقال ابن الأنباري: السامد: اللاهي، والسامد: الساهي. والسامد: المتكبر، والسامد: القائم.

وقال ابن عباس في الآية: وأنتم مستكبرون. وقال الضحاك: أشرون بطرون. وقال مجاهد: غضاب مبرطمون. وقال غيره: لاهون غافلون معرضون.

فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه[1].

❁ ❁ ❁

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٥٨).

سُورَةُ القَمَرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **[القمر: ١٧]**.

أيسر شيء ـ بحمد الله تعالى ـ على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، هو كتاب الله الذي يسَّره للذكر.

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه، وتتعطل معايشه عليه.

وسنة رسوله ـ وهي بحمد الله تعالى ـ مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفصيلها نحو أربعة آلاف حديث.

وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان، وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ **[القمر: ٣٤]**.

المراد به أتباعه المؤمنون به من أقاربه وغيرهم[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ **[القمر: ٤٧ ـ ٤٩]**.

قال سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي: ثنا محمد بن عباد بن جعفر، ثنا أبو هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر فنزلت هـذه الآيـة: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩]. رواه مسلم[(٣)].

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٣٨).
(٢) جلاء الأفهام (١٢٤، ١٢٥).
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٦).

وقد رواه الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين خصماء الله وهم القدرية؟». ولكن حبيب هذا قال الدارقطني[(١)]: مجهول والحديث مضطرب الإسناد ولا يثبت.

والمخاصمون في القدر نوعان:

أحدهما: من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره، كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق.

والطائفتان خصماء الله، قال عوف: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام. إن الله تبارك وتعالى قدر أقداراً وخلق الخلق بقدر وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى.

وقال الإمام أحمد: القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها.

وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق السلف على تكفيرهم.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. قال: الذين يقولون[(٢)]: إن الله على كل شيء قدير.

وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها ولو كانوا يقرون بها، فمنكرو القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها، ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها، بل يصرحون أنه لا يقدر على فعل يقوم به، ومن لا يقر بأن الله سبحانه كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير، ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء

---

(١) لم أقف عليه عند الدراقطني، وإنما رواه الطبراني في الأوسط، كما أشار الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٦)، قال: رواه الطبراني في الأوسط من رواية بقية، وهو مدلس، وحبيب مجهول. وضعفه الألباني، كما في ضعيف الجامع رقم (٧٦٣)، وكذلك أشار صاحب كنز العمال أنه رواه الطبراني في الأوسط (١/ ١٢٠) رقم (٥٦٩).

(٢) في تفسير الطبري: «يعلمون» (٢٢/ ١٣٢).

وأنه سبحانه مقلب القلوب حقيقة وأنه إن شاء يقيم القلب أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير، ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول: من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى كلمه منها، وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده وأنه يتجلى لهم يضحك وأنه يريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها وينزوي بعضها إلى بعض إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه على كل شيء قدير، فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن، وقد كان ابن عباس شديداً على القدرية وكذلك الصحابة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢].

قال عطاء ومقاتل: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ، وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ قال: كتب عليهم قبل أن يعملوه.

وقالت طائفة: المعنى: أنه يحصى عليهم في كتب أعمالهم، وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء. وهذا أصح وبالله التوفيق(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فسمى جنته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة وحملة صادقة، ومنه الكلام الصدق لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل، والصدّيق الذي يصدق قوله بالعمل، والصَّدق بالفتح الصلب من الرماح، ويقال للرجل الشجاع: إنه لذو مصدق، أي: صادق الحملة، وهذا مصداق هذا، أي: ما يصدقه.

(١) شفاء العليل (٢٨، ٢٩).
(٢) شفاء العليل (٤٢).

ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالَّة، ومنه صدقني القتال وصدقني المودة.

ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته وهو لا يتضمن أمراً ثابتاً قط.

وفسر قوم قدم صدق بالجنة، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك.

والتحقيق: أن الجميع حق فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة، أي: بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله وادخر لهم جزاءها يوم القيامة، ولسان الصدق وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل ومدخل الصدق ومخرج الصدق وهو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامناً على الله وهو دخوله وخروجه بالله ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد فإنه لا يزال داخلاً في أمر وخارجاً من أمر، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك كان قد أدخل مدخل صدق وأخرج مخرج صدق، والله المستعان[(١)][(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) حادي الأرواح (٨٩، ٩٠).

(٢) وانظر: ـ إن رغبت ـ في الموضوع تفسير الآية (٨٠) من سورة الإسراء.

سُوْرَةُ الرَّحْمنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها.

فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق لأنه موضع العبرة.

وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه صار إنساناً بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه.

ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثاً كل منها يسمى بياناً.

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات.

الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره.

الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين للناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ.

فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب.

وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]. وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧][1].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣٠١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰن: ٧].

والميزان يراد به العدل والآلة التي يعرف بها العدل وما يضاده.

والقياس الصحيح هو الميزان فالأولى تسميته بالاسم الذي سماه الله به، فإنه يدل على العدل وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان بخلاف اسم القياس فإنه ينقسم إلى حق وباطل وممدوح ومذموم؛ ولهذا لم يجئ في القرآن مدحه ولا ذمه ولا الأمر به ولا النهي عنه فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمٰن: ١٣ ـ ١٥].

خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمٰن: ٣١].

وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم، وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردوداً منكم: كنت كلما أتيت على آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٣] قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»(٢).

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٠).

(٢) حديث حسن، رواه الترمذي (٥/ ٣٧٢) في التفسير، باب: ومن سورة الرحمٰن، والطبري في التفسر (٢٧/ ١٢٣)، والبزار (٣/ ٧٤) كلهم من حديث ابن عمر ﷺ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١١٧): رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، والحاكم (٢/ ٢٧٣) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ وقال: «صحيح على شرطهما»، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني، كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢١٥٠).

وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به، وقوله في هذه السورة: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع.

قال قتادة: معناه: فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء، والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل وفراغ بمعنى: القصد، وهو في هذا الموضوع بالمعنى الثاني؛ وقد قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء.

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [**الرحمٰن**: ١٧ ـ ١٨].

مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعتين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك.

فالأول كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

والثاني كقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والثالث كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب موادها يطلعك على عظمة القرآن وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد.

فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وهي متعددة.

وحيث أفردا كان المراد أفقي المشرق والمغرب.

وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء؛ فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً، ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً، ويقابلها مغرباها.

فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع.

وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحداً تعرض له، ولا فتح بابه وهو بحمد الله بيّن من السياق.

فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمٰن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي

العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه، ووضع هذه ووسط، بينما ذكر الميزان ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب.

فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة، وجلالة ورودهما لذلك، وقدر موضعهما[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦].

ولم يقل: «فيها» لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويكشف غماً وينصر مظلوماً ويأخذ ظالماً ويفك عانياً ويغني فقيراً ويجبر كسيراً ويشفي مريضاً ويقيل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويعطي سائلاً ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواماً ويضع آخرين.

يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه.

فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني: حدثنا إسحاق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٢١).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٢١٠).

عن أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾؟ فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع أقواماً ويضع آخرين»(١).

وفيه أيضاً من حديث حماد بن سلمة، حدثنا الزبير أبو عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن أبيه قال: قال عبد الله بن مسعود: إن ربكم ﷻ ليس عنده ليل ولا نهار نور السماوات من نور وجهه، أيامكم عنده ثنتا عشرة ساعة، تعرض عليه أعمالكم بالأمس ثلاث ساعات من أول النهار فيطلع منها على ما يكره فيغضب فيكون أول من يعلم بغضبه حملة العرش فتسبح حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة، وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى خلق لله في السماوات ولا في الأرض إلا سمعه إلا الثقلين ويسبحون لذلك [ثلاث ساعات] حتى يمتلئ الرحمٰن رحمة، فتلك ست ساعات ثم يدعو بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]. فتلك تسع ساعات ثم يدعو بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠]. فتلك ثنتا عشرة ساعة، ثم قرأ عبد الله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. ثم قال: هذا شأنكم وشأن ربكم ﷻ، وذكره الطبراني(٢) في المعجم الكبير من وجه آخر، وهذا من تمام تصرفه في ملكه سبحانه، فلو قصر تصرفه على وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرفاً تاماً(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمٰن: ٣٣].

فيها قولان:

---

(١) حديث صحيح، ذكره البخاري معلقاً عن أبي الدرداء في التفسير، سورة الرحمٰن، عقب الحديث (٤٨٧٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٠)، وقال الهيثمي: وفيه أبو عبد السلام، قال أبو حاتم: مجهول، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره، مجمع الزوائد (١/ ٨٥).

(٣) طريق الهجرتين (١١٥/ ١١٦).

أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السماوات والأرض علماً ـ أي: أن تعلموا ما فيهما ـ فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي: إلا ببينة من الله، وعلى هذا فالنفوذ هاهنا نفوذ علم الثقلين في السماوات والأرض.

الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السماوات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم، وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم.

وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا، وفي الآية تقرير آخر وهو أن يكون هذا الخطاب لهم في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق فهرب الخلائق فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً. كما قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

قال مجاهد: فارين غير معجزين. وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾.

وهذا القول أظهر. والله أعلم.

فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾، أي: إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السماوات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها ﴿سَنَفْرُغُ﴾ الآية، وهذا في الآخرة وبعدها: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمٰن: ٣٧]. وهذا في الآخرة.

وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، فلابد أن يشترك الكل في سماع الخطاب ومضمونه، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، ولم يقل: إن استطعتما لإرادة الجماعة كما في آية أخرى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾، ولم يقل: يرسل عليكم لإرادة الصنفين، أي: لا يختص به صنف على صنف بل يرسل ذلك على الصنفين معاً، وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي: من استطاع منكم وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمَا﴾ أمر آخر وهو موافقة رؤوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمٰن: ٣٩].

فأضاف الذنوب إلى الثقلين وهذا دليل على أنهما سوياً في التكليف، واختلف في هذا السؤال المنفي.

فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذٍ، ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك.

وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي: قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها وإنما يحاسبهم عليها.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

وهذا يدل على أن ثواب محسنهم ـ [أي: الجن] ـ الجنة من وجوه:

أحدها: أن «من» من صيغ العموم فتتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به(١).

(١) وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؟ على قولين:

أحدهما: أن المعنى: ولمن خاف مقامه بين يدي ربه فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول.

والثاني: أن المعنى: ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]. =

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

الثالث: قوله عقيب هذا الوعد: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الرابع: أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، وهذا والله أعلم معناه أنه: لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم ولا نساء الجن جن قبلهم(١).

□ □ □

= فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول وإن المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [تبارك: ١٢]. ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم وإنما مدحهم بخوفه وخشيته، وقد يذكر الخوف متعلقاً بعذابه كقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]. فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت، وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل، وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه فهذا يقر به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا؛ لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه.

وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

فإن قيل: إذا كان المعنى: أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟ قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد: ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت.

وأيضاً فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام الله، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب، وأيضاً فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

(١) طريق الهجرتين (٣٩١ ـ ٣٩٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ [الرحمٰن: ٥٤].

فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة.

قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة بن مريم عن عبد الله في قوله: بطائنها من إستبرق، قال: هذه البطائن قد خبرتم بها فكيف بالظهائر(٢)؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٥٦ ـ ٥٨].

وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع:

أحدها: هذا.

والثاني: قوله تعالى في الصافات: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨].

والثالث: قوله تعالى في صٓ: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢].

والمفسرون كلهم على أن المعنى: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم، وقيل: قصرن طرف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلى غيرهن.

وهذا صحيح من جهة المعنى، وأما من جهة اللفظ: فقاصرات صفة مضافة إلى الفاعل الحسان الوجوه وأصله قاصر طرفهن، أي: ليس بطامح متعد.

قال آدم: حدثنا ورقاء عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قال: يقول: قاصرات الطرف على أزواجهن فلا يبغين غير أزواجهن، قال آدم: وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن، قال: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، والله ما هن متبرجات ولا متطلعات. وقال منصور عن مجاهد: قصرن

---

(١) روضة المحبين (٣٦٥). (٢) حادي الأرواح (١٦٩).

أبصارهن وقلوبهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم. وفي تفسير سعيد عن قتادة قال: وقصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم.

وأما الأتراب فجمع ترب: وهو لدة الإنسان.

قال أبو عبيدة وأبو إسحاق: أقران أسنانهن واحدة، قال ابن عباس وسائر المفسرين: مستويات على سن واحد وميلاد واحد بنات ثلاث وثلاثين سنة. وقال مجاهد: أتراب: أمثال.

وقال أبو إسحاق: هن في غاية الشباب والحسن، وسمي سن الإنسان وقرنه تربه؛ لأنه مس تراب الأرض معه في وقت واحد والمعنى: من الإخبار باستواء أسنانهن أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن، ولا ولائد لا يطقن الوطء بخلاف الذكور فإن فيهن الولدان وهم الخدم.

وقد اختلف في مفسر الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾، فقالت طائفة: مفسره الجنتان وما حوتاه من القصور والغرف والخيام. وقالت طائفة: مفسرة الفرش المذكورة في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمٰن: ٥٤]. وفي بمعنى: على.

وقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ قال أبو عبيدة: لم يمسهن، يقال: ما طمث هذا البعير حبل قط، أي: ما مسه. وقال يونس: تقول العرب هذا جمل ما طمثه حبل قط، أي: ما مسه. وقال الفراء: الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية، والطمث هو الدم، وفيه لغتان: طَمَثَ يَطْمِثْ ويُطْمَثْ. قال الليث: طمثت الجارية إذا افترعتها، والطامث في لغتهم هي الحائض. قال أبو الهيثم: يقال للمرأة: طمثت تطمث إذا أدميت بالافتضاض، وطمثت على فعلت تطمث إذا حاضت أول ما تحيض فهي طامث. وقال في قول الفرزدق:

خرجن اللائي لم يطمثهن قبلي وهن أصح من بيض النعام

أي: لم يمسسن.

قال المفسرون: لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعهن، هذه ألفاظهم. وهم مختلفون في هؤلاء فبعضهم يقول: هن اللواتي أنشئن في الجنة من حورها، وبعضهم يقول: يعني: نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر أبكاراً كما وصفهن.

قال الشعبي: نساء من نساء الدنيا لم يمسسن منذ أنشئن خلقاً. وقال مقاتل: لأنهن خلقن في الجنة. وقال عطاء عن ابن عباس: هن الآدميات اللائي متن أبكاراً. وقال الكلبي: لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان.

قلت: ظاهر القرآن أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وإنما هن من الحور العين، أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن، والآية تدل على ذلك.

وقال أبو إسحاق: وفي هذه الآية دليل على أن الجن يغشى كما أن الإنس تغشى ويدل على أنهن الحور اللائي خلقن في الجنة، أنه سبحانه جعلهن مما أعده الله في الجنة لأهلها من الفواكه والثمار والأنهار والملابس وغيرها، ويدل عليه أيضاً الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٢]. ثم قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمٰن: ٧٤].

والضمير في قوله: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ للمعنيين بقوله: متكئين وهم أزواج هؤلاء النسوة.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان، شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان ويدل عليه ما قاله عبد الله: أن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن، ذلك بأن الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكاً ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٢].

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. فذكرهما ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

فهذه أربع قد اختلف في قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما؟ على قولين:

فقالت طائفة: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: أقرب منهما إلى العرش فيكونان فوقهما.

وقالت طائفة: بل معنى من دونهما: تحتهما. قالوا: وهذا المنقول في لغة العرب إذ قالوا: هذا دون هذا، أي: دونه في المنزلة. كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه: أنا دون ما تقول فوق ما في نفسك. وفي الصحاح دون نقيض فوق وهو تقصير عن الغاية، ثم قال: ويقال: هذا دون هذا أي أقرب منه.

---

(١) حادي الأرواح (١٨٠ ـ ١٨٢).

والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه:

أحدها: قوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٤٨] وفيه قولان: **أحدهما**: أنه جمع فنن وهو الغصن. **والثاني**: أنه جمع فن وهو الصنف، أي: ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

الثاني: قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمٰن: ٥٠]. وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٦].

والنضاخة: هي الفوارة والجارية السارحة وهي أحسن من الفوارة فإنها تتضمن الفوران والجريان.

الثالث: أنه قال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمٰن: ٥٢]، وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمٰن: ٦٨]. ولا ريب أن وصف الأولين أكمل واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان، فقالت طائفة: الزوجان الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب وهو يتمتع به كما يتمتع باليابس وفيه نظر لا يخفى، وقالت طائفة: الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب، وقالت طائفة: نوعان ولم تزد.

الظاهر والله أعلم: أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر؛ وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم.

الرابع: أنه قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤].

وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها، وفي الأخريين قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٧٦]. وفسر الرفرف بالمحابس والبسط، وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

الخامس: أنه قال: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤] أي: قريب وسهل يتناولونه كيف شاؤوا ولم يذكر ذلك في الأخريين.

السادس: أنه قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمٰن: ٥٦] أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٢] ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

الثامن: أنه قال سبحانه في الجنتين الأوليين: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]. وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين، وجعلهما جزاءً لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

العاشر: أنه قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٢] . والسياق يدل على أنه نقيض فوق، كما قال الجوهري، فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه؟ قيل: لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان، ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما

فإن قيل: فهل الجنتان لمجموع الخائفين يشتركون فيهما أم لكل واحد جنتان وهما البستانان؟

قيل: هذا فيه قولان للمفسرين، ورجح القول الثاني بوجهين:

أحدهما: من جهة النقل.

والثاني: من جهة المعنى، فأما الذي من جهة النقل فإن أصحاب هذا القول رووا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هما بستانان في رياض الجنة»(١). وأما الذي من جهة المعنى فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر، والثانية: جزاء اجتناب المحارم.

فإن قيل: فكيف قال في ذكر النساء: ﴿فِيهِنَّ﴾ في الموضعين ولما ذكر غيرهن قال: ﴿فِيهِمَا﴾؟ قيل: لما ذكر الفرش قال بعدها: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمٰن: ٧٠] ، ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ، ليتشاكل اللفظ والمعنى... والله أعلم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمٰن: ٧٠].

فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيرة كسيدة ولينة، وحسان: جمع حسنة فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم، حسان الوجوه.

---

(١) لم أقف عليه إلا عند القرطبي ذكره عن المهدوي والثعلبي (٧/ ٦٣٤٧).
(٢) حادي الأرواح (٩١، ٩٢).

قال وكيع: حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم عن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبد الله قال: لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك[١].

* * *

قول تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٢].

المقصورات المحبوسات. قال أبو عبيدة: خدرن في الخيام وكذلك قال: وفيه معنى آخر، وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات على أزواجهن، لا يرون غيرهم وهم في الخيام، وهذا معنى قول من قال: قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، ولا يطمحن إلى من سواهم وذكره الفراء.

قلت: وهذا معنى ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لكن أولئك قاصرات بأنفسهن وهؤلاء مقصورات، وقوله: ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ على هذا القول: صفة لحور، أي: هن في الخيام، وليس معمولاً للمقصورات وكأن أرباب هذا القول فسروا بأن يكن محبوسات في الخيام لا يفارقنها إلى الغرف والبساتين.

وأصحاب القول الأول يجيبون عن هذا: بأن الله سبحانه وصفهن بصفات النساء المخدرات والمصونات، وذلك أجمل في الوصف ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين، كما أن نساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه، فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها.

وأما مجاهد فقال: مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ، وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن قاصرات الطرف، وهؤلاء بكونهن مقصورات، والوصفان لكلا النوعين فإنهما صفتا كمال، فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج، وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز والظهور للرجال[٢].

* * *

---

(١) حادي الأرواح (١٨٣).

(٢) حادي الأرواح (١٨٢، ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣ ـ ١٦].

وذكر هشام عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: (الرفرف) رياض الجنة و(العبقري) عتاق الزرابي. وذكر إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، قال: هي البسط، قال: وأهل المدينة يقولون: هي البسط، وأما النمارق فقال الواحدي: هي الوسائد في قول الجميع واحدها: نمرقة بضم النون، وحكى الفراء نمرقة بكسرها، وأنشد أبو عبيدة:

إذا ما بساط اللهو مد وقربت ... للذاته أنماطه ونمارقه

قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض. وقال مقاتل: هو الوسائد مصفوفة على الطنافس، وزرابي: بمعنى: البسط والطنافس واحدها زربية، في قول جميع أهل اللغة والتعبير، ومبثوثة: مبسوطة منشورة.

□ □ □

وأما الرفرف فقال الليث: ضرب من الثياب خضر تبسط، الواحد: رفرفة، وقال أبو عبيدة: الرفارف البسط وأنشد لابن مقبل:

وإنا لنَزَّالون تغشى نعالنا ... سواقط من أصناف ريط ورفرف

وقال أبو إسحاق: قالوا: الرفرف هاهنا رياض الجنة، وقالوا: الرفرف الوسائد، وقالوا: الرفرف المحابس، وقالوا: فضول المحابس للفرش، وقال المبرد: هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره.

قال الواحدي: وكأن الأقرب هذا؛ لأن العرب تسمي كسر الخباء والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء: رفرفاً، ومنه الحديث في وفاة النبي ﷺ: «فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة»[1].

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وذكره ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٤٢)، ولكن عند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ: «.. حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف..»، فتح الباري (٢/ ١٩٣) في الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ومسلم (٢/ ٦٤) في الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، وابن ماجه (الصحيح) (١/ ٢٧١) في الجنائز، =

قال ابن الأعرابي: الرفرف هاهنا طرف البساط فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط فسمي رفرفاً.

قلت: أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب فمنه الرفرف في الحائط ومنه الرفرف وهو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها، الواحدة رفرفة، ومنه رفرف الطير إذا حرك جناحه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس، والواحدة رفرفة، وكل ما فضل من شيء فشيء وعطف فهو رفرف، وفي حديث ابن مسعود في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، قال: رأى رفرفاً أخضر سد الأفق[١] وهو في الصحيحين[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٨].

وأصح القولين في ذلك: أن الجلال هو التعظيم، والإكرام هو الحب وهو سر قول العبد: لا إله إلا الله، والله أكبر، وهذا في مسند الإمام أحمد من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»[٣]، أي: الزموها والهجوا بها[٤].

* * *

= باب: ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، وعند الإمام أحمد (٣/ ١١٠ و١٦٣)، ومعنى: «كأنه ورقة مصحف» أي: شدة بياض وجهه وصفائه صلوات الله وسلامه عليه، والله أعلم.

(١) رواه البخاري، (٣٢٣٣).

(٢) حادي الأرواح (١٧٠، ١٧١).

(٣) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ١٧٧) والترمذي (٣٥٢٥).

(٤) جلاء الأفهام (١٠٢، ١٠٣).

سُوْرَةُ الوَاقِعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١].

ذكر الله ـ تعالى ـ أصناف بني آدم، سعيدهم وشقيهم، قسم سعيدهم إلى قسمين: سابقين وأصحاب يمين فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

اختلف في تقريرها على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه من باب التوكيد اللفظي ويكون الخبر قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

والثاني: أن يكون ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأول مبتدأ، والثاني: خبر له على حد قولك: زيد زيد، أي: زيد الذي سمعت به هو زيد.

قال ابن عطية: وهذا قول سيبويه.

والثالث: أن يكون الأول غير الثاني، ويكون المعنى: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان، وهذا أظهر والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥ ـ ١٦].

فأخبر تعالى عن سررهم بأنها موضونة، والوضن في اللغة: النضيد والنسيج المضاعف يقال: وضن فلان الحجر والآجر بعضه فوق بعض فهو موضون، وقال الليث: الوضن: نسج السرير وأشباهه، ويقال: درع موضونة مقارنة النسج، وقال رجل من العرب لامرأته: ضني متاع البيت، أي: قاربي بعضه من بعضه.

قال أبو عبيدة والفراء والمبرد وابن قتيبة(٢): موضونة منسوجة مضاعفة متداخلة

---

(١) حادي الأرواح (٨٥).

(٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٤٤٦) سورة الواقعة.

بعضها على بعض كما توضن حلق الدرع ومنه سمي الوضين وهو نطاق من سيور تنسج فيدخل بعضها على بعض، وأنشدوا للأعشى:

ومن نسج داود موضونة تساق مع الوحي عيراً فعيرا

قالوا: موضونة: منسوجة بقضبان الذهب مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد. قال هشيم: أنبأنا حصين عن مجاهد عن ابن عباس قال: مرمولة بالذهب. وقال مجاهد: موصولة بالذهب. وقال علي بن طلحة عن ابن عباس: موضونة: مصفوفة. قال عطاء عن ابن عباس قال: سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين مكة وأيلة.

وقال الكلبي: طول السرير في السماء مائة ذراع فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له حتى يجلس عليه فإذا جلس ارتفع إلى مكانه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥،٢٦].

وهذا فيه نفي لسماع اللغو والتأثيم وإثبات لضده وهو السلام المنافي لهما فالمقصود به نفي شيء وإثبات ضده.

وعلى هذا فلا حاجة إلى تكلف دخوله تحت المستثنى منه؛ لأنه يتضمن زوال هذه الفائدة من الكلام، ومن رده إلى الأول. قال: لما نفى عنهم سماع اللغو والتأثيم وهما مما يقال فكأن النفس تشوفت إلى أنه هل يسمع فيها شيء غيره؟ فقال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فعاد المعنى إلى لا يسمعون فيها شيئاً ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

وأنت إذا تأملت هذين التقديرين رأيت الأول أصوب فإنه نفى سماع شيء وأثبت ضده، وعلى الثاني نفى سماع كل شيء إلا السلام وليس المعنى عليه فإنهم يسمعون السلام وغيره، فتأمله[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٣٠].

والمخضود: الذي قد خضد شوكه، أي: نزع وقطع فلا شوك فيه، هذا قول ابن

(١) حادي الأرواح (١٧٤، ١٧٥). (٢) بدائع الفوائد (٣/٦٩، ٧٠).

عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة وأبي الأحوص وقسامة بن زهير وجماعة، واحتج هؤلاء بحجتين:

إحداهما: أن الخضد في اللغة القطع وكل رطب قضبته فقد خضدته، وخضدت الشجر إذا قطعت شوكة، فهو خضيد ومخضود ومنه الخضد على مثال الثمر، وهو كل ما قطع من عود رطب خضد بمعنى: مخضود كقبض وسلب، والخضاد شجر رخو لا شوك فيه.

الحجة الثانية: قال ابن أبي داود: حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا ثور بن يزيد، حدثني حبيب بن عبيد عن عتبة ابن عبيد السلمي قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها. يعني: الطلح. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود، فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لون الآخر»[(١)]، الملبود: الذي قد اجتمع شعره بعضه على بعض.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، قال رسول الله ﷺ: «وما هي؟»، قال: السدر فإن له شوكاً مؤذياً، قال: «أليس الله يقول: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ خضد الله شوكة فجعل مكان كل شوكة ثمرة»[(٢)].

وقالت طائفة: المخضود هو: الموقر حملاً. وأنكر عليهم هذا القول، وقالوا: لا يعرف في اللغة الخضد بمعنى: الحمل، ولم يصب هؤلاء الذين أنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح وأربابه ذهبوا إلى أن الله ﷻ لما خضد شوكه وأذهبه

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو بكر بن أبي داود برقم (٦٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٠) برقم، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، المجمع (١٠/ ٤١٤).

(٢) رواه الإمام ابن المبارك (٧٤، ٧٥) في زيادات الزهد من رواية نعيم بن حماد، ورواه الحاكم بسنده عن سليم بن عامر ـ وهو تابعي ثقة ـ عن أبي أمامة ؓ (٢/ ٤٧٦)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في البعث والنشور، ص(١٨٧)، وذكره ابن كثير من رواية الحافظ أبي بكر أحمد بن سلمان النجاد (٤/ ٣٠٨).

وجعل مكان كل شوكة ثمرة أوقرت بالحمل، والحديثان المذكوران يجمعان القولين وكذلك قول من قال: المخضود الذي لا يعقر اليد، ولا يرد اليد عنه شوك ولا أذى فيه. فسره بلازم المعنى، وهكذا غالب المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارة وفرداً من أفراده تارة ومثالاً من أمثلته فيحكيها الجماعون للغث والسمين أقوالاً مختلفة ولا اختلاف بينها.

□ □ □

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز، قال مجاهد: أعجبهم طلح (وَجٍّ)[1] وحُسْنه، فقيل لهم: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

وقالت طائفة أخرى: بل هو شجر عظام طوال وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب قال حاديهم:

بشرها دليلها وقالا   غداً ترين الطلح والجبالا

ولهذا الشجر رائحة وظل وظليل، وقد نضد بالحمل والثمر مكان الشوك.. والظاهر أن من فسر الطلح المنضود بالموز إنما أراد التمثيل به؛ لحسن نضده وإلا فالطلح في اللغة: هو الشجر العظام من شجرة البوادي، والله أعلم[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [**الواقعة: ٣٥ ـ ٣٨**].

قال ابن عباس: يريد نساء الآدميات. وقال الكلبي ومقاتل: يعني: نساء أهل الدنيا العجز الشمط يقول تعالى: خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول في الدنيا، ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع: «هن عجائزكم العمش الرمص»[3].

---

(١) وَجٌّ هي الطائف، انظر: معجم البلدان لياقوت (٤/ ٨) و(٥/ ٣٦١).

(٢) حادي الأرواح (١٣٦ ـ ١٣٨).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٣٧٥) في التفسير، باب: سورة الواقعة، وقال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيد، وهو يزيد بن أبان يضعفان في الحديث. ورواه الطبري (٢٧/ ١٨٥)، والبيهقي في البعث عنهما، ص(٢١٧)، قال صاحب تحفة الأحوذي: (عُمشاً) بضم فسكون جمع عمشاء، من العمش في العين محركة، وهو ضعف الرؤية مع سيلان دمعها في أكثر أوقاتها، (رمصاً): جمع رمصاء، من الرمص، محركة، وهو وسخ أبيض يجتمع في الموق..» (٩/ ١٨٣).

رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه ويؤيده ما رواه يحيى الحماني: حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها عجوز فقال: من هذه؟ فقالت: إحدى خالاتي، قال: «أما إنه لا يدخل الجنة العجوز فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله». فقال النبي ﷺ: «﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ خلقاً آخر يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً وأول من يكسى إبراهيم خليل الله» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾(١).

قال آدم بن أبي إياس: حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عن يزيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ قال: «يعني: الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا»(٢).

قال آدم: وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة العُجَّز»، فبكت عجوز، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروها أنها يومئذٍ ليست بعجوز، إنها يومئذٍ شابة، إن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾»(٣).

وقال ابن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسعدة بن اليسع، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة: أن النبي ﷺ أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال نبي الله ﷺ: «إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فذهب نبي الله ﷺ فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «إن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حوَّلهن أبكاراً».

□ □ □

---

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور، ص(٢١٦)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ١٠٧).
(٢) رواه أبو داود الطيالسي رقم (١٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٣١١)، والطبراني في الكبير (٧/ ٤٠)، والبيهقي في البعث رقم (٣٤٥)، ص(٢١٧)، كلهم من طريق: جابر الجعفي، عن يزيد بن مرة، عن سلمة بن يزيد.. فذكره. وجابر الجعفي ضعيف، ولم أوفق لمعرفة (يزيد بن مرة) هذا ولم أجد في الرواة في المصادر المشهورة غير (يزيد بن مرة الذراع)، ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٧٤)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ٢٩٠)، وقال: (ثقة صدوق)، وقال: (سمع منه أبي).اهـ. وهو قطعاً غير يزيد هنا، وقريب من اسمه «يزيد الهاشمي أبو مرة مولى عقيل ويقال: مولى هانئ، روى عن طائفة من الصحابة»، تهذيب التهذيب (١١/ ٣٧٤)، والله أعلم.
(٣) رواه الترمذي في الشمائل (مختصر الألباني) رقم (٢٠٥)، وقال الألباني: إسناده ضعيف.

وذكر مقاتل قولاً آخر وهو اختيار الزجاج أنهن الحور العين التي ذكرهن قيل: أنشأهن الله ﷻ لأوليائه لم يقع عليهن ولادة، والظاهر أن المراد أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاء ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنه قد قال في حق السابقين: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ - إلى قوله -: ﴿كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢٣] فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهن خلقهن في الجنة.

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان؛ لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك، كقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧].

الثالث: أن الخطاب بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، إلى آخره للذكور والإناث والنشأة الثانية أيضاً عامة للنوعين وقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾. ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأمل تأكيده بالمصدر والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي أحق به منهن، فالإنشاء واقع على الصنفين، والله أعلم.

□ □ □

وقوله: ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهن المتحببات إلى أزواجهن، قال ابن الأعرابي: العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة إليه. وقال أبو عبيدة: العروب: الحسنة التبعل. قلت: يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع. وقال المبرد: هي العاشقة لزوجها، وأنشد للبيد:

وفي الحدوج عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى دونها البصر

وذكر المفسرون في تفسير (العُرُب): أنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات، المتعشقات، الغلمات، المغنوجات، كل ذلك من ألفاظهم، وقال البخاري في صحيحه: عُرُباً مثقلة واحدها عروب - مثل صبور وصبرُ - تسميها أهل مكة: العَرِبة، وأهل المدينة: الغنجة، وأهل العراق: الشكلة. (والعُرَب): المتحببات إلى أزواجهن. هكذا ذكره في كتاب (بدء الخلق)[1].

(١) فتح الباري (٦/ ٣٦٥) كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة.

قلت: فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذه غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥].

هي الإبل العطاش، قلت: جمع أهيم هيم مثل أحمر وحمر، وهو جمع فعلاء أيضاً كصفراء وصفر(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٦٠].

ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦١]، فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تُمْنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون، فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم، وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم وأبعد من كل شبهة وشك، وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان.

وقال في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]. فهذه النشأة الأولى ثم قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]. فهذه النشأة الأخرى.

ونظير هذا: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧].

وهذا في القرآن كثير جداً يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى، وبالله التوفيق(٣).

* * *

(١) حادي الأرواح (١٨٣ ـ ١٨٥). (٢) روضة المحبين (٥٩).
(٣) التبيان في أقسام القرآن (١٩٩، ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣].

تذكرة تذكر بها الآخرة ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقي والقَوَاء وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهاً لعباده، والله أعلم بمراده من كلامه، على أنهم كلهم مسافرون وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

ففيها قولان: أحدهما أنها النجوم المعروفة، وعلى هذا ففي مواقعها أقوال:

أحدها: إنه انكدارها وانتشارها يوم القيامة وهذا قول الحسن، والمنجمون يكذبون بهذا ولا يقرون به.

والثاني: مواقعها: منازلها قاله عطاء وقتادة.

والثالث: إنه مغاربها.

والرابع: إنه مواقعها عند طلوعها وغروبها. حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة.

والخامس: إن مواقعها: مواضعها من السماء، هذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية عنه فيحتمل أن يكونا واحداً وأن يكونا قولين.

السادس: إن مواقعها: انقضاضها أثر العفريت وقت الرجوم، حكاه ابن عطية أيضاً ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأول.

والقول الثاني: إن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة. قال ابن عطية: ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل.

ومن لا يتأول هذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح المعنى كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]: و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦] وغير ذلك.

---

(١) طرق الهجرتين (١٣١، ١٣٢).

قلت: ويؤيد القول الأول أنه أعاد الضمير بلفظ الإفراد والتذكير ومواقع النجوم جمع، فلو كان الضمير عائداً عليها لقال: إنها لقرآن كريم، إلا أن يقال: مواقع النجوم دل على القرآن فأعاد الضمير عليه؛ لأن مفسر الضمير يكتفي فيه بذلك وهو من أنواع البلاغة والإيجاز.

فإن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكب ـ وهو قول الأكثرين ـ فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع فإنه لا ينبغي أن تكون الإلٰهية إلا له وحده، كما أنه وحده المنفرد بخلقها وإبداعها، وما تضمنته من الآيات والعجائب، فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والدهرية[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى وإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، وخلق النار، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن وأنه تنزيله وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها فقيل: هي آيات القرآن، ومواقعها: نزولها شيئاً بعد شيء.

وقيل: النجوم هي الكواكب، ومواقعها مساقطها عند غروبها.

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٥٣٥، ٥٣٦).

والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

ومن قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والموقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحداً أفردت، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. فجمع الأصوات لتعدد النوع؛ وأفرد صوت الحمير لوحدته؛ فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه؛ وتعدد الموقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

□ □ □

والمقسم عليه هاهنا قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقعاً.

وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيداً أو تنبيهاً أو احترازاً، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]. فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. فاعترض بقوله: (سبحانه) بين الجملتين.

وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام، من قصد الاعتناء والتقدير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك.

□ □ □

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره، ومنافعه، وجلالته؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه، ووصف به عرشه

ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن.

قال الكلبي: إنه لقرآن كريم، أي: حسن كريم على الله، وقال مقاتل: كرّمه الله وأعزه؛ لأنه كلامه. وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد؛ لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة، وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

□ □ □

ثم قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ اختلف المفسرون في هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۢ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۢ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦]، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر.

والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفى عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۢ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۢ بَرَرَةٖ﴾. فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنه السور المدنية.

الثالث: أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]. وهكذا قال السلف قال الكلبي: مكنون من الشياطين. وقال مقاتل: مستور. وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار. وقال أبو إسحاق: مصون في السماء يوضحه:

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله: ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ كقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] يوضحه:

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن، من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى، ولو كان نهياً لكان مفتوحاً، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس هاهنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل: إلا المتطهرون، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وفي الحديث: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»[(١)]، فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنوناً في كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب، وهذا أمر مشترك؛ والآية إنما سيقت

---

(١) رواه الترمذي (١/ ٧٧) في الطهارة، باب: ما بعد الوضوء، وقال: (في إسناده اضطراب..) وصححه الألباني، انظر: الإرواء (١/ ١٣٤).

لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص، التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو الأحوص، حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: المطهرون الملائكة[(١)]، وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع، قال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسيره من بعد الصحابة. والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، قال الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر[(٢)]، والحديث مشتق من هذه الآية، وقوله: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر»، رواه أهل السنن من حديث الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى أهل اليمن في السنن، والفرائض، والديات: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»، قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحاً[(٣)]، وقال أيضاً: لا أشك أن رسول الله ﷺ كتبه. وقال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم، معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه؛ لتلقي

---

(١) ذكره في الدر المنثور (٨/ ٢٦).

(٢) قال شيخ الإسلام ﷺ في الفتاوى الكبرى (١/ ٥٦): «مذهب الأئمة الأربعة أنه لا يمس المصحف إلا طاهر..». اهـ. ثم ذكر حديث عمرو بن حزم، وغيره، وهذا هو الأقرب والأليق لمقام القرآن، والله أعلم.

(٣) رواه مالك في موطئه (١/ ١٩٩)، وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٣٤١) رقم (١٣٢٨)، وأبو داود في مراسيله (١٢١)، والحاكم (١/ ٣٩٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وروي عن غير عمرو بن حزم، انظر: تخريجه مفصلاً في الإزواء للشيخ الجليل الألباني (١/ ١٥٨)، وتعليق محقق المراسيل لأبي داود، الأستاذ شعيب الأرناؤوط.

الناس له بالقبول والمعرفة، ثم قال: وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً، وقد رواه ابن حبان في صحيحه[(١)]، ومالك في موطئه وفي المسألة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع.

□ □ □

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به[(٢)]. وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً.

ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج، ومن قال: إن له باطناً يخالف ظاهره، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه، ففي قلبه منه حرج، ومن قال: إنه له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج، ومن سلط عليه آراء الآرائيين وهذيان المتكلمين، وسفسطة المسفسطين، وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج، ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج.

ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد لحكمة أين كان، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه، ففي قلبه منه حرج.

وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمشاكله،

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٨٩٣).

(٢) صحيح البخاري (١٣/ ٥١٧) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ . .﴾ [آل عمران: ٩٣].

وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

□ □ □

ثم أكد ذلك وقرره بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكما أنه لازم لكونه قرآناً كريماً في كتاب مكنون فهو ملزوم له، فهو دليل عليه مدلول له.

وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم، وأنه منه نزل، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به. ومن هنا قال السلف: منه بدأ. ونظيره ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

والثاني: علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر، هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل، والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم، وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم.

فمن أقر بأنه رب العالمين، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله، وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ، وتثني عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يَمنة ولا يَسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طريق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به فهو روح الوجود وحياة العالم، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ولم ينزل للمداهنة؟ وإنما أنزل بالحق وللحق،

والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به؟

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق، فرزق البدن الطعام والشراب، ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره، ومحبته، والشوق إليه، والأنس بقربه، والابتهاج بذكره، وكأن لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب، أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما، ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته، فمنهم من وفر حظه من الرزقين، ووسع عليه فيهما، ومنهم من قتر عليه في الرزقين، ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس.

وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد، فإن الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيباً، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب.

وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال: التقدير: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون. وقال آخرون: التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، فحذف مضافين معاً، وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى، ومن بعض معنى الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا[1]، فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى، والله أعلم.

* * *

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧].

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة، وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه، ولا إنكاره.

فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

أي: وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت، ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين، ولا مستوعبين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنم مربوبون مملوكون، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم، قاهرٍ آمرٍ، ناهٍ، أو لا يقرون بذلك.

فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له نداً، ولا شريكاً وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه.

وإن أنكروا ذلك وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم، فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات.

وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له، ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية ولإقرار بالعبودية، ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة، والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية والتوحيد، والبعث، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد، وتنزل، وتنتقل من مكان إلى مكان.

وما أحسن إعادة «لولا» ثانياً قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحداً، وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الأولى والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً، واستدلالاً على أصول الإيمان: من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهما تارة، وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته، وتقرير عبودية الخلق.

وأتى بهذا في صورة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين، منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض، وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه، قال الفراء: وأجيبت ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ و﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بجواب واحد وهو: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال الجرجاني: قوله ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ جواب قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾ المتقدمة والمتأخرة، على تأويل فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون.

يقول تعالى: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا إله، ولا رب يقوم بذلك، فهلّا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه، فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر، متصرف فيكم وهو الله الذي لا إله إلا هو؟ وقال أبو إسحاق: معناه: فهلا ترجعون الروح، إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلّا إن كان الأمر كما تزعمون في كما يقول قائلكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]. أي: إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلاً فهلّا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت؟

قلت: وكأن هذا يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١]. أي: إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون

بعد الموت خلقاً جديداً، فكونوا خلقاً لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك.

ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم رباً متصرفاً فيكم، ومالكاً لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقاً جديداً بعد ما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم، فكونوا خلقاً لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ويحيا، أن يحييكم بعدما أماتكم؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت، والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت، وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٦].

فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون، مجزيون محاسبون، ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول، والقيامة الصغرى، وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين.

فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة، وهذه الكرامات الثلاث التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة، فالروح الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها؛ وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان الرزق؛ وهو الأكل والشرب، والجنة المسكن الجامع لذلك كله، فيعطون هذه الثلاث في البرزخ، وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين، ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

والسلام مصدر من سلم، أي: فلك السلامة، والخطاب له نفسه، أي: يقال

لك: السلامة، كما يقال للقادم: لك الهناء، ولك السلامة، ولك البشرى، ونحو ذلك من الألفاظ، كما يقولون: خير مقدم، ونحو ذلك فهذه تحية عند اللقاء.

قال مقاتل: يسلم الله لهم أمرهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ويتقبل حسناتهم. وقال الكلبي: يسلم عليه أهل الجنة، ويقولون: السلامة لك، وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية، وقالوا: السلامة لك، وفي الآية أقوال أخر، فيها تكلف وتعسف، فلا حاجة إلى ذكرها.

ثم ذكر الطبقة الثالثة، وهي طبقة الضال في نفسه المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم، وسكنى الجحيم، ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾. فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين، وعن درجة اليقين إلى حقه.

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون[1].

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢١٩ ـ ٢٤٢).

سُوْرَةُ الحَدِيدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

قال ابن عباس لأبي زميل سماك بن الوليد الحنفي وقد سأله: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به.

قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قلت: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله ﷻ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. قال: فقال لي: فإذا وجدت في نفسك شيئاً، فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو الرب الخلاق، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق، وغني عن غيره وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه وكل شيء قائم به، موجود بذاته وكل شيء موجود به، قديم لا أول له وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه، باق لذاته، وبقاء كل شيء به، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٦١، ٤٦٢).

فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً؛ حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليءٌ وفيٌّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضاً وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته؛ وليعرف مقدار الربح فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول يتعلق بالمال والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله والثالث بينه وبين الآخذ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [**الحديد**: ١٣، ١٤].

(١) طريق الهجرتين (٣٣٨، ٣٣٩).

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، نعوذ بالله من غضبه وعقابه؛ وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً وأخبث قلوباً، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

لما كان الإيمان موجباً للخشوع وداعياً إليه، دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟(٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين.

والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون.

والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ [الحديد: ١٩].

قيل: إن الوقف على قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾، ثم يبتدئ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيكون الكلام جملتين:

أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه.

---

(١) طريق الهجرتين (٣٧٥).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٠٩).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٢٠).

وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء؛ ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا وفي سورة النساء، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أُحد فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيد»؛ ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق؛ ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضي الله عنه.

وقيل: إن الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين بأنهم الصديقون والشهداء عند ربهم، وعلى هذا فالشهداء هم الذي يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة وهو قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة، ويكون الشهداء وصفاً لجملة المؤمنين الصديقين.

وقيل: الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله: ﴿وَالشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ خبره ما بعده؛ لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله، ويرجحه أيضاً أنه لو كان الشهداء داخلاً في جملة الخبر لكان قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ داخلاً أيضاً في جملة الخبر عنهم، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء:

أحدها: أنهم هم الصديقون.

والثاني: أنهم هم الشهداء.

والثالث: أن لهم أجرهم ونورهم.

وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف، وهذا كما تقول: (زيد كريم وعالم له مال)، والأحسن في هذا تناسب الأخبار بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً فتقول: زيد كريم عالم له مال، أو كريم وعالم وله مال، فتأمله.

ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء، وهم الصديقون والشهداء والصالحون وهم المذكورون في الآية وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً، فهؤلاء ثلاثة أصناف ثم ذكر الرسل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء.

فهؤلاء هم السعداء، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان: كفار ومنافقون، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]، وذكر المنافقون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]. فهؤلاء أصناف العالم كلهم وترك ﷻ ذكر المخلط صاحب الشائبتين على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالباً لسر اقتضته حكمته فليحذر صاحب التخليط فإنه لا ضمان له على الله ولا هو من أهل وعده المطلق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ **[الحديد: ٢٠]**.

فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان، واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعاً في غير شيء.

ثم أخبر أنها زينة زُينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الأجل الدائم الذي هو خير وأبقى، قال الإمام: حدثنا وكيع وحدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ **[الحديد: ٢٢]**.

قال أبو داود الطيالسي: ثنا عبد المؤمن ـ هو ابن عبد الله ـ قال: كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ على عصا فقال: يا أبا سعيد أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾.

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨، ٣٢٩).
(٢) عدة الصابرين (١٦٨، ١٦٩).

فقال الحسن: نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلاً أنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة حتى أن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر. قال: يا أبا سعيد، والله لقد أخذتها وأني عنها لغني ثم لا صبر لي عنها. قال الحسن: أو لا ترى.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾. فقيل: هو عائد على الأنفس؛ لقربها منه، وقيل: هو عائد على الأرض، وقيل: عائد على المصيبة، والتحقيق أن يقال: هو عائد على البرية التي تعم هذا كله ودل عليه السياق وقوله: ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ فينتظم التقادير الثلاثة انتظاماً واحداً، والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣].

فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع وهو الأحسن، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه وأنه يسير عليه.

وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته، ولا بد قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت فلم يأسوا عليه ولم يفرحوا بالحاصل، لعلمهم أن المصيبة مقدرة في كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه؟

ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هانت عليه وخف حملها وأنزلها منزلة الحر والبرد[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

---

(١) شفاء العليل (٧).
(٢) شفاء العليل (١٩٤).

أخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وقوامه، وأن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [**الحديد**: ٢٧].

«رهبانية» منصوب «بابتدعوها» على الاشتغال إما بنفس الفعل المذكور ـ على قول الكوفيين ـ وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور ـ على قول البصريين ـ أي: وابتدعوا رهبانية، وليس منصوباً بوقوع الجعل عليه فالوقف التام عند قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثم يبتدئ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم نكتبها عليهم.

وفي نصب قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له، أي: لم نكتبها عليهم إلا إبتغاء رضوان الله وهذا فاسد، فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه، كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة. وأيضاً فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية نحو قمت إكراماً، فالقائم هو المكرم، وفعل الفاعل ها هنا هو (الكتابة) و﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فعلهم لا فعل الله، فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله، لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول (كتبناها) أي: ما كتبناه عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وهو فاسد أيضاً، إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية فتكون بدل الشيء من الشيء، ولا بعضها، فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل على الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع؛ أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودل على هذا قول: «ابتدعوها»، ثم ذكر الحامل لهم

(١) الجواب الكافي (١٩٠).

والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله، ثم ذمهم بترك رعايتها، إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه، حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع ـ أو كالإجماع ـ في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاءً، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله ﷻ ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها(١)؟

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [**الحديد**: ٢٨].

وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشيء في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم، ولا لأحوالهم، ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم.

وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه(٢).

□ □ □

وقد ضمن لهم ـ سبحانه ـ بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيباً في الدنيا، ونصيباً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٦٠).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥، ٦).

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.
الثالث: مغفرة ذنوبهم.

وهذا غاية التيسير، فقد جعل ـ سبحانه ـ التقوى سبباً لكل يسر، وترك التقوى سبباً لكل عسر[1].

❀ ❀ ❀

(١) التبيان في أقسام القرآن (٣٧).

سُوْرَةُ المُجَادَلَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة وأنه بنفسه سمع(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٢ ـ ٤].

ثبت في (السنن) و(المساند)(٢): أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة، وهي التي جادلت فيه رسول الله ﷺ، واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها مِن فوق سبع سماوات، فقالت: يا رسول الله! إن أوسَ بنَ الصامت تزوَّجني وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سني، ونثرت له بطني، جعلني كأمِّهِ عنده، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «مَا عِندِي في أمرك شيءٌ»، فقالت: اللهم إني أشكو إليك(٣).

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٩٠).

(٢) حديث (خولة بنت مالك بن ثعلبة) صحيح، مشهور في تفسير آيات الظهار، ورواه كثير من أئمة السنة مطولاً ومختصراً، انظر: الدر المنثور (٨/ ٦٩).

(٣) روى قريباً منه ابن ماجه (الصحيح) (١/ ٣٥١) في الطلاق، باب: الظهار، والحاكم (٢/ ٤٨١)، ومعنى: ونثرت له بطني: أي: أنها ولدت له أولاداً كثيرين وهي شابة.

ورُوي أنها قالت: إن لي صبيةً صِغاراً إن ضمَّهم إليه ضاعُوا، وإن ضممتُهم إليَّ جَاعُوا، فنزلَ القرآنُ.

وقالت عائشة[١]: الحمدُ لله الذي وَسِعَ سمعهُ الأصواتَ، لقد جاءت خولةُ بنتُ ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في كِسْرِ البيت يَخْفى عليَّ بعضُ كلامِها، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

فقال النبيُّ ﷺ: «لِيُعْتِقْ رَقَبَةً»، قالت: لا يجد، قال: «فَيَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قالت: يا رسول الله! إنه شيخ كبير ما بِهِ مِنْ صيام، قال: «فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكيناً»، قالت: ما عنده من شيء يتصدَّقُ به، قالت: فأتي ساعتئذ بِعَرق مِنْ تَمْر، قلت: يا رسول الله، فإني أعينه بعرق آخرَ، قال: «أحْسَنْتِ فَأَطْعِمي عَنْهُ سِتِّينَ مِسْكيناً وارْجِعي إلى ابْنِ عَمِّكِ»[٢].

وفي السنن: أن سلمة بن صخر البياضي ظاهر مِن امرأته مدةَ شهرِ رمضان، ثم واقعها ليلةً قبل انسلاخه، فقال له النبيُّ ﷺ: «أنتَ بِذَاكَ يَا سَلمة»، قال: قلت: أنا بِذَاكَ يا رسول الله مرتين وأنا صابر لأمر الله، فاحكمْ فيَّ بما أراك الله، قال: «حَرِّرْ رَقَبَةً»، قلت: والذي بعثك بالحقِّ نبياً ما أمِلكُ رقبة غيرَها وضربتُ صفحة رقبتي، قال: «فَصُمْ شَهْرَيْنِ متتابِعَين»، قال: وهل أصبتُ الذي أصبتُ إلا في الصيام، قال: «فأطعم وسْقاً مِن تمرٍ بين سِتينَ مسكيناً»، قلت: والَّذي بعثك بالحقِّ لقد بِتْنَا وَحْشَيْنِ ما لنا طَعَام، قال: «فانْطَلِقْ إلى صَاحِب صدَقَة بَنِي زُرَيْقٍ فَلْيَدْفَعْهَا إلَيْكَ فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً وَسْقاً مِنْ تَمرٍ وكُلْ أَنْتَ وعِيَالُكَ بَقِيَّتَها». قال: فَرُحْتُ إلى قومي، فقلتُ: وجدت عندكم الضيقَ وسوء الرأي، ووجدتُ عندَ رسولِ الله ﷺ السَّعَةَ وحُسْنَ الرأي، وقد أمر لي بصدَقَتِكم[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٦/ ٤٦)، والنسائي (٦/ ١٦٨) في الطلاق، باب: الظهار، والطبري (٢٨/ ٢)، وعلق البخاري قول عائشة رضي الله عنها (١٣/ ٣٨٤) في التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٤١٠)، وأبو داود (الصحيح) (٢/ ٤١٨) في الطلاق، باب: في الظهار، وقال الألباني: (حسن).

(٣) حديث صحيح، رواه أبو داود (الصحيح) (٢/ ٤١٦) في الطلاق، باب: في الظهار، والترمذي (٥/ ٣٧٧) في التفسير، باب: سورة المجادلة، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٣٥١) في الطلاق، باب: في الظهار، والحاكم (٢/ ٢٠٣)، وصححه =

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس، أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ قد ظاهَرَ من امرأته فوقع عليها، فقال: يا رسولَ الله إني ظاهرتُ من امرأتي، فوقعتُ عليها قَبْلَ أن أكفِّر. قال: «وَمَا حَمَلَكَ علَى ذلِكَ يَرْحَمُكَ الله»؟ قال: رَأَيْتُ خَلْخَالَها في ضَوْءِ القَمَرِ، قال: «فَلَا تَقْرَبْها حَتَّى تَفْعَل مَا أَمَرَكَ الله»[1]. قال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

وفيه أيضاً: عن سلمة بن صخر، عن النبي ﷺ، في المظاهر يُواقِعُ قبل أن يُكَفِّر، فقال: «كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ»[2]. وقال: حسن غريب. انتهى، وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار، وسلمة بن صخر.

وفي مسند البزار، عن إسماعيل بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: أتى رجلٌ إلى نبي الله ﷺ فقال: إني ظاهرتُ من امرأتي، ثم وقعتُ عليها قبل أن أُكفِّر. فقال رسول الله ﷺ: «ألم يقل الله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾؟» فقال: أعْجَبَتْني، فقال: «أمْسِكْ عنها حَتَّى تُكَفِّرَ». قال البزار: لا نعلمه يُروى بإسناد أحسنَ من هذا، على أن إسماعيل بن مسلم قد تُكلِّم فيه، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم.

□ □ □

فتضمنت هذه الأحكام أموراً:

١ ـ **أحدُها**: إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار طلاقاً، ولو صرَّح بنيته له، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، أعني به: الطلاق، لم يكن طلاقاً وكان ظهاراً، وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ، وقد نصَّ عليه أحمد والشافعي وغيرهما. قال الشافعي: ولو ظاهر يُريد طلاقاً، كان ظهاراً،

= ووافقه الذهبي، وراجع: الإرواء (٧/ ١٧٦).

(١) رواه الترمذي (٣/ ٥٠٢) في الطلاق، باب: ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، وقال: (حسن غريب صحيح)، وابن ماجه (الصحيح) (١/ ٣٥٢) في الطلاق، باب: المظاهر يجامع قبل أن يكفّر، والنسائي (٦/ ١٦٧) في الطلاق، باب: الظهار، وانظر: الإرواء (٧/ ١٧٩).

(٢) رواه الترمذي (الصحيح) (١/ ٣٥٢) في الطلاق، باب: في المظاهر يواقع قبل أن يكفّر، وقال: (حسن غريب، والعمل عليه. . .)، وصححه الألباني، وابن ماجه (الصحيح) (١/ ٣٥٢) في الطلاق، باب: المظاهر يجامع قبل أن يكفّر.

أو طلَّق يُريد ظهاراً كان طلاقاً، هذا لفظه، فلا يجوز أن يُنسب إلى مذهب خلافُ هذا، ونص أحمد على أنه إذا قال: أنت عليَّ كظهر أمي أعني به الطلاقَ أنه ظهار، ولا تُطلق به؛ وهذا لأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية، فنسخ، فلم يجزْ أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ.

وأيضاً فأوس بن الصامت إنما نوى به الطلاقَ على ما كان عليه، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق.

وأيضاً فإنه صريح في حكمه، فلم يجز جعلُه كناية في الحكم الذي أبطله ﷻ بشرعه، وقضاء الله أحقُّ، وحكم الله أوجبُ.

٢ ـ **ومنها**: أن الظهار حرام لا يجوزُ الإقدامُ عليه، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرقُ بين جهة كونه منكراً وجهةِ كونه زوراً أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمنُ إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخباراً وإنشاءً فهو خبرٌ زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت، والمنكر خلاف المعروف، وختم سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

وفيه إشعار بقيام سبب الإثم الذي لولا عفوُ الله ومغفرته لآخذ به.

٣ ـ **ومنها**: أن الكفارة لا تجب بنفسِ الظهار، وإنما تجبُ بالعود، وهذا قولُ الجمهور.

٤ ـ **ومنها**: أن من عجز عن الكفارة، لم تسقط عنه، فإن النبيَّ ﷺ أعان أوس بن الصامت بِعَرَقٍ من تمر، وأعانته امرأته بمثله، حتى كفَّر، وأمر سلمةَ بن صخر أن يأخذ صدقةَ قومه، فيكفِّر بها عن نفسه، ولو سقطت بالعجز، لما أمرهما بإخراجها، بل تبقى في ذمته ديناً عليه، وهذا قول الشافعي، وأحد الروايتين عن أحمد.

وذهبت طائفة إلى سقوطِها بالعجز، كما تسقط الواجبات بعجزه عنها، وعن إبدالها.

وذهبت طائفة أن كفارةَ رمضان لا تبقى في ذمته بل تسقط، وغيرُها من الكفارات لا تسقط، وهذا الذي صححه أبو البركات ابن تيمية.

واحتجَّ من أسقطها بأنها لو وجبت مع العجز، لما صُرفَتْ إليه، فإن الرجل لا يكونُ مَصْرِفاً لكفارته، كما لا يكون مَصْرِفاً لزكاته، وأربابُ القول الأول يقولون:

إذا عجز عنها، وكفر الغيرُ عنه، جاز أن يَصْرِفَهَا إليه، كما صرف النبي ﷺ كفارةَ من جامع في رمضان إليه وإلى أهله، وكما أباح لسلمة بن صخر أن يأكُل هو وأهلُه من كفارته التي أخرجها عنه من صدقة قومه، وهذا مذهبُ أحمد، رواية واحدة عنه في كفارة من وطئ أهله في رمضان، وعنه في سائر الكفارات روايتان.

والسنة تَدُلُّ على أنه إذا أعسر بالكفارة، وكفَّرَ عنه غيرُه، جاز صرف كفارته إليه، وإلى أهله.

فإن قيل: فهل يجوز له إذا كان فقيراً له عيال وعليه زكاة يحتاج إليها أن يصرفها إلى نفسه وعياله؟ قيل: لا يجوز ذلك لعدم الإخراج المستحق عليه، ولكن للإمام أو الساعي أن يدفع زكاتَه إليه بعد قبضها منه في أصحِّ الروايتين عن أحمد.

٥ ـ ومنها: أنه لا يجوز وطء المظاهر منها قبل التكفير، وقد اختلف هاهنا في موضعين:

أحدهما: هل له مُبَاشَرتها دُونَ الفرج قبل التكفير، أم لا؟

والثاني: أنه إذا كانت كفارتهُ الإطعام، فهل له الوطء قبلَهُ أم لا؟ وفي المسألتين قولان للفقهاء، وهما روايتانِ عن أحمد، وقولان للشافعي.

ووجه منع الاستمتاع بغير الوطء، ظاهرُ قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾.

وأما المسألةُ الثانية وهي وطؤها قبل التكفير إذا كان بالإطعام، فوجه الجواز أن الله سبحانه قيَّد التكفيرَ بكونه قبل المسيس في العتق والصيام، وأطلقه في الإطعام، ولكل منهما حِكمة، فلو أراد التقييدَ في الإطعام لذكره كما ذكره في العتق والصيام، وهو سبحانه لم يقيد هذا ويطلق هذا عبثاً، بل لِفائدة مقصودة، ولا فائدة إلا تقييد ما قيَّده، وإطلاقُ ما أطلقه، ووجهُ المنع استفادةُ حكم ما أطلقه مما قيده، إما بياناً على الصحيح، وإما قياساً قد ألغي فيه الفارق بين الصورتين، وهو سبحانه لا يُفرِّقُ بين المتماثلين، وقد ذكر: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ مرتين؛ فلو أعاده ثالثاً لطال به الكلام، ونبَّه بذكره مرتين على تكرر حكمه في الكفارات، ولو ذكره في آخر الكلام مرةً واحدةً؛ لأوهم اختصاصه بالكفارة الأخيرة، ولو ذكره في أول مرة لأوهم اختصاصه بالأولى، وإعادته في كُلِّ كفارة تطويل، وكان أفصحَ الكلام وأبلغه وأوجزه ما وقع.

وأيضاً فإنه نبه بالتكفير قبل المسيس بالصوم مع تطاول زمنه، وشدة الحاجة إلى مسيس الزوجة على أن اشتراط تقدمه في الإطعام الذي لا يطول زمنه أولى.

٦ ـ **ومنها**: أنه سبحانه أمر بالصيام قبل المسيس، وذلك يعمُّ المسيس ليلاً ونهاراً، ولا خلاف بين الأئمة في تحريم وطئها في زمن الصوم ليلاً ونهاراً وإنما اختلُفوا هل يبطل التتابُع به؟ فيه قولان:

أحدهما: يبطل وهو قولُ مالك، وأبي حنيفة، وأحمد في ظاهر مذهبه.

والثاني: لا يبطل، وهو قولُ الشافعي، وأحمد في رواية أخرى عنه.

والذين أبطلوا التتابع معهم ظاهرُ القرآن، فإنه سبحانه أمر بشهرين متتابعين قبل المسيسِ، ولم يُوجد؛ ولأن ذلك يتضمَّن النهي عن المسيس قبل إكمال الصيام وتحريمه، وهو يُوجب عدم الاعتدادِ بالصوم؛ لأنه عمل ليس عليه أمْر رسول الله ﷺ فيكون رداً.

وسر المسألة أنه سبحانه أوجب أمرين:

أحدهما: تتابع الشهرين.

والثاني: وقوعُ صيامهما قبل التماس، فلا يكون قد أتى بما أمر به إلا بمجموع الأمرين.

٧ ـ **ومنها**: أنه ﷻ أطلق إطعام المساكين ولم يُقيده بقدر، ولا تتابع، وذلك يقتضي أنه لو أطعمهم فغدَّاهم وعشاهم من غير تمليك حبٍّ أو تمر جاز، وكان ممتثلاً لأمر الله، وهذا قول الجمهور ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين، عنه، وسواء أطعمهم جملة أو متفرقين.

٨ ـ **ومنها**: أنه لا بُدَّ من استيفاء عدد الستين، فلو أطعم واحداً ستين يوماً لم يجزه إلَّا عن واحدٍ، هذا قول الجمهور: مالك، والشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

والثانية: أن الواجب إطعام ستين مسكيناً، ولو لواحدٍ وهو مذهب أبي حنيفة.

والثالثة: إن وجد غيره لم يجزِء، وإلا أجزأه، وهو ظاهرُ مذهبه، وهي أصح الأقوال.

٩ ـ **ومنها**: أنه لا يجزئه دفعُ الكفارة إلا إلى المساكين، ويدخُلُ فيهم الفقراء كما يدخل المساكينُ في لفظ الفقراء عند الإطلاق، وعمم أصحابُنا وغيرهم الحكمَ في كلِّ من يأخذ من الزكاة لحاجته، وهم أربعة: الفقراء، والمساكين، وابنُ السبيل، والغارمُ لمصلحته، والمكاتب. وظاهر القرآن اختصاصها بالمساكين، فلا يتعدَّاهم.

١٠ ـ ومنها: أن الكفارة لا تسقُط بالوطء قبلَ التكفير، ولا تتضاعف، بل هي بحالها كفارةٌ واحدة، كما دل عليه حكمُ رسول الله ﷺ الذي تقدم، قال الصلتُ بنُ دينار: سألتُ عشرة من الفقهاء عن المظاهر يُجامع قبل أن يكفر، فقالوا: كفارة واحدة. قال: وهم الحسنُ، وابنُ سيرين، ومسروق، وبكر، وقتادة، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وعكرمة. قال: والعاشر أراه نافعاً، وهذا قولُ الأئمة الأربعة[١].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

إن قيل: فما تقولون في قول المظاهر: أنت عليّ كظهر أمي؟ هل هو إنشاء أو إخبار؟

فالجواب وفصل الخطاب: أن قوله: أنت علي كظهر أمي، يتضمن إنشاءً وإخباراً، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم بهذا اللفظ، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه؛ ولهذا جعله الله منكراً من القول وزوراً، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

والكبت: الإذلال والخزي والتصريع على الوجه. قال النضر وابن قتية[٣]: هو الغيظ والحزن.

وقال أهل التفسير: كبتوا: أهلكوا وأخزوا وحزنوا. وإذا كان المحاد مكبوتاً فلو كان آمناً على نفسه وماله لم يكن مكبوتاً بل مسروراً جذلاً يشفي صدره من الله ورسوله، آمناً على دمه وماله فأين الكبت إذن؟ ويدل عليه قوله: ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فخوفهم بكبت نظير كبت من قبلهم وهو: الإهلاك من عنده أو بأيدي عباده وأوليائه.

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٣٢٢ ـ ٣٤٢). (٢) بدائع الفوائد (١/ ١١ ـ ١٥).
(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص(١١٠ و٤٥٧).

وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] عقيب قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ دليل على أن المحاداة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالباً، إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد لس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة، وقد جرت سنة الله سبحانه أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه.

يوضحه أن المحادة مشاقة؛ لأنها من الحد والفصل والبينونة، وكذلك المشاقة من الشق، وكذلك المعاداة من العُدْوة وهي الجانب يكون أحد العدوين في شق وجانب وحد، وعدوه الآخر في غيرها، والمعنى في ذلك كله: معنى المقاطعة والمفاصلة وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد، لا يكون مع اتصال الحبل أبداً، يوضحه أن الحبل وصلة وسبب فلا يجامع المفاصلة والمباينة، وأيضاً فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢ ـ ١٣] فأمر بضرب أعناقهم؛ وعلل ذلك بمشاقتهم ومحادتهم، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [**المجادلة**: ١١].

واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي: العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٢٦ ـ ٨٢٨).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٦٥).

سُورَةُ الحَشرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

الاعتبار: هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ...﴾ إلى آخر الآية [الحشر: ٧ ـ ١٠].

فأخبر سبحانه أن ما أفاء على رسوله بجملته لمن ذكر في هذه الآيات، ولم يخص منه خمسه بالمذكورين، بل عمم وأطلق واستوعب ويصرف على المصارف الخاصة وهم أهل الخمس، ثم على المصارف العامة وهم المهاجرون والأنصار وأتباعهم إلى يوم الدين، فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون هو المراد من هذه الآيات، ولذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ فيما رواه أحمد رحمه الله وغيره عنه: «ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٥٧).

الإسلام، والرجل وعناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[(١)].

فهؤلاء المسمون في آية الفيء، هم المسمون في آية الخمس، ولم يدخل المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس؛ لأنهم المستحقون لجملة الفيء، وأهل الخمس لهم استحقاقان: استحقاق خاص من الخمس، واستحقاق عام من جملة الفيء فإنهم داخلون في النصيبين.

وكما أن قسمته من جملة الفيء بين من جعل له، ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون؛ كقسمة المواريث، والوصايا، والأملاك المطلقة، بل بحسب الحاجة والنفع والغناء في الإسلام والبلاء فيه فكذلك قسمة الخمس في أهله، فإن مخرجهما واحد في كتاب الله.

والتنصيص على الأصناف الخمسة يفيد تحقيق إدخالهم وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها لا يتعداهم إلى غيرهم؛ ولهذا أفتى أئمة الإسلام كمالك، والإمام أحمد، وغيرهما أن الرافضة لا حق لهم في الفيء؛ لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار ولا من الذين جاؤوا من بعدهم ويقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه يدل القرآن وفعل رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين.

□ □ □

وقد اختلف الناس في آية الزكاة وآية الخمس فقال الشافعي: تجب قسمة الزكاة والخمس على الأصناف كلها ويعطى من كل صنف من يطلق عليه اسم الجمع.

وقال مالك رحمه الله وأهل المدينة: بل يعطى في الأصناف المذكورة فيهما ولا يعدوهم إلى غيرهم، ولا تجب قسمة الزكاة ولا الفيء في جميعهم.

وقال الإمام أحمد وأبو حنيفة بقول مالك رحمه الله في آية الزكاة، وبقول الشافعي رحمه الله في آية الخمس.

ومن تأمل النصوص، وعمل رسول الله ﷺ وخلفائه وَجَدَه يدل على قول أهل

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٨١) برقم (٢٩٢)، بتحقيق: أحمد شاكر وصححه.

المدينة؛ فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء؛ وعينهم اهتماماً بشأنهم وتقديماً لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها لا يشركهم فيها سواهم، نص على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد، جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم، فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدماً للأهم فالأهم والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزَّابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظاً ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديه وسيرته وهو فصل الخطاب، ومحض الصواب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فأخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقي الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات، فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها وهذا ضد الإيثار بها(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد،

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٨٤ ـ ٨٧).

(٢) طريق الهجرتين (٢٧٨).

وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر»[١]، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **[الحشر: ١٩]**.

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، ينسيه ذلك جميعه فلا يخطره بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره، وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضاً: ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة، فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟[٣].

□ □ □

---

(١) ذكره ابن الجوزي في تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٧٦، ١٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٢). وقال الألباني: إسناده جيد إن كان ثابت سمعه من عمر... الضعيفة (٣/ ٣٤٦) رقم (١٢٠١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٧٠).

(٣) الجواب الكافي (١٥٠، ١٥١).

وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل بغيره، وضيع مصالحه فإنه يفسد ولا بد.

هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها وعطل مراعاتها وترك القيام عليها بما يصلحها، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان، وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً، فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك.

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن ينزله منزلة حياته التي لا غنى عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم.

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لا بد منه وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة[١].

❁ ❁ ❁

(١) الوابل الصيب (٦٧، ٦٨).

سُوْرَةُ المُمْتَحَنةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٥].

قال مجاهد: المعنى، لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا.

وقال الزجاج: معناه، لا يظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

فإن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٣).

(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ٣٠١).

صالح النبي ﷺ قريشاً على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين على أن من جاءه منهم مسلماً رده إليهم، ومن جاءهم من عنده لا يردونه إليه.

وكان اللفظ عاماً في الرجال والنساء، فنسخ الله ذلك في حق النساء وأبقاه في حق الرجال.

وأمر الله نبيه والمؤمنين أن يمتحنوا من جاءهم من النساء فإن علموها مؤمنة لم يردوها إلى الكفار، وأمرهم برد مهرها إليهم لما فات على زوجها من منفعة بضعها، وأمر المسلمين أن يردوا على من ارتدت امرأته إليهم مهرها إذا عاقبوا، بأن يجب عليهم رد مهر المهاجرة فيردونه إلى من ارتدت امرأته ولا يردونها إلى زوجها المشرك، فهذا هو العقاب وليس من العذاب في شيء.

وكان في هذا دليل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم، وأنه متقوم بالمسمى الذي هو ما أنفق الزوج لا بمهر المثل وأن أنكحة الكفار لها حكم الصحة، لا يحكم عليها بالبطلان، وأنه لا يجوز ردّ المسلمة المهاجرة إلى الكفار ولو شرط ذلك، وأن المسلمة لا يحل لها نكاح الكافر.

وأن المسلم له أن يتزوج المرأة المهاجرة إذا انقضت عدتها وآتاها مهرها، وفي هذا أبين دلالة على خروج بضعها من ملك الزوج وانفساخ نكاحها منه بالهجرة والإسلام.

وفيه دليل على تحريم نكاح المشركة على المسلم كما حرم نكاح المسلمة على الكافر.

وهذه أحكام استفيدت من هاتين الآيتين وبعضها مجمع عليه، وبعضها مختلف فيه وليس مع من ادعى نسخها حجة البتة، فإن الشرط الذي وقع بين النبي ﷺ وبين الكفار في رد من جاءه مسلماً إليهم إن كان مختصاً بالرجال لم تدخل النساء فيه، وإن كان عاماً للرجال والنساء فالله ﷻ خصص منه رد النساء ونهاهم عن ردهن وأمرهم برد مهورهن، وأن يردوا منها على من ارتدت امرأته إليهم من المسلمين المهر الذي أعطاها.

ثم أخبر أن ذلك حكمه الذي يحكم به بين عباده وأنه صادر عن علمه وحكمته، ولم يأت عنه ما ينافي هذا الحكم ويكون بعده حتى يكون ناسخاً[١].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ١٤٠، ١٤١).

قـولـه تـعـالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢].

قالت عائشة: فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «انطلقن فقد بايعتكن»، ولا والله ما مسَّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام.

قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط إلا بما أمره الله، وما مسَّت كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «قد بايعتكن» كلاماً[1].

❀ ❀ ❀

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٦).

سورة الصَّفِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

أصل الزيغ: الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت، فإزاغة القلب إمالته، وزيغه ميله عن الهدى إلى الضلال، والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقاً. وهذا تقريب للمعنى فإن الشخوص غير الزيغ وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرف، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب.

وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم. وقال الفراء: زاغت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف؛ فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله(١).

وتأمل قوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، فإنها جملة في موضع الحال، أي: أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم؟ وذلك أبلغ من العناد(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ

(١) شفاء العليل (١٠٠). (٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٤٢).

ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة، التي دلَّ عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة فكأنها قالت: فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ومع المغفرة ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فكأنها قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فلله ما أحلى هذه الألفاظ وما ألصقها بالقلوب وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها وما ألطف موقعها من قلب كل محب! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها، فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم[1].

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين (٣٣٢).

سُوْرَةُ الجُمُعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤].

يعني: وبعث في آخرين منهم لما يلحقوا بهم، وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي، فقيل: هو اللحاق في الزمان، أي: يتأخر زمانهم عنهم، وقيل: هو اللحاق في الفضل والسبق، وعلى التقديرين فامتن عليهم سبحانه بأن علمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويا لها من منة عظيمة فاقت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن(١)!.

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

من جهلهم أن الله سبحانه شبههم في حملهم التوراة، وعدم الفقه فيها والعمل بها بالحمار يحمل أسفاراً، وفي هذا التشبيه من النداء على جهالتهم وجوه متعددة:

منها: أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة.

ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علف أو ماء لكان له به شعور بخلاف الأسفار.

ومنها: أنهم حُمِّلوها لا أنهم حملوها طوعاً واختياراً بل كانوا كالمكلفين لما حملوه لم يرفعوا به رأساً.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦٢، ٦٣).

ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفاً وقهراً لم يرضوا بها ولم يحملوها رضاً واختياراً، وقد علموا أنهم لا بد لهم منها، وأنهم إن حملوها اختياراً كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها: أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده من غاية الجهل والغباوة وعدم الفطانة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وهذه أحسن من قراءة من قرأ: (فامضوا إلى ذكر الله)، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وائتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[٢]. فلم ينه عن السعي إليها؛ بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه، والإتيان فعل البدن، وسعيه عَدْو البدن وهو منهي عنه.

وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة من بيع وغيره والإقبال بالقلب على السعي إليها[٣].

* * *

(١) هداية الحيارى (٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) رواه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢).

(٣) التبيان في أحكام القرآن (٧).

سُوْرَةُ المنافِقُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم؛ بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر؛ فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لا على معنى: أنه لا عدو لكم سواهم بل على معنى: أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

هذا ما قاله رأس المنافقين ابن أُبي، فبلَّغها زيد بن أرقم رسول الله ﷺ، وجاء ابن أُبي يعتذر ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقين، فأخذ النبي ﷺ بأذنه فقال: «أبشر، فقد صدقك الله»، ثم قال: «هذا الذي وفى الله بأذنه» فقال له عمر: يا رسول الله، مرْ عباد بن بشر فليضرب عنقه، فقال: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[(٢)]؟

* * *

(١) طريق الهجرتين (٣٧٤).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ **[المنافقون: ٩]**.

المقصود: أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة، وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته.

ولهذا أمر سبحانه بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سبباً للفلاح فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال النبي ﷺ: «سبق المُفَرِّدون»، قالوا: يا رسول الله وما المُفَرِّدون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً»[(١)].

وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على خير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله»[(٢)]، وهو في الموطأ موقوف على أبي الدرداء[(٣)].

وقال معاذ بن جبل: ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله[(٤)].

وذكر رسول الله ﷺ تبع لذكره.

والمقصود: أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة، فالذكر للقلب كالماء للزرع بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به وهو وأنواع:

أحدها: بأسمائه وصفاته والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦). (٢) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٣٧٧).

(٣) الموطأ (١/ ٢١١) في كتاب القرآن، برقم (٢٤).

(٤) رواه مالك في الموطأ موقوفاً عن معاذ، قال: زياد بن أبي زياد، فذكره عن معاذ (١/ ٢١١)، وورواه الإمام أحمد مرفوعاً (٥/ ٢٣٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٣): «رجاله رجال الصحيح إلا أن زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش لم يدرك معاذاً».

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، فذكره هاهنا هو كلامه الذي أنزله على رسوله، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومن ذكره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه، فهذه خمسة أنواع من الذكر[١].

□ □ □

وفي ذلك تحذير من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله ﷻ فوقعوا في النفاق، وسئل بعض الصحابة ﵃ عن الخوارج منافقون هم؟ قال: لا. المنافقون لا يذكرون إلا قليلاً، فهذا من علامة النفاق قلة ذكر الله ﷻ، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله ﷻ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ[٢].

□ □ □

فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم، ولم يؤثرهم على الله[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) جلاء الأفهام (٢٦٦ ـ ٢٦٨).

(٢) الوابل الصيب (١١٠).

(٣) طريق الهجرتين (٦٣)

سُورةُ التَّغابُنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣].

فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادَّة؛ بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر.

كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل: حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ الآية، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[(٢)].

---

(١) طريق الهجرتين (٢٣٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣١٧).

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: «الولد مبخلة مجبنة»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران؛ فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»(٢)، وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار، وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار(٣).

□ □ □

وقال مقاتل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاء وشغل عن الآخرة، قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى.

وقال الزجاج: أعلمهم الله ﷻ أن الأموال والأولاد مما يفتنون به وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه؛ وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى، وقال ابن مسعود ﵁: لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن(٤)(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فالإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح:

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦)، وصححه الألباني والبوصيري (٣/ ١٦٠).

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود (الصحيح) (١/ ٢٠٦) في الجمعة، باب: الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، والترمذي (الصحيح) (٣/ ٢٢٤) في المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين ﵄، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٨٣) في اللباس، باب: لبس الأحمر للرجال.

(٣) عدة الصابرين (٦٤، ٦٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢١٨).

(٥) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٠).

حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»(١)، فالبخيل: من أجاب داعي الشح، والمؤثر: من أجاب داعي الجود، كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل، قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أبو داود (١٦٩٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩١).

سُوْرَةُ الطَّلَاقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ١ ـ ٢].

إنه ﷻ إنما شرع أن تطلق لعدتها؛ أي: لاستقبال عدتها، فتطلق طلاقاً يعقبه شروعها في العدة؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر ﵄ لما طلق امرأته في حيضها أن يراجعها، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها، وأن المراد بها الطلاق في قبل العدة، وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر.

ولهذا قال كل من قال: بتحريم جمع الثلاث: إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر؛ لأنه غير مطلق للعدة؛ فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى، فلا تكون الثانية للعدة[1].

□ □ □

فأمر الله سبحانه الأزواج الذين لهم عند بلوغ الأجل الإمساك والتسريح بأن لا يخرجوا أزواجهم من بيوتهم، وأمر أزواجهن أن لا يخرجن، فدل على جواز إخراج من ليس لزوجها إمساكها بعد الطلاق، فإنه سبحانه ذكر لهؤلاء المطلقات أحكاماً متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض.

أحدها: أن الأزواج لا يخرجوهن من بيوتهن.

والثاني: أنهن لا يخرجن من بيوت أزواجهن.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

والثالث: أن لأزواجهن إمساكهن بالمعروف قبل انقضاء الأجل، وترك الإمساك فيسرِّحوهن بإحسان.

والرابع: إشهاد ذوي عدل، وهو إشهاد على الرجعة إما وجوباً وإما استحباباً، وأشار سبحانه إلى حكمة ذلك وأنه في الرجعيات خاصة بقوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ والأمر الذي يرجى إحداثه هاهنا هو المراجعة، هكذا قال السلف ومن بعدهم.

قال ابن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، عن داود الأودي، عن الشعبي: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، قال: لعلك تندم فيكون لك سبيل إلى الرجعة(١). وقال الضحاك: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قال: لعله أن يراجعها في العدة(٢). وقاله عطاء وقتادة والحسن وقد تقدم قول فاطمة بنت قيس، أي أمر يحدث بعد الثلاث؟

فهذا يدل على أن الطلاق المذكور هو الرجعي الذي ثبتت فيه هذه الأحكام، وأن حكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين اقتضته لعل الزوج أن يندم ويزول الشر الذي نزغه الشيطان بينهما، فتتبعها نفسه فيراجعها، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو أن الناس أخذوا بأمر الله في الطلاق، ما تتبع رجل نفسه امرأة يطلقها أبداً(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ **[الطلاق: ٢ ـ ٣]**.

قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة، فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً.

وقال الحسن: مخرجاً مما نهاه عنه:

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٥/ ٢٦٢).

(٢) النسائي (٦/ ١٤٤) في الطلاق، باب: الرخصة في ذلك، وصححه إسناده ابن القيم، كما في زاد المعاد (٥/ ٥٢٦).

(٣) زاد المعاد (٥/ ٥٢٦ ـ ٥٢٨).

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي: كافي من يثق به في نوائبه ومهماته، يكفيه كل ما أهمه والحسب الكافي(١).

□ □ □

ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه(٢).

□ □ □

وجعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]. فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوباً بنوع من المتوكل فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا يجعل عجزه توكلاً؛ بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها.

ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس:

إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كافٍ في حصول المراد، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب فجمعوا الهم كله وصيروه هماً واحداً، وهذا وإن كان فيه قوة من هذا الوجه ففيه ضعف من جهة أخرى، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده، أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل، فإن التوكل محله الأسباب، وكماله بالتوكل على الله فيها.

وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر فتوكل على الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقه، ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بوراً.

وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جِدِّه في السير.

وتوكل الأكياس في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته.

فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حَسْبَ من قام به، وأما توكل

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧١). (٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٧٣).

العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حَسْبَ صاحبه، فإن الله إنما يكون حَسْبَ المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب ورأت ارتباط المسببات بها شرعاً وقدراً، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته؛ فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم، وكفايته إياهم ودفاعه عنهم، بل هي مخذولة عاجزة بسبب ما فاتها من التوكل.

فالقوة كل القوة في التوكل على الله، كما قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، فالقوة مضمونة للمتوكل والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما لا بد أن يجعل الله له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس ويكون الله حسبه وكافيه[١].

□ □ □

فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه، فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل، فعقبه بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتاً لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر له.

وهذا كثير جداً في القرآن والسنة، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

هذا الباب [في حكم العدة] قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان وأوضحه وأجمعه، بحيث لا تشذ عنه معتدة، فذكر أربعة أنواع من العدد وهي جملة أنواعها:

النوع الأول: عدة الحامل، بوضع الحمل مطلقاً بائنة كانت أو رجعية، مفارقة في الحياة أو متوفى عنها فقال: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وهذا فيه عموم من ثلاث جهات:

أحدها: عموم المخبر عنه وهو أولات الأحمال، فإنه يتناول جميعهن.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٤).
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٥).

الثاني: عموم الأجل فإنه أضافه إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان، أما المبتدأ: فظاهر، وأما الخبر: وهو قوله تعالى: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ففي تأويل مصدر مضاف، أي: أجلهن وضع حملهن، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها زوجها عدتها وضع حملها، ولو وضعته والزوج على المغتسل كما أفتى به النبي ﷺ لسبيعة الأسلمية وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقاً من كتاب الله مطابقاً له.

□ □ □

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة قد يئست من الحيض، فبيّن الله سبحانه عدة النوعين بقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾. أي: فعدتهن كذلك.

النوع الرابع: المتوفى عنها زوجها فبيّن عدتها سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة، ولا تدخل فيه الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه بخلاف قوله في المتوفى عنهن: [يتربصن] فإنه فعل مطلق لا عموم له، وأيضاً فإن قوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ متأخر في النزول عن قوله: [يتربصن]، وأيضاً، فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ في غير الحامل بالاتفاق فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته، فعمومها مخصوص اتفاقاً وقوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ غير مخصوص بالاتفاق، هذا لو لم تأتِ السنة الصحيحة بذلك، ووقعت الحوالة على القرآن، فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك مقررة له؟

فهذه أصول العدد في كتاب الله مفصلة مبينة(١).

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٥٩٤ ـ ٦٠٠).

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

إن لغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرده أفردوه، وإن أضافوه إلى اسم جمع ظاهر أو مضمر جمعوه، وإن أضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح في لغتهم جمعه كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ وإنما هما قلبان، وكقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وتقول العرب: اضرب أعناقهما، وهذا أفصح في استعمالهم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال علي رضي الله عنه: علّموهم وأدّبوهم.

وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير.

وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال رسول الله ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع».

ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها، والتفريق بينهم في المضاجع(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٢). (٢) تحفة المودود (١٣٣).

فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره، ليس بهم عجز عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصي الله ما أمره وإن لم يفعل ما أمر به، وكذلك البحار قد وكلت بها ملائكة تسجرها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وكّلت بها ملائكة تحصيها وتحفظها وتكتبها.

ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به وهي خمس: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وإذا عرف ذلك عرف أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعاً وقدراً، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره؛ ولذلك سموا ملائكة من الألوكة: وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

فجعل وقاية شر السيئات وهو تكفيرها، بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد؛ منوطاً بحصول التوبة النصوح.

والنصوح: على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) إخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاقٍ في الاشتقاق الأكبر لنصح: إذا خلص.

فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح: ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها ومرجعها إلى شيء واحد، فقال عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب رضي الله عنهما: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه. وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن.

---

(١) روضة المحبين (٦٨).

وقال سعيد بن المسيب: توبة نصوحاً: تنصحون بها أنفسكم جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي: قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش، فهي: إما بمعنى: منصوح فيها كركوبة وحلوبة بمعنى: مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى: الفاعل، أي: ناصحة، كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار؛ بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعاً لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، **والثالث**: يتعلق بمن يتوب إليه، **والأوسط**: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة... والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٠٩، ٣١٠).

وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠ ـ ١٢].

فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار ومثلين للمؤمنين.

فيتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو وصلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل: ادخلا النار مع الداخلين، قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئاً، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الانفطار: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]. وقال: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ [لقمان: ٣٣].

وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرهم من عذاب الله، أو يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم.

وأما المثلان اللذان للمؤمنين:

فأحدهما: امرأة فرعون، ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتي عامة، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين: مريم التي لا زوج لها لا مؤمن ولا كافر.

فذكر ثلاثة أصناف النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة

الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد.

فالأولى: لا تنفعها وصلتها وسببها، **والثانية**: لا تضرها وصلتها وسببها، **والثالثة**: لا يضرها عدم الوصلة شيئاً.

□ □ □

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة، فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ﷺ، وتحذيرهن من التظاهر عليه(١)، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما.

ولهذا ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة، قال يحيى بن سلام: ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة، وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً: اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف أعداء الله اليهود لها ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين.

فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه.

وفي هذه أيضاً تسلية لعائشة أم المؤمنين، إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما تعمدتاه في حق النبي ﷺ، فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليهن.

وأسرار التنزيل فوق هذا وأجلّ منه ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون(٢).

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب(٣).

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٠) عند تفسير الآية.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٨). (٣) روضة المحبين (٧٥).

سُوْرَةُ المُلكِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

البركة نوعان:

أحدهما بركة هي فعله ـ سبحانه ـ والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها «تبارك» ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو ـ سبحانه ـ المبارك، وعبده ورسوله المبارَك. كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارَك.

وأما صفته تبارك فمختصة به ـ تعالى ـ كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤][(١)].

ومن هنا قيل: معناه: تعالى وتعاظم، وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة، وقيل: تبارك أي: باسمه يبارك في كل شيء.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه تبارك وتعالى[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٥).

وهذا من أبلغ التقرير فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟! وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور، فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها؛ ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه، فأكفرهم السلف قاطبة.

وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني: تقدير أن تكون (من) في محل رفع على الفاعلية وفي محل نصب على المفعولية.

فعلى التقدير الأول: ألا يعلم الخالق الذي شأنه الخلق، وعلى التقدير الثاني: ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه.

ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق، حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها، فكيف تخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور[1].

وذات الصدور: كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض؛ أي: صاحبة الصدور فإنها لما كانت قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها، وأخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً، وأخبر أنه دحاها وطحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها.

ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩١). (٢) شفاء العليل (٥٥).

على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه، وتواريها وتضمه وتؤويه وتخرج له طعامه وشرابه فهي أحمل شيء للأذى، وأعوده بالنفع عليه.

والمقصود: أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول كيفما يقاد ينقاد.

وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً، فالماشي عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها؛ ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه، قالوا: وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر، وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه، والذي يظهر: أن المراد بالمناكب الأعالي، وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول.

ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن ثم نبه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه والاستعداد للقائه، والقدوم عليه، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعدما أماتهم وإليه النشور(١).

* * *

(١) الفوائد (٢٠، ٢١).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠ ـ ٢١].

جمع ـ سبحانه ـ بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق.

والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين، ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه[١].

❁ ❁ ❁

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣).

سُوْرَةُ القَلَم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٢].

الصحيح أن (ن) و(ق) و(ص) من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ولم تجاوز الخمسة ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه، ما خلا سورتين سورة (كهيعص) و(ن)، كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ ـ ٢]، ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ١]، وهكذا إلى آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها، إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله وهدى بها عباده وعرَّفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرَّفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود وأدله عليه.

وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته؛ ولهذا امتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم، فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه.

فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والنجوم وغيرها من المخلوقات، فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه وصدق رسله، وقد جمع سبحانه بين الأمرين أعني: القرآن ونطق اللسان، وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

فبهذه الحروف علم القرآن وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان.

وكم جلب بها من نعمة، ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدي بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل، فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب.

فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف.

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني، أمراً ونهياً وخبراً، واستخباراً ونفياً، وإثباتاً، وإقراراً وإنكاراً، وتصديقاً، وتكذيباً، وإيجاباً، واستحباباً، وسؤالاً، وجواباً، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجارٍ قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل، وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور، كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية، فهي دالة على كمال قدرته سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته، وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه، وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد، والخلق والأمر، والتوحيد والرسالة، فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن القرآن كلام الله، تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً، وبلغه كما أوحي إليه صدقاً.

ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف، واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها، وبالله التوفيق.

□ □ □

ثم أقسم سبحانه بـ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فنسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام للأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، وتولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

□ □ □

والأقلام متفاوتة في الرتب، فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[(١)]، واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني، أصحهما أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء»[(٢)]، فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم؛ لحديث عبادة هذا.

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩).
(٢) صحيح مسلم (٢٦٥٣).

ولا يخلو قوله: «إن أول ما خلق الله القلم» إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة ـ وهو الصحيح ـ كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: اكتب كما في لفظ: «أول ما خلق الله القلم قال له اكتب» بنصب أول، والقلم، فإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له اكتب».

فهذا القلم أول الأقلام، وأفضلها، وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

□ □ □

القلم الثاني: قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والعالم خدم لهم، وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه، فإليه التحاكم في الدماء، والأموال، والفروج، والحقوق، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام، وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك؛ ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل، الذي

تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب، ومبناه على الصدق والعدل، فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة، ويثبت به الإنسان، وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن: قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله، وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه. وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه للصدق، والطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحس مؤيد بالنور الإلٰهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولاناً، وأوسعها تصرفاً، وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات علويها وسفليها، والماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه، وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده، فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك، وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر: قلم اللغة، وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها، ونحوها، وتصريفها، وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ

وأعذبها وأسهلها وأوضحها، وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

القلم الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم، وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل، فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم.

□ □ □

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولا سيما من أمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف، بريئاً من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك؟.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة، ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضاً، أو قال قصيدة كذلك، أو صنف كتاباً كذلك، لشهد له العقلاء بالعقل، ولما

استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان ـ بل وقوع ـ معارضتها ومشاكلتها والإتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدي عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان، طائعة مختارة وهي ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال له إلا بما جاء به؟.

فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي؛ ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر كل التفاوت بينها، ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوى، فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم، فنفى عنه الجنون بنعمته عليه.

□ □ □

وقد اختلف في تقدير الآية.

فقالت فرقة: الباء في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ باء القسم، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول: ما أنت بالله بكاذب، وهذا التقدير ضعيف جداً؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام، ولا عهد في كلامهم.

وقالت فرقة: العامل في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أداة معنى النفي، أو معنى أنفي عنك الجنون بنعمة ربك، ورد أبو عمر بن الحاجب وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

وقال الزمخشري[(١)]: يتعلق ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ منفياً كما يتعلق بعاقل مثبتاً، في قولك: أنت بنعمة الله عاقل يستوي في ذلك الإثبات والنفي، استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً، وما ضرب زيد عمراً، يعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً، ومحله النصب على الحال، أي: ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي.

---

(١) تفسير الزمخشري (٤/١٢٦).

واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان:

أحدهما: نفي ذلك المعمول فقط، نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعاً، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع.

والثاني: ينفي المحكوم به، فينتفي معموله بانتفائه، فينتفي الذهاب في هذه الحال، فينتفي الإسراع بانتفائه، فإذا جعل ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ معمولاً لمجنون لزم أحد الأمرين، وكلاهما منتفٍ جزماً.

وهذا الاعتراض هنا فاسد؛ لأن المعنى: إذا حصل ما أنت بمجنون منعماً عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام، ولا يفهم منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣].

أي: غير مقطوع، بل هو دائم مستمر، ونكّر الأجر تنكير تعظيم، كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران: ١٣]، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [البقرة: ٢٤٨]. و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١]. و﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]. و﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠]. وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم؛ لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير، ثم قال:

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهماً، ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفى وكفى، فقالت: كان خلقه القرآن[1]. فهمّ سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك، ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي: على دين عظيم، وسمي الدين خلقاً؛ لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل، والحكمة، والمصلحة،

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً، هي أزكى الأخلاق وأشرفها، وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له، وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه، والجهاد في إقامته.

فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن، وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى.

فإذا كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم، مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة، فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف، ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥ ـ ٦].

فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة، والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً، فتعين حصوله للآخر.

والجمهور على خلاف هذا التقدير، وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن الباء زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل، قاله أبو عبيد.

الثاني: أن المفتون بمعنى: الفتنة، أي: ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة. والباء على هذا ليست بزائدة، قاله الأخفش.

الثالث: أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره: بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة، قاله الأخفش أيضاً.

الرابع: أن الباء بمعنى: في، والتقدير: في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية.

وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه، و﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ مضمن معنى: تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٧].

إن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به وهم قوم كان للمساكين حق في أموالهم إذا جذوا نهاراً بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من التمر فأرادوا أن يجذوا ليلاً ليسقط ذلك الحق، ولئلا يأتيهم مسكين، وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهم نائمون فأصبحت كالصريم، وذلك لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين بأن يصرموها مصبحين قبل مجيء المساكين، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦]. فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار؛ لينبه العقول

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٠٦ ـ ٢١٩).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٢، ٣٤٣).

على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وههنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه إذ يصير المعنى: لا تكن مثله في ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء، فأخبر أنه نجاه به فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[٢].

فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربه، وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت، وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم.

والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غيظاً وغضباً وهماً وحزناً، وكظم عليه فلم يخرجه.

فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل في الظرف؟

قيل: ما في صاحب الحوت من معنى الفعل.

فإن قيل: فالسؤال بعدُ قائم، فإنه إذا قيد المنهي بقيد أو زمن كان داخلاً في حيز النهي، فإن كان المعنى: لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت، كان نهياً عن تلك الحالة.

قيل: لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت فنهى أن يتشبه به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء وهي ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى: ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت

---

(١) طريق الهجرتين (٩٧).
(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٥).

فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر، واكتفى بغايتها وما انتهت إليه.

فإن قيل: فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهي عنه، أي: لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلئ غيظاً وهماً وغماً، بل يكون نداؤك نداء راضٍ بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم؟

قيل: هذا المعنى وإن كان صحيحاً إلا أن النهي لم يقع عن التشبه به في مجرده، وإنما نهى عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن في بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي: في ضعف صبره لحكم ربه فإن الحالة التي نهي عنها هي ضد الحالة التي أمر بها.

فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذي يقدره عليه، ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه، بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته؟

قيل: منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثني عليه ويمدحه به، وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وعلى يعقوب بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وعلى موسى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد شكا إليه خاتم رسله بقوله: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي».

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل؛ بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر؛ والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه.

وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد

عليه؛ بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال: ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود: أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً، وهذا أكمل الصبر؛ ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

❁ ❁ ❁

(١) عدة الصابرين (٣٤ ـ ٣٦).

سُورَةُ الحَاقّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

قال قتادة: أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت.

وقال الفراء: لتحفظها كل أذن، فتكون عظة لمن يأتي بعد، فالوعي توصف به الأذن، كما يوصف به القلب، يقال: قلب واعٍ، وأذن واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه والرسول والموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعى القلب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠].

قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه، وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال الكلبي: تبصرون من شيء ولا تبصرون من شيء...

وهذا أعم قسم وقع في القرآن فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة والجن والإنس والعرش والكرسي، وكل مخلوق وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الآيات، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية، ودليل على صدق رسوله وأن ما

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٥).

جاء به هو من عند الله وهو كلامه، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن.

ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، أي: إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «إنه لحق مثل ما أنك هاهنا».

فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق، كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره، وما لا يبصره بعينه: مبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وهذا رسوله البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل، فمن أنكر أن يكون الله تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة، ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير.

* * *

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [**الحاقة: ٤٣**].

ثم أخبر سبحانه أنهَ تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أموراً:

أحدها: أنه تعالى فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

والثاني: أنه تكلم به حقيقة لقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]. ونظيره قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وما كان من الله فليس بمخلوق.

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله فيقول: قلت: كذا وكذا، وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمرسل يقول للرسول: قل لهم: كذا وكذا، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ونظائره.

فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول ـ أي: قاله مبلغاً ـ وهذا قوله مبلغاً عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق ـ وقد تلا آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي، هذا كلام الله.

الأمر الثالث: ما تضمنه قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم، ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلى ما لا يليق به تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقوّل عليه فيما قاله، وأنه لو تقوّل عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقوّل عليه، وافترى عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق.

فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك؟ بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره بأهل الحق، يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلاً: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها، ثم يعجز الخلق عن

معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه، الذي هو شر الخلق على الإطلاق، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل وحكمة وحجى، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه، ونادى على جهله.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ **[الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]**.

يقول سبحانه: لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه، هذا أحد القولين.

قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

أحدهما: إن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه. قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، وأسفع بيده، فكأن قال: لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) إليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن. اهـ.

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة، فإن كذباً على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾.

والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة.

قال ابن قتيبة(١): ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه، قال: ومثله قوله ﷺ: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطعت أبهري»(٢)، والأبهر: عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم فكنت كمن انقطع أبهره.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾.

أي: لا يحجزه مني أحد ولا يمنعه مني.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها، ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر، فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٤٩ ـ ٥١].

أي: لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليه من أعظم الحسرات، حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق، وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل: هو من باب إضافة

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (١٥٤).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٧٣٧) في المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، والدارمي (١/ ٣٤) في المقدمة، باب: ما أكرم به نبيه ﷺ من كلام الموتى.

الموصوف إلى صفته ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، أي: الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولى، وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول، وبالله التوفيق:

ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاث: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين.

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧]، فهذه ثلاث مراتب لليقين.

أولها: علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.

وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً: «ليس الخبر كالمعاين»، وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»(١)، ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

المرتبة الثالثة: مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين.

□ □ □

إن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذٍ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان، وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثالاً فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته، كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين.

وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته بل من إضافة الجنس إلى نوعه.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [**الحاقة: ٥٢**].

ختم السورة بذلك وهي جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله، وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة، وذكر عظمته تعالى في إرسال رسوله وإنزال كتابه.

وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه، مفترى عليه، ويبدل دينه وينسخ شرائعه، ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره ويعلي ذكره، فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم، فسبحان ربنا العظيم وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيراً[١].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٧٥ ـ ١٩٤).

سُوْرَةُ المعَارِجِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦].

في الآية تفسيران مشهوران:

أحدهما: أن الشوى الأطراف التي ليست مقاتل كاليدين والرجلين تنزعها عن أماكنها، ومنه قولهم: رمى الصيد فأشواه إذا أصاب أطرافه دون مقاتله، فإن أصاب مقتله فمات موضعه قيل: رماه فأصماه، فإن حمل السهم وفر به ثم مات في موضع آخر قيل: رماه فأنحاه.

والتفسير الثاني: أن الشوى جمع شواه وهي جلدة الرأس وفروته(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها فلأجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه(٢).

وتفسير الهلوع: قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع. وفي الحديث: «شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع»(٣).

قلت: هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي.

فأما اللفظ فإنه وصف الشح بكونه هالعاً، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعاً ولا يقال: هالع له، فإنه لا يتعدى ففيه وجهان:

أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليل نائم وسر كاتم ونهار صائم ويوم عاصف، كله عند سيبويه على النسب، أي: ذو كذا، كما قالوا: تامر ولابن.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤، ١١٥). (٢) طريق الهجرتين (١٠١).

(٣) رواه أبو داود (الصحيح) (٢/ ٤٧٧) في الجهاد، باب: في الجرأة والجبن.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردى الصفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحه هالعاً، أي: ملق له في الهلع وجبنه خالعاً، أي: قد خلع قلبه من مكانه فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله، ولا ببدنه، كما يقال: لا طعنة، ولا جفنة، ولا يطرد، ولا يشرد بل قد قمعه، وصغره، وحقره، ودساه الشح، والخوف، والطمع، والفزع.

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستكانة، وباء بها سريعاً، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح، فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها، وتدسيسها في البدن، وإخفائها، وتحقيرها، والله المستعان[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

السكون في الصلاة هو الدوام. قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أنا أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا، ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران: الدوام عليها، والمداومة عليها، فهذا الدوام، والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣].

فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره، وفي قلبه وقالبه. فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح من

(١) عدة الصابرين (٢٧٤، ٢٧٥).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٤).

البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها رَوْحاً»، فحياة هذا الروح بهذه الكلمة، فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والفرح به، والرضى عنه وبه، مأوى روحه في هذه الدار[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٨، ٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم.

فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة، والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلٰهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعدما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر.

فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبونني، ويكذبون رسلي ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم.

ويشبه هذا قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله، والإيمان بالمعاد[(٢)].

* * *

(١) الجواب الكافي (٢٦٦).
(٢) شفاء العليل (٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ **[المعارج: ٤٠، ٤١]**.

أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب، وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جمع في موضع وأفرد في موضع وثنى في موضع آخر فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمٰن: ١٧]، فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه فجاء في سورة الرحمٰن: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾؛ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والسماء والأرض، والحب والثمر، والجن والإنس، ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين والجنة والنار، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين، وأما سورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ [المعارج: ١] فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها وصحة تعلقها بإعادتها بعد العدم، فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع، إذ هو أدل على المقسم عليه سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب.

فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون فيأتي بهم في نشأة أخرى كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ويذهب بها في مغرب.

وأما في سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد؛ لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده.

فليس للمشرق والمغرب رب سواه، فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إلٰه ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

ثم قال: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾.

أي: لقادرون على أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه؛ ولهذا عدى بعلى دون إلى، كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بعلى، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه.

فالأول: بمعنى: غلبته وقهرته عليه.

والثاني: بمعنى: وصلت إليه قبله.

□ □ □

وقد وقع الإخبار عن قدرته سبحانه عن تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق.

فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا، وذلك قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، يعني: بل يكونوا خيراً منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال كثير من المفسرين: المعنى: أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلاً منهم. قال المهدوي: قوماً موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول. وعلى هذا فتكون هذه

الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ **[المعارج: ٤٢ ـ ٤٣]**.

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين.

ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

أي: يسرعون، والنصب العَلَم والغاية التي تنصب فيؤمونها، وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمُّون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨] أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه.

قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها.

وقال الزجاج: المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

* * *

قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ **[المعارج: ٤٤]**.

فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل الذي خشعت عنه أبصارهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]، ونظيره قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وضد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨]، فنفى عنه

الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر، وضده أيضاً قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة عز الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله، ومثله أيضاً قوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم.

ومثله قوله أيضاً: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

ومنه قول امرأة العزيز: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره، وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدراً وشرعاً، والله أعلم بالصواب(١).

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٩٤ ـ ٢٠٣).

سُوْرَةُ نُوحٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُرْ لَا نَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرونه؟ وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم، وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة، وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته.

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو: أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته وحدوده وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب، ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وقاره أن لا تعدل به شيئاً من خلقه، لا في اللفظ بحيث تقول: والله وحياتك، ما لي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه.

ولا يستهين بحقه ويقول: هو مبني على المسامحة ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية والناس في ناحية وحد، فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في

قلوب الناس وقاراً ولا هيبة بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره، فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحي من اطلاعه على سره وضميره، فيرى فيه ما يكره، ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود: أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟!

القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع موقظ قائم بك، فلا ما ورد إليك وعظك! ولا ما قام بك نصحك! ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك! فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزجاراً وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه، فالضرب لم يؤثر فيه زجراً وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه(١).

□ □ □

وقالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو أن لا يعارضا بترخيص جاف، ولا يعرضا لتشديدٍ غالٍ، ولا يحملا على علة توهن الانقياد.

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق ﷻ تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه ﷻ برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله ﷻ واتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والصدق، وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤].

---

(١) الفوائد (١٨٣، ١٨٤).

(٢) الوابل الصيب (١٠، ١١) بتحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.

قال ابن جرير: وكان من خبر هؤلاء ـ فيما بلغنا ـ ما حدثنا به ابن حميد، حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: كان بين آدم ونوح عليه السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام[١].

حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا عبد الرزاق[٢] عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال: كانت آلهة يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع الهذيل، وكان يغوث لبني غطيف من مراد[٣] بالجرف، وكان يعوق لهمدان، وكان نسر لذي الكلاع من حمير.

وقال الوالبي عن ابن عباس: هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح عليه السلام.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي[٤] العلم عُبدت.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٩/ ٩٨، ٩٩).

(٢) هكذا في المطبوع من «إغاثة اللهفان»، وأشار محققه الشيخ حامد الفقي رحمه الله تعالى أنه كذلك في الأصول، وفي تفسير ابن جرير (٢٩/ ٩٩). «... حدثنا ابن ثور...»، وانظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٤٣)، ترجمة رقم (٤٣٩) و(٦/ ٩٦)، ترجمة رقم (١٩٩) و(٩/ ٨٧)، ترجمة رقم (١١٤).

(٣) في تفسير ابن جرير: «من مراد بالجُرف».

(٤) في البخاري: «وتَنَسَّخ» (٨/ ٥٣٥) في التفسير، سورة نوح، باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...﴾ الآية.

وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح ﷺ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: «أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يقال لها: مارية. فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى»(١).

وفي لفظ آخر في الصحيحين: «أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرنا كنيسة رأينها»(٢).

فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور، وهذا كان سبب عبادة اللات.

فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قال: «كان يلت لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره»، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان يلت السويق للحاج»(٣).

فقد رأيت أن سبب عبادة ودٍّ ويغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم(٤).

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري في مواضع منها: (١٣٤١)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) صحيح البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٧/ ٥٨، ٥٩).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٣، ١٨٤).

سُورَةُ الجِنّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ **[الجن: ٥]**.

فهذا يعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمني الجن حين سماع القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

وكان القرآن أول ما خوطب به الإنس ونزل على نبيهم وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بتقديم الإنس لتقدمهم في الخطاب بالقرآن وتقديمهم في التصديق والتكذيب، وفائدة ثالثة وهي: أن هذا حكاية كلام مؤمني الجن لقومهم بعد أن رجعوا إليهم، فأخبروهم بما سمعوا من القرآن وعظمته وهدايته إلى الرشد، ثم اعتذروا عما كانوا يعتقدونه أولاً بخلاف ما سمعوه من الرشد بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس والجن يقولون على الله كذباً.

فذكرهم الإنس هنا في التقديم أحسن في الدعوة وأبلغ في عدم التهمة، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعونه من الإنس والجن لما تبين لهم كذبهم، فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ في نفي الغرض والتهمة وأن لا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على الله، وهذا من ألطف المعاني وأدقها، ومن تأمل مواقعه في الخطاب عرف صحته[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ **[الجن: ٦]**.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٧).

المستعاذ به هو الله وحده رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر ـ تعالى ـ في كتابه عن من استعاذ بخلقه، أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

جاء في التفسير: أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح.

أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً، أي: طغياناً وإثماً وشراً، يقولون: سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

قال مجاهد: يعنون: مسلمين وكافرين.

وقال الحسن والسدي: أمثالكم: فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة، وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى، وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً.

ومعنى الكلام: أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرقة.

ثم قيل في إعراب الآية: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قوم دون ذلك فحذف الموصوف، وأقام صفته مقامه كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أي: إلا من له مقام معلوم وكقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: فريق سماعون. وكقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، أي: فريق يحرفون.

وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان لقولهم: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: كنا

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٣).

ذوي طرائق وهي ـ المذاهب ـ واحدها طريقة وهي: المذهب، وقدد جمع قدة كقطعة وقطع وزناً ومعنى، وهي من القد وهو القطع.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ **[الجن: ١٤].**

فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق.

قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أنداداً.

يقال: أقسط الرجل إذا عدل فهو مقسط ومنه: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقسط إذا جار فهو قاسط:

قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم.

ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولاً ازدادوا عليهم بثلاثة أخر، ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون، فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حليتهم الصلاح.

وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وبقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وقد قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] لا يدل على أن

الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كانت الرسل من الإنس وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم؟

ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم؟ فهذا لا يقتضي أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]. وليس في كل سماء قمر، وقوله تعالى: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. فالإنذار أعم من الرسالة والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهؤلاء نُذر وليسوا برسل.

قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس وأما الجن ففيهم النذر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، فهذا يدل على أنه لم يرسل جنياً ولا امرأة ولا بدوياً.

وأما تسميته تعالى الجن رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦].

فلم يطلق عليهم الرجال بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب، ونحوه[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) طريق الهجرتين (٣٨٥ ـ ٣٨٧).

سُوْرَةُ المُزَّمِّلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

قال الجوهري: وناشئة الليل أول ساعاته.

قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها ينشأ الليل.

والصحيح: أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة كلما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى.

وقال أبو عبيدة: ناشئة الليل ساعاته وآناؤه ناشئة بعد ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه، أي: حدث منهم فهو ناشئة.

قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاته مأخوذة من نشأت تنشأ نشأ، أي: ابتدأت وأقبلت شيئاً بعد شيء، وأنشأها الله فنشأت، والمعنى: أن ساعات الليل الناشئة[1].

وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف. قال علي بن الحسين: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء، وهذا قول أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيار الكسائي قالوا: ناشئة الليل أوله، وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة.

وفيها قول ثالث: إن الليل كله ناشئة، وهذا قول عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدي وابن الزبير وابن عباس في رواية.

قال ابن مليكة: سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليل كله ناشئة.

فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زماناً، وأما من جعلها فعلاً ينشأ بالليل: فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام، وهذا قول ابن مسعود ومعاوية بن

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (٣٦٥).

قرة وجماعة قالوا: ناشئة الليل قيام الليل، وقال آخرون: منهم عائشة إنما يكون القيام ناشئة إذ تقدمه نوم.

قالت عائشة: ناشئة الليل القيام بعد النوم. وهذا قول ابن الأعرابي قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل.

فعلى قول الأولين: ناشئة الليل بمعنى من إضافة نوع إلى جنسه، أي: ناشئة منه، وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى في أي: طاعة ناشئة فيه.

والمقصود: أن الإنشاء ابتداء سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

و«التبتل»: الانقطاع. وهو تفعل من البتل، وهو: القطع، وسميت مريم البتول لانقطاعها عن الزواج وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً. وقطعت منهن، ومصدر بتل تبتلاً كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعل ـ لسر لطيف: فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتِّل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير من القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

فأخبر سبحانه أنه أرسل محمداً ﷺ إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون وأن فرعون عصى رسوله، فأخذه أخذاً وبيلاً، فهكذا من عصى منكم محمداً ﷺ، وهذا في القرآن كثير جداً فقد فتح لك بابه(٣).

* * *

(١) شفاء العليل (١٣٣٢).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

سُوْرَةُ المُدَّثِّر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب والمراد بالطهارة: إصلاح الأعمال والأخلاق.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يعني: من الإثم ومما كانت الجاهلية تجيزه؛ وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: نفسك فطهرها من الذنب. ونحوه قول الشعبي وإبراهيم والضحاك والزهري، وعلى هذا القول: الثياب: عبارة عن النفس، العرب تكني بالثياب عن النفس ومنه قول الشماخ:

رموها بأثواب خفاف فلا ترى ... لها شبهاً إلا النعام المنَفَّرا

رموها يعني: الركاب[1] بأبدانهم، وقال عنترة:

فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابه ... ليس الكريم على القنى بمحرم

يعني: نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني: لا تغدر فتكون غادراً دنس الثياب وخبيثاً.

وقال سعيد بن جبير: كان الرجل إذا كان غادراً قيل: دنس الثياب وخبيث الثياب. وقال عكرمة: لا تلبس ثوبك على معصية ولا على فجرة، وروي ذلك عن ابن عباس واحتج بقول الشاعر:

وإني بحمد اللّه لا ثوب غادر ... لبست ولا من خِزية أتقنع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: وعملك فأصلح. وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي روق، وقال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً:

(١) في هامش «إغاثة اللهفان»، وفي نسخة: «يعني: الإبل».

إنه لطاهر الثياب وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب، قال الشاعر:

لَاهُـمَّ إنَّ عـامِـرَ بـنَ جَـهْـم   أَوْذَمَ حَـجّـاً فـي ثِـيَـابٍ دُسْـم[١]

يعني: أنه متدنس بالخطايا. وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب قال امرؤ القيس:

ثـيـابُ بَـنـي عَـوف طـهَـارَى نَـقـيَّـة

يريد: أنهم لا يغدرون بل يفون.

وقال الحسن: خلقك فحسنه. وهذا قول القرطبي، وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخُلُق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب. والمعنى: طهرها من أن تكون مغصوبة أو من وجه لا يحل اتخاذها منه.

وروي عن سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر.

وقال أبو العباس: الثياب. اللباس، ويقال: القلب. وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثـيـابـي مـن ثـيـابـك تَـنْـسـلـي

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين وابن زيد وذكر أبو إسحاق: وثيابك فقصر. قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه وهذا قول طاوس.

وقال ابن عرفة: معناه: نساءك طهرهن. وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ويكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبـلـغ أبـا حـفـص رسـولاً   فـدى لـك مـن أخـي ثـقـة: إزاري

أي: أهلي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة: «لنمنعك مما نمنع منه أزرنا»[٢]، أي: نساءنا.

□ □ □

---

(١) في هامش «الإغاثة» أو ذمَ الحج: أوجبه على نفسه، والدسم: جمع دسم، أي: دنس، يقول: أحرم بالحج وهو متلطخ بالذنوب.

(٢) الحديث في سيرة ابن هشام (٢/ ٥٠).

قلت: الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك؛ ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح[١] لا معارض لها، لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأموراً به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

قال المفسرون من السلف ومن بعدهم: لا تعط عطاء تطلب أكثر منه وهو أن تهدي ليهدى إليك أكثر من هديتك[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر: ٣١].

أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم:

فتنة الكافرين فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٠١) عن معاوية ﷺ (٥/ ٧٤) من حديث أبي المليح عن أبيه أسامة الهذلي ﷺ، والترمذي (٤/ ٢١٢) في اللباس، باب: ما جاء في النهي عن جلود السباع، وأبو داود (الصحيح) (٢/ ٧٧٨) في اللباس، باب: في جلود النمور، والنسائي (٧/ ١٧٦) في اللباس، باب: النهي عن الانتفاع بجلود السباع.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٥٢ ـ ٥٥).

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٢٢٥).

وقوة يقين أهل الكتاب فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك، لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلقٍّ من رسول الله ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه.

وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به.

وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربع حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب.

والخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض وعمي قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفراً وجحوداً، وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع إن رجعا إلى شيء واحد كان ذكر عدم الريب مقرراً لليقين، ومؤكداً له، ونافياً عنه ما يضاده بوجه من الوجوه، وإن رجعا إلى شيئين بأن يكون اليقين راجعاً إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة وعدم الريب عائداً إلى عموم ما أخبر الرسول به، لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ فظهرت فائدة ذكره(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ **[المدثر: ٣٢ ـ ٣٧].**

أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة، وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها بما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار وكل ذلك آية من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته.

---

(١) إغاثة اللهفان (١٤، ١٥).

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين؛ وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران، دائبين ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء والسرعة والرجوع والاستقامة والانخفاض والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكل حركة مقدرة، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر، كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.

وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفوق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما وكمال حكمته ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيطٍ متسخنٍ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم وصلاتهم ومواقيت أجائرهم، ومداييناتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.

□ □ □

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه: أحدها قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، والثانية قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، والثالثة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

□ □ □

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس.

قيل: هذا وإن كان ممكناً إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس؛ وأقل اضطراباً واختلافاً، ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه.

فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع وأصلح، وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس، فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها، فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً، وافتقاره إلى محل يقوم به، وسيره دائباً لا يفتر، مسير، مسخر، مدبر، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئاً فشيئاً، ثم عوده إليه كذلك، وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف، علم قطعاً أنه مخلوق مربوب مسخر، تحت أمر خالق قاهر مسخر له كما يشاء، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون، وأن هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي إلى ضده، وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه، كما يرى عباد الكواكب انتثارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره.

وهذه سنة الله التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يرى عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راضٍ بعبادة غيره ويريه تبريه منه، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين:

تأمَّل سطور الكائنات فإنها من المَلِك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغيير في الشمس، ولو شاء لغيرهما معاً، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة، ولكن يري عباده آياته في أنواع تصاريفها؛ ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه وجَزْرِ البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر.

□ □ □

وأما إقسامه سبحانه بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾، فلِما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»، فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار؟.

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره، فيا لهما آيتان شاهدتان بوحدانية مُنشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته، فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار.

فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه، وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟

ولولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدو، لراحة

أبدانهم، وجموم حواسهم. فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدؤوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكناً ولباساً، كما جعل النهار ضياءً ومعاشاً. ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليه، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان.

فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجاً يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى يوم القيامة، والليل سرمداً إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده.

وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من مصالح الخلق: ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد منها مواد الثمار، ويكثف الهواء، فينشأ منه السحاب، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع. وفي الصيف يخرم الهواء، فينضج الثمار، وتشتد الحبوب، ويجفف وجه الأرض، فيتهيأ العمل، وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ويمتد الليل، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين؛ ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي.

والمقصود: أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة. فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها، والسنة القمرية مقدرة بسير القمر، وهو أقرب إلى الضبط. واشترك الناس في العلم به، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير؛ فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك، فجعل الله سبحانه طلوعها دولاً بين الأرض لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها.

واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة، فلو

زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح، ولو استويا دائماً لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم.

ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يسٓ: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين، وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره؛ وعلمه بالمغيبات.

□ □ □

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء ـ وهي القمر، والليل إذ أدبر، والصبح إذا أسفر ـ على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه.

فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها وجعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان. فأبى الظالمون إلا كفوراً: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [**المدثر**: ٣٨ ـ ٤٥].

ولما أقام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وأخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا الله وصدقوا المرسلين، وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المسكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين. فهذا أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين:

الأولى: ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود.

الثانية: ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخلق ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧]، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه؛ فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل، والتكذيب بالحق.

فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص، والإحسان والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم، ويقينهم وكلامهم، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكاً وتكذيباً، وبالكلام النافع خوضاً في الباطل، فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين؛ أي: لم يكن لهم من شفيع فيهم، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأساً، وجفلوا عن سماعها كما جفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة.

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية، وأن ذلك إليه لا إليهم. فالأول

عدله، والثاني فضله، فالأول يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد، والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم، والله المستعان، وعليه التكلان[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ **[المدثر: ٤٦، ٤٧]**.

واليقين هاهنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير، وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»[٢]، أي: الموت وما فيه[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ **[المدثر: ٤٩ ـ ٥١]**.

شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها.

وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة، فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضاً وحضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد، فكأنها تواصت النفور وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى: أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته[٤].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٦٣ ـ ١٧٤).
(٢) رواه البخاري (٢٦٨٧).
(٣) مدارج السالكين (١/ ١٠٣، ١٠٤).
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٢١٥، ٢١٦).

سُوْرَةُ القِيامَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢].

فقد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة والقرآن والمعاد، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ويقررها أبلغ التقرير لحاجة النفوس إلى معرفتها والإيمان بها، وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ ٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد.

فأقسم سبحانه لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكذيباً.

واختلف في النفس المقسم بها هاهنا، هل هي خاصة أو عامة؟ على قولين بناءً على الأقوال الثلاثة في اللوامة.

فقال ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحساناً، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته. واختاره الفراء قال: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً، قالت: هلّا ازددت خيراً؟ وإن كانت عملت سوءاً قالت: يا ليتني لم أفعل.

والقول الثاني: إنها خاصة. قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وإن المؤمن والله لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة لأنه يستقصرها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه. وإن الفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

والقول الثالث: إنها النفس الكافرة وحدها. قاله قتادة ومقاتل. وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله.

قال شيخنا: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقاً، فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمر. ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً.

كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللوم غير محمود.

وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أُخلق؟ فحج آدم موسى»(١).

فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، وعلى جزائها كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وعلى تباين عملها كقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤].

وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك.

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر ويدلها عليه ويرشدها إليه ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة.

فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها، فتؤثره وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق، فقد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن وأنها لا غنى لها

(١) رواه البخاري في القدر (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

عن ذلك ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **[القيامة: ٣ ـ ٦]**.

ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه أن الله لا يجمع عظامه بعدما فرقها البلى، ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه، وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه، وأخبر عن فعله بأنهم يلزمهم من القدرة وقوع المقدور.

والمعنى: بلى نجمعها قادرين على تسوية بنانه، ودل على هذا المعنى المحذوف قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي. فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه؛ فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا نجمع ونسوي أكثرها تفرقاً، وأدقها أجزاء وآخر أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى نحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير، وحافر الحمار لا نفرق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين، والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤ ـ ١٨).

وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه.

فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني ـ ولعله قول جمهور المفسرين، حتى إن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها، ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت.

□ □ □

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حياً، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده. وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع في الحال، ولا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد التائب المنيب.

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة، وليس هذا استبعاداً لزمنه مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. أي: بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، ومنهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدماً قدماً في معاصي الله لا ينزع عن فجوره.

وفي الآية قول آخر، وهو أن المعنى: بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار ابن قتيبة وأبي إسحاق. قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ويرجح هذا القول لفظة: ﴿بَلْ﴾، فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو مريد للتكذيب به، ويرجحه أيضاً أن السياق كله في

ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر. وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد. فإنه قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

فأنكر سبحانه عليه حسبانه أن الله لا يجمع عظامه. ثم قرر قدرته على ذلك. ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة.

فالأول: حسبان منه أن لا يحييه بعد موته.

والثاني: تكذيب منه بيوم البعث وأنه يريد أن يكذب بما وضح وبأن دليل وقوعه وثبوته فهو مريد للتكذيب به.

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فالأول إرادة التكذيب، والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به.

وهذا قول قوي كما ترى. لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى. فإن لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب، وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل. فإن أصحاب هذا القول قالوا: تقديره: ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح، لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة.

فالجواب أن الأمر كذلك، لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاءه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلاً، وما يضمنه معنى فعل آخر ويجري على المضمن أحكامه لفظاً وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية اختصار، ومن تدبر هذا وجده كثيراً في كلام الله تعالى.

فلفظ: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ اقتضت ﴿أَمَامَهُۥ﴾ بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظاً واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى، فهذا وجه هذا القول لفظاً ومعنى، والله أعلم.

□ □ □

وقد ذم الله سبحانه من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإيثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون،

وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال المستمر على التكذيب والتولي، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال، وينبهه على مبدئه: من كونه نطفة من مني يمنى، ثم علقه، ثم خلقاً سوياً، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصى أمره، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [**القيامة**: ٧ ـ ١٠].

[هذا إخبار منه] سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب به، فقال: فبرق بصره، أي: يشخص لما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها، وخسف القمر: ذهب ضوؤه وانمحى، وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله، ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعدما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق، إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة.

فكيف أنكر هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه، وعبوديته فلا يترك سدى مهملاً معطلاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك.

فما أجمع هذه السورة لمعاني الجمع، والضم، وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين، وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها

همومها وغمومها، وإرادتها واعتقاداتها، وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد، والقيامة الصغرى، والكبرى، وأحوال الناس في المعاد، وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة، وباسرة معذبة. وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان، فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراقي.

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧].

تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه عن مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقره بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطلب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه. أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه، هذا **أحدها**.

والثاني: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٣، ١١٤].

والثالث: قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]. فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه. وهذا يتناول القراءة وما بعدها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداءً صريحاً، أن الله سبحانه يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلاً فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤٧ ـ ١٦٣).

يتأول النصوص ويحرفها عن موضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل، ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا.

وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بـ(إلى) خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله ﷻ أراد بذلك نظر العين التي في الوجه، إلى نفس الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات حسب صلاته وتعديه بنفسه، فإن عدي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار كقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]. وإن عدي (بفي) فمعناه: التفكر والاعتبار كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وإن عدي (بإلى) فمعناه: المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟!

قال يزيد بن هارون: أنبأنا مبارك عن الحسن قال: نظرت إلى ربها تبارك وتعالى فنظرت بنوره.

فاسمع الآن أيها السني تفسير النبي ﷺ وأصحابه والتابعين وأئمة الإسلام لهذه الآية.

قال ابن مردويه في تفسيره: حدثنا إبراهيم عن محمد، حدثنا صالح بن أحمد، حدثنا يزيد بن الهيثم، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا المصعب بن المقدام، حدثنا سفيان عن ثوير بن أبي ناجية عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾. قال: «من البهاء والحسن»، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: «في وجه الله ﷻ»[(١)].

قال أبو صالح عن ابن عباس، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾. قال: من النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال: تنظر إلى ربها نظراً، ثم حكى عن ابن عباس مثله. وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث[(٢)].

---

(١) حديث ضعيف، «ثوير بن أبي فاختة» ضعفوه، ورمي بالكذب والرفض، انظر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٦)، وقع في المطبوع من حادي الأرواح: «ثوير بن أبي ناجية»، والصواب المثبت هنا، وأحاديث الرؤية ثابتة في الصحيحين وغيرهما عن جم غفير من الصحابة، ذكر منها ابن القيم (حادي الأرواح) في هذا الباب ما يقرب من ثلاثين حديثاً، فلتراجع.

(٢) حادي الأرواح (٢٣٧، ٢٣٨).

ويستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب، فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي محله وعدَّاه بحرف إلى التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين ليس إلا[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٧].

أي: من يرقي من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي: التمسوا له من يرقيه، والرقية آخر الطب، وقيل: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقي كرمى يرمي. وعلى الثاني من رقي يرقى كشقي يشقى. ومصدره الرقاء، ومصدر الأول الرقية. والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنه ليس كل ميت يقول حاضروه.. من يرقى بروحه. وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت وأنهم ملائكة رحمة، وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء فإنه قل ما يخلو منه المحتضر.

الثاني: أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال: من يرقى بها. وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله.

الثالث: أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع. وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه و﴿مَنْۜ﴾ إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه.

الرابع: أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد نحو قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية إنه يحسن فيه الأول.

الخامس: أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال. فحكى الله سبحانه ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول لأنه ليس الغرض متعلقاً بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا: من

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ١٩٣، ١٩٤).

يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه.

السادس: أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال من هو الراقي، ومن الراقي، ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال من هو القائل منكما كذا وكذا، وفي الحديث: «من القائل كلمة كذا»[(١)].

السابع: أن كلمة ﴿مَنْ﴾ إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول: من الذي فعل كذا، ومن ذا الذي قاله. فيعلم أن فاعلاً وقائلاً فعل وقال، ولا يعلم تعيينه، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة، وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله.

فإن قيل: بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما. قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيل للسامع إلى تعيينه، ولا إلى العلم به؟

الثامن: أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة، فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسباباً خارجة عن المقدور تستجلب بالرقى والدعوات، فقالوا: من راقٍ؟ أي: من يرقي هذا العليل من أسباب الهلاك. والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء.

التاسع: أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية، أي: لا أحد يرقي من هذه العلة بعدما وصل صاحبها إلى هذه الحال. فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجود الراقي، كقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ

---

(١) عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا نصلي وراء النبي ﷺ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. فلما انصرف قال: «من المتكلم؟...». الحديث، رواه البخاري (٢/ ٣٣٢) الأذان، باب: (١٢٦). وعند الترمذي (٢/ ٢٥٤) في الصلاة باب: ما جاء الرجل يعطس في الصلاة، بلفظ: «من المتكلم في الصلاة»، وعند أبي داود (الصحيح) (١/ ١٤٦) في الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء بلفظ: «من المتكلم بها آنفاً؟»، وانظر: جامع الأصول (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦)، والله أعلم.

مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، أي: لا أحد يحييها، وقد صارت إلى هذه الحال. فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقى وإن أريد بها الطلب استحال أيضاً أن يكون منه وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار. وحينئذ فنقول: في.

الوجه العاشر: أنها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي؛ لما بيناه، والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

أي: مهملاً. قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي. والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالهما[٢].

فأنكر على من يحسب ذلك، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به، ولهذا استدل على أنه لا يتركه سدى بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ إلى آخر السورة، ولو كان قبحه إنما علم بالسمع لكان يستدل عليه بأنه خلاف السمع وخلاف ما أعلمناه وأخبرنا به. ولم يكن إنكاره لكونه قبيحاً في نفسه، بل لكونه خلاف ما أخبر به، ومعلوم أن هذا ليس وجه الكلام[٣].

فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملاً معطلاً عن الأمر والنهي والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فإن من نقله من نطفة مني إلى العلقة ثم إلى المضغة، ثم خلقه وشق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أسره، وأتقن خلقه وأحكمه غاية الإحكام وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية، أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى، فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته. فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه[٤].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤٧ ـ ١٦٣). (٢) مدارج السالكين (١/ ٩٨).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨). (٤) الصواعق المرسلة (٤٨٠، ٤٨١).

سُوْرَةُ الإنسَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

يحتمل أن يكون مصدراً كالقعود، وأن يكون جمعاً كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل. واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها. واشتكر الضرع امتلأ لبناً، تقول منه: شكِرت الناقة ـ بالكسر ـ تشكر شكراً فهي شكرة. وشكرت الشجرة تشكر شكراً إذا خرج منها الشكير، وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق، وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد في الجميع معنى الزيادة والنماء.

ويقال أيضاً: دابة شكور إذا طهرت من السِّمَن فوق ما تعطى من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكوراً إلا بمجموعها:

أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه.

والثاني: الثناء عليه بها.

والثالث: الاستعانة بها على مرضاته(١).

إن الله تعالى وصفهم بالإخلاص وأنهم إنما قصدوا بإطعام الطعام وجهه ولم يريدوا من المطعمين جزاء ولا شكوراً(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في

---

(١) عدة الصابرين (١٤٨).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٨٤، ٨٥).

هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

فالقوارير: هي الزجاج، فأخبر ﷻ عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة وأنها بصفة الزجاج وشفافيته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج قال: ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾.

قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي والشعبي: قوارير الجنة من الفضة، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير.

قال ابن قتيبة: كل ما في الجنة من الأنهار وسررها وفرشها وأكوابها مخالف لما في الدنيا من صنعة العباد، كما قال ابن العباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء. والأكواب في الدنيا قد تكون من فضة وتكون من قوارير. فأعلمنا الله أن هناك أكواباً لها بياض الفضة وصفاء القوارير.

قال: وهذا على التشبيه، أراد قوارير كأنها فضة، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٥٨]، أي: لهن ألوان المرجان في صفاء الياقوت.

وهذا مردود عليه، فإن الآية صريحة أنها من فضة، و(من) هاهنا لبيان الجنس، كما تقول: خاتم من فضة. ولا يراد بذلك أنه يشبه الفضة بل جنسه ومادته الفضة، بل ولعله أشكل عليه كونها من فضة وهي قوارير وهو الزجاج، وليس في ذلك إشكال لما ذكرناه.

وقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ التقدير: جعل الشيء بقدر مخصوص، فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب، فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه، ولو زاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي، هذا قول جماعة من المفسرين. قال الفراء: قدروا الكأس على قدر ري أحدهم لا فضل فيه ولا عجز عن ريه وهو ألذ الشراب.

وقال الزجاج: جعلوا الإناء على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه.

وقال أبو عبيد: يكون التقدير الذي يسقون يقدرونها ثم يسقون، يعني: أن

---

(١) روضة المحبين (٤٣٠).

الضمير قدروا للملائكة والخدم قدروا الكأس على قدر الري فلا يزيد عليه فيثقل الكف ولا ينقص منه فتطلب النفس الزيادة كما تقدم.

وقالت طائفة: الضمير يعود على الشاربين، أي: قدروا في أنفسهم شيئاً فجاءهم الأمر بحسب ما قدروه وأرادوه.

وقول الجمهور أحسن وأبلغ، وهو مستلزم لهذا القول، والله أعلم.

وأما الكأس فقال أبو عبيدة: هو الإناء بما فيه. وقال أبو إسحاق: الكأس الإناء إذا كان فيه خمر. ويقع الكأس لكل إناء مع شرابه، والمفسرون فسروا الكأس بالخمر، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل، حتى قال الضحاك: كل كأس في القرآن فإنما عني به الخمر. وهذا نظر منهم إلى المعنى المقصود، فإن المقصود ما في الكأس لا الإناء نفسه، وأيضاً فإن من الأسماء ما يكون اسماً للحال والمحل مجتمعين ومنفردين كالنهر والكأس، فإن النهر اسم للماء ولمحله معاً، ولكل منهما على انفراده، وكذلك الكأس والقرية، ولهذا يجيء لفظ القرية مراداً به الساكن فقط والمسكن فقط والأمران معاً[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون قال: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل: هو مخلد. وقال آخرون: مخلدون مقرطون مسورون، أي: في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال: مخلدون مقرطون بالخلدة وجمعها خلد وهي القرطة. وروى عمرو عن أبيه: خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب. وكذلك قال سعيد بن جبير: مقرطون. واحتج هؤلاء بحجتين:

إحداهما: أن الخلود عام لكل من دخل الجنة فلا بد أن يكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم وذلك هو القرطة.

الحجة الثانية: قول الشاعر:

---

(١) حادي الأرواح (١٦٠، ١٦١).

وَمُخَلَّداتٌ بِاللُّجَيْنِ كَأَنَّمَا أَعْجَازُهُنَّ رَوَاكِدُ الْكُثْبَانِ[١]

وقال الأولون: الخلد هو البقاء.

قال ابن عباس: غلمان لا يموتون. وقول ترجمان القرآن في هذا كاف. وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل، قالوا: لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون.

وجمعت طائفة بين القولين وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة. فمن قال: مقرطون أراد هذا المعنى أن كونهم ولدان أمر لازم لهم.

وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة وفي كونه منثوراً فائدتان:

إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

والثانية: أن اللؤلؤ إذا كان منثوراً، ولا سيما على بساط من ذهب وحرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعاً في مكان واحد.

وقد اختلف في هؤلاء الولدان، هل هم من ولدان الدنيا، أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء. على قولين؛ فقال علي بن أبي طالب والحسن البصري: هم أولاد المسلمين الذي يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم، يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم، إذ الجنة لا ولادة فيها. قال الحاكم: ثنا عبد الرحمٰن بن الحسن، ثنا إبراهيم بن الحسين، ثنا آدم، ثنا المبارك عن الحسن في قوله: ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ قال: لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها، فوضعوا بهذا الوضع[٢].

ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين، فجعلهم الله خدماً لأهل الجنة. واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمٰن القاري، عن أبي حازم المديني، عن يزيد الرقاشي، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدم أهل الجنة»[٣]، يعني: الأطفال.

---

(١) «اللجين» الفضة، والبيت عند ابن قتيبة في غريب القرآن (٤٤٧)، و«اللسان» مادة: «خلد» بلفظ: «أقاوز الكثبان»، و«الأقاويز» جمع «قوز» بالفتح، وهو: الكثيب الصغير من الرمل، وهو هنا شبه به أرداف النساء»، وانظر: تفسير ابن عطية (١٦/ ١٩١).

(٢) رواه البيهقي في البعث والنشور رقم (٣٧٠).

(٣) رواه أبو يعلى (٦/ ٣٥٧٠ و٣٦٣٦) و(٧/ ٤١٠١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢١٩): «رواه أبو يعلى من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح (٣٥٧٠)، غير عبد الرحمٰن بن المتوكل، وهو ثقة»، والحديث تكلم عليه الألباني بتفصيل في سلسلة الأحاديث الصحيحة =

قال الدارقطني: ورواه عبد العزيز الماجشون، عن ابن المنكدر، عن يزيد الرقاشي، عن النبي ﷺ انتهى. ورواه فضيل بن سليمان، عن عبد الرحمٰن بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس. وهذه الطرق ضعيفة؛ فيزيد واه، وفضيل بن سليمان متكلم فيه، وعبد الرحمٰن بن إسحاق ضعيف(١).

قال ابن قتيبة: واللاهون، من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه، وليس هو من لهوت(٢).

وأصحاب القول الأول لا يقولون: إن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها، وإنما يقولون: هم غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين.

قالوا: وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاثة وثلاثين، لما رواه ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردونَ بَني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار»(٣)، رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدماً لهم وغلماناً كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]. وهؤلاء غير أولادهم فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلماناً لهم، وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وفيه... يطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»(٤)، والمكنون: المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي.

= رقم (١٨٨١)، وأفاد أن المقصود بـ(اللاهين) الأطفال، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٠) رقم (١١٩٠٦).

(١) انظر الحديث السابق ومصادر تخريجه.

(٢) قال ابن الأثير: «اللاهين» قيل: «هم البُلْه الغافلون»، وقيل: «الذين لم يتعمدوا الذنوب، وإنما فرط منهم سهواً ونسياناً»، وقيل: «هم الأطفال الذين لم يقترفوا ذنباً»، النهاية (٤/ ٢٨٣)، قلت: والصواب ما جاء في حديث الطبراني أنهم الأطفال.

(٣) حديث ضعيف، رواه الترمذي (٤/ ٥٩٩) في صفة الجنة، باب: ما جاء ما لأدنى أهل الجنة وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين»، وفيه: «رشدين بن سعد، ضعيف، خلط في الحديث»، تهذيب التهذيب (٣/ ٢٧٧)، و«دراج أبو السمح» قال أبو داود: «أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد»، التهذيب (٢/ ٢٠٨)، وقال في التقريب (١/ ٢٣٥): «صدوق في حديثه عنه، أي: الهيثم، ضعيف» وضعفه غير واحد.

(٤) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٦) في المناقب، في فضل النبي ﷺ وقال: حسن غريب، وقال =

وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة يطوف عليهم واعتبرتها بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤]. وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفاً علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدماً لأهلها، والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [**الإنسان**: ٢٠].

قال مجاهد: ملكاً كبيراً، قال: عظيماً، وقال: استئذان الملائكة عليهم، لا تدخل الملائكة عليهم إلا بإذن.

وقال كعب: يرسل إليهم ربهم الملائكة، فتأتي الملائكة فتستأذن عليهم الملائكة[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [**الإنسان**: ٢١].

وتأمل ما دلت عليه لفظة ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وقد اختلف القراء السبعة في نصب ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ورفعه على قراءتين[٣].

واختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال؟ قولين.

واختلف المفسرون: هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق، أو للسادات الذين يطوف عليهم الولدان، فيطوفون على سادتهم وعلى السادات هذه الثياب.

وليس الحال هاهنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع.

فالصواب: أنه منصوب على الظرف، فإن عالياً لما كان بمعنى فوق أجراه مجراه. قال أبو علي: وهذا الوجه أبين وهو أن عالياً صفة فجعل ظرفاً كما كان قوله: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢]. كذلك، وكما قالوا: هو ناحية من الدار.

= الألباني: «إسناده ضعيف»، المشكاة (٣/ ١٦٠٥)، والدارمي (١/ ٣٠) في المقدمة، باب: ما أعطي ﷺ من الفضل.

(١) حادي الأرواح (١٧٥ ـ ١٧٧). (٢) حادي الأرواح (١٩٤).

(٣) قرأ نافع وحمزة وأبان والمفضل عن عاصم: (عَالِيهِمْ) ساكنة الياء. وقرأ الباقون: (عَالِيَهُمْ) بفتح الياء، كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٦٦٤).

وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء، وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا إفراد عال وجمع الثياب؛ لأن فاعلاً قد يراد به الكثرة كما قال:

ألا إن جيراني العشية رائح   دعتهم دواع من هوى ومناوح

ومن رفع خضراً أجراه صفة للثياب، وهو الأقيس من وجوه:

أحدها: المطابقة بينهما في الجمع.

الثاني: موافقته لقوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١].

الثالث: تخلصه من وصف المفرد بالجمع، ومن جر أجراه صفة لسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض، وتترجح القراءة الأولى بوجه رابع أيضاً وهو: أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠]. وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. فإذا كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنى الجمع أولى.

وفي (استبرق) قراءتان: الرفع على ثياب، والجر عطفاً على سندس.

وتأمل كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريباً، فجمل البواطن بالشراب الطهور والسواعد بالأساور والأبدان بثياب الحرير(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ **[الإنسان: ٢٢]**.

فجمع لهم سبحانه بين الأمرين أن شكر سعيهم وأثابهم عليه والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته ويغفر له إذا تاب عليه فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ **[الإنسان: ٢٨]**.

---

(١) حادي الأرواح (١٦٣، ١٦٤).

(٢) عدة الصابرين (٢٨٠).

قال ابن عباس: أي: خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر، شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر، قال: وكل شيء شددته من قتب أو غيره، فهو مأسور.

وقال المبرد: الأسر: القوى كلها.

وقال الليث: الأسر: قوة المفاصل والأوصال، وشد الله أسر فلان، أي: قوّىٰ خلقه، وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر.

وقال الحسن: شددنا أوصاف لهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب[1].

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٢٤).

سُوْرَةُ المُرْسَلاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [**المرسلات:** ١ ـ ٧].

فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة. وفسرت بالسحاب، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس.

قلت: الله سبحانه يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسل الرياح، ويرسل السحاب، فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع على ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون وهو نوعان: نوع يحبه ويرضاه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه، ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشيطان على الكفار.

فالإرسال المقسم به هاهنا مقيد بالعرف. فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين.

وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات. وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيث، وأيضاً فاقتران اللفظة بما بعدها من الإقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضاً فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقولهم ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [النحل: ٦٣]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقوله: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ ـ ٣].

وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الديك، والناس إلى فلان

عرف واحد، أي: سابقون في قصده والتوجه إليه؛ جاز أن تكون المرسلات الرياح، ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات، وجاز أن تكون الملائكة، وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفاً عليهما.

ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها، ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت فعصفت.

ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح.

والأكثرون على أنها الرياح، وفيها قول ثالث: إنها تعصف بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه، قال الأعشى:

تعصف بالدارع والحاسر

حكاه أبو إسحاق. وهو قول متكلف. فإن المقسم به لا بد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليه، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه، لظهور شأنهما، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما.

وأما ﴿وَالنَّشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ فهو استئناف قسم آخر، ولهذا آتى به بالواو وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء. قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر. ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]. يعني: أنها تنشر السحاب نشراً وهو ضد الطي.

وقال مقاتل: هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم. وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس.

وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها.

وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان. وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازماً لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حيي، أنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح

والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات. فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

لكن هنا أمراً ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الإقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفاً على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات، كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات.

وقد اختلف في الفارقات والأكثرون على أنها الملائكة. ويدل عليه عطف الملقيات ذكراً عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق.

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذاراً وإنذاراً.

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها. وقال: هي تفرق السحاب هاهنا وهاهنا، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها.

ومن قال: الفارقات أي: القرآن يفرق بين الحق والباطل فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح.

ومن قال: هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر، وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعلها الله تعالى نشوراً، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة. ولهذا ـ والله أعلم ـ فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولى في قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة. وهو الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة. ولهذا كان المكذب بعد ذلك

في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعاً، فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به، فتأمله[١].

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤٢ ـ ١٤٧).

سُوْرَةُ النّبَأ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٣ ـ ٢٥].

لما نفى ذوق البرد والشراب فربما توهم أنهم لا يذوقون غيرهما فقال: إلا حميماً وغساقاً فيكون الاستثناء من عام مقدر[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١ ـ ٣٣].

الكواعب: جمع كاعب وهي الناهد، قال قتادة ومجاهد والمفسرون: قال الكلبي: هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكن، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل ويسمين نواهد وكواعب[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤].

قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال: هي المتتابعة الممتلئة، قال: وربما سمعت العباس يقول: اسقنا وادهق لنا[٣].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٠).
(٢) حادي الأرواح (١٣٦).
(٣) حادي الأرواح (١٨٦).

سُوْرَةُ النَّازِعَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

فهذه خمسة أمور وهي صفات الملائكة.

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذلك من أعظم آياته. وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقيد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٦] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع.

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧]. وأما قوله: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١]. فإما أن يكون واحداً وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الواحدة كقوله: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره. ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

واختلف الناس هل النازعات متعد أو لازم؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعدياً، وهذا قول علي، ومسروق، ومقاتل، وأبي صالح، وعطية عن ابن عباس.

وقال ابن مسعود: هي أنفس الكفار، وهو قول قتادة، والسدي، وعطاء عن ابن

عباس. وعلى هذا فهو فعل لازم، وغرقاً على هذا معناه: نزعاً شديداً أبلغ ما يكون وأشده.

وفي هذا القول ضعف من وجوه:

أحدها: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة فهي السابحات والمدبرات والنازعات.

والثاني: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين، ولا في اللفظ ما يدل عليه.

الثالث: أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق لا يختص بالكافر.

وقال الحسن: النازعات هي النجوم، تنزع من المشرق إلى المغرب، وغرقاً هو غروبها. قال: تنزع من هاهنا وتغرق هاهنا. واختاره الأخفش وأبو عبيد. وقال مجاهد: هي شدائد الموت وأهواله، التي تنزع الأرواح نزعاً شديداً. وقال عطاء وعكرمة: هي القسي، والنازعات على هذا القول بمعنى: النسب أو ذوات النزع التي ينزع بها الرامي، فهو النازع.

قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا. إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه: إذا خلاه وتركه، بعد ملابسته له، ونزع إليه: إذا ذهب إليه ومال إليه. وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة، ولأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم. فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضاً لها هذه القوة، والنجوم أيضاً تنزع من أفق إلى أفق.

فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها. المنايا تنزع النفوس والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها.

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك، ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل. وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

□ □ □

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي: تخرجها بسرعة وخفة من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي: أخف له وأسرع، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾: التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به لا تبطئ عنه ولا تتأخر: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها.

وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: أن ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة والنشط الجذب برفق ولين ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به.

قال مسروق: ومقاتل، والكلبي: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾: هي الملائكة. قال مجاهد وأبو روق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

□ □ □

وقال الفراء، والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذا كانت الشياطين تسترق السمع.

وهذا القول خطأ لا يخفى فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء، وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله سبحانه صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئاً منه، وعزلهم عن سمعه ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يبدر مسرعاً بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت ﴿فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته.

□ □ □

وأما ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ فأجمعوا على أنها الملائكة. قال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله تعالى في الأرض، وهم ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: ٤].

قال عبد الرحمٰن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم. وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكَّلهم الله بأمور عرَّفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات والخسف والمسخ، والرياح والسحاب. انتهى.

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكاً، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفراشها، ونمارقها وآرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك.

فالدنيا وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك؛ ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وأما من قال: إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئاً من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

□ □ □

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ﷺ وثبوت القرآن.

أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً. فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه، فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف، فإن

معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه. فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله، فتأمله.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤].

قيل: أول حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحولون إلى الأرض التي تسمى الساهرة فهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

والساهرة: هي التي يحاسبون عليها، فإذا فرغوا من الحساب، وجازوا على الصراط، وميِّز بين المجرمين والمؤمنين، ضرب بينهم بسور، فكان ما وراء السور مما يلي الجنة من أرض الجنة، وصار ما دون السور مما يلي النار من أرض جهنم، وموضع الحساب يصير من جهنم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

أحدها: إخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]. ولم يقل: كلوا.

الثاني: قوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة والزيادة، فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه. وعلى هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾.

أي: أكون دليلاً لك، وهادياً بين يديك. فنسب الهداية إليه والتزكي إلى المخاطب، أي: أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى أنت، كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله: أعطيك.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٥).

الخامس: قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنيناً، وصغيراً وكبيراً، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام. كما تقل لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك؟

السادس: قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي: إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدة لطيفة، وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة المدعو، فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد، وادعى أنه رب العالمين، هذا، وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدر فهدى، فكذب الخبر، وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السماوات والأرض بطشة عزيز مقتدر وأخذه نكال الآخرة والأولى، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ **[النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]**.

النفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء(٢).

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٣٢ ـ ١٤٢).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية، فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً، وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه، والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه.

فعلى الأول: يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل.

وعلى الثاني: وهو أليق بالآية يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف، والله أعلم[1].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٢، ٥٢٣).

سُوْرَةُ عَبَسَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

فجعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلاً على إخراجه هو منها بعد موته استدلالاً بالنظير على النظير(١).

❀ ❀ ❀

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٦).

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ **[التكوير: ٥]**.

هذا هو الدليل **[الأول]** على حشر الوحوش.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

الثالث: حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم، وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، وهو متفق على صحته.

الرابع: حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان». قال: قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»(١). رواه أحمد في مسنده.

الخامس: الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. وإن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني تراباً فتكون تراباً فعندها يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ **[التكوير: ٧]**.

أي: قرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية: الصالح مع الصالح في الجنة والفاجر مع الفاجر في النار. وقاله الحسن وقتادة والأكثرون.

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده (٥/ ١٦٢) وقال الألباني: «إسناده صحيح» الصحيحة (٤/ ٦١٠) عند الحديث رقم (١٩٦٧)، وأبو داود الطيالسي برقم (٤٨٠)، وصحح إسناده أيضاً الألباني كما في الصحيحة (٤/ ١١٧).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٣).

وقيل: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين وأنفس الكافرين بالشياطين، وهو راجع إلى القول الأول[١].

أي: قرن كل صاحب عمل بشكله ونظيره، فقرن بين المتحابين في الله في الجنة، وقرن بين المتحابين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرء مع من أحب شاء أو أبى وفي (مستدرك الحاكم) وغيره عن النبي ﷺ: «لا يحب المرء قوماً إلا حشر معهم»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٨].

أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة، من طلوعها وجريانها وغروبها. هذا قول علي وابن عباس وعامة المفسرين، وهو الصواب.

والخنس: جمع خانس، والخنس: الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناساً لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه، ومنه قول أبي هريرة: فانخنست.

والكنس: جمع كانس وهو الداخل في كُناسه، أي: في بيته، ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الظباء؛ إذا أوت إلى أكناسها.

والجواري: جمع جارية كغاشية وغواشٍ. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم، قالوا: الكواكب تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى وتكنس في وقت غروبها، ومعنى تخنس ـ على هذا القول ـ: تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها.

وفيه قول آخر وهو: أن خنوسها رجوعها وهي حركتها الشرقية فإن لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة.

وفيه قول ثالث: وهو أن خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب،

(١) جلاء الأفهام (١٣١).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (٦/ ١٤٥ ـ ١٦٠)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٨٤)، وأبو يعلى (٨/ ٤٩، ٥٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٧): «رواه ورجاله ثقات. . .»، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦).

أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها، ونبه بخنوسها على حال ظهورها، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفياً: إنه قد خنس. فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحاً، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع فالطلوع أول جريانها.

فتضمن القسم طلوعها، وغروبها وجريانها، واختفاءها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه:

أحدها: أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

الثاني: اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

الثالث: أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقاً، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات.

الرابع: أن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء. قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقر خنساء، والظبي أخنس. ومنه سميت الخنساء لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل. وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر.

الخامس: أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه، حتى يتعين للقسم.

السادس: أنه لو كان جمعاً للظبي لقال: الخنس ـ بالتسكين ـ لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمر ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضاً، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على فعل ـ بالتشديد ـ استحال أن يكون جمعاً لواحد من الظباء والبقر؛ وتعين أن يكون جمعاً لخانس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها.

السابع: أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه

وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمرها، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفها، وهو الليالي العشر. وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [النجم: ٤٥]. في قراءة رسول الله ﷺ ونحو ذلك.

الثامن: أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد. وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم. فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش.

التاسع: أنه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما دل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها.

العاشر: أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين، وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن، الذي هو هدى للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان ـ أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن، والله أعلم.

□ □ □

واختلف في عسعسة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى: ولى وذهب وأدبر، هذا قول علي وابن عباس وأصحابه. قال الحسن: أقبل بظلامه. وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله ﷻ بإقبال الليل وإقبال النهار، فقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مقابل لليل إذا عسعس. قالوا: ولهذا أقسم الله بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢] وبالضحى. قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله.

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢ ـ ٣٤]. فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعسة الليل، وتنفس الصبح. قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل وإقبال النهار، فإنه عقيبه من غير فصل، فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال

الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمناً طويلاً، فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ. فذكر سبحانه حالة ضعف هذا، وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه. وهذا هو القول، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٢].

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، وهو القرآن، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو هاهنا جبريل قطعاً؛ لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به.

وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد ﷺ لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ الرسول يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمد ﷺ، وأن كلاً منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغاً، وقول الله الذي تكلم به حقاً.

فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد ﷺ سمعه من جبريل.

ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السماوات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علواً وجلالة: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريماً، ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير، فهو أبعد شيء عن الكرم. والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم،

جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]. وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئاً، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه؛ ومعاضد له، ومواد له وناصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور والله هاديه، وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤدٍّ له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظماً ذا مكانة عنده، مطاعاً في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات.

هذا يدل على عظمة شأن المرسِل، والرسول، والرسالة، والمرسَل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

أي: له مكانة ووجاهة عنده، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ [التكوير: ٢١]. إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ. وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعاً في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلًّا من

الرسولين مطاع في محله وقومه، وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه.

ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ **[التكوير: ٢٣ ـ ٢٦]**.

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يُرى بالعيان، ويدركه البصر، لا كما يقول المتفلسفة ومن قلدهم: إنه العقل الفعال وإنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى؛ فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره. وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك.

فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى. وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل، والتغيير الذي يوجب التهمة فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين[1]، فتضمنت إحداهما ـ وهي

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: (بِظَنين) بالظاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة: (بضنين) بالضاد. القراءات لابن مجاهد (٦٧٣).

قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل، فإن الضنين هو البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن بخلت به أبخل ومعناه؛ ومنهم قول جميل بن معمر:

أجود مضمون التلاد وأنني   بسرك عمن سألني لضنين

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس بخيلاً بما أنزل الله. وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب هاهنا القرآن والوحي. وقال الفراء: يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم. وهذا معنى حسن جداً، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله. وقال أبو علي الفارسي: المعنى: يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً.

وفي معنى آخر، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به؛ كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه.

فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقاً به، مقيماً عليه، مبدياً له في كل مجمع، ومعيداً منادياً به على صدقه، مجلباً به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيداً بمعنى: اتهمته. وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أما وكتاب الله لا عن شناءة   هجرت ولكن المحب ظنين

والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة، ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل.

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين:

أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه. فنفي التهمة أولى من نفي البخل.

الثاني: أنه قال: ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ولو كان المراد البخل لقال: بالغيب، لأنه يقال: فلان ضنين بكذا. وقلما يقال: على كذا.

قلت: ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي من الأمانة، فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين. ويرجحه أيضاً أنه سبحانه نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب، فإن ذلك لو كان كذباً، فإما أن يكون منه، أو ممن علمه، وإن كان منه، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم، وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم، ضد الأمين. وإن كان عن غير تعمد فهو المجنون. فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله.

وزكى سند القرآن أعظم تزكية، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علماً لا يمارى فيه ولا يشك بل علماً ضرورياً ـ كسائر الضروريات ـ منافاة أحدهما للآخر، ومضادته له، كمنافاة أحد الضدين لصاحبه. بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر، ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]. وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق، فأين العدول، وأين المذهب.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ ـ ٢٩].

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق، وفي موضع آخر ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به. ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه.

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]. وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨].

بدل من العالمين، وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكراً للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكراً لأهل الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه، ولا بد من هذا. فتأمله.

وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ رد على الجبرية القائلين: بأن العبد لا مشيئة له، أو أن

مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين.

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم أن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ينتظم ذلك كله ويتضمنه فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها. وبالله التوفيق[1].

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (١١٤ ـ ١٣٢).

سُوْرَةُ الانفِطارِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين، والله المستعان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

لا تحسب أن الآية مقصورة على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله بكل وادٍ منه شعبة، وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب(٢).

* * *

(١) الجواب الكافي (١٥٩).

(٢) الجواب الكافي (١٠٩).

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له(١).

وقال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين. والإقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها.

وقال أبو إسحاق: ران غطى، يقال: ران على قلبه الذنب ريناً، أي: غشيه. قال: والرين كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين.

قلت: أخطأ أبو إسحاق، فالغين ألطف شيء وأرقه. قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»(٢)، وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها.

وقال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب.

وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة.

وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(٣) قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٠).
(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢).
(٣) سنن الترمذي (٥/ ٤٠٤) في التفسير، باب: سورة المطففين، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٤١٧) =

وقال عبد الله بن مسعود: كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله.

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم ريناً على قلوبهم فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب اختيار العبد والمسبب خارج عن قدرته واختياره[١].

□ □ □

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلاف فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد[٢].

□ □ □

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته، وتقر به عيناً وتطيب به نفساً، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم، وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٦].

فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة ونعيم التمتع برؤيته. وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٣].

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى

= في الزهد، باب: ذكر الذنوب، ورواه الإمام أحمد (٢/ ٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٥١٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(١) شفاء العليل (٩٤). (٢) الجواب الكافي (٨٢، ٨٣).

(٣) الجواب الكافي (١٧٦).

غيره. وإنما المعنى: ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.

وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة؛ فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

فقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، فأطلق النظر ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه: هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها وهو أعلى مراتب الهداية.

فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بد، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك خصوصاً أو عموماً(١).

□ □ □

[و]وجه الاستدلال(٢) بها أنه ﷻ جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضاً محجوبين عنه.

وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة، فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾: فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة، وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى. قال الربيع: فقلت: يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله ﷻ.

ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضاً، وقال أبو زرعة الرازي:

(١) إغاثة اللهفان (٣٢، ٣٣).

(٢) على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبد الله بن الحكم، هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبد الله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد: وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله ﷻ (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢١].

أخبر تعالى أن كتابهم مرقوم تحقيقاً لكونه مكتوباً كتابة حقيقية، وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويهاً بكتاب الأبرار وما وقع لهم به وإشهاراً له وإظهاراً بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة؛ تنويهاً باسم المكتوب له وإشادة بذكره وهذا نوع من صلاة الله ﷻ وملائكته على عبده (٢).

فهؤلاء الأبرار المقتصدون، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم ـ أي: يكتب بحضرتهم ومشهدهم ـ لا يغيبون عنه، اعتناءً به وإظهاراً لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨].

والتسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج؛ ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة الإنسان سواء.

قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مزج شرابه (٣).

---

(١) حادي الأرواح (٢٣٤). (٢) حادي الأرواح (٦٥).
(٣) طريق الهجرتين (١٨٠، ١٨١).

سُورَةُ الانشِقَاقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٨].

فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل:

أحدها: الشفق، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع.

قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق الحمرة في السماء، وأصل موضوع الحرف لرقة الشيء، ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته، ومنه الشفقة وهو الرقة، وأشفق عليه إذا رق له.

وأهل اللغة يقولون: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها، ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حداً لوقت المغرب. فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء، وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول لبثه، ويكون حاصلاً مع بعد الشمس عن الأفق. ولهذا صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: الشفق الحمرة.

والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا كان أحمر، حكاه الفراء. وكذلك قال الكلبي: الشفق الحمرة التي تكون في المغرب. وكذلك قال مقاتل: هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة. وقال عكرمة: هو بقية النهار. وهذا يحتمل أن يريد به أن تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار.

وقال مجاهد: هو النهار كله وهذا ضعيف جداً، وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق، ظن أنه النهار، وهذا ليس بلازم.

الثاني: قسمه بالليل وما وسق، أي: وما ضم وحوى وجمع. والليل وما ضمه

وحواه آية أخرى، والقمر آية، واتساقه آية أخرى[1]. والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى. فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح الخلق. فإدبار النهار آية. وإقبال الليل آية، وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية، والليل آية، وما حواه آية.

والهلال آية، وتزايده كل ليلة آية، واتساقه ـ وهو امتلاؤه نوراً ـ آية، ثم أخذه في النقص آية. وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله.

ولهذا شرع ـ عند إقبال الليل وإدبار النهار ـ ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب. وفي الحديث: «اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك وحضور صلواتك اغفر لي»[2]. كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار.

ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٢، ٣٣]. وهو يقابل إقسامه بالشفق: ونظيره إقسامه بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء، فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره، شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرى بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩].

---

(١) هذا هو الشيء الثالث ـ القمر ـ الذي أقسم به سبحانه، وقد جمعه المؤلف مع الثاني [الشامي].

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٩)، ورواه أبو داود (٥٣٠) وضعفه الألباني، كما في «تمام المنة» (١٤٩).

الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، و﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ وما بعده مستأنف.

وقرئ ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء للجمع، وبفتحها[(١)].

فمن فتحها فالمخاطب عنده الإنسان، أي: لتركبن أيها الإنسان. وقيل: هو النبي ﷺ خاصة. وقيل: ليست التاء للخطاب، ولكنها للغيبة، أي: لتركبن السماء طبقاً عن طبق.

ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا.

فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنى: لتركبن السماء حالًا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى، من الانشقاق، والانفطار والطي، وكونها كالمهل مرة، وكالدهان مرة، ومورانها وتفتحها، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبد الله ابن مسعود ﷺ. ودل على السماء ذكر الشفق والقمر. وعلى هذا فيكون قسماً على المعاد وتغيير العالم.

ومن قال: الخطاب للنبي ﷺ، فله ثلاثة معان: لتركبن سماء بعد سماء، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله. هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد وقول مسروق والشعبي، قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسماوات السبع: الطباق والمعنى الثاني لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة، حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله.

والمعنى الثالث لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ﷺ، من الهجرة، والجهاد، ونصره على عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه.

ومن قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالاً بعد حال، من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا. قال ابن عباس ﷺ: لتصيرن الأمور حالاً بعد حال. وقيل: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من النطفة، إلى

(١) قال «ابن مجاهد» في «السبعة في القراءات» (٦٧٧): قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح الباء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء.

العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حياً، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر. وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد، ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة، لا يزال ينتقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار، فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبو عبيدة قراءة الضم، وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ؛ فإنه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه ومن يؤتى كتابه بشماله.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠].

فذكر كونهم طبقاً بعد طبق. وقال أبو عبيدة: لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل.

وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية، وتغيير الله سبحانه للعالم، وتصريفه له كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له. ومحال أن يكون فاعله غير قادر، ولا حي، ولا مريد، ولا حكيم، ولا عليم، وكلاهما في الامتناع سواء.

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد، ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ إنكاراً على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام. وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها. فالمعنى أشرف معنى، والعبارة أشرف عبارة، غاية الحق بغاية البيان والفصاحة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٢ـ٢٥].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٠٨ ـ ١١٤).

فهذا يبعد تقدير دخوله فيما تقدم قبله جداً وإنما هو إخبار عن مآل الفريقين، فلما بشر الكافرين بالعذاب بشر المؤمنين بالأجر غير الممنون، فهذا من باب المثاني الذي يذكر فيه الشيء وضده كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. فليس هناك مقدر يخرج منه هذا المستثنى، والله أعلم(١).

وقوله: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ [أي] ولا يصدقون بالحق جحوداً وعناداً.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله(٢).

❀ ❀ ❀

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (١١٤).

سُورَةُ البُرُوجِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ١ ـ ٤].

[البروج] التي تنزلها الشمس والقمر، وفسرت بالنجوم أو نوع منها، وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته.

فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء والشكل الكروي، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع بل هو متساوي الجوانب، فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ولا عالم ولا مريد ولا حي ولا حكيم ولا مباين للمفعول.

وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يعتبرون للعالم رباً بائناً قادراً فاعلاً بالاختيار، عالماً بتفاصيله حكيماً مدبراً له.

فبروج السماء هي منازلها أو منازل السيارة التي فيها من أعظم آياته ﷻ، فلهذا أقسم بها مع السماء.

ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به وعليه، كما أن القرآن يقسم به وعليه ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثاً، وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟

قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلٰهيته، فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضاً فالشاهد هو المطلع والرقيب، والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به، المشاهد.

فمن نوَّعَ الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. كما نوعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه، كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهداً على عباده، مطلعاً عليهم رقيباً؟

وأيضاً فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسم به وعليه، وأيضاً فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]. يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحش، من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضاً فكلامه مشهود، كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨]. تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل.

وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ ، الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود، شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى وأوليائه عياناً، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، ولا يعيبون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض، وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به. وهذا شأن أعداء الله دائماً، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]. وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده، وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها، وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات لله صفات كماله ونعوت جلاله، وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم وتقديم من قدمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها. وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه. وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود، وبينهم نسب قريب أو بعيد.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [البروج: ٥].

العجب من الفارسي أنه يقول: إنها بدل من الأخدود بدل اشتمال، والنار جوهر قائم بنفسه ثم ليست مضافة إلى ضمير الأخدود وليس فيها شرط من شرائط الاشتمال، وذهل أبو علي عن هذا وترك ما هو أصح في المعنى وأليق بصناعة النحو، وهو حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، فكأنه قيل: أصحاب الأخدود أخدود النار ذات الوقود، فيكون من بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أم تحالفا

على رواية الجر في ثدي، أم أراد لبان ثدي فحذف المضاف[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم، وهذا غاية الكرم والجود.

قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود، يقتلون أولياءه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. انظروا إلى كرم الرب تعالى، يدعوهم إلى التوبة وقد فتنوا أولياءه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١١ ـ ١٤].

ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه وأنه لا يعجزه شيء فإنه هو المبدئ المعيد، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود أيضاً، أي: المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين، على كونه وادّاً لأوليائه ومودوداً لهم. فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه. وكذلك قد يرحم من لا يحب. والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٢).

إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان.

* * *

قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

فأضاف العرش إلى نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل على عظمة العرش، وقربه منه سبحانه واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلى نفسه «بذو» صفاته القائمة به، كقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٨]. ويقال: ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة، ونظائر ذلك. فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض.

ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه. وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله. فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيداً، وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علواً كبيراً، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير. وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل ﷺ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد»(١). فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد؛ فالحميد: الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد: العظيم الواسع القادر الغني، ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ [البروج: ١٥] بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه(٢). وإذا كان عرشه مجيداً فهو سبحانه أحق بالمجد.

---

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

(٢) قال ابن مجاهد: قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ رفعاً، وقرأ حمزة والكسائي: (ذو العرش المجيدِ) خفضاً، وكذلك المفضل عن عاصم: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ خفضاً، القراءات لابن مجاهد (٦٧٨).

وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد. ثم خرجها على أحد الوجهين، إما على الجوار، وإما أن يكون صفة لربك.

وهذا من قلة بضاعة هذا القائل، فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد، ووصفه بالعظمة، فوَصْفُه سبحانه بالمجد مطابق لوصْفِه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك؛ لسعته وحسنه وبهاء منظره. فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله. ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه. والسماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي الذي بين يديه، كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة، قال ابن عباس: السماوات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس. فكيف لا يكون مجيداً وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد.

وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله. وهذا في إرادته المتعلقة بفعله. وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر، فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلاً، وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعل الرب فاعلاً، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريد فعله، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلى قول النبي ﷺ حاكياً عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: «وقد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لا تشرك بي شيئاً»، ولم يقع هذا المراد؛ لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

الرابع: أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان: فما أراد أن يفعله فعله وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام، ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله. فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا. وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري نفسه لعباده، وأنه يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه، لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده رداً لكماله الذي أخبر به عن نفسه، وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل مقتضيات كماله المقدس.

□ □ □

وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة، وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته، وملكه السماوات والأرض، المتضمن لكمال غناه، وسعة ملكه، وشهادته على كل شيء، المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة، وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته، فلا يستعصي عليه منها شيء. ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيباً إلى عباده محباً لهم، ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك

والغنى والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها.

فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده.

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ١٩ ـ ٢٠].

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به، وكذب رسله، تحذيراً لعباده من سلوك سبيلهم، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم، ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيط بهم، ولا أسوأ حالاً ممن عادى من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل وجه، وبكل اعتبار.

فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به، وآخذ بناصيته قادر عليه.

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].

ثم وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام، كما أن المتكلم به له المجد كله، فهو المجيد؛ وكلامه مجيد، وعرشه مجيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قرآن مجيد؛ كريم، لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر، وقد تقدم أن المجد السعة، وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به.

* * *

قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢].

أكثر القراء على الجر، صفة للوح، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان. فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف، كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير[(١)].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٨٨ ـ ٩٩).

سُورَةُ الطَّارِقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [**الطارق**: ١].

وقد فسره بأنه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] الذي يثقب ضوؤه، والمراد به الجنس لا نجم معين، ومن عينه بأنه الثريا، أو زحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة، وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، وسمى النجم طارقاً، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلاً.

قال الفراء: ما أتاك ليلاً فهو طارق. وقال الزجاج، والمراد: لا يكون الطارق نهاراً، ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيراً، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت مي هيوماً بذكرها ... وأيدي الثريا جنح بالمغارب

وقال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

ولهذا قيل: أول من رد الطيف جرير، فلم يزل الناس على قبوله وإكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [**الطارق**: ٤ ـ ٧].

والمقسم عليه هاهنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها، وأنها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم سبحانه أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي، ما تكتسب من خير أو شر.

واختلف القراء في «لما» فشددها بعضهم وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى: إلا، وهي تكون بمعنى: إلا في موضعين:

أحدهما: بعد أن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

والثاني: في باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت. قال أبو علي الفارسي: من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة وما زائدة، وإن هي التي يتلقى بها القسم، كما يتلقى بالمثقلة.

ومن قرأها مشددة كانت إن عنده نافية بمعنى ما، ولما في معنى إلا. قال سيبويه، عن الخليل ـ في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت ـ قال: المعنى: إلا فعلت.

□ □ □

ثم نبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

أي: فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته.

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق، والدفق صب الماء، يقال: دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومدفق، فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب، والمندفق المطاوع لفعل الفاعل تقول دفقته فاندفق، كما تقول: كسرته فانكسر، والدافق قيل: إنه فاعل بمعنى: مفعول؛ كقولهم: سر كاتم وعيشة راضية. وقيل: هو على النسب؛ لا على الفعل، أي: ذي دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان على الفعل.

وقيل ـ وهو الصواب ـ: إنه اسم فاعل على بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق، فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار، ورجل ميت وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به من الموت نسب إليه على جهة الفعل، وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلاً عن أوسع اللغات وأفصحها. وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها، كأنها رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط، فتأمله.

وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة، وإن لم يفعلا ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟

ونبه سبحانه بكونه دافقاً على أنه ضعيف غير متماسك، ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة من صدرها، والولد يخلق من الماءين جميعاً. وقيل: صلب الرجل وترائبه، وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره، وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٨ ـ ١٠].

أي: على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه. هذا هو الصحيح في معنى الآية. وفيها قولان ضعيفان:

أحدهما: قول مجاهد: على رد الماء في الإحليل لقادر.

والثاني: قول عكرمة والضحاك: على رد الماء في الصلب.

وفيه قول ثالث، قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، إلى النطفة.

والقول الصواب هو الأول؛ لوجوه:

أحدها: أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

الثاني: أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

الثالث: أنه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد، ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه.

الرابع: أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: أن الله قادر على رجعه إليه حياً في ذلك اليوم.

الخامس: أن الضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ وهذا للإنسان قطعاً لا للماء.

السادس: أنه لا ذكر للإحليل، حتى يتعين كون المرجع إليه، فلو قال قائل: على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول. ولم يكن أولى منه.

السابع: أن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدوراً للرب تعالى، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة، ولا هو مما تكلم الناس فيه، نفياً أو إثباتاً، ومثل هذا لا يقرره

الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكريه، وهو سبحانه إنما يستدل على أمر واقع ولا بد، إما قد وقع ووجد أو سيقع.

الثامن: أنه سبحانه دعا الإنسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه، ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء.

التاسع: أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتى يجعل أحدهما دليلاً على إمكان الآخر بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولى والنشأة الثانية، فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحسن الاستدلال بأحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر.

العاشر: أنه سبحانه نبه بقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء، ثم نبه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصي عليه، فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه، ونهايته الجزاء عليه، ونبه على هذا بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: تختبر، وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه، والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله، فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في الوجوه، وشيئاً فيها، والمعنى تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

□ □ □

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو

عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والحشا　　سريرة حبّ يوم تبلى السرائر

□ □ □

ثم أخبر سبحانه عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله، لا بقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر، فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره، وكلاهما معدوم في حقه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ **[الطارق: ١١، ١٢].**

فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات، قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام، وقال أبو إسحاق: الرجع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر، وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام.

والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل، ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، وعلى مرور الأزمان، ترجعه رجعاً، أي: تعطيه مرة بعد مرة، والخير كله من قبل السماء يجيء.

ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض، أي: يشقها، فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ **[الطارق: ١٣ ـ ١٦].**

كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده، وأقسم على كون القرآن حقاً وصدقاً.

والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من

غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المراد، إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد. ومنه فصل الخطاب.

وأيضاً فالقول الفصل ببيان المعنى ضد الإجمال.

فكون القرآن فصلاً يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقاً ليس بالباطل، وجداً ليس بالهزل، ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له ـ وهو الباطل واللعب ـ قابل بين الفصل والهزل.

وإنما يكيد المكذبون ويحيلون، ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده.

وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه، فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسناً لا قبح فيه، فيعطيهم ويعاقبهم وهو يستدرجهم، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

أي: أنظرهم قليلاً ولا تستعجل لهم والرب تعالى هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم أو على معنى: انتظر بهم قليلاً.

ورويداً في كلامهم يكون اسم الفعل فينصب بها الاسم نحو رويداً زيداً، أي: خَلِّه وأمهله وارفق به. الثاني: أن يكون مصدراً مضافاً إلى المفعول نحو: رويداً زيد، أي: إمهال زيد، نحو: ضرب الرقاب. الثالث: أن يكون نعتاً منصوباً نحو قولك: ساروا رويداً. تقول العرب: ضعه رويداً، أي: وضعاً رويداً، ويجوز في هذا الوجه وجهان:

أحدهما: أن يكون حالاً.

والثاني: ورويداً في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث، والله أعلم(١).

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٠٠ ـ ١٠٨).

سُورَةُ الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣].

فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية من تمام التقدير.

قال عطاء: خلق فسوى أحسن ما خلقه، وشاهده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]. فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه، بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد، والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

وقال الكلبي: خلق كل ذي روح خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين، وقال مقاتل: خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق، وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستوياً، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، وقال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]. فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [تبارك: ٣]. وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق، فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

فتأمل ذلك فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية كما أن الجهل، والصمم، والعمى، والخرس، والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها، والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه سبحانه في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

وأما التقدير والهداية فقال مقاتل: قدر خلق الذكر والأنثى فهدى الذكر للأنثى، كيف يأتيها، وقال ابن عباس والكلبي، وكذلك قال عطاء: قدر من النسل ما أراد ثم هدى الذكر للأنثى، واختار هذا القول صاحب النظم فقال: معنى هدى هداية الذكر لإتيان الأنثى كيف يأتيها؛ لأن إتيان ذكران الحيوان لإناثه مختلف، لاختلاف الصور والخلق والهيئات، فلولا أنه سبحانه جبل كل ذكر على معرفة كيف يأتي أنثى جنسه لما اهتدَى لذلك.

وقال مقاتل أيضاً: هداه لمعيشته ومرعاه، وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج، وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير، والشر، والسعادة، والشقاوة.

وقال الفراء: التقدير فهدى وأضل فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر.

قلت: الآية أعم من هذا كله، وأضعف الأقوال فيها قول الفراء: إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه، ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته وهو نظير قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه.

وما ذكر مجاهد فهو تمثيل منه لا تفسير مطابق للآية، فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه طيره ودوابه فصيحه وأعجمه.

وكذلك قول من قال: إنه هداية الذكر لإتيان الأنثى. تمثيل أيضاً وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله وكذلك قول من قال: هداه للمرعى؛ فإن ذلك من الهداية فإن الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت، والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها ثم عودها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم[(١)].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. هذه الحجة عليهم[(٢)] في الحقيقة.

لأن النبي ﷺ امتثل هذا الأمر وقال: سبحان ربي الأعلى سبحان ربي العظيم،

---

(١) شفاء العليل (٦٥، ٦٦).

(٢) القائلين: إن الاسم هو عين المسمى.

ولو كان الأمر كما زعموا لقال: سبحان اسم ربي العظيم، ثم إن الأمة كلهم لا يجوز أحد منهم أن يقول: عبدت اسم ربي ولا سجدت لاسم ربي ولا ركعت لاسم ربي ولا باسم ربي ارحمني، وهذا يدل على أن الأشياء متعلقة بالمسمى لا بالاسم، وأما الجواب عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالاسم، فقد قيل فيه: إن التعظيم والتنزيه إذا وجب للمعظم فقد تعظم ما هو من سببه ومتعلق به، كما يقال: سلام على الحضرة العالية والباب السامي والمجلس الكريم ونحوه وهذا جواب غير مرضي لوجهين:

أحدهما: أن رسول الله ﷺ لم يفهم هذا المعنى وإنما قال: «سبحان ربي»[(١)]، فلم يعرج على ما ذكرتموه.

الثانية: أنه يلزمه أن يطلق على الاسم التكبير والتحميد والتهليل وسائر ما يطلق على المسمى فيقال: الحمد لاسم الله، ولا إله إلا اسم الله، ونحوه وهذا مما لم يقله أحد.

بل الجواب الصحيح: أن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان. والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما، واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه، والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله؛ لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى.

وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال: المعنى: سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به، وكذا سبح ربك ذاكراً اسمه، وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها، فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته[(٢)].

---

(١) حديث صحيح، رواه ابن ماجه (١/ ٢٨٧) في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسبيح في الركوع والسجود، وأبو داود (الصحيح) (١/ ١٦٥) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وانظر: الإرواء (٢/ ٣٩).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٨، ١٩).

فإن قيل: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] ولم تدخل في قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾؟

قيل: التسبيح يراد به التنزيه، والذكر المجرد دون معنى آخر، ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل، ولهذا تسمى الصلاة تسبيحاً، فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله. وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة، أدخلت الباء تنبيهاً على ذلك المراد كأنك قلت: سبح مفتتحاً باسم ربك أو ناطقاً باسم ربك، كما تقول: صل مفتتحاً أو ناطقاً باسمه.

ولهذا السر، والله أعلم، دخلت اللام في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة، ولم يقل في موضع: سبح الله ما في السموات والأرض، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. فكيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة. وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ[(٢)].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٠).

(٢) الرسالة التبوكية (٨٢).

سُورَةُ الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٩].

دعانا الله ـ سبحانه ـ في كتابه إلى النظر فيها، وفي كيفية خلقها، فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها، وعلمه وحكمته ووحدانيته.

هذا مع أنها تسبح بحمده، وتخشع له، وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها ـ على شدتها وعظم خلقها ـ من الأمانة، إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٢ ـ ٢٤].

فهذا من المنقطع[٢] لا بالاعتبار الذي ذكره ابن خروف من كون المستثنى جملة مستقلة بل باعتبار آخر، وهو أنه ليس المراد إثبات السيطرة على الكفار، فإن الله سبحانه بعثه نذيراً مبلغاً لرسالات ربه، فمن أطاعه فله الجنة ومن عصاه فله النار، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

قال المفسرون: المعنى: أنك لم ترسل مسلطاً عليهم قاهراً لهم جباراً كالملوك، بل أنت عبدي ورسولي المبلغ رسالاتي، فمن أطاعك فله الجنة ومن عصاك فله النار، ويوضح هذا أن المخاطبين بهذا الخطاب هم الكفار؛ فلا يصح أن يكونوا هم المستثنين[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٨).

(٢) أي: من الاستثناء المنقطع.

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩).

سُورَةُ الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥].

قيل: جوابه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود، وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقرراً ومحذراً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وذل وخضوع لعظمته، وذلك ضد ما وصف به عاداً وثموداً، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء»(١).

فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ إن أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات، فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ المتضمن لآخر الصلوات.

---

(١) رواه البخاري (٩٦٩).

وإن أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رئي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر»[(١)]. رواه أبو داود بإسناد صحيح، وهو آخر أيام العشر، وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره، وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ: «أن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»، ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالاً وتأويلاً للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وقيل لخاتم الرسل ﷺ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾؛ إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال. فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر. وأما الأعمال؛ فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل، فإن الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وتراً، كما قال النبي ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت»[(٢)].

وأما الزمان فإن عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين. وروى مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء. وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده. وعنه رواية ثالثة: الشفع يوم النحر والوتر

(١) سنن أبي داود (الصحيح) (١/ ٣٣١) في المناسك، باب: في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ، ورواه الإمام أحمد (٤/ ٣٥٠)، كلاهما من حديث «عبد الله بن قرط» رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٩٩٠)، ومسلم (٧٤٩).

اليوم الثالث. وقال عمران بن حصين، وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثاً مرفوعاً.

وقال عطية العوفي: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ: ٨]. والوتر هو الله. وهذا قول الحكم، قال: كل شيء شفع والله وتر. وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد. وهذا قول مجاهد، ومسروق.

وقال الحسن: الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر. وقال ابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر. وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة.

وذكرت أقوال أخر، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

أحدهما: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات.

والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق.

وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدم في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]. ونظير ما ذكر في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]. وما ذكر في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ١ ـ ٣]، وقال هاهنا: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، وفي سورة المدثر أقسم بالليل إذا أدبر، وفي سورة التكوير أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل، وفسر بأدبر، فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

□ □ □

وعرف الفجر باللام، إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالي العشر، لأنها إنما تعرف بالعلم، وأيضاً فإن التنكير تعظيم لها، فإن التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولا يجهله.

□ □ □

فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم كان في ذلك ما دل على المقسم عليه، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾، فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلك يحتاج إلى حجر

يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل، لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود.

وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء الأمم الثلاثة: قوم عاد اغتروا بقوتهم، وثمود اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم، وقوم فرعون اغتروا بالمال والرياسة فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا(١).

* * *

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

فأخبر سبحانه أنه يبتلي عبده بإكرامه له وبتنعيمه له وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان، ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وأن تضييقه عليه إهانة منه له فقال: كلا؛ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد أبتلي بنعمتي، وأنعم ببلائي(٢).

أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء مني وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط، فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٧ ـ ٣٣). (٢) عدة الصابرين (١٦٠).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٨٠).

ذمهم سبحانه ـ أي: الأغنياء ـ بحب المال وعيَّرهم به(١).

ثم ذكر سبحانه حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه كاليتيم والمسكين، فلا يكرم هذا ولا يحض على طعام هذا، ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله وحبه له، وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك؟ فقالت طائفة: يقال لها عند الموت. وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي ﷺ بقوله في حديث البراء وغيره: فيقال لها: «اخرجي راضية مرضياً عنك»(٣). قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ مطابق لقوله ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى»(٤)(٥).

فالنفس المطمئنة هي التي اطمأنت إلى ربها، وسكنت إلى حبه، واطمأنت بذكره، وأيقنت بوعده، ورضيت بقضائه، وهي ضد النفس الأمارة بالسوء، فلم تكن طمأنينتها بمجرد إسقاط تدبيرها بل بالقيام بحقه والطمأنينة بحبه وذكره(٦).

□ □ □

وإن المراد من الآية: رضاها بما حصل لها من كرامته وبما نالته منها عند الرجوع إليه فحصل لها رضاها والرضى عنها، وهذا يقال لها عند خروجها من دار الدنيا وقدومها على الله.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين،

---

(١) عدة الصابرين (١٨٢). (٢) التبيان (٣٣).

(٣) جزء من حديث صحيح طويل، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٢٨٧) وغيره، وأبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٠١) في السنة، باب: المسألة في القبر...، والحاكم (١/ ٣٧) في الإيمان، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر تخريجه مفصلاً في: أحكام الجنائز للعلامة الألباني (١٥٦ ـ ١٥٩)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٣) عند تفسير الآية (٢٧) من سورة إبراهيم.

(٤) رواه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٥) الروح لابن القيم (٧٦). (٦) طريق الهجرتين (٢١٩٠).

وأرسل إليه بتحفة من الجنة فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان ورب عنك راض».

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

أحدهما: أنه عند الموت، وهو الأشهر، قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها، ورضيت عن الله فيرضى الله عنها.

[**الثاني**:] وقال آخرون: الكلمة الأولى وهي: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ تقال لها عند الموت، والكلمة الثانية وهي: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ تقال لها يوم القيامة. قال أبو صالح: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ هذا عند خروجها من الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لها: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

[**الثالث**:] والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحينئذٍ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت مطمئنة إلى الله وفي جنته كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذٍ فيكون تمام الرجوع إلى الله، ودخول الجنة، فأول ذلك عند الموت وتمامه ونهايته: يوم القيامة فلا اختلاف في الحقيقة[١].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (٢/١٧٨، ١٧٩).

سُورَةُ البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

فذكر فيها جواب القسم. وهو قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

وفسِّر الكَبَد بالاستواء وانتصاب القامة. قال ابن عباس، في رواية مقسم: منتصباً على قدميه، وهذا قول أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبد الله بن شداد. قال المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد الاستواء والاستقامة.

وفسر بالنصب، هذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ورواية عن علي، وعن ابن عباس. قال الحسن: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وقال سعيد بن أبي الحسن[1] يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وقال قتادة: يكابد أمر الدنيا والآخرة فلا تلقاه إلا في مشقة.

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني: حمله وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه وحياته ومعاشه، ومماته، كل ذلك شدة، قال مجاهد: حملته أمه كرهاً، ووضعته كرهاً، ومعيشته في شدة، فهو يكابد ذلك.

وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدته ومشقته، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الأمر، ومنه تكبد اللبن، إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد؛ لأنها دم يغلظ ويشتد.

وانتصاب القامة والاستواء من ذلك: لأنه إنما يكون عن قوة وشدة، فإن الإنسان مخلوق في شدة، بكونه في الرحم، ثم في القماط والرباط، ثم هو على خطر عظيم

---

(١) هكذا في المطبوع من «التبيان»، وفي تفسير «ابن كثير» (٥٤٣/٤) وروى ـ أي: ابن أبي حاتم ـ من طريق أبي مودود سمعت الحسن...» فذكره، وفي ثقات «ابن حبان» (٥١٩/٧): «مودود» شيخ، يروي عن الحسن، روى عنه موسى بن إسماعيل.

عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له إلا في الجنة.

وفسر الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

أي: في شدة وعناء، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]. قال ابن عباس: أي: خلقهم. وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق يقال: فرس شديد الأسر، قال: وكل شيء شددته؛ من قتب أو غيره، فهو مأسور، وقال المبرد: الأسر القوى كلها، وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال، وشد الله أسر فلان، أي: قوى خلقه، وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر، وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب: وقال مجاهد: هو الشرج، يعني: موضع البول والغائط إذ خرج الأذى تقبضاً.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم في سورة البلد على حال الإنسان، وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو: مكة أم القرى.

ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ **[البلد: ٢]**.

فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول وهو ضد الظعن.

فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد، بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان والحرمة هناك للفعل لا للمكان، والمقصود هو ذكر حرمة المكان وهي: إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به، وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن.

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني: وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه أمراً آخر، وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس ونبيه إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

وفي الآية قول ثالث، وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني، وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيداً، وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد.

وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه.

فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥ ـ ٧].

ثم أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور، فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادراً في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وبقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾. فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه؟

ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض؛ فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه؛ لم يكن ذلك إهلاكاً له، بل تقرباً به إلى الله، وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له، فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ وأتى هنا بلم، الدالة على المضي في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي، أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟

ثم ذكر برهاناً مقدراً أنه سبحانه أحق بالرؤية، وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالماً بنجدي الخير والشر ـ وهما طريقاهما ـ أليس هو أولى وأحق بالعلم منه، ومن هداه إلى هذين الطريقين كيف يليق به أن يتركه سدى، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده.

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه، وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه، والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول؛ مكملين له، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته. ومع هذا فقامت عليه حجته، ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه، وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه، وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابراً رحيماً في نفسه، معيناً لغيره على الصبر والرحمة، فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعاً عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوباً عنه.

والناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة وصار وراءها، وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها إلا خفيف الظهر، وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر، فهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: ١٩، ٢٠].

قد أطبقت عليهم، فلا يستطيعون الخروج منها، كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله فلم تخرج قلوبهم منها، كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠].

فذكر هنا العينين اللتين يبصر بهما، فيعلم المشاهدات، وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل، وهو قول أكثر المفسرين.

وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم.

فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته، ونعمه التي تعرَّف بها إلى عباده(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٧].

وهو فعل ماض، ولم يكرر معه «لا»، إما استعمالاً لأداة «لا» كاستعمال «ما»، وإما إجزاء لهذا الفعل مجرى الدعاء، نحو: فلا سلم ولا عاش، ونحو ذلك، وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور: فاقتحامها فعل كل واحد منها، فأغنى ذلك عن تكريرها، فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ: (فك رقبة) بالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر؛ لأن قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ على حد قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧]. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١] ونظائره، تعظيماً لشأن العقبة وتفخيماً لأمرها، وهي جملة اعتراض بين المفسر والمفسر.

فإن قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٣ ـ ١٧].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٧).

تفسير لاقتحام العقبة، مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور، فمن فعلها فقد اقتحم العقبة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذا عطف على قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً.

وأيضاً فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة، وأيضاً فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسره، ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ طابقه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما بعده دون ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وما يليه، وإن كان لقوله: ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ طابقه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة هاهنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل، قال الحسن: عقبة والله شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان، وقال مقاتل: هذا مثل ضربه الله، يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة. فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقة، يصعدها الناس، قال عطاء؛ هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار، وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم.

وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط، يضرب على جهنم، وهذا لعله قول الكلبي، وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة، قال قتادة: فإنها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله.

وفي أثر معروف: «إن بين أيديكم عقبة كؤوداً لا يقتحمها إلا المخفون» أو نحو هذا، وأن الله سمى الإيمان به وفعل ما أمر وترك ما نهى عقبة، فكثيراً ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة.

وقال بعض الصحابة ـ وقد حضره الموت ـ فجعل يبكي ويقول: ما لي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود أهبط منها إما إلى جنة وإما إلى نار.

فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم، والله أعلم[1].

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (٣٣ ـ ٤٣).

سُورَةُ الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ١٠].

قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب.

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها والأرض وطاحيها والنفس ومسويها.

وقد قيل: (ما) مصدرية فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده. ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار، أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث، كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان، ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما، وكذلك النفس، فإن حدوثها غير مشهود، حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء، وطحو الأرض، وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق.

فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفاً لهذا العالم، والطحو: هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام

والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة، وكونه هذا الجانب المعين دون غيره، مع استواء الجوانب في الشكل الكري، يقتضي تخصيصاً، فلم يجدوا بداً أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك. قلنا: فنعم إذاً، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلاً، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد.

□ □ □

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سوَّاها وألهمها فجورها وتقواها، فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى. فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها. وذكر لفظ التسوية كما ذكره في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]. وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]. إيذاناً بدخول البدن في لفظ النفس. كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الضمير مرفوع في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ عائد على ﴿مَن﴾، وكذلك هو في ﴿دَسَّىٰهَا﴾ المعنى: قد أفلح من زكى نفسه. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ هذا القول هو الصحيح.

وهو نظير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]. وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى آخر الآيات. ونظائره. قال الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله. وقاله قتادة. وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي: نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف، وقد خاب من دسَّاها، أي: نقصها وأخفاها بترك

عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبداً خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام[(١)] لتخفي أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبَـوّأتَ بَـيْـتَـكَ فِـي مَـعْـلَـمٍ رَحِـيـبِ الـمَـبَـاءَةِ والـمـسـرحِ
كـفـيـتَ الـعـفـاة طـلاب الـقِـرى ونَـبْـحَ الـكـلابِ لِـمُـسْـتَـنْـبِـحِ

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: فقال دسى معناه: دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وقال طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه، قال ابن عباس، في رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير، ومقاتل، قالوا: سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه، وإهلاكها بالمعصية، من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ قالوا: ويشهد له حديث نافع يعني ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله ﷺ وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[(٢)]،

---

(١) في هامش التبيان (٢٢): «اليفاع المكان المرتفع، والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة، الجمع: أولاج، والهِضم ـ بكسر الضاد ـ المطمئن من الأرض، وانظر: هامش (١) ص(٢٣٤) من نفس السورة.

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٦/ ٢٠٩) قال: حدثنا وكيع عن نافع ـ يعني: ابن عمر ـ عن صالح بن سعيد عن عائشة رحمه الله تعالى رضي الله عنها فذكره، وصالح بن سعيد، يروي عن =

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها»(١)، قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه، فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى. وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً.

□ □ □

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزاً في العربية، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من، وإن كان لفظها مذكراً، كما في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢]. جمع الضمير، وإن كان لفظ (مَنْ) مفرداً، حملاً على نظمها. فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وهاهنا قد تقدم لفظ (مَنْ)، والضمير المرفوع في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ يستحقه لفظاً ومعنى. فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى. فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأما عود الضمير الذي يلي (من) على الموصول السابق وهو قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على (من)، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة. فهذا يجوز، لو

= عائشة، روى عنه نافع بن عمر هكذا في الثقات لابن حبان (٤/ ٣٧٦)، وترجم له الحافظ في «تعجيل المنفعة» (١٨١)، وذكر حديثه عن عائشة ﵂، وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله ثقات»، مجمع الزوائد (٢/ ١٢٧، ١٢٨)، أما ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله: «ويشهد له حديث نافع - يعني: ابن عمر - وقع في المطبوع ابن عمر وهو خطأ قطعاً - عن ابن أبي مليكة عن عائشة... فذكره» فلم أجده بهذا السند، والله أعلم، وحديث ابن أبي مليكة عن عائشة ﵂ ورد بلفظ: «افتقدت النبي ﷺ - إلى قولها: - فإذا هو راكع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت...»، رواه مسلم (٢/ ١٢٣) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، وانظر: تحفة الأشراف (١١/ ٤٥٩، ٤٦٠)، والحديث ورد ضمن دعائه ﷺ الذي أوله: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل...»، رواه الإمام أحمد (٤/ ٣٧١)، ومسلم (٥/ ٥٦٩) في الأدعية، والنسائي (٨/ ٢٨٥) في الاستعاذة، باب: الاستعاذة من دعاء لا يستجاب، كلهم من حديث زيد بن أرقم ﵁.

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٠٦) من حديث ابن عباس ﵄، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٨): «... إسناده حسن»، قلت: في سنده ابن لهيعة، وقد عنعنه، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة ﵁، ذكره ابن كثير (٤/ ٥٤٧)، وقال: «لم يخرجوه من هذا الوجه»، وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٢٩).

لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه. فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه، فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن كقوله: ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٤ ـ ٥٦]. وقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم دون العكس، فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة.

* * *

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١].

وذكر في هذه السورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذبة فقال شيخنا: هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٧]. وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما.

فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها.

وفي قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال.

وفي قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد في الأرض والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم. فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال.

فإذا كان عذاب هؤلاء ـ وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم ـ فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذاباً. ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة.

كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]. أي: موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم.

فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد، ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

ولهذا أمكن عاداً المكابرة وأن يقولوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]. ولم يمكن ذلك ثمود وقد رأوا البينة عياناً وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من

عرف الحق ولم يتبعه وهذا داء أكثر الهالكين وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥].

فنفى عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه.

بخلاف المخلوق فإنه إذ انتقم من عدوه يخاف عاقبة ذلك، إما من الله وإما من المنتصرين لعدوه، وذلك على الله محال.

والخوف يتضمن نقصان العلم والقدرة والإرادة.

فإن العالم بأن الشيء لا يكون لا يخافه، والعالم بأنه يكون ولا بد قد يئس من النجاة منه فلا يخاف، وإن خاف فخوفه دون خوف الراجي.

وأما نقص القدرة فلأن الخائف من الشيء هو الذي لا يمكنه دفعه عن نفسه فإذا تيقن أنه لقادر على دفعه لم يخفه.

وأما نقص الإرادة فلأن الخائف يحصل له الخوف بدون مشيئته واختياره.

وذلك محال في حق من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، ومن لا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا لا ينافي كراهته سبحانه وبغضه وغضبه، فإن هذه الصفات لا تستلزم نقصاً لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته، بل هي كمال؛ لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه، وكلما كان العلم بحاله أهم كانت كراهته وبغضه أقوى، ولهذا يشتد غضبه سبحانه على من قتل نبيه أو قتله نبيه(٢).

❀ ❀ ❀

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨ ـ ٢٧).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٤٤، ١٤٤٥).

سُوْرَةُ اللَّيْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [**الليل**: ١ ـ ٤].

فلفظ السعي هو العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الإمكان. فإن كان يفتقر إلى عدو بدنه عدا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك. فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفاً للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجتهد فيه، ولهذا قال في الجمعة: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وائتوها تمشون، وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا». فلم ينه عن السعي إلى الصلاة، فإن الله أمر بالسعي إليها بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه.

والإتيان فعل البدن، وسعيه عَدْوُ البدن، وهو منهي عنه.

وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة، لا من بيع وغيره والإقبال بالقلب على السعي إليها[(١)].

□ □ □

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئاً بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف

(١) التبيان في أقسام القرآن (٦، ٧).

أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار، وبالساعي، وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال:

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحداً، وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه؛ وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه وبدنه، ونيته وقصده، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة، فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاؤوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى. وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها

عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح ، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، الفارق بين الحق الباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته نصيباً في الدنيا، ونصيباً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر، وترك التقوى سبباً لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إله إلا الله، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف، واليسرى صفة لموصوف محذوف أي الحالة والخلة اليسرى، وهي فعلى من اليسرى، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء.

فمن فسَّرها بلا إله إلا الله، فقد فسَّرها بمفرد يأتي بكل جمع: فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة؛ فلا يكون العبد، مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى

يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إلٰه إلا هو حتى يسلب خصائص الإلٰهية عن كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج، ولا يكون مصدقاً بها من نفي الصفات العليا، ولا من نفي كلامه وتكليمه، ولا من نفي استوائه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله ﷺ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة مَنْ نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور، ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله.

وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، هو تفصيل لا إلٰه إلا الله، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله. وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها. فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله.

ومن فسرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه، والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

□ □ □

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاثة ـ وهي الإعطاء، والتقوى والتصديق بالحسنى، من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق. فإن النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم. ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها، ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى، وفساد قوة

الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء، وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكى نفسه؛ وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد؛ فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر، وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك. فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها، فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر، فانتظم ذلك الدين كله وأكمل الناس من كملت له هذه التقوى الثلاث.

ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى. قال ابن عباس: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي: نهيئه لعمل الخير، نيسر عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

□ □ □

وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير، وييسر على قلبه، ويديه ولسانه، وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له منقادة، ولا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللاً، وتقاد له علماً وعملاً، فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدين

□ □ □

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾،

فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.

قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي. وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيراً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر. قال الواحدي: وهذا هو القول؛ لأن الشر يؤدي إلى العذاب، فهو الخلة العسرى، والخير يؤدي إلى اليسر، والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرى، يقول: سنهيئه للشر، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول: قد يسرت غنم فلان إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك على أصحابها. انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر على قلبه، ونيته، ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة؛ فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكره غاية المجانبة، ويتعمد فعل ما يحبه ويؤثره.

فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فعل فعل المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين، فللّه ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها. فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه فهم لا يطلبون أثراً بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق باليمين.

□ □ □

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها، وذلك بيِّن بحمد الله لمن وفق لفهمه، ولهذا أجاب بها النبي ﷺ من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر، فأجاب بفصل الخطاب وأزال الإشكال، ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن

النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار»، قيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ قال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[(١)].

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي، وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى: أن العبد «ميسر لما خلق له» لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة، وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق، وكانوا إذا استشكلوا شيئاً سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقاً، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

□ □ □

وفي الحديث استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه. خلافاً لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه، وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافاً لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له.

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له، فتأمل قوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»؟ ومطابقته لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ إلى آخر الآيتين. كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟

□ □ □

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك، فلو قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله، وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله فلا أسعى ولا أتحرك، لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبداً، وإن أتى به في أمر معين؛ فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منكفة البتة عن قول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»؟ فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته؟ وهل هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه. فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وتلا عنده هاتين الآيتين، موافقاً لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق، حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين، وإنما يستروح إلى ذلك معطلو الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه، وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه.

□ □ □

فإن قيل: فالإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى، من يسرها للعبد أولاً؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة، فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة، فيسرهم للعسرى، واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبتها في موضوع لا تصلح له. كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك، ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء.

فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟

قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟

فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب؟

قيل: نعم. شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال. فالعلو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد، والصحو والغيم. ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات.

ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع، ولولا خلق المتضادات، لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات. وظهور أحكامها وآثارها لا بد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام وإذا أعطيت اسم الملك حقه ـ ولن تستطيع ـ علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب، والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقضي ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع. فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد ونهيهم، وثوابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة، كما تستلزم حياة الملك، علمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عبادة وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [**الليل**: ١٢، ١٣].

قيل: معناه: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه؛ وطاعته ومعصيته، اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق. ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل: المعنى إن علينا للهدى والإضلال. قال ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد. وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحاً، فليس هو معنى الآية.

وقيل: المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية، قال الواحدي: علينا للهدى، أي: أن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: هٰهنا، وفي النحل في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، وفي الحجر في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله.

فذكر الطريق والغاية، فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله. فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات.

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته، لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً، وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع مطلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات وهو الوصول إلى الله سبحانه، وأقرب الطرق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى. وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها. وتوحيد المطلوب، وهو الحق، فلا يعدل عنه إلى غيره، فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم، وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة. والانقطاع، وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها؛ فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر. فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة. والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة، فتأمله.

فتوحيد المطلب يعصم من الشرك وتوحيد الطلب يعصم من المعصية وتوحيد الطريق يعصم من البدعة. والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢٠].

ولما أقام سبحانه الدليل، وأنار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص. فهذا الصنف هو الذي يُجنَّب عذابه. كما قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته.

ونبه بقوله: ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزي بها، وهذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أول وأولى من ذكر في هذه الآية. وأنه أحق الأمة بها، فإن علياً رضي الله عنه تربى في بيت النبي ﷺ، فلرسول الله ﷺ عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى، لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، بخلاف من تطوق نعم المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم، ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصر الطرق إليه، وأقربها وأقومها، وبالله التوفيق(١).

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٥٥ ـ ٧٢).

سُوْرَةُ الضّحى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١ ـ ١١].

إقسامه ﷻ على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له.

فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس وهذان للعقل.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع: الترك، والقلى: البغض. فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه، وأطلق سبحانه أن الآخرة خير

له مما قبلها، ثم وعده بما تقرُّ به عينه وتفرح به نفسه وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الأتباع، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه في موقف القيامة وما يعطيه في الجنة.

وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أولا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهذا من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحدّ لرسوله حداً يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحداً منكم النار على أن يدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه وهدايته بعد الضلالة وإغنائه بعد الفقر، فكان محتاجاً إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه فآواه ربه وهداه وأغناه، فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر؛ فنهاه أن يقهر اليتيم وأن ينهر السائل وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين. قال مجاهد ومقاتل: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً. وقال الفراء: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه. وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم، فغلظ الخطاب في أمر اليتيم، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨].

وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل، إذا افتقر. وأعال يعيل، إذا صار ذا عيال. مثل: لبِن وأثمر وأثرى، إذا صار ذا لبن وثمر وثروة. وعال يعول، إذا جار[١].

وفي الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه أغناه بعد فقره. وهذا قول أكثر المفسرين، لأنه قابله بقوله: ﴿عَآئِلًا﴾ والعائل هو المحتاج، ليس ذا العيلة.

---

(١) عدة الصابرين (١٥٤، ١٥٥).

والثاني: إنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه، فهو غنى قلب ونفس لا غنى مال، وهو حقيقة الغنى.

والثالث: وهو الصحيح: إنه يعم النوعين: نوعي الغنى فأغنى قلبه به وأغناه من المال(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه وإما أن ترد رداً ليناً. قال الحسن: أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين. وقوله:

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى: أظهرها والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر عن مجاهد: حدث بالنبوة التي أعطاك الله.

وقال الزجاج: بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك وهي أجل النعم. وقال مقاتل: اشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة.

والتحقيق: أن النعم تعم هذا كله، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم، وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا(٢).

□ □ □

وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: إنه ذكر النعمة والإخبار بها وقوله: أنعم الله علي بكذا وكذا. قال مقاتل: يعني: اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتيم والهدى بعد الضلال والإغناء بعد العيلة والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعاً: «من صنع إليه معروف فليجز به، فإن لم يجد ما يجزي به فليثن، فإنه إذا

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٩).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٧٢ ـ ٧٥).

أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور»[١].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحلٍّ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب»[٢].

والقول الثاني: إن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أي: بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن أمره أن يقرأه. والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمورٌ بشكرها، والتحدث بها وإظهارُها مِنْ شكرها[٣].

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٣٠٦) رقم (٢١٥)، ورواه الترمذي (٤/ ٣٣٢) في البر والصلة، ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وأبو داود (الصحيح) (٣/ ٩١٤) في الأدب، باب: في شكر المعروف، وقال الألباني: «حسن».

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٧٨ و٣٧٥)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٥٦): «رواه عبد الله بن أحمد في زوائده بإسناد لا بأس به»، قلت: رواه الإمام أحمد كما مر، في موضعين عن النعمان بن بشير ﷺ، أما ابنه عبد الله فرواه أيضاً في زوائده عنه، وحسنه الألباني، كما في صحيح الترغيب (١/ ٤٠٥) رقم (٩٦٦)، والكفر هنا معناه: «كفر النعمة».

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩).

سُورَةُ الشَّرْحِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

فقال: شرح الله صدر رسوله أتم الشرح ووضع عنه وزره كل الوضع، ورفع ذكره كل الرفع، وجعل لأتباعه حظاً من ذلك، إذ كل متبوع فلأتباعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر، على حسب اتباعهم له. فأتبع الناس لرسوله ﷺ أشرحهم صدراً وأوضعهم وزراً وأرفعهم ذكراً، وكلما قويت متابعته علماً وعملاً وحالاً وجهاداً، قويت هذه الثلاثة حتى يصير صاحبها أشرح الناس صدراً، وأرفعهم في العالمين ذكراً.

وأما وضع وزره: فكيف لا يوضع عنه ومن في السماوات والأرض ودواب البر والبحر يستغفرون له؟

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة كما أن أضدادها متلازمة، فالأوزار والخطايا تقبض الصدر وتضيقه وتخمل الذكر وتضعه، وكذلك ضيق الصدر يضع الذكر ويجلب الوزر، فما وقع أحد في الذنوب والأوزار إلا من ضيق صدره وعدم انشراحه، وكلما ازداد الصدر ضيقاً كان أدعى إلى الذنوب والأوزار؛ لأن مرتكبها إنما يقصد بها شرح صدره ودفع ما هو فيه من الضيق والحرج، وإلا فلو اتسع بالتوحيد والإيمان ومحبة الله ومعرفته وانشرح بذلك لاستغنى عن شرحه بالأوزار.

ولهذا أكثر من يواقع المحظور إنما يدفع به عن نفسه ما فيها من الهم والغم والضيق، وكثيراً ما تبرد شهوته وإرادته، ومع هذا يحرص على المعاودة تداوياً منه بزعمه، كما أفصح عن هذا شيخ الفسوق أبو نواس بقوله:

وكأساً شربت على لذة ... وآخر تداويت منها بها

فإذا حمل العبد الأوزار أوجب له ذلك ضيق الصدر وخمول الذكر، ثم خمول

الذكر يوجب له ضيق الصدر، فلا يزال المعرض عن طاعة الله ورسوله متردداً بين هذه المنازل الثلاث، كما لا يزال المطيع لله ورسوله الذي باشر قلبه روح التوحيد وتجريده ومحبة الله ورسوله، وامتثال أمره، دائراً بين تلك المنازل الثلاث.

وإذا ثقل الظهر بالأوزار منع القلب من السير إلى الله والجوارح من النهوض في طاعته، وكيف يقطع مسافة السفر مثقل بالحمل على ظهره، وكيف ينهض إلى الله قلب قد أثقلته الأوزار، فلو وضعت عنه أوزاره لنهض وطار شوقاً إلى ربه ولانقلب عسره يسراً، فإن ضيق الصدور وحمل الوزر وخمول الذكر من أعظم العسر[1].

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ذُكِرتُ ذُكِرْتَ معي فيقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، في كلمة الإسلام وفي الأذان وفي الخطب وفي التشهدات، وغير ذلك[2].

وفي هذا الدليل نظر. لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية. وهذا هو الواجب في الخطبة قطعاً، بل هو ركنها الأعظم. وقد روى أبو داود وأحمد وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء»[3]، واليد الجذماء المقطوعة.

فمن أوجب الصلاة على النبي ﷺ في الخطبة دون التشهد فقوله في غاية الضعف، وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فقال: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

وقال عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون، عن هشيم عن جويبر، عن الضحاك: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي. ولا يجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك. وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: لا أذكر إلا ذكرتَ معي: الأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فهذا هو المراد من الآية، وكيف لا يجب التشهد الذي هو عقد

(١) الكلام في مسألة السماع (٤٠١ ـ ٤٠٣).
(٢) جلاء الأفهام (١٨٣).
(٣) حديث صحيح، رواه أبو داود (الصحيح) (٩١٨/٣) في الأدب، باب: في الخطبة، والترمذي (الصحيح) (٣٢١/١) في النكاح، باب: خطبة النكاح.

الإسلام في الخطبة وهو أفضل كلماتها وتجب الصلاة على النبي ﷺ فيها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

فالعسر وإن تكرر مرتين، فتكرر بلفظة المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين: يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨].

فالنصب: التفرغ للعبادة والطاعة والرغبة إلى الله وحده وتجريد توحيده، فمتى قام بهذين الأصلين حصل له من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بحسب ما قام به وبدل عسره يسراً[(٣)].

* * *

---

(١) جلاء الأفهام (٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٥).

(٣) جلاء الأفهام (١٨٣).

سُورَةُ التِّينِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [البلد: ١ ـ ٣].

فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما؛ فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص لا عجم له وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم، ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة، الحرارة والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات، وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطباً ويابساً.

وأما الزيتون: ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمراً، يعصر هذا الدهن الذي هو مادة النور، وصبغ للآكلين وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى، وشجره باقٍ على مر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط.

وهذا الذي قالوه حق، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما. وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسوله، سيد ولد آدم، وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥].

أي: في أحسن صورة وشكل واعتدال؛ معتدل القامة، مستوي الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه. والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعته تبارك وتعالى، في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله، ولهذا يكررها كثيراً في القرآن لمكان العبرة بها، والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه، بأن أرسل منها رسلاً أنزل عليهم كتبه، يعرّفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين، فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين، والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن، وأبو العالية. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي النار بعضها أسفل من بعض.

وقالت طائفة منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه أرذل العمر. وهو مروي عن ابن عباس.

والصواب القول الأول لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصاً بالكفار، حتى يستثني منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]، فجعلهم قسمين: قسماً متوفى قبل الكبر، وقسماً مردوداً إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون.

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم، وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة، وفي ذلك هضم لمعنى الآية، وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده، فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون، وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده، فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له، فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين. كابروا الحسّ. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر، احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء. فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم، إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا ـ وإن كان حقاً ـ فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل. ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة، فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر. وهذا ضعيف من وجهين:

أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأميهم. وأنه لا دليل على ما ادعوه، وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه، والله أعلم.

التاسع: أنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين. فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورةً من أقبح الصور في أسفل سافلين، فتلك نعمته عليه؛ وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥]، فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۢ﴾ [التين: ٦].

أي: غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم. وهذا هو الصواب.

وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم بل هو جزاء أعمالهم. ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

وهذا القول خطأ قطعاً، أتي أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل؛ فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق. وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقة، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥]، فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة، وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه: ٣٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال للأنصار: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟» فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أَمَنُّ. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله.

وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في مننه؟ وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه. وأما منة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال: إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟

فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم ما أعطيناكم.

قيل: وهذا أيضاً هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمناً له، ولا معاوضة عنه. وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١). فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده، وكما أنه سبحانه المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء وذلك كله محض منته وفضله وجَوْده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منة. فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء.

فإن قيل: كيف تقولون هذا، وقد أخبر رسوله عنه: أن حق العباد عليه إذا وحدوه أن لا يعذبهم»(٢)، وقد أخبر عن نفسه أن حقاً عليه نصر المؤمنين(٣)؟

قيل: لعمر الله من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقاً بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه، فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، فهو الكريم الواسع

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين: ٧].

أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي: فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؟ فتقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٢) رواه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).
(٣) قال الله تعالى ذكره في سورة «الروم» الآية (٤٧): ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول. وأيضاً فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفةً من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقاً لك إليها؟ فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقضي خلافه.

قال منصور: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ عنى به محمداً؟ فقال: معاذ الله، إنما عنى به الإنسان.

وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ. واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان.

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب. وكذبته أنا، إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبته، إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقاً. قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. فالأول بمعنى: وإن ينسبوك إلى الكذب، والثاني بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته جحوداً وعناداً، هذا أصل هذه اللفظة. ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبفي، فيقال: كذبته بكذا، وكذبته فيه، والأول أكثر استعمالاً. ومنه قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥]، وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [البقرة: ٣٩].

إذا عرف هذا، فقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ اختلف في (ما) هل هي بمعنى: أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى: أي شيء، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان: أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذباً بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ. قال الفراء: كأنه يقول: من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟ وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟

□ □ □

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين: **أحدهما**: إقامة (ما) مقام «من» وأمره سهل. **والثاني**: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقاً، وهو يكذبك، أي: فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى فمن يجعلك كاذباً بالدين، أو

مكذباً به، ولا يصح واحد منهما. أما الثاني والثالث فظاهر، فإن كذبته ليس معناه: جعلته مكذباً أو مكذباً، وإنما معناه: نسبته إلى الكذب. فالمعنى على هذا: فمن يجعلك بعد كاذباً بالدين. وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال: كذب به.

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به، ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسي، وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل: من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء، أي: نسبوك إلى الكذب في الإخبار به. بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذب، أي: فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي: يجعلك مكذباً، والمعروف كذبه إذا جعله كاذباً لا مكذباً، ومثل فسقه إذا جعله فاسقاً، لا مفسقاً لغيره.

وجواب هذا الإشكال: أن صدّق وكذّب ـ بالتشديد ـ يراد به معنيان: **أحدهما**: النسبة. وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم. **والثاني**: الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل. قال الكسائي: يقال: ما صدقك بكذا، أو ما كذبك بكذا، أي: ما حملك على التصديق والتكذيب.

قلت: وهو نظير ما أجرأك على هذا، أي: ما حملك على الاجتراء عليه، وما قدمك وما أخَّرك، أي: ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير. وهذا استعمال سائغ موافق للعربية، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

وهذا تقرير لمضمون السورة؛ من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ما جاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه.

وأن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالاً بعد حال، إلى أكمل الأحوال، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟ فلله ما أخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها، والله أعلم(١).

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٣ ـ ٥٤).

سُوْرَةُ العَلَقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم[1]، فذكر فيها ما منّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم، وذكر خلقه خصوصاً وعموماً فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وذكر هنا مبدأ خلقه من علق؛ لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم

---

(١) لم أقف على من سمى «سورة العلق» بسورة «القلم»، كما ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى، وإنما سميت غير «العلق» بـ«القلم»، وهي سورة «ن» أيضاً، أما سورة «العلق» فتسمى أيضاً «اقرأ»، انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٢٥٠)، والآلوسي (٣٠/ ١٧٧)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٦٧)، ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور ذوات الأسماء العدة (١/ ٥٥)، وفي تفسير الجلالين «سورة اقرأ» (٢/ ٤١٠)، والحاكم (٢/ ٥٢٩) فتسمية ابن القيم لها بهذا الاسم يحتاج لأثر خاصة لمذهب القائلين: إن تسمية السور توقيفي، أما كونها أول سورة نزلت في الأرجح عند جمهور الأئمة، انظر: المصادر السابقة، وأيضاً فتح الباري (١/ ٣٠) في «بدء الوحي» باب: كيف كان بدء الوحي.... وكذا صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٣٧٧) في الإيمان، باب: بدء الوحي، من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: «ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ...﴾»، والله أعلم.

وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، فإن الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو مواليها، والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقاً.

ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً، فقال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ هذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾..

والمقصود: أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته: من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له(١).

□ □ □

ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانَيْن؛ البيان النطقي والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه.

فذكر أولاً: عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانياً: خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعليق التخليق وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة.

ثم ذكر ثالثاً: التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين. ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦٣).

يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم، والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم. هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد.

فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب، والنظم والنثر وجوابات المسائل. فمن الذي أجرى تلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً، معناه: أعجب من صورته، فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله سوى من ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب، ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطي الوجود العيني. فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسند إليه تعالى خلقاً وتعليماً، وذكر خلقين وتعليمين: خلقاً عاماً وخاصاً، وتعليماً خاصاً وتعليماً عاماً.

وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال، فله كل كمال

وصفاً ومنه كل خير فعلاً، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك. وهو الغني الحميد[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [**العلق**: ٦، ٧].

ولم يقل: أن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئاً عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة [الليل: ٨ ـ ١٠]، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه.

وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين، ولا يجد بداً من امتثال أوامره؛ ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال، وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ومن فسرها بشهادة أن لا إلٰه إلا الله فلأنها أصل الإحسان وبها تنال الحسنى، ومن فسرها بالخلف في الإنفاق، فقد هضم المعنى حقه وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءاً من أجزاء الحسنى.

والمقصود: أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما منافٍ للفقر والعبودية[٢].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣٠٠، ٣٠١).

(٢) طريق الهجرتين (١٣).

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

[انظر في تفسيرها: الآيات (١ ـ ٥) من سورة الدخان (٢/ ٤٤٠)].

❁ ❁ ❁

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

فنهى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية، ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة، فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه ﷻ ـ ومعلوم أن النية جزء من العبادة بل هي روح العبادة، كما تبين ـ علم أن العمل الذي لم ينوَ ليس بعبادة ولا مأمور به فلا يكون فاعله متقرباً به إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعاً[(١)].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٩).
(٢) الجواب الكافي (١٧٦).

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

لما كانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر ـ أي: الآخرة، فلم يذكر فيها إلا الآخرة وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها، كانت تَعِدلُ نصف القرآن(١)(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

سئل رسول الله ﷺ عن «الحُمر» فقال: «ما أنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»(٣)(٤).

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٣١٨).

(٢) روى الترمذي (٥/ ١٥٣) في التفسير، باب: ما جاء في إذا زلزلت، من رواية ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن. . . .» الحديث، وقال الترمذي: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة»، وضعفه الحافظ، كما في التقريب (٢/ ٣٧٩)، ورواه الحاكم (١/ ٥٦٦) وصححه، وردَّه الذهبي بتضعيف يمان هذا، وانظر: زاد المعاد (١/ ٣١٧) هامش (١).

(٣) رواه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٢٨٩).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ **[العاديات: ١ ـ ٥]**.

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.

وقال عبد الله بن عباس: هي خيل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج.

قال أصحاب الإبل: السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد، وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة، فهي عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال: ضبحت وضبعت بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجري جميعاً وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح

قالوا: فهي تعدو ضبحاً، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض فتثير النقع ـ وهو الغبار ـ بعدوها، فيتوسط جمعاً، وهي المزدلفة.

قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى: والعاديات ضابحة، فيكون ﴿ضَبْحًا﴾ مصدراً على الأول، وحالاً على الثاني، قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحاً، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو.

وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، والإيراء لا يكون إلا للحافر لصلابته. وأما الخف ففيه لين واسترخاء. انتهى.

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لأخفاف الإبل. قالوا: والنقع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على المكان الذي تعدو فيه. قالوا: وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان. وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة، فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب، لصلابة المكان. قالوا: وأما قولكم: إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لا يلزم؛ لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو.

وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص، فإن هذا شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به العز والظفر، والنصر على الأعداء، فتعدو طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء، فهذا من أعظم آيات الرب تعالى، وأدلة قدرته وحكمته، فذكّرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به ثأرهم، كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال. والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالضبح؛ لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذناً أمسك، وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم

الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]، وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وإن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت، وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها. وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما تتكلم به، وأضعف منه ما ذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.

وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط. وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج ﴿قَدْحًا﴾ يعني: فالمنجحات أمراً، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: فأثرن، فوسطن وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل.

وكان ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم؛ لأنه سبحانه قسم أفعالنا إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع. فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ **[العاديات: ٦ ـ ٨]**.

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان

كنوداً بشهادته على نفسه، أو بشهادة ربه عليه، وكونه بخيلاً لحبه المال. والكنود للنعمة.

وفعله كند يكند كنوداً، مثل كفر يكفر كفوراً، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، وامرأة كندى، أي: كفور للمعاشرة، وأصل اللفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعاً لما عليه من الحق. وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه رحمهم الله تعالى: هو الكفور، وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، ولا يعطي في النائبة، وقال الحسن: هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم.

□ □ □

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧].

فقال ابن عباس: يريد أن ربه على ذلك لشهيد، وقيل: إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله، ويؤيد هذا القول سياق الضمائر. فإن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] للإنسان، فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنوداً، ثم ثناه بكونه شهيداً على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلاً بماله لحبه إياه. ويؤيد قول ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتى بعلى، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، أي: مطلع عالم به كقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ولو أريد شهادة الإنسان لأتي بالباء. فقيل: وإنه بذلك لشهيد، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد، فإن كنوده المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها.

□ □ □

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

والخير هنا المال باتفاق المفسرين. والشديد البخيل من أجل حب المال، فحب المال هو حمله على البخل. هذا قول الأكثرين.

وقال ابن قتيبة: بل المعنى: إنه لشديد الحب للخير، فتكون اللام في قوله: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ على حد تعلق قولك: إنه لزيد لضارب، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها، وهذه الآيات حجة على الجواز، فإن قوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ معمول ﴿لَكَنُودٌ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ معمول ﴿لَشَهِيدٌ﴾، ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور. فالحق جواز إنه لزيد لضارب.

فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى خلقه. بل بخيل بشكره، بخيل بماله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه، محسن إلى خلقه. فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧]، فالرياء ضد الإخلاص، ومنع الماعون ضد الإحسان. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧]، فاختياله وفخره من كفره وكنوده.

وهذا ضد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٨]، ونظيره: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٩]، ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى، ونظيره قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ١، ٢]، فإن الهمزة واللمزة من الفخر والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل، وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودها.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ **[العاديات: ٩ ـ ١١].**

ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أي: ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً»[١]، فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه،

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٣)، ومسلم (٦٢٧).

فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزاً على الأرض، وسره بادياً على وجهه، كما قال تعال: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمٰن: ٤١].

□ □ □

ومفعول العلم «إن» وما عملت فيه. وكسرت لمكان اللام.

وقيد سبحانه كونه خبيراً بهم ذلك اليوم ـ وهو خبير بهم في كل وقت ـ إيذاناً بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه، والله سبحانه وتعالى أعلم(١).

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (٧٥ ـ ٨٣).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ **[التكاثر: ١ ـ ٨]**.

أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد وكفى بها موعظة لمن عقلها.
فقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شغلكم على وجه لا تعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: «إنها ألهتني عن صلاتي» كان صاحبه معذوراً، وهو نوع من النسيان وفي الحديث: فلها ﷺ عن الصبي، أي: ذهل عنه، ويقال: لها بالشيء أي: اشتغل به، ولها عنه: إذا انصرف عنه. واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما ولهذا كان قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي: مكاثرة بعضكم لبعض وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذا التكاثر[(١)].

□ □ □

أخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة، حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رَقدة إلهاء التكاثر.

وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت، إيذاناً بأنهم غير مستبقين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مرة ثم يظعنون عنها، كما كانوا

---

(١) الفوائد (٣٢).

في الدنيا كذلك زائرين لها، غير مستقّرين فيها ودار القرار هي الجنة أو النار.

ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره إما؛ لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء، لا المتكاثَر به. كما يقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق، وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا، من مال أو جاه أو عبيد، أو إماء أو بناء، أو غراس، أو علم لا يُبْتَغَى به وجه الله، أو عمل لا يقربه إلى الله. فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخِّير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟».

ثم توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباء منثوراً، وعلم أن دنياه التي كاثر بها إنما كانت خداعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هناك تكاثره، كما خسره أمثاله. وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة. فكان أشقى الناس بتكاثره. إذ أفاد منه العطب، دون الغنيمة والسلامة. فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فيا له تكاثراً ما أثقله وزراً، وما أجلبه من غنى جالباً لكل فقر، وخيراً توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: يا ليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] فقيل له: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، تلك كلمته يقولها، فلا يعول عليها، ورجعة يسألها، فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى، وقال: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: ﴿كَلَّآ﴾ لا سبيل لك إلى الرجعة، وقد عُمِّرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة

ليتذكر ما فاته ـ أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وإنه لو رُدَّ لعاد لما نهي عنه، وإنه من الكاذبين.

فحكمة أحكم الحاكمين، وعزته وعلمه وحمده، يأبى إجابته إلى ما سأل. فإنه لا فائدة من ذلك، ولو رد لكانت حاله الثانية مثل حاله الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

□ □ □

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ جوابه محذوف، دل عليه ما تقدم، أي: لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لَمَّا فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات، التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها. ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه شيء عن موجبه، ولترتب أثره عليه. فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين، كجملة المشاهدات، كان تخلُّف موجبه عنه أندر شيء.

وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر:

سرنا، وساروا إلى بدر لحتفهم   لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

□ □ □

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قيل: تأكيد لحصول العلم؛ كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥].

وقيل: ليس تأكيداً، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، وهذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل. وقد أمكن اعتباره، مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط ﴿ثُمَّ﴾ بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتَضَر يعلم عند المعاينة حقيقة ما

كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً يقينياً، هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر. قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن منهال بن عمرو عن زر عن علي رضي الله عنه قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال الواحدي: يعني: أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى، وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى، وتراخي الثانية عنها.

□ □ □

ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد، والنون الثقيلة عن سؤال النعيم. فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا: هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه، فاستعان به على طاعته أم لا؟

فالأول: سؤال عن سبب استخراجه.

والثاني: عن محل صرفه. كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه، فيما أبلاه؟ وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟»(١).

وفيه أيضاً: عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه: فيما عمل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه وفيما أبلاه؟»(٢) وقال: هذا حديث صحيح.

---

(١) رواه الترمذي (الصحيح) (٢/ ٢٨٩) في صفة القيامة، باب: شأن الحساب والقصاص، وهو عن ابن عمر عن ابن مسعود رضي الله عنهما، كما في سنن الترمذي (٤/ ٥٢٩)، وفي عدة الصابرين: «وعن ماذا عمل فيما علم»؟ وفي الطبعة السلفية، ص(٢٠٢): «وفي ماذا عمل فيما علم»؟ وأثبت ما في السنن، حسنه الألباني، وانظر: تخريجه مفصلاً في «الصحيحة» رقم (٩٤٦).

(٢) في سنن الترمذي (الصحيح) (٢/ ٢٩٠)، وصححه الترمذي، وانظر: تخريج الحديث الفائت، ومتن الحديث في السنن: «. . . . . حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، =

وفيه أيضاً: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ـ يعني: من النعيم ـ أن يقال له: ألم نُصِحَّ جسمك؟ ونرويك من الماء البارد؟»[(١)].

وفيه أيضاً: من حديث الزبير بن العوام ﷺ قال: «لما نزلت: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إنه سيكون»[(٢)]. وقال: هذا حديث حسن.

وعن أبي هريرة نحوه. وقال: إنما هو الأسودان: العدو حاضر، وسيوفنا على عواتقنا. فقال: «إن ذلك سيكون»[(٣)].

وقوله ﷺ: «إن ذلك سيكون»، إما أن يكون المراد به: أن النعيم سيكون ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال، أي إن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمراً وماء، فإنه من النعيم.

ويدل عليه: قوله ﷺ في الحديث الصحيح ـ وقد أكلوا معه رُطباً ولحماً، وشربوا من الماء البارد ـ: «هذا من النعيم الذين تسألون عنه يوم القيامة»[(٤)]، فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه».

وفي الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالعبد يوم القيامة، كأنه بِذْج فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك وخوَّلتك، وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمَّرته فتركته أوفر ما كان، فارجعني آتك به. فإذا عبد لم يقدم خيراً، فيمضي به إلى النار»[(٥)].

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى

= وعن ماله من أين اكتسبه، وعن جسمه فيما أبلاه»؟

(١) سنن الترمذي (٥/٤١٨) في التفسير، سورة التكاثر، وقال: «غريب»، وصححه الألباني كما في الصحيحة رقم (٥٣٩) وردَّ استغراب الترمذي، فانظره مفصلاً.

(٢) سنن الترمذي (الصحيح) (٣/ ١٣٤) نفس الكتاب والباب، وقال الترمذي (٥/٤١٧): حسن، ووافقه الألباني.

(٣) نفس المصدر السابق، وحسنه الألباني بالحديث السابق.

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٨).

(٥) سنن الترمذي (٤/ ٥٣٤) في صفة القيامة، ما جاء في العرض «وفيه إسماعيل بن مسلم يضعف في الحديث من قبل حفظه»، و«البذج» ولد الضأن ويراد بذلك هوانه وذله، تحفة الأحوذي (٧/ ١١٤).

بالعبد يوم القيامة، فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً، وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني»(١). قال: هذا حديث صحيح.

□ □ □

وقد زعم طائفة من المفسرين: أن هذا الخطاب خاص بالكفار، وأنهم هم المسؤولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن، ومقاتل، واختار الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر: لما نزلت هذه الآية، قال لرسول الله: «أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم، وبسر قد ذَنَّب، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك للكفار»(٢)، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم، والمعنى: أيضاً يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم، حيث أشركوا بربهم وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم، توبيخاً لهم، هل قاموا بالواجب فيه، أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم.

قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن. قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة، ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ، وصريح السنة والاعتبار: يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له. فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك.

ويدل على ذلك: قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت» الحديث، وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلماً، وقد يكون كافراً.

ويدل عليه أيضاً: الأحاديث التي تقدمت، وسؤال الصحابة النبي ﷺ، وفهمهم

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٨/٦١٨) عن ابن مردويه عن الكلبي، وهو ساقط.

العموم، حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان. فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها؟ إنما هي للكفار. فالصحابة فهموا العموم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول، فحديث لا يصح. والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟» قالا: الجوع، يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوما»، فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته. فلما رأته امرأته قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب ليستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بِعذْق فيه بُسْر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا. فأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا. فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيديه لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»(١).

فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب، وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله ﷺ، فهو متناول لمن بعدهم. وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين.

فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).

فقوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

□ □ □

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد، فخصوهم به.

وجواب هذا: أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان، على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان، كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] ونظائره كثيرة.

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع، والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك. ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمِنْ ربه، لا من نفسه. فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته، التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريداً للآخرة، مؤثِراً لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بد.

أما احتجاجهم بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار. فيقال:

الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخر، فهذا أمر يحصل لكل أحد، لم يكن حاصلاً له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يقتضي دخول النار، فضلاً عن التخليد فيها. وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها، ويشاهدونها عياناً، وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها.

وأما ما ذكروه عن الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. فباطل قطعاً، إما عليه وإما منه. والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده، وبالله التوفيق.

□ □ □

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها، وما تضمنته من تحذير الإنسان عن التكاثر الملهي، وانطباق معناه على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها. ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها، والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الراجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها، إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه، فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات.

وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتعين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا، على اختلاف أجناسها وأنواعها.

وأيضاً فإن التكاثر تفاعل، وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكاثر صاحبه. فيكون أكثر منه فيما يكاثره به. والحامل له على ذلك: توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم غِنى وإنما العزة للكاثر

□ □ □

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة، ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها. وكل من كاثر إنساناً في دنياه، أو جاهه، أو غير ذلك، أشغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة. فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليه نفعه، وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة، ويسابقها إليها. فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد.

وضده: تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم. فهذا تكاثر ملهٍ عن الله وعن الدار الآخرة. وهو جارٌّ إلى غاية القلة.

فعاقبة هذا التكاثر: قلٌّ وفقر وحرمان.

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله وبنعمِه، وعاقبتُه الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً، وأحسن منه عملاً، وأغزر منه علماً، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحوقه فيها كاثره بخصلة أخرى، وهو قادر

على المكاثرة بها. وليس هذا التكاثر مذموماً، ولا قادحاً في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة، واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﷺ في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره.

وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر ﵄، فلما تبين لعمر مدى سبق أبي بكر له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبداً.

□ □ □

ومن تأمل حسن موقع ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعاً لهم، وزجراً عن التكاثر، ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم، وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها؟ وفيم صرفوها؟

فللّه ما أعظمها من سورة، وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيراً، وأشدها ترغيباً في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا، على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها. فتبارك من تكلم بها حقاً، وبلغها رسوله عنه وحياً.

□ □ □

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار؟ فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة؟ ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر.

فهنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

قال محمد بن جرير[2]: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذين كنتم

(١) عدة الصابرين (١٨٣ ـ ١٩٤).
(٢) تفسير ابن جرير (٣٠/ ٢٨٥).

فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه».

والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه[1].

❁ ❁ ❁

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٨٤).

سُوْرَةُ العَصْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم.

وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربع في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوَّتيه العلمية والعملية؛ فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير[1].

□ □ □

ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضاً به ويرشده

(١) مفتاح دار السعادة (٦١).

إليه ويحضه عليه، وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب، فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، فينتكس في سيره ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت لها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقائه. ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها. والله المستعان[١].

□ □ □

وإنه سبحانه قسم نوع الإنسان فيها قسمين خاسراً ورابحاً؛ فالرابح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضاً. فتضمنت السورة النصيحتين، والتكميلتين، وغاية كمال القوتين: بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه، وأحسنه ديباجة وألطفه موقعاً.

أما النصيحتان: فنصيحة العبد نفسه، ونصيحته أخاه بالوصية بالحق والصبر عليه.

وأما التكميلان: فهو لتكميله نفسه، وتكميله أخاه.

وأما كمال القوتين: فإن النفس لها قوتان؛ قوة العلم والنظر وكمالها بالإيمان، وقوة الإرادة والحب والعلم وكمالها بالعمل الصالح، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر.

فصار هاهنا ستة أمور: ثلاثة يفعلها في نفسه، ويأمر بها غيره؛ تكميل قوته العلمية بالإيمان، والعملية بالأعمال الصالحة، والدوام على ذلك بالصبر عليه، وأمره لغيره. بهذه الثلاثة فيكون مؤتمراً بها متصفاً بها معلماً لها داعياً إليها، فهذا هو الرابح كل الربح، وما فاته من الربح بحسبه وحصل له نوع من الخسران، والله تعالى المستعان وعليه التكلان[٢].

□ □ □

(١) الجواب الكافي (١٣٥، ١٣٦).

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤٠٤).

وإقسامه ﷺ (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة.

والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته، وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح، وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم. قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات وما دونها، آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشراً، تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به. وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

□ □ □

وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾. ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]، ولم يقل: ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾، فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن

الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضاً على الأعيان، وقد تكون فرضاً على الكفاية، وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب. والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء، وهو سبحانه إنما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر وأنه ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[١]. فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

□ □ □

والصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع. وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي ﷺ في حق ابنته: «مرها فلتصبر ولتحتسب». وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى،

---

(١) رواه البخاري (١٣٢٣)، ومسلم (٩٤٥).

وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره، ومن قلَّ صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له، ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، والله المستعان[1].

❀ ❀ ❀

(١) التبيان في أقسام القرآن (٨٣ ـ ٨٨).

سُوْرَةُ الماعُونِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وليس السهو عنها تركها وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت، كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع.

والصواب: أنه يعم النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم الصلاة ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب أو عن إخلاصها وحضورها الواجب ولذلك وصفهم بالرياء ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦ ـ ٧].

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة: هو إعارة القِدر والدلو والفأس ونحوهما[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٧).

(٢) الطرق الحكمية (٢٨٠).

سُوْرَةُ الكَافِرُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

(ما) على بابها لأنها واقعة على معبوده ﷺ على الإطلاق؛ لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا جاهلين به. هذا جواب بعضهم.

وقال آخرون: إن (ما) هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي ويلزم من تبرئتهم من عبادته تبرئتهم من المعبود؛ لأن العبادة متعلقة به. وليس هذا بشيء. إذ المقصود: براءته من معبوديهم، وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى. فالمقصود المعبود لا العبادة.

وقيل: إنهم كانوا يقصدون مخالفته ﷺ حسداً له، وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون معبوده لا كراهية لذات المعبود، ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصاً على مخالفته في العبادة. وعلى هذا لا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ (ما) لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

وقيل في ذلك وجه رابع: وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، و﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فكذلك ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبودهم لا يعقل. ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فاستوى اللفظان، وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الأفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا «من» كقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ [يونس: ٣١]، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ [النمل: ٦٤] إلى أمثال ذلك.

وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا وهو: أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلاً للعبادة مستحقاً لها، فأتى بـ(ما) الدالة على هذا المعنى. كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي الموصوف بأنه المعبود الحق. ولو أتى بلفظ «من» لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفاً، لا أنه هو جهة العبادة.

ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلاً لأن يعبد، وبين أن يكون تعريفاً محضاً أو وصفاً مقتضياً لعبادته. فتأمله فإنه بديع جداً. وهذا معنى قول النحاة: إن «ما» تأتي لصفات من يعلم.

ونظيره: ﴿فَأَنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف، وأن السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح، وقصده ـ وهو الطيب ـ فتنكح المرأة الموصوفة به: أتي بـ«ما» دون «من»، وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية.

□ □ □

وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا، فلنذكر فائدة **ثانية**:[1] على ذلك، وهي: تكرير الأفعال في هذه السورة.

ثم فائدة **ثالثة**: وهي: كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين، وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائدة **رابعة**: وهي: أنه جاء في نفي عبادة معبودهم بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة **خامسة**: وهي: كون إيراده النفي هنا بـ«لا» دون «لن».

ثم فائدة **سادسة**: وهي: أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد. والنفي المحض ليس بتوحيد. وكذلك الإثبات بدون النفي. فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات، وهذا حقيقة (لا إله إلا الله).

فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض، وما سر ذلك؟.

وفائدة **سابعة**: وهي: ما حكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم ثم نفي عبادتهم عن معبودهم؟.

وفائدة **ثامنة**: وهي: أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا، والذين هادوا، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ [التحريم: ٧]،

---

(١) الفائدة الأولى مرَّ ذكرها في أول هذه الصفحة وهي قوله: «وعندي فيه وجه خامس أقرب. . . .».

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ٦]، ولم يجئ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟.

وفائدة **تاسعة**: وهي: أن في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ معنى زائد على النفي المتقدم، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور؟.

وفائدة **عاشرة**: وهي: تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة.

وفائدة **حادية عشرة**: وهي: أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار:

أحدهما: براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبداً.

الثاني: إخباره بأن له دينه ولهم دينهم.

فهل هذا متاركة وسكوت عنهم، فيدخله النسخ بالسيف، أو التخصيص ببعض الكفار، أم الآية باقية على عمومها وحكمها، غير منسوخة ولا مخصوصة؟.

فهذه عشر مسائل في هذه السورة. فقد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهي وقوع: «ما» فيها بدل (من).

فلنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله، مستعينين بحوله وقوته، متبرئين إليه من الخطأ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه.

□ □ □

فأما المسألة **الثانية**: وهي: فائدة تكرار الأفعال. فقيل فيها وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مقابله، أي: لا تفعلون ذلك. وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾، فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مقابله، أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائماً.

وعلى هذا فلا تكرار أصلاً، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضياً وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها. فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها، فعليك بها.

□ □ □

وأما المسألة **الثالثة**: وهي: تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم.

ففي ذلك سر، وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله لنبيه عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده، والاستبدال به غيره، وأن معبوده الحق واحد في الحال والمآل على الدوام، لا يرضى به بدلاً، ولا يبغي عنه حولاً، بخلاف الكافرين فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم. فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبوداً وغداً غيره. فقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يعني: الآن ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، أي: الآن أيضاً. ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يعني: ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون، وأشبهت (ما) هنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى، كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط، كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط، وقد عمل فيها الفعل، ولا جواب لها وهي موصولة، فما أبعد الشرط منها؟.

قلنا: لم نقل: إنها نفسها شرط، ولكن فيها رائحة منه، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين وإبهامها في المعبودات وعمومها، وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط بادياً على صفحاته. إذا قلت لرجل ما ـ تخالفه في كل ما يفعل ـ: أنا لا أفعل ما تفعل. ألست ترى معنى الشرط قائماً في كلامك وقصدك، وأن روح هذا الكلام: مهما فعلت من شيء فإني لا أفعله؟.

وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩]، كيف تجد معنى الشرطية فيه؟ حتى وقع الفعل بعد «من» بلفظ الماضي، والمراد به المستقبل، وأن المعنى: ما كان في المهد صبياً كيف نكلمه؟ وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين: أن «كان» نبياً، بمعنى: «يكون» لكنهم لم يأتوا إليه من بابه، بل ألقوه عطلاً من تقدير وتنزيل، وعزب فَهْم غيرهم عن هذا، للطفه ودقته. فقالوا: «كان» زائدة.

والوجه ما أخبرتك به، فخذه عفواً، لك غنمه، وعلى سواك غرمه. هل على[1].

(١) هكذا في المطبوع، وفي الهامش: «لعله استفهام إنكاري يعني: ليس غرمه إلا عليَّ» (١/ ١٣٦)، وهو بعيد كما ترى، وفي هامش التفسير القيم (٥٢٩)، لعل «هل عليَّ» زائدة، والصواب «فإن من» فتدبر، **قلت**: ولعله الأقرب، والله أعلم.

«من» في الآية قد عمل فيها الفعل وليس لها جواب، ومعنى الشرطية، قائم فيها فكذلك في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة كالزجاج وغيره.

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي من قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، بخلاف قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ لبعد (ما) فيها عن معنى الشرط، تنبيهاً من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه، وأن ينتقل في المعبودات تنقل الكافرين.

□ □ □

وأما المسألة الرابعة: وهي: أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل تارة، وباسم الفاعل أخرى.

فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة وهي: أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه في كل وقت. فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل في الثاني: أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلاً لي ولا وصفاً لي. فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي. وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتفٍ عنكم، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة، ولم يشرك معه فيها أحداً، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، أي: اعتزلتم معبوديهم، إلا الله، فإنكم لم تعتزلوه. وكذا قال المشركون عن معبوديهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهم كانوا يعبدون معه غيره، فلم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها.

فتأمل هذه النكتة البديعة، كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد لله، وأنه عبده المستقيم على عبادته، إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره، فليس عابداً لله، ولا عبداً له.

وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة، التي هي إحدى سورتي الإخلاص، التي تعدل ربع القرآن، كما جاء في بعض السنن. وهذا لا يفهمه كل أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده. فله الحمد والمنة.

□ □ □

وأما المسألة **الخامسة**: وهي: أن النفي في هذه السورة أتى بأداة «لا» دون «لن» فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفي بـ«لا» أبلغ منه بـ«لن»، وأنها أدل على دوام النفي وطوله من «لن» وأنها للطول والمد الذي في لفظها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن «لن» إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال، وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق، فالإتيان «بلا» متعين هنا، والله أعلم.

□ □ □

وأما المسألة **السادسة**: وهي: اشتمال هذه السورة على النفي المحض.

فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة البراءة من الشرك، كما جاء في وصفها: أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم: هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين، تحقيقاً للبراءة المطلوبة، وهذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحاً، فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ براءة محضة ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ إثبات أن له معبوداً يعبده وحده، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات، وطابقت قول إبراهيم إمام الحنفاء: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وطابقت قول الفئة الموحدة: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، فانتظمت حقيقة (لا إله إلا الله)، ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] في سنة الفجر وسنة المغرب.

فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح له إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص: ٣]، فيكون له أصل ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، فيكون له نظير. ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعاً ونظيراً. فهذا توحيد العلم والاعتقاد.

والثاني: توحيد القصد والإرادة وهو: ألا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود.

وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مشتملة على هذا التوحيد.

فانتظمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختتمه بهما في سنة المغرب، وفي السنن «أنه كان يوتر بهما»، فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار.

ومن هنا تخريج جواب المسألة **السابعة**: وهي: تقديم براءته من معبودهم، ثم أتبعها ببراءتهم من معبوده، فتأمله.

□ □ □

وأما المسألة **الثامنة**: وهي: إثباته هنا بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دون يا أيها الذين كفروا.

فسِرُّه ـ والله أعلم ـ إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفاً ثابتاً له لازماً لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضاً بريئاً من الله، فحقيق بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله، التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم، في غاية المناسبة، فكأنه يقول: كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لي دائماً أبداً، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار في مقابلة الكفر الثابت المستمر. وهذا واضح.

□ □ □

وأما المسألة **التاسعة**: وهي: ما هي الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾، وهل أفاد هذا معنىً زائداً على ما تقدم؟.

فيقال: في ذلك من الحكمة ـ والله أعلم ـ أن النفي الأول أفاد البراءة وأنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضاً لا يكونون عابدين لمعبوده، وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضاً فقال له: لا تدخل في حدي، ولا أدخل في حدك، لك أرضك، ولي أرضي.

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به لا نشرككم فيه، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب، رافلة في حللها، فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي، «خُود[1] تُزفُّ إلى ضرير مقعد»، فالحمد لله على مواهبه التي لا منتهى لها، ونسأله إتمام نعمته.

□ □ □

وأما المسألة **العاشرة**: وهي: تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص به على ما يختص بهم.

فهذا من أسرار الكلام، وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد أبرز النصيبين وميَّز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون، الذي لا أردأ منه ولا أدرن، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سماً وشفاءً، فرضي مقاسمه بالسم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك، ولي قسمي.

فتقدم ذكر قسمه هنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول: هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم وزعمت أنه أشرف القسمين، وأحقهما بالتقديم، فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم بهم، والنداء على سوء اختيارهم، وقبح ما رضوه لأنفسهم من الحسن والبيان، ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق. والفَطِن يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان.

ووجه ثانٍ، وهو: أن مقصود السورة براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني، مكملاً لبراءته ومحققاً لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة، ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقاً لهذا المعنى، أي: لا أشارككم في دينكم، ولا

(١) «الخودُ»: الحسنة الخلقة، الشابة، أو الناعمة، القاموس المحيط (٣٥٨)، طبعة الرسالة.

أوافقكم عليه، بل هو دين باطل تختصمون أنتم به ولا أشارككم فيه أبداً، فطابق آخر السورة أولها، فتأمل.

□ □ □

وأما المسألة **الحادية عشرة**: وهي: أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه. هل هو إقرار؟ فيكون منسوخاً، أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة، وقد غلط في السورة خلائق وظنوها منسوخة بآية السيف، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة، وعمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد الذي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه، وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم.

ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: هو منسوخ.

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم. فقالوا: هذا مخصوص بأهل الكتاب.

ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ من أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد في الإنكار عليهم، وعيب دينهم، وتقبيحه والنهي عنه، والتهديد والوعيد لهم كل وقت، وفي كل نادٍ، وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم، وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مُضياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل، إنما الآية اقتضت براءته المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل، فهو مختص بكم، لا نشارككم فيه، ولا أنتم تشاركوننا في ديننا الحق. وهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار؟ حتى يدعوا النسخ أو التخصيص؟

أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؟ بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

□ □ □

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع رسول الله ﷺ أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته، إذ قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا. لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذا براءة منهم ومن بدعتهم، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.

□ □ □

فهذا ما فتح الله العظيم به من هذا الكلمات اليسيرة، والنبذة المثيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها، ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استجلاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه.

والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، وبالغت في استحسانها، وعسى الله المان بفضله، الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين: أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب، وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن، بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته[1].

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٣٣ ـ ١٤٧).

سُوْرَةُ النَّصرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر: ١ ـ ٣].

قال عمر بن الخطاب للصحابة: ما تقولون فيها؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره. فقال لابن عباس: ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه. فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم(١).

وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه سبحانه لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو سبحانه من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب الاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه، ليلقى ربه طاهراً مطهراً من كل ذنب، فيقدم مسروراً راضياً مرضياً عنه. ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾.

إلى آخر سورة النصر.

وهو ﷺ كان يسبح بحمده دائماً، فعلم أن المأمور به من ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في الدين: أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقيةٌ، فأمره بتوفيتها.

ويدل عليه أيضاً أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج، وقيام الليل، وكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً،

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤).

وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين».

فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجاً، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها[1].

❁ ❁ ❁

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٣٦).

سُوْرَةُ المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ ـ ٥].

فسمَّاها امرأته بعقد النكاح الواقع في الشرك.

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] فسماها امرأته.

والصحابة ﷺ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتساباً لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجم الغفير في عهد النبي ﷺ، فلم يأمر أحداً منهم أن يجدد عقده على امرأته، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديد أنكحتهم.

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) أحكام أهل الذمة (١/٣٠٨، ٣٠٩).

سُورَةُ الإخْلَاصِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده فإذا قال العبد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة: ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال، بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد. فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان(١).

□ □ □

فسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، وغناه وأحديته ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير.

فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه. وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك، ولذلك كانت

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٢).

تعدل ثلث القرآن؛ فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه.

فأخلصت سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]: الشرك العملي الإرادي القصدي.

ولما كان العلم قبل العمل، وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازله؛ كانت سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مجمع التواتر، و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس ﵄ يرفعه: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»(١). رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد.

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس؛ لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه؛ لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته؛ لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه وضرره؛ لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه، فجاء من التأكيد والتكرار في سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجئ مثله في سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولما كان القرآن شطرين: شطراً في الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها، وشطراً في الآخرة وما يقع فيها.

وكانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ قد أُخلصتْ من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها، كانت تعدل نصف القرآن(٢).

❁ ❁ ❁

(١) مستدرك الحاكم (١/٥٦٦) وصححه، وخالفه الذهبي بقوله: «بل يمان ضعفوه».
(٢) زاد المعاد (١/٣١٦ ـ ٣١٨).

سُوْرَةُ الفَلَقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

* * *

[ما جاء في فضل المعوذتين]

روى مسلم في صحيحه من حديث قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم ترَ آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[(١)].

وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة: أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أخبرك بأفضل ما تعوَّذ به المتعوِّذون؟» قلت: بلى، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[(٢)].

وفي الترمذي: حدثنا قتيبة أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دُبر كل صلاة»[(٣)]. وقال: هذا حسن غريب.

وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود، عن عبد الله بن حبيب قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة، نطلب النبي ﷺ ليصلِّي لنا، فأدركناه، فقال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل»، قلت: يا رسول الله، ما

---

(١) رواه مسلم (٨١٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٢)، ولم أره عند الهيثمي، في التفسير (٧/ ١٤٨).

(٣) سنن الترمذي (٥/ ١٥٧) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في المعوذتين، وصححه الألباني، فانظره مفصلاً برقم (١٥١٤) الصحيحة.

أقول؟ قال: «قل: قل هو الله أحد والمعوذتين، حين تمسي وحين تصبح، ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء»(١). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي أيضاً: من حديث الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان. فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما»(٢). قال: وفي الباب عن أنس، وهذا حديث غريب.

وفي الصحيحين عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه نَفَثَ في كفيه بـ: قل هو الله أحد، والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به.

قلت: هكذا رواه يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. ذكره البخاري(٣).

ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها: أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنتُ أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده، رجاء بركتها. وكذلك قال معمر، عن الزهري، عن عروة عنها: أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثَقُل كنتُ أنا أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها. فسألت ابن شهاب: كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه(٤). ذكره البخاري أيضاً.

[النبي ﷺ لم يسترقِ]

وهذا هو الصواب: أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك. وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا، ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى، فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها النبي ﷺ: أنه كان يأمرها، وفرق بين الأمرين، ولا يلزم من كون النبي ﷺ قد أقرها على رقيته أن يكون هو

---

(١) رواه الترمذي (الصحيح) (٣/ ١٨٢) في الدعوات باب: رقم (٧)، والنسائي (٨/ ٢٥١) في الاستعاذة، وأبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٥٧) في أبواب النوم: ما يقول إذا أصبح.

(٢) في المطبوع من «أبي هريرة عن أبي سعيد. . .»، والصواب ما في السنن: «أبو نضرة عن أبي سعيد»، وهو ما أثبته، والحديث صحيح، رواه الترمذي (الصحيح) (٢/ ٢٠٦) في الطب، الرقية بالمعوذتين، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٦٦) في الطب، من استرقى من العين، والنسائي (٨/ ٢٥٤) في الاستعاذة.

(٣) رواه البخاري (٥٠١٧).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤٨، ٦٣١٩).

مسترقياً، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به: إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه. ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على بدنه، فكانت تفعل هذا وهذا. والذي أمرها به إنما هو نقل يده، لا رقيته، والله أعلم.

والمقصود: الكلام على هاتين السورتين، وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيراً خاصاً في دفع السحر والعين، وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النَّفَس والطعام والشراب واللباس. فنقول والله المستعان:

قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول وهي أصول الاستعاذة:

أحدها: نفس الاستعاذة.

والثانية: المستعاذ به.

والثالثة: والمستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين.

فنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل **الأول**: في الاستعاذة. **والثاني**: في المستعاذ به. **والثالث**: في المستعاذ منه.

* * *

الفصل الأول

«في معنى الاستعاذة»

[معنى الكلمة واشتقاقها]

اعلم أن لفظة «عاذ» وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه. ولهذا يسمى المستعاذ به: مَعاذاً، كما يسمى: ملجأً ووزراً.

وفي الحديث: أن ابنة الجَون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها، قالت: «أعوذ بالله منك». فقال لها: «لقد عُذْت بمَعاذ، الحقي بأهلك»[1].

(١) رواه البخاري (٥٢٥٤).

فمعنى «أعوذ» ألتجئ وأعتصم، وأتحرز.

وفي أصله قولان:

أحدهما: أنه مأخوذ من الستر.

والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة.

فأما من قال: إنه من الستر فقال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها: «عُوَّذ» بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها: سموه عُوَّذاً. فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه واستَجَنَّ به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة قال: العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلَّص منه: «عُوَّذ» لأنه اعتصم به، واستمسك به. فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به، واعتصم به، ولزمه.

والقولان حق. والاستعاذة تنتظمهما معاً. فإن المستعيذ مستتر بمعاذه، مستمسك به، معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً وقصده به، فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يُلقي نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، والتجأ إليه.

□ □ □

وبعد، فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات. وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه: أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا: التعبير عن معنى محبته وخشيته، وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الوصف والخبر، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنِّين لم تُخلق له شهوة أصلاً، فمهما قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به، لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت الشهوة فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق.

□ □ □

وأصل هذا الفعل: «أعْوُذ» بتسكين العين وضم الواو، ثم أُعِلَّ بنقل حركة الواو

إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب. ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائذ. وأصله: عاوذ، وقعت الواو بعد ألف فاعل، فقلبوها همزة، كما قالوا: قائم، وخائف. وقالوا في المصدر: عياذاً بالله وأصله: عواذاً كَلِواذٍ، فقلبوا الواو ياءً لكسرة ما قبلها، ولم تحصنها حركتها لأنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيذ. وأصله: مستعوذ، كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها، فلما كسرت العين قبلت قبلها كسرة، فقلبت ياءً على أصل الباب.

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل، كقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ولم تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وتعوَّذت، دون أستعيذ، واستعذت؟

قلت: السين والتاء دالة على الطِلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي: أطلب العياذ به. كما إذا قلت: أستخير الله، أي: أطلب خيرته وأستغفره، أي: أطلب مغفرته. وأستقيله، أي: أطلب إقالته. فدخلت في الفعل إيذاناً بطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور: أعوذ بالله، فقد امتثل ما طلب منه؛ لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام. وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام، وبين طلب ذلك. فلما كان المستعيذ هارباً ملتجئاً معتصماً بالله، أتى بالفعل الدال على ذلك، دون الفعل الدال على طلب ذلك، فتأمله.

وهذا بخلاف ما إذا قيل: استغفِرِ الله، فقال: أستغفرُ الله. فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله، فإذا قال: أستغفر الله، كان ممتثلاً؛ لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي.

وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة، فلا ضير أن يأتي بالسين والتاء، فيقول: أستعيذ بالله، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه.

فالأول: مخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه، كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني.

فحال الأول أكمل. ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر: «أعوذ بالله

من الشيطان الرجيم»[١]، و«أعوذ بكلمات الله التامات»[٢]، و«أعوذ بعزة الله وقدرته»[٣] دون: أستعيذ. بل الذي علمه الله إياه أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ دون أستعيذ، فتأمل هذه الحكمة البديعة.

□ □ □

[لماذا ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وليس ﴿أَعُوذُ﴾؟]

فإن قلت: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ومعلوم أنه إذا قيل: قل: الحمد لله. وقل: سبحان الله. فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل: سبحان الله.

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أُبيّ بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ، فقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان عن عاصم وعبدة، عن زِرِّ بن حُبيش قال: سألت أبيَّ بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ؟ فقال: «قيل لي، فقلت». فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ. ثم قال: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا عبدة بن أبي لبابة، عن زر بن حبيش، وحدثنا عاصم عن زر، قال: سألت أبيّ بن كعب، قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: كذا وكذا. فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال: «قيل لي، فقلت: قل». فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ[٤].

قلت: مفعول القول محذوف، وتقديره: قيل لي: قل، أو قيل لي هذا اللفظ، فقلت كما قيل لي.

وتحت هذا من السر: أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا إبلاغه، لا أنه هو

---

(١) قال العلامة الألباني «صحيح لكن بزيادتين يأتي ذكرهما، وأما بدونهما فلا أعلم فلا أصلاً»، الإرواء (٢/ ٥٣) حديث رقم (٣٤٢) فانظره: مفصلاً، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٢) في معنى «تفسير الاستعاذة وأحكامها».

(٢) رواه البخاري (٣٣٧١).

(٣) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد (٤/ ٢١٧) و(٦/ ٣٩٠)، وأبو داود (الصحيح) (٢/ ٧٣٦) في الطب، باب: كيف الرقى، والترمذي (٥/ ٥٣٥) في الدعوات، باب: الرقية إذا اشتكى، ورواه غيرهم.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٧٧).

أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله. وقد قال الله له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «قيل لي، فقلت»، أي: إني لست مبتدئاً، بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي، وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليّ.

فصلوات الله وسلامه عليه، لقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له. فكفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول: هذا القرآن العربي وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به. ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلّغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه، حتى إنه لما قيل له: «قل» قال هو: «قل» لأنه مبلّغ محض. وما على الرسول إلا البلاغ.

* * *

الفصل الثاني

في المستعاذ

وهو الله وحده، رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم، ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه: أن استعاذته زادته طغياناً ورَهَقاً. فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، جاء في التفسير: أنه «كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه؛ فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح»(١). أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أي: طغياناً وإثماً وشراً، يقولون: سُدنا الإنس والجن. و«الرهق» في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة على المعتزلة، في أن كلمات الله غير مخلوقة: بأن النبي ﷺ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٥)، تفسير الآية رقم (٦) من سورة الجن.

استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامَّات»(١)، وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبداً.

ونظير ذلك: قوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك»(٢). فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «أعوذ بعزة الله وقدرته»(٣). وقوله: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات». وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله، أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب، والملك، والإلٰه.

وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى الفَلَق، وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد قررنا في مواضع متعددة: أن الله سبحانه يُدعَى بأسمائه الحسنى، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه. وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: «إنه ما تعوَّذ المتعوذون بمثلهما»(٤)، فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه.

وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث. وهو الشيء المستعاذ منه. فتتبين المناسبة المذكورة فنقول:

الفصل الثالث

في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها. فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما، وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره، وهو الإنسان، أو ليس نظيره، وهو الجني. وغير المكلف: مثل الهوام

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧١). (٢) رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد (٤/ ٢١٧)، وأبو داود والترمذي.

(٤) رواه النسائي من حديث عقبة بن عامر (٨/ ٢٥١) في افتتاح كتاب الاستعاذة، وانظر: هامش (١ ـ ٣) أول السورة.

وذوات الحُمَة[1] وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عموماً.

الثاني: شر الغاسق إذا وقب.

الثالث: شر النفاثات في العقد.

الرابع: شر الحاسد إذا حسد.

فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها.

[بيان حقيقة الشر]

وقبل الكلام في ذلك لا بد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

فنقول: الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور: هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم: هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور: لأنها أسباب للآلام، ومفضية إليها، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها. فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها ولا بد، ما لم يمنع من السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان، وعظم الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب، فيدفع الأقوى الأضعف.

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة، كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

---

(١) بهامش الأصل «المطبوع» «والحُمَة» جمع حمة، وهو السم أو الإبرة التي تضرب بها الزنبور والحية، ونحو ذلك أو يلدغ بها. (٢/ ٢٠٤) من بدائع الفوائد.

والمقصود: أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم، إذا تناوله الآكل لذَّ لأكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده.

وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه: إنما هو مخالفة أمره، وعصيان رسله. وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه. فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس. ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

والمقصود: أن هذه الأسباب شرور ولا بد.

وأما كون مسبباتها شروراً: فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب. ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله. وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم، والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذٍ يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤]، و﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

[الآلام وأسبابها والاستعاذة من ذلك]

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها، كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين. فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع وأمر بالاستعاذة منهن وهي: «عذاب القبر، وعذاب النار»، فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»[(١)]، وهذان سبب العذاب المؤلم. فالفتنة سبب العذاب، وذكر الفتنة خصوصاً، وذكر نوعي الفتنة، لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت، ففتنة الحياة: قد يتراخى عنها العذاب مدة، وأما فتنة بعد الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ.

فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابهما.

وهذا من آكد أدعية الصلاة، حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير، وأوجبه ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدين وغلبة الرجال»[(٢)]، فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذِّباتها، والفرق بينهما: أن الهم توقع الشر في المستقبل، والحزن: هو التألم على حصول المكروه في الماضي، أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمي حزناً، وإن تعلق بالمستقبل سمي هَمّاً.

والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم. لأنهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة. والكسل يستلزم عدم إرادته. فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به، والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة، ولا تنال إلا

---

(١) رواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٥)، ومسلم (١٣٦٥).

بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه وبينها، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين، وقهر الرجال: قرينان، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها:

أحدهما: قهر بحق، وهو ضلع الدين، **والثاني**: قهر بباطل، وهو غلبة الرجال.

وأيضاً: فضلع الدين. قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

ومن ذلك تعوذه ﷺ: «من المأثم والمغرم»[(١)]، فإنهما يسببان الألم العاجل.

ومن ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك»[(٢)]، فالسخط: سبب الألم، والعقوبة: هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

[الشر المستعاذ منه نوعان]

والشر المستعاذ منه نوعان:

أحدهما: موجود، يطلب رفعه.

والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه.

والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله.

فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فهذا الطلب لدفع الشر الموجود. فإن الذنوب والسيئات شر، كما تقدم بيانه.

ثم قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه. ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو خزي يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩). (٢) رواه مسلم (٤٨٦).

فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب قُدم فيها النوعان اللذان في الدنيا، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

فإذا عرف هذا. فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»[1] يتناول الاستعاذة من شر النفس، الذي هو معدوم لكنه فيها بالقوة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد.

وأما قوله: «من سيئات أعمالنا» ففيه قولان:

أحدهما: إنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد، ومن الشر الموجود فطلب دفع الأول، ورفع الثاني.

والقول الثاني: إن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضاً دفع المسبب، والأول دفع السبب. فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه.

وعلى الأول: تكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها.

وعلى الثاني: تكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان محتملان.

فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعاً من الترجيح.

فيترجح الأول: بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس. فشر النفس يولّد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس، ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة. وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم، فمتى عوفي منهما عوفي من الشر بحذافيره.

ويترجح الثاني: بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها.

والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر.

□ □ □

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في النكاح (٦/ ١٥٣)، والترمذي كذلك (٣/ ٤١٣).

ولما كان الشر له سبب: هو مصدره، وله مورد ومنتهى، وكان السبب إما من ذات العبد، وإما من خارج. ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره، كان هنا أربعة أمور: شر مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى. وشر مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى؛ جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علَّمه الصدِّيق ﷺ أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: «اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشَرَكه، وأن أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم»[١]، فذكر مصدري الشر، وهما النفس والشيطان، وذكر مورديه ونهايتيه، وهما عوده على النفس، أو على أخيه المسلم. فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه.

* * *

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢].

فإذا عرف هذا، فلنتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين.

الشر الأول: العام في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، و«ما» هاهنا موصولة ليس إلا. والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما.

[الشر لا يدخل في صفاته تعالى]

فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى. فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلاً، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك.

وما يفعله من العدل بعباده، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم: هو خير محض،

(١) حديث صحيح رواه الترمذي (٥/ ٤٣٥) في الدعوات، باب: (١٤)، وأبو داود (١٣/ ٤٠٦) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح.

إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر.

ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال.

أحدهما: أن ما هو شر، أو متضمن للشر، فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً لا يكون وصفاً له، ولا فعلاً من أفعاله.

الثاني: أن كونه شراً هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان، هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقاً وتكويناً ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها، فضلاً عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله إلا لحاجته المنافية لغناه، أو لنقصه وعيبه المنافي لحمده، فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلاً، وإن كان هو الخالق للخير والشر.

فقد عرفت أن كونه شراً هو أمر إضافي، وهو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك باباً عظيماً من معرفة الرب ومحبته. ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

وقد بسطت هذا في كتاب «التحفة المكية» وكتاب «الفتح القدسي» وغيرهما، وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة:

أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضرِّ بهم. فهو محمود على حكمه بذلك، وأمره به مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه والمحبة له.

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم. فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟ أفليس في عقوبة هذا الصائل خير

محض، وحكمة وعدل، وإحسان إلى العبيد؟ وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي.

فالشر: ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة.

فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ويفتح لك الطريق إلى الله، ومعرفة حكمته ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وأنه سبحانه: كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمتُه رحمتَه. بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته.

لا تلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله: إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلاً، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بالرد على هذه المقالة، وإنكارها أشد الإنكار، وتنزيه الرب نفسه عنها، كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيء، ونزه نفسه عنه.

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة: أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلٰهيته، لا إلٰه إلا هو، تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان، ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار، واستهجنته أعظم الاستهجان.

وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم، فأكرمه غاية الإكرام، ورفعه وكرمه. فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا، وتشهد على سفه من فعله. هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة، وعزته وعدله في وضع عقوبته في

أولى المحال بها، وأحقها بالعقوبة؟ وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها، ولم تَلِقْ، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استقبحت على أقوام

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادين عن سبيله الساعين في خلاف مرضاته، الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره، والحكم لغيره، والطاعة لغيره، فهم مضادون له في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه ويبغضون ما يحبه وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله: كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعقاباً وجلالةً وتهديداً كيف صدره بإخبارنا: أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك، فطرده ولعنه وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني. وقد لعنته وطردته، إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدواً لكم ولأبيكم، فواليتموه وتركتموني، أفليس هذا من أعظم الغبن، وأشد الحسرة عليكم؟ ويوم القيامة يقول تعالى: «أليس عدلاً مني أن أولِّي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟».

فليعلمن أولياء الشيطان: كيف حالهم يوم القيامة: إذا ذهبوا مع أوليائهم، وبقي أولياء الرحمٰن لم يذهبوا مع أحد حتى يتجلى لهم ويقول: «ألا تذهبون حيث ذهب الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، إنه لا مثل له، فيتجلى لهم ويكشف عن ساق، فيخرون له سجداً».

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة، ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم، وبقوا مع مولاهم الحق. فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياؤه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ولا تستطل هذا البسط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله، ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

□ □ □

[معنى: «والشر ليس إليك»]

إذا عرفت هذا عرفت معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك»، وأن معناه أجلّ وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك، وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه - وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه - فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر. بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه. وإن دخل في مخلوقاته كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به. كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر هاهنا عُشر معاشره. وإنما المقصود التمثيل.

وتارة بحذف فاعله. كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، والضلال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله.

ومثله قول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، ومثله قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فنسب هذا التزيين المحبوب إليه. وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]، فحذف الفاعل المزين، ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة.

وهذا كثير في القرآن ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب «الفوائد المكية»، وبينَّا هناك السر في مجيء ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١]، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٠١] والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعاً في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعاً في سياق الذم أو منقسماً، وذلك من أسرار القرآن.

ومثله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وبالجملة: فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

[عموم ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾]

وقد دخل في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان، أو غيره، إنسياً كان أو جنياً، أو هامة أو دابة أو ريحاً، أو صاعقة، أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل في «ما» هاهنا عموم؟

قلت: فيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه. وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق: تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام، وشر النار والهواء، وغير ذلك.

وفي الصحيح: عن النبي ﷺ قال: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرتحل منه»[1] رواه مسلم. وروى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك وشر ما خلق فيك، وشر ما يَدُبُّ عليك، أعوذ بالله من أَسَد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

ساكن البلد، ومن والد وما ولد»[١].

وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وَقَب. فهذا خاص بعد عام. وقد قال أكثر المفسرين: إنه الليل.

[معنى «غاسق» و«وقب»]

قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق، ودخل في كل شيء وأظلم والغسق: الظلمة. يقال: غسق الليل، وأغسق: إذا أظلم. ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وكذلك قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. وقال مقاتل: يعني: ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار.

وفي تسمية الليل غاسقاً قول آخر: إنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد. وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]،

---

(١) سنن أبي داود (٧/ ٢٦٣) في الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا نزل المنزل، ورواه الإمام أحمد (الصحيح) (٢/ ١٣٢)، وابن خزيمة (٤/ ١٥٢، ١٥٣)، وضعف إسناده الألباني من أجل الزبير بن الوليد، ومع هذا صححه الحاكم، ووافقه الذهبي (٢/ ١٠٠)، وقال الحافظ ابن حجر: «حسن أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد»، الفتوحات الربانية، لابن علان (٤/ ١٦٤).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤١٩) من حديث «عبد الرحمٰن بن خَنْبَش» ﷺ، وهو صحابي وكان شيخاً كبيراً. الإصابة (٦/ ٢٧٥)، ورواه البيهقي في الدلائل (٧/ ٩٥)، وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٢٤٣، ٢٤٤) برقم (١٣٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٣٧) رقم (٦٨٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٧): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بنحوه... ورجال أحد إسنادي أحمد، وأبي يعلى وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح»، وقد رُوي عن خالد بن الوليد ﷺ، كما في مجمع الزوائد، وفي الموطأ (٢/ ٩٥٠، ٩٥١) عن يحيى بن سعيد مرسلاً.

وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها، وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده.

ولا تنافي بين القولين: فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط: اقتصر على أحد وصفيه.

والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة. فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح والنور: من شر الغاسق، الذي هو الظلمة. فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن الرحمٰن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا. فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»(١). قال الترمذي: هذا حسن صحيح، وهذا أولى من كل تفسير. فيتعين المصير إليه؟

قيل: هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد لصحته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقمر هو آية الليل، وسلطانه فيه. فهو أيضاً غاسق إذا وقب، كما أن الليل غاسق إذا وقب، والنبي ﷺ أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب. وهذا خبر صدق. وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب. وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

ونظير هذا: قوله في المسجد الذي أسس على التقوى ـ وقد سئل عنه ـ فقال: «هو مسجدي هذا»(٢)، ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسساً على التقوى مثل ذاك.

ونظيره أيضاً: قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ أجمعين: «اللهم

(١) سنن الترمذي (٥/ ٤٢١، ٤٢٢) في التفسير، باب: ومن سورة المعوذتين، ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ في مواضع منها (٦/ ٦١)، والنسائي في تفسير (٢/ ٦٢٣)، والحاكم (٢/ ٥٤٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٨/ ٦١٣) عند تفسير سورة الفلق، وهو في الصحيحة برقم (٣٧٢).

(٢) رواه مسلم (١٣٩٨).

هؤلاء أهل بيتي»[1]، فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته.

ونظير هذا: قوله: «ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً، ولا يُفطن له فيتَصدَّق عليه»[2]، وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطوَّاف، بل ينفي اختصاص الاسم به، وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له.

ونظير هذا: قوله: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»[3]. فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى.

ونظيره: الغسق، والوقوب، وأمثال ذلك.

فكذلك قوله في القمر: «هذا هو الغاسق إذا وقب»، لا ينفي أن يكون الليل غاسقاً، بل كلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن المراد به القمر إذا خسف واسْوَدَّ. وقوله: ﴿وَقَبَ﴾ أي: دخل في الخسوف، أو غاب خسافاً؟

قيل: هذا القول ضعيف، ولا نعلم به سلفاً، والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر، وقال: «هذا الغاسق إذا وقب». لم يكن خاسفاً إذ ذاك. وإنما كان مستنيراً، ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة. وإنما قالت: نظر إلى القمر، وقال: «هذا هو الغاسق»، ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه. فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها، لما فيه من التلبيس.

---

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذي في التفسير (٥/ ٣٢٧) سورة آل عمران، وفي المناقب (٥/ ٦٢١) مناقب أهل البيت، وقال: غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة، ورواه الحاكم (٢/ ٤١٦) من حديث أم سلمة ﵂ وصححه، ورواه أيضاً (٣/ ١٥٠) من حديث عامر بن سعد عن أبيه، وصححه ووافقه الذهبي، وحديث عامر هذا عند مسلم (٥/ ٢٦٨) في الفضائل، باب من فضائل علي ﵁، بلفظ: «اللهم هؤلاء أهلي»، وانظر: الطبراني (٣/ ٥٤) و(٢٢/ ٦٥) و(٢٣/ ٢٨١)، ومجمع الزوائد (٩/ ١٦٢)، والدر المنثور (٦/ ٦٠٤)، وراجع: تفسير الآية رقم (٣٣) من سورة الأحزاب عند الطبري وابن كثير.

(٢) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

وأيضاً: فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلم أحداً قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه.

وأيضاً: فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول، من قولهم: وقبت العين: إذا غارت، ورُكية وَقْباء: غار ماؤها، فدخل في أعماق التراب، ومنه الوَقْب للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وَقَب يَقِب وُقوباً إذا دخل.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها؟

قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل. وإن أراد: أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما: فهذا يحتمل أن يدخل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه. وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

□ □ □

[سبب الاستعاذة من الليل]

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة. وفيه تنتشر الشياطين. وفي الصحيح: أن النبي ﷺ أخبر: «إن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين»[(١)]، ولهذا قال: «فاكفِتوا صبيانكم، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فَحْمة العشاء»، وفي حديث آخر: «فإن الله يبث من خلقه ما يشاء».

والليل: هو محل الظلام. وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل الظلمة.

وروي أن سائلاً سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظلماء حِنْدِس. وسئل النبي ﷺ: كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار»، فاستدل بهذا على نبوته، وأن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان.

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٦/ ٣٨٧)، في بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، ومسلم (٤/ ٧٩٧) في الأشربة، باب: استحباب تغطية الإناء، وانظر: جامع الأصول (١١/ ٧٥٧).

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم: هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها، وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

□ □ □

[سر الاستعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾]

ومن هنا: تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع.

فإن الفلق: هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سِرْب أو كِنٍّ أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها. فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها، وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

فالإيمان كله نور، ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة، ومآله إلى الظلمات ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة.

فتأمل الاستعاذة بالفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها ونَزِّل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان، من أعظم أعلام النبوة، وبراهين

صدق رسالة محمد ﷺ، ومضادته لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون. فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرون عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قَصَّر المتكلمون غاية التقصير في دفعها، وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شَفَى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم، ولا إلى أصولي، ولا إلى نَظَّار. فله الحمد والمنّة، لا نُحصي ثناء عليه.

□ □ □

واعلم أن الخلق كله فلق. وذلك أن «فلقاً» فَعَل بمعنى مفعول، كقَبَض وسَلَب، وقنص: بمعنى: مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله ﷻ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنَّة، والظلام عن الإصباح. ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقاً وفَرَقاً. يقال: هو أبيض من فَرَق الصبح وفلقه.

وكما أن في خلقه فلقاً وفَرَقاً. فكذلك أمره كله فُرقان، يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمي كتابه: «الفرقان» ونَصْره فرقاناً، لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه. ومنه فَلْقه البحر لموسى، وسماه فلقاً.

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع. وظهر بهذا إعجاز القرآن، وعظمته وجلالته، وأن العباد لا يقدرون قدره، وأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

الشر الثالث: شر النَّفاثات في العُقد.

[معنى ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾]

وهذا الشر هو شر السحر. فإن النفاثات في العُقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر، والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التَّفْل، وهو مرتبة بينهما.

والنفث: فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفَسَ ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك. وقد تَساعَد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور؛ فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي.

فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو أن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي ﷺ.

هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا بسديد. فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم، لا بناته، كما جاء في الصحيح(١).

والجواب المحقق: أن النفاثات هنا: هنا الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة وسلطانه إنما يظهر منها. فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير، والله أعلم.

[هل سُحِرَ النبي ﷺ؟]

ففي الصحيح: عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن النبي ﷺ طُبَّ، حتى إنه ليُخيَّل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه، وإنه دعا ربه، ثم قال: «أشَعُرتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه»؟ فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعَ الرجل؟ قال الآخر: مطبوب. قال: من طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال في ماذا؟ قال: في مِشط ومِشاطة، وجَفِّ طَلْع ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذَرْوان، بئر في بني زُريق». قالت عائشة: ﵂ فأتاها رسول الله ﷺ، ثم رجع إلى عائشة فقال: «والله لكأن ماءها نُقاعة الحنَّاء، ولكأن نخْلَها رؤوس الشياطين». قالت: فقلت له: يا رسول الله، هلَّا أخرجته؟ قال: «أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن

---

(١) انظر: الحديث الآتي.

أثير على الناس شراً». فأمر بها، فدُفنت. قال البخاري: وقال الليث، وابن عيينة عن هشام: «في مِشْط ومِشاقة»[(١)].

ويقال: إن المشاطة: ما يخرج من الشعر إذا مُشِط، والمشاقة: من مشاقة الكتان.

قلت: هكذا في هذه الرواية: أنه لم يخرجه، اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه.

وقد روى البخاري من حديث ابن عيينة قال: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة. فسألت هشاماً عنه، فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سُحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر، إذا كان كذا. فقال: «يا عائشة، أعلمتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق حليف ليهود. وكان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال: في جَفِّ طَلْع ذكر، تحت راعوفَة في بئر ذَروان. قال: فأتى البئر حتى استخرجه. فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأنَّ ماءها نُقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج». قالت: فقلت: أفلا ـ أي: تَنَشَّرت ـ؟ قال: «أمَّا الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[(٢)].

ففي هذا الحديث: أنه استخرجه. وترجم البخاري عليه: باب: هل يُستخرج السحر؟ وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيّب: رجل به طَبٌّ، ويؤخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه وَيُنْشَر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح. فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما. فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه: الأول فيه: أنه لم يستخرجه. وحديث ابن جريج عن هشام فيه: أنه استخرجه. ولا تنافي بينهما، فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه، ثم دفنه بعد أن شفي. وقول عائشة: هلا استخرجته؟ أي: هلا أخرجته للناس حتى يروه

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٦٥).

ويعاينوه؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر. وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدُفنت، ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة.

والذي يدل عليه: أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ولم يجئ لينظر إليها ثم ينصرف، إذ لا غرض له في ذلك، والله أعلم.

□ □ □

[مناقشة الذين أنكروا ذلك]

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقًّى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته. وقد اعتاصَ على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب، وصنف بعضهم فيه مصنفاً مفرداً، حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال: غلط، واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء. قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يُسْحَر، فإنه يكون تصديقاً لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، وكما قال قوم صالح له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وكما قال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا. فإن ذلك ينافي حماية الله لهم، وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم؛ فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة. وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء. وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم قال: سحر النبيَّ ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً. قال: فأتاه جبريل، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقدَ لذلك عقداً، فأرسل

رسول الله ﷺ علياً، فاستخرجها، فجاء بها، فجعل كُلَّما حلَّ عقدة وجد لذلك خِفَّة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نَشِط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط[١]. وقال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ، فدنت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مِشاطة رأس النبي ﷺ، وعِدَّة أسنان من مشطه. فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وتولَّى ذلك لبيد بن الأعصم، رجل من اليهود. فنزلت هاتان السورتان فيه[٢].

قال البغوي: وقيل: كانت مغروزة بالأبر. فأنزل الله ﷻ هاتين السورتين. وهما إحدى عشرة آية: سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال[٣]. قال: وروي أنه لبث فيه ستة أشهر[٤]، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان.

[مناقشة القائلين: إن السحر مرض]

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء، فقد أغمي عليه ﷺ في مرضه[٥]، ووقع حين انفكَّت قدمه وجُحِش شِقّه[٦]، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته، ونيل كرامته. وأشد الناس بلاء الأنبياء، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به: من القتل، والضرب، والشتم، والحبس. فليس ببدْع أن يُبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلي بالذي رماه فشَجَّه. وابتلي بالذي ألقى على ظهره السَّلا وهو ساجد، وغير

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٨٧، ٣٨٨)، وهو في المسند للإمام أحمد (٤/ ٣٦٧)، وفيها «يزيد بن حيان»، وتفسير البغوي (٧/ ٣٢٣)، ووقع في «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢٤) «يزيد بن حباب» وهو خطأ، والصواب ما أثبته، وهو في التهذيب (١١/ ٣٢١)، وثقات ابن حبان (٥/ ٥٣٦).

(٢) (٣) تفسير البغوي (٧/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح (١٠/ ٢٣٧): «قال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها السحر حتى ظفرت به في «جامع معمر» عن الزهري: أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصلاً بإسناد الصحيح فهو المعتمد». اهـ.

(٥) رواه البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).

(٦) رواه البخاري (٦٨٩)، «جُحش» وهو بجيم مضمومة ثم حاء مهملة مكسورة أي: خدش.

ذلك، فلا نقص عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم، وعلوّ درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال: «نعم». فقال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[1]. فعوَّذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد، لما اشتكى، فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته ﷺ، وإلا فلا يعوذه من شيءٍ وشكايته من غيره.

وقالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها فلا حجة لكم فيها.

أما قوله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، وقول قوم صالح وشعيب لهما: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣، ١٨٥]، فقيل: المراد به من له سَحْر، وهي الرِّئة، أي: إنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، وليس المراد به السحر.

وهذا جواب غير مرضٍ، وهو في غاية البعد، فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات. وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر، فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، و﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، و﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السَّحْر، وهي الرئة. وأيُّ مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]؟ أفتراه ما علم أن له سَحْراً، وأنه بشر؟

ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولو أراد بالمسحور: أنه بشر لصدَّقه موسى، وقال: نعم، أنا بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١] ولم ينكروا ذلك.

فهذا الجواب في غاية الضعف.

وأجابت طائفة، منهم ابن جرير[2] وغيره: بأن المسحور هنا هو معلَّم السحر الذي قد علمه إياه غيره، فالمسحور عنده، بمعنى: ساحر، أي: عالم بالسحر.

---

(١) صحيح مسلم (٢١٨٦).
(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

وهذا جيدٌ إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من عُلِّم السحر يقال له: مسحور. ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال، ولا في اللغة. وإنما المسحور من سَحَره غيره، كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه. وأما من عُلِّم السحر فإنه يقال له: ساحر، بمعنى: أنه عالم بالسحر، وإن لم يسحر غيره. كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ففرعون قذفه بكونه مسحوراً، وقومه قذفوه بكونه ساحراً.

فالصواب: هو الجواب الثالث. وهو جواب صاحب الكشاف[1] وغيره: أن «المسحور» على بابه. وهو من سُحر حتى جُنَّ. فقالوا: مسحور، مثل مجنون أي: زائل العقل، لا يعقل ما يقول. فإن المسحور الذي لا يُتَّبع: هو الذي فسد عقله، بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون. ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتِّباعه. وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يُحذِّرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سُحروا، حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون، بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨] مَثَّلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال مَنْ يطلب في تِيهه وتَحيُّره طريقاً يسلكه، فلا يقدر عليه، فإنه أيَّ طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة. فهو متحير في أمره، لا يهتدي سبيلاً، ولا يقدر على سلوكها. فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه، حتى ضربوا له أمثالاً، بَرَّأه الله منها، وهو أبعد والله عنها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم. فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسّوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أُعدَّ لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم، فيجعل تطهير الأرض منهم. فهذا من بعض حكمته تعالى

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٧).

في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم. وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة لا إلٰه غيره، ولا رب سواه.

□ □ □

[الرد على من أنكر تأثير السحر]

وقد دلّ قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر، وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم.

وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض، ولا قتل، ولا حل، ولا عقد.

قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك.

وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث. وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وَعَقْداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار ـ موجود، تعرفه عامة الناس. وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه، وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه. ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً، كما يقوله هؤلاء، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

وأيضاً فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أن هذا تغيير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟ وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركاً، والمتصل منفصلاً، والميت حياً، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه، حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً، والبغيض محبوباً، وغير ذلك من التأثيرات. وقد قال تعالى عن سَحَرة فرعون إنهم: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فبين سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استغاثت بأرواح حركتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها. وهذا كما إذا جَرَّ من لا تراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر، ولا ترى الجار

له، مع أنه هو الذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقليب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين، هم الذين يقلبونها. وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي، حتى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها. ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا؛ فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه، حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به. وتارة يتصرف في المرئي باستغاثته بالأرواح الشيطانية، حتى يتصرف فيها.

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجبت حركتها ومشيها، مثل الزئبق وغيره، حتى سَعْت. فهذا باطل من وجوه كثيرة. فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً، بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس، ولا يسمى ذلك سحراً، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ولو كانت تحركت بنوع حيلة ـ كما يقوله المنكرون ـ لم يكن هذا من السحر في شيء ومثل هذا لا يخفى.

وأيضاً لو كان ذلك بحيلة ـ كما قال هؤلاء ـ لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزيبق، وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها.

وأيضاً: فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها حذاق الصناع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة، وخضوعه لهم، ووعدهم بالتقريب والجزاء.

وأيضاً: فإنه لا يقال في ذلك: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩] فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها.

وبالجملة: فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده. فنرجع إلى المقصود.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد، وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود. فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولسانه، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فحقق الشر منه عند صدور الحسد. والقرآن ليس فيه لفظة مهملة.

[تأثير الحسد]

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً، إلا إذا قام به الحسد، كالضارب، والشاتم، والقاتل ونحو ذلك ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد، وهو غافل عن المحسود، لاهٍ عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذي المحسود بمجرد ذلك. فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقد تقدم[(١)] في حديث أبي سعيد الصحيح: رقية جبريل النبي ﷺ وفيها: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك». فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد.

ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها، إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره، لم يؤثر فيه شيئاً، وإنما إذا نظر إليه نظر مَنْ قد تَكَيَّفَت نفسُه الخبيثة وانسمَّت، واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة، أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه، وقوة نفس الحاسد. فربما أعطبه وأهلكه، بمنزلة من فَوَّق سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلاً. وربما صرعه وأمرضه. والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر.

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة. وهي في ذلك بمنزلة الحيَّة التي إنما يؤثر سمها إذا عضَّت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث، فتحدث فيها تلك الكيفية السمَّ، فتؤثر في اللديغ. وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة، فتطمس البصر، وتُسقط الحبل، كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر، وذي الطُّفيتين منها، فقال: «اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر، ويسقطان الحبل»[(٢)]. فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية، وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها؟ فلله كم من

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٦).

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣).

قتيل؟ وكم من سليب؟ وكم من معافى عاد مضنًى على فراشه، يقول طبيبه: لا أعلم داءه ما هو؟ فصَدَق. ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها، وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع، وانفعال الأجسام عنها.

وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه. وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى؟ وهل الانفعال والتأثر، وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة، والآثار الغريبة إلا من الأرواح، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع؟ فالصنعة في الحقيقة له، والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع.

ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها. وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، خالق الأسباب والمسببات، رأى عجائب في الكون، وآيات دالة على وحدانية الله، وعظمة ربوبيته، وأن ثم عالماً آخر تجري عليه أحكام أخر، تشهد آثارها، وأسبابها غيبٌ عن الأبصار.

فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع، وأحسن كل شيء خلقه.

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع، وعجائبه أبهر، وآياته أعجب.

وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم؟ فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل، وتلك الصنائع الغريبة، وتلك الأفعال العجيبة، وتلك الأفكار والتدبيرات؛ كيف ذهبت كلها مع الروح، وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟ وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك، أو يعاديك، ويخفُّ عليك أو يثقل، ويؤنسك أو يوحشك إلا ذلك الأمر الذي هو وراء الهيكل المشاهَد بالبصر؟

فرب رجل عظيم الهيولَى كبير الجثة، خفيف على قلبك، حلو عندك وآخر لطيف الخلقة، صغير الجثة، أثقل على قلبك من جبل. وما ذاك إلا للطافة روح ذلك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها.

وبالجملة: فالعُلَق والوُصَل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد: إنما هي للأرواح أصلاً والأشباح تبعاً.

□ □ □

[الحاسد كالعائن]

والعاين والحاسد يشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه، وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن: تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته.

والحاسد: يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً.

ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده، من جماد أو حيوان، أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه. وربما أصابت عينه نفسه. فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية: تؤثر في المعين.

وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]: إنه الإصابة بالعين. أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ[١]. فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حجته. وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيَعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المِكْتَل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع، فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه، فتمر به الإبل، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه. فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيبَ رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره فعصم الله رسوله وحفظه، وأنزل عليه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾، هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى، منهم ابن قتيبة[٢]: ليس المراد: أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يُسقطك. قال الزجاج: يعني: من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يَصْرعوك. وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليَّ نظراً كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى، أنه قرن هذا بالنظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أَشَدَّ الكراهية، فيُحِدُّون إليه النظر بالبغضاء.

---

(١) ذكر ذلك البغوي في تفسيره، دون سند (٧/ ١٤٠، ١٤١)، والواحدي في أسباب النزول (٣٢٨)، وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٤٦).

(٢) تفسير غريب القرآن (٤٨٢).

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور: قد يكون سببه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة. فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قُبُلاً اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يُحَمُّ، ومنهم من يحمل إلى بيته. وقد شاهد الناس من ذلك كثيراً.

وقد يكون سببه الإعجاب. وهو الذي يسمونه: بإصابة العين. وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في العين. وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين: فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق: عن معمر، عن هشام بن قتيبة، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق». ونهى عن الوَشم(١).

وروى سفيان عن عمرو بن دينار، عن عروة، عن عامر، عن عبيد بن رفاعة: أن أسماء بنت عُميس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفَنسْتَرقي لهم؟ قال: «نعم. فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»(٢).

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة. فهو نظر يكاد يزلقه لولا حفظ الله وعصمته. فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن، فمن قال: إنه من الإصابة بالعين أراد: هذا المعنى، ومن قال: ليس به، أراد: أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب. فالقرآن حق.

وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد: أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان(٣). فلولا أن العين شر، لم يتعوذ منها.

---

(١) رواه الإمام البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧).

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦/ ٤٣٨)، والترمذي (٤/ ٣٤٦) في الطب، باب: ما جاء في الرقية من العين، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٦٥) في الطب، باب: من استرقى من العين، وانظر: الصحيحة رقم (١٢٥٢)، وروى مسلم (٥/ ٤٦) في السلام، باب: استحباب الرقية، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأسماء بنت عميس: «ما لي أرى أجسام بني أخي ضارعة تصيبهم الحاجة، قالت: لا ولكن العين تسرع إليهم، قال: ارقيهم...».

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٣٤٥) في الطب، باب: ما جاء في الرقية بالمعوذتين، وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٦٦) في الطب، باب: من استرقى من العين، وصحح إسناده الألباني في المشكاة رقم (٤٥٦٣).

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير: حدثني حابس بن التميمي، حدثني أبي: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام. والعين حق»(١).

وفيه أيضاً من حديث وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتم فاغسلوا»(٢). وفي الباب عن عبد الله بن عمرو. وهذا حديث صحيح.

والمقصود: أن العائن حاسد خاص. وهو أضر من الحاسد. ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائناً، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن. وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

□ □ □

[أصل الحسد]

وأصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمني زوالها.

فالحاسد عدو النعم. وهذا الشر هو من نفسه وطبعها، ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها. بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية. فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن. فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن، وهو الوسوسة في القلب. فذكره في السورة الأخرى، كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله. فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه. ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه. ولهذا

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٣٤٧) في الطب، باب: ما جاء في أن العين حق، ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٧٠ و٣٧٩)، وأبو يعلى (٣/ ١٥٥)، وضعفه الألباني، ضعيف الجامع (٦٣٠٩)، وانظر: الإصابة لابن حجر (٢/ ١٤٤) لزاماً.

(٢) رواه مسلم (٢١٨٨).

يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقترن بها الأفعال، والعزم الجازم، لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة.

□ □ □

[اقتران الحسد والسحر]

وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة، ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم: فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم. وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها، وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر، وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ـ وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما ـ في موضع(١) غير هذا.

إذ المقصود: الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما ويصاحبهما، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من

---

(١) الجار والمجرور، خبر قوله: «والكلام على أسرار هذه الآية».

أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس، وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسداً. فالحاسد من جند إبليس. وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبده من دون الله، حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده والمؤمنين، كان سحره أقوى وأنفذ. وكان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام. وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأ عن كعب قال: كلمات أحفظهن من التوراة، لولاها لجعلتني يهود حماراً: أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظَم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق، وذرأ وبرأ[١].

والمقصود: أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمر بموجبه. والساحر بعلمه، وكسبه، وشركه، واستعانته بالشياطين.

[الحاسد من الجن والإنس]

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

يعم الحاسد من الجن والإنس. فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. كما حسد إبليس أبانا آدم، وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس. والوسواس يعمهما، كما سيأتي بيانهما، والحسد يعمهما أيضاً. فكلا الشيطانين حاسد موسوس.. فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم.

---

(١) موطأ مالك (٢/ ٩٥١) في الشعر، باب: ما يؤمر به من التعوذ، وكعب هنا هو «كعب الأحبار».

وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها: شراً عاماً، وهو شر ما خلق. وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان.

□ □ □

[استعانة الحاسد والساحر بالشيطان]

ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضاً. لأنهما من شر النفس الشريرة. وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده، وهو الساحر. وقَلَّما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصد به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق.

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان، فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه. فمن سجد لمخلوق، وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة، كما أقبِّلها بالنعم، أو هذا إكرام: لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله. فليسمه بما يشاء.

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب، فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخداماً. وصدق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة؛ فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود: أن هذا عبادة منه للشيطان، وإنما سماه استخداماً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين. وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة. ولبئس المولى، ولبئس العشير. فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان، وإن لم يستعن هو به، وهو الحاسد. لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله، ومنغصها على عباده.

[مراتب الحسد]

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون

عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله. فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك لإخوة يوسف.

لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياء منه، وإجلالاً له. أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاه: من الأذى بالقلب، واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمني الزوال.

وللحسد ثلاث مراتب: إحداها هذه.

والثانية: تمني استصحاب عدم النعمة. فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه. فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب. فهذا حسد على شيء مقدر. والأول حسد على شيء محقق. وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله تعالى، وعند الناس. ولا يسود أبداً، ولا يواسَى، فإن الناس لا يُسوِّدون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يُسَوِّدونه باختيارهم أبداً، إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

□ □ □

[حسد الغبطة]

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه. فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، وسلطه على هَلَكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة. فهو يقضي بها ويعلمها الناس»[١]. فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كِبَر نفسه، وحب خصال

(١) رواه البخاري (٧٣)، ورواه مسلم (٨١٦).

الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سُبَّاقهم وعِلْيتهم ومُصَلّيهم، لا من فساكلهم[1]، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة، مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه. فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما.

□ □ □

[أكبر أدوية الحسد]

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد. فإنها تتضمن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة. فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ، أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني. وهو حَسْب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير. وهو نعم المولى ونعم النصير. فمن تولاه واستنصر به، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر. وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره. وقد جعل الله لكل شيء قدراً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر. ومن لم يَخَفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ١٠٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكْفِكم إياهم.

□ □ □

[ما يدفع به شر الحسد]

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجأ إليه. وهو المقصود بهذه

---

(١) الفسكل...: الذي يجيء في آخر الحلبة آخر الخيل، لسان العرب.

السورة. والله تعالى سميع لاستعاذته، عليم بما يستعيذ منه، والسمع هنا المراد به: سمع الإجابة، لا السمع العام. فهو مثل قوله: «سمع الله لمن حمده»، وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومرة يقرنه بالعلم، ومرة بالبصر؛ لاقتضاء حال المستعيذ ذلك. فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره. فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي: مجيب، عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره، ليتبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن؛ كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذين علم وجوده ولا نراه بلفظ «السميع العليم» في الأعراف وحم السجدة، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنَسون ويُرون بالأبصار بلفظ «السميع البصير» في سورة حم المؤمن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]؛ لأن أفعال هؤلاء أفعال معايَنَة تُرى بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس، وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرى بالبصر، ويُدرك بالرؤية، والله أعلم.

السبب الثاني: تقوى الله، وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولَّى الله حفظه، ولم يَكِلْه إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك». فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ ومن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر. فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه. ولو رأى المبغي عليه ذلك لسَرَّه بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله. وقد قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الحج: ٦٠]. فإذا كان الله قد ضمن له النصر، مع أنه قد استوفى حقه أولاً، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بُغي عليه وهو صابر؟

وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دَكّاً.

السبب الرابع: التوكل على الله. فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم. وهو من أقوى الأسباب في ذلك. فإن الله حسبه، أي: كافيه. ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد، والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً.

وفرق بين الأذى الذي هو في ظاهره إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن، لجعل له ربه مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره.

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده، وعظم منفعته، وشدة حاجة العبد إليه في «كتاب الفتح القدسي»(١)، وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة. وبينا أنه من أجلِّ مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله.

وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد، والعائن والساحر، والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له. فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

وهذا من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره. فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه. فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه، حصل الشر.

---

(١) ذكره غير واحد، وهو من كتبه المفقودة.

وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبَّثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً، لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا. فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار، ودام الشر، حتى يهلك أحدهما. فإذا جَبَذ روحه منه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً. فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً.

وهذا باب عظيم النفع لا يُلَقَّاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة، التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها. فوثقت بالله، وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلاً. فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم، وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى على هذا إلا بـ:

السبب السادس: وهو الإقبال على الله، والإخلاص له، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب، والتقرب إليه وتملقه وترضيه، واستعطافه وذكره، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه إليه، الذي قد امتلأت جوانحه من حبه. فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده والبغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه، والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله، وطلب مرضاته. بل إذا مَسه طَيْف من ذلك واجتاز ببابه من خارج، ناداه حرس قلبه: إياك وحِمَى الملك. اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حَلَّ فيها، ونزل بها. ما لَكَ ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليَزَك وأدار عليه الحرس، وأحاطه بالسور، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس: أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]. وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليَزَك، لقد أوى إلى حصن لا خوف على من تحصَّن به. ولا ضيعة على من أوى إليه، ولا مطمع لعدو في الدنو إليه منه و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه. فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال لخير الخلق، وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها. وما ينساه مما علمه أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[1].

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف وأضعاف ما يعلمه. فما سلط عليه مؤذٍ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه. ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها. فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها. فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها والتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه. والله يتولى نصرته وحفظه، والدفع عنه ولا بد. فما أسعده من

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/٤٠٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان»، مجمع الزوائد (١٠/٢٢٣، ٢٢٤)، وانظر: حديث رقم (٤٦٣) من النهج السديد للدوسري.

عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به. وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. فما كل أحد يوفق لهذا؛ لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه. فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد. ولو لم يكن في هذا إلا بتجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به. فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد. وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنَّة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها.

ومن أقوى الأسباب: حسد الحاسد والعائن. فإنه لا يفتر ولا يني، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود. فحينئذٍ يبرد أنينه، وتنطفئ ناره، لا أطفأها الله. فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه. فمن لم يكن له جند ولا عسكر، وله عدو، فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر، والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عَظُم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والبغي والمؤذي بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذىً وشراً وبغياً وحسداً ازددت إليه إحساناً، وله نصيحة، وعليه شفقه. وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦]، وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ[١]: أنه ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يسْلُت الدم عنه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢]. كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟

أحدها: عفوه عنهم. **والثاني**: استغفاره لهم. **والثالث**: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. **والرابع**: استعطافه لهم بإضافتهم إليه. فقال: «اغفر لقومي» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فَهبْه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس، ويَطيبه إليها ويُنْعمها به.

اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة، حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله. فإذا كنت ترجو هذا من ربك، وتحب أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم؟ ليعاملك الله تلك المعاملة. فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك، جزاءً وفاقاً، فانتقم بعد ذلك، أو اعف، وأحسن أو اترك، فكما تَدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره. هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه.

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيئون إليه، فقال: «لا يزال معك من الله ظهير، ما دمت على ذلك»[٣].

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء. وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده. فهو بهذا الإحسان، قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً.

---

(١) في هامش الأصل (٢/٢٤٣): «هذه الجملة ليست في بعض الأصول، ولعل حذفها هو الصواب فإن المعروف أن نبينا ﷺ هو الذي ضربه قومه إلى آخره». اهـ.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٨).

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده مع إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد له، ويذل له، ويبقى من أحب الناس إليه. وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره، إن أقام على إساءته إليه. فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة. والله هو الموفق والمعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنّه وكرمه.

وفي الجملة: ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة. سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها، وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه. فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه. وخرج من قلبه اهتمامه به، واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً، واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمناً بالله فالله يدافع عنه ولا بد. وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه. فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج، مزج له. وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر. وليس له أنفع من

التوجه إلى الله وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه: وُكِل إليه وخُذِل من جهته. فمن خاف شيئاً غير الله سُلِّط عليه. ومن رجا شيئاً سوى الله خُذل من جهته وحُرم خيْره. هذه سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

□ □ □

[أصناف الناس باعتبار إقرارهم بتأثير الحسد]

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة المهمة التي لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه، ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنَّفْث في العُقد.

وقد افترق العالم في هذا المقام أربع فرق:

ففرقة: أنكرت تأثير هذا وهذا، وهم فرقتان:

فرقة: اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، أنكرت تأثيرهما البتة. وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات.

وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية. وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهيكل المحسوس، وصفاته وأعراضه فقط. ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام. وهو قول شذاذ من أهل الكلام الذي ذمهم السلف، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

الفرقة الثانية: أنكرت وجود النفس والإنسانية المفارقة للبدن، وأقرت بوجود الجن والشياطين، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس، أقرت وجود النفس الناطقة المفارقة البدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين. وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها. وهذا قول كثير من الفلاسفة والإسلاميين وغيرهم.

وهؤلاء يقولون: إن ما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهو من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها، بغير واسطة شيطان منفصل. وابن سينا وأتباعه على هذا القول، حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب.

ويقولون: إنما هي من تأثيرات النفس في هيولي العالم.

وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل. ليسوا من أتباع الرسل جملة.

الفرقة الرابعة: وهم أتباع الرسل، وأهل الحق. أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتهما وشرهما، واستعاذوا بالله منه، وعلموا أنه لا يعيذهم منه، ولا يجيرهم إلا الله.

فهؤلاء أهل الحق، ومن عداهم مفرط في الباطل، أو معه باطل وحق. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق(١).

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٢/١٩٨ ـ ٢٤٧).

سُوْرَةُ النَّاسِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

□ □ □

قد تضمنت أيضاً استعاذة، ومستعاذاً به، ومستعاذاً منه.

فالاستعاذة تقدمت.

وأما المستعاذ به: فهو الله: (رب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس)، فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلٰهيته لهم، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان، كما تقدم.

[فائدة الإضافات إلى الناس]

فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث. ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة، فنقول:

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم، وتربيتهم، وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. هذا معنى ربوبيته لهم. وذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك: فهو ملكهم المتصرف فيهم. وهم: عبيده ومماليكه. وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم. فهو ملكهم الحق: الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومَعاذهم وملجأهم. فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلٰهية. فهو إلٰههم الحق، ومعبودهم الذي لا إلٰه لهم سواه ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم، لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلٰههم ومعبودهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكاً في إلٰهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلٰهية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلٰهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه. ولا ملجأ لنا منه إلا إليه. ولا معبود لنا غيره. فلا ينبغي أن يُدْعَى ولا يخاف ولا يرجى، ولا يُحب سواه. ولا يُذَلُّ لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكَّل إلا عليه؛ لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مُربِّيك والقيم بأمورك، ومتولي شأنك وهو ربك، فلا رب سواه. أو تكون مملوكَه وعبدَه الحق. فهو مَلِك الناس حقاً وكلهم عبيده ومماليكه. أو يكون معبودَك وإلٰهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك. وهو الإلٰه الحق إلٰه الناس الذي لا إلٰه لهم سواه.

فمن كان ربهم وملكهم وإلٰههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه. فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم، ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلٰهيته لهم. فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلٰهه؟

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة: من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة، وأشدهم ضرراً، وأبلغهم كيداً.

□ □ □

[فائدة تكرار «الناس» وترتيب هذه الإضافات]

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمر موقعه. فيقول: رب الناس وملكهم وإلٰههم: تحقيقاً لهذا المعنى. وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب.

وأخر الإلٰهية لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إلٰه مَنْ عبده ووحّده واتخذه دون

غيره إلٰهاً، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلٰهه. وإن كان في الحقيقة لا إلٰه له سواه، ولكن المشرك ترك إلٰهه الحق واتخذ إلٰهاً غيره باطلاً.

ووسَّط صفة الملك بين الربوبية والإلٰهية لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته. وكونه إلٰههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلٰهيته ويقتضيها. فهو الرب الحق، الملك الحق، الإلٰه الحق، خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلٰهيته.

فتأمل هذه الجلالة، وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاث على أبدع نظام، وأحسن سياق (رب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس).

□ □ □

[اشتملت الإضافات على قواعد الإيمان]

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى.

أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى: فإن الرب هو القادر الخالق، البارئ المصور، الحي القيوم، العليم السميع البصير، المحسن المنعم، الجواد المعطي المانع، الضار النافع، المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك: فهو الآمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرِّف أمور عباده كما يحب، ويُقَلِّبهم كما يشاء. وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز، الجبار المتكبر، الحكم العدل، الخافض الرافع، المعز المذل، العظيم الجليل الكبير، والحسيب المجيد، الوالي المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإلٰه: فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال. فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح: أن «الله» أصله الإلٰه. كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم. وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، والصفات العلى. فقد تضمنت هذه

الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى، فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه.

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر. وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وأن نسبة باديه إلى الخافي يسير.

□ □ □

[الشر المستعاذ منه في كل من السورتين]

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها. وهو الشر الداخل في الإنسان، الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة.

فسورة الفلق: تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد. وهو شر من خارج.

وسورة الناس: تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه. وهو شر من داخل.

فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه. لأنه ليس من كسبه.

والشر الثاني في سورة الناس: يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي. فهذا شر المعائب، والأول شر المصائب. والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.

فسورة الفلق: تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات. وسورة الناس: تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

□ □ □

[لفظ «الوسواس» ومعناه]

إذا عرف هذا، فالوسواس: فَعْلال من وَسْوَس.

وأصل الوسوسة: الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس، فيحترز منه.

فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

ومن هذا: وسوسة الحلي وهو حركته الخفية في الأذن.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها سميت وسوسة لقربها، وشدة مجاورتها لمحل

الوسوسة من شياطين الإنس، وهو الأذن. فقيل: وسوسة الحلي. لأنه صوت مجاور للأذن، كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في آذان من يوسوس له.

ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس، ويؤكده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة. فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا: ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه، كالدوران، والغليان، والنزوان، وبابه.

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء؛ لأن الزلزلة حركة متكررة. وكذلك الدكدكة، والقلقلة. وكذلك كبكب الشيء: إذا كبه في مكان بعيد، فهو يُكَبُّ فيه كبا بعد كب. كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤]. ومثله رَضْرَضه: إذا كرر رَضَّه مرة بعد مرة. ومثله ذَرْذَره: إذا ذرَه شيئاً بعد شيء. ومثله صَرْصَر الباب: إذا تكرر صريره. ومثله: مَطْمَط الكلام: إذا مططه شيئاً بعد شيء. ومثله: كفكف الشيء: إذا كرر كَفَّه. وهو كثير.

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب. لأن الثلاثي لا يدل على تكرار، بخلاف الرباعي المكرر، فإذا قلت: ذَرّ الشيء وصر الباب، وكفَّ الثوب، ورض الحبَّ: لم يدل على تكرار الفعل، بخلاف ذرذر، وصرصر، ورضرض، ونحوه.

فتأمله. فإنه مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني، وقد تقدم التنبيه على ذلك. فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عَج العجل. إذا صوَّت. فإن تابع صوته، قالوا: عجعج. وكذلك: ثَجَّ الماء. إذ صُبَّ. فإن تكرر ذلك قيل: ثجثج.

والمقصود: أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها، قيل: وسوس.

□ □ □

[«الوسواس» وصف أم مصدر؟]

إذا عرف هذا فاختلف النحاة في لفظ الوسواس: هل هو وصف، أو مصدر؟ على قولين. ونحن نذكر حجة كل قول، ثم نبين الصحيح من القولين بعون الله وفضله.

فأما من ذهب إلى أنه مصدر فاحتج بأن الفعل منه فَعْلل، والوصف من فعلل إنما

هو مُفعلَل، كمدحرَج، ومُسرهف، ومبيطر، ومسيطر. وكذلك هو من فعل بوزن مَفْعَل، كمقطع، ومخرج، وبابه، فلو كان الوسواس صفة لقيل: موسوس. ألا ترى أن اسم الفاعل من زلزل: مُزلزِل، لا زلزال. وكذلك من دكدك: مدكدك، وهو مطرد. فدل على أن الوسواس مصدر وصف به على وجه المبالغة. أو يكون على حذف مضاف، تقديره: ذو الوسواس.

قالوا: والدليل عليه أيضاً قول الشاعر:

تسمع للحلي بها وسواساً

فهذا مصدر بمعنى الوسوسة سواء.

قال أصحاب القول الآخر: الدليل على أنه وصف: أن فعلل ضربان:

أحدهما: صحيح لا تكرار فيه، كدحرج، وسرهف، وبيطر. وقياس مصدر هذا الفَعْلَلة. وكالدحرجة والسَّرْهفة، والبيطرة، والفِعْلان ـ بكسر الفاء ـ كالسِّرهاف والدحراج. والوصف منه: مفعلل كمدحرج ومبيطر.

والثاني: فَعّل الثنائي المكرر كزلزلٍ، ودكدك ووسوس. وهذا فرع على فعلل المجرد عن التكرار، لأن الأصل السلامة من التكرار، ومصدر هذا النوع والوصف منه: مساوٍ لمصدر الأول، ووصفه. فمصدره يأتي على الفَعْللة، كالوسوسة، والزلزلة، والفِعْلال كالزلزال.

وأقيس المصدرين وأولاهما بنوعي فعلل: الفعلال. لأمرين:

أحدهما: أن فعلل مشاكل لأفعل في عدد الحروف وفتح الأول والثالث والرابع وسكون الثاني. فجعل إفعال مصدر أفعال، وفعلال مصدر فعلل ليتشاكل المصدران، كما يتشاكل الفعلان، فكان الفعلان أولى بهذا الوزن من الفعللة.

والثاني: أن أصل المصدر أن يخالف وزنه وزن فعله، ومخالفة فعلال لفعلل أشد من مخالفة فعللة له. فكان فعلال أحق بالمصدرية من فعللة، أو تساويا في الاطراد، مع أن فعللة أرجح في الاستعمال وأكثر. هذا هو الأصل.

وقد جاؤوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء.

فقالوا: وسوس الشيطان وَسواساً، ووعوع الكلب وَعواعاً، إذا عوى، وعظعظ السهم[1] عظعاظاً. والجاري على القياس فعلال بكسر الفاء أو فعللة، وهذا المفتوح

(١) في القاموس: عظعظ السهم، وعظعظه عظعاظاً بالكسر: ارتعش في مضيه والْتوى.

نادر؛ لأن الرباعي الصحيح أصل للمتكرر ولم يأت مصدر الصحيح، مع كونه أصلاً، إلا على فعللة وفعلال بالكسر، فلم يحسن بالرباعي، المكرر، لفرعيته، أن يكون مصدره إلا كذلك؛ لأن الفرع لا يخالف أصله، بل يحتذي فيه حذوه، وهذا يقتضي أن لا يكون مصدره على فعلال بالفتح. فإن شذ حُفظ ولم يزد عليه.

قالوا: وأيضاً فإن فعلالاً المفتوح الفاء قد كثر وقوعه صفة مصوغة من فعلل المكرر، ليكون فيه نظير فِعال من الثلاثي. لأنهما متشاركان وزناً، فاقتضى ذلك أن لا يكون لفعلال من المصدرية نصيب، كما لم يكن لفعال فيها نصيب. فلذلك استندروا وقوع وسواس، ووعواع، وعظعاظ مصادر. وإنما حقها أن تكون صفات دالة على المبالغة في مصادر هذه الأفعال.

قالوا: وإذا ثبت هذا؛ فحق ما وقع منها محتملاً للمصدرية والوصفية أن يحمل على الوصفية حملاً على الأكثر الغالب، وتجنباً للشاذ.

فمن زعم أن الوسواس مصدر مضاف إليه «ذو» تقديراً. فقوله خارج عن القياس والاستعمال الغالب.

ويدل على فساد ما ذهب إليه أمران:

أحدهما: أن كل مصدر أضيف إليه «ذو» تقديراً، فتجرده للمصدرية أكثر من الوصف به، كرضا وصوم وفِطْر، وفعلال المفتوح لم يثبت تجرده للمصدرية إلا في ثلاثة ألفاظ فقط: وسواس، ووعواع، وعظعاظ، على أن منع المصدرية في هذا ممكن؛ لأن غاية ما يمكن أن يستدل به على المصدرية قولهم: وسوس إليه الشيطان وسواساً. وهذا لا يتعين للمصدرية، لاحتمال أن يراد به الوصفية وينتصب وسواساً على الحال، ويكون حالاً مؤكدة. فإن الحال قد يؤكد بها عاملها الموافق لها لفظاً ومعنى، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]، و﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].

نعم، إنما تتعين مصدرية الوسواس، إذ سمع: أعوذ بالله من وسواس الشيطان، ونحو ذلك مما يكون الوسواس فيه مضافاً إلى فاعله، كما سمع ذلك في الوسوسة. ولكن أين لكم ذلك؟ فهاتوا شاهده. فبذلك يتعين أن يكون الوسواس مصدراً لا بانتصابه بعد الفعل.

الوجه الثاني: من دليل فساد من زعم أن «وسواساً» مصدر مضاف إليه «ذو» تقديراً: أن المصدر المضاف إليه «ذو» تقديراً لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع، بل يلزم

طريقة واحدة، ليعلم أصالته في المصدرية، وأنه عارض الوصفية فيقال: امرأة صوم، وامرأتان صوم، ونساء صوم؛ لأن المعنى ذات صوم وذاتا صوم، وذوات صوم، وفعلال الموصوف به ليس كذلك بل يثنى ويجمع ويؤنث فنقول: رجل ثرثار، وامرأة ثرثارة، ورجال ثرثارون، وفي الحديث: «أبغضكم إليَّ الثرثارون المتفيهقون»(١) وقالوا: ريح رفرافة، أي: تحرك الأشجار، وريح سفسافة، أي: تنخل التراب، ودرع فضفاضة، أي: متسعة، والفعل من ذلك كله فعلل، والمصدر فَعللة وفِعلال بالكسر، ولم ينقل في شيء من ذلك فعلال بالفتح وكذلك قالوا: تمتام وفأفاء، ولضلاض، أي: ماهر في الدلالة، وفَجفاج كثير الكلام، وهَرهار، أي: ضحاك، وكهكاه، ووطواط أي: ضعيف، وحشحاش، وعسعاس أي: خفيف، وهو كثير ومصدره كله الفعللة، والوصف فعلال بالفتح، ومثله هفهاف، أي: خميص، ومثله دحداح، أي: قصير، ومثله: بجباج أي: جسيم، وتختاخ: أي: ألْكَن، وشَمْشام: أي: سريع، وشيء خشخاش، أي: مصوت، وقعقاع مثله، وأسد قَضْقاض: أي: كاسر، وحَيَّة نَضْناض: تحرك لسانها.

فقد رأيت فعلال في هذا كله وصفاً لا مصدراً، فما بال الوسواس أخرج عن نظائره وقياس بابه؟

فثبت أن وسواساً وصف لا مصدر، كثرثار، وتمتام، ودحداح، وبابه.

ويدل عليه وجه آخر: وهو أنه وصفه بما يستحيل أن يكون مصدراً، بل هو متعين في الوصفية، وهو ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ فالوسواس، والخناس: وصفان لموصوف محذوف، وهو الشيطان.

وحسَّن حذف الموصوف هاهنا غلبة الوصف، حتى صار كالعلم عليه. والموصوف إنما يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركاً، فيقع اللبس كالطويل والقبيح، والحسن ونحوه، فيتعين ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره.

فأما إذا غلب الوصف واختص، ولم يعرض فيه اشتراك، فإنه يجري مجرى الاسم، ويحسن حذف الموصوف: كالمسلم والكافر، والبر والفاجر، والقاصي والداني، والشاهد والوالي، ونحو ذلك. فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره.

---

(١) رواه الترمذي (الصحيح) (٢/ ١٩٦) في البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، وانظر: الصحيحة، حديث رقم (٧٩١).

وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل.

ومما يدل على أن الوسواس وصف لا مصدر: أن الوصفية أغلب على فعلال من المصدرية كما تقدم. فلو أريد المصدر لأتي بذو المضافة إليه ليزول اللبس وتتعين المصدرية. فإن اللفظ إذا احتمل الأمرين على السواء فلا بد من قرينة تدل على تعيين أحدهما، فكيف والوصفية أغلب عليه من المصدرية؟

وهذا بخلاف صوم وفطر وبابهما، فإنها مصادر لا تلتبس بالأوصاف. فإذا جرت أوصاف عُلم أنها على حذف مضاف، أو تنزيلاً للمصدر منزلة الوصف، مبالغة، على الطريقتين في ذلك.

فتعين أن «الوسواس» هو الشيطان نفسه، وأنه ذات لا مصدر، والله أعلم.

□ □ □

[معنى «الخناس»]

وأما الخناس: فهو فعَّال، من خنس يخنس، إذا توارى واختفى.

ومنه قول أبي هريرة: لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جنب، فانخنست منه[1].

وحقيقة اللفظ: اختفاء بعد ظهور. فليست لمجرد الاختفاء، ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وكذلك قال علي ﷺ: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى.

وقالت طائفة: الخنَّس: هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق، وهي السبعة السيارة.

قالوا: وأصل الخنوس: الرجوع إلى وراء. و«الخناس» مأخوذ من هذين المعنيين. فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به، انخنس وانقبض، كما ينخنس الشيء ليتوارى. وذلك الانخناس والانقباض: هو أيضاً تجمُّع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١).

وخنس وانخنس: يدل على الأمرين معاً. قال قتادة: الخناس: له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس. ويقال: رأسه كرأس الحية وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يُمَنِّيه ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس. وإذا لم يذكره عاد، ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه.

وجيء من هذا الفعل بوزن فعَّال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس: إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه، وعظم نفوره عند ذكر الله. وأن ذلك دأبه وديدنه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر. فإن ذكر الله هو مقمعته التي يُقْمع بها، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعِصّي ونحوها. فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه، كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مُضنًى، مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: أن المؤمن يُنضي شيطانه كما يُنضي الرجل بعيره في السفر؛ لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر، والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد، ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً.

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء «الوسواس» مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء «الخناس» على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل؛ لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة. فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنيهما.

□ □ □

[الصدر مكان الوسوسة]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانياً، وأنها في صدور الناس ثالثاً.

وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حُيِّيٍّ قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت، فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار. فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رِسلكما، إنها صفية بنت حيي». فقالا: سبحان الله يا رسول الله! فقال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً» أو قال: «شيئاً»(١).

وفي الصحيح أيضاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضى أقبل، فإذا ثُوّب بها أدبر، فإذا قضى أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكر كذا واذكر كذا ـ لما لم يكن يذكر ـ حتى لا يدري: أثلاثاً صلى أم أربعاً؟ فإذا لم يدر: أثلاثاً صلى أم أربعاً؟ سجد سجدتي السهو»(٢).

ومن وسوسته: ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله وَلْيَنْتَهِ»(٣).

وفي الصحيح: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخِرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلم به، قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»(٤).

ومن وسوسته أيضاً: أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩م).

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) لعله يقصد بقوله: «وفي الصحيح»، أي: الحديث الصحيح، وإلا فلم أجده في أحد الصحيحين، وهو حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٢٣٥ ـ ٢٤٠)، ورواه أبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٦٢، ٩٦٣) في الأدب، باب: في رد الوسوسة، كلاهما عن ابن عباس ﷺ، وانظر: ظلال الجنة، للألباني (١/ ٢٩٦).

يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه. قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

□ □ □

[الاستعاذة من «الوسواس» لا من شره فقط]

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: من شر وسوسته: لتعم الاستعاذة شره جميعه. فإن قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً، وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً. وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة.

فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويُخطر الذنبَ بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله، حتى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها قط، وينسى ما وراء ذلك. فتصير الإرادة عزيمة جازمة. فيشتد الحرص عليها من القلب.. فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حَرَّكهم. وإن وَنُوا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزَّتهم وأثارتهم. فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة. وقد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم. وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم، فلا بتلك النخوة والكبر ولا[1] برضاه أن يصير قواداً لكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة ... وصار قواداً لذريته

فأصل كل معصية وبلاء: إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً.

□ □ □

(١) في هامش الأصل (بدائع الفوائد) (٢/٢٥٨): «الظاهر الذي يقتضيه المعنى: فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله».اهـ.

[نماذج من شرور الشيطان]

فمن شره: أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف، وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم. فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به. فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته. فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساعٍ في إذاعته وفضيحته، وقلَّ من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره: أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة، كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ـ إذا هو نام ـ ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليلٌ طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضأ انحلّت عقدة، فإن صلى انحلّت عقده كلها. فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[(١)].

ومن شره: أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»، أو قال: «في أذنه»[(٢)]، رواه البخاري.

ومن شره: أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثَبَّطه فيه وعَوَّقه وشوَّش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قَيَّض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

(٢) رواه البخاري (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤).

ويكفي من شره: أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم. وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

ولقد بلغ شره: أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شُرْطة للنار، من كل ألف: تسعمائة وتسعة وتسعين، ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يُعَبد هو من دون الله، فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله، وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض.

ويكفي من شره: أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمٰن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله كيده عليه، وجعل النار على خليله برداً وسلاماً.

وتصدى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه، فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعه إليه.

وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا.

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض، ودعوى أنه ربهم الأعلى.

وتصدى للنبي ﷺ وظاهَر الكفار على قتله بجهده، والله تعالى يُكْبته ويرده خاسئاً.

وتفلَّت على النبي ﷺ بشهاب من نار، يريد أن يرميه به، وهو في الصلاة، فجعل النبي ﷺ يقول: «ألعنك بلعنة الله»[1].

وأعان اليهود على سحرهم للنبي ﷺ.

فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر، فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته؟.

□ □ □

[مراتب شرور الشيطان]

ولا يمكن حصر أجناس شره، فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر:

(١) رواه مسلم (٥٤٢).

الشر الأول: شر الكفر والشرك، ومعاداة الله ورسوله. فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صَيَّره من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونُوَّابه، فإن يئس منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى:

المرتبة الثانية: من الشر، وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه[1] وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها صار أيضاً نائبه، وداعياً من دعاته.

فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة، ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى:

المرتبة الثالثة: من الشر، وهي: الكبائر على اختلاف أنواعها. فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً، فهو حريص على ذلك، لينفر الناس عنه، ثم يشيع ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها، لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه. كل ذلك لينفر الناس عنه، وعن الانتفاع به.

وذنوب هذا ـ ولو بلغت عنان السماء ـ هي أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه، إذا استغفر الله وتاب إليه قَبِل الله توبته، وبَدَّل سيئاته حسنات.

وأما ذنوب أولئك: فظلم للمؤمنين، وتتبع لعوراتهم، وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفى عليه كمائنُ الصدور، ودسائس النفوس.

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «إياكم ومُحقَّرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من

---

(١) لأن صاحبه لا يشعر بأنه مذنب حتى يتوب [الشامي].

الأرض»[1]، وذكر حديثاً معناه: أن كل واحد منهم جاء بعود حطب، حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا.

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى:

المرتبة السادسة: وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل: فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه.

وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة. فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الداعي من الله.

وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفَوِّت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل.

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله، ولكتابه، ولعباده المؤمنين، خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة، وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا

---

(١) حديث صحيح، وتتمته: «كقوم نزلوا في بطن وادٍ فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه..»، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٣١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، والطبراني في الكبير (٥/ ١٦٥، ١٦٦)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٠): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح...»، وانظر: الصحيحة رقم (٣٨٩).

يخطر ذلك بقلوبهم، والله يَمُنُّ بفضله على من يشاء من عباده.

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعييَ عليه: سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع، والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفاءه ليشوش عليه قلبه، ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، لا يفتر ولا يَني، فحينئذ يلبس المؤمن لأمَةَ الحرب، ولا يضعُها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِر أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصل، وتدبر موقعه، وعظيم منفعته، واجعله ميزانك تَزِن به الناس، وتزن به الأعمال، فإنه يُطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق، والله المستعان، وعليه التكلان.

ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعاً لمن تدبره ووعاه.

□ □ □

[لماذا «الصدور» وليس «القلوب»؟]

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: في قلوبهم، والصدر: وهو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته، فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو موسوس في الصدر، ووسوسته واصلة إلى القلب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، ولم يقل: «فيه» لأن المعنى: أنه ألقى إليه ذلك، وأوصله إليه، فدخل في قلبه.

□ □ □

[بيان مُتَعَلَّق من ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾]

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور: بم يتعلق؟.

فقال الفراء وجماعة: هو بيان الناس الموسوَس في صدورهم، والمعنى:

يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي: الموسوس في صدورهم قسمان: إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجني، كما يوسوس للإنسي.

وعلى هذا القول: فيكون ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ نصب على الحال؛ لأنه مجرور بعد معرفة، على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين: نصب بالخروج من المعرفة، هذه عبارتهم ومعناها: أنه لما لم يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة انقطع عنها، فكان موضعه نصباً.

والبصريون يقدرونه حالاً، أي: كائنين من الجنة والناس، وهذا القول ضعيف جداً، لوجوه:

أحدها: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه، كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي، فأي دليل يدل على هذا، حتى يصح حمل الآية عليه؟.

الثاني: أنه فاسد من جهة اللفظ أيضاً، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، فكيف يبين الناس بالناس، فإن معنى الكلام على قوله: يوسوس في صدور الناس الذين هم، أو كائنين، من الجنة والناس، أفيجوز أن يقال: في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم؟ هذا ما لا يجوز، ولا هو في الاستعمال فصيح.

الثالث: أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين: جنة، وناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه، لا أصلاً ولا اشتقاقاً ولا استعمالاً، ولفظهما يأبى ذلك، فإن الجن إنما سمّوا جِنّاً من الاجتنان، وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جِنّاً لذلك، من قولهم: جَنَّه الليل وأجَنَّه: إذا ستره، وأجن الميت: إذا ستره في الأرض قال:

ولا تبك ميتاً بعد ميت أجنه ... علي وعباس وآل أبي بكر

يريد النبي ﷺ، ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، ومنه المجن: لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجنة: لاستتار داخلها بالأشجار. ومنه الجنة ـ بالضم ـ لما يقي الإنسان من السهام والسلاح، ومنه المجنون: لاستتار عقله.

□ □ □

[اشتقاق كلمة: الناس]

وأما ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط، وهو عقد[١] تقاليب الكلمة على معنى واحد.

والإنس والإنسان: مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: رآها، ومنه: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي: أحسستموه ورأيتموه.

فالإنسان سمي إنساناً؛ لأنه يونَس، أي: بالعين يُرَى، والناس فيه قولان:

أحدهما: أنه مقلوب من أنس، وهو بعيد، والأصل عدم القلب.

والثاني: وهو الصحيح، أنه من النوس، وهو الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارث وهمام، وهما أصدق الأسماء كما قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء: حارث وهمام»[٢]؛ لأن كل أحد له هم وإرادة، هي مبدأ، وحرث وعمل، هو منتهى، فكل أحد حارث وهمام، والحرث والهم: حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة النَّوس.

وأصل ناس: نوس، تحركت الواو، وقبلها: فتحة، فصارت ألفاً، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق «الناس».

وأما قول بعضهم: إنه من النسيان، وسمي الإنسان إنساناً لنسيانه. وكذلك الناس سموا ناساً لنسيانهم، فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان، الذي مادته: «ن س ي» إلى الناس الذي مادته «ن و س»؟ وكذلك أين هو من الأنس الذي مادته (أ ن س)؟.

وأما إنسان فهو فعلان من (أ ن س)، والألف والنون في آخره زائدتان، لا يجوز فيه غير هذا البتة، إذ ليس في كلامهم: أنسن، حتى يكون إنساناً إفعالاً منه، ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين، إذ ليس في كلامهم: انفعل، فيتعين أنه فعلان من الأنس.

ولو كان مشتقاً من نسي لكان نسياناً لا إنساناً.

---

(١) في هامش «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٤)، «معناه: رجوع تقاليب الكلمة، أي: تصرفاتها إلى معنى واحد».

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٣٥) في الأدب، باب: تغير الأسماء، وانظر: تخريجه مفصلاً في الصحيحة رقم (١٠٤٠).

فإن قلت: فهلَّا جعلته إفعلالاً، وأصله إنسيان، كليلة إضحيان، ثم حذفت الياء تخفيفاً فصار إنساناً؟

قلت: يأبى ذلك عدم إفعلال في كلامهم، وحذف الياء بغير سبب، ودعوى ما لا نظير له، وذلك كله فاسد، على أن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ قد قيل: إن أصله الأناس، فحذفت الهمزة. فقيل: الناس واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا

ولا ريب أن ناساً فعال، ولا يجوز فيه غير ذلك البتة. فإن كان أصل ناس أناساً، فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس، ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق.

ويكون وزن ناس ـ على هذا القول ـ: عالٍ؛ لأن المحذوف فاؤه.

وعلى القول الأول: يكون وزنه: فعل؛ لأنه من النوس.

وعلى القول الضعيف: يكون وزنه: فلع؛ لأنه من نسي، فنقلت لامه إلى موضع العين، فصار ناساً وزنه فلعاً.

والمقصود: أن «الناس» اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم فلا يصح أن يكون ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بياناً لقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ وهذا واضح لا خفاء فيه.

فإن قيل: لا محذور في ذلك، فقد أطلق على الجن اسم الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم: الناس؟

قلت: هذا هو الذي غَرَّ من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية.

وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعاً مقيداً في مقابلة ذكر الرجال من الإنس، ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقاً.

وأنت إذا قلت: إنسان من حجارة، أو رجل من خشب، ونحو ذلك: لم يلزم من ذلك: وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضاً فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس، وذلك لأن الناس والجنة متقابلان، وكذلك الإنس والجن، فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الرحمٰن ٣٣]، وهو كثير في القرآن، وكذلك قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ يقتضي أنهما متقابلان، فلا يدخل أحدهما في

الآخر، بخلاف الرجال والجن، فإنهما لم يستعملا متقابلين، فلا يقال: الجن والرجال، كما يقال: الجن والإنس.

وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ «الناس»؛ لأنه قابل بين الجِنة والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر.

[الموسوس نوعان: إنس وجن]

فالصواب: أن القول الثاني: وهو أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، وأنهم نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس في صدور الإنس.

فالموسوس نوعان: إنس وجن فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب. وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي وسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة؛ لأنه يدخل في ابن آدم، ويجري منه مجرى الدم، على أن الجني قد يتمثل له، ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي، كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تحدث في العنان ـ والعنان الغمام ـ بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[1].

فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة: اشتراكهما في الوحي الشيطاني. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله، ويوحيه الإنسي إلى إنسي مثله. فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني، ويشتركان في الوسوسة.

وعلى هذا: تزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول، وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين: شياطين الإنس، وشياطين الجن.

وعلى القول الأول: إنما تكون استعاذة من شر شياطين الجن فقط، فتأمله فإنه بديع جداً.

---

(١) رواه البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨).

فهذا ما منّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز والحمد لله رب العالمين، ونختم الكلام على السورتين بذكر:

* قاعدة نافعة *

فيما يعتصم به العبد من الشيطان، ويستدفع به شره، ويحترز به منه، وذلك عشرة أسباب:

أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقد تقدم: أن السمع المراد به هاهنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام.

وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة «هو» الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة ﴿حمٓ﴾؛ لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف[1]، لاستغناء المقام عنه. فإن الأمر بالاستعاذة في سورة ﴿حمٓ﴾ وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس. وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون، ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذُلٌّ وعجزٌ، ويسلِّط عليه عدوه، فيدعوه إلى الانتقام، ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه ولا يحسن، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثرَ الله وما عنده على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض، فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وأما في سورة الأعراف: فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس، غير مستعصٍ عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين، وبين قوله في ﴿حمٓ﴾ المؤمن: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبَّان، فأحدهما احمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد»(١).

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين، فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تعوّذ المتعوّذون بمثلهما»، وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة.

وتقدم قوله ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي، وثلاثاً حين يصبح، كفته من كل شيء».

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ... فذكر الحديث، إلى أن قال: فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كَذوب، ذاك الشيطان»(٢).

وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان، واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده.

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة، ففي الصحيح من حديث سهل بن عبد الله عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).
(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (٧٧٤م).
(٣) هذه رواية الترمذي (٥/ ١٤٥) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة... وقال: «حسن صحيح»، ورواه مسلم (٢/ ٤٣٧) في صلاة المسافرين، باب: استحباب صلاة النافلة في البيت.

الحرز الخامس: خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[(١)].

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان»[(٢)].

الحرز السادس: أول سورة ﴿حمٓ﴾ المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] مع آية الكرسي، ففي الترمذي من حديث عبد الرحمٰن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زُرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح»[(٣)] وعبد الرحمٰن المليكي، وإن كان قد تُكُلِّم فيه من قبل حفظه، فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة.

ففي الصحيحين من حديث سُمَي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير. مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»[(٤)]، فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧، ٨٠٨).

(٢) سنن الترمذي (الصحيح) (٣/ ٤) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في آخر سورة البقرة، ورواه الحاكم (١/ ٥٦٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) ضعيف، رواه الترمذي (٥/ ١٤٥) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة... وقال: «حديث غريب»، ورواه الدارمي أيضاً من طريق «ابن أبي بكر المليكي» (٢/ ٣٢٣)، وانظر: التهذيب (٦/ ١٤٦).

(٤) رواه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان: كثرة ذكر الله ﷻ.

ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ، وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم، وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»، قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قِيْد شبر، فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثاء جهنم»، فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»(١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإنه

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٣٦) في الأمثال، باب: ما جاء في مثل الصلاة...، وقال: «حسن صحيح غريب»، وانظر: «السنة» (٢/ ٤٩٦).

وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس، وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله ﷻ.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ من أحسَّ بشيء من ذلك فليلصق بالأرض»(١).

وفي أثر آخر: «إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء»(٢)، فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

□ □ □

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس. فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم، وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة؛ فإن

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤١٩، ٤٢٠) في الفتن، باب: ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه... وقال: «حسن صحيح»، وفي سنده «علي بن زيد بن جدعان..»، ضعيف، كما في التقريب، وقال صاحب تحفة الأحوذي: «صدوق عند الترمذي» (٦/ ٤٣٢)، ورواه الحاكم (٤/ ٥٠٥، ٥٠٦)، وقال: «هذا حديث تفرد بهذه السياقة علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة، والشيخان ﷺ لم يحتجا بعلي بن زيد»، وقال الذهبي: «صالح الحديث»، ورواه ابن ماجه مختصراً حديث رقم (٤٠٠٠)، وهو عند مسلم من طريق شعبة عن أبي مسلمة عن أبي نضرة (٥/ ٥٨٢) في الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة... والله أعلم.

(٢) رواه أبو داود (١٣/ ١٤١) في الأدب، باب: ما يقال عند الغضب، عن أبي وائل القاص عن عروة بن محمد بن عطية السعدي عن أبيه عن جده عطية بن السعدي، وهو صحابي معروف، الإصابة (٧/ ١٤) وعروة بن محمد، والي اليمن كان من خيار الناس، قال الحافظ: «مقبول»، التقريب (٢/ ١٩)، ومحمد بن عطية: «صدوق»، التقريب (٢/ ١٩١)، وذكرهما ابن حبان في الثقات (٧/ ٢٨٧) و(٥/ ٣٥٩)، ورواه الإمام أحمد (٤/ ٢٢٦)، وسكت عليه الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٨٣) الأدب، باب: ما ينهى عن السباب، وحسنه محقق جامع الأصول (٨/ ٤٣٩)، وانظر: هامش رقم (١) (١/ ٤٥٠) من شرح السنة، و(١٣/ ١٦١).

فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غَضَّ بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»[١]، أو كما قال ﷺ.

فالحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة؟ كما قال الشاعر:

كلُّ الحوادثِ مَبداها من النظر ... ومُعظمُ النارِ من مُسْتَصْغَرِ الشرر
كم نظرةٍ فتكتْ في قلب صاحبها ... فَتْكَ السهامِ بلا قوسٍ وَلَا وَتَرِ؟

وقال الآخر:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتْك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كُلَّه أنت قادرٌ ... عليه، ولا عن بعضِه أنتَ صابِرُ

وقال المتنبي:

وأنا الذي جلب المنيةَ طرفُه ... فمن المطالَبُ، والقتيلُ القاتلُ؟

ولي من أبيات:

يا رامياً بسهامِ اللَّحْظِ مجتهداً ... أنت القتيلُ بما ترمي، فلا تُصِبِ
وباعثَ الطرفِ يَرتادُ الشفاءَ له ... تَوقَّه، إنه يرتَدُّ بالعَطَبِ
ترجو الشفاءَ بأحداقٍ بها مرضٌ ... هل سمعتَ بِبُرْءٍ جاءَ مِنْ عَطَبِ؟
ومفنياً نفسَهُ في إثْر أقبحِهم ... وصفاً لِلَطْخِ جمالٍ فيه مُسْتَلبِ
وواهباً عمرَهُ في مثل ذا سفَهاً ... لو كنتَ تعرفُ قدرَ العمرِ لم تهبِ
وبائعاً طِيبَ عيشٍ ما له خطرٌ ... بطَيْفِ عَيْشٍ من الآلام مُنتهَبِ
غُبِنْتَ واللهِ غَبناً فاحشاً فلو اسـ ... ـترجعتَ ذا العقدَ لم تُغْبَنْ ولم تَخِبِ
وواردًا صَفْوَ عيشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ ... أمامَك الوِرْدُ صفواً ليس بالكذبِ
وحاطبُ الليلِ في الظلماءِ منتصباً ... لكلِّ داهيةٍ تُدني من العَطَبِ
شابَ الصبا والتصابي بعد لم يَشب ... وضاعَ وقتُك بين اللهو واللعبِ

---

(١) ضعيف، ويقصد هنا بالمسند «مسند الشهاب» للقضاعي (١/ ١٩٥)، ورواه الحاكم (٤/ ٣١٣، ٣١٤) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه»، وانظر: السلسلة الضعيفة رقم (١٠٦٥).

وشمسُ عمرِك قد حان الغروبُ لها والضّيُ في الأفق الشرقي لم يَغِبِ
وفاز بالوصلِ مَنْ قد فاز وانقشعتْ عن أفقه ظلماتُ الليلِ والسحبِ
كم ذا التخلفُ والدنيا قد ارتحلتْ ورسْلُ ربك قد وافتْكَ في الطلبِ
ما في الديارِ وقد سارتْ ركائب مَنْ تهواه للصب من سكنى ولا أربِ
فافرش الخدّ ذياك التراب، وقل ما قاله صاحبُ الأشواق في الحقبِ
ما رَبْعُ مَيّةَ محفوفاً يطوف به غيلان أشهى له من ربعِك الخربِ
ولا الخدودُ وإن أدمين من ضَرَج(١) أشهى إلى ناظري مِن خَدّك التَّرِبِ
منازلاً كان يهواها ويألفها أيام كان منالُ الوصلِ عن كَثَبِ
فكُلَّما جليت تلك الربوعُ له يهوي إليها هوي الماء في صَبَبِ
أحيا له الشوقُ تذكارَ العهودِ بها فلو دعا القلبُ للسلوانِ لم يُجبِ
هذا وكم منزلٍ في الأرض يألفُه وما له في سواها الدهرَ مِن رَغَبِ
ما في الخيامِ أخو وَجْدٍ يريحك إن بَثَثْتَه بعض شأنِ الحبِّ، فاغتربِ
وأسرِ في غمراتِ الليلِ مهتدياً بنفحةِ الطيبِ لا بالنارِ والحَطَبِ
وعاد كُلُّ أخي جُبْنٍ ومعجزةٍ وحاربِ النفسَ لا تلقيك في الحربِ(٢)
وخذْ لنفسك نوراً تستضيء به يومَ اقتسام الورىٰ الأنوارَ بالرتبِ
فالجسرُ ذو ظلمات ليس يقطعُه إلا بنورٍ يُنجي العَبْدَ في الكُرَبِ

□ □ □

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء.

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»(٣). وفي الترمذي: أن رجلاً من الأنصار تُوفّي، قال بعض

(١) أي: من «احمرار».

(٢) قال ابن الأثير في النهاية (١/٣٥٨): «الحرب بالتحريك: نهبُ مالِ الإنسان وتركهُ لا شيء له..»، والمعنى: حارب نفسك لئلا تسلبك الفضيلة وتوقعك في الخسران بتضييع أوقاتك وعمرك وهي رأس مالك.

(٣) صحيح، رواه الترمذي (الصحيح) (٢/٣٢٨) في الإيمان، باب: حرمة الصلاة، وابن ماجه (الصحيح) (٢/٣٥٨) في الفتن، باب: كف اللسان...، وانظر: الإرواء، رقم (٤١٣).

الصحابة: طوبى له، فقال النبي ﷺ: «فما يدريك؟ فلعله تكلم بما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»[١].

وأكثر المعاصي: إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان، ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام.

وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات.

وكان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، كانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

وأما فضول الطعام: فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شراً، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام؟ وكم من طاعة حال دونها؟

فمن وقي شر بطنه فقد وقي شراً عظيماً.

والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام، وهذا جاء في بعض الآثار: «ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم»[٢]. وقال النبي ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن»[٣].

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ﷻ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده، وَمَنَّاه وشهَّاه، وهام به في كل وادٍ، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت، وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

□ □ □

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٨٣) في الزهد، باب: (١١)، وقال: غريب، أي: ضعيف.

(٢) هذه زيادة يذكرها البعض من حديث صحيح أوله: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. . .»، قال العراقي في الإحياء (٣/ ٧٩): «مرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة أيضاً»، مكايد الشيطان، قال العلامة الألباني: زيادة «فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم» لا أصل لها في شيء من كتب السنة، التي وقفت عليها، وإنما هي في «كتاب الإحياء» فقط «حقيقة الصيام»، ص(٧٥)، والسلسلة الضعيفة (٣/ ٧٩)، حديث رقم (١٠١٤).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٥٠٩) في الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (الصحيح) رقم (٢٧٠٤)، ورواه الحاكم (٤/ ١٢١)، وصححه الذهبي.

وأما فضول المخالطة: فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة.

ويجعل الناس فيها أربعة أقسام: متى خلط أحد الأقسام بالآخر، ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خلطه. هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره، مكايد عدوه، وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال، والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما. فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت، فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض، ويذكر عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله، وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة، أو كما قال.

بالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح، فعرضية ولازمة، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق، وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين.

وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين.

وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا، قالوا: أنت من الملبسين.

وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين، وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم: التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقال آخر:

وقد زادني حباً لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء

العالم، وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق وسد على نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء، فعند الممات يحمد القوم التقي، وفي الصباح يحمد القوم السري.

والله الموفق، ولا رب غيره، ولا إله سواه[(١)(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٧ ـ ٢٧٦).

(٢) تم ولله ربي الحمد والمنة، حمداً لله رب العالمين وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وبعد. . . فقد تم بحول الله تعالى وتوفيقه وعونه وحمده ما يسره سبحانه من جمع لمتفرق ما فسره شيخ الإسلام العلامة المحقق المدقق اللغوي العارف بالله الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي، ابن قيم الجوزية ﷺ، من كلام رب الأنام صاحب النعم العظام والآيات الباهرات المعجزات.
وكانت بداية الجمع والعمل من الشهر الحادي عشر من عام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين ميلادية، والانتهاء بفضل الخالق الوهاب الرازق بغير حساب في أول رمضان المعظم من عام (١٤١٣) هجرية الموافق الاثنين (٢٢/ ٢/ ١٩٩٣).
وجامعه عبد الله الفقير/ يسري السيد محمد أحمد علي أبو فاطمة حفظها الله تعالى، فإن وفقت فبفضل الله ربي وحده تعالى ـ وإن أخطأت ـ ولا شك ـ فمن نفسي وحدها نعوذ بالله من شرها.
وعلى كل حال أسأل الله تعالى، أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم لا شريك له، وأن يجعله في ميزان حسناتي مثقلاً مصحوباً بالمغفرة لي ولوالدي ولأهل بيتي وللمؤمنين، آمين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

۞ سورة الحديد ۞

۞ سورة المجادلة ۞

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة